الحدود الإسلامية البيزنطية
بين الاحتكاك الحربي والاتصال الحضاري

الكتاب الثالث
في الاتصال الحضاري

تأليف
فتحي عثمان

دار الكاتب العربي للطباعة والنشر
بالقاهرة

الحدود الإسلامية البيزنطية

بين الاحتكاك الحربي والاتصال الحضاري

الكتاب الثالث

في الاتصال الحضاري

تأليف

فتحي عثمان

دار الكاتب العربي للطباعة والنشر

بالقاهرة

الحدود الإسلامية البيزنطية

بين الاحتكاك الحربي والاتصال الحضاري

الحدود الإسلامية البيزنطية
بين الاحتكاك الحربي والاتصال الحضاري

الكتاب الثالث
في الاتصال الحضاري

تأليف
فتحي عثمان

الناشر
دار الكاتب العربي للطباعة والنشر
بالقاهرة

الفصل السادس

النظم الإدارية والمالية

أولا ـ النظم الادارية :

فى الثغور الاسلامية (مع المقارنة بادارة البنوذ البيزنطية)

(أ) انشاء المدن واسكانها

(ب) التقسيم الادارى : فى الدولة الاسلامية عموما ، أجناد الشام ، افراد جندين للجزيرة وقنسرين فى العهد الأموى ، افراد الثغور والعواصم فى العهد العباسى

(حـ) الجهاز الادارى : الامارة ، الادارة المحلية ، ولاة قنسرين والعواصم فى اجمال

ثانيا ـ النظم المالية :

فى الثغور الاسلامية (مع المقارنة بالتنظيم المالى للبنود البيزنطية).

(أ) الموارد المالية : الخراج ، الجزية ، موارد أخرى كالعشور والمكوس... الخ

(ب) المصارف المالية : العطاء ، النفقات العسكرية ، نفقات المرافق والخدمات العامة ... الخ

(حـ) الادارة المالية : الديوان ، موظفو الادارة المالية ، تقدير الخراج ، ديوانا الخاتم والزمام ، بيت المال والميزانية ، الادارة المالية فى الحملات العسكرية ، ظهور أمراء الأطراف عن طريق ضمان الجباية

(د) العملة : العملة العربية فى عهد عبد الملك بن مروان ، العملة المحلية فى حلب وقنسرين

(هـ) الاقطاع : فى النظم الاسلامية حتى عهد عمر ، فى الثغور والسواحل فى عهد عثمان ، انتشار الاقطاع فى عهد الأمويين ، بين هذا الاقطاع والاقطاع الأوربى ـ تعميم اقطاع الولايات والتوسع فى الاقطاع الحربى فى عهود متأخرة

أولا : النظم الادارية

فى الدولة البيزنطية :

يسجل جرونيباوم ملامح مشتركة فى طابع الحكـــم فى الدولتين الاسلامية والبيزنطية . « فقد كانت كلتاهما تحت حكم أوتوقراطى مطلق، وكان نفوذ صاحب السلطان مطلقا غير محدود ، وربمــا طولب الموظف المعزول أو المنكوب بتقديم الحساب عن ادارته ، ولكن النظرية الفقهية لم تكن ترى ن هناك أى قيود تحد من سلطة الأمير أو الحاكم اللهم الا ما كان يفرضه عليه أحد الرؤساء عن قصد ، وكان معنى ذلك فى حالتى الخليفة والامبراطور هو الحكم المطلق غير المحـــدود ، . وكان يختلط فى كل من بغداد والقسطنطينية مبدآن لتحديد وراثة العرش فكان الجانب النظرى يؤيد الانتخاب ، على حين كان الواقع المعمول به ينحو نحو الوراثة . على أن النظرية الاسلامية نجحت بتوسيعها فكرة الانتخاب فى ايجاد انسجام بين المبدأين .. وكانت سلامة البدن فى كل من البلدين بين مؤهـــلات العاهل التى لابد منها ، كما أن الأخذ بهذا الشرط أدى فى كل من البلدين الى انزال التشويه بالحكام المخلوعين أو المطالبين بالعرش أو المخفقين فى الوصول اليه .. » (١) وكان الطابع الدينى واضـــحا فى كل من الخلافة الاسلامية والامبراطورية المسيحية وخلف هذا الطابع آثاره فى شخصية عاهل الدولة هنا وهناك « لكن الامبراطور كان الرئيس الاسمى للكنيسة الأرثوذكسية ، على حين أن الخليفة لم يكن الا مدبر دولة المسلمين دون أن يكون له أى حق فى اضافة شىء الى أصل الشرع أو تغييره أو تأويله ، ولكن أوجه التشابه كانت ترجع الفروق فى عين العالم المعاصر » . (٢).

(١) جرونيباوم : حضارة الاسلام ــ ترجمة جاويد ص ٢٤ .
(٢) المصدر السابق ص ٢٥ ــ ٦ .

وإذا كانت الامبراطورية البيزنطية قد ظلت فى الوجود أحد عشر قرنا فانما يكاد يرجع ذلك تماما الى المزايا التى توفرت فى تأسيس الدولة وإدارتها . وقد انحدر هذا التنظيم فى بطء من تراث الماضى الرومانى . على أنه لم تنقطع محاولة الملاءمة بين هذا التراث وبين الاحتياجات المتجددة لتدعيم هذه النظم على مر القرون (٣) . وكان الأساس فى تنظيم دقلديانوس وقسطنطين الادارى هو الفصل التام بين واجبات القائد العسكرى du والحاكم المدنى praeses . واقترن هذا بانقاص حجم الولايات بوجه عام حتى لاينفرد القائد أو الحاكم بسلطة ربما تخلق منه منافسا خطرا للعرش . وحينما تطور نظام ادارة الامبراطورية كما نراها مثــــلا زمن تيودوسيوس الاول (٣٧٩ : ٣٩٥م) نجدها مقسمة الى أربعة أقســـام يســمى كل منها لواء Praefectura وعلى رأس كل منهـــا أمير لواء امبراطورى Praefectus Praetorius ، وينقسم كل لواء الى عدد من الأقسام الادارية Dioceses يشرف على كل منها نائب أمير لواء Vicarius وكل قسم ادارى منها ينقسم الى عدد الولايات Provinces على كل منها وال يخضع لنائب أمير اللواء . وهكذا أصبح نائب أمير اللواء جزءا من الهيئة الحاكمة المدنية ، أما علاقته الوحيدة بالأمور العسكرية فقد نشأت فى ذلك الحين من واجبه فى الاشراف على تسجيل الامداد فى الجيش وتوفير جرايات الجند ، كما كان يستشار بالطبع فى تنظيم التحركات العسكرية داخل لوائه . وكان الامبراطور يرسل مبعوثين خصوصيين لتفقد الادارة المحلية ، كما كان كل موظف ينظر بعين الحسد الى زميله ويتربص له . ويستطيع الامبراطور أن يتصل بالنائب حاكم القسم الادارى عن طريق أمير اللواء الامبراطورى حينا ومباشرة حينا آخر . ومن هنا نرى أن الحاكم لم يعد القوة الوحيدة فى القسم الادارى اذ كان الى جانبه قائد عسكرى يمارس سلطة كسلطته لكنه مستقل عنه فى الوقت ذاته . وكان كبير الوزراء فى العاصمـة رئيس الادارات كلها Magister Officiorum ويزداد سلطان وظيفته باستمرار على حساب أمير اللواء ، ووزيرا المالية الكبيران بجانبه احدهما المشرف على الهبات المقدســة ومالية لامبراطورية عامة والآخر المشرف على الأملاك الامبراطورية . وقد نشأت تقاليد ادارية ثابتة كانت تقاوم نزعات الاصلاح والتجديد التى تظهر عند بعض الأباطرة . ثم كان أن تداعى نظام الادارة البيزنطى (المقدس) تحت ضغط الهجات التى توالت على الامبراطورية خلال القرن السابع الميلادى . وحينما أعيد بناء النظام من جديد جعل أساسه التناسق بين الموظفين بدلا من اتبـــاع

(٣) Runciman: Byz. Civ. p. 51.

بعضهم لبعض كما كان الحال قبلا ، وان بقى نظام الرتب المتتابعة بل زاد احكاما • وأصبحت الولايات أقساما عسكرية يحكمها قائد عسكرى يتلقى الأوامر من الامبراطور وحده ، واختفى رؤســــاء الجند وأمراء الألوية الامبراطورية • ونتيجة لذلك زادت وظيفة محافظ المدينة أهمية وانهدمت الوزارات المركزية الكبيرة وحل محلها عدد عظيم من الدواوين يكمل كل منها عمل الآخر ويختص بعمل معين ، بينما ظهر الى الوجود وزير وحيد للمالية أصبح فى القرن التاسع يشرف على الوظائف التى تتعلق بالمالية أو ادارة موارد الدخل اشرافا عاما ومنظما •

وقد ظهر الاتجاه الى الجمع بين السلطتين المدنية والعسكرية منذ عهد جستنيان (٥٢٧ : ٥٦٥م) الذى خالف سنة دقلديانوس وقسطنطين ، وسار فى نفس الطريق موريس (٥٨٢ : ٦٠٢م) • فعنـــدما افتتحت افريقية من جديد عين موظف يجمع بين سلطة القـــائد العســـكرى Magister Militum والوالى Praefectus ووضعت ايطاليا تحت حكم Exarchus سرعان ما صـادر موظفـا عســكريا بســلطات مدنية • **ولكن هذه التعيينات اقتصرت على الأقاليم التى تواجه مخاطر الغزو وجاءت الحروب الفارسية والعربية فى القرن السابع فلم يعد هناك اقليم بمنجاة من الخطر** ـ حتى آسيا الصغرى نفسها قلب الامبراطورية كان ينبغى أن توضع فى حالة دفاع دائم • **وصار من المعتاد وضع بعض الفرق العسكرية Themata على الدوام فى منـاطق معينة ، واعطى قائد الفرقة ســلطات مدنية على سكان المنطقة • وهكذا غدت هذه المناطق بالتدريج تدعى فى جملتها بنودا وكل بند Thema يحمل اسم فرقة خاصة** • ووجدت عند نهاية القرن السابع ولايات ثغرية فى آسيا الصغرى هى البنود : **البكلارى والأناضولى والأوبسكيون والتراقى** تبعا لأسماء الفرق • واذا كان هذا النظام قد استهل فى العهد الهرقلى فانه قد احكم فى **العهـــد الايسورى خاصة أيام ليو ، اذ قسمت البنود الآسيوية الى بنود أخرى كما امتد هذا النظام الى أوربا • وغدا لقائد العســـكرى المكانة العليا حتى حجب الحاكم المدنى الاقليمى تماما فى النهاية • وكان لقواد الولايات** الثغرية الشرقية الأسبقية فى البلاط ويتقاضون رواتب ثابتة من الحكومة المركزية وهم أعلى مرتبة من قواد بنود المجموعة الغربية الذين يتقاضون رواتبهم من الضرائب المحلية • **وفى نهاية القرن التـــاسع عندما جاءنا وصف Philotheus كما جاءتنا القائمتان العربيتان للبنود اللتان وردتا فى المؤلفات الجغرافية الاسلامية كان قد صار لدى البيزنطيين ٢٥ بندا • وكان لقائد خرسون Cherson وضع خاص ، كما تمتع بالصـــدارة**

ستراتيجوس البند الاناضـــولى الذى انحدرت اليه مهـــام قائد المشرق Magister Militum of the East • وكانت البنـــود تقســـم الى **اقســـــام فرعية** مثل Tourmai وتليها Moirai أو Drouggoi واستمر التزايد فى عدد البنود حتى **سمعنا فى القرن ١١م عن ٣٨ بندا فان امتداد الحدود مع الرغبة فى عدم توسيع نطاق الاقاليم ابتغاء الحد من النزعة الانفصالية قد أديا الى هذا التطور •**

ولقب الاستراتيجوس يواضح الأصل العسـكرى لحاكم البند وان كانت فى يده الاختصاصات المدنية والقضائية ، ولديه ١١ نوعا من الموظفين فى مكتبه يساعدونه فى الحكم المدنى والعسكرى على الســـواء ، وتكاد سلطاته فى الشئون المحلية أن تكون مطلقة ، ولكنه كان يولى ويعزل وفقا لرغبة لامبراطور ، كما كان من الممكن أن تقدم الشكاوى فى حقـــه • **ومن اهم موظفى البند** موظف يتولى صرف مرتبات الجند والضباط والموظفين Chartularius ، وهو وان كان يخضـع لقـــائد البند الا أنه مســئول فى الوقت نفسه أمام Logothetes tou Stratiotikou ، كما كان هناك قاضى البنـــد ومـــوظف يدعى Pronotary ويعتبر من مـــوظفى Chartularius of the Sacellion وهؤلاء على الأقل من بداية القرن العاشر كانوا خاضعين لقائد البند أيضا • وكانت الحكومة المركزية تعين دافع المرتبات وجامع الضرائب من قبلها مباشرة ، كما كانت الدعاوى الهامة تسمع فى العاصمة • وفى أوقات الطوارىء يوفد قواد اضافيون يدعون ek prosopôn الى أى مكان • **وهكذا كان تنظيم البند الادارى يراعى فيه ما عبر عنه كتـــاب** Taktikon of Leo **من تحفظـــات « انهم ـ أى موظفى البند ـ يجب أن يخضعوا لأوامر القائد** Strategos **فى بعض الأمور ، لكنا نعتبر من الأسلم وجوب رفع تقاريرهم عن الحسابات الى ادارتنا الامبراطورية المركزية ليتسنى لنـــا العلم باحوال الادارة »** واذا كان لايعلم كيف توزعت الاختصاصات والمهام بين الادارتين المركزية والاقليمية على وجه التفصيل فانه كان للسلطة المركزية على أية حال حق الاشراف لمراقبة القادة وكبح جماحهم • وكانت ترسل موظفين من قبلها للتفتيش كما كانت تحض الأســـاقفة على ملاحظـــة مجرى الادارة فى أبرشياتهم وتشجيع الرعية على التماس الانصاف القانونى من أى غبن • واذ أصبح القائد العسكرى يجمع بين السلطتين المدنية والعسكرية فقد عادت روما الى ماكانت عليه زمن الجمهورية ـ كان الحاكم المدنى وقتذاك قائدا أيضا اذا دعت الحاجة وأصبح القائد الآن حاكما مدنيا أيضا •

ولو نظرنا الى تاريخ القرن ١٢م من زاوية معينة لرأينا انه كان فى

الواقع صراعا على السلطان بين موظفى الدولة والارستقراطية العسكرية في آسيا الصغرى • فرغم أن الأقاليم كانت تحكم حكما عسكريا فان الحكومة المركزية ظلت مدنية • وكان القادة العسكريون المركزيون Domesticoi, Stratarchoi لا يشاركون فى الادارة ، بل كان يباشرها طائفتان كبيرتان من الموظفين Kritaï, Secretikoï واختفى الموظف الكبير Magister Officii ولم يبق سوى لقبه الأجوف شاهدا على مجده الدارس • ومن أهم موظفى طائفة Kritai كان محافظ المدينة ، و Eparchos واذا كان النظام الادارى المركزى قد بقى من الناحية العملية دون تغيير حتى أنهاه الاحتلال الصليبى للعاصمة سنة ١٢٠٤ م فإن النظام الاقليمى كان بالضرورة أكثر مرونة بتغير حدود الامبراطورية• وعلى الحدود الشرقية كانت هناك مناطق صغيرة تحت الحكم العسكرى Klissurae حيث كان يحكم بارونات الحدود العسكريون دون اعتراض ، وعندما تتقدم الحدود ترتفع هذه المناطق الى بنود ويوضع قوادها فى سلك الوظائف الامبراطورية • وعندما أعيد احتلال انطاكية وضعت تحت حكم حاكم عسكرى خاص dux •

وهكذا كانت حكومة بيزنطة أداة فعالة للحكم ومنظمة تنظيما علميا رغم مفاسدها ونفقاتها الباهظة وبطء حركتها وقلة مرونتها وقد جعلت هذه الحكومة قيام الحياة الاجتماعية المؤسسة على حكم القانون أمرا ممكنا وكانت هذه ميزة الامبراطورية عن البلاد الواقعة خلف حدودها (٤) •

وقد أورد الجغرافيون المسلمون ما ورد اليهم من أنباء الادارة البيزنطية ، وكان مسلم بن أبى مسلم الجرمى مصدرا قيما فى التنظيم البيزنطى فنقل عنه إبن خرداذبة « ان أعمال الروم التى يوليها الملك عماله أربعة عشر عملا : منها خلف الخليج ثلاثة أعمال •• ودون الخليج ثلاثة عشر عملا •• » وهو يعدد بعد ذلك كبار الموظفين البيزنطيين « ومن البطارقة بالروم اثنى عشر بطريقا لا ينقصون ولا يزيدون : ستة منهم مقيمون بالقسطنطينية بحضرة الطاغية ، وستة فى الأعمال ـ بطريق عمورية ، بطريق أنقرة ، بطريق الأرمنياق ، بطريق تراقية وهى خلف قسطنطينية مما يلى برجان ، وبطريق سقلية وهى جزيرة عظيمة ومملكة واسعة بازاء افريقية ، وبطريق سردانية وهو صاحب جزائر البحر كلها •• واكبر

---

(٤) Byzantium pp. 281-2, 285-6, 290-1, Runciman: Byz. Civ. pp. 71-3, 75-6,
بينز : الامبراطورية البيزنطية ـ ترجمة دكتور مؤنس وزايد ص ١٤٥ : ١٥٢
١٧١ ـ ٢ •

البطارقة خليفة الملك ووزيره ثم اللغثيط صاحب ديوان الخراج ، وصاحب عروض الكتب ، والحاجب ، وصاحب ديوان البريد ، ثم القاضي ، ثم صاحب الحرس ، ثم المرقب .. وبريد الروم براذين لطاف محــذقة الأذناب خفاف (٥) » وقد ذكر قدامة بن جعفر أيضا شيئا من أحوال الروم ونظمهم الحربية والادارية فتكلم عن أعمالهم وراء الخليج ودون الخليج ، « والوالي عليه يعرف بالاطرطيغوس (٦) » . وذكر الســعودي العدوات الى بلاد الروم « وطول الخليج ثلثمائة وستون ميلا ـ وقيل وثلاثون ، وعليه ست عدوان لمن يريد من دار الاسلام اليها مما يلي الثغور الشامية والجزرية وغيرها ... كما ذكر بنود الروم « أرض الروم أرض واسعة في الطول والعرض آخذة في الشمال بين المشرق والمغرب مقسومة في قديم الزمان على أربعة عشر قسما : أعمال مفردة ـ تسمى البنود ، كما يقال أجناد الشام : كجند فلسطين وجند الاردن وجند دمشق وجند حمص وجند قنسرين ـ غير أن بنود الروم أوسع من هذه الأجناد وأطول » . وقد جعل المسعودي تسع بنود دون الخليج مما يلي الثغور الشامية والجزرية وغيرها من بلاد الاسلام والخمســة الباقية من البنود وراء الخليج متصــلة بالقسطنطينية (٧) . ورغم أن ياقوت يعتذر عن المادة التي قدمها في شأن بلاد الروم اذ فيها « اسماء عجزت عن تحقيقها وضبطها ، فليعذر الناظر في كتابي هذا ومن كان عنده أهلية ومعرفة وقتل شيئا منها علما فقد أذنت له في اصلاحه مأجورا ... » الا أنه قد عدد بنود الروم ومنزل الاصطرطغوس في كل بند ، وميز بين قائد البند وصاحب الدروب فقال عند كلامه عن عمل سلوقيه « واسم صاحب هذا العمل كيلرج ومرتبته دون مرتبة الاصطرطغوس وتفسيره صاحب الدروب وقيل تفسيره وجه الملك ومنزله سلوقية الى أنطاكية، ونقل عن أحمد بن محمد الهمذاني بعد أن أورد أعمال الروم « .. فهذه جميع أعمال الروم المعلومة لنا في البر ، على كل عمل منهــا وال من قبل الملك الذي يسمى الاصــطرطغوس ، الا صــاحب الانطمــاط ـ وحده الأول الخليج وجنده ٤٠٠٠ وأهله مخصوصون بخدمة الملك وليسوا بأهل حرب ـ فانه يسمى الدمستق ، وصاحب سلوقية وصاحب خرشنة فان كل واحد منها يسمى الكيلرج . وعلى كل حصن من حصون الروم رجل ثابت فيه يسمى برقليس يحكم بين أهله ـ وقلت أنا : وهذا فيما أحسب رسوم وأسماء كانت قديمــا

(٥) ابن خرداذبة : المسالك والممالك ص ١٠٤ : ١١٢ .

(٦) قدامة : نبذ من كتاب الخراج ملحق بالمسالك والممالك لابن خرداذبة ص ٢٥٥ : ٩

(٧) المسعودي : التنبيه والأشراف ص ١٢٠ : ٢ ، ١٥٠ : ٣ .

ولا أظنها باقية الآن ، وقد تغيرت أسماء البلاد وأسماء تلك القواعد ، فان الذى نعرفه اليوم من بلاد الروم المشهورة فى أيدى المسلمين والنصارى لم يذكر منها شيء : مثل قونية واقصرى وأنطاكية واطريزندة وسيواس — الى غير ذلك من مشهور بلادهم ، وانما ذكرت كما ذكر والله أعلم (٨) » .

عند المسلمين :

هذه هى السوابق البيزنطية فى الادارة بين أيدى المسلمين ، وقد كان للمسلمين نظمهم الادارية التى أفادوا منها من خبرتهم بهذه السوابق، ولدراسة ادارة الثغور والعواصم نعرض لأسلوب الادارة الاسلامية فى انشاء المدن واسكانها والتقسيم الادارى ، وتنظيم الجهاز الادارى :

(أ) انشاء المدن واسكانها :

يذكر ابن خلدون فى مقدمته « ان القبائل والعصائب اذا حصل لهم الملك اضطروا للاستيلاء على الأمصار لأمرين : أحدهما ما يدعو اليه الملك من الدعة والراحة وحط الأثقال واستكمال ماكان ناقصا من أمور العمران فى البدو ، والثانى دفع مايتوقع على الملك من أمر المنازعين والمشاغبين لأن المصر الذى يكون فى نواحيهم ربما يكون ملجأ لمن يروم منازعتهم والخروج عليهم .. **والمصر يقوم مقام العساكر المتعددة لما فيه من الامتناع ونكاية الحرب من وراء الجدران من غير حاجة الى كثير عدد ولا عظيم شـــوكة ،** لأن الشوكة والعصابة انما احتيج اليهما فى الحرب للثبات لما يقع من بعد كرة القوم بعضـــهم على بعض عند الجولة — وثبـــات هؤلاء بالجدران ، فلا يضطرون الى كبير عصـــابة ولا عدد . فيكون حال هذا الحصن ومن يعتصم به من المنازعين مما يفت فى عضد الأمة التى تروم الاســـتيلاء ويخضد شوكة استيلائها ، **فاذا كانت بين احيائهم أمصار انتظموها فى استيلائهم للأمن من مثل هذا الانخرام ، وان لم يكن هناك مصر استحدثوه ضرورة لتكميل عمرانهم أولا وحط أثقالهم وليكون ثانيا شجى فى حلق من يروم العزة والامتناع عليهم من طوائفهم وعصائبهم** . فتعين أن الملك يدعو الى نزول الأمصار والاستيلاء عليها (٩) » .

وقد عقد ابن خلدون فصلا **فيما تجب مراعاته فى أوضاع المدن : من دفع المضار بالحماية من طوارقها ، وجلب المنافع وتسهيل المـرافق لهـا**

(٨) ياقوت : معجم البلدان جـ ٤ ص ٣٢٨ : ٣٣٠ .
(٩) ابن خلدون : المقدمة : طبعة دكتور وافى جـ ٣ ص ٨٣١ — ٢

« فاما الحماية من المضار فيراعى لها أن **يدار على منازلها جميعا سياج الأسوار وان يكون وضع ذلك في متمنع من الأمكنة** : أما على هضبة متوعرة من الجبل ، واما باستدارة بحر أو نهر بها حتى لا يوصل اليها الا بعد العبور على جسر أو قنطرة فيصعب منالها على العدو ويضاعف امتناعها وحصنها. ومما يراعى في ذلك للحماية من الآفات السماوية طيب الهواء للسلامة من الأمراض .. وأما جلب المنافع والمرافق للبلد فيراعى فيه أمور : منها الماء بأن يكون البلد على نهر أو بأزائها عيون عذبة ثرة .. ومما يراعى أيضا المزارع .. ومن ذلك الشجر للحطب والبناء .. وقد يراعى أيضا قربها من البحر لتسهيل الحاجات القاصية من البلاد النائية الا أن ذلك ليس بمثابة الأول ــ وهذه كلها متفاوتة بتفاوت الحاجات وماتدعو اليه ضرورة المساكن ، وقد يكون الواضع غافلا عن حسن الاختيار الطبيعي أو انما يراعى ما هو أهم على نفسه وقومه ولا يذكر حاجة غيرهم ــ كما فعله العرب لأول الاسلام في المدن التي اختطوها بالعراق وافريقية فانهم لم يراعوا فيها الا الاهم عندهم من مراعى الابل وما يصلح لها من الشجر والماء والملح. .. كالقيروان والكوفة والبصرة وأمثالها ، ولهذا كانت أقرب الى الخراب لما لم تراع فيها الأمور الطبيعية . **ومما يراعى في البلاد الساحلية** التي على البحر أن تكون في جبل ، أو تكون بين أمة من الأمم موفورة العدد تكون صريخا للمدينة متى طرقها من العدو . والسبب في ذلك أن المدينة اذا كانت حاضرة البحر ، ولم يكن بساحتها عمران للقبائل أهل العصبيات ، ولا موضعها متوعر من الجبل ــ كانت في غرة للبيات وسهل طروقهــا في الأساطيل البحرية على عدوها وتحيفه لها لما يأمن من وجود الصريخ لها وان الحضر المتعودين للدعة قد صاروا عيالا وخرجوا عن حكم المقاتلة ، وهذه كالاسكندرية من المشرق وطرابلس من المغرب وبونه وسلا . ومتى كانت القبائل والعصائب متوطنين بقربها بحيث يبلغهم الصريخ والنفير، وكانت متوعرة المسالك على من يرومها باختطاطها في هضاب الجبال وعلى اسنمتها ــ كان لها بذلك منعة من العدو ويئسوا من طروقها لما يكابدونه من وعرها وما يتوقعونه من اجابة صريخها ، كما في سبتة وبجاية .. فاهتم بذلك واعتبره في اختصاص الاسكندرية باسم الثغر من لدن الدولة العباسية ــ مع أن الدعوة من ورائها ببرقة وافريقية ، وانما اعتبر في ذلك المخافة المتوقعة فيها من البحر لسهولة وضعها ، ولذلك كان طروق العدو للاسكندرية وطرابلس في الملة مرات متعــددة (١٠) » . وقد رأى ابن خلدون أن المباني التي كانت تختطها العرب يسرع اليها الخراب الا في

(١٠) ابن خلدون : المقدمة طبعة دكتور وافي جـ ٣ ص ٨٣٧ ، ٨٤٠ .

الأقل » والسبب فى ذلك شأن البداوة والبعد عن الصنائع فلا تكون المبانى وثيقة فى تشييدها ، وله وجه آخر وهو أمس به وذلك قلة مراعاتهم لحسن الاختيار فى اختطاط المدن (١١) » • وقد تابع ابن خلدون تطور الأمصار: فهى « اذا اختطت أولا تكون قليلة المساكن وقليلة آلات البناء من الحجر والجير وغيرهما مما يعالى على الحيطان عند التانق كالزجاج والرخام والربج والزجاج والفسيفساء والصدف ـ فيكون بناؤها يومئذ بدويا وآلاتهـــا فاسدة • فاذا عظم عمران المدينة وكثر ساكنها كثرت الآلات بكثرة الأعمال حينئذ وكثر الصناع الى أن تبلغ غايتها من ذلك • فاذا تراجع عمرانها وخف ساكنها قلت الصنائع لأجل ذلك ففقدت الاجادة فى البناء والاحكام والمعالاة عليه بالتنميق ، ثم تقل الأعمال لعدم الساكن فيقل جلب الآلات من الحجر والرخام وغيرهما فتفقد ويصير بنـــاؤهم وتشييدهم من الآلات التى فى مبانيهم فينقلوها من مصنع الى مصنع لأجل اخلاء أكثر المصانع والقصور والمنازل لقلة العمران • وقصوره عما كان أولا ، ثم لاتزال تنقل من قصر الى قصر ومن دار الى دار الى أن يفقد الكثير منها جملة فيعودون الى البداوة فى البناء •• » ويذكر ابن خلدون أن تفاضل الأمصار والمدن فى كثرة الرفة لأهلها ، ونفاق الأسـواق انما هو فى تفاضل عمرانهـا فى الكثرة والقلة « والحاجة التى تحصل بتعاون طائفة منهم تسد ضرورة الأكثر من عددهم أضعافا •• فالأعمال بعد الاجتماع زائدة على حاجات العـــاملين وضروراتهم ومتى عظم الدخل عظم الخرج وبالعكس ، ومتى عظم الدخل والخرج اتسعت أحوال الساكن ووسع المصر (١٢) » • وأهل البـــادية يقصرون عن سكنى المصر الكثير العمران اذ يكثر ترفه « وتكثر حاجات ساكنه من أجل الترف وتعتاد تلك الحاجات لما يدعو اليها فتنقلب ضرورات وتصير فيه الأعمال كلها مع ذلك عزيزة والمرافق غالية بازدحام الأغراض عليها من أجل الترف وبالمغارم السلطانية التى توضع على الأســـواق والبياعات وتعتبر فى قيم المبيعات ويعظم فيه الغلاء فى المرافق والأقوات والأعمال •• وهو فى بدوه يسد خلته باقل الأعمال لأنه قليل عوائد الترف فى معاشه وسائر مؤنه (١٣) » • ويحتاج المتمولون من أهل الأمصار الى الجاه والمدافعة لحماية أشخاصهم وأموالهم ، واذا اتصلت الدولة ورسخت رسخت الحضارة فى الأمصار « **ولهذا تجد الأمصار التى فى القاصية ولو كانت موفورة العمران تغلب عليها أحوال البداوة** •• بخلاف المدن المتوسطة

(١١) ابن خلدون : المقدمة طبعة دكتور وافى جـ ٣ ص ٨٥٧ •
(١٢) ابن خلدون : المقدمة طبعة دكتور وافى جـ ٣ ص ٨٥٨ : ٨٦٣ •
(١٣) ابن خلدون : المقدمة طبعة دكتور وافى جـ ٣ ص ٨٦٦ ـ ٧ •

فى الأقطار التى هى مركز الدولة ومقرها .. وقد قدمنا أن السلطان والدولة سوق للعالم .. ثم انه اذا اتصلت تلك الدولة وتعاقب ملوكها فى ذلك المصر واحدا بعد واحد استحكمت الحضارة فيهم وزادت رسوخا . واعتبر ذلك فى اليهود لما طال ملكهم فى الشام نحوا من الف واربعمائه سنة رسخت حضارتهم وحذقوا فى أحوال المعاش وعوائده والتفنن فى صناعته من المطاعم والملابس وسائر أحوال المنزل حتى انها لتؤخذ عنهم فى الغالب الى اليوم . ورسخت الحضارة أيضا وعوائدها فى الشام منهم ومن دولة الروم بعدهم ستمائة سنة ــ فكانوا فى غاية الحضارة (١٤) » .

وعندما يتناول ابن خلدون صناعة البناء يلاحظ أنها أكثر ما تكون فى الأقاليم المعتدلة « اذ الاقاليم المنحرفة لا بناء فيها ، وانما يتخذون البيوت حظائر من القصب والطين ويأوون الى الكهوف والغيران » كما تتأثر هذه الصناعة بالبداوة والحضارة « فلذلك عندما تكون الدولة بدوية فى أول أمرها تفتقر فى أمر البناء الى غير قطرها ــ كما وقع للوليد بن عبد الملك حين أجمع على بناء مسجد المدينة والقدس ومسجده بالشام ، فبعث الى ملك الروم بالقسطنطينية فى الفعلة المهرة فى البناء فبعث اليه منهم من حصل له غرضه من تلك المساجد (١٥) » .

واذا كان ابن خلدون قد ناقش تأسيس المدن والأمصار من الوجهة العمرانية الاجتماعية فان بعض فقهاء المسلمين قد ناقشوا فى احكام الجهاد **مسالة التوطن فى الثغور** واتخاذ النساء والذرارى فيها وتحويلها الى مدن آهلة عامرة مسكونة سكنى دائمة « ولا بأس للذين يسكنون الثغور من المسلمين أن يتخذوا فيها النساء والذرارى وان لم يكن بين الثغور وبين أرض العدو أرض للمسلمين ــ لأنهم يندبون الى المقام فى الثغور وانما يتمكنون من المقام بالنساء والذرارى فالنساء سكن للرجال **ولأنهم اذا اقاموا فى ذلك الموضع بالنساء والذرارى كثروا بمرور الزمان حتى يصير ذلك الموضع مصرا من أمصار المسلمين ويتخذ المسلمون وراء ذلك ثغرا بالقرب من العدو** . ولكن هذا اذا كانوا بحيث لو نزلت بهم جلبة العدو قدروا على دفع شرهم عن أنفسهم وعن ذراريهم وتمكنوا من أن يخرجوا الى أرض الإسلام ، فأما اذا لم يكن بهذه الصفة فانه لا ينبغى أن يتخذوا النساء فى مثل هذه الثغور .. وهو نظير ما سبق من الفصل بين الصائفة والسرية ، الا أن هناك كره اخراج النساء مع الجيش العظيم للمباضعة ولم يكره ذلك فى الثغر اذا كثر فيه المسلمون ــ لأن أهل المعسكر لا يطول

(١٤) ابن خلدون : المقدمة طبعة دكتور وافى جـ ٣ ص ٨٧١ : ٣ .
(١٥) ابن خلدون : المقدمة طبعة دكتور وافى جـ ٣ ص ٩٣٤ ، ٩٣٦ .

مقامهم فى دار الحرب فلا يحتاجون الى النساء مدة مقامهم فى الظاهر ، فاما أهل الثغور فيطول مقامهم فى الثغر يؤمرون بالا يبرحوا منها ٠٠ فان قال أهل الثغر : لا نقدر على دفع العدو بأنفسنا أن أتانا ولكن نستغيث بالمسلمين فيأتينا الغياث منهم فندفع بهم العدو ــ فانه لا ينبغى لهم أن يحملوا النساء والذرارى الى مثل هذه الثغور أيضا ٠٠ ولا يبنى الحكم على الموهوم خصوصا فيما يكون الواجب فيه الأخذ بالاحتياط ٠٠ فلهذا لا يستقيم البناء على الغوث وانما يبنون ذلك على شوكة أنفسهم (١٦) » ٠

وأيقظت مطالب الظروف الجديدة عند العرب على أثر الفتوح الاسلامية مواهب جديدة ، وساعدهم تفتح أذهانهم على تفهم هذه الظروف والاستجابة لها ٠ وظهرت الحاجة الى **مراكز حربية دائمة**. ويعزى انشاء هذه المراكز الى عمر الذى تنسب اليه كذلك سائر الأعمال الادارية اذ حضر عمر بنفسه الى الشام بعد سقوط بيت المقدس وقسم القوات الى أجناد تتألف كل منها من عدة قبائل وخصص لكل منها معسكرا دائما ، واستخدم فى هذا الصدد المراكز الحربية الدائمة التى وجدت من قبل فى الشام مثــل دمشق وحمص وطبرية ٠ أما فى العراق فقد نشأت مراكز عسكرية جديدة هى البصرة والكوفة بنيت بالقصب ثم استبدلت بها منازل من اللبن ، وما لبث هذان المعسكران الحربيان أن تطورا الى مدينتين عامرتين ٠ وفى مصر قام معسكر جديد فى المنطقة المجاورة لحصن بابليون ــ غدا مدينة الفسطاط ٠ وأدى السماح للجند بالاقامة مع عائلاتهم فى معســكرات حربية دائمة الى نشأة الميل للاستقرار عند أفراد الجيش وتجلى ذلك فى تسابقهم على حيازة الأرض التى تحت أيديهم (١٧) ٠

وبدأ تنظيم الدولة الاسلامية فى البلاد المفتوحة كما ينظم الجيش تماما ، فكان سجل المواطنين المشتمل على أسمائهم هو سجل ديوان الجيش، وكانت القبائل والعشائر هى التى تؤلف فصائل الجيش وكتائبه ٠ وكان المقاتلة من العرب هم الذين يقيدون فى الديوان ، يسمون ــ تمييزا لهم عمن يبقون فى ديارهم ــ (بالمهاجرة) أى الذين ينتقلون الى المعسكرات الكبرى التى منها كانت تنظم الحرب وتوجه ــ وذلك أن الهجرة انما كانت تعنى الانتقال بالأهل والولد الى المراكز السياسية الحربية لأداء الأعمال ٠ ولم يكن يستطيع الانسان فى الاسلام أن يتمتع بما للمواطن من حقوق كاملة الا فى الجيش وفى المدن ومعسكرات الجيش الكبرى ، أما الأعراب الذين

---

(١٦) شرح السير الكبير لمحمد بن الحسن ٠ املاء السرخسى جـ ١ ص ٢١٠ : ٢ ٠
(١٧) الحضارة العربية : ترجمة دكتور العدوى ص ٥٠ ــ ٥١ ٠

بقوا لا يعملون شيئا فى ديارهم ومع قطعانهم فلم يكونوا يعتبرون مواطنين بالمعنى الكامل ٠

وكانت دار الهجرة الأولى هى المدينة ثم انضافت اليها الأمصار وفيها مدن قديمة كما فى الشام أو مدن حربية مستحدثة كما فى العراق ومصر. واحتفظ العرب فى الأقاليم التى فتحوها بنظامهم القبلى السابق مع الفارق، ففى الوطن العربى الاول لم يكن يتألف اتحاد حقيقى الا من جماعة صغيرة نسبيا وهى الجماعة التى كانت تحل للرعى معا وترتحل معا ، أما بعد أن اجتاز العرب حدود صحرائهم على نطاق واسع فلم تكن القبيلة كلها تهاجر الى الخارج وتقيم مجتمعة فى مكان واحد بعينه ، وانما كانت أجزاء من القبيلة تخرج الى هنا وهناك ولا تستطيع أن تعيش وحدها فتنضم الى أجزاء أخرى من قبائل مهاجرة تشترك معها فى نسب أعلى — وكان هذا أسهل ما دام لم يكن للقبائل ما كان لها من قبل من مكان رحب تنتشر عليه وما داموا يعيشون معا مجتمعين فى معسكرات ومتصلين فيما بينهم اتصالا وثيقا ٠

وعن طريق هذا النوع من الاندماج صار لبعض الجماعات القبلية الكبير شأن جديد لم يكن لها من قبل ولم يكن لها من بعد فى جزيرة العرب نفسها ، وتطورت هذه الظاهرة حتى أصبحت عاملا خطيرا فى التاريخ الداخلى للدولة العربية (١٨) ٠

وكان للشام مركز انفردت به لأن معظم العرب الذين كانوا يقطنونها لم يذهبوا اليها مهاجرين كغيرهم ، وكان لهم الى جانب ذلك تقاليد غير التى كانت لأهل الكوفة والبصرة ٠ وكانوا منذ زمان طويل واقعين تحت التأثير اليونانى الرومانى ، وكانوا قبل الاسلام تابعين لدولة هى دولة الغسانيين ٠ فى حين أنه لم يكن للكوفة والبصرة تراث غير تراث حياة البادية وغير تراث الاسلام ، وكانت حروب الفتح قد قدمت اليهما بجيوش عربية تتألف من مختلف القبائل فاقامت هناك أشبه شىء بالمستعمرات العسكرية ، ووجدت هذه القبائل نفسها قد انتقلت دفعة واحدة من ظروف حياة البادية الى ظروف الحضارة وصارت فى المركز المتوسط لامبراطورية كبرى — فلا عجب أن تتعثر فى هذه القفزة الواسعة ٠ على أنه قد هاجر الى الشام أيضا على أثر الفتح الاسلامى كثير من العرب — خصوصا من قيس الذين انتقلوا الى شمال الشام — ولكن الغالبية فى الوسط كانت لكلب

(١٨) فلهوزن : تاريخ الدولة العربية ٠ ترجمة دكتور أبى ريده ص ٢٤ : ٧ ٠

ولقبائل قضاعة الى جانب قبـــائل أخرى من أزد الصراة ٠ وكانت هذه القبائل قد توطنت هناك منذ قرون قبل الاسلام ، وتعرضوا لتأثير الحضارة اليونانية الرومانية والكنيسة المسيحية والدولة الرومانية ٠ فلم تكنمظاهر الدولة المنظمة ولا روح الطاعة الحربية والسياسية جديدة عليهم ، وكانت لهم أسرة قديمة حاكمة دانوا لها بالطاعة دهرا طويلا ٠ وقد أطاعوا أميرهم أينما وجههم بعد أن اتفقت مصلحتهم ومصلحته فى السيادة ولم يكونوا فى داخل أنفسهم يبالون بالاسلام أكثر مما يبالى هو نفسه ، وحسبهم أن السيادة كانت للشام وحسبهم أن ينالوا أعطيات مرتفعة من بيت مالها وقد أثبتوا أنهم من الناحية الحربية ذوو شدة ومراس ، فقد كانوا بسبب الحروب الدائمة مع الروم يتدربون تدربا منظما ٠

وكان معاوية قيسى النسب تقريبا لكنه كلبى المقام والصهر فهو يقيم فى دمشق فى المنطقة التى كانت تسكنها كلب ــ غير بعيد من مقر ملوكهم السابقين ــ وتزوج امرأة من أشراف كلب ٠ ولم يكن من الممكن أن يصبح عرب الشام الذين أدمجوا فى الدولة العربية بعد الفتح فى المرتبة الثانية بعد العرب الذين دخلوها فاتحين ــ ذلك أن دخول عرب الشام فى الاسلام جاء مبكرا ، وكان لهم فيه نصيب من الاختيار ، وان كان اسلامهم مجرد انضمام لراية العروبة المنتصرة ٠ ولم يكن المسلمون فى الشام يعيشون بمعزل وفى مستعمرات مخصصة لهم ، بل كانوا يعيشون بين أبناء البلاد فى المدن القديمة مثل دمشق وحمص وقنسرين وغيرها ــ بل كانوا أحيانا يقاسمونهم بيتا لله ، نصفه مسجد ونصفه كنيسة !! (١٩) ولو قارنا بين استيطان العرب فى العراق والشام لوجدنا العرب قد توغلوا فى الشـــام بفضل وديانها العديدة فاستوطنوا مراكز مختلفة وجاء تأسيس الأجناد الستة فى مواقع قرب المدن المهمة بينمـــا لم يقدم العرب فى العراق على الاستيطان على شواطىء الانهار والسهول المنخفضة ذات النخيل الكثير التى كانت عرضة للفيضان بل احتشدت فى معسكرى البصرة والكوفة ٠

على أن المسلمين لم يعمروا **ثغور الشام البحرية والبرية** غداة الفتح الاسلامى بحيث تكتمل سيطرتهم عليهـــا ٠ والبلاذرى يقدم لنـــا صورة واضحة لهذه الحقيقة فهـــو يروى : « لما كانت ســـنة ٤٩ خرجت الروم الى السواحل ٠٠٠ » وهذا التاريخ تال لتمام الفتح الاسلامى للشام تقريبا

(١٩) فلهوزن : تاريخ الدولة العربية ٠ ترجمة دكتور أبى ريدة ص ٥٤ ، ١٢٥ : ٨ ٠ دكتور الحربوطلى : تاريخ العراق تحت الحكم الأموى ص ٢٨٥ ٠

بأكثر من ثلاثين عاما ، ومن هنا لم يكن فى مكنة المسلمين فى مطالع استقرارهم بالشام أن يستحدثوا المدن الجديدة ويعمروها بالسكان ، بل **حسبهم أن يحصنوا ما يضعون أيديهم عليه من مدن ومعاقل قائمة** ٠

والبلاذرى يعقب على هذا الهجوم الرومى بقوله «وكانت الصناعة بمصر فقط، فأمر معاوية بجمع الصناع والنجارين فجمعوا ورتبهم فى السواحل وكانت الصناعة بعكا » وهو يروى « ان يزيد أتى ـ بعد فتح مدينة دمشق ـ صيدا وعرقة وجبيل وهى سواحل وعلى مقدمته معاوية ففتحها فتحا يسيرا وجلا كثير من أهلها، وتولى فتح عرقة معاوية نفسه فى ولاية يزيد ، ثم ان الروم غلبوا على بعض هذه السواحل فى آخر خلافة عمر أو أول خلافة عثمان فقصد لهم معاوية حتى فتحها ثم رمها وشحنها بالمقاتلة وأعطاهم القطائع ٠ فلما استخلف عثمان وولى معاوية الشام وجه معاوية سفيان بن مجيب الأزدى الى أطرابلس وهى ثلاث مدن مجتمعة ٠٠٠ وكتب بالفتح الى معاوية فأسكنه معاوية جماعة كبيرة من **اليهود** وهو الذى فيه الميناء اليوم ، ثم أن عبد الملك بناه بعد وحصنه ٠ وكان معاوية يوجه فى كل عام الى أطرابلس جماعة كثيفة من الجند يشحنها بهم ويوليها عاملا ، فاذا انغلق البحر قفلوا وبقى العامل فى جمعية منهم يسيرة ٠ فلم يزل الأمر فيها جاريا على ذلك حتى ولى عبد الملك فقدم فى أيامه بطريق من بطارقة الروم ومعه بشر منهم كثير فسأله أن يعطى الأمان على أن يقيم بها ويؤدى الخراج ـ فأجيب الى مسألته ، فلم يلبث الا سنتين أو أكثر منهما بأشهر حتى تحين قفول الجند عن المدينة ثم أغلق بابها وقتل عاملها وأسر من معه من الجند وعدة من اليهود ولحق وأصحابه بأرض الروم ٠٠٠ » وهذه الحادثة وحدها تكشف عن حال الثغور البحرية وكيف كانت يد المسلمين عليها واهنة فى أول الفتح ـ بل حتى أيام عبد الملك ابن مروان ـ حتى أنهم يجعلون فيها حامية مؤقتة ثم يأمنون أن يقيم فيها بطريق رومى !! والبلاذرى يروى عن أطرابلس بالذات أنها كانت ميئوسا منها ، فقد وجه يزيد معاوية الى سواحل دمشق « سوى أطرابلس فانه لم يكن يطمع فيها ٠٠٠ » وفى خلافة عمر بن عبد العزيز أغارت الروم على ساحل اللاذقية فهدموا مدينتها وسبوا أهلها سنة ١٠٠ هـ « فأمر عمر ببنائها وتحصينها ٠٠٠ ولم يمت حتى حرر مدينة اللاذقية » ٠ **لذلك دأب معاوية على تحصين الثغور البحرية اذ كانت هى موضع الخطر الكبير** « فأنشأ معاوية بن أبى سفيان جبلة ـ وكانت حصنا للروم جلوا عنه عند فتح المسلمين حمص ـ وشحنها ٠٠٠ بنى معاوية لجبلة حصنا خارجا من الحصن الرومى القديم ٠٠٠ فتح عبادة والمسلمون معه أنطرطوس ـ وكان حصنا ثم جلا عنه أهله ـ فبنى معاوية انطرطوس

ومصرها واقطع بهـا القطائع ، وكذلك فعل بمرقية وبلنياس » • وهكذا تابع المسلمون الحصون الرومية على البحر يدعمونها ويشحنونها « قالوا : افتتح أبو عبيدة اللاذقية وجبلة وانطرطوس على يدى عبادة بن الصامت وكان يوكل بها حفظة الى انغلاق البحر ، فلما كانت شحنة معاوية السواحل وتحصينه اياها شحنها وحصنهـا وامضى أمرها على ما أمضى عليه أمر السواحل » • وكذلك لقى المسلمون المتـاعب فى ثغور فلسطين ، فروى البلاذرى عن محمد بن سعد عن الواقدى « لما ولى عمر معاوية الشام حاصر قيسارية حتى فتحها ، وقد كانت حوصرت نحو من سبع سنين وكان فتحها فى شوال سنة ١٩ » • وكذلك كانت حال عسقلان « يقال ان عمرو بن العاص كان فتحها ثم نقص أهلها وأمدهم الروم ففتحها معاوية وأسكنها الروابط ووكل بها الحفظة ••• وأخربت الروم عسقلان وأجلت أهلهـا عنها فى أيام ابن الزبير فلمـا ولى عبد الملك بناها وحصنها ورم أيضـا قيسارية ••• وبنى صور وعكا الخارجة وكانت سبيلهـا مثل سبيل قيسارية »(٢٠) **وأخذ معاوية فى تعمير هذه السواحل بمختلف طوائف السكان الذين استقدمهم من شتى انحاء الدولة الاسلامية** « فنقـل قوما من فرس بعلبك وحمص وانطاكية الى سواحل الأردن صور وعكا وغيرها سنة ٤٢ ، ونقل من أساورة البصرة والكوفة وفرس بعلبك وحمص الى انطاكية فى هذه السنة أو قبلها أو بعدها بسنة جماعة ••• وحدثنى هشام بن الليث قال : حدثنى أشياخنا قالوا : نزلنا صور والسواحل وبها جند من العرب وخلق من الروم ، ثم نزع الينا أهل بلدان شـتى فنزلوها معنا وكذلك جميع سواحل الشام » « واسكن معاوية ـ الحصن باطرابلس ـ جماعة كبيرة من اليهود » « ••• ثم أن الناس بعد انتقلوا الى السواحل من كل ناحية » (٢١) •

فاذا انتقلنا من الثغور البحرية الى **الثغور البرية** وجدنا المسلمين فى شمال الشام يعملون على **اسكان الفاتحين** فى المد الكبرى القائمة فى شمال الشام أول الأمر ، فبعد صلح حمص نجد أن « السمط بن الأسود الكندى قسم حمص خططا بين المسلمين حتى نزلوها ، وأسكنهم فى كل مرفوض جلا أهله أو ساحة متروكة » • وقد كان فى هذه المنطقة **قبائل عربية** قبل الفتح الاسـلامى « وكان حاضر قنسرين لتنوخ مذ أول ما تنخوا بالشام ـ نزلوه وهم فى خيم الشعر ثم ابتنوا به المنازل ، فدعاهم أبو عبيدة الى

(٢٠) البلاذرى : فتوح البلدان ص ١٢٤ ، ١٣٣ ، ـ ٤ ، ١٣٩ ـ ١٤٠ ، ١٤٨ : ٥٠ •
(٢١) البلاذرى : فتوح البلدان ص ١٢٣ ـ ٤ ، ١٣٣ ، ١٣٥ •

الاسلام فأسلم بعضهم وأقام على النصرانية بنو سليح ٠٠ ثم سار أبو عبيدة يريد حلب فبلغه أن أهل قنسرين قد نقضوا وغدروا فوجه اليهم السمط فحصرهم ثم فتحها ٠٠٠ وكان بقرب مدينة حلب حاضر تدعى حاضر حلب تجمع أصنافا من العرب من تنوخ وغيرهم فصالحهم أبو عبيدة على الجزية ثم أنهم أسلموا بعد ذلك ٠٠٠ وكان حيار بني القعقاع بلدا معروفا قبل الاسلام ٠٠٠ ورتب أبو عبيدة ببالس جماعة من المقاتلة واسكنها قوما من العرب الذين كانوا بالشام فأسلموا بعد قدوم المسلمين الشام ٠ وقوما لم يكونوا من البعوث نزعوا الى البوادى من قيس ٠ وأسكن قاصرين قوما ثم رفضوها أو اعقابهم ، وبلغ أبو عبيدة الفرات ثم رجع الى فلسطين وكانت بالس والقرى المنسوبة اليها فى حدها الأعلى والأوسط اعذاء عشرية » ٠ وكذلك جرى الحال بالنسبة للجزيرة « لما ولى معاوية الشام والجزيرة لعثمان أمره أن ينزل العرب بمواضع نائية عن المدن والقرى ويأذن لهم فى اعتمال الارضين التى لا حق فيها لأحد ، فانزل بنى تميم الرابية ، وأنزل المازحين والمديبر اخلاطا من قيس وأسد وغيرهم وفعل ذلك فى جميع نواحى ديار مضر ، ورتب ربيعة فى ديارها على ذلك ، والزم المدن والقرى والمسالح من يقوم بحفظها ويذب عنها من أهل العطاء ثم جعلهم مع عماله » ٠ وفى أرمينية كتب حبيب بن مسلمة الفهرى الى عثمان يسأله المدد « فكتب الى معاوية يسأله أن يشخص اليه من أهل الشام والجزيرة قوما ممن يرغب فى الجهاد والغنيمة فبعث اليه معاوية الفى رجل اسكنهم قاليقلا وأقطعهم بها القطائع وجعلهم مرابطة بها ٠٠٠ وأسكن مسلمة بن عبد الملك مدينة الباب والأبواب أربعة وعشرين الفا من أهل الشام على العطاء » وحين غزا معاوية قبرص سنة ٣٣ هـ معاودا فتحها اقر أهلها على صلحهم « وبعث اليها باثنى عشر الفا كلهم أهل ديوان فبنوا بها المساجد ، ونقل اليها جماعة من بعلبك وبنى بها مدينة ، واقاموا يعطون الأعطية الى الى أن توفى معاوية وولى بعده ابنه يزيد فاقفل ذلك البعث » (٢٢) ٠

غير أن المسلمين كانوا محجمين عن الاستقرار فى أقصى الشمال على حدود دولتهم مع الدولة البيزنطية « قالوا : كانت ثغور المسلمين الشامية أيام عمر وعثمان وما بعد ذلك أنطاكية وغيرها من المدن التى سماها الرشيد عواصم ، فكان المسلمون يغزون ما وراءها كغزوهم اليوم ما وراء طرسوس،

(٢٢) البلاذرى : فتوح البلدان ص ١٣٧ ، ١٥١ : ٣ ، ١٥٧ ، ١٨٦ ، ٢٠٥ ، ٢١٤ ، ١٦٠ ٠

وكان فيما بين الإسكندرية وطرسوس حصون ومسالح للروم كالحصون والمسالح التى يمر بها المسلمون اليوم ــ **فربما أخلاها أهلها وهربوا الى بلاد الروم خوفا ، وربما نقل اليها من مقاتلة الروم من تشحن بهم ، وقد قيل ان هرقل أدخل أهل هذه المدن معه عند انتقاله من انطاكية لئلا يسير المسلمون فى عمارة ما بين انطاكية وبلاد الروم** ٠٠٠ قالوا : الأمر المتعالم عندنا أن هرقل نقل أهل هذه الحصون معه وشعثها ، فكان المسلمون اذا غزوا لم يجدوا بها أحدا ، وربما كمن عندها القوم من الروم فاصابوا غرة المتخلفين عن العسكر والمنقطعين عندها، فكان ولاة الشواتى والصوائف اذا دخلوا بلاد الروم خلفوا بها جندا كثيفا الى خروجهم ٠٠٠ ولما غزا معاوية غزوة عمورية سنة ٢٥ وجد الحصون فيما بين انطاكية وطرسوس خالية ، فوقف عندها جماعة من أهل الشام والجزيرة وقنسرين حتى انصرف من غزاته ٠٠٠ وكانت الولاة تفعله ٠ وقال : ووجدت فى كتاب مغازى معاوية أنه غزا سنة ٣١ من ناحية المصيصة فبلغ درولية فلما خرج **جعل لايمر بحصن فيما بينه وبين انطاكية الا هدمه** » (٢٣) وزاد من حرج مركز المسلمين على الحدود أن **الجراجمة** فى جبل اللكام بين بياس وبوقا كانوا يمالئون الروم على العرب حتى اضطر **عبد الملك ابن مروان الى مصالحة الروم** ليتفرغ للجبهة الداخلية ٠ واضطر الوليد بن عبد الملك أن يوجه اليهم مسلمة فيفتح بلادهم ويجليهم عنها ٠ وقد نقل معاوية سنة ٤٩ أو سنة ٥٠ الى السواحل قوما من **زط البصرة والسباتجة وانزل** بعضهم انطاكية فبأنطاكية محلة تعرف بالزط وببوقا من عمل انطاكية قوم من أولادهم يعرفون بالزط ٠ كما نقل الوليد بن عبد الملك الى انطاكية قوما من الزط السند ممن حمله محمد بن القاسم الى الحجاج فبعث بهم الحجاج الى الشام « وزعم أبو الخطاب الازدى أن أهل الجرجومة كانوا يغيرون فى أيام عبد الملك على قرى أنطاكية والعمق واذا غزت الصوائف قطعوا على المتخلف واللاحق ومن قدروا عليه ممن فى أواخر العسكر وغالوا فى المسلمين ، فأمر عبد الملك ففرض لقوم من أهل انطاكية وأنباطها وجعلوا مسالح وأردفت بهم عساكر الصوائف ليؤذنوا الجراجمة عن أواخرها فسموا الرواديف وأجرى على كل امرىء منهم ثمانية دنانير » (٢٤) كذلك رتب مروان بن محمد **الصقالبة** فى الثغور وحين بنى الخصوص فى شرقى جيحان بجانب المصيصة أسكنها فرسا وصقالبة وأنباطا نصارى (٢٥) ٠

---

(٢٣) البلاذرى : فتوح البلدان ص ١٧٠ : ٢ ٠

(٢٤) البلاذرى : فتوح البلدان ص١٦٦ : ٩ ٠

(٢٥) البلاذرى : فتوح البلدان ص ١٧٣ ٠

فلما اشتدت شوكة المسلمين واستقرت أقدامهم بالشام عزموا على ألا يدعوا حدودهم الشمالية خرابا « قال أبو الخطاب الازدى : كان أول من ابتنى حصن **المصيصة** فى الاسلام عبد الملك بن مروان على يد ابنه عبد الله بن عبد الملك فى سنة ٨٤ على أساسها القديم فتم بناؤها وشحنها فى سنة ٨٥ ، وكانت فى الحصن كنيسة جعلت هريا . وكانت الطوالع من أنطاكية تطلع عليها فى كل عام فتشتو بها ثم تنصرف وعدة من كان يطلع اليها ألف وخمسمائة الى الألفين » **فالثغور لم تسكن بعد سكنا دائما ولم تشحن باعداد كثيفة** ، ويوضح تردد المسلمين فى تعمير الحدود الشمالية ما روى من أن عمر بن عبد العزيز « شخص حتى نزل هرى المصيصة وأراد هدمها وهدم الحصون بينها وبين أنطاكية ، وقال : أكره أن يحاصر الروم أهلها ــ فأعلمه الناس أنها انما عمرت ليدفع من بها من الروم عن انطاكية ، فامسك وبنى لأهلها مسجدا جامعا من ناحية كفر بيا واتخذ فيه صهريجا وكان اسمه عليه مكتوبا ... ثم بنى هشام ابن عبد الملك الربض ، ثم بنى مروان بن محمد الخصوص فى شرقى جيحان وبنى عليها حائطا واقام عليها باب خشب وخندق خندقا » . وفى عهد هشام بن عبد الملك **بنيت حصون المثقب وقطر غاش ومورة** « وكان سبب بنائه أن الروم عرضوا لرسول له فى درب الكلام عند العقبة **البيضاء** ، **ورتب فيه اربعين رجلا وجماعة من الجراجمة** » ، وكذلك أقيمت **ببغراس مسلحة** فى خمسين رجلا وابتنى لهــا حصن ، وبنى **حصن بوقا** . ولم يفت المسلمين أن يؤمنوا الطريق بين انطاكية والمصيصة ، فقد كان «مسبعة يعترض للناس فيها الأسد ، فلما كان الوليد بن عبد الملك شكى ذلك اليه فوجه أربعة آلاف جاموسة وجاموس فنفع الله بها ... ولما قبض يزيد بن عبد الملك أموال بنى المهلب أصاب لهم أربعة آلاف جاموسة كانت بكور دجلة وكسكر فوجه بها الى المصيصة أيضــا مع زطها ... وأما جواميس أنطاكية فكان أصلها ما قــدم به الزط معهم وكذلك جواميس بوقا » (٢٦) كذلك اتجه المسلمون الى تعمير الثغور الجزرية ، وساروا فى هذا السبيل خطوات ومراحل فقد فتحت ملطية ثم أغلقت « فلمــا ولى معاوية الشام والجزيرة وجه اليها حبيب بن مسلمة ففتحها عنوة ورتب فيها رابطة من المسلمين مع عاملها ، وقدمها معاوية وهو يريد دخول الروم فشحنها بجماعة من أهل الشام والجزيرة وغيرهما فكانت طريق الصوائف . ثم أن أهلهــا انتقلوا عنهــا فى أيام عبد الله بن الزبير ، وخرجت الروم

(٢٦) البلاذرى : فتوح البلدان ص ١٧٢ : ٥ .

فشعثتها ثم تركتها فنزلها قوم من النصارى من الأرمن والنبط . وحدثني محمد بن سعد عن الواقدي في اسناده قال : كان المسلمون نزلوا طرندة بعد أن غزاها عبد الله ابن عبد الملك سنة ٨٣ وبنوا بها مساكن ـ وهي من ملطية على ثلاث مراحل ، واغلة في بلاد الروم ، وملطية يومئذ خراب ليس بها الا ناس من أهل الذمة من الأرمن وغيرهم ـ فكانت تأتيهم طالعة من جند الجزيرة في الصيف فيقيمون بها الى أن ينزل الشتاء وتسقط الثلوج فاذا كان ذلك قفلوا » **فنحن أمام حاميات مؤقتة كما كان الأمر بالنسبة للثغور الشامية** ، وتواجهنا هنا سياسة عمر بن عبد العزيز أيضا فهو قد « رحل أهل طرندة عنها ـ وهم كارهون ـ وذلك لاشفاقه عليهم من العدو ، واحتملوا فلم يدعوا لهم شيئا حتى كسروا خوابي الخل والزيت . ثم أنزلهم ملطية وأخرب طرندة » ، وولى على ملطية جعونة ابن الحارث أحد بني عامر بن صعصعة » فالمسلمون قد شرعوا يضعون أقدامهم بغية الاستقرار في الثغور أيام الأمويين ، لكنهم لم يتوطنوا هناك تماما بل كانوا يقدمون رجلا ويؤخرون أخرى « وكان بنى أمية يسمون درب الحدث السلامة ـ للطيرة ـ لأن المسلمين كانوا أصيبوا به ـ فكان ذلك الحدث فيما يقول بعض الناس » (٢٧) . وقد تعرضت هذه الثغور كلها شامية وجزرية لغارات الروم وتخريبهم في أواخر أيام الأمويين نتيجة ما أصاب الدولة الاسلامية من ضعف واضمحلال ، على أنه كانت هناك بعض محاولات متفرقة في استصلاح أمر الثغور « قال أبو الخطاب : بنى الجسر الذي على طريق أذنة من المصيصة وهو على تسعة أميال من المصيصة سنة ١٢٥ فهو يدعى جسر الوليد ، وهو الوليد بن يزيد بن عبد الملك المقتول » « فلما كانت أيام مروان بن محمد وشغل بمحاربة أهل حمص خرجت الروم وحصرت مدينة **مرعش** ... ثم لما فرغ مروان من أمر حمص بعث جيشا لبناء مرعش فبنيت ومدنت (٢٨) » غير أن هذه الاصلاحات لم تدم اذ أن انتقاض العباسيين على الحكم الأموي وجدهم في القضاء عليه قد ترك للروم فرصة سانحة أغاروا فيها على الثغور وخربوها .

ولما جاء العباسيون ونقلوا عاصمتهم الى المشرق اعتنوا بتدعيم الحدود وتحصينها وكأنهم وقد انصرفوا تماما عن السياسة الأموية في غزو القسطنطينية وفتح بلاد الروم قد عولوا على أن تؤدي الثغور مهمتها الأساسية كحدود فاصلة بين دولتين ، فعملوا على تشييد وتدعيم المراكز

(٢٧) البلاذري : فتوح البلدان ص ١٩٣ ـ ٤ ، ١٩٨ .
(٢٨) البلاذري / فتوح البلدان ص ١٧٥ ، ١٩٧ .

الحربية على الحدود لتؤمن الدولة الاسلامية من غارات العدو . فهم لما اعتنقوا هذه السياسة الدفاعية صمموا على أن يحكموها تماما ، وقد مضوا فى هذا منذ بواكير أيامهم . فما كاد عبد الله بن على ينجز القضاء على الدولة الاموية بالشام حتى كلف بغزو الروم . ونجد الخلفاء العباسيين الأوائل يتتابعون على تعمير الثغور لتكون مقرا للسكنى الدائمة والحاميات الكبيرة « فلما استخلف أبو العباس فرض **بالمصيصة** لأربعمائة رجل زيادة فى شحنتها وأقطعم . ثم لما استخلف المنصور فرض بالمصيصة لأربعمائة رجل ، ثم لما دخلت سنة ١٣٩ أمر بعمران مدينة المصيصة وكان حائطها متشعثا من الزلازل وأهلها قليل فى داخل المدينة ، فبنى سور المدينة واسكنها أهلها سنة ١٤٠ وسماها المعمورة ، وبنى فيها مسجدا جامعا فى موضع هيكل كان بها وجعله مثل مسجد عمر مرات ـ ثم زاد فيه المأمون ، وفرض المنصور فيها لألف رجل ثم نقل أهل الخصوص وهم فرس وصقالبة وأنباط نصارى ـ وكان مروان أسكنهم اياها ـ وأعطاهم خططا فى المدينة عوضا عن منازلهم على ذرعها ونقض منازلهم وأعانهم على البناء وأقطع الفرض قطائع ومساكن . ولما استخلف المهدى فرض بالمصيصة لألفى رجل ، ولم يقطعهم لأنها قد كانت شحنت من الجند والمطوعة ولم تزل الطوالع تأتيها من انطاكية فى كل عام حتى وليها سالم البرلسى وفرض موضعه لخمسمائة مقاتل على خاصة عشرة دنانير عشرة دنانير فكثر من بها وقووا ـ وذلك فى خلافة المهدى ... وبنى الرشيد **كفر بيا** ، ويقال بل كانت ابتنيت فى خلافة المهدى ، ثم غير الرشيد بناءها وحصنها بخندق ، ثم رفع الى المأمون فى أمر غلة كانت على منازلها فأبطلها وكانت منازلها كالحانات ، وأمر فجعل لها سور فرفع فلم يستتم حتى توفى ـ فأمر المعتصم باتمامه وتشريفه ... » « ولما كانت سنة ١٦٥ أغزى المهدى ابنه هرون بلاد الروم ، فنزل على الخليج ثم خرج فرم المصيصة ومسجدها وزاد فى شحنتها وقوى أهلها ، وبنى القصر الذى عند جسر أذنه فى سيحان ـ وقد كان بنى فى عهد المنصور ولم يكن محكما ـ ثم لما كانت سنة ١٩٤ بنى أبو سليم فرج الخادم أذنه فأحكم بناءها وحصنها وندب اليها رجالا من أهل خراسان وغيرهم على زيادة فى العطاء وذلك بأمر محمد بن الرشيد فرم قصر سيحان » . وحين غزا الحسن بن قحطبة الطائى بلاد الروم سنة ١٦٢هـ فى أهل خراسان وأهل الموصل والشام وأمداد اليمن ومطوعة العراق والحجاز « نزل مرج طرسوس ، فركب الى مدينتها وهى خراب ، فنظر اليها وأطاف بها من جميع جهاتها وحزر عدة من يسكنها فوجدهم مائة ألف ، فلما قدم على المهدى وصف له أمرها وما فى بنائها وشحنتها

من غيظ العدو وكبته وعز الاسلام وأهله ، وأخبره فى الحدث أيضا بخبر رغبته فى بناء مدينتها ، فأمره ببناء طرسوس وأن يبدأ بمدينة الحدث . فلما كانت سنة ١٧١ بلغ الرشيد أن الروم ائتمروا بينهم بالخروج الى طرسوس لتحصينها وترتيب المقاتلة فيها فاغزى الصائفة سنة ١٧١ هرثمة بن اعين وأمره بعمارة طرسوس وبنائها وتمصيرها ففعل واجرى أمرها على يد فرج بن سليم الخادم بأمر الرشيد فوكل فرج ببنائها وتوجه أبو سليم الى مدينة السلام : فاشخص الندبة الأولى من أهل خراسان - وهم ثلاثة آلاف رجل - فوردوا طرسوس ، ثم أرسل الندبة الثانية وهم الفا رجل : ألف من أهل المصيصة وألف من أهل انطاكية على زيادة عشرة دنانير عشرة دنانير لكل رجل فى أصل عطائه - فعسكروا مع الندبة الأولى بالمدائن على باب الجهاد فى مستهل المحرم سنة ١٧٢ الى أن استتم بناء طرسوس وتحصينها وبناء مسجدها . ومسح فرج ما بين النهر الى النهر ، فبلغ ذلك أربعة آلاف خطة - كل خطة عشرين ذراعا فى مثلها - وأقطع أهل طرسوس الخطط ، وسكنتها الندبتان فى شهر ربيع الآخر سنة ١٧٢ ، ثم عمرت سيسية مدينة تل عين زربةفى خلافة المتوكل على يدى على بن يحيى الأرمنى ثم أخربتها الروم . وفى سنة ١٨٠هـ أمر الرشيد بابتناء مدينة عين زربة وتحصينها ، وندب اليها من أهم خراسان وغيرهم فاقطعهم بها المنازل ، ونقل اليها المعتصم بشرا من الزط قد كانوا غلبوا على البطائح بين واسط والبسرة فانتفع أهلها بهم وفى سنة ١٨٣هـ أمر الرشيد ببناء الهارونية ، فبينت وشحنت بالمقاتلة ومن نزح اليها من المطوعة ... ويقال انه بناها فى خلافة المهدى ثم أتمت فى خلافته ، . كما أمر الرشيد ببناء مدينة الكنيسة السوداء وتحصينها وندب اليها المقاتلة فى زيادة العطاء ، وكانت من حجارة سود بناها الروم على وجه الدهر ولها حصن قديم أخرب فيما أخرب ، (٢٩) . ولم يكن العباسيون أقل نشاطا فى تعمير الثغور الجزرية ، فلما كانت سنة ١٣٩ كتب المنصور الى صالح ابن على يامره ببناء ملطية وتحصينها ، ثم رأى أن يوجه عبد الوهاب ابن ابراهيم الامام واليا على الجزيرة وثغورها - فتوجه فى سنة ١٤٠ هـ ومعه الحسن بن قحطبة فى جنود أهل خراسان ، فقطع البعوث على أهل الشام والجزيرة - فتوالى معه سبعون الفا فعسكر على ملطية وقد جمع الفعلة من كل بلد . فاخذ فى بنائها وكان الحسن بن قحطبة ربما حمل الحجر حتى يناوله البناء ، وجعل يغدى الناس ويعيشهم من ماله مبرزا مطابخه .

(٢٩) البلاذرى : فتوح البلدان ص ١٧٣ : ٩ .

فغاظ ذلك عبد الوهاب فكتب الى أبي جعفر ز.. فكتب اليه أبو جعفر : يا صبي يطعم الحسن من ماله وتطعم من مالي ، ما أتيت الا من صغر خطرك وقلة همتك وسفه رأيك ، وكتب الى الحسن أن أطعم ولا تتخذ منـاديا . فكان الحسن يقول : من سبق الى شرفة فله كذا ، فجد الناس في العمل حتى فرغوا من بناء ملطية ومسجدها في ستة أشهر ، وبنى للجند الذين أسكنوها ـ لكلعرافة بيتان سفليان وعليتان فوقهما واسطبل (والعرافة عشرة نفر الى خمسة عشر رجلا) ، وبنى لها مسلحة على ثلاثين ميلا منها ومسلحة على نهر يدعى قباقب يدفع في الفرات . وأسكن المنصور منطية أربعة آلاف مقاتل من أهل الجزيرة لانها من ثغورهم على زيادة عشرة دنانير في عطاء كل رجل ومعونة مائة دينار سوى الجعل الذي يتجاعله القبائل بينها ، ووضع فيهـا شحنتها من السلاح، وأقطع الجنـد المزارع ، وبنى حصن قلوذية » . وفي خلافة المنصور بنى صالح بن علي مرعش « وحصنها وندب الناس عليها علىزيادة العطاء ، واستخلف المهدي فزاد في شحنتها وقوى أهلها » . وكلم الحسن بن قحطبة المهدي في بناء الحديث وبناء طرسوس « فأمر بتقديم بناء الحديث ، فانشأها علي بن سليمان بن علي وهو على الجزيرة وقنسرين وسـميت المحمدية والمهدية ، وكان بنـاؤها باللبن ، وتوفى المهدي مع فراغهم من بنائهـا فولى الهـــادى الجزيرة وقنسرين محمـد ابن ابراهيم بن محمـد بن علي ففرض فرضـا من أهل الشـام والجزيرة وخراسان في أربعين دينارا من العطاء واقطعهم المساكن واعطى كل امرىء ثلثمائة درهم ... وقال أبو الخطاب: فرض علي بن سليمان بمدينة الحدث لأربعة آلاف فاسكنهم اياها ونقل اليها من ملطية وشمشاط وسميساط وكيسوم ودلوك ورعبـان الفى رجل . قال الواقدى : ولما بنيت مدينـة الحدث هجم الشتاء والثلوج وكثرت الامطار ولم يكن بناؤها بمستوى منه ولا محتاط فيه .. فتثلمت المدينة وتشعثت ونزل بها الروم فتفرق عنها من كان فيها من جندها » ويصف غير الو اقدى طريقة البناء «كان بناؤها بلبن قد حمل بعضــه على بعض » . فلمـا ولى الرشـيد الخلافة أمر ببنائهـا وتحصينها وشحنتهـا واقطاع مقاتلتهـا المساكن والقطـائع وتوالى على تحصين زبطرة المنصور والرشيد والمأمون والمعتصم (٣٠) . وقد وجهالمأمون ابنه العباس لبناء الطوانة سنة ٢١٨ هـ « وكان قد وجه الفعلة والفروض فابتدأ البناء وبناها ميلا في ميل وجعل سورها على ٣ فراسخ وجعل لها ٤ أبواب وبنى على كل باب حصنا » . وكتب الى اخيه اسحق أنه فرض على

(٣٠) البلاذري : فتوح البلدان ص ١٩٥ : ٢٠٠ .

لأجناد الشام ٤٠٠٠ رجل وأنه يجرى على الفارس ١٠٠ درهم وعلى الراجل ٤٠ درهما وكتب للعباس بمن فرض فى قنسرين والجزيرة (٣١) ٠

وهكذا نشأت المدن الاسلامية بالتدريج : الأمصار والاجناد فالرباطات فالعواصم والثغور ٠ وشهدت هذه البلاد مع تقديم المسلمين واستقرارهم العرب وغيرالعرب، وعاش السكان فيها فى الخطط والقطائع، وتوطن المقاتلة ونزح اليها المطوعة وقامت فيها المساجد تعلى شعائر الاسلام على الحدود بين عالمين حضاريين متميزين ٠ وبارك الفقه الاسلامى هذا التمدد السياسى والاجتماعى « فاذا وطن الاعرابى مصرا من أمصار المسلمين فقد خرج من الاعرابية وصار من أهل الامصار ، التحق فى الديوان أو لم يلحق » (٣٢) ٠

وكان ارتياد موقع الثغر هو الخطوة التمهيدية الاساسية ٠ وتدل النصوص على أن البناء فى الثغور كان يجرى صيفا وينتهى على عجل ، وكانت ترتب أثناءه الحراسة الكافية ، ولهذا كله تحشد لانجازه الآلاف العديدة ٠ كان هناك تقسيم للعمل وتشجيع على السبق ٠ والنصوص تسجل بناء الخانات : وهى مجموعة مساكن تلتف حول ساحة مشتركة وتعرف اليوم فى كرمانشاه وهمذان على طريق بغداد — طهران، كما تسجل بناء خطط الواحدة منها ٢٠ ذراعا فى مثلها تتسع لأسرة أو عرافة وقد بنيت طرسوس خططا ، وجاء فى وصف العرافة أنها تتألف من ٤ بيوت — أى حجرات — منها بيتان سفليان وآخران علويان واصطبل ٠ ويتصور أن تكون الخانات والعرافات والخطط متلاصقة بينها دروب ضيقة ويحيط بالثغر سور (٣٢ م) ٠

ويقسم متز مدن المملكة الاسلامية أربعة أنواع : مدنا على الطراز اليونانى فى صورته الشرقية والمعروف فى حوض البحر المتوسط، والمدن التى على طراز جنوب جزيرة العرب مثل مدينة صنعاء ومن هذا الطراز مكة والفسطاط — وتختص المدن العربية بتقارب المبانى وارتفاع الدور ، والمدن التى كانت تشيد على النظام البابلى ، والمدن التى كانت على الطراز المعروف فى شرق المملكة الاسلامية ٠ والمدن الايرانية كانت تتألف من

---

(٣١) الطبرى جـ ١٠ ص ٢٨٤ ٠

(٣٢) شرح السير الكبير لمحمد بن الحسن املاء السرخسى جـ ١ ص ٩٥ ٠

(٣٢م) د. شميرة : المرابطون فى الثغور البرية العربية الرومية بحث فى كتاب (الى طه حسين فى عيد ميلاده السبعين) ٠

قلعة (قوهندز) ومن المدينة الرسمية (ولها في العادة أربعة أبواب)، ومن قسم تجاري يشتمل على الاسواق - وكان كل قسم محصنا بسوره الخاص • وقد ظهر منذ منتصف القرن ٣ هـ طراز خامس وذلك أن الملوك صاروا يبنون لانفسهم الى جانب العاصمة مدنا خاصة يتخذونها مقرا لهم، مثل سامرا والجعفرية على دجلة بجانب بغداد ورقادة التي اتخذها بنو الأغلب بجوار القيروان والقطائع التي اتخذها الطولونيون بمصر (٣٣) • **ويمكننا أن نعتبر المراكز العسكرية على الحدود نوعا متميزا خاصا من أنواع المدن الاسلامية ، اذ اثرت الظروف الحربية على العمارة والادارة والمجتمع •**

هذا وقد كان الامويون يميلون الى سكنى الصحراء ، ويفسر البعض ذلك بغلبة روح التبدي العربية عليهم ورغبتهم في تنشئة أبنائهم في بيئة عربية ونزوعهم الى الفرار من الأوبئة والحشرات• وقد لاحظ ابن‌خلدون أن العرب لعهد بني أمية كانوا لا يزالون يسكنون البيوت من الوبر والصوف ، وقد أحس عمر بحنين العرب الى الصحراء فبنى لهم الامصار على حافتها ، ولما جاء بالشام نزل الجابية • ولدينا من العصر الأموي بقايا ما يقرب من ثلاثين من **المراكز الصحراوية** أغلبها للخلفاء ، كما أن بعض النساء الأمويات بنين لهن قصورا • فاقام الامويون مباني فخمة مفتوحة للريح من كل جانب يقيمون فيها في الربيع والشتاء وحتى في الصيف ، وعلى البيوت قباب وتحيطها أسوار، وحوائطها مزخرفة وأرضها مفروشة بالرخام أو البازلت وبها صهاريج الماء • وقد كان معاوية يحب الاقامة بجانب بحيرة طبرية وكذلك ابنه يزيد ، وبنى الوليد قصورا صحراوية وينسب اليه بناء قصر المشتى قرب البحر الميت أما سليمان، فانشأ الرملة على الطريق الممتد من القدس الى البحر وقد يكون بناها حينما ولي جند فلسطين من قبل الوليد واستكملها في خلافته ، وسكن عمر بن عبد العزيز خناصرة - بليدة شرقي حلب ، ويزيد بن الوليد موقر في البلقاء قرب دمشق ، وهشام بالس بين حلب والرقة على الفرات أو الرصافة على طرف البرية غربي الفرات وقد كان هذا الموضع للملوك الغساسنة وتكثر به الكنائس العظيمة • وشرب سكانها من صهاريج لانه لم يكن عندها نهر ولا عين جارية • ولعل الوليد الثاني هو الذي بنى قصر مشتى وغيره (٣٤) • ولقيت بعض مدن الجزيرة اهتماما خاصا لدى

---

(٣٣) متز : الحضارة الاسلامية ترجمة دكتور أبي ريدة جـ ٢ ص ١٩٨ - ٩ •

(٣٤) دكتور ماجد : التاريخ السياسي للدولة العربية جـ ٢ ص ٢٤١ : ٣ والهامش و ص ٢٨٠ •

العباسيين ، ففي سنة ١٥٤ هـ وجه المنصور المهدى الى الرقة لبناء الرافقة « فبناها على بناء بغداد في أبوابها وفصولها ورحابها وشوارعها وسورها وسورها وخندقها »• وجاء الرشيد فمضى سنة ١٨٠ هـ الى الرقة فنزلها « واتخذها وطنا » وقد كان خاف من الجند ما خاف المعتصم ، فلما «وثب أهل الشام بالشام وعصوا خرج الرشيد الى الرقة فاقام بها » (٣٥). وقد بنى المعتصم سامرا ، كما بنى المتوكل الماحوزة التى سميت الجعفرية والمتوكلية (٣٦) •

(ب) التقسيم الادارى :

من الواضح أن هناك تشابها بين الأسس العامة التى سار عليها كل من الرومان والعرب في تقسيماتهم الادارية ، فقد كانت (**المدينة**) هى الأساس الذى قام عليه التنظيم الادارى السياسى الرومانى ، وكانت المدن هى المراكز التى اعتمد عليها العرب أيضا فى الحكم والادارة • ولقد انتفع العرب باهتمام الرومان بالمدن وتنظيمهم اياها وعنايتهم باتقان بنيانها وتزويدهم اياها بما استطاعوا تزويدها به من وسائل العمران المدنى، ولايبدو ذلك بصورة هى أوضح مما يبدو بها فى الشام والأندلس « **ففى الشام تعلق العرب بالمدن وتجمعوا فيها وجعلوها مراكز عسكرية، والحقوا بكل منها جانبا من الريف اعتبروه حوزا للمدينة أو زماما – وهذا هو ما عرف بالأجناد** – وكان مفهوم المدينة عند الرومان مفهوما سياسيا واجتماعيا خاصا ، أخذوه عن الاغريق وأضافوا اليه وعدلوه بما يناسب الطبيعة العسكرية السياسية الخاصة بدولتهم • وأصبحت المدينة مرادفا لنظام سياسى يتضمن حريات وحقوقا وواجبات معينة يعتبر الحصول عليها حصولا على حق المواطنة الرومانية• فاذا دخل الرومان بلدا قسموه أقساما بحسب طريقة دخولهم: عنوة أو صلحا أوبمحالفة أو ما الى ذلك• وقد يرفع الرومان مستوى بعض النواحى بعد زمن ويمنحونها حق المدينة أى حق المواطنة • ولم تكن المدينة عندهم مجرد مدينة بل كان لها زمام محيط بها Orbs-is تابعا لها حكمه كحكمها وسكانه مواطنون فيها • واذا كان هذا الزمام واسعا قسم الى أقسام • وقد ثبت الرومان زمامات المدن وفصلوا أمرها فيما أصدروه من وثائق خاصة بها • وعند ماظهر نظام الولايات Provinciae فى نهاية أيام الجمهورية الرومانية نشأت المديريات

---

(٣٥) الطبرى جـ ٩ ص ٢٩٠ ، جـ ١٠ ص ٦٨ ، ٣١١ •
(٣٦) الطبرى : جـ ١١ ص ٥٦ – ٧٠ •

عن مجموعات من المدن وزماماتها وحددت مساحة كل منهـا بمعرفة لجنة خاصة • وكان الرومان اذا فتحوا بلدا اجتهدوا فى ترتيب أرضه وأهله: فأما الارض التى وجدوها أو أدخلوها فى حوزة مدينـة فاحتفظ أهلهـا بالحقوق التى منحها الرومان للمدينة ــ واعتبرت هذه الأرض Municipia من الناحية القـانونية ، وأما الأرض التى استصفوها أو وجدوها طلقـة لا تتبع أحدا فقـد أنشأوا فيها المستعمرات Coloniae وجلبوا اليها المعمرين Coloni لتعميرها لقاء ضريبة يؤدونها على أساس ما يمتلكه كل معمر من أرض • أما المدن نفسها فقد اختلف وضعها بحسب علاقتها بالرومان وكان للرومان أسس قانونية معقدة خاصة بهذه المدن ، غير أن أوضاع المدن قد تقارب بعضها من بعض خـلال القرون الرومانية المتأخرة كما أن أوضاع الناس قد تقاربت كذلك • **وكان الاتجاه فى الادارة الاسلامية عامة يميل نحو الاقسام الادارية الصغيرة تيسيرا لضبط الأمن وربط المال فحوض الدجلة والفرات مثلا كان يضم مالايقل عن ١٥ كورة ، ولا يشذ عن ذلك الا الشام فقد قسم الى مناطق عسكرية كبيرة تسمى الأجناد • ثم ان النظم الادارية الاسلامية كانت لا تميل الى تجزئة الوحدات الادارية الى أجزاء والأجزاء الى أجزاء أصغر كما فى النظام الرومانى ، فاكتفى المسلمون بالكور ــ كل كورة تتبعها مدن وكل مدينة تتبعها أقاليمها أو زماماتها • وقد أدى ذلك الى تبسيط السلم الادارى** ــ فالادارة المركزية يتبعها عمال الكور ، وعمال الكور يتبعهم عمال المدن وهم المسئولون عن زمامات المدن أو أقاليمها ، وجرت العادة أن يعين عامل المدينة عاملا خاصا بالمدينة نفسها يسمى صاحب المدينة • ومن هنا **فقد كان عدد الموظفين فى الادارة الاسلامية لا يبلغ خمس عددهم فى الادارة الرومانية وخاصة** منذ أيام ــ دقلديانوس الذى زحم الادارات بالموظفين وجعلهم طبقات بعضها فوق بعض • وقد **وجد المسلمون عند فتح الشام نظام الأجناد البيزنطى ، والمراد بها ولايات عسكرية ينزلها جند ، والجند « فرق من المحاربين وهى تقابل** thema **فى التنظيم البيزنطى ويسميها العرب البند وجمعها بنود ، ويحكم كل منها قائد عسكرى • وكان الجند أول الأمر تنزله قبيلة واحدة أو عدة قبائل متحالفة ويكون لها خراج الناحية فى مقابل تقديمها لجند كامل أى « فرق من المحاربين •** ولم يعرف نظام الاجناد الا فى الشام وقد كان من أوكد أسباب قوة الدولة اذ ضمن لها المحاربين • وكان الجند فى الشـــام يضم كورا كثيرة » (٣٧) •

(٣٧) دكتور مؤنس : فجر الاندلس ص ٥٤٦ ، ٩ : ٥٥٤ ــ ٥ •

وقد استعملت الادارة الاسلامية مصطلحات كثيرة حاول المؤلفون تحديدها بقدر الامكان « قال الحسن البصرى : لا جمعة الا فى **الامصار** ـ المدينة والبصرة والكوفة والبحرين والجزيرة والشـــام ومصر · قال الضحاك : هذه هى البلدان التى جعلها عمر أمصارا » (٣٨) · والمقدسى يقول « وقد اختلف فى الامصار : فقالت الفقهاء : المصر كل بلد جامع يقام فيه الحـدود ويحله أمير ويقوم بنفقته ويجمع رستاقه ـ مثـل عثر ونابلس وزوزن ، وعند أهل اللغة المصر كل ماحجز بين جهتين ـ مثل البصرة والرقة وأرجان ، والمصر عند العوام كل بلد كبير جليل ـ مثل الرى والموصل والرملة · وأما نحن فجعلنا المصر كل بلد حله السلطان الأعظم وجمعت اليه الدواوين وقلدت منه الاعمال وأضيف اليه مدن الاقليم ـ مثل دمشق والقيروان وشيراز · وربما كان للمصر أو للقصبة نواح لهـــا مدن ـ مثل طخارستان لبلخ والبطائح لواســـط والزاب لافريقية · فالاقاليم أربعة عشر : ستة عربية ـ جزيرة العرب ثم العراق ثم أقور ثم الشام ثم مصر ثم المغرب ، وثمانية عجمية ـ المشرق ثم الديلم ثم الرحاب ثم الجبال ثم خوزستان ثم فارس ثم كرمان ثم السند · **ولابد لكل اقليم من كور ، ثم لكل كورة من قصبة ، ثم لكل قصبة من مدن** ـ الا الجزيرة والمشرق والمغرب : فان لكل واحد مصرين ، والمصر قصبته كورته ، وليس كل قصبة مصرا · ثم الامصار اسم كورها أيضا ـ الا الأربع الأول ··· الخ » (٣٩) · أما ياقوت فيعرف فى ايجاز المصر « **والمصر** فى الأصل الحد بين الشيئين ··· » ويقول عن **الكورة** « ذكر حمزة الاصفهانى : الكورة اسم فارسى بحت يقع على قسم من أقسام الاستان وقد استعارتها العرب وجعلتها اسما للاستان كما استعارت الاقليم من اليونان فجعلته اسما للكشتمر فالكورة والاستان واحد · قلت أنا : الكورة كل صقع يشتمل على عدة قرى ، ولابد لتلك القرى من قصبة أو مدينة أو نهر يجمع اســـمها ذلك اسم الكورة ··· وأما **الاستان** فقد ذكرنا عن حمزة أنه قال : ان الاستان والكورة واحد ـ ثم قال شهرستان وطبرستان وخوزستان مأخوذ من الاستان فخفف ··· ثم ينقسم الاستان الى الرساتيق ، وينقسم الرستاق الى الطساسيج ، وينقسم كل طسوج الى عدة من القرى · وأما **الرستاق** فهو فيما ذكره حمزة : مشتق من روذه فستا ـ وروذه اسم للسطر والصف والسماط

(٣٨) تهذيب ابن عساكر لبدران : م ١ ص ٤٤ ·
(٣٩) المقدسى : احسن التقاسيم ص ٤٧ ·

وقستا اسم للحال ، والمعنى أنه على التسطير والنظام • قلت : الذى عرفناه وشاهدناه فى زماننا فى بلاد الفرس أنهم يعنون بالرستاق كل موضع فيه مزارع وقرى ولا يقال ذلك للمدن • وأما **الطسوج** فهو أخص وأقل من الكورة والرستاق والاستان ، كأنه جزء من أجزاء الكورة ــ كما أن الطسوج جزء من أربعة وعشرين جزءا من الدينار ، لأن الكورة قد تشتمل على عدة طساسيج وهى لفظة فارسية » (٤٠) • ويلاحظ أن مصطلح الكورة لم يكن فى بلاد الاسلام محدد المعنى ، وكلام ياقوت غير متناسق لا ينتهى الى مفهوم واضح للكورة ، وربما كان سبب ذلك الغموض أن الكورة كمصطلح ادارى لم يستعمل بصورة منتظمة الا فى مصر ، أما فى العراق وما يليه شرقا فكان المصطلح يستعمل تجوزا ، وقد استعمله الجغرافيون أمثال المقدسى والاصطخرى للتسهيل ــ وهما يخلطان بين الكورة والرستاق والاستان والرم وما الى ذلك من المصطلحات الادارية (٤١) • وقد استخلص متز تصنيف القرن الرابع للمدن فلم يدخل فيه الكور بل قصره على : الامصار ، القصبات وهى عواصم الاقاليم ومقامها من الامصار مقام الحجاب من الملوك ، والمدن وهى مايلى القصبة فى الاقاليم ومقامها مقام الجند ، والنواحى مثل نهاوند وجزيرة ابن عمر ، والقرى وهى الملحقة بالمدن ومقامها مقام الرجالة ــ وواضح أن متز اعتمد على المقدسى فيما خلص اليه (٤٢) •

وفى منطقة الثغور تتصل الشام بالجزيرة مما يثير مسالة **تحديد الحدود بين ما هو شامى وما هو جزرى** وقد قال المقدسى عن الرقة مثلا « فالشام على تخمها والفرات الى جنبها » وقال فى تحديد الشام « وأهل العراق يسمون كل ماكان وراء الفرات شاما ، ولهذا أرسل محمد بن الحسن القول فى دواوينه : وليس وراء الفرات من الشام غير كورة قنسرين حسب والباقى بادية العرب والشام من ورائها ــ وانما أراد محمد التقريب والمتعارف بين الناس كما يقال لخراسان المشرق وانما هو من ورائها ، وانما الشام كل ما قابل اليمن وكان الحجاز بينهما • فان قال قائل : ما تنكر أن يكون طرف البادية الى حدود العراق من الشام ليصح ماقاله أهل العراق ؟ قيل : قد قسمنا الاقاليم ورسمنا الحدود فلا ينبغى لنا أن ندخل فى اقليم من غيره » • على أن الاصطخرى

(٤٠) ياقوت : معجم البلدان جـ ١ ص ٣٦ : ٩ •

(٤١) دكتور مؤنس : فجر الاندلس ص ٥٧٧ ــ ٨ •

(٤٢) متز : الحضارة الاسلامية ترجمة دكتور ابى ريده ص ١٩٥ •

وابن حوقل يريان أن ثغور الشام والجزيرة كلها من الشام « وذلك ان كل ما كان وراء الفرات فمن الشام • وانما سميت ثغور الجزيرة بذلك لأن أهل الجزيرة بها يرابطون ومنها يغزون » • وقد راعى المقدسى تطور الاحوال فى أيامه فقال عن اعتبار القصبة حلب بعد أن كانت قديما قنسرين « فان قال قائل : لم جعلت قصبة الكورة حلب ــ وهاهنا مدينة على اسمها ؟ قيل له : قد قلنا ان مثل القصبات كالقواد والمدن كالجند ولا يجوز أن نجعل حلب على جلالتها وحلول السلطان بها وجمع الدواوين اليها وانطاكية ونفاستها وبالس وعمارتها أجنادا لمدينة خربة صغيرة •• كذلك ميز بين التقسيم الجغرافى والتقسيم السياسى أو الادارى « فان زعم زاعم أن بدليس من اقليم أقور واستدل أنها كانت فى ولايات بنى حمدان ــ أجيب بأنه لما ادعاها أهل الاقليمين جعلناها من هذا ــ أى أرمينية بالرحاب ــ لانا وجدنا لها نظيرا فى الاسم وهى تفليس ــ وأما الولايات فليست حجة فى هذا الباب ــ ألا ترى أن سيف الدولة كانت له قنسرين والرقة ولم يقل أحد أن الرقة من الشام ؟ » (٤٣) •

وفى البيان التالى عرض للمراحل التى مر بها التقسيم الادارى للشام فى أجناده حتى انتهى الى أفراد الثغور والعواصم فى ولاية خاصة ، وتمهيدا لذلك تعرض للتقسيم الادارى فى الدولة الاسلامية عموما •

١ ــ التقسيم الادارى للدولة الاسلامية عموما :

كانت الدولة الاسلامية على عهد الأمويين مقسمة اداريا الى خمس ولايات كبرى :

١ ــ الحجاز واليمن ووسط شبه جزيرة العرب ــ بما فى ذلك نجد •

٢ ــ مصر وتنقسم قسمين أسفل الأرض وأعلى الأرض •

٣ ــ العراقان : العربى والعجمى ، وكانا يعتبران ولاية كبيرة يحكمها والى العراق وحاضرته الكوفة ، ويتبعه أيضا خراسان وما وراء النهر وكان يلى أحدهما عامل من قبل والى العراق ومركزه مرو ، وكانت البصرة معتبره ولاية يعين عاملها والى العراق ، ويتبع عامل البصرة ولاية

(٤٣) المقدسى : أحسن التقاسيم ص ١٥٢ ، ١٥٦ ، ٣٧٥ ، الاصطخرى : المسالك والممالك ص ٤٣ ابن حوقل •

البحرين وعمان – وكان يعين عليها عامل من قبله وكانت السند ولاية تابعة لوالى العراق أيضا ٠

٤ – الجزيرة (شمال العراق) ويتبعها أرمينية وأذربيجان ومايدخل في الدولة الاسلامية من اراضى آسيا الصغرى ٠

٥ – افريقية وحاضرتها القيروان ويتبعها المغرب الأوسط والمغرب الأقصى والأندلس ، وكان والى افريقية يعين من قبله ولاة على هذه الأقسام بما فى ذلك الأندلس (٤٤) ٠

وواضح أن الشام لم تدخل فى هذا التقسيم وان كانت من قبل ولاية فى عهد الراشدين لكنها قد غدت قاعدة الحكم الاموى « لمقام بنى أمية فى الشام وكون الولاة فى أيامهم بمنزلة الشرطة لا يستقلون بالامور والحروب » (٤٥) ٠ كما أن هذه الأقسام كانت أكثر عددا فى أول الأمر – حوالى ٩ عمالات تقريبا ثم تبلورت بالتدريج الى هذه الصورة ٠

وتتفق هذه الأقسام الادارية بوجه عام مع الولايات السابقة التى كانت موجودة أيام امبراطوريتى البيزنطيين والفرس ، ولم يحدث العباسيون تغييرا جوهريا فى النظام الذى وضعه الأمويون للامبراطورية ٠ وقائمة أسماء الاقاليم العباسية لم تكن واحدة فى كل العصور ، كما أن التقسيم السياسى لها كان لا يتبع دائما التقسيم الجغرافى كما يتبين ذلك من كتب الاصطخرى وابن حوقل وابن الفقيه وغيرها ٠ ويعدد الدكتور حتى أشهر الولايات فى أول عهد خلفاء بغداد فى ٢٤ ولاية تقريبا :

افريقية : غربى ليبيا بما فيها صقلية ، مصر ، **الشام وفلسطين وتنفصلان أحيانا** ، الحجاز واليمامة ووسط بلاد العرب ، اليمن وجنوب بلاد العرب ، البحرين وعمان وعاصمتها البصرة بالعراق ، السواد أو العراق (أدنى بلاد النهرين Mesopotamia) وأشهر بلدانها بغداد والكوفة وواسط ، **الجزيرة (آشور القديمة) وعاصمتها الموصل** ، أذربيجان وأشهر مدنها اردبيل وتبريز والمراغة ، الجبل (ميديا القديمة)

---

(٤٤) دكتور مؤنس : تعليق بهامش تاريخ التمدن الاسلامى لجرجى زيدان جـ ١ ص ١١٤ ، أيضا دكتور حتى . تاريخ العرب ترجمة نافع م ١ ص ٢٧٨ تاريخ سورية جـ ٢ ترجمة دكتور اليازجى ص ٨٧ ، أمير على : مختصر تاريخ العرب والتمدن الاسلامى ترجمة رافت ص ١٦٣ ٠

(٤٥) ابن العديم : زبدة الحلب جـ ١ ص ٤١ ٠

وسـميت العراق العجمى ، خوزستان وأشهر مدنهـا الاهواز وتستر ، فارس وحاضرتها شيراز، كرمان ، مكران (بلوخستان الحالية) ، سجستان، أو سستان وعاصمتها زرنج ، قوهستان ، قومس ، طبرستان ، جرجان، أرمينية ، خراسان (شمال غربى الافغان الحالية) وأشهر مدنها نيسابور ومرو وهرات وبلخ ، خوارزم ، الصغد (بين نهرو سيحون وجيحون)، ومن بلدانها المشهورة بخارى وسمرقند ، فرغانة والشاش (طشـقند الحالية) وغيرهما من البلاد التركية (٤٦) ٠

٢ ـ الأجناد :

الجند فى المصطلح العام هم العسـكر ، أما فى مصـطلح الدولة الاسلامية خلال عصر الراشدين والأمويين فـيراد بهم **الجند العربى المدون فى الديوان ـ الذى يفرض لرجاله العطاء (المرتبات)** والارزاق (ما كان يعطى للجند علاوة على مرتبه من الزيت والقمح والعسل والنسيج) ٠ أما، فى المصطلح الادارى فالجند هو **الاقليم العسكرى الذى تقوم بحراسـته،** وتقيم فيه حامية عربية ٠

يقول البلاذرى : « وقد اختلفوا فى تسمية الأجناد فقال بعضـهم سمى جندا لأنه جمع كورا ٠٠ وقال بعضهم سميت كل ناحية لها جنـد يقبضون أطماعهم بها جندا » ٠ وأول ناحية قسمت الى أجناد ـ أى ولايات عسكرية ـ هى الشام اذ قسمت الى أربعة أجناد ٠ وقد اعتبرت البصرة والكوفة أول الامر جندين واعتبرت مصر جندا ، ثم تحولت البصرةوالكوفة الى كورتين وقسمت مصر كورا ، ولم يعد العراق ومصر جندين أو ولايتين عسكريتين **أما الشام فقد ظل مقسما الى أجناد لأن الدولة الاموية اعتبرت الشام كله اقليما عسكريا** ، ومن الشام انتقل نظام الاجناد الى الاندلس فأنشئت فيه ست ولايات عسكرية عرفت بالاجناد ٠ وفى غير الشـام والاندلس لم يستمر نظام الاجناد ، بل حولت أراضى الدولة الاسـلامية كلها الى كور ـ أى الى أقسام زراعية مالية ٠

وكانت الاجناد تخضع لنظام ادارىّ مالى خاص ، فكان قائد الجنـد يعتبر حاكم الاقليم ـ فى حين أن الخلافة كانت تقيم على الولايات الاخرى عاملا مدنيا وقائدا عسـكريا وقد يجمع الامران للعـامل اذا كان من العسكريين ٠ وبينما كانت الولايات تؤدى خراجا عن الارض كانت الاجناد

(٤٦) حتى : تاريخ العرب ٠ ترجمة نافع جـ ٢ ص ٤١١ ـ ١٢ ٠

تؤدى العشر فقط لأن الذين كانوا يجمعون الضرائب ويؤدونها الى الدولة كانوا قواد الاجناد وهم عرب ــ والعرب لا يدفعون الا العشر على اعتبار أنه صدقة لا خراج • وكان المزارعون يؤدون الخراج الى قائد الجند فيؤدى منه العشر ويستفضل الباقى ليوزعه على جنده • ويرجع نظام الاجناد الى التقسيم البيزنطى للدولة أيام هرقل الى أقسام عسكرية يسمى واحدها Thema وجمعها Themata وقد عربه العرب بالنسبة لأقسام الدولة البيزنطية الى بند وبنود (٤٧) •

ويفسر سير الجيوش العربية فى فتوح الشام الاقسام الادارية التى قسمت اليها بلاد الشام فيما بعد عندما وضع الخليفة الثانى والادارى العظيم عمر قواعد الحكم الاسلامى هناك • وقد نقل ابن الشحنة بعد تسمية الصديق الكور لجيوش الفتح « قال : فدل بذلك على أن الشام لما كان بأيدى الروم كان منقسما الى هذه الكور الاربع لاغير » (٤٨) • والاجناد الاربعة التى انقسمت اليها الشام فى أول الامر : جند دمشق ، وجند حمص ، وجند الاردن ، وجند فلسطين • ثم فصل من جند حمص جند قنسرين • ويتصل التقسيم الحماسى لأجناد الشام الى حد كبير بالاقاليم البيزنطية والرومانية القديمة كما وجدها العرب فى الواقع زمن الفتح ، وكما وصفت فى تقنين ثيودوسيوس Code of Theodosius ويرجع الى القرن ٥ م :

١ ــ ففلسطين الأولى Palaestina Prima وعاصمتها قيصرية (قيسارية) Casarea التى تشمل اليهودية Judaea وسماريا Samaria **قد صارت جند فلسطين** وعاصمته الرملة •

٢ ــ وفلسطين الثانية Palaestina Secunda وعاصمتها سكيثوبوليس Beth Sheân) Scythopolis بيسان) التى تشتمل على الجليل Galilee والقسم الغربى من البتراء Petraea **قد صارت جند الاردن** وعاصمته طبرية •

٣ ــ فلسطين الثالثة Palaestina Tertia أو Salutaris التى تشتمل على أدوم (ايدوميا) Idumaea وبلاد العرب الصخرية Arabia Petraea **قد أدخل جزء منها فى جند دمشق وأدخل الجزء الآخر فى فلسطين •**

---

(٤٧) دكتور مؤنس : تعليق بهامش تاريخ التمدن الاسلامى لجرجى زيدان جـ ٤ ص ٧٤ • البلاذرى فتوح البلدان ص ١٣٨ •

(٤٨) ابن الشحنة : الدر المنتخب ص ٩ •

٤ و ٥ ـ فينيقيا الاولى Phoenicia Prima وعاصمتها صور Tyre ، وفينيقيا الثانية Ph. Secunda أو Ad. Libanum **وقد صارتا فى التقسيم الجديد معا الى جانب كثير من الاراضى الممتدة شرق نهر الاردن جند دمشق الكبير .**

٦ ـ سوريا الثانية Syria Secunda فى الشمال وعاصمتها أفاميا Apameia **وقد صارت عند العرب اقليما يضم حماه وحمص .**

٧ ـ وأخيرا سوريا الاولى Syria Prima وعاصمتها أنطاكية Antioch **قد صارت جند حلب او قنسرين ، أو بتعبير أدق ذلك الجزء من جند قنسرين الذى غدا فيما بعد اقليما منفصلا باسم جند العواصم (٤٩) .**

وقد عدد الجغرافيون المسلمون المدن الهامة التى تندرج فى كل جند من الاجناد .

وهكذا احتفظ المسلمون **بالتقسيم الادارى الذى كان سائدا زمن البيزنطيين حيث كان حاكم الاقليم يجمع بين السلطات الادارية والعسكرية ،** وقد اقتصر الامر على أجناد أربعة فى أول الامر « **استتم أمر حمص ، فكانت حمص وقنسرين شيئا واحدا . وقد اختلفوا فى تسمية الاجناد : فقال بعضهم : سمى المسلمون فلسطين جندا لانه جمع كورا وكذلك دمشق وكذلك الاردن وكذلك حمص مع قنسرين . وقال بعضهم : سميت كل ناحية لها جند يقبضون اطماعهم بها جندا (٥٠)** . وغدت الدولة الاسلامية على عهد الامويين تنتظم امارات كبرى يحكم كل منها وال مسلم يرتبط مباشرة بالخليفة ، وقد حافظ الامويون فى ولايات القسم الغربى من دولتهم على طريقة الادارة البيزنطية اذ كانت الشام ومصر وافريقية هى نفس الولايات التى خضعت للبيزنطيين من قبل وقد أبقى على ادارتها وعمالها ، وبذلك استطاع الامويون أن ينهضوا بادارة امبراطوريتهم الضخمة ، كما أن الدولة الاسلامية كان لها آثارها هى الاخرى على النظم البيزنطية ، فتحت ضغط الهجمات الاسلامية أحكم الاباطرة نظام الاقاليم الحربية أو البنود Thema الذى هو أصل نظام الاجناد (٥١) .

---

(٤٩) Le Strange : Palestine Under the Moslems, pp. 24:26.

(٥٠) البلاذرى : فتوح البلدان ص ١٣٨ .

(٥١) دكتور العدوى : الامويون والبيزنطيون ص ٢٣٤ : ٨ ، الامبراطورية البيزنطية والدولة الاسلامية ص ١٥٢ : ٥ .

٣ - افراد جندى الجزيرة وقنسرين :

يروى البلاذرى « **وذكروا أن الجزيرة كانت الى قنسرين فجنـــدها عبد الملك بن مروان - أى أفردها - فصار جندها يأخذون اطماعهم بها من خراجها ، وأن محمد بن مروان كان سأل عبد الملك تجنيدها ففعل • ولم تزل قنسرين وكورها مضمومة الى حمص حتى كان يزيد بن معاوية فجعـــل قنسرين وانطاكية ومنبج وذواتها جندا (٥٢)** » • وهـكذا كان المسـلمون كلما استقرت أقدامهم فى دولتهم الفتية أحسـوا بالحاجة الى احكام نظمها الادارية والدفاعية والاهتمام بمناطق الحدود وخاصة ما يواجه الدولة البيزنطية • ويروى الطبرى « **وكان معاوية هو الذى جند قنسرين من رافضة العراقين أيام على ، وانما كانت قنسرين رستاقا من رساتيق حمص حتى مصرها معاوية وجنـــدها بمن ترك الكوفة والبصرة فى ذلك الزمان ، وأخذ لهم معاوية بنصيبهم من فتوح العراق** - أذربيجان والموصل والباب - فضمها فيما ضم وكان أهل الجزيرة والموصل يومئذ ناقلة ، رميثا يكل من كان ترك هجرته من أهل البلـــدين • وكانت الباب وأذربيجان والجزيرة والموصل من فتوح أهل الكوفة ، فنقل ذلك الى من انتقل منهـم الى الشام زمان على والى من رمينت به الجزيرة والموصـــل ممن كان ترك هجرته أيام على (٥٣) •

وهذه الرواية أبرزت عاملا داخليا فى افراد جند قنسرين فان معاوية وقد نازع عليا الخلافة أراد أن يجتذب بعض أنصـــاره الى صفه ويغريهم بالاراضى ، ويقلقل مركز منافسه فى الكوفة والبصرة فضلا عن الجزيرة(٥٤) **وقد اهتم الامويون بالجزيرة ، فقد كان موقعها هاما بين الشام والعراق ، وكان لمروان بن محمد اهتمـــام خاص بالجزيرة** حتى قال ياقوت عن الموصل : « كان أول من عظمها وألحقها بالامصار العظام وجعل لها ديوانا برأسه ونصب عليها جسرا ونصب طرقاتها وبنى عليها سورا مروان بن محمد آخر ملوك بنى أمية » •

وقد تناول ياقوت أهمية الموصل فوصفها بأنها « باب العراق ومفتاح خراسان ومنها يقصد الى أذربيجان » ويعلق فلهوزن على سياسة مروان بن محمد فى الاستقرار بالجزيرة بقوله : « ان بعض خلفاء بنى أمية وان

(٥٢) البلاذرى : فتوح البلدان ص ١٣٨ •

(٥٣) الطبرى حـ ٤ ص ٣٦٠ رواية السرى عن شعيب عن سيف •

(٥٤) Le Strange: Palestine Under the Moslems: p. 25.

كانوا قد آثروا الاقامة بعيدا عن دمشق فانهم لم يفعلوا ذلك لأسباب سياسية ولم يكن مقصدهم أن يجردوا دمشق من مكانتها كعاصمة للدولة أما مروان فيظهر أنه كان في الحقيقة يقصد ذلك . فقد نقل مقر حكومته الى حران ونقل اليها كما يقول ثيوفانيس كل الاشياء والخزائن التى كانت في دمشق ، وقد جر هذا على مروان عواقب خطيرة ، ذلك أنه بعد حرمان دمشق من مكانتها أحس الشام كله – عدا الاجزاء الشمالية أنه أيضا انتزعت منه السيادة (٥٥) » .

والغريب أن الرشيد حين استوطن الرقة وآثرها على بغداد ذكر في تعليل ذلك ما يفيد استمرار النفوذ الاموى في تلك المنطقة الى أيامه « ذكر عن بعض قواد الرشيد أن الرشيد قال لما ورد بغداد : والله اني لأطوى مدينة ما وضعت بشرق ولا غرب مدينة أيمن ولا أيسر منها ، وانها لوطنى ووطن آبائي ودار مملكة بنى العباس ما بقوا وحافظوا عليها ، وما رأى أحد من آبائي سوءا ولا نكبة منها ولا سيء بها أحد منهم قط – ولنعم الدار هي ، ولكنى أريد المناخ على ناحية أهل الشقاق والنفاق والبغض لائمة الهوى والحب لشجرة اللعنة بنى أمية – مع ما فيها من المارقة والمتلصصة ومخيفى السبيل ولولا ذلك مافارقت بغداد ماحييت ولاخرجت عنها ابدا(٥٦) » .

٤ – افراد الثغور والعواصم :

فصل السفاح فلسطين عن الشام واستعمل عليها أميرا مستقلا ففى أخبار سنة ١٣٤ هـ أن الولاة كانوا « على قنسرين وحمص وكور دمشق والاردن عبد الله بن على ، وعلى فلسطين صالح بن على ، وعلى الجزيرة عبد الله بن محمد المنصور(٥٧) » . ولعل ذلك كان لتدعيم النفوذ العباسى في الشام قاعدة أعدائهم الامويين خاصة وقد اشتعلت الفتن في شتى أرجائها ضد العباسيين أول عهدهم . ولما كانت الدولة العباسية قد ولت وجهها شطر آسيا ونقلت عاصمتها الى بغداد فقد كانت سياستها بالنسبة للبيزنطيين سياسة دفاعية ومن ثم كان اهتمام الخلفاء بتحصين حدودهم واحكام خطوطهم الدفاعية .

(٥٥) ياقوت : معجم البلدان جـ ٨ ص ١٩٥ – ٦ ، فلهوزن : تاريخ الدولة العربية ترجمة دكتور أبى ريده ص ٣٦٤ .
(٥٦) الطباخ : أعلام النبلاء بتاريخ حلب الشهباء جـ ١ ص ١٦٣ – ٤ .
(٥٧) الطبرى جـ ٩ ص ١٤٩ .

وهكذا بدأ المنصور فى جد تعمير مدن الثغور وتابع ذلك المهدى. فالرشيد • وفى أخبار سنة ١٧٠هـ/٧٨٦م يروى الطبرى أن الرشيد « **عزل الثغـور كلها عن الجزيرة وقنسرين وجعلها حيزا واحـدا وسميت العواصم**(٥٨) » • ويذكر البلاذرى « **فلما استخلف الرشيد افرد قنسرين بكورها فصير ذلك جندا واحدا ، وافرد منبج ودلوك ورعبان وقورس وانطاكية وتيزين وسماها العواصم لان المسلمين يعتصمون بها فتعصمهم وتمنعهم اذا انصرفوا من غزوهم وخرجوا من الثغر ، وجعل مدينة العواصم منبج فسكنها عبد الملك بن صـالح بن على فى سـنة ١٧٣ هـ وبنى بها أبنية**(٥٩) » • ويذكر لى سترينج من أسـباب هذه **الخطوة ان المنصور وخلفاءه قد مدوا حدود الشـام بغزواتهم حتى وجد الرشيد من الضرورى تقسيم جند قنسرين بعد تضخمه** •

ويروى الدكتور شعيرة أن نظام الثغور والعواصم العباسى قد حل محل نظام الأجناد الأموى للقيام بدوره بعد أن اندثر بقضاء الجيـوش الخراسانية العباسية الثائرة على جيش الأجناد الشامية الأموى « فصار من الضرورى البحث عن تنظيم جديد » •

وهكذا اقتطع جند جديد تجـاه الحدود الاسلامية البيزنطية يشمل المنطقة من انطاكية غربا الى الساحل وشرقا الى حلب ومنبج وسـمى هذا الجند بالعواصم • أما الثغور فهى عند الحـدود الحقيقية وهى التى تقسم غالبا الى الثغور الشامية غربا والثغور الجزرية شرقا وتشمل هذه المنطقة السلسلة الطويلة من الحصون والمعاقل التى تحمى الحـدود الشـمالية للشام من غارات الروم وتمتد من طرسوس وأذنة والمصيصة غربا فتجتاز ملطية وحصن منصور الى أن تبلغ شرقا حد المياه العليا من الفرات عند سميساط وبالس (٦٠) •

والاصطخرى وابن حوقل لا يوافقان على هذا التقسيم • فاذا كانت هنـاك ثغور تعرف بثغور الشام وثغور تعرف بثغور الجـزيرة فكلاهما من الشـام « **وذلك ان كل ما وراء الفـرات من الشـام ، وانما سمى من ملطية الى مرعش ثغور الجزيرة لان أهل الجزيرة بها يرابطون**.

---

(٥٨) الطبرى جـ ١٠ ص ٥٠ •

(٥٩) البلاذرى : فتوح البلدان ص ١٣٨ ـ ٩ •

(٦٠) Le Strange : Palestine Under the Moslems. pp. 25-6.

دكتور شعيرة : المرابطون فى الثغور العربية البرية الرومية ـ بحث فى كتاب (الى الدكتور طه حسين فى عيد ميلاده السبعين) •

ومنها يغزون لا لانها من الجزيرة» • ويذكر الاصطخرى أن شمشاط ثغر الجزيرة « لانها غربى دجلة وشرقى الفرات ، **وأما ملطية فانما نسبناها الى الجزيرة لان أهلها يرابطون بها لقربها منهم** ، والا فثغر الجزيرة على الحقيقة شمشاط » •

ويذكر الاصطخرى أن **قصبة العواصم انطاكية « وأما الثغور فلا قصبة لها** ، وكل مدينة قائمة بنفسها ومنبج قريبة من الثغور » • ويذكر ياقوت أن : انطاكية « لم تزل قصبة العواصم من الثغور الشامية •• وبين انطاكية والبحر نحو فرسخين ولها مرسى فى بليد يقال له السويدية ترسى فيه مراكب الافرنج يرفعون منه أمتعتهم على الدواب الى انطاكية ، وكان الرشيد العباسى قد دخل انطاكية فى بعض غزواته ، فاستطابها جدا وعزم على المقام بها فقال شيخ من أهلها : ليست هذه من بلدانك يا أمير المؤمنين •• لان الطيب الفاخر يتغير والسيف يصدأ فيها » • وقد تدخل الثغور فى العواصم من باب التعميم •

على أن ياقوت يذكر أيضا فى معرض كلامه عن **منبج** « والرشيد أول من أفرد العواصم ، وجعل مدينتها منبج وأسكنها عبد الملك به صالح » • ويعرض ياقوت نقاشا حول **تبعية حلب للعواصم** « وزعم بعضهم أن حلب ليست منها ، وبعضهم يزعم أنها منها ، ودليل من قال انها ليست منها انهم اتفقوا على انها من أعمال قنسرين ، وهم يقولون قنسرين والعواصم والشىء لا يعطف على نفسه ــ وهو دليل حسن(٦١) » •

فالمسلمون قد أطلقوا أول الامر العواصم على الولايات المتاخمة للدولة البيزنطية شمالى العراق والشام ، والثغور هى المراكز العسكرية الامامية لهذه الولايات المتطرفة وكانت تقوم عادة على المداخل الى بلاد الروم وعلى الموانى التى تصدر منها الاساطيل للغزو •

ولم يستقر نظام العواصم والثغور الا أيام العباسيين وفى أيام الرشيد خاصة • ويرى الدكتور مؤنس « ان الأغلب أن الذى حفز الرشيد على وضع نظام هذه الولايات هو تحويل الدولة البيزنطية على أيام الاسرة المقدونية لولاياتها المتاخمة للدولة الاسلامية الى ولايات عسكرية تسمى واحدتها Thema ويسميها العرب البنود » •

(٦١) الاصطخرى : المسالك والممالك ص ٤٦ ؛ ابن حوقل : ؛ ياقوت : معجم البلدان ج ١ ص ٢٥٤ ؛ ج ٦ ص ٢٣٧ ؛ ج ٨ ص ١٦٩ ــ ١٧٠ •

وكانت العواصم ولايات عسكرية يحكمها قادة عسكريون ويسرى فيها القانون العسكرى لاالمدنى ، وتبعا لذلك كانت الثغور قواعد عسكرية صرفة لا يقيم فيها غير الجنود والمجاهدين والمتطوعة ، والاخيرون قد يطلق عليهم لفظ الصعاليك • **وبالاضافة الى الثغور الشامية والجزرية كانت هناك ثغور السند في أقصى المشرق والثغور الاندلسية** وهى ثغور الاندلس الشمالية وكانت ثلاثة : الثغر الأعلى وقاعدته سرقسطة ، والثغر الاوسط وقاعدته مدينة سالم ، والثغر الادنى وقاعدته الاشبونة(٦٢) •

وقد كان المسلمون يشعرون ان مقامهم في تلك الثغور ليس مقام استقرار بل هو معرض لغارات العدو المتتابعة التى تجعل الحدود دائما بين مـــد وجـــزر « **والمعروف ان الولايات الاسـلامية كانت تولد عقب الانتصارات العسـكرية الكبيرة ، فهكذا نشـأت ولايات العراق والشام ومصر والمغرب والأندلس • وقد كان يحـــدث أن يملك المســـلمون ارضا واسعة دون نصر حاسم ـ كما ملكوا جزءا من آسيا الصغرى ـ فلم تنشأ ولاية اسلامية في آسيا الصغرى على الرغم من انه كان ما يملكونه من ارضـها أيام الأمويين يزيد مرات كثيرة عن مسـاحة ولاية البصرة مثلا (٦٣) » •**

وعلى ذلك لم يكن لاقليم الثغور عاصمة معروفة وان كان أهم مواقعه ملطية • واعتبرت منبج أولا قاعدة اقليم العواصم ومركزها الرئيسى ، ثم حلت محلها انطاكية حيث كان يقيم الحاكم المسلم • والجغرافيون العرب يضعون الثغور تارة قسما مستقلا وأخرى جزءا داخلا فى جند العواصم • (٦٤)

والواقع أن ولايـات الثغور والعواصم والجزيرة وأرمينية كانت متجاورة وشئونها متداخلة ، ففى عهد الراشـدين والأمويين وصدر عهد العباسيين كان يعهد احيانا الى وال واحد بالشام والجزيرة وأحيـانا توضع الجزيرة والموصل مع أرمينية تحت ادارة واحـدة ، ثم اخـذت الثغور والعواصم مكانتها بالتدريج واصبح امراؤها مختصين بها يباشرون حكمها وتجريد الحملات منها ضد البيزنطيين (٦٥) •

---

(٦٢) دكتور مؤنس : تعليق بهامش تاريخ التمدن الاسلامى لجرجى زيدان جـ ١ ص ٢١١ ـ ١٢ •

(٦٣) دكتور مؤنس : فجر الاندلس ص ٢٩٣ •

(٦٤) Encyclopedie d'Islam : article Al Awasim.

(٦٥) Gaudefroy-Demombynes, Platonov : Le Monde Mus. et Byz. p. 332.

على أن انشاء هـذه الولاية العسكرية البحتة قد أدى الى أن تنال القوات زيادة فى عطائها واقطاعا من الأرض لاستثمارها ، فانتقل أناس كثيرون بأسرهم من ولايات الامبراطورية القاصية الى الثغور واسـتقروا فيها ، وأدى ذلك الى ازدهار حياة هذا الجزء من البلاد وتعويض ما تخربه وتهلكه الحروب المتكررة وظلت أحوال الثغور حسنة حتى أيام الواثق اذ بدأ نجمها فى الافول وقضت الحروب المتتابعة على عمرانها (٦٦) ثم ابتلعها سلطان الروم أخيرا •

هكذا تطورت أجناد الشام حتى غدت الثغور والعواصـم قسـما اداريا عسـكريا مستقلا • وان محاولة **تتبع الوضع الادارى الداخلى فى جند قنسرين أولا ثم فى الثغور والعواصـم بعد افرادهـا ثانيا** تواجهها بعض الصعوبات فى مؤلفات الجغرافيين المسلمين •

١ ــ **فابن خرداذبه** كتب حوالى سـنة ٢٣٢ هـ سـنة ٨٤٦ م عن **كورقنسرين** انها : معرة مصرين ، مرتحوان ، كورة سرمين ، حيار بنى القعقاع ، دلوك ، رعبان ، حلب • وأورد من كور العواصم قورس ، الجومة منبج ، انطاكية ، تيزين ، بوقا ، بالس ، رصافة هشــام • وذكر ابن خرداذبة فى موضع آخر أن **عوادل الثغور الشامية**: عين زربة، الهارونية، كنيسة السوداء(٦٧) • وعوادل الثغور هى التى عدلت عنها(٦٨) •

٢ ــ وكتب **اليعقوبى** كتابه حوالى سنة ٢٨٤ هـ ــ سنة ٨٩٧ م أو قبل ذلك بقليل كما يرى لى ستربنج سنة ٢٧٨ هـ سنة ٨٩١ م ، **وقد ذكر جند حمص فحسب ولم يشر الى جند قنسرين أو العواصم وان كانت هناك كتب أخرى تنقل عنه ما يتعلق بذلك** •

فقد نقل ابن الشحنة « وقال ابن واضح : وقنسرين الثـــانية هى حيار بنى القعقاع •• وعلم ابن واضـــح فى كورة حلب مرتحوان وكورة مصرين •• قال ابن أبى يعقوب : ومدينة المصيصة بناها أبو جعفر المنصور فى خلافته وكانت قبل ذلك مسلحة ، وبنى المأمون كفر بيا •• قال ابن أبى يعقوب : كانت مدينة ملطية قديمة •• قال ابن أبى يعقوب : ورعبان

(٦٦) هل : الحضارة العربية ترجمة دكتور العدوى ص ٨٧ •

(٦٧) ابن خرداذبة : المسالك والممالك ص ٧٥ ، ١٠٠ •

(٦٨) الخوارزمى: مفاتيح العلوم ــ نقلا عن الدكتورين يحيى الخشاب والعريني: ضبط وتحقيق الألفاظ الاصطلاحية التاريخية الواردة فى كتاب مفاتيح العلوم المجلة التاريخية المصرية ــ م ٧ سنة ١٩٥٨ م •

ودلوك كورتان متقاربتان • قال ابن شداد : ذكر كيسوم بن أبي يعقوب — قال ابن أبي يعقوب : منبج مدينة قديمة افتتحت صلحا •• » كما نقل أبو الفدا « قال أحمد الكاتب : وأذنه بناها الرشـــيد وهو أيضا الذى بنى طرسوس •• وباب اسكندرونة مدينة على ساحل البحر الرومى بالقرب من انطاكية بنـاها أحمد بن أبي داود الايادى فى خلافة الواثق •• » مما يدل على اننا فقدنا أجزاء من كتاب اليعقوبى •

٣ — كتب **ابن الفقيه** سنة ٢٩٠ هـ — سـنة ٩٠٣م **فعدد فى جند العواصم** قرى قورس ، الجومة ، منبج ، انطاكية ، توزين ، بالس ، رصافة هشام ، وذكر انه فى أيام عمر وعثمـان كانت ثغـور المسلمين انطاكية وغيرها من المدن التى ســـماها الرشيد عواصـم فكان المسلمون يغزون ما وراءها وكذلك كان يغـزوها الروم ، وكان فيمـا بين الاســكندرية وطرسوس حصون ومسالح للروم — ويلاحظ انها هى **نفس العبارة التى اوردها البلاذرى تقريبا** •

٤ — ويعاصر **ابن رستة** ابن الفقيه ويحتمل انه كتب كتابه سنة ٢٨٩ هـ ٩٠٢ م وقد ذكر ان من **كور الجزيرة مما يسمى الثغور** : شمشاط وملطية وزبطرة ومرعش والحديث وسميساط وحصن منصور • وكور الشام : حلب وقنسرين وانطاكية وشيزر وحماه وفامية وبعلبك ودمشق والطبرية والرملة وايليا • ومن **الشام كور تسمى الثغور الشامية** وهى أذنة والمصيصة وطرسـوس وعين زربة والهـارونية والكنيسة السـوداء **والعواصم** وانطاكية وتيزين وقورس ومنبـج ودلوك ورعبان • ويتناول ابن رستة منشأ الاجنـاد فيقول « **وكان أيام عمر بن الخطاب يرد عليه وفود اليمن وغيرهم من العرب فاذا اجتمعوا أمر عليهم واليا وأمضاهم الى ناحية الشام ، فجند عمر الشام أربعة أجناد متفرقة فى أيدى عماله : وهم ابو عبيدة وخالد ويزيد وعمرو ، فبقيت الشام على ذلك التجنيد حتى زاد فيها يزيد بن معاوية قنسرين وكانت من أرض الجزيرة** فصـارت أجناد الشام أربعة : جند فلسطين وهى الرملة ، وجند الاردن وهى الطبرية ، وجند دمشق وجند قنسرين » ويغفل ابن رستة هنا جند حمص •

٥ — وكتب **قدامة** حوالى سنة ٣٣٧ هـ — سنة ٩٤٨ م — ولى سترينج يجعل تصنيفة سابقا على اليعقوبى سنة ٢٦٠ هـ سنة ٨٨٠م — وقد ذكر الثغور تفصيلا « ان هذه الثغور منها برية تلقاها بلاد العدو وتقاربه من جهة البر ، ومنها بحرية تلقاه وتواجهه من جهة البحر ، ومنها ما يجتمع

فيه الامران وتقع المغازي من أهله في البر والبحر • والثغور البحرية على الاطلاق سواحل الشام ومصر كلها •

والمجتمع فيها الامران غزو البر والبحر: **الثغور المعروفة بالشامية** ـ فلنبـدأ بذكرها ، وهي طرسوس وأذنة والمصيصة وعين زربة والكنيسة والهارونية وبياس وتقابلس •• **وعواصم هذه الثغور** وما وراءها الينا من بلدان الاسلام ، وانما سمي كل واحد منها عاصما لانه يعصم الثغر ويمده في أوقات النفير ثم ينفر اليه من أهل انطاكية والجومة والقورس ثم يلي هذه الثغور عن يمينها وجهة الشمال منها : **الثغور المعروفة بالجزرية** ، وأول ما يحاد الثغور الشامية منها مرعش ويليه ثغر الحدث وكان يلي هذه زبطرة فخربت أيام المعتصم •• وبنى مكانها وبالقرب منها حصونا لتقوم مقـامه وهي الحصن المعروف بطبـارجي والحصن المعروف بالحسينية والحصن المعروف ببنى المؤمن والحصن المعروف بابن رحوان • ثم يلي هذه الحصون ثغر كيسوم ، ثم ثغر حصن منصور ثم ثغر شمشاط ، ثم ثغر ملطية ــ وهو الخارج في بلد العدو من جميع هذه الحصون وكل واحد بينه وبين بلد العـدو درب وعقب ، وثغر ملطية مع بلد العـدو في بقعة وارض واحدة •• **وعواصم هذه الثغور** دلوك ورعبان ومنبج • ويلي هذه الثغور عن يمينها أيضا وفي جهة الشمال : **الثغور المسماة بالبكرية** وهي سميساط وحاني وملكين وحصون منها جمع ومنها حوران ومنها الكلس وغيرها ، ثم ثغر قاليقلا في جهة الشـــمال عن هذه الثغور زيادة الا انه كالمنفرد لما بينه وبينها من المسافة البعيدة » وقد زاد قدامة ايراد الثغور البكرية وأورد بعض الحصون التى يصعب تحديد مواقعها وتاريخها مثل الحصون المجاورة لزبطرة • وقد عدد أخيرا **الثغور البحرية** «وهي سواحل جند حمص : انطرطوس وبلنياس واللاذقية وجبلة والهرياذة ، وسواحل جند دمشق : عرقة وطرابلس وجبيـل وبيروت وصيدا وحصن الصرفند وعدنون ، وسواحل جند الاردن : صور وعكا ، وسواحل جند فلسطين : قيسارية وأرسوف ويافا وعسقلان وغزة وسواحل مصر : رفح والفرما والعريش » •

٦ ــ أما **الاصطخري** الذي كتب سنة ٣٤٠ هـ سنة ٩٥١ ــ ٢م فيذكر ان آخر حدود الشام مما يلي الروم **الثغور** « وهي ملطية والحدث ومرعش والهـارونية والكنيسة وعين زربة والمصيصة وأذنة وطرســوس •• وقد جمعت الثغور الى الشـام ، وبعض الثغور تعرف بثغـور الشام وبعضها تعرف بثغور الجزيرة ــ وكلاهما من الشام ، وذلك ان كل ما وراء الفرات

من الشام ، وانما سمى من ملطية الى مرعش ثغور الجزيرة لان أهل الجزيرة بها يرابطون وبها يغزون لا لانها من الجزيرة • وكور الشام انما هي جند فلسطين وجند الاردن وجند حمص وجند دمشق وجند قنسرين والعواصم والثغور ، وبين ثغور الشام وثغور الجزيرة جبل اللكام •• **وجند قنسرين** مدينتها حلب وهي عامرة بالاهل جدا، وقنسرين مدينة تنسب الكورة اليها وهي من أصغر المدن بها ، ومعرة النعمان مدينة ، وخناصرة حصن على شفير البرية كان يسكنه عمر بن عبد العزيز• **وأما العواصم** فاسم الناحية وليس موضع بعينه يسمى العواصم وقصبتها انطاكية وهي بعد دمشق أنزه مدن الشام ، وأما بالس فهي مدينة على شط الفرات صغيرة وهي فرضة الفرات لأهل الشام ، وأما منبج فهي مدينة في برية ويقربها سنجة ، وأما سميساط فهي على الفرات وكذلك جسر منبج • وملطية مدينة كبيرة من أكبر الثغور التي دون جبل اللكام ، وحصن منصور حصن صغير ، والحدث ومرعش مدينتان صغيرتان عامرتان وأما زبطرة فانها حصن كان من أقرب هذه الثغور الى بلد الروم ، والهارونية من غربي جبل اللكام في بعض شعابه وهي حصن صغير ، واسكندرونة على ساحل بحر الروم صغير ، وبياس مدينة صغيرة على شط بحر الروم ، والتينات حصن على شط البحر ، والكنيسة حصن على معزل من شط البحر ، والمثقب حصن صغير ، وعين زربة بلد يشبه مدن الغور ، والمصيصة مدينتان احداهما تسمى المصيصة والاخرى كفر بيا على جانبي جيحان ، وأذنة على نهر سيحان ، وطرسوس مدينة كبيرة وبينها وبين حد الروم جبال هي الحاجز بين المسلمين والروم » •

٧ ـ أما **ابن حوقل** الذى كتب سنة ٣٦٧ هـ ـ سنة ٩٧٧م فلا تكاد كتابته تختلف عما كتبه الاصطخرى الا قليلا •

٨ ـ لكن **المقدسى** يقدم سنة ٣٧٨هـ ـ سنة ٩٨٨م ـ أو قبل ذلك عند لى سترينج ٣٧٥هـ سنة ٩٨٣م ـ تقسيما مختلفا عن الجناد الشام المعروفة اذ **يزيد ما يسمى باقليم الشراه زيادة على الاجناد الخمسة ويدخل الثغور العواصم في قنسرين** « وقد قسمنا هذا الاقليم ست كور : أولها من قبل أقور **قنسرين ثم حمص ثم دمشق ثم الاردن ثم فلسطين ثم الشراة** • فاما **قنسرين** فقصبتها حلب ومن مدنها انطاكية ، بالس ، السويدية ، سميساط ، منبج ، بياس ، التينات ، قنسرين ، مرعش اسكندرونة ، لجون ، رفنية ، جوسية ، حماة ، شيزر ، وادى بطنان ، معرة النعمان ، معرة قنسرين •• وأما حمص فاسم القصبة

أيضا ومن مدنها .. وأما دمشق فاسم القصبة أيضا ومدنها .. وأما الاردن فقصبتها طبرية ومن مدنها ... وأما فلسطين فقصبتها الرملة ومدنها ... وأما الشراة فجعلنا قصبتها صفد ومدنها مآب ، معان تبوك ، أذرح ، ويلة ، مدين . وفى هذا الاقليم قرى أجل وأكبر من أكثر مدن الجزيرة مثل داريا وبيت لهيا وكفر سلام وكة رسابا غير انها على رسوم القرى معدودة منها وقد قلنا ان عملنا موضوع على التعارف » .

وقد حدث خلط عند المقدسى بين اقليمى حمص وقنسرين ، فان الخناصرة وكفر طاب ينسبهما المقدسى لحمص وهما يقعان فى الحقيقة شمالا عن حد هذا الاقليم ، كما أنه يجعل رفنية وجوسية من اقليم قنسرين والاصح انهما فى اقليم حمص ، بل يبدو اختلاف بين ما ذكره المقدسى فى هذا الموضع من كتابه وما ذكره فى موضع آخر . والمقدسى يضع أذرعات بين مدن اقليم الاردن بينما هى تعرف عامة كعاصمة للبثنية التابعة لجند دمشق . ويبدو أن الحدود بين جندى دمشق والاردن لم تكن محددة بوضوح، وكانت الاراضى التى تلى مباشرةأخدود الاردن الى الشرق تعد أحيانا فى عداد اقليم وأحيانا أخرى فى عداد اقليم آخر .

٩ — ويذكر **ياقوت** المتوفى سنة ٦٢٦ هـ — سنة ١٢٢٩م فى كتابة أن « ثغر الشام يشمل بلادا كثيرة — وهى البلاد المعروفة اليوم ببلاد ابن لاون ، ولا قصبة لها — لأن أكثر بلادها متساوية ، وكل بلد فيها كان أهله يرون انه أحق باسم القصبة » . وهو يعدد من مدن ثغور الشام بياس ، والمصيصة ، وعين زربة وأذنة ، وطرسوس ، والجوزات ، وأولاس والكنيسة السوداء والهارونية ، كما يعد « من مشهور مدن هذا الثغر : أنطاكية وبغراس وغير ذلك — الا أن هذا الذى ذكرنا أشهر مدنها » ، فهو يدرج العواصم فى الثغور ويذكر من ثغور الجزيرة مرعش. ويقول فى العواصم « حصون موانع ولاية تحيط بها بين حلب وأنطاكية وقصبتها أنطاكية ... وربما دخل فى هذا ثغور المصيصة وطرسوس وتلك النواحى ، وزعم بعضهم أن حلب ليست منها .... الخ » وهو ينقل ما رواه البلاذرى عن تطور الثغور والعواصم حتى افرادها (٦٩).

(٦٩) ابن خرداذبة : المسالك والممالك ص ٧٥ ، ١٠٠ ، اليعقوبى : البلدان ، ملحق بالاعلاق النفيسة لابن رستة ص ٣٢٣ — ٤ ، ٣٦٢ — ٣ ، ابن الفقيه مختصر كتاب البلدان ص ١١١، ابن رستة : الاعلاق النفيسة ص ١٠٦ — ١٠٧، قدامة : نبذ من كتاب الخراج.ملحق بالمسالك والممالك لابن خرداذبة ص ٢٥٣ : ٥ ، الاصطخرى المسالك والممالك ص ٤٣ ، ٤٦ — ٧ ، ابن حوقل ، المقدسى احسن التقاسيم ص ١٥٤ : ٦ ، ٣٧٥ ، ياقوت : معجم البلدان ج ٣ ص ١٦ ، ج ٦ ص ٢٣٧ .
Le Strange : Palestine Under the Moslems pp. 35:40.

والطابع الواضح في أجناد الشام ـ وفي الولايات الاولى عموما في غير الشام ـ هو **الطابع العسكري** ، فالامراء الذين تفتح بلاد تحت قيادتهم هم أول الولاة الذين يعينون عليهـا ، كذلك من جاء بعدهم كانوا قوادا حربيين قبـل كل شيء . ويعبر عن ذلك فلهوزن بقوله « كمـا ان الجيش كان في نفس الوقت هو الامة ذاتها ، فكذلك كان الامير هو الامام ، فكان يعين على الحرب والصلاة » (٧٠) . ولما كان بيد الوالي شئون الحرب فقـد كان يقـال أحيـانا ولي فـلان الحرب كنـاية عن ولايتـه عموما (٧١) . وقد كان هذا التقسيم الاداري شيئا جديدا في حياة العرب الذين عاشـــوا على التقســيم القبلي حتى في داخل جيوش الفتح ، لكن أجناد الشام ـ البيزنطية الاصل ـ قد جمعت المحاربين المقيمين في كل جند وكان الخراج في الجند يفي بالنفقات العسكرية ، على أن هذا لا يعني أن الخلافات القبلية قد اختفت تماما ، فقد كشفت معركة مرج راهط وغيرها عن عمق الجذر القبلية في النفوس (٧٢) . على أن معاوية قد بذل جهدا مشكورا في أن يخلق من المادة البشرية التي كانت بين يديه أداة حربية وادارية منظمة ، وقد بذل الكثير لتجريد تلك الادارة من نظامها القبلي العتيق وأقام دولة منظمة ثابتة الاركان مستهديا بالنموذج البيزنطي السابق ، وخلق مجتمعا منظما (٧٣) . ومع ذلك ظل العرب يتجمعون داخل المدن في أحياء بحسب قبائلهم ، وتحوط المدن أسوار وأبواب (٧٤) . وقد كان كل فريق من العرب نزل مصرا يحب أن ينفرد بخيراته ويذود غيره من العرب عنه ، فهو يتحمس لحقوقه في مصره ، وكان النزاع بين الشام والعراق الذي ملأ العصر الاموي كله محليا قبليا . وهكذا كانت الحركات التي ظهرت في صدر الاسلام محلية عصبية ، (٧٥) أما الحركات التي ظهرت ابتداء من النصف الثاني للقرن الثالث الهجري فكانت حركات انفصالية .

(٧٠) فلهوزن : تاريخ الدولة العربية . ترجمة دكتور ابى ريدة ص ٢٥ ـ ٦ .

(٧١) سيدة كاشف : مصر في فجر الاسلام ص ٢٢ .

(٧٢) Gaudefroy-Demombynes, Platonov :Le Monde Mus. etByz. pp. 216-7.

(٧٣) حتى : تاريخ العرب جـ ١ ص ٢٤٣ ، تاريخ سوريا جـ ٢ ترجمة دكتور اليازجي ص ٢٤ .

(٧٤) حتى : تاريخ العرب جـ ١ ص ٢٨٦ ، تاريخ سوريا جـ ٢ ترجمة دكتور اليازجي ص ٩٤ ، أمير علي : مختصر تاريخ العرب والتمدن الاسلامي ترجمة رأفت ص ١٦٧ .

(٧٥) مثلا : فلهوزن : تاريخ الدولة العربية ترجمة دكتور أبي ريدة ص ٢٦ ـ ٧ ، ٢٤٠ ـ ١ ، دكتور الخربوطلي : تاريخ العراق في العصر الأموي ص ٣٢ ، ١٢٩ ، ٢٤١ ، ٢٨٦ ، وما بعدها ، دكتور شكري فيصل : المجتمعات الاسلامية ص ٤٤ ـ ٥ ، ١٠٠ : ١٠٦ .

على أنه رغم الطابع العسكري في الاجناد الاسلامية ، ورغم ان المجتمع الاسلامي الفتي كان مجتمعا حربيا — وبخاصة قبل أن يتولى المرتزقة المحترفون معظم شئون الحرب .. فان الحضارة الاسلامية كانت حضارة مدنية ، والمدني يعلو على الجندي في ترتيب الطبقات الاجتماعي. والمفروض أن للوزير — وهو موظف مدني — حق الاسبقية على القائد ، وكان بحث نظرية الحكم عند الفقهاء يقدم منصب الوزارة على امارة الحرب ، وكثيرا ما تولى الجند بوصفهم طائفة حكم الدولة الاسلامية ، ولكن هذه السيادة الواقعية de facto لم تغير بأي حال الاجماع المنعقد على أن رئاسة الدولة وظيفة مدنية . وكان المسلمون في القرن السابع الميلادي كأنما يعيشون في الواقع في معسكر مسلح ، وقد أبرزت التقاليد العربية والفارسية شأن الشجاعة والمقدرة العسكرية وكان الخليفة هو القائد الأعلى على حين كان العامل أو الوالي المحلي — أو أي شخص يعينه البلاط — هو القائد الفعلي ولكن رويدا رويدا تحول الخليفة الى الرئيس الاداري الأعلى وما وافت سنة ٨٠٠ م حتى كان التحول على أتمه .. ومهما يكثر الخليفة من الامرة على جنده بشخصه ومهما يكثر الشعراء من التغني بشجاعته — فانه لم يكن الا موظفا مدنيا أولا وجنديا حين تلم الملمات . وصور الانسانية المثالية التي هي من خواص الحضارة الاسلامية انما تتمثل شخصية غير عسكرية ، وان واصل القوم استحسان الفضائل العسكرية (٧٦) .

وقد لقي نظام الاجناد الضربة القاضية في القرن ١٢ م على اثر الغزو الصليبي وتأسيس مملكة بيت المقدس اللاتينية بما تضمنته من بارونيات وكونتيات . وبعد أن طرد صلاح الدين وخلفاؤه الصليبيين وأعادوا توطيد الحكم الاسلامي بأرجاء الشام تبعت الشام وفلسطين حاكم مصر اسميا ، أما من ناحية الواقع فكانت مقسمة بين عدد من السلاطين الصغار من سلالة صلاح الدين واخوته . ويذكر الدمشقي حوالي سنة ٧٠٠ هـ / ١٣٠٠ م انه منذ قيام دولة الترك .. قسمت الشام الى ٩ ممالك . ولا يمكن. تعيين الحد المنضبط لهذه الدويلات بسبب الحروب والمنازعات المستمرة بين حكامها (٧٧) .

(٧٦) جرونيباوم : حضارة الاسلام .ترجمة جاويد ص ٣٠٤ — ٥ .

(٧٧) Le Strange : Palestine Under the Moslems. p. 40.

والمعروف ان صلاح الدين وأسرته أكراد لا اتراك ، وربما كان المؤلف غير دقيق في تعبيره او انه قصد سلاجقة سوريا (٤٨٨ : ٥٠٨ هـ \ ١٠٩٥ : ١١١٤ م أو اتابكة دمشق (٤٩٧ : ٥٤٠ هـ \ ١١٠٣ : ١١٥٤ م) وحلب (٥٤١ : ٧٩ هـ ١١٤٦ : ١١٨٣ م) وقد كان هناك أيضا اتابكة للموصل وسنجار والجزيرة وغيرها . والسلاجقة والاتابكة سابقون على الأيوبيين .

(ج) الجهاز الادارى :

الامارة :

يقسم الماوردى الامارة على الأقاليم أو البلدان الى ضربين : عامة وخاصة . فاما العامة فهى تنقسم بدورها قسمين : **امارة استكفاء بعقد عن اختيار** وامارة استيلاء بعقد عن اضطرار . أما الأولى : فتشتمل على عمل محدود ونظر معهود والتقليد فيها أن يفوض اليه الخليفة امارة بلد أو اقليم ولاية على جميع اهله ونظرا فى المعهود من سائر أعماله ، فيصير عام النظر فيما كان محدودا من عمل ومعهودا من نظر . فيشتمل نظره فيه على سبعة أمور : احدها النظر فى تدبير **الجيوش** وترتيبهم فى النواحى وتقدير أرزاقهم — الا أن يكون الخليفة قدرها فيذرها عليهم ، والثانى النظر فى **الاحكام** وتقليد القضاة والحكام والثالث جباية **الخراج** وقبض الصدقات وتقليد العمال فيهما وتفريق ما استحق منها ، والرابع حماية **الدين** والذب عن الحريم ومراعاة الدين من تغيير أو تبديل ، والخامس اقامة **الحدود فى حق الله** وحق الآدميين ، والسادس **الامامة** فى الجمع والجماعات حتى يؤم بها أو يستخلف عليها ، والسابع تسيير **الحجيج** من عمله ومن سلكه من غير أهله حتى يتوجهوا معانين عليه . **فان كان هذا الاقليم ثغرا متاخما للعدو اقترن به ثامن : وهو جهاد من يليه من الاعداء وقسم غنائمهم فى المقاتلة واخذ خمسها لأهل الخمس** . وتعتبر فى هذه الامارة الشروط **المعتبرة فى وزارة التفويض ، لأن** الفرق بينهما خصوص الولاية فى الامارة وعمومها فى الوزارة ، وليس بين عموم الولاية وخصوصها فرق فى الشروط المعتبرة فيها . ثم ينظر فى عقد هذه الامارة : فان كان الخليفة قد تولاه كان لوزير التفويض عليه حق المراعاة والتصفح ولم يكن له عزلة ولا نقله من أقليم غيره ، وان كان الوزير قد تفرد بتقليده فهو على ضربين — أحدهما أن يقلده عن اذن الخليفة فلا يجوز له عزله ولا نقله من عمله الى غيره الا عن اذن الخليفة وأمره ، ولو عزل الوزير لم ينعزل هذا الامير ، والضرب الثانى أن يقلده عن نفسه فهو نائب عنه فيجوز له أن ينفرد بعزله والاستبدال به ... ولو أطلق الوزير فلم يصرح كان التقليد عن نفسه ... ويجوز لهذا الامير أن يستوزر لنفسه وزير تنفيذ بأمر الخليفة وبغير أمره ، ولا يجوز أن يستوزر وزير تفويض الا عن اذن الخليفة ...

وإذا أراد هذا الامير أن **يزيد في أرزاق جيشه** لغير سبب لم يجز له فيه من استهلاك مال في غير حق ، وان زادهم لحدوث سبب يقتضيه نظر في السبب فان كان مما يرجى زواله لا يستقر به الزيادة على التأبيد — كالزيادة لغلاء سعر أو حدوث حدث أو نفقة في حرب — جاز للامير أن يدفع هذه الزيادة من بيت المال ولا يلزمه استئمار الخليفة لأنها من حقوق السياسة الموكولة الى اجتهاده ، وان كان سبب الزيادة مما يقتضى استقرارها على التأبيد — كالزيادة لحرب أبلوا فيها وقاموا بالنصر حتى انجلت — أوقفها على استئمار الخليفة فيها ولم يكن له التفرد بامضائها • ويجوز أن يرزق من بلغ من أولاد الجيش ويفرض لهم العطاء بغير أمر ولا يجوز أن يفرض لجيش مبتدىء الا بأمر • **وإذا فضل من مال الخراج فاضل عن أرزاق جيشه حمله الى الخليفة ليضعه في بيت المال العام المعد للمصالح العامة ، وإذا فضل من مال الصدقات فاضل عن أهل عمله لم يلزمه حمله الى الخليفة ويصرفه في أقرب أهل الصدقات من عمله • وإذا نقص مال الخراج عن أرزاق جيشه طالب الخليفة بتمامه من بيت المال ، ولو نقص مال الصدقات عن أهل عمله لم يكن له مطالبة الخليفة بتمامه — لأن أرزاق الجيش مقدرة بالكفاية وحقوق أهل الصدقات معتبرة بالوجود •**

وإذا كان تقليد الامير من قبل الخليفة لم ينعزل بموت الخليفة ، وان كان من قبل الوزير انعزل بموت الوزير — لأن تقليد الخليفة نيابة عن المسلمين وتقليد الوزير نيابة عن نفسه » • على أن الامير المختار قد تنزع منه اختصاصات كالقضاء أو الجباية يعهد بها لموظف خاص وهنا تكون **الامارة خاصة** ويكون الامير « مقصور الامارة على تدبير الجيش وسياسة الرعية وحماية البيضة والذب عن الحريم ، وليس له أن يتعرض للقضاء والاحكام ولجباية الخراج والصدقات ... » • ويرى **الدكتور مؤنس أن امارة الاستكفاء كانت امتيازا بولاية كاملة في الاموال والقضاء والامامة ، في حين ان الامير العادى كا نيؤامر على الجند فقط — أى يعتبر قائدا عسكريا — ويعين معه عامل على الاموال وقاض ، وان جمعت بعض الامراء العاديين امرة الجيوش والعمالة على الخراج**

وحين ضعفت السلطة المركزية غلب على بعض الاقاليم امراء بحد السيف دون اختيار من الخليفة سابق على ولايته الفعلية ، فأوجد الفقهاء مخرجا لهذا الامر الواقع de facto بالقول بما يسمى **بامارة الاستيلاء التي تعقد عن اضطرار** « فهي أن يستولى الامير بالقوة على بلاد يقلده الخليفة امارتها ويفوض اليه تدبيرها وسياستها ،

فيكون الامير باستيلائه مستبدا بالسياسة والتدبير والخليفة باذنه منفذا لاحكام الدين ــ ليخرج من الفساد الى الصحة ومن الحظر الى الاباحة • وهذا وان خرج من عرف التقليد المطلق فى شروطه وأحكامه ــ ففيه من حفظ القوانين الشرعية وحراسة الاحكام الدينية ما لا يجوز أن يترك مختلا مدخولا ولا فاسدا معلولا ، فجاز فيه مع الاستيلاء والاضطرار ما امتنع فى تقليد الاستكفاء والاختيار ــ لوقوع الفرق بين شروط المكنة والعجز » • وقد أشرك الماوردى الخليفة المولى والامير المستولى فى وجوب حفظ قوانين الشرع ، بمراعاة حفظ منصب الامامة وظهور الطاعة الدينية واجتماع الكلمة وصحة عقود الولايات الدينية وشرعية استيفاء الاموال والحدود وورع الامير « فان كملت فى المستولى شروط الاختيار كان تقليده حتما استدعاء لطاعته ودفعا لمشاقته ومخالفته ، وصار بالاذن له نافذ التصرف فى حقوق الملة وأحكام الامة ، وجرى على من استوزره واستنابه أحكام من استوزره الخليفة واستنابه ، وجاز أن يستوزر وزير تفويض ووزير تنفيذ (خلافا للامير المولى عن اختيار) • فان لم يكمل فى المستولى شروط الاختيار جاز للخليفة اظهار تقليده استدعاء لطاعته وحسما لمخالفته ومعاندته ، وكان نفوذ تصرفه فى الاحكام والحقوق موقوفا على أن يستنيب الخليفة فيها من قد تكاملت فيه شرطها ... وجاز مثل هذا وان شذ عن الاصول لأمرين : أحدهما أن الضرورة تسقط ما أعوز من شروط المكنة ، والثانى أن ما خيف انتشاره من المصالح العامة تخفف شروطه عن شروط المصالح الخاصة » (٧٨) •

وقد كانت امارة اجناد الشام ــ وامارة الثغور والعواصم من بعد ــ امارة استكفاء بعقد عن اختيار أيام الراشدين والامويين وصدر ايام العباسيين • وقد واجه عمر مشكلة ادارة الممتلكات الجديدة فى مؤتمر الجابية ، وفيه تم تقسيم الشام الى اربعة اجناد ، ثم نشأت معسكرات أخرى فى جوار حمص وعمواس وطبرية (لجند الاردن) واللد (لجند فلسطين) ، وحل معسكر الرملة فيما بعد محل معسكر اللد • وما أن استوطن الجنود العرب هذه المناطق حتى استقدموا اسرهم ، وكانت بعض زوجاتهم أو جواريهم من سكان البلاد الجديدة • وكان لهؤلاء الجنود المحاربين من الحقوق والميزات ما ليس للوافدين المتأخرين •

(٧٨) الماوردى : الاحكام السلطانية ص ٢٤ : ٩ ، تعليق الدكتور مؤنس بهامش تاريخ التمدن الاسلامى جـ ١ ص ١٥٥

وعلى رأس الجند القائد الاعلى والحاكم العام الذى جمع فى شخصه جميع السلطات التنفيذية والعسكرية والقضائية ، الا أنه أبقى على هيكل الجهاز الحكومى البيزنطى واحتفظ بالموظفين من الأهلين الذين لم يغادروا البلاد ابان الفتح في مناصبهم . ويرى الدكتور حتى ان الحكومة العربية الاقليمية فى دورها البدائى سواء فى الشام أو فى مصر أو فى العراق حكومة عسكرية محضة ذات هدف مالى واضح (٧٩) ، غير أن هذا المذهب الذى يذهب اليه بعض المؤرخين وفى مقدمتهم فلهوزن لا يعنى أن الحكم الاسلامى فى الاقاليم المفتوحة لم يكن ذا رسالة حضارية أو لم يكن رجاله يعتنقون المثل العليا ويحاولون تطبيقها ، وانما يقصد بذلك أن الاعباء العمرانية كانت جديدة على الاداة العربية فلم تتمثلها أو تنهض بها فى أول أمرها كما ينبغى ، وانما استأثر بجهودها كفالة الامن ورعاية العدل واقتضاء الخراج للقيام بنفقة الدولة.

وفى سنة ١٧هـ ٦٣٨م زار عمر الشام فقسم الارزاق ، وسمى الشواتى والصوائف ، وسد فروج الشام ومسالحها ، واخذ يدور بها وسمى ذلك فى كل كورة . واستعمل عبد الله بن قيس على السواحل من كل كورة وعزل شرحبيل واستعمل معاويه ، واقر أبا عبيدة وخالد تحته ، فقال له شرحبيل عن سخطه عزلتنى يا أمير المؤمنين ؟ قال : لا ، انك لكما احب — ولكنى أريد رجلا أقوى من رجل . فرجع عمر الى المدينة : وعلى حمص أبو عبيدة وخالد تحت يديه على قنسرين ، وعلى دمشق يزيد بن أبى سفيان ، وعلى الاردن معاوية ، وعلى فلسطين علقمة بن مجزز ، وعلى الاهراء عمرو بن عبسة ، وعلى السواحل عبد الله بن قيس ، وعلى كل عمل عامل « فقامت مسالح الشام والعراق على ذلك الى اليوم لم تجز أمة الى أخرى عملها بعد — الا أن يقتحموا عليهم بعد كفر منهم ، فيقدموا مسالحهم بعد ذلك . فاعتدل ذلك سنة سبعة عشر » وقد اشتهر عمر بتدقيقه فى محاسبة العمال ، ولم يتهاون فى ذلك حتى مع خالد بن الوليد صاحب الفتوح المشهورة وآخرها فى الشام ، فقد أدرب خالد سنة ١٧ هـ مع عياض بن غنم فسارا « فأصابا أموالا عظيمة ، ولما قفل خالد وبلغ الناس ما أصابت تلك الصائفة ، انتجعه رجال ، فانتجع خالدا رجال من أهل الافاق فكان الأشعث ابن قيس من انتجع خالدا بقنسرين فأجازه بعشرة آلاف . وكان عمر لايخفى عليه شىء من عمله ... فدعا البريد وكتب معه الى أبى عبيدة :

(٧٩) حتى : تاريخ سورية ج ٢ ترجمة دكتور اليازجى ص ١٩ : ٢٢ .

«ان يقيم خالدا ويعقله بعمامته وينزع عنه قلنسوته حتى يعلمهم من اين اجازة الأشعث : أمن ماله أم من اصابة أصابها ؟ فان زعم أنها من اصابة أصابها فقد أقر بخيانة ، وان زعم أنها من ماله فقد أسرف — وأعزله على كل حال واضمم اليك عمله ... » وقد نفذ ذلك تماما « فرجع خالد الى قنسرين فخطب اهل عمله وودعهم وتحمل ثم أقبل الى حمص فخطبهم وودعهم ، ثم خرج نحو المدينة حتى قدم على عمر فشكاه وقال : لقد شكوتك الى المسلمين وبالله أنك فى أمرى غير مجمل يا عمر ، فقال عمر : من أين هذا الثراء ؟ قال من الانفال والسهمان ، ما زاد على الستين الفا فلك — فقوم عمر عروضه فخرجت اليه عشرون الفا فادخلها بيت المال ثم قال : ياخالد والله انك على لكريم وانك الى لحبيب ولن تعاتبنى بعد اليوم على شىء »(٨٠) .

وقد اخـذت الخطوط العامة لهيكل الادارة الاقليمية فى الدولة الاسلامية تتبلور خـلال عهد الراشـدين . وعند ما كان ينصب وال أو عامل فانه كان يعطى عهد تعيين يحتوى على أمر تنصيبه وتحديد ما يخول من سلطات وما يكلف من واجبات ، ويحمل هذا الامر خاتم الخليفة أو توقيعه مع الاشـهاد عليـه ، ويقرأ عهد التعيين على الملأ فيعرف كل فرد سلطات الولاة والعمال وواجباتهم . ثم تراقب أى زيادة طـارئة على ثرواتهم . ومن أجل صيانة نزاهة الحكم أعطى العمال رواتب عـالية وأمدوا بجرايات وأرزاق ، فقد كان عمار بن ياسر يتناول ٦٠٠ درهـم سنويا فضلا عن جراية من القمح واللحم (٨١) . وقد كان من سياسـة عمر العدل والرفق بالرعية ومن ذلك الا يجمروا فى الحرب باطالة اقامتهم فى ميادين القتال ، فقد روى أن عمر « كان اذا استعمل العمال خرج معهم يشيعهم فيقول : انى لم استعملكم على أمة محمد على اشعارهم ولا على ابشارهم ، انما استعملتكم عليهم لتقيموا الصلاة وتقضوا بينهم بالحق وتقسموا بينهم بالعدل ... ولا تجلدوا العـرب فتذلوها ، ولا تجمروها فتفتنوها ، ولا تغفلوا عنها فتحرموها ... وكان يقص من عماله ، واذا شكى اليه عامل له جمع بينه وبين من شكاه فان صح عليه أمر يجب أخذه به اخذه به » (٨٢) . ومن ولاة الاسلام الاول فى الشام عمير ابن سعيد الانصارى كان سنة ٢١هـ على دمشق والبثنية وحوران وحمص

---

(٨٠) الطبرى جـ ٤ رواية السرى عن شعيب عن سيف ص ٢٠٥ .

(٨١) حسينى : الادارة العربية ترجمة العدوى ص ٨٢ : ٤ .

(٨٢) الطبرى جـ ٥ ص ١٩ .

وقنسرين والجزيرة وقد قال على منبر حمص « ألا ان الاسلام حائط منيع وباب وثيق ، فحائط الاسلام العدل وبابه الحق ، فاذا نقض الحائط وحطم الباب استفتح الاسلام • فلا يزال الاسلام منيعا ما اشتد السلطان ، وليس شدة السلطان قتلا بالسيف ولا ضربا بالسوط ــ ولكن قضاء بالحق وأخذا بالعدل (٨٣) • وكان أول كتاب كتبه عثمان الى أمراء الاجناد والفروج : « أما بعد فانكم حماة المسلمين وذادتهم ، وقد وضع لكم عمر ما لم يغب عنا ــ بل كان عن ملأ منا ، ولا يبلغني عن أحد منكم تغيير ولا تبديل فيغير الله ما بكم ويستبدل بكم غيركم ، فانظروا كيف تكونون ــ فانى أنظر فيما ألزمنى الله النظر فيه والقيام عليه (٨٤) •

ونحن نلاحظ فى بداية الحكم الاسلامى للشام اضـــافة **قنسرين والجزيرة الى حمص** فى الولاية فبعد وفاة أبى عبيدة فى طاعون عمواس سنة ١٨ هـ استخلف عياضا بن غنم فورد عليه كتاب عمر بتوليته حمص وقنسرين والجزيرة (٨٥) ، كما ارتبطت **الشام والجزيرة من ناحيـــة بالجبهة الارمنية** من ناحية أخرى « ولما استخلف عثمان كتب الى معـاوية وهو عامله على الشام والجزيرة وثغورهما يأمره أن يوجه حبيب بن مسلمة الفهرى الى أرمينية ، وكان حبيب ذا أثر جميل فى فتوح الشام وغزو الروم قد علم ذلك منه عمـر ثم عثمـــان ••• ولما فتح حبيب ما فتح من أرض ارمينية كتب به الى عثمان ، فوافاه كتابه وقد نعى اليه سلمان بن ربيعة الباهلى فهم أن يوليه جميع أرمينية ، ثم رأى أن يجعله غـازيا بثغور الشام والجزيرة لغنائه فيما كان ينهض له من ذلك » (٨٦) • **وقد جمع عثمان لمعاوية الشام والجزيرة وثغورهما** • وتتبع الطبرى التطورات الادارية فى اجناد الشام حتى انتهت بانفراد معاوية بها علاوة على الجزيرة « قالوا : لما حضر ابو عبيدة استخلف على عمله عياض بن غنم ــ وهو خاله وابن عمه ــ وقد كان ولى بالجزيرة عملا فعزله عمر فلحق بأبى عبيدة بالشام وكان معه ، وكان جوادا مشهورا بالجود ، فكلم عمر فى ذلك فقيل له : عزلت خالدا وعتبت عليه العطاء وعياض أجود العرب وأعطاهم لايمنع شيئا يسأله فقال عمر : ••• حتى يخلص الى مالنا ، وانى مع ذلك لم أكن مغيرا امرا قضاه أبو عبيدة • ومات عياض بن غنم بعد أبى عبيدة، فأمر عمر على عمله سعيد بن حذيم الجمحى • ومات سـعيد بعد ، فأمر

(٨٣) كرد على : خطط الشام جـ ١ ص ١٣٣ •
(٨٤) الطبرى جـ ٥ ص ٤٤ رواية السرى عن شعيب عن سيف •
(٨٥) البلاذرى : فتوح البلدان ص ١٨٠ •
(٨٦) البلاذرى : فتوح البلدان ص ٢٠٥ ، ٢١٢ •

عمر مكانه عمير بن سعد الانصارى ومات عمر : ومعاوية على دمشق والاردن وعمير بن سعد على حمص وقنسرين — وانما مصر قنسرين معاوية لمن لحق به من أهل العراقيين • ومات يزيد بن أبى سفيان ، فجعل عمر مكانه معاوية ونعاه لابى سفيان فقال : من جعلت على عمله يا أمير المؤمنين؟ فقال : معاوية فقال : وصلتك رحم — فاجتمعت لمعاوية الاردن ودمشق • ومات عمر ومعاوية على دمشق والاردن ، وعمير بن سعد على حمص وقنسرين ، وعلقمة بن مجزز على فلسطين ••• فلما ولى عثمان أقر عمال عمر على الشام ، فلما مات عبد الرحمن بن علقمة الكنانى وكان على فلسطين ضم عمله الى معاوية ، ومرض عمير بن سعد فى امارة عثمان مرضا طال به فاستعفاه واستأذنه وأذن له وضم عمله الى معاوية . فاجتمع الشام على معاوية لسنتين من امارة عثمان (٨٧) •

وقد عمل معاوية على الاعتماد على القبائل العربية التى سبق أن استوطنت البلاد من قبل الاسلام ، وكان الكثير من هذه القبائل ينتسب الى عرب الجنوب خلافا للنازحين المتأخرين الذين كانوا من عرب الشمال، وكانت كلب وقبائل قضاعة الى جانب قبائل أخرى أزد الصراه تكون الغالبية فى وسط الشام وهؤلاء لم تكن مظاهر الدولة المنظمة ولا روح الطاعة الحربية والسياسية معانى جديدة عليهم • كما تعهد معاوية رعيته من النصارى وقد نال محبتهم واعترافهم بفضله (٨٨) •• على أن الوئام لم يصل بين معاوية وبين قريش عامة الى ما كان ينبغى أن يكون عليه ، وقد اشتكى هو من ذلك وقال انه لم يؤخرهم الا لانهم انصرفوا عنه • وكانت العلاقات متوترة بينه وبين قبائل مخزوم خاصة — وهؤلاء كانوا يحقدون على بنى امية من قديم اذ هم الذين زحزحوهم عن محلهم الذى كان لهم فى مكة حتى وقعة بدر • وقد حاول معاوية أن يضعف قوة بنى أمية باثارة الشحناء بين فروعهم فاوقع بين سعيد بن العاص ومروان بن الحكم ليشغل الامويين بانفسهم • أما علاقة معاوية باشراف المسلمين وأهل البيت والصحابة الاولين والانصار فكانت بالطبع علاقة ريبة وعداوة • ولم يكن كبار العمال الذين ولاهم معاوية أهم الولايات أمويين ، بل لم يكونوا من قريش باستثناء القليل • فقد كان معاوية

(٨٧) الطبرى جـ ٥ ص ٦٩ رواية السرى عن شعيب سيف ، أيضا البلاذرى : فتوح البلدان ص ١٤٧ ، ١٧٩ — ١٨٠ ، ١٨٤ ، ١٩٢ •

(٨٨) فلهوزن : تاريخ الدولة العربية ترجمة دكتور أبى ريدة ص ١٢٦ — ٨ ، حتى تاريخ سورية جـ ٢ ترجمة دكتور اليازجى ص ٢٣ — ٤ •

ثاقب النظر فى اختيار الرجال وكان يعرف كيف يستأثر بولاء الرجال — كما فعل بعمرو بن العاص الذى كان لايشعر أنه عامل لمعاوية بقـدر ما يشعر أنه حليف له • ويبدو معظم رجالاته من طراز الرجال الجدد hominis novi وكان يشـاورهم معـاوية وربما عارضـوه — ولكنه كان يعرف كيف لا يفلت الزمام من يده • ولم تكن تغضبه خشونة الناس بل كان يتحلى بشيمة السيد العربى من الطراز القديم • وهو ان لم يوهب الشجاعة العسكرية — على مداومته لتوجيه الحرب ضد الروم — الا أنه قد تمتع بصفات أخرى للسيادة كاللين والحلم وضبط النفس : « فقد كان معاوية فى جوهره دبلوماسيا وسياسيا ، وكان يترك الامور حتى تنضج — ولم يكن يتعجلها الا فى بعض الاحيان • ولم يكن ينكر أن أصله تاجر ، فكان لا يلجأ الى القوة الا كارها (٨٩) » •

وهكذا انتهت الامور الى الامويين بالشام محاربين فاتحين فولاة حازمين ، ثم بعد ذلك خلفاء للمسلمين • وكانت جذور ماضيهم تربطهم بالشام منذ تجارتهم فى الجاهلية ، حتى قيل ان عثمان فى ذلك الزمن البعيد سفر لقريش عند عامل الروم على بصرى فمنحه لقب فيلارخوس • وكان الرسول يطمئن الى بنى عبد الدار وأحلافهم ويعهد اليهم بالوظائف الادارية وشئون الدولة وكذلك كان أبو بكر وعمر من بعـده فضـلا عن عثمان « وهذه الكفاية نتيجة طبيعية لاشتغالهم بأمور التجارة والمال اذ يحتاج ذلك الى عقلية عملية واقعيـة كالادارة تمـاما ، ثم أن كفايتهم فى الامور الادارية نتجت عن صلاتهم الطويلة بالروم وترددهم على بلادهم» ولذا قال المقريزى « فانظر كيف لم يكن فى عمال رسول الله ولا فى عمال أبى بكر وعمر أحد من بنى هاشم ، فهذا وشبهه هو الذى حدد أنياب بنى أمية وفتح أبوابهم وأترع كاسـهم وفتل أمراسهم ••• فاذا كان رسول الله قد أس هذا الأساس ، وأظهر بنى أمية لجميع الناس •• بتوليتهم أعماله فيما فتح الله عليه من البلاد ، كيف لا يقوى ظنهم ولا ينبسط رجاؤهم ولا يمتد فى الولاية املهم ؟! » وقد نقل المقريزى قولا متداولا : ما فتحت بالشام كورة الا وجد عندها رجل من بنى سعيد ابن العاص ميتا !! » واذا تأملنا تصرفات عمال الامويين وجدناهم اشبه بقناصل الرومان : رجال فى خدمة الدولة ينفذون أوامرها فى طاعـة

(٨٩) فلهوزن : تاريخ الدولة العربية ترجمة دكتور أبى ريدة ص ١٣٠ : ٣ •

ونظام يستوقفان النظر ، رجال لا يفكرون فى الخروج على الدولة والعمل لحساب أنفسهم كما سيكون شأن عمال بنى العباس » (٩٠) .

وقد كان الاستقرار الادارى فى الشام مدعاة للاتجاه الى صرف دعاة **الفتنة المتمردين على عثمان اليها** – من أمثال مالك بن الحارث الاشتر وابن ذى الحبكة وجندب بن زهير الغامدى وجندب بن كعب الازدى وصعصعة وابن الكواء وكميل بن زياد النخعى وثابت بن قيس النخعى وزيد بن صوحان العبدى وعمرو بن الحمق الخزاعى وعروة بن الجعد وعمير بن ضابىء « فكتب أشراف أهل الكوفة وصلحاؤهم الى عثمان فى اخراجهم فكتب : اذا اجتمع ملؤكم على ذلك فالحقوهم بمعاوية ... وأنزلهم كنيسة تسمى مريم وأجرى عليهم بأمر عثمان ما كان يجرى عليهم بالعراق وجعل لا يزال يتغدى ويتعشى معهم » . وبعد محاورات ومداورات واحتد نقاش معاوية معهم « فقال : انى قد أذنت لكم فاذهبوا حيث شئتم، لا والله لا ينفع الله بكم احدا ولا يضره ... وخرج القوم من دمشق فقالوا : لا ترجعوا الى الكوفة فانهم يشمتون بكم ، وميلوا بنا الى الجزيرة ودعوا العراق والشام . فأووا الى الجزيرة وسمع بهم عبد الرحمن بن خالد بن الوليد – وكان معاوية قد ولاه حمص وولى عامل الجزيرة حران والرقة – فدعا بهم فقال : يا آلة الشيطان لا مرحبا بكم ولا أهلا ، وقد رجع الشيطان محسورا وانتم بعد نشاط ، خسر الله عبد الرحمن ان لم يؤدبكم حتى يحسركم ، يا معشر من لا ادرى أعرب أم عجم – لكى لا تقولوا لى ما يبلغنى أنكم تقولون لمعاوية ، انا ابن خالد بن الوليد ، انا ابن من قد عجمته العاجمات ، أنا ابن فاقىء الرده ... فاقامهم شهرا كلما ركب أمشاهم ، فاذا مر قال : يا ابن الحطيئة ان من لم يصلحه الخير أصلحه الشر ، مالك لا تقول كما كان يبلغنى أنك تقول لسعيد ومعاوية؟ فيقول ويقولون : نتوب الى الله ، أقلنا أقالك الله ... » كما روى أن عبد الرحمن بن خالد أنزلهم الساحل وأجرى عليهم رزقا لما سيرهم سعيد بن العاص اليه بأمر عثمان ، **وقيل كتب سعيد الى عثمان ان سيرهم الى الشام وألزمهم الدروب (٩١)** .

ودانت الشام لمعاوية واليا عشرين عاما ، وكان هذا تمهيدا لان تدين له خليفة فقد كان يعرف طريقه جيدا فى البلد الذى يحكمه « وخرج

(٩٠) دكتور مؤنس : المسلمون فى البحر المتوسط المجلة التاريخية المصرية م ٤ ع ١ مايو ١٩٥١ ، دكتور العدوى : الأمويون والبيزنطيون ص ٣٤ : ٤٢ .

(٩١) الطبرى جـ ٥ ص ٨٥ : ٩٠ رواية السرى عن شعيب عن سيف ، محمد بن عمر

عمر الى الشام فرأى معاوية فى موكب يتلقاه وراح اليه فى الموكب ، فقال له عمر : يا معاوية ، تروح فى موكب وتغدو فى مثله ، وبلغنى أنك تصبح فى منزلك وذوى الحاجات ببابك . قال يا أمير المؤمنين ، ان العدو هنا قريب منا ولهم عيون وجواسيس فأردت أن يروا للاسلام عزة ، فقال له عمر : ان هذا لكيد رجل لبيب أو خدعة رجل أريب فقال معاوية : يا أمير المؤمنين مرنى بما شئت أصر اليك ، قال : ويحك ما ناظرتك فى أمر أعيب عليك فيه الا تركتنى لا أدرى آمرك أم انهاك(٩٢). فلا عجب أن وطد معاوية أقدامه بالشام فدانت له بالولاء وظاهرته حتى رفعته الى الخلافة ، لما دخلت سنة ٣٦ فرق على بن أبى طالب عماله على الامصار ، فبعث.. سهل بن حنيف على الشام ، فأما سهل فانه خرج حتى اذا كان بتبوك لقيته خيل قالوا : من أنت ؟ قال : أمير ، قالوا : على أى شىء ؟ قال : على الشام ، قالوا : ان كان عثمان بعثك فحيى أهلا بك وان كان بعثك غيره فارجع . قال : أوما سمعتم بالذى كان ؟ قالوا بلى ـ. فرجع الى على (٩٣) » . وقامت الخلافة الأموية ، فجاء اختيارها دمشق عاصمة موافقا للعقلية العربية فى سكنى المدن ، فهذه المدينة القديمة التى كانت عاصمة الغساسنة ومتجرا لقوافل رحلة الصيف من الحجاز وعليها سادة قريش من بنى أمية قبل الاسلام ، ثم كانت معسكرا عند الفتح ـ كانت كمدن الامصار بعيدة عن الساحل لتكون بمنأى عن هجوم السفن ، واقعة على حافة بادية البلقاء ، فى واحة الغوطة الخصبة يغذيها نهر بردى ، وتحيطها جبال مثل قاسيون ، وقد أبقى معاوية على نظام حكم الدولة الاسلامية الذى وضعه عمر دون تغيير (٩٤) . وعلى رأس الاقاليم قام الولاة يؤدون واجباتهم فى قيادة الجيوش وجمع الخراج والصدقات ورعاية العدالة المدنية والجنائية . وهكذا كان الولاة مطلقى السلطات ، يبقون فى مناصبهم طالما رضيت الخلافة عن سلوكهم ، وكانت هناك ضرورة لهذه السلطة المطلقة هى صعوبة المواصلات وما يترتب عليها من تأخير وتعقيد لو أحيلت كل مسألة الى الخليفة . وعلى الرغم من أن الوظيفة الاساسية للوالى كانت حفظ الأمن وقمع الفتن فانه لم يغفل عن الأعباء الأخرى التى يمارسها حكام الأقاليم فى العصر الحديث مثل استصلاح الأراضى وتجفيف المستنقعات وحفر القنوات وتشييد الطرق والجسور وغير ذلك . وفى عهد الأمويين عين أمراء من البيت المالك

(٩٢) الطبرى جـ ٦ ص ١٨٤ . رواية احمد بن زهير عن على بن محمد .
(٩٣) الطبرى جـ ٥ ص ١٦١ رواية السرى عن شعيب عن سيف .
(٩٤) دكتور ماجد : التاريخ السياسى للدولة العربية جـ ٢ ص ٢٣ ـ ٤ .

ولاة ، وفضل بعضهم البقاء فى العاصمة واستخلاف نواب عنهم لادارة ولاياتهم ، فعندما ولى هشام مسلمة بن عبد الملك ارمينية واذربيجان فضل البقاء فى العاصمة • ولما كانت الشام مقر الخليفة فان الخليفة نفسه تولى ادارتها بمساعدة نوابه من الولاة على اجنادها • وقد ظلت تحكم وفق الأصول البيزنطية • وحرص الأمويون على استرضاء اهلها لأنهم مصدر قوتهم وركن دولتهم (٩٥) • ويقول ابن العديم عن حلب انها كانت فى قبضة ايدى بنى أمية المباشرة « لمقامهم بالشام ، وكون الولاة فى أيامهم بمنزلة الشرط ، لا يستقلون بالامور والحروب ، وولاة الصوائف ترد كل عام مع الجيوش الاسلامية الى دابق (٩٦) » • ويذكر الغزى أنه « من سنة ٤٥هـ – بعد وفاة عبد الرحمن بن خالدعامل حمص وما والاها – الى حدود سنة ٨٦ هو لم أطلع على اسماء عمال الخلفاء على قنسرين وحمص، ولعل العمال عليهما فى هذه المدة هم امراء الصوائف والمشاتى يخرجون الى الروم ويرجعون الى احدى البلدتين بعد انقضاء غزوهم ، فان البلدتين من أعظم ثغور الروم (!) فلا يستبعد أن يكونا محل اقامة الأمراء المذكورين أيام تقاعدهم عن الغزوات ، فانهم كانوا يقومون بوظائف العمال فى أثناء ذلك ويستخلفون اذا غزوا (٩٧) • ويقول كرد على « لا جرم أن ادارة الأمويين لم تكن فى كل أيام خلفائهم بريئة من العيوب ، ولم تضعف فى الحقيقة الا فى أيام يزيد بن الوليد – وكان على غير طريقة اسلافه فى أعماله ، وكان آخرهم مروان بن محمد على عظم همته وشدة باسه مشغولاً بالدفع عن الخلافة وكثرت الفتوق فضعفت ادارة المملكة •• وقيل من أوكد الأسباب فى زوال سلطانهم : استتار الاخبار عنهم واغضاب قواد الدولة وانقسام البيت الأموى على نفسه بسبب ولاية العهد ، فضلا عن انقسام العرب فى خراسان الى مضرية ويمانية وتنازعهم على الولاية ، ثم تأخير العطاء عن الجند فلم يدافعوا باخلاص عن دولتهم (٩٨) » •

وفى العصر العباسى أصبح النظام الادارى نظاما مركزيا ، واصبح العمال على الأقاليم مجرد عمال ولم يكونوا من الشخصيات البارزة • وكان الخليفة العباسى يختار عمال الأقاليم بنفسه لادارة شئونها ، بيد أن سلطتهم المدنية والقضائية لم تكن مطلقة وان كان بعض الامراء قد نالوا

---

(٩٥) حسينى : الادارة العربية ترجمة دكتور العدوى ص ٢٠٢ ، ٢٠٥ – ٧ ، ٢١٣ –
(٩٦) ابن العديم : زبدة الحلب جـ ١ ص ٤١ •
(٩٧) الغزى . نهر الذهب جـ ٣ ص ٢١ – ٢ •
(٩٨) كرد على الادارة الاسلامية فى عز العرب ص ١١٩ •

امتيازات لخدمتهم أو ولائهم • ولم يترك الوالي في ولايته زمنا طويلا في الغالب واذا ما عزل طولب ببيان عن ولايته ، فان تأيد شـك صودرت أملاكه • واستهلت الدولة العباسية حكمها للشام بأن **فصل السفاح فلسطين عن الشام ، كما فصل ارمينية واذربيجان عن الجزيرة** ــ وجعل منها ولايتين وقد نصح ابن المدبر المتوفى سنة ١٩٢ هـ كاتبه بمخاطبة كل على قدر مكانته ويلفته الى أن من الطبقات العلوية بعد الخلفاء والوزراء وكتابهم « أمراء ثغورهم وقواد جيوشهم » • وجرت العادة أن يولي الخلفاء العباسيون الولايات الاسلامية البعيدة بعض أفراد البيت العباسي وأكابر القواد ، غير أن هؤلاء آثروا البقاء في بغداد أو سامرا وأنابوا عنهم نوابا يحكمون الولايات باسمهم ، فلما ضعفت السلطة المركزية سـاءت حالة الولايات وجنح بعض النواب الى الاستقلال (٩٩) • وقد ساعد على هذه النزعة الانفصالية عدم استحكام النزعة البيروقراطية ، فانه لم يكن هناك شيء غريب وبغيض على العقلية الاسيوية ــ على حد تعبير فون كريمر ــ مثل وجود تحكم مركزي شديد ، فكانت كل قرية وكل بلدة تدير في الحقيقة شئونها بنفسها ، وكانت الادارة تسير على أبسط النظم ، ولا تفرض السلطة العليا على الأهلين سوى دفع الضرائب وتنظيم الري • وفي المشرق مثلا كانت كل مدينة في فارس تقوم بشئونها الخاصة الى درجة كبيرة ، بل كانت تجبي الضرائب كما تريد على أن تدفع الخراج المعين للدولة ، وكانت السلطة العليا تستشير الحكام المحليين عند استحداث ضرائب جديدة أو نشوب خلافات بين المدن المتجاورة • وتكاد هذه المدن تؤلف امارات شبه مســتقلة تقترب من وضــع المدن الحرة في أوربا ، فكانت مســاحة بلخ وملحقاتها تزيد على الـ ١٠ فراسخ وتحوطها الأسوار لحمايتها • وعلى منوالها جرت الأمور في صغد وسمرقند وهراة وبخارى وخوارزم والري وهمدان وغيرها • وكان يدير كثيرا من المدن مجلس من أعيان المواطنين كما كان في المدن التجارية نقابات للتجارة • وتكتفي السلطة المركزية بتعيين القاضي وكبار الموظفين والحكام الذين تختارهم من أعيان الجهة ، وقد كان منصب الحاكم من الأهمية بحيث كان يختار له احيانا أمراء من بيت الخلافة (١٠٠) • وهكذا كانت النزعة الانفصالية شيئا طبيعيا بعد

(٩٩) دكتوران حسن وعلي ابراهيم : النظم الاسلامية ــ الطبعة المفصلة ــ ص ٠٢٤ : ٦ ، دكتور حسن ابراهيم : تاريخ الاســلام ج ٢ ص ٢٠٢ : ٤ ، حسيني : الادارة العربية ترجمة دكتور العدوي ص ٣٣٧ ــ ٨ ، جرونيباوم : حضارة الاسلام ترجمة جاويد ص ٢٢٠ •

(١٠٠) أمير علي : مختصر تاريخ العرب والتمدن الاسـلامي • ترجمة رافت ص ٣٦٢ ، حسيني : الادارة العربية ترجمة دكتور العدوي ص ٣٨٩ ــ ٣٩٠ •

امتداد الامبراطورية امتدادا شاسعا وصعوبة المواصلات فى داخلها ، مما مكن لتزايد نفوذ الحاكم فى الولاية تبعا لمقدرته الشخصية وضعف الخليفة وبعد الولاية عن العاصمة • اما بالنسبة الى الشام بالذات فقد زالت سيادتها على دنيا الاسلام بسقوط الأمويين ، وتنبه أهل الشام بعد هزيمة الزاب الى انتقال مركز الثقل فى دولة الاسلام نحو الشرق ، فعقدوا رجاء أخيرا على سليل لمعاوية من البيت السفيانى توقعوا أن يعود عودة المسيح ويديل لهم من منافسيهم ولئن كانت الدولة الأموية ـ على اعتبار ما ـ وريثة الامبراطورية البيزنطية فقد كانت خلافة بنى العباس ـ باعتبار أعم وأوسع ـ وريثة أمبراطورية الاكاسرة • وكان أول وال للعباسيين على سوريا عبد الله بن بطل الزاب نفسه ، وما أن توفى السفاح حتى طلب عبد الله الخلافة لنفسه منازعا المنصور ، فقضى عليه أبو مسلم الخراسانى، ثم قضى المنصور على أبى مسلم • وقد هيأت القلاقل التى رافقت سقوط الأمويين وقيام العباسيين لقياصرة الروم فرصة التقدم داخل الحدود الاسلامية فاضطر المنصور وخلفاؤه الى بذل الجهد فى تحصين الثغور • على أن انتقال العاصمة الى بغداد جعل أمر الروم بالنسبة للعباسيين غيره بالنسبة لاسلافهم • ولم يتوان أهل الشام بعد أن فقدت بلادهم مكانتها عن التعبير عن معارضتهم ، فقامت فتن عدة فى وجه عبد الله حاكم الشام الأول من بنى العباس فى حوران والبثنية وقنسرين تزعمها قادة مروانيون سابقون • فى حين قاد المتمردين فى حمص وتدمر زعيمهم زياد سليل معاوية الذى وقع عندهم انه السفيانى المنتظر • واشتد النزاع القيسية واليمنية ، وكان ضلع العباسيين مع القيسية بوجه عام ، وبلغ النضال أشده فى عهد الرشيد • كذلك كان لصراع الأمين والمأمون على الخلافة آثاره فى الشام ، اذ نشب الاحتكاك بين أهلها واهل خراسان ـ الذين تزايد توافدهم فى الثغور والاجناد منذ قيام العصر العباسى ـ وفى عهد الأمين المضطرب عمد سفيانى آخر اسمه على الى رفع العلم الأبيض وظفر بتأييد حاكم صيدا واحتل حمص ودخل دمشق • فى سنة ٢١٤ هـ ٨٢٩م قدم المأمون الشام ووضع كشفا جديدا لأراضيها لزيادة خراجها ، وأعاد زيارتها بعد أربع سنوات ـ وكان عدد من الخلفاء الذين سبقوه زاروا الشام فى طريقهم الى الحج أو حملاتهم على الروم ، كما كانوا على علم بمجريات الأمور هناك عن طريق ولاتهم وعمال البريد • وفى زيارة المأمون للشام أبدى رأيا لا يسر فى أهلها ، فقد روى الطبرى « تعرض رجل للمأمون بالشام مرارا ـ فقال له : يا أمير المؤمنين ، انظر لعرب الشام كما نظرت لعجم أهل خراسان فقال : أكثرت على يا أخا أهل الشام ، والله ما أنزلت

قيسا عن ظهور الخيل الا وأنا أرى أنه لم يبق فى بيت مالى درهم واحد ، وأما اليمن فوالله ما أحببتها ولا أحبتنى قط ، وأما قضاعة فسادتها تنتظر السفيانى وخروجه فتكون من أشياعه ، وأما ربيعة فساخطة على الله منذ بعث نبيه من مضر ولم يخرج اثنان الا خرج أحدهما شاريا ــ اعزب فعل الله بك » (١٠١) • ثم ثار المبرقع اليمانى بفلسطين سنة ٨٤٠ ــ ١ م وزعم أنه سفيانى النسب ، وكان اتباعه البالغون فيما روى مائة الف رجل من مزارعى الريف مما يشير الى دافع اقتصادى • وفى عهد المتوكل شبت الثورة فى دمشق مرة أخرى سنة ٢٣٩هـ ٨٥٤ ــ ٥م وقتل الحاكم العباسى ، فارسل الخليفة قائدا تركيا بجيش كبير فأعمل فى المدينة القتل والحرق والعجيب أن الخليفة المتوكل نفسه فكر فى نقل عاصمته الى دمشق سنة ٢٤٣ هـ ٨٥٨ م ، ويغلب أنه حاول بذلك أن يتفادى تسلط حرسه الأتراك •« وعزم على المقام بها ،ونقل دواوين الملك اليها ،وأمر بالبناء بها ، فتحرك الأتراك فى أرزاقهم وأرزاق عيالاتهم فأمر لهم بما أرضاهم ثم استوبأ البلد وذلك أن الهواء بها بارد ندى والماء ثقيل والريح تهب فيها مع العصر فلا تزال تشتد حتى يحصى الليل ، وهى كثيرة البراغيث وغلت فيها الأسعار وحال الثلج بين السابلة والميرة » (١٠٢) •

وكان قيام الحرس التركى فى عهد خلفاء المأمون أول البوادر لانحلال الحكم العباسى فقد غدت هذه الجماعة نظير الانكشارية فى التاريخ العثمانى وغلب نفوذها على الخليفة • فأخذ نفوذ الخلافة يتداعى ــ الا فى فترات قصيرة ، وكان ذلك بمثابة انتحار بطىء يمهد للضربة القاضية من يد هولاكو والمغول سنة ٦٥٦ هـ ١٢٥٨ م• وبينما كانت الخلافة العباسية تزداد تفسخا كانت بعض السلالات الصغرى وجلها من أصــــل عربى تقتطع لنفسها مناطق نفوذ من ممتلكات الخلافة الغربية ، وبعضها الآخر وجلها من الترك ، والفرس تفعل مثل ذلك فى المناطق الشرقية • فأحمد بن طولون كان أبوه مولى تركيا أرسل من بخارى هدية للمأمون ، وقد انتهز أحمد فرصة تكليف من الخليفة ليخضع ثائرا بالشام الذى كثيرا ماكان بلد الثائرين على حكم العباسى فزاد جنده ودعم سلطانه فى دولة قصـــيرة العمر (سنة ٢٥٤ : ٢٩٢ هـ ٨٦٨ : ٩٠٥ م) • وكان القائد الذى دفع

(١٠١) حتى : تاريخ سورية جـ ٢ ترجمة دكتور اليازجى ص ١٥٧ : ١٦٦ الطبرى جـ ١٠ ص ٢٩٦ •

(١٠٢) الطبرى جـ ١١ ص ٥ ــ ٦ ، ٥٥ ، حتى : تاريخ سوريا جـ ٢ ترجمة دكتور اليازجى ص ١٦٦ ــ ١٦٧ •

هجمات القرامطة عن دمشق باسم الطولونيين تركيا من فرغانة اسمه طغج استطاع ابنه محمد أن يقيم نفسه على حكم مصر سنة ٩٣٥م بعد فاصل قصير من الحكم العباسي هناك أعقب سقوط الطولونيين. وكانت الأسرة الاخشيدية قصيرة الحكم أيضا ٣٢٣ : ٥٨ هـ ٩٣٥ : ٦٩ م كسابقتها الطولونية « وقد كان منهج حياتهما واحدا – ذلك المنهج الذي ميز عددا من الولايات الأخرى المنسلخة من السلطة المركزية العباسية ، فقد عمدت كلتاهما الى تبذير المال الوارد من الولايات لاسترضاء الرعية فخربت الخزينة ، وكل منهما لم تقم على أساس قومي في الامصار التي استتبعتها ولا استطاعت أن تعتمد بين رعاياها على جماعة متجانسة متماسكة من ابنائها الموالين وكان على هؤلاء الحكام الدخلاء أن يتخذوا حرسهم وجنودهم من مصادر غريبة ولا يمكن صيانة مثل هذا الحكم الا اذا استمرت اليد التي امتشقت السيف قوية » – على حد تعبير الدكتور حتى .

وهكذا بدأ الحكم الاسلامي في الشام بامرة استكفاء تعقد عن اختيار، وانتهى بامرة استيلاء تعقد عن اضطرار – على حد تعبير الماوردي . ويصف ابن الأثير حالة الدولة العباسية جملة في خلافة الراضي ٣٢٢ : ٩ هـ ٩٣٤ : ٤٠ م فيقول « ولم يبق للخليفة غير بغداد واعمالها – والحكم في جميعها لابن رائق ليس للخليفة حكم . وأما باقي الأطراف ، فكانت البصرة في يد ابن رائق وخورستان في يد البريدي ، وفارس في يد عماد الدولة بن بويه ، وكرمان في يد ابي علي محمد بن الياس والري وأصبهان والجبل في يد ركن الدولة بن بويه ويد وشمكير اخي مرداويج يتنازعان عليها ، والموصل وديار بكر **ومضر وربيعة في يد بني حمدان ، ومصر والشام في يد محمد بن طغج والمغرب وافريقية في يد ابي القاسم القائم بامر الله بن المهدي العلوي** . وهو الثاني منهم ويلقب بأمير المؤمنين ، والاندلس في يد عبد الرحمن بن محمد الملقب بالناصر الاموي ، وخراسان وما وراء النهر في يد نصر بن أحمد الساماني ، وطبرستان وجرجان في يد الديلم ، والبحرين واليمامة في يد أبي طاهر القرمطي » .

وحين شرع الاخشيد يستقر في كرسي الحكم ، اذا بنفوذ **الحمدانيين** في شمال الشام يتحدى سلطانه على يد أميرهم الفتى سيف الدولة في مدينة حلب . وينسب هؤلاء الى حمدان بن حمدون من بني تغلب ، بدأ ظهوره في أواخر القرن التاسع الميلادي عندما استولى على قلعة ماردين ، واستطاع اعقابه بعد كثير من المنازعات والمهادنات مع الخلفاء أن يبسطوا سلطانهم على الموصل وجانب كبير من العراق وشمال الشام ، **وكان ابرزهم ابو العلاء الذي استطاع سنة ٣٣٣هـ ٩٤٤م أن ينتزع من عامل الاخشيد حلب وانطاكية**

وحمص وان يحصل من الخليفة العباسي على لقب سيف الدولة • وقد استمر الحمدانيون على الدعاء للخليفة العباسي واختار سيف الدولة مدينة حلب عاصمة له ، « اما سبب اختياره لها فربما كان وجود القلعة القديمة فيها وقربها من الحصون القائمة على الحدود ، اذ كان ينوى أن يدفع عنها غارات الروم : **ولاول مرة بعد عهد العموريين غدت مدينة الشمال قاعدة للحكومة ذات خطر** » وشملت سلطة سيف الدولة شمالي الشام وجانبا من كيليكيا وجزءا كبيرا من شمالي العراق،كما انتزع مركزا اماميا في ارمينية بمساعدة اخواله الاكراد • ولما كانت دولته قائمة على الحدود فقد استنفد صد غارات البيزنطيين جل وقته ومعظم جهده ، وكان أول قائد جدد الكفاح بعد الركود، **وكان الصراع الحمداني البيزنطي مقدمة بين يدي الغزو الصليبي** • وفى مقابل شخصية الامير الحمداني كبطل محارب مسلم كانت هناك شخصية الامبراطور البيزنطي نقفور فوقاس ••• » على أن الغيوم الدكناء أخذت تتلبد في الافق : فالجيوش الفاطمية اخذت بعد منتصف القرن العـــاشر في مهاجمة الشام من الجنوب ، ومتعصبو القرامطة من عشائر العـراق وفارس عاودوا اجتياح البلاد من الشمال الشرقي ، ثم لم يلبث السلاجقة وسواهم من الاتراك أن انحدروا من الشمال ، واذا بكبريات المدن نظير حلب ودمشق والقدس تتقاذفها الايادي الغريبة • وفي اواخر القـــرن الحادي عشر كان اقوام من الفرنج ينحدرون من الشمال الغربي واعقب امارات المماليك تسلط الاتراك العثمانيين « وعندها خيم على البلاد ظلام لم ينقشع حتى أواسط القرن التاسع عشر (١٠٣) » •

الوظائف المحلية الأخرى :

في الأخبار المبكرة للحكم الاسلامي بالشام ورد ذكر بعض موظفي الادارة المحلية « فولى عمر معاوية بعد يزيد ، وولى معه رجلين من أصحاب رسول الله الصـــلاة والقضاء : فولى أبا الدرداء قضاء دمشـــق والأردن وصلاتهما ، وولى عبادة قضاء حمص وقنسرين وصلاتهما » (١٠٤) • ودلالة هذا الخبر انه قد وجد موظفون محليون في أجناد الشام بجوار الولاة منذ البداية ، وأن هؤلاء الموظفين المحليين كانت تعينهم الســـلطة المركزية • وأخذت الخطوط العامة للادارة الاقليمية في الدولة الاســلامية

(١٠٣) حتى : تاريخ سورية جـ ٢ ترجمة الدكتور اليازجي فصل ٤٣ ص ١٨٥ ومابعدها ، ابن الاثير جـ ٨ ص ١١٢ – ٣ •

(١٠٤) البلاذري : فتوح البلدان ص ١٤٨ •

تتضح بالتدريج حتى نهاية عهد الخلفاء الراشدين ، **فبجوار الوالى فى دار الامارة كان هناك عامل لكل مقاطعة وقاض يفصل فى أقضية المقاطعة ، كما وجد كتاب للامارة ، وكان هناك أيضا صاحب بيت المال** • وكان لكل قسم من الأقسام الفرعية للمقاطعة عامله والهيئة التابعة له • (١٠٥) وكان من حق الأمير أن يعين عامله على أى جزء فى امارته ، ولا يتطلب أكثر من أن يرفع اسمه للخليفة • وقد ازداد النظام الادارى احكاما **فى عهد الأمويين :** فنظمت ثلاثة دواوين فى ولايات الدولة : ديوان الجند ، وديوان الرسائل ، وديوان المستغلات ، وكان يمثل ديوان البريد المركزى صاحب البريد فى الولايات • واذا كان الامير ــ وهو رجل من أصحاب السيف ــ أهم موظف فى الولاية فى عهد الفتح والتوسع ، فانه عندما استقرت دعائم الدولة أخذ العامل يزداد أهمية ، ويتولى موارد الولاية ويعلو رأيه فيما يختص بصالح الخزانة على رأى الأمير أو الوالى • أما صاحب الخراج فهو الذى يتولى جمع ضريبة الارض بعد أن اتسعت الأرض الخراجية لتزايد الفتوح ، وكان الكاتب يشرف على ديوان الولاية ويخفف عن الوالى كثيرا من أعبائه ، وتعدد الكتاب باتساع الادارة • وكان هناك صاحب الاحداث الذى يشرف على الشرطة ومهمته تصفها حربى ونصفها بوليسى ، لأن عليه حفظ القانون والنظام ، والقضاء على الفتن ومنع الجرائم ، وذلك الى جانب القاضى (١٠٦) • ويبدو أن معاوية كان أول من عين صاحب خراج ، وكانت الادارة المالية هى الغالبة على ما عداها فى حكم أى ولاية • (١٠٧) وقد أبقى معاوية فى دواوين الشام الكتاب من النصارى من أهل البلاد وكثرتهم يكتبون باليونانية • ولكى يشرف على ادارة الدولة اشرافا دقيقا أوجد ديوان الخاتم لانفاذ كتب الخليفة والختم عليها بعلامته واثبات نسخها فيه ، **كذلك ينسب اليه** ابتكار نظام البريد الذى أعطى له عبدالملك طابعه النهائى فكان يعرف بجناح المسلمين (١٠٨) • وقد نهض عبد الملك بعبء تحويل الدواوين الى العربية ، فلما كانت سنة ٨١ أمر بنقله ، وذلك أن رجلا من كتاب الروم احتاج أن يكتب شيئا فلم يجد ماء فبال فى الدواة ، فبلغ ذلك عبد الملك فأدبه وأمر سليمان بن سعد بنقل الديوان فسأله أن يعينه بخراج الاردن سنة ، ففعل ذلك وولاه الأردن ــ فلم تنقض

(١٠٥) حسينى : الادارة العربية ترجمة دكتور العدوى ص ٨١ ــ ٢ ، ولم يذكر مصادره فى تحديد منصب خاص (للعامل) هو غير الوالى وغير صاحب بيت المال او صاحب الخراج •

(١٠٦) حسينى : الادارة العربية ترجمة دكتور العدوى ص ٢٠٧ : ٩ •

(١٠٧) حتى : تاريخ العرب ترجمة نافع جـ ١ ص ٢٧٩ •

(١٠٨) دكتور ماجد : التاريخ السياسى للدولة العربية جـ ٢ ص ٢٤ ــ ٥ •

السنة حتى فرغ من نقله · وأتى عبد الملك فدعا بسرجون كاتبه فعرض ذلك عليه فغمه ، وخرج من عنده كئيبا فلقيه قوم من كتاب الروم فقال: اطلبوا المعيشة من غير هذه الصناعة فقد قطعها الله عنكم » (١٠٩) والسبب الذى يرويه البلاذرى ساذج للغاية ، فى حين أن ابن خلدون يعلل هذا على مذهبه فى تطور الامم من البداوة الى الحضارة · « وأما حال الجباية والانفاق والحسبان فلم يكن عندهم برتبة لأن القوم كانوا عربا أميين لا يحسنون الكتابة والحساب ، فكانوا يستعملون فى الحساب أهل الكتاب أو أفرادا من موالى العجم ·· وكذا حال المخاطبات وتنفيذ الأمور — لم تكن عندهم رتبة خاصة ، للأمية التى كانت فيهم والأمانة العامة فى كتمان القول وتاديته ·· وأيضا فلم تكن الكتابة صناعة فيستجاد للخليفة أحسنها لأن الكل كانوا يعبرون عن مقاصدهم بأبلغ العبارات ، ولم يبق الا الخط فكان الخليفة يستنيب فى كتابته — متى عن له — من يحسنه ·· ثم استفحل الملك بعد ذلك ·· واتخذ للسجلات كاتب مخصوص حوطه على أسرار السلطان أن تشتهر فتفسد سياسته مع قومه ·· ولما جاء عبد الملك بن مروان واستحال الأمر ملكا وانتقل القوم من غضاضة البداوة الى رونق الحضارة ومن سذاجة الأمية الى حذق الكتابة وظهر فى العرب ومواليهم مهرة فى الكتاب والحسبان أمر عبد الملك سليمان بن سعد أن ينقل ديوان الشام الى العربية » (١١٠) وقد مضى تعريب الدواوين فى شتى أنحاء الدولة الاسلامية ، فنقل ديوان العراق من الفارسية الى العربية ، وديوان مصر من القبطية والرومية الى العربية أيضا · وساعد على هذه الخطوة ما تم من محاولات فى بحث قواعد اللغة العربية وكتابتها ، ومن ذلك جهود أبى الأسود الدؤلى ومساعى الحجاج لضبط الحروف العربية بالتنقيط · وكان من نتائج تعريب الادارة أن أقبل كتابها من غير العرب على تعلم العربية ابقاء على عملهم بالدواوين ، على أنه ينبغى أن يلاحظ أن ديوان العساكر الاسلامية كان يحرر بالعربية منذ عهد عمر ، وانما كان ديوان المال والجباية بلغة أهل البلاد المفتوحة · وتأخر تعريب ديوان مصر لكن الوليد منع نهائيا التحرير باليونانية وجعل العربية لغة الادارة الوحيدة ، واستعان على تعريب ديوان مصر بشخص من الشام (١١١) ويبدو أن عبد الملك قد أقام الدولة من وجوه أخرى على قواعد جديدة ، فأصبحت

---

(١٠٩) البلاذرى : فتوح البلدان ص ٢٠١ ، النويرى : نهاية الأرب جـ ٨ ص ١٩٩ ، ابن خلدون : المقدمة طبعة دكتور وافى جـ ٢ ص ٦١٥ ·

(١١٠) ابن خلدون : المقدمة طبعة دكتور وافى جـ ٢ ص ٦٠٤ : ٦ ، ٦١٤ — ١٥ ·

(١١١) دكتور ماجد : التاريخ السياسى للدولة العربية جـ ٢ ص ١٦٢ : ٥ ·

ادارتها ذات طابع فنى وعلى نظام متدرج أكثر من قبل وان كانت فى ذلك أقل بكثير من ادارة الدولة العباسية • وقد اختط عبد الملك فى معاملته لعماله خطة صارمة وأوشك أن يكون جافيا غليظا حتى مع الحجاج على مكانته (١١٢) •

وكانت المدن التى أسست لتكون معسكرات كالجابية ودابق شمالى حلب تشغل فى الشام المكانة التالية لدمشق ، واقتدى العرب بعادات الشعوب التىأدخلوها تحتحكمهم: فكلمة ديوان لعلها مأخوذة منالفارسية، وأما البلاد التى كانت تحت حكم البيزنطيين فاخـــذت مصطلحاتها من اليونانية واللاتينية ، وظلت الأعمال الكتابية بأيدى العمــال المحليين وباللغات المحلية ولم يبدأ استعمال اللغة العربية الا فى نهاية القرن الأول الهجرى ونهاية السابع الميلادى • ونرى مصطلحات مأخوذة من لغات عدة تستعمل متآلفة معا فى أعمال الخلافة الخاصة بالدولة والادارة : فمثلا المصطلحات المأخوذة من بيزنطة مثلا تستعمل فى البلاد المأخوذة من ايران والعكس بالعكس • فكلمة بريد مأخوذة من كلمة veredus اللاتينية ، بينما سماها اليونان أنكروس نقلا عن الفارسية • ويرى بارتولد أن مصطلح الجند نفسه فارسى الأصل كما يرى أن كثيرا من رتب الحرس والشرطة مأخوذة عن الايرانيين (١١٣) •

وصارت الأداة الادارية أكثر دقة فى العهد العباسى • وكان لكل ديوان من الدواوين الرئيسية فى العاصمة ديوان مماثل له أو موظف يمثله فى كل ولاية من الولايات ولكن تركزت فى ديوان واحد من العاصمة يمثل مصالح الولاية فيها مهام شتى دواوين الولاية • ومن المؤكد وجود الدواوين التالية فى الولايات : الخراج ، الرسائل ، الزمام ، البريد ، الضياع ، وكان لكل ولاية بجانب واليها قاض وصاحب شرطة ومحتسب، وأصل وضع الشرطة فى الدولة العباسية « لمن يقيم أحكام الجرائم فى حال استبدائها أولا ثم الحدود بعد استيفائها » • ويفرق الماوردى بين نوعين من القضاء احدهما ذو سلطات عامة ومطلقة والآخر ذو سلطات خاصة ومحددة • وقد ذكر مثلا أن محمدا أبا الحسن بن الامام الشافعى « ولى **قضاء قنسرين والعواصم** » • كما ذكر أن هرون بن عبد الله من سلالة عبد الرحمن بن عوف « ولى القضاء بالمصيصة ، ثم الرقة » ، وذكر أن صالح من أولاد الامام بن حنبل كان « قاضى الثغر » فى حين كان ابنه

(١١٢) فلهوزن : تاريخ الدولة العربية ترجمة دكتور أبى ريده ص ٢١٣ •
(١١٣) بارتولد : تاريخ الحضارة الاسلامية ترجمة حمزة طاهر ص ٣٢ : ٦ •

عبد الله « قاضي حمص » كما ذكر أن هرون بن عبد الله من ســـــلالة عبد الرحمن بن عوف « ولاه المأمون قضاء المصيصة » ، ويتولى المحتسب المحافظة على القانون ولا سيما فى الجانب الدينى والأخـــلاقى منه وفى استطاعته الفصل فى القضايا التى يكون فيها الحق واضحا بينا لا لبس فيه (١١٤) ٠

ونحن نعثر على ذكر **قاضي العسكر** لأول مرة فى عهد عمر ، اذ يروى الطبرى أن عمر جعل على قضاء الناس عبد الرحمن بن ربيعة الباهلى ذا النور وجعل اليه الاقباض وقسمة الفيء ٠ ولا بد أن قضـــاة العســكر لم يقتصروا على الفصل فى قضايا الجند ــ بل كانوا يفصلون أيضا فى قسمة غنائم البر والبحر ٠ واذا وقع من أفراد الجيش تصرف جرى القيام به بأمر ســلطة عليا فانه لا يعتبر جريمة من القـــائم به ولا يحاكم عليه ولكن يسأل من اصدر الأمر ، أما أن صدر التصرف بغـير اذن السلطة العليا أو علمها فلا بد من أن يعوض مرتكب الفعل الشخص المضرور عما الحقه به فعله فضلا عن العقوبات التأديبية التى تصيب مرتكب الضرر ٠ وهكذا دفعت الحكومة الاسلامية الدية لبنى جذيمة عن كل حياة أزهقت ، وعوضوا عن الكلاب المقتولة وزيد قدر من المـــال لتغطية الخسائر غير المعلومة (١١٥) ٠ وكان على قاضي العسكر أن يتريث فى انفاذ الحدود أثناء سير الجيش فى أرض العدو ٠ وأورد أبو يوسف عن ابراهيم بن علقمة قال: غزونا أرض الروم ومعنا حذيفة وعلينا رجل من قريش ، فشرب الخمر فأردنا أن نحده ، فقال حذيفة : تحدون أميركم وقد دنوتم من عدوكم فيطمعون فيكم ؟؟ وروى أن عمر أمر أمراء الجيوش والسرايا أن لا يجلدوا واحدا حتى يطلعوا من الدرب قافلين ، وكره أن تحمل المحدود حميـــة الشيطان على اللحوق بالكفار ٠ (١١٦) ٠

وجعل لكل ولاية ديوان ببغداد يدير شئونها ،وكان كل من هـــذه الدواوين يتألف من قسمين : أولهما الاصل وهو يختص بوضع الضرائب وحملها الى بيت المـــال وبمراقبة الضرائب وتنمية مواردها ــ أى يختص بالادارة ، وثانيهما الزمام أو ديوان المال ٠ ولما جاء المعتضد سنة ٢٧٩ ــ ٢٨٩ هـ ، ســـنة ٨٩٢ ــ ســـنة ٩٠٢ م ضم دواوين الولايات كلهـــا فى

(١١٤) حسيني : الادارة العربية ترجمة دكتور العدوى ص ٣٢٩ ــ ٣٣٠ ، ٣٣٨ : ٣٤٣ ٠
ابن خلدون : المقدمة طبعة دكتور وافى جـ ٢ ص ٥٧٦ ــ ٧ ، ٦٢٥ الزبيرى نسب قريش ص ٢٧٢ ، ابن حزم : جمهرة انساب العرب ص ٦٦ ، ١٢٥ ، ٣٠٠ ٠

(١١٥) Hamidullah : Muslim Conduct of State. pp. 283-4.

(١١٦) ابو يوسف : الخراج ص ١٧٨ ٠

(ديوان الدار) وله ثلاثة فروع : ديوان المشرق ، وديوان المغرب وديوان السواد أى العراق • ووضعت أزمة الدواوين كلها فى يد رئيس واحد ، والاصول كلها فى يد رئيس واحد • وكان كل ديوان كبير ينقسم أقساما كثيرة تسمى دواوين أيضا اذ كان لكل ناحية ديوانها • **وفى الولاية كان هناك العامل بجانب الامير المتولى قيادة الجيش ، ويسمى العامل صاحب الخراج** لأن أكبر واجبـاته حمـل خراج الولاية الى خزانة الدولة ويتولى الانفاق على الولاية مما يحصله من الأموال ، لأن خزانة الدولة العامة كانت لا تتولى غير نفقات دار الخلافة والدواوين وما يتعلق ببغداد • وترسـل منشورات الوزير الى الامير والعامل فى وقت واحد ، لكن الامير يتميز بالامامة فى الصلاة واذا تضافر الرجلان استطاعا أن يفعلا ما يشـاءان ، ولو أن رجلا واحدا قلد المنصبين لا صبح كالحاكم المستقل بولايته • ولدينا شكوى من Dionusius von Tellmachrê المتوفى سنة ٢٢٩ هـ ــ سنة ٨٤٣م فى آخر كتـابه فى التـاريخ من كثرة عدد العمـال « لأنهم بهذه الكثرة يغتصبون عيش الفقير بكل الوسائل » ، ففى مدينة الرقة مثلا ــ وهى مدينة صـغيرة على الفرات ــ كان يوجد : قاض ، وكاتب سـلعة يعرف بالبندار يطالب بالخراج ووجوه المال ، وصاحب جند ، وصـاحب بريد ينهى أخبار الولاية للخليفة ومتول للضياع السلطانية ، وصاحب معونة ــ وهذا الكلام الذى يرويه ميشيل السورى غير واضح لأن منصب صاحب المعونة كان يضـم عادة الى صاحب الجنـد والحرب • ولما كانت الصبغة الغالبة فى عمال الدواوين هى الصبغة الاقتصادية المالية فقد كان لا بد أن تتوفر فى الواحد منهم خصال التاجر ــ وكان الفارسى أمهر تاجر فى المملكة الاسلامية • وذكر البعض أن **الكتاب خمسـة : كاتب رسـائل ، وكاتب خراج ، وكاتب قضاء ، وكاتب جند ، وكاتب شرطة** ــ لكل منهم أشياء يجب أن يعرفها • (١١٧) •

ومن أهم وسائل توثيق الروابط بين الادارة المركزية والولايات العناية بالبريد وقد غدت الطرق بين بغداد وسائر جهـات الامبراطورية عامرة بالحركة وقام فى بغداد ديوان كبير للبريد وزودت الطرق بمحطات للبريد وكان عامل البريد عينا على العمال فى الولايات (١١٨) • والبريد الامبراطورى ميراث سـاسـانى بيزنطى ، وقد قامت الدولة الاسـلامية بتوزيع منازل الخيل والبغال والجمـال على الطرق الكبرى بين العاصـمة

(١١٧) متز : الحضارة الاسلامية • ترجمة دكتور أبى ريدة ص ٩٨ ، ١٠٤ : ٧ •

(١١٨) هل : الحضارة العربية • ترجمة دكتور العدوى ص ٨٨ •

والبلدان الهامة فى الولايات وعلى بعض الطرق الجانبية ليجد الركاب السباعون بالبريد دوابا مستريحة ووسائل للاسعاف وأشخاصا يحلون بدل العاجزين عن مواصلة السير فى بعض الأحيان . ويمكن ادراك أهمية أعباء صاحب البريد اذا علمنا أنه يشرف على شبكة الطرق فى منطقة من حيث تأمينها وصيانتها ـ وهى مهمة شاقة خاصة عند مجارى الانهار . (١١٩) وقد وصف ابن خرداذبة بريد الروم فقال : « وبراذين الروم براذين لطاف ، محذفة الاذناب خفاف » (١٢٠) . وقد ذكر أن معاوية هو الذى استهل بانشاء البريد حين استقرت له الخلافة « لتسرع اليه أخبار بلاده من جميع أطرافها ، فأمر باحضار رجال من دهاقين الفرس وأهل الأعمال الروم وعرفهم ما يريد فوضعوا له البريد » وأحكمه عبد الملك بن مروان بعد أن وطد دولته وقضى على الخوارج « وكان الوليد بن عبد الملك يحمل عليه الفسيفساء وهى الفص المذهب من القسطنطينية الى دمشق حتى صفح منه حيطان المسجد الجامع بها ومساجد مكة والمدينة والقدس » . وانقطع البريد باضطراب الاحوال أواخر الدولة الاموية « وملك السفاح ثم المنصور ثم المهدى والبريد لا يشد له سرج ولا تلجم له دابة » ثم رتب المهدى بريدا يأتيه بأخبار ابنه هارون لما أغزاه الروم وانقطع ذلك بعد قفوله فلما استخلف الرشيد ذكر يوما حسن صنيع أبيه فى البريد الذى جعل بينهما فحسن له يحيى بن خالد اجراء البريد على ما كان عليه ، فأمره بذلك « فرتب البريد على ما كان عليه أيام بنى أمية ، وجعل البغال فى المراكز وكان لا يجهز عليه الا الخليفة وصاحب الخبر » (١٢١) . وكانت تجعل خيل مضمرات فى عدة أماكن ، فاذا وصل صاحب الخبر المسرع الى مكان منها وقد تعب فرسه ركب غيره فرسا مستريحة ، وكذلك يفعل فى المكان الآخر والآخر حتى يصل بسرعة . وقد وضع البريد طلبا لحفظ الأموال وسرعة وصول الاخبار ومتجددات الاحوال . (١٢٢) واستخدم البريد أحيانا فى النقل السريع للشحنات الصغيرة من الجند ، ومن ذلك أنه على أثر قتل الترك بالللان الجراح الحكمى ارتأى سعيد بن عمرو الحرشى للخليفة أن يبعثه على ٤٠ دابة من دواب البريد ثم يبعث اليه كل يوم ٤٠ دابة عليها ٤٠ رجلا حتى يوافيه امراء

---

(١١٩) Gaudefroy-Demombynes, Platonov : Le Monde Mus. et Byz. p. 397.

(١٢٠) ابن خرداذبة . المسالك والممالك ص ١١٢ .

(١٢١) القلقشندى : صبح الاعشى جـ ١٤ ص ٣٦٧ : ٩ .

(١٢٢) دكتور حسن ابراهيم جـ ١ ص ٥٨٤ ـ ٥ .

الاجناد • (١٢٣) ولصاحب البريد الاشراف على انفاذ الكتب وتلقيها ، وله النظر في المرتبين في السكك وتنجيز أرزاقهم ، وتقليد اصحاب الخرائط في سائر الامصار ، ولا غنى له بعد ثقة الخليفة عن معرفة الطرق والمسالك الى جميع النواحي ، وكان له عيون يوافونه بكل جديد — وهذا ميراث أخذه العرب عن البيزنطيين اذكان لصاحب البريد أعوانVeredarii في عهد قسطنطين الاكبر وهم نقلة الاخبار اليه • وذكر المسعودي في المروج أن اولى الامر قد اسكتوا ابن بسام الشاعر **بولاية البريد بجند قنسرين** • وجاء في **عهد بولاية بريد أورده قدامة** ما يوجب على صاحبه « أن يعرف حال عمال الخراج والضياع فيما يجري عليه أمرهم ويتتبع ذلك تتبعا شافيا ويستشفه استشفافا بليغا وينهيه على حقه وصدقه •• وأن يعرف حال عمارة البلاد وما هي عليه من الكمال والاختلال وما يجري في أمور الرعية فيما يعاملونه من الانصاف والرفق والجور والعسف فيكتب به مشروحا •• وأن يعرف ما عليه الحكام في حكمهم وسيرهم وسائر مذاهبهم وطرائقهم •• وأن يعرف حال دار الضرب وما يضرب فيها من العين والورق وما يلزمه الموردون من الكلف والمؤن ويكتب بذلك على حقه وصدقه •• وأن يوكل بمجلس عرض الأولياء واعطياتهم من يراعيه ويطالع ما يجري فيه ويكتب بما تقف عليه الحال من وقته • وأن يكون ما ينهيه من الاخبار شيء يثق بصحته •• وأن يعرض المرتبين لحمل الخرائط في عمله ويكتب بعددهم وأسمائهم ومبالغ أرزاقهم وعدد السكك في جميع عمله وأميالها ومواضعها ويوعز الى هؤلاء المرتبين بتعجيل الخرائط المنفذة على أيديهم ، والى الموقعين باثبات المواقيت وضبطها حتى لا يتأخر أحد منهم عن الاوقات التي سبيله أن يرد السكة فيها • وأن يفرد لكل ما يكتب فيه من أصناف الاخبار كتبا باعيانها ، فيفرد لاخبار القضاة وعمال المعاون والاحداث •• والخراج والضياع وأرزاق الأولياء ونحو ذلك كتبا ليجري كل كتاب في موضعه(١٢٤)» • ونصح أبو يوسف الرشيد بأن يكتب اليه البريد بكل مايحدث ، وأن يتوعد الخليفة عمال البريد على ستر الاخبار عنه ويحذر ميلهم مع العمال على الرعية • وطلب أبو يوسف أن يدر لرجال البريد الرزق من بيت المال « **ومتى لم يكن أصحاب البرد والاخبار في النواحي ثقات عدولا فلا ينبغي أن يقبل لهم خبر في قاص ولا وال** (١٢٥) » • وكان صاحب البريد في الولاية يبعث

(١٢٣) الطبري جـ ٨ ص ٢٠٥ رواية محمد بن عمر •

(١٢٤) متز : الحضارة الاسلامية • ترجمة دكتور أبي ريدة جـ ١ ص ١٠٠ : ٢ •

(١٢٥) أبو يوسف : الخراج ص ١٨٥ — ٦ •

الى ديوان البريد في العاصمة أو الخليفة مباشرة بأخبار موظفي الولاية بما فيهم واليها • واستخدم المنصور وخلفاؤه في نظام المراقبة التجار والباعة المتجولين والمسافرين وقيل ان المأمون استخدم النساء العجائز • **ومن أهم الطرق الرئيسية للبريد الطريق الذي يربط بغداد بالموصل ويمر بآمد (ديار بكر) وغيرها من حصون الثغور ، وفي الناحية الشمالية الغربية كانت تتصل بغداد بدمشق وغيرها من بلاد الشام عن طريق الانبار والرقة** • وفي اتجاه الشرق كان طريق خراسان الكبير يصل بغداد بمدن الحدود على نهر سيحون وحدود الصين ، وتتفرع عند المدن الهامة فروع الى الشمال والجنوب ومع نهر دجلة يسير طريق من بغداد الى واسط والبصرة ثم يتجه الى الاهواز في خوزستان ومنها الى شيراز بفارس وتتفرع منه فروع شرقا وغربا تنتهي بطريق خراسان الكبير • وكان ابن خرداذبة صاحب البريد في ولاية الجبال أيام المعتمد • وقد كان البريد ينقل رسائل الدولة والأفراد على السواء (١٢٦) •

وقد كان لمصر منذ أوائل العصر الاسلامي نظام دقيق لجوازات المرور للانتقال الداخلي ، ولم يكن يجوز للرجل أن يخرج من مصر على عهد الطولونيين الا بجواز ، الا أنه لم يكن بالمشرق عموما في القرن الثاني الهجري نظام لضبط أسماء الاغراب قبل دخولهم أبواب المدن • اذ تكلم أحد الرحالة المسلمين في القرن الثالث الهجري عن جوازات المرور بالصين كلام من يعتبرها شيئا جديدا ، وأحدث عضد الدولة في القرن الرابع الهجري مراقبة الأبواب في عاصمته شيراز ، فقال المقدسي : « ومنع الخارج منها الا بجواز ، وحبس الداخل والمجتاز » (١٢٧) •

وكانت الدولة الاسلامية ترعى **النواحي العمرانية والخدمات العامة** في مختلف الولايات • ففي عهد الوليد عبدت الطرق وأقيمت على جوانبها الشواهد الحجرية وبنيت الاستراحات واستنبطت الابار • كما اهتم الوليد بعلاج المرضى في دور للعلاج وأمر بعزل المصابين بأمراض معدية خاصة المجذومين ، وأعد ترتيبات لاعانة الزمنى والمشوهين والعمى ، واعتنى باليتامى وتعليمهم • ومضى عمر بن عبد العزيز قدما في هذا السبيل • وبنى هشام أحواضا وخزانات على الطريق الى مكة ، وشيد واليه على الموصل دارا للعلم ومناخا للقوافل ، وأمر هشام بحفر قناة لتزويد

(١٢٦) حتى : تاريخ العرب • ترجمة نافع جـ ٢ ص ٤٠٣ : ٥ •

(١٢٧) متز : الحضارة الاسلامية ترجمة دكتور أبى ريدة جـ ١ ص ٢٠٥ ، المقدسى : أحسن التقاسيم ص ٤٢٩ •

الموصل بالمياه العذبة بلغت تكاليفها ٨ مليون درهم • وأما الوليد بن يزيد ابن عبد الملك فقد « أجرى على زمنى أهل الشام وعميانهم وكساهم ، وأمر لكل انسان منهم بخادم ، وأخرج لعيالات الناس الطيب والكسوة وزادهم على ما كان يخرج لهم هشام ، وزاد الناس جميعا فى العطاء عشرة عشرة ، ثم زاد أهل الشام بعد زيادة العشرات عشرة عشرة لأهل الشام خاصة •• وكان هو ولى عهد **يطعم من وفد اليه من أهل الصائفة قافلا** ، ويطعم من صدر عن الحج بمنزل يقال له زيزاء ثلاثة أيام ويعلف دوابهم •• » (١٢٨) •

وفى عهد العباسيين كان المهدى يشبه الوليد فى العناية بالمرضى والفقراء وقد منح المجذومين معاشات ومنعهم الاستجداء وتأسست دور العلاج والدواء فى سائر أنحاء الدولة ، ونال الفقير والعاجز والمريض العناية التامة • وروى عن عهد الواثق أنه لم يوجد متسول فى أنحاء الامبراطورية (١٢٩) • ومن الأعمال العمرانية الكبيرة فى الدولة الاسلامية **قنطرة عجيبة على نهر سنجة بين حصن منصور وكيسوم من ديار مضر** كانت « من احدى عجائب الدنيا من الشط الى الشط ، والطاق يشتمل على مائتى خطوة من حجر مهندم ، وطول الحجر منه عشرة أذرع فى ارتفاع خمسة أذرع » (١٣٠) •

عرض لولاة قنسرين والعواصم فى اجمال :

عهد الخلفاء الراشدين :

١ ـ أبو بكر : توفى أبو بكر سنة ١٣ هـ وكان بالشام أبو عبيدة وشرحبيل بن حسنة ويزيد بن أبى سفيان وعمرو بن العاص ـ **كل رجل منهم على جند** ، وعليهم خالد بن الوليد (١٣١) •

٢ ـ عمر : لما استخلف عمر كان أول ما تكلم به عزل خالد « ولم يزل عمر عليه ساخطا ، ولأمره كارها فى زمان أبى بكر كله لوقعته بابن نويرة وما كان يعمل به فى حربه ••• فقام بلال مولى أبى بكر فقاسمه ماله حتى بقيت نعلاه فأخذ نعلا وأعطاه نعلا ••• ولم يكن لخالد مال

---

(١٢٨) حسينى : الادارة العربية • ترجمة دكتور العدوى ص ٢٣٩ : ٤١ ، ٢٤٦ ، دكتور حسن ابراهيم : تاريخ الاسلام جـ ١ ص ٤٧٨ ، الطبرى جـ ٨ ص ٢٩٣ •

(١٢٩) حسينى : الادارة العربية • ترجمة دكتور العدوى ص ٣٨٥ ـ ٦ •

(١٣٠) عبد المؤمن : مراصد الاطلاع ـ طبعة البجاوى جـ ٢ ص ٧٤٥ •

(١٣١) الطبرى جـ ٤ ص ٥١ •

الا عدة ورقيق فحسب ذلك فبلغت قيمته ثمانين ألف درهم فناصفه عمر ذلك فاعطاه أربعين ألف درهم وأخذ المال (١٣٢) • وكان أول كتاب كتبه عمر الى أبى عبيدة « أوصيك بتقوى الله ••• وقد استعملتك على جند خالد بن الوليد فقم بأمرهم الذى يحق عليك ، لا تقدم المسلمين الى هلكة رجاء غنيمة ولا تنزلهم منزلا قبل أن تستريده لهم وتعلم كيف مأتاه ولا تبعث سرية الا فى كثف من الناس ، واياك والقاء المسلمين فى الهلكة• وقد أبلاك الله بى وأبلانى بك فغض بصرك عن الدنيا ••• » • وقدم بوفاة أبى بكر الى الشام شداد بن أوس بن ثابت الانصارى ومحمية بن جزاوير فكتموا الخبر عن الناس حتى ظفر المسلمون ــ وكانوا بالياقوصة وقيل باليرموك يقاتلون عدوهم من الروم ــ وذلك فى رجب ، فأخبروا أبا عبيدة بوفاة أبى بكر وولايته حرب الشام وضم عمر اليه الأمراء وعزل خالد ، فاستحيى أبو عبيدة أن يقرىء خالدا الكتاب حتى فتحت دمشق وجرى الصلح على يد خالد وكتب الكتاب باسمه (١٣٣) • واشترك خالد بعد ذلك فى فتح حمص وقنسرين » ولما بلغ عمر ذلك قال : أمر خالد نفسه ، يرحم الله أبا بكر هو كان أعلم بالرجال منى ــ وقد كان عزله والمثنى مع قيامه ، وقال انى لم أعزلهما عن ريبة ولكن الناس عظموهما فخشيت أن يوكلوا اليهما • فلما كان من أمره وأمر قنسرين ما كان ، رجع عن رأيه ••• فادرب خالد وعياض بن غنم مما يلى الشام وأدرب عمر بن مالك وعبد الله بن المعتم مما يلى الجزيرة ــ ولم يكونوا ادربوا قبله ، ثم رجعوا ــ فهى أول مدربة كانت فى الاسلام سنة ستة عشر فرجع خالد الى قنسرين فنزلها ، وأتته امرأته ، فلما عزله قال : ان عمرو لانى الشام حتى اذا صارت بثنية وعسلا عزلنى » (١٣٤) •

ولما نزل عمر الجابية وصد المسلمون هجوم الروم على حمص سنة ١٧هـ واشترك فى ذلك خالد « أمد عياض بن غنم ــ الذى برز فى فتح الجزيرة ــ بحبيب بن مسلمة••وكتب أبو عبيدة الى عمر بعد انصرافه من الجابية يسأله أن يضم اليه عياض بن غنم اذ ضم خالدن بن الوليد الى المدينة، فصرفه اليه ••• واستعمل حبيب بن مسلمة على عجم الجزيرة وحربها والوليد بن عقبة على عرب الجزيرة (١٣٥) ••• » • وروى أن أبا عبيدة

(١٣٢) الطبرى جـ ٤ ص ٥٦ رواية ابن اسحق •
(١٣٣) الطبرى حـ ٤ ص ٥٤ ــ ٥ رواية ابن اسحق وغيره •
(١٣٤) الطبرى جـ ٤ ص ١٥٥ رواية أبى عثمان وجارية •
(١٣٥) الطبرى جـ ٤ ص ١٩٨ رواية السرى عن شعيب عن سيف •

استعمل حبيب بن مسلمة على قنسرين (١٣٦) وزار عمر الشام سنة ١٧ هـ « فرجع الى المدينة وعلى حمص أبو عبيدة وخالد تحت يديه على قنسرين ، وعلى دمشق يزيد بن أبى سفيان وعلى الأردن معاوية ، وعلى فلسطين علقمة بن مجزز ، وعلى الاهراء عمرو بن عبسة ، وعلى السواحل عبد الله بن قيس ، وعلى كل عمل عامل • فقامت مسالح الشام ومصر والعراق على ذلك الى اليوم ، لم تجز أمة الى أخرى عملها بعد الا أن يقتحموا عليهم بعد كفر منهم ، فيقدموا مسالحهم بعد ذلك ـ فاعتدل ذلك سنة ١٧ » (١٣٧) وفى سنة ٢٣ هـ وهى السنة التى كان فيها مقتل عمر كان على حمص عمير بن سعد وعلى دمشق معاوية وقد ورد كتاب عمر بتولية عمير خمص وقنسرين والجزيرة سنة ١٨ هـ (١٣٨) • وذلك أن عياض ابن غنم ولى الجزيرة ثم عمل مع أبى عبيدة حتى استخلفه على عمله عند وفاته ، ومات عياض بعد أبى عبيدة فأمر عمر على عمله سعيد بن حذيم الجمحى ، ومات سعيد فأمر عمر مكانه عمير بن سعد الانصارى • ومات يزيد بن أبى سفيان فجعل عمر مكانه معاوية ـ فاجتمعت لمعاوية الاردن ودمشق « ومات عمر ومعاوية على دمشق والاردن ، وعمير بن سعد على حمص وقنسرين ، وعلقمة بن مجزز على فلسطين » (١٣٩) •

٣ ـ **عثمان** : أقر عثمان عمال عمر على الشام ، فلما مات عبد الرحمن بن علقمة الكنانى ـ وكان على فلسطين ـ ضم عمله الى معاوية، ومرض عمير بن سعد مرضا طال به فاستعفاه واستأذنه فأذن له وضم عمله الى معاويةوفاجتمع الشام على معاوية لسنتين من امارة عثمان(١٤٠)• وولى معاوية حبيب بن مالك بن مسلمة الفهرى على قنسرين وكان يسمى حبيب الروم لكثرة غزوه لهم • ومات عثمان مقتولا آخر سنة ٣٥ والشام مع معاوية وحبيب على قنسرين من تحت يده (١٤١) •

ويمتاز ولاة الشام فى عهد الخلفاء الراشـدين بوجه عام بالتقوى والورع ، وقد روى أن عمر أرسـل الى سعيد بن عامل بن حذيم الجمحى

---

(١٣٦) ابن العديم : زبدة الحلب جـ ١ ص ٣٥ •

(١٣٧) الطبرى جـ ٤ ص ٢٠٥ رواية السرى عن شعيب عن سيف •

(١٣٨) الطبرى جـ ٥ ص ٤٢ ، البلاذرى : فتوح البلدان ص ١٨٠ •

(١٣٩) الطبرى جـ ٥ ص ٦٩ : رواية السرى عن شعيب عن سيف ، ابن العديم : زبدة الحلب جـ ١ ص ٣٦ ـ ٧ •

(١٤٠) الطبرى جـ ٥ ص ٦٩ : رواية السرى عن شعيب عن سيف ، ابن العديم : زبدة الحلب جـ ١ ص ٣٧ •

(١٤١) ابن العديم : زبدة الحلب جـ ١ ص ٣٧ •

« انى مستعملك على هؤلاء تسير بهم الى أرض العدو فتجاهد بهم » فقال : يا عمر ، لا تفتنى • قال : والله لا أدعكم جعلتموها فى عنقى ثم تخليتم عنى ! انما أبعثك على قوم لست بأفضلهم » • وقد توفى فى حدود سنة ٢٠ هـ • أما عمير بن سعد الاوسى الانصارى الذى اعقبه فقد استدعاه عمر مرة ليستطلع أحوال امارته وطلب منه أن يحضر فىء المسلمين معه « فاقبل عمر ماشيا من حمص بيده عكازه واداوة وقصعة وجراب كثير الشعر ، فلما قدم على عمر قال له : يا عمير ، ما هذا الذى أرى من سوء حالك ـ أكانت البلاد بلاد سوء أم هذه خديعة منك ؟؟ قال عمير : يا عمر ••• الست ترانى طاهر الدم صحيح البدن ومعى الدنيا بقرابها ؟؟•• قال : فاخبرنى ما حال ما خلفت من المسلمين ؟ قال : يصلون ويوحدون ••• قال : ما صنع أهل العهد ؟؟ قال عمير : أخذنا منهم الجزية •• فأخذناه منهم ثم رددناه على فقرائهم ومجهوديهم •• » وروى الواقدى أن عمر كان يقول « وددت أن لى رجالا مثل عمير بن سعد أستعين بهم على اعمال المسلمين » • أما حبيب بن مسلمة بن مالك غازى الروم وفاتح أرمينية فقد قال عنه الذهبى « كان من خواص معاوية وله معه آثار محمودة شكرها له معاوية » • وفى الاصابة « ولم يزل مع معاوية فى حروبه ووجهه الى أرمينية واليا » • وقد توفى فى حدود سنة ٤٢ هـ أو بعدها بقليل (١٤٢)•

٤ ـ **علي :** فشلت محاولة على فى ارسال وال الى الشام سنة ٣٦ هـ عندما فرق عماله فى الامصار ، فقد ردت الخيل **سهل بن حنيف** والى على الشام عند تبوك (١٤٣) •

عهد بنى أمية :

١ ـ **معاوية :** قتل على سنة ٤٠ هـ ومعاوية متغلب على الشام جميعه وصالحه الحسن بن على وتمت خلافة معاوية فى ربيع الأول سنة ٤١هـ ، وكان معاوية يدعى بالشام الأمير ، فلما قتل على دعى معاوية أمير المؤمنين (١٤٤) • **فمصر معاوية قنسرين وافردها عن حمص ، وقيل انما فعل ذلك ابنه يزيد ، وصار الذكر فى ولاية قنسرين • ووظف معاوية الخراج على قنسرين اربعمائة الف وخمسين الف دينار ، وكانت حلب تحت الحكم المباشر للخلفاء من بنى أمية لمقامهم بالشام وكون الولاة فى أيامهم**

(١٤٢) الطباخ : اعلام النبلاء • جـ ١ ص ١٠٣ : ٦ •

(١٤٣) الطبرى : جـ ٥ ص ١٦١ رواية السرى عن شعيب عن سيف •

(١٤٤) الطبرى جـ ٦ ص ٩٣ ـ ٤ رواية عبدالله بن أحمد المروذى ، ابن العديم : زبدة الحلب جـ ١ ص ٤١ •

بمنزلة الشرط لايستقلون بالامور والحروب ، وولاة الصوائف ترد كل عام مع الجيوش الاسلامية الى دابق . واقام جماعة منهم بنواحي حلب : فان سليمان بن عبد الملك رابط بدابق الى أن مات ، واقام عمر بن عبد العزيز بخناصرة الى ان مات .. ولم يزل حبيب بن مسلمة مع معاوية فى حروبه .. واستعمل معاوية عبد الرحمن بن خالد بن الوليد على غزو الروم (١٤٥) .

وقد ذكر « أن **عبد الرحمن بن خالد بن الوليد** كان قد عظم شأنه بالشام ومال اليه أهلها لما كان عندهم من آثار أبيه خالد ولغنائه عن المسلمين فى أرض الروم وبأسه ، حتى خافه معاوية وخشى على نفسه منه لميل الناس اليه فامر ابن أثال أن يحتال فى قتله ، وضمن له ان هو فعل ذلك أن يضع عنه خراجه ما عاش وأن يوليه جباية خراج حمص فلما قدم عبد الرحمن حمص منصرفا من بلاد الروم ــ سنة ٤٦هـ ــ دس اليه ابن أثال شربة مسمومة مع بعض مماليكه فشربها فمات بحمص ، فوفى له معاوية بما ضمن له .. فاعترض له خالد بن عبد الرحمن ــ وهو راكب يوما ــ فضربه بالسيف فقتله فرفع الى معاوية فحبسه أياما ولم يقده منه (١٤٦) .» ويعلق فلهوزن على هذا الحادث بقوله « ويستطيع الانسان أن يتصور مبلغ تأثير ذلك فى نفوس بنى مخزوم ــ وكانوا منذ زمان طويل يحقدون على بنى أمية » . ولكن الدكتور أبو ريدة يقول ان هذه الحكاية لا تسلم من النقد (١٤٧) .

وقاد **مالك بن عبد الله الخثعمى** من أهل فلسطين الصوائف أربعين سنة ويقال له مالك الصوائف أو السرايا « قدم على معاوية برسالة عثمان .. وكسر فيما قيل على قيده أربعون لواء وكان صواما قواما (١٤٨) » .

ويذكر الغزى **أنه من سنة ٤٥ هو الى حدود سنة ٨٦هـ « لم أطلع على اسماء عمال الخلفاء على قنسرين وحمص ، ولعل العمال عليهما فى هذه المدة هم أمراء الصوائف والمشاتى (١٤٩) »** .

---

(١٤٥) ابن العديم : زبدة الحلب جـ ١ ص ٤١ ــ ٢ .

(١٤٦) الطبرى جـ ٦ ص ١٢٨ ــ ٩ رواية عمر عن على عن مسلمة بن محارب ، ابن العديم : زبدة الحلب جـ ١ ص ٤٢ ــ ٣ .

(١٤٧) فلهوزن : تاريخ الدولة العربية . ترجمة الدكتور ابى ريدة ص ١٣٠ ــ ١ والهامش

(١٤٨) البلاذرى : فتوح البلدان ص ١٩٩ ، ابن العديم : زبدة الحلب جـ ١ ص ٤٣ ، الطباخ اعلام النبلاء ص ١٠٨ .

(١٤٩) الغزى : نهر الذهب جـ ٢ ص ٢٢ .

وقد ظهر فى هذه الغزوات مالك بن عبد الله الخثعمى سنة ٤٦ هـ، ٥٥ ، ٥٨ ، ٦٠ هـ ، ومالك بن هبيرة السكونى سنة ٤٦ : سنة ٤٩هـ وبسر ابن أبى ارطاة سنة ٤٣ ، سنة ٤٤ ، سنة ٥٠ ، سنة ٥١ ، سنة ٥٢هـ ، وعبد الرحمن القينى سنة ٤٧ ، سنة ٤٨ هـ ، وفضالة بن عبيد سنة ٤٩، سنة ٥٠ ، سنة ٥١ هـ ، ويزيد بن شجرة الرهاوى سنة ٤٩ هـ و سنة ٥٦ ومحمد بن عبد الله الثقفى سنة ٥٢ هـ ، وسـفيان بن عوف الازرى سنة ٥٠ ، ٥٢ هـ ، سنة ٥٥ وعبد الرحمن بن أم الحكم سنة ٥٣ هـ ، ومحمد بن مالك سنة ٥٤ هـ ، ومعن بن يزيد سنة ٥٤ هـ ، وجنادة بن أبى أمية سنة ٥٣ ، سنة ٥٤ ، سنة ٥٦ ، سنة ٥٨ ، سنة ٥٩ ، سـنة ٦٠ هـ وعمرو بن مرة الجهنى سنة ٥٨ وسنة ٥٩ هـ ، عمرو بن محرز سنة ٥٥ هـ ، وعياض بن الحارث سنة ٥٦ ، وعبد الله بن قيس الفزارى سنة ٥٥ ، سنة ٥٧ هـ ـ وفقا للروايات المختلفة ٠ وقد ذكر عن **عبد الله ابن قيس الحارثى** حليف بنى فزارة أنه « غزا خمسين غزاة من بين شاتية وصائفة فى البحر ولم يغرق فيه أحد ولم ينكب » ٠ (١٥٠)

٢ ـ **عبد الملك بن مروان** : واجهت الدولة الاموية الفتن الداخلية بعد عهد معاوية ، ويذكر أن الحسين بن على خاطب عمر بن سعد بن أبى وقاص الذى ولاه عبيد الله بن زياد الرى وولاه حرب الحسين « فلما أتاه قال له الحسين : اختر واحدة من ثلاث : اما أن تدعونى فأنصرف من حيث جئت ، واما أن تدعونى فأذهب الى يزيد **واما أن تدعونى فالحق بالثغور** » فقبل عمر ولكن رفض عبيد الله (١٥١) ٠ وفى أثنـاء ثورة العراق على الآمويين صور بعض الثائرين مدى طاعة أهل الشام لخليفتهم حتى ينفر أهل العراق من الجنوح للأمويين والغدر بمصعب بن الزبير « فقال قيس بن الهيثم : ويحكم ، لا تدخلوا أهل الشام عليكم ، فو الله لئن تطعموا بعيشكم ليصفين عليكم منازلكم !! والله لقد رأيت سيد أهل الشام على باب الخليفة يفرح ان أرسله فى حاجة !! **ولقد رأيتنا فى الصوائف وأحدنا على** الف بعير وان الرجل من وجوههم ليغزو على فرسه وزاده خلفه (١٥٢) ٠

وقد استعمل عبد الملك أخاه **محمدا على الجزيرة وارمينية** فغزا منها

---

(١٥٠) الطبرى جـ ٦ ص ١٠٣ ، ١٢١ ، ١٢٨ ١٢٩ ، ١٣٠ ، ١٣١ ، ١٤١ ، ١٦١ ، ١٦٤ ، ١٦٧ ، ١٦٨ ، ١٧٢ ، ١٧٥ ، ١٧٩ ٠

(١٥١) الطبرى جـ ٦ ص ٢٢٠ رواية زكريا يحيى الضرير عن أحمد بن جناب المصيصى

(١٥٢) الطبرى جـ ٧ ص ١٨٥ رواية عمر عن محمد بن سلام ٠

(١٥٣) ، وقال البلاذرى أن محمد بن مروان لما ولى الجزيرة وأرمينية حوى صيد بحيرة الطريخ وباعه بعد أن كانت مباحة (١٥٤) • وقد أورد الطبرى غزوته الصائفة سنة ٧٣ ، سنة ٧٥ هـ (١٥٥) وغزا **الوليد بن عبد الملك** الصائفة سنة ٧٧ هـ ويقول ابن العديم « وظل على الولاية الى أن مات عبد الملك فى شوال سنة ٨٦هـ » (١٥٦) • وتتابع الامراء الأمويون على جهاد الروم ، وكان **لعبد الله بن عبد الملك** بلاء مذكور فى غزو المصيصة من الثغور الشامية « وكانت الطوالع من أنطاكية تطلع عليها فى كل عام فتشتو بها وتنصرف وعدة من كان يطلع اليها الف وخمسمائة الى الألفين» وطرنده من الثغور الجزرية « فكانت تأتيهم طالعـــة من جند الجزيرة فى الصيف فيقيمون بها الى أن ينزل الشتاء وتسقط الثلوج فاذا كان ذلك قفلوا » (١٥٧) •

٣ ـ **الوليد بن عبد الملك** : غزا مســـلمة بن عبد الملك أرض الروم سنوات ٨٦ و ٨٧ ، ٨٨ ، ٨٩ ، ٩٠ ، ٩١ ، ٩٢ ، ٩٣ هـ • ويذكر ابن العديم أن **الوليد تولى الخلافة** و « **محمد بن مروان على ولايته ، فما زال كذلك الى أن عزله الوليـد فى ســـنة ٩٠ وولى مكانه أخاه مســـلمة** • فدخل مسلمة حران وكان محمد بن مروان يتعمم للخطبة ، فأتاه آت فقال: هذا مسلمة على المنبر يخطب • فقال محمد : هكذا تكون الساعة بغتة وارتعدت يده فسقطت المرآة من يده ، فقام ابنه الى السيف فقال : يا بنى ولانى أخى وولاه أخوه • وكان أكثر مقام مسلمة بالناعورة وبنى فيها قصرا بالحجر الاسود الصلد وحصنا بقى منه برج الى زماننا هذا • وكان عبد الملك يقول للوليد : كأننى لو قدمت بك قد عزلت أخى ووليت اخاك» (١٥٨) • وظهرت فى الغزوات الموجهة لحرب الروم أســـماء العبـــاس ابن الوليد ســـنوات ٨٨ ، ٨٩ ، ٩٠ ، ٩٣ ، ٩٤ ، ٩٥ هـ وقد عمر مرعش وحصنها وكان يقطع بعثا من أهل قنسرين اليها سنويا (١٥٩)، وعبد العزيز

---

(١٥٣) ابن العديم : زبدة الحلب جـ ١ ص ٤٤ •

(١٥٤) البلاذرى فتوح البلدان ص ٢٠٨ •

(١٥٥) الطبرى جـ ٧ ص ٢٠٦ ، ٢١٠ ، ابن العديم : زبدة الحلب جـ ١ ص ٤٤ ـ ٥ •

(١٥٦) الطبرى جـ ٧ ص ٢٨٠ ، ابن العديم : زبدة الحلب جـ ١ ص ٤٥ •

(١٥٧) الطبرى جـ ٨ ص ٣٧ رواية الواقدى ، البلاذرى : فتوح البلدان ص ١٧٢ ، ١٩٤ •

(١٥٨) الطبرى جـ ٨ ص ٦٠ ، ٦٢ ، ٦٤ ـ ٥ ، ٦٧ ، ٦٨ ، ٧٤ ، ٨٢ ، ٨٣ ، ابن العديم : زبدة الحلب جـ ١ ص ٤٤ ـ ٥ •

(١٥٩) الطبرى جـ ٨ ص ٦٤ ـ ٥ ، ٦٧ ، ٦٨ ، ٨٣ ، ٩١ ، ٩٦ ، البـلاذرى : فتـوح البلدان ص ١٩٧ •

ابن الوليد سنتى ٩١ ، ٩٤ هـ (١٦٠) ، وعمر بن الوليد سنة ٩٢ هـ (١٦١) ، ومروان بن الوليد سنة ٩٣ هـ (١٦٢) .

٤ ـ **سليمان** : جهز سليمان الجيوش الى القسطنطينية سنة ٩٧ هـ واستعمل ابنه داود على الصائفة وواصل مسلمة غزواته سنتى ٩٦ ، ٩٧هـ حتىوجهه سليمانالى القسطنطينية سنة ٩٨هـ(١٦٣)«وأمره أن يقيم عليها حتى يفتحها أو يأتيه أمره ، فشتى بها وصاف » ويقول ابن العديم أن مسلمة لما خرج للغزو « استخلف على عمله خليفة » وتوفى سليمان سنة ٩٩ هـ وهو مرابط بدابق من أرض قنسرين ٠ وقد ذكر أن الفقيه عدى ابن عدى بن عفير بن زرارة بن الارقم ولى الجزيرة وارمينية وأذربيجان لسليمان بن عبد الملك (١٦٤) ٠

٥ ـ **عمر بن عبد العزيز** : كان أكثر مقامه بخناصرة الاحص ، وقد أمر مسلمة بالقفول من أرض الروم ، على أنه أغزى سنة ١٠٠ هـ الوليد ابن هشام المعيطى وعمرو بن القيسى الكندى من أهل حمص الصائفة ، وأشخص عمــر بن هبيرة الفزارى الى الجزيرة عاملا عليهـا فى العام نفسه (١٦٥) ٠ ويذكر ابن العديم أنه ولى من قبله على قنسرين هلال **ابن عبد الأعلى ثم ولى عليها الوليد بن هشام المعيطى على الجند والفرات ابن مسلم على خراجها وتوفى عمر بدير سمعان من أرض معرة النعمان** سنة ١٠١ هـ (١٦٦) ٠

٦ ـ **يزيد بن عبد الملك** : استعان يزيد سنة ١٠٢ هـ بمسلمة بن عبد الملك والعباس بن الوليد فى الجبهة الداخلية لحرب يزيد بن المهلب ، فلما فرغ مسلمة من حربه جمع له يزيد ولاية الكوفة والبصرة وخراسان، ثم ما لبث أن عزله فى نفس العام لانه « لم يرفع من الخراج شيئا » (١٦٧) وذكر ابن العديم أن يزيد ولى الخلافة والوليد بن هشام المعيطى على جند

---

(١٦٠) الطبرى جـ ٨ ص ٧٤ ، ٩١ ٠
(١٦١) الطبرى جـ ٨ ص ٨٢ ٠
(١٦٢) الطبرى جـ ٨ ص ٨٣ ٠
(١٦٣) الطبرى جـ ٨ ص ١١٣ ٠
(١٦٤) الطبرى جـ ٨ ص ١١٢ ، ١١٣ ١١٧ ، ١٢٦ ، ابن العديم : زبدة الحلب جـ ١ ص ٤٦ ، ابن حزم : جمهرة انساب العرب ص ٤٠٠ ٠
(١٦٥) الطبرى جـ ٨ ص ١٣٠ ، ١٣٢ ٠
(١٦٦) ابن العديم : زبدة الحلب جـ ١ ص ٤٦ ٠
(١٦٧) الطبرى جـ ٨ ص ١٥١ وما بعدها رواية هشام عن أبى مخنف ، ١٦٠ ، ١٦٦ روايه على بن محمد ٠

قنسرين وكان عمر بن عبد العزيز قد كتب الى يزيد وهو ولى عهده « أن الوليد بن هشام كتب الى كتابا أكثر ظنى أنه تزين بما ليس هو عليه ـ اذ طلب أن ينقص رزقه ففعل عمر ـ فأنا اقسم اليك أن حدث وأفضى هذا الأمر اليك فسالك أن ترد رزقه ، وذكر أنى نقصته ـ فلا يظفر منك بهذا » ٠ فلما طالب الوليد يزيد برد رزقه مدعيا أن عمر نقصه وظلمه غضب يزيد وعزله وأغرمه كل رزق جرى عليه فى ولاية عمر ويزيد كلهـا فلم يل له عمـلا حتى هـلك ٠ وتوفى يزيد بالبلقـاء سنة ١٠٥ هـ (١٦٨) ٠

٧ ـ **هشـام** : تتابع الأمراء الأمويون على جهاد الروم فغزا سعيد بن عبد الملك الصائفة سنة ١٠٦ هـ وغزا معاوية بن هشام سنوات ١٠٧ ، ١٠٩ ، ١١١ ، ١١٢ ، ١١٣ ، ١١٤ ، ١١٥ ، ١١٦ ، ١١٧ ، ١١٨ هـ وغزا مسلمة بن عبد الملك سنوات ١٠٧ ، ١٠٨ ، ١١٠ ، ١١٢ ، ١١٣ هـ وغزا ابراهيم بن هشام سنة ١٠٨ هـكما غزا عبد الله بن عتبة الفهرى وعبد الرحمن بن معاوية بن حديج سنة ١١٠ هـ وغزا سعيد بن هشام سنة ١١١ هـ ،وسليمان بن هشام سنوات ١١٤ ، ١١٧ ، ١١٨ ، ١٢٠ ، ١٢١ ، ١٢٤ هـ كما غزا النعمان بن يزيد بن عبد الملك سنة ١٢٥ هـ وكانت توجه أحيانا حملات بقيادة قواد آخرين فقد غزا الوليد بن القعقاع العبسى سنة ١١٩ هـ ٠ وفى سنة ١١١ هـ ولى الجراح بن عبد الله الحكمى ارمينية واستشهد سنة ١١٢ فوجه للقتال سعيد بن عمرو الحرشى كما ذكر ان معلن بن صفار ولى أرمينية وأذربيجان لهشام **وولى مروان بن محمد ارمينية** فظهر اسمه فى الغزو سنوات١١٧ ، ١٢٠ ، ١٢١هـ (١٦٩)، فافتتح حصونا ثلاثة من اللان ٠

وكان هشام ينزل الرصافة من أرض قنسرين ونقل الطبرى أنها « برية ابتنى بها قصرين ، والرصافة مدينة رومية بنتها الروم » وقد كان الخلفاء وأبناء الخلفاء يتبذون ويهربون من الطاعون فينزلون البرية خارجا عن الناس » فلما أراد هشام أن ينزل الرصافة قيل له : لا تخرج فان الخلفاء لا يطعنون لم ير خليفة طعن ، قال : أتريدون أن تجربوا بى » (١٧٠) ٠ وذكر أن **هشام ولى على قنسرين وعملها خال اخيه سليمان وهو الوليد**

(١٦٨) ابن العديم : زبدة الحلب جـ ١ ص ٤٧ ٠

(١٦٩) الطبرى جـ ٨ ص ١٨٢ ، ١٨٨ ، ١٩١ ، ١٩٦ ، ٢٠٤ ، ٢٠٥ ، ٢١٧ ، ٢١٨ ، ٢٢٢ ، ٢٢٨ ، ٢٣٠ ، ٢٤٧ ، ٢٦٠ ، ٢٨٣ ؛ ابن حزم : جمهرة انساب العرب ص ٤١٣ ٠

(١٧٠) الطبرى جـ ٨ ص ٢٨٧ رواية أحمد بن زهير عن على بن محمد ٠

ابن القعقاع بن خليد العبسي ، وقيل انه ولى عبد الملك بن القعقاع على قنسرين – وقيل حمص واليهم ينسب حيار بنى عبس والى أبيهم ينسب القعقاعية قرية من بلد فايا . وتوفى هشام سنة ١٢٥ هـ (١٧١) .

٨ – **الوليد بن يزيد** : استعمل الوليد العمال وكتب اليه مروان بن محمد يهنئه ، وقد أجرى على زمنى أهل الشام وعميانهم ومحتاجيهم وكساهم « وزادهم على ماكان يخرج لهم هشام ، وزاد الناس جميعا فى العطاء عشرة عشرة ، ثم زاد أهل الشام بعد زيادة العشرات عشرة عشرة لأهل الشام خاصة ... وكان وهو ولى عهد يطعم من وفد اليه من أرض **الصائفة قافلا** » وقد أغزى أخاه الغمربن يزيد بن عبد الملك ، كما أمر على جيش البحر الى قبرص الاسود بن عبد الله المحاربى ليخير اهلها « بين المسير الى الشام ان شاؤا ، وان شاؤا الى الروم . فاختارت طائفة جوار المسلمين – فنقلهم الاسود الى الشام ، واختار آخرون أرض الروم – فانتقلوا اليها » (١٧٢) .

وكانت بين الوليد وبين القعقاع وحشة ، فهرب الوليد بن القعقاع وغيره من بنى أبيه من الوليد فعاذوا بقبر يزيد بن عبد الملك ، فولى الوليد **على قنسرين يزيد بن عمر بن هبيرة** ، وبعث الى الوليد بن القعقاع فأخذه من جوار قبر أبيه ، ودفع بنى القعقاع الى يزيد بن عمر بن هبيرة فمات فى العذاب الوليد وعبد الملك ابنى القعقاع وغيرهما « واضطغن على الوليد آل الوليد ، وآل هشام – فقد اشتد عليهم وضرب سليمان بن هشام وحلقه وغربه وحبسه – وآل القعقاع واليمانية كما صنع بخالد بن عبد الله » . وقد انتقض يزيد بن الوليد على الوليد بن يزيد فنصح البعض الوليد بأن يمضى «حتى ينزل حمص فانها حصينة، ويوجه الجنود الى يزيد فيقتل أو يأسر» فأبى أن يمضى الى حمص وتدمر ورضى أخيرا أن ينزل حصن البخراء « فانه حصين وهو من بناء العجم » ، وهناك لقى مصرعه على يد يزيد بن الوليد (١٧٣) .

٩ ، ١٠ – **يزيد وابراهيم ابنا الوليد**: بويع ليزيد بن الوليد سنة ١٢٦هـ وانما قيل يزيد الناقص لنقصه الناس الزيادة التى زادهموها الوليد بن يزيد فى اعطياتهم وذلك عشرة عشرة ... وقيل أول من سماه بهذا

(١٧١) الطبرى جـ ٩ ص ٦ رواية أحمد بن زهير عن على بن محمد ، ابن العديم زبدة الحلب جـ ١ ص ٤٨ .
(١٧٢) الطبرى جـ ٨ ص ٢٩٣ ، ٢٩٩ .
(١٧٣) الطبرى جـ ٩ ص ٣ ، ٦ ، ١١ وما بعدها .

الاسم مروان بن محمد » . واضطرب حبل بنى مروان وهاجت الفتنة ، كما ثار أهل فلسطين والاردن ، واستعمل ابراهيم على الاردن ضبعان بن روح على فلسطين **ومسرور بن الوليد على قنسرين ـ وقيل بشر بن الوليد** ـ وابن الحصين على حمص (١٧٤) . وفى سنة ١٢٦هـ كتب مروان بن محمد الى الغمر بن يزيد يطالبه بالاخذ بدم أخيه الوليد ، وكان ابنه عبد الملك بن مروان بن محمد قد وثب على عامل الوليد بالجزيرة اثر العلم بقتل الوليد ووضع الارصاد على الطريق . ثم أظهر الخلاف على يزيد وانصرف من ارمينية الى الجزيرة وكاد جنده ينتقض عليه فى الطريق ، « وكاتبه يزيد على أن يبايعه ويوليه ما كان عبد الملك بن مروان ولى اباه محمد بن مروان من الجزيرة وأمينية والموصل واذربيجان فبايع له مروان » . وتوفى يزيد بن الوليد آخر سنة ١٢٦(١٧٥) . وجاء ابراهيم بن الوليد « غير أنه لم يتم له أمر ... وكان يسلم عليه جمعة بالخلافة ، وجمعة بالامرة ، وجمعة لا يسلمون عليه لابالخلافة ولا بالأمرة ...حتى قدم مروان بن محمد فخلعه ... فى شهر ربيع الآخر سنة ١٢٦ هـ (١٧٦) » .

١١ ـ **مروان بن محمد** : لعب مروان وجند الجزيرة دورا كبيرا فى انهاء خلافة الوليد وابراهيم ابنى يزيد « فسار مروان فى جند الجزيرة وخلف ابنه عبد الملك فى أربعين ألف من الرابطة بالرقة ، فلما انتهى الى قنسرين وبها أخ ليزيد ابن الوليد يقال له بشر كان ولاه قنسرين ، فخرج اليه فصافه فنادى الناس ودعاهم مروان الى مبايعته ... واسلموا بشرا وأخا له يقال له مسرور ... فحبسهما وسار فيمن معه من أهل الجزيرة وأهل قنسرين متوجها الى حمص » . وبويع مروان من أهل الشام «**فأمرهم أن يختاروا للولاية أجنادهم** : فاختار أهل دمشق زامل بن عمرو الجبرانى وأهل حمص عبد الله بن شجرة الكندى ، وأهل الاردن الوليد بن معاوية بن مروان وأهل فلسطين ثابت بن نعيم الجذامى ـ الذى كان استخرجه من سجن هشام وغدر به بأرمينية . فأخذ عليهم العهود المؤكدة والايمان المغلظة على بيعته وانصرف الى منزله من حران » . واستوت لمروان الشام واستأمن منه ابراهيم بن الوليد وسليمان بن هشام الذى كان بتدمر مع عشيرته . ثم انتقض أهل حمص باغراء ثابت بن نعيم فسار اليهم مروان

(١٧٤) الطبرى جـ ٩ ص ٢٢ : ٦ ، ٤٧ رواية أحمد بن زهير عن على بن محمد ، ابن العديم : زبدة الحلب جـ ١ ص ٤٩ .

(١٧٥) الطبرى جـ ٩ ص ٣٤ : ٧ ، ٤٤ ـ ٥ .

(١٧٦) الطبرى جـ ٩ ص ٤٦ رواية أحمد بن زهير عن على بن محمد ، ابن العديم : زبدة الحلب جـ ١ ص ٤٩ .

فحاربهم **وولى مروان على حلب وقنسرين عبد الملك ابن الكوثر الغنوي** وقد عاد سليمان بن هشام الى الانتقاض فحاربه مروان حتى هزمه • وذكر البلاذري أن **عامل مروان على الجزيرة وجند قنسرين هو الكوثر بن زفر ابن الحارث الكلابي (١٧٧)** •

عهد بني العباس :

١ ــ **السفاح :** بويع السفاح في ربيع الآخر سنة ١٣٢ هـ بالكوفة فسير عبد الله بن علي بن عبد الله بن العبـــاس في جمع عظيم للقاء مروان فهزمه بالزاب وتعقبه في انسحابه حتى تم اندحاره • وقتل عبد الله بن علي كبار بني أمية بنهر أبي فطرس ــ ولما أصاب العباسيون ولد مسلمة بن عبد الملك ببالس والناعورة ثار أبو الورد مجزاة بن الكوثر ابن زفر بن الحارث بعد أن كان قد بايع بني العباس ، وانتقضت حمص ، كذلك خلع حبيب بن مرة المري بالبثنية وحوران ، كما بيض أهل الجزيرة وساروا الى حران ولكن فشلت هذه الثورات واستطاع العباسيون القضاء عليها • وذكر أن **عبد الله بن علي في تعقبه لمروان نزل منبج فولاها أبا حميد المروروذي وبعث اليه أهل قنسرين ببيعتهم ، وقدم عليه عبد الصمد بن علي أمده به أبو العباس في أربعة آلاف فقيل أنه قلده حلب وقنسرين** ، وقدم عليه صالح بن علي مددا بعد ذلك وعبد الله في طريقه الى دمشق « **فاستقام أهل الجزيرة وأهل الشـــام ، وولى أبو العباس أبا جعفر الجزيرة وارمينية واذربيجان ، فلم يزل على ذلك حتى استخلف** » (١٧٨) • • ووضع السفاح كبار العباسيين على ولايات الشام والجزيرة : فبجانب أبي جعفر عبد الله بن محمد على الجزيرة وأرمينية وأذربيجان كان عبد الله بن علي على الشام (قنسرين وحمص وكور دمشق والاردن) ، ويحيى بن محمد بن علي على الموصل، وذكر أن **عبيد الله بن العبـــاس بن يزيد بن الاسود ولي قنسرين للسفاح وارمينية للمنصور** • وفي سنة ١٣٣ هـ اقر السفاح عبد الله بن علي على الشام وولى على فلسطين صالح بن علي وعلى الموصل اسماعيل بن

(١٧٧) الطبري جـ ٩ ص ٤٧ ، ٥٤ : ٧ ، ٦٢٠ : ٤ ، رواية أحمد عن عبد الوهاب ابن ابراهيم عن مخلد بن محمد ، ابن العديم : زبدة الحلب جـ ١ ص ٥٠ ، البلاذري : فتوح البلدان ص ١٩٧ •

(١٧٨) الطبري جـ ٩ ص ١٣٠ : ١٤٠ رواية علي بن محمد ، احمد بن زهير عن عبدالوهاب ابن ابراهيم عن مخلد بن محمد ، ابن العديم : زبدة الحلب جـ ١ ص ٥٣ : ٦ •

على ، وهكذا غدت فلسطين ولاية مفردة عن باقي أجناد الشام وولى **صالح بن صبيح ارمينية وتلاه يزيد بن اسيد** • واستمر الحال كذلك حتى توفي السفاح سنة ١٣٦ هـ بعد أن عقد لعبد الله بن علي على الصائفة في أهل خراسان وأهل الشام والجزيرة والموصل (١٧٩) •

٢ ـ **المنصور** : وصـل رسول الخلافة ببيعـة السفاح لأخيـه أبى جعفر الى الشـــام قبـل وفاته وعبد الله بن علي بأفواه الدروب يريد الروم فوصله الخبر عند دلوك ، فرجع ودعا الى نفسه زاعما أن السفاح جعله ولى عهـده ، وغلب على حلب وقنسرين وديار ربيعـة ومضر وسائر الشام • **فوجه المنصور ابا مسلم لقتاله وولاه الشـام جميعه وحلب وقنسرين** • وقد انتصر أبو مسلم على عبد الله بن علي الذي هرب الى سليمان بن علي بالبصرة كما هرب عبد الصمد بن علي فاستأمن له عيسى ابن موسى ولكن انتصار أبى مسلم حمل معه نهايته فقد ساءت العلاقات بينه وبين المنصور (١٨٠) • **وقد أعقب عبدالله : صالح بن علي «وكانت في ولده ثروة ورياسة ••• وكان له عقب كثير وقد انتشرت ذريته بحلب ومنبج وسلمية واعمال حمص وقنسرين» (١٨١)** وذكر ابن العديم أنه « لما عاد أبو مسلم من الشام ولى المنصور حلب وقنسرين وحمص صالح بن علي سنة ١٣٧ هـ فنزل حلب وابتنى بها خارج المدينة قصرا بقرية يقال لها بطياس بالقرب من النيرب وآثاره باقية الى الآن ، ومعظم أولاده ولدوا ببطياس ـ وقد ذكرها البحتري وغيره في أشعارهم • وأغزى الصائفة مع ابنه الفضل سنة ١٣٩ بأهل الشام ، وهي أول صائفة غزيت في خلافة بني العباس ، وكانت انقطعت الصوائف في أيام بني أمية قبل ذلك بسنين ••• ودام صالح في ولاية حلب الى أن مات سنة ١٥٢ • ورأيت فلوسا عتيقـة فتتبعت ما عليها مكتوب فاذا أحد الجانبين مكتوب عليه (ضرب هذا الفلس بمدينة حلب سنة ست وأربعين ومائة) وعلى الجانب الآخر (مما أمر به الامير صالح بن علي أكرمه الله) • ولما مات صالح بن علي **تولى حلب وقنسرين بعده ولده الفضل بن صالح** واختار له العقبة بحلب فسكنها وأقام بحلب واليامدة • ثم ولى المنصور

(١٧٩) الطبري جـ ٩ ص ١٤٧ ، ١٤٨ ، ١٥١ ، ١٥٢ ، ١٥٥ ، ابن حزم : جمهرة أنساب العرب ص ٤٠١ •

(١٨٠) الطبري جـ ٩ ص ١٥٦ : ٩ ، ص ١٥٩ وما بعدها ، ابن العديم : زبدة الحلب جـ ١ ص ٥٧ : ٩ •

(١٨١) ابن حزم : جمهرة أنساب العرب ص ١٧ ـ ١٨ ، ٣٢ •

بعده **موسى بن سليمان الخراساني** ، ومات المنصور سنة ثمان وخمسين وموسى على قنسرين وحلب . ورأيت فلوسا عتيقة فقرأت عليها (ضرب هذا الفلس بقنسرين سنة سبع وخمسين ومائة) وعلى الجانب الآخر (مما أمر به الامير موسى مولى أمير المؤمنين) » (١٨٢) **وكان على الجزيرة حميد بن قحطبة** سنة ١٣٧ (١٨٣) . وظهرت أسماء بنى العباس فى الجهاد بارض الروم ، فغزا العباس بن محمد بن على وصالح بن على سنة ١٣٨ هـ وشرعا فى بناء ملطية وكان قد هدمها صاحب الروم فاستتماها سنة ١٣٩ هـ (١٨٤) . وقد رابط بها محمد بن ابراهيم الامام سنة ١٤١ هـ وابتنيت المصيصة على يد جبرائيل بن يحيى الخراساني (١٨٥) ويبدو أن المتمردين على بنى العباس كانوا يتجهون الى الشام فقد أنبأ الفضل بن صالح بن على الخليفة المنصور أن ابراهيم ابن عبد الله بن الحسن نزل بالحيار من أرض الشام على آل القعقاع بن خليد العبسى ، وأنه طلبه فوجده قد قصد البصرة (١٨٦) . وقد زار المنصور الشام بعد أن قضى حجة سنة ١٤٠ هـ وتوجه الى بيت المقدس « ثم سلك الشام منصرفا حتى انتهى الى الرقة ... ثم شخص منها فسلك الفرات حتى أتى هاشمية الكوفة » (١٨٧) . وروى الواقدى أن **أبا جعفر ولى أخاه العباس بن محمد الجزيرة الثغور** سنة ١٤٢ هـ وضم اليه عدة من القواد فلم يزل بها حينا ، وقد غزا العباس مع الحسن بن قحطبة الصائفة سنة ١٤٩ هـ ، وسار للغزو عبد الوهاب بن ابراهيم،سنة ١٥٢ هـ وقيل محمد ابن ابراهيم وغزا معيوف بن يحيى الحجورى سنتى ١٥٣ ، ١٥٨ هـ كما غزا زفر بن عاصم الهلالى سنة ١٥٤ ، سنة ١٥٦ هـ ، سنة ١٥٧هـ ، ويزيد بن أسيد السلمى سنة ١٥٧ هـ (١٨٨) . وفى سنة ١٥٥ هـ عزل المنصور أخاه العباس بن محمد عن الجزيرة وغرمه مالا وغضب عليه وحبسه وكان قد ولاه اياها بعد يزيد بن أسيد « فلم يزل ساخطا عليه حتى غضب على بعض عمومته من ولد على بن عبد الله بن عباس » ثم كلم فيه فرضى عنه ، **واستعمل على حرب الجزيرة وخراجها موسى** ابن كعب . وفى سنة ١٥٨ هـ ورد على المنصور خبر انتقاض الموصل

(١٨٢) ابن العديم : زبدة الحلب جـ ١ ص ٥٩ — ٦٠ .
(١٨٣) الطبرى جـ ٩ ص ١٦٩ .
(١٨٤) الطبرى جـ ٩ ص ١٧٠ ، ١٧١ .
(١٨٥) الطبرى جـ ٩ ص ١٧٦ .
(١٨٦) الطبرى جـ ٩ ص ٢٤٤ رواية ابن قديد بن نصر .
(١٨٧) الطبرى جـ ٩ ص ١٧٣ .
(١٨٨) الطبرى جـ ٩ ص ١٧٩ ، ٢٧٦ ، ٢٥٨ ، ٢٨٨ — ٩ .

وانتشار الاكراد بها فنصح **بتولية خالد بن برمك عليهما** ، وغضب المنصور على موسى بن كعب عامله على الجزيرة والموصل فعزله وقيده ، **وولى يحيى بن خالد أذربيجان** فاتصل عمل الاب مع الابن (١٨٩) .

٣ - **المهدي** : أورد الطبرى خبر عزل الهيثم بن سعيد عن الجزيرة وتولية الفضل بن صالح سنة ١٥٩ هـ (١٩٠) وبذلك **اجتمعت للفضل ولاية قنسرين مع الجزيرة** ، ولم يذكر الطبرى من قبل شيئا عن ولاية الهيثم بن سعيد والى الجزيرة المعزول . واستمر ارسال الصوائف ففى سنة ١٥٩ خرج المهدى فعسكر بالبردان وأقام حتى أنفذ العباس بن محمد ومن قطع عليه البعث معه وكان معه الحسن الوصيف فى الموالى وقواد من أهل خراسان « ولم يجعل للعباس على الحسن الوصيف ولاية فى عزل ولا غيره » ، وتتابعت الصوائف بعد ذلك فغزا ثمامة بن الوليد العبسى سنتى ١٦٠ - ١ هـ وغزا البحر الغمر بن العباس فى العامين (١٩١) . وقد عزل الفضل بن صالح عن الجزيرة سنة ١٥١ هـ واستعمل **عبد الصمد بن على** (١٩٢). ووجه المهدى ابنه هرون للصائفة سنة ١٦٣ وخرج فعسكر بالبردان وقد خرج يشيعه العباس بن محمد « فلما حاذى قصر مسلمة قلت يا أمير المؤمنين أن لمسلمة فى أعناقنا منة ، كان محمد بن على مر به فاعطاه أربعة آلاف دينار ... فقال لما حدثته الحديث : احضروا من هنا من ولد مسلمة ومواليه فأمر لهم بعشرين ألف دينار وأمر أن تجرى عليهم الارزاق ... » **وكان هرون فى هذه الغزوة حدثا «وتوجه معه الحسن وسليمان ابنا برمك ووجه معه على أمر العسكر ونفقاته وكتابته والقيام بأمره يحيى بن خالد وكان أمر هرون كله اليه** ، وصير الربيع الحاجب مع هرون يغزو عن المهدى » . وفى مسير المهدى كان على الجزيرة عبد الصمد بن على « فلما شخص المهدى من الموصل وصار بأرض الجزيرة لم يتلقه عبد الصمد ولا هيأ له نزلا ولا أصلح له قناطر ، فاضطغن ذلك عليه المهدى ... الى أن نزل حصن مسلمة فدعا به وجرى بينهما كلام أغلظ له فيه القول المهدى فرد عليه عبد الصمد ولم يحتمله فأمر بحبسه وعزله عن الجزيرة ، ولم يزل فى حبسه فى سفره ذلك وبعد أن رجع الى أن رضى عنه » . على أنه عزل

(١٨٩) الطبرى جـ ٩ ص ٢٨٦ ، ٢٩٠ رواية الحسن بن وهب بن سعيد واحمد بن معاوية ابن بكر الباهلى .
(١٩٠) الطبرى جـ ٩ ص ٣٢٩ .
(١٩١) الطبرى جـ ٩ ص ٣٣٦ ، ٣٣٤ ، ٣٣٨ ، ٣٤١ .
(١٩٢) الطبرى جـ ٩ ص ٣٤١ .

زفر بن عاصم بعد ذلك عن الجزيرة « وولى مكانه عبد الله بن صالح بن علي وكان المهدى نزل عليه في مسيره الى بيت المقدس فاعجب بما رأى من منزله بسلمية » • ومازالت ولاية فلسطين منفصلة عن الشام فقد « عزل المهدى ابراهيم بن صالح عن فلسطين فسأله يزيد بن منصور حتى رده عليهـا (١٩٣) ، وفي سنة ١٦٤ هـ غزا عبـد الكبير بن عبد الحميد بن عبد الرحمن بن زيد بن الخطاب وانهزم فحبسه المهدى وقد **ذكر أن عبد الكبير هذا ولى انطاكية كما ولى آرمينية** (١٩٤) • وذكر في أخبار سنة ١٦٨ **جمع قنسرين والجزيرة لعلى بن سليمان** (١٩٥) •

وبدت ظاهرة جديدة في الحـــكم والادارة ، **فقد ولى المهدى ابنه هرون المغرب كله وأذربيجان وارمينية وجعل كاتبه على الخراج ثابت ابن موسى وعلى رسائله يحيى بن خالد بن برمك** • ويدخل في ولاية هرون الشام بأجنادها كلها ، وكانت أعمال هذه الولايات الشاسعة ودواوينها الى يحيى بن خالد ، يقوم بها ويخلف هرون على مايتولى منها حتى وفاة المهدى (١٩٦) • كذلك امتاز عهد المهدى باستحداث **ديوان الزمام** « وذلك أنه لما جمعت لعـــمر بن بزيع الدواوين تفكر فاذا هو لا يضبطها الا بزمام يكون له على كل ديوان فاتخذ دواوين الازمة وولى على كل ديوان رجلا ولم يكن لبني أمية دواوين أزمة » (١٩٧) •

٤ ـ **الهادى** : كان عهده قصيرا ، ومن أخباره أنه عزل علي بن سليمان عن الجزيرة وجند قنسرين وولى هناك محمد بن ابراهيم بن محمد ابن علي كـــما ولى عبيد الله بن زياد ابن أبي ليـــلى خراج الشـــام وما يليه (١٩٨) • وولى اســـــماعيل بن صبيح زمام ديوان الشـــام وما يليه وغزا الصائفة معيوف بن يحيى ١٦٩هـ (١٩٩) •

---

(١٩٣) الطبرى جـ ٩ ص ٣٤٣ : ٥ ، ابن العديم : زبدة الحلب جـ ١ ص ٦١ ـ ٢ •
(١٩٤) الطبرى جـ ٩ ص ٣٤٥ ـ ٦ ، الزبيرى : نسب قريش ص ٣٦٤ •
(١٩٥) الطبرى جـ ١٠ ص ١٠ •
(١٩٦) الطبرى جـ ٩ ص ٣٤٥ وجـ ١٠ ص ٢١ •
(١٩٧) الطبرى جـ ١٠ ص ١٠ البلاذرى : فتوح البلدان ص ١٩٨ •
(١٩٨) الطبرى جـ ١٠ ص ٢٣ ، البلاذرى : فتوح البلدان ص ١٩٨ ـ ٩ •
(١٩٩) الطبرى جـ ١٠ ص ٤٧ ، ٣٢ •

٥ ـ **الرشيد** : استهل الرشيد عهده سنة ١٧٠ هـ بتعمير طرسوس وأغزى سليمان بن عبد الله البكائي ، **وعزل الثغور كلها عن الجزيرة وقنسرين وجعلها حيزا واحدا وسميت العواصم** » وأفرد منبج ودلوك ورعبان وقورس وأنطاكية وتيزين ـ وسماها العواصم ، لأن المسلمين يعتصمون بها فتعصمهم وتمنعهم اذا انصرفوا من غزوهم وخرجوا من الثغر وجعل مدينة العواصم منبج ، فسكنها عبد الملك بن صالح بن علي سنة ١٧٣ هـ وبنى بها أبنية » (٢٠٠) . وقد ذكر أنه قتل أبا هريرة محمد بن فروخ وكان على الجزيرة سنة ١٧٠ كما عزل يزيد بن مزيد عن أرمينية وولاها عبيدالله بن المهدى سنة ١٧٢هـ (٢٠١) وولى الرشيد **الفضل بن يحيى أرمينية وأذربيجان** بجانب كور الجبال وطبرستان ودنباوند وقومس (٢٠٢) . وحين هاجت الفتنة بالشام بين النزارية واليمانية منذ سنة ١٧٤ هـ وكان العامل عليها موسى بن عيسى « ولى الرشيد سنة ١٧٦ هـ **موسى بن يحيى بن خالد الشام** وضم اليه من القواد والاجناد ومشايخ الكتاب جماعة ... فاقام موسى بها حتى أصلح بين أهلها وسكنت الفتنة واستقام أهلها » . ثم تفاقمت الفتن مرة أخرى فعقد **لجعفر بن يحيى** على الشام « فاصلح بينهم وقتل زواقيلهم والمتلصصة منهم ولم يدع بها رمحا ولا فرسا... وولى صالح بن سليمان البلقاء وما يليها واستخلف على الشام موسى بن العكى » (٢٠٣) . وكثرت فتن الخوارج بالجزيرة فخرج الوليد بن طريف الشارى ففتك بابراهيم ابن خازم بن خزيمة بنصيبين ومضى الى أرمينية ثم رجع الى الجزيرة فقتله يزيد بن مزيد الشيبانى سنة ١٧٩ هـ . وخرج خراشة الشيبانى فقتله مسلم بن بكار بن العقيل سنة ١٨٠ هـ ، وهدم الرشيد سور الموصل بسبب الخوارج الذين خرجوا منها . وولى الرشيد أرمينية يزيد بن مزيد مع أذربيجان وكان بارمينية سعيد بن مسلم بن قتيبة الباهلى وقواه بالجند لمواجهة الخزر وأنزل خزيمة بن خازم نصيبين ردءا لأهل أرمينية (٢٠٤) . وقد اختار الرشيد الرقة مقاما له سنة ١٨٠ هـ (٢٠٥) .

---

(٢٠٠) الطبرى ج ١٠ ص ٥٠ ، البلاذرى : فتوح البلدان ص ١٣٨ ـ ٩ .
(٢٠١) الطبرى ج ١٠ ص ٥١ .
(٢٠٢) الطبرى ج ١٠ ص ٥٤ .
(٢٠٣) الطبرى ج ١٠ ص ٥٢ ، ٦٠ ، ٦٦ ـ ٧ ابن العديم زبدة الحلب ج ١ ص ٦٢ .
(٢٠٤) الطبرى ج ١٠ ص ٦٢ ، ٦٥ ، ٦٨ ، ٧٠ .
(٢٠٥) الطبرى ج ١٠ ص ٦٨ .

وعقد الرشيد لابنه محمد ولاية العهد سنة ١٧٣ هـ وسماه الامين وضم اليه الشام والعراق سنة ١٧٥ ، ثم بايع لعبد الله المأمون بالرقة سنة ١٨٣ هـ وولاه من حد همذان الى المشرق . وكان القاسم بن الرشيد فى حجر عبد الملك بن صالح فلما بايع الرشيد لمحمد والمأمون كتب اليه عبد الملك :

يا أيها الملك الذى	لو كان نجما كان سعدا
اعقد لقاسم بيعة	وأقدح له فى الملك زندا
الله فرد واحد	فاجعل ولاة العهد فردا

فكان ذلك أول ما حض الرشيد على البيعة للقاسم ، **فبايع للقاسم ابنه وسماه المؤتمن وولاه الجزيرة والثغور والعواصم** . فقال فى ذلك :

الله قلد هارونا سياستنا	لما اصطفاه فأحيى الدين والسننا
وقلد الأرض هارون لرأفته	بنا أمينا ومأمونا ومؤتمنا

وأشخص الرشيد القاسم ابنه الى منبج سنة ١٨٦ هـ فانزله اياها بما انضم اليه من القواد والجند (٢٠٦) . وقد أغزاه الرشيد الصائفة سنة ١٨٧ هـ « **فوهبه لله وجعله قربانا له ووسيلة وولاه العواصم** » ، ورابط بدابق سنة ١٨٨ هـ ، سنة ١٨٩ هـ (٢٠٧) . ويذكر ابن العديم أن الرشيد لما أفضى الأمر اليه « **ولى حلب وقنسرين عبد الملك بن صالح ابن على بن عبد الله فاقام بمنبج** ، وابتنى فيها قصرا لنفسه وبستانا الى جانبه ، وكانت ولايته سنة خمس وسبعين ثم صرفه لأمر عتب عليه فيه ... » . وهذه الولاية تفسر خروج عبد الملك بن صالح فى ،غزوات المتتالية لحرب الروم . **وذكر البلاذرى أن عبد الملك بن صالح استعمل يزيد بن مخلد الفزارى على طرسوس فطرده من بها من أهل خراسان فاستخلف أبا الفوارس فاقره أبو محمد وذلك سنة ١٧٣ هـ . وانما كانت ولاية موسى وجعفر ابنى يحيى بن خالد الشام ولاية طوارىء لمواجهة العصبية بها** « **ثم ان الرشيد ولى حلب وقنسرين اسماعيل بن صالح** بن على لما عزله عن مصر سنة اثنين وثمانين ومائة وأقطعه ماكان له بحلب فى سوقها وهى الحوانيت التى بين أنطاكية الى رأس الدلبة ، وعزله وولاه دمشق . ثم ولى الرشيد بعده عبد الملك بن صالح بن علي ثانية فسعى به ابنه عبد الرحمن الى الرشيد **وأوهمه أنه يطمع فى الخلافة**، فاستشعر منه وقبض عليه فى سنة سبع وثمانين ومائة .. » وقد

(٢٠٦) الطبرى جـ ١٠ ص ٧١ : ٣ .

(٢٠٧) الطبرى جـ ١٠ ص ٨٩ ، ٩١ ، ٩٥ ، ابن العديم زبدة الحلب جـ ١ ص ٦٣ .

فصل الطبرى القول فى هذه الدسيسة التى تواطأ عليها ابن عبد الملك «عبد الرحمن» وكاتبه قمامة ، وان كان عبد الله بن مالك صاحب الشرطة قد شهد لصالحه فقال للرشيد « ما علمت عبد الملك الا ناصحا فعلام حبسته ؟ قال : ويحك !بلغنى عنه ما أوحشنى ولم آمنه أن يضرب بين هذين ــ يعنى الأمين والمأمون » • كما شهد له يحيى بن خالد فقال «ما اطلعت من عبد الملك على شىء من هذا ولو اطلعت عليه لكنت صاحبه دونك لأن ملكك كان ملكى وسلطانك كان سلطانى والخير والشر كان فيه على ولى ••• ولكنه كان رجلا محتملا يسرنى أن يكون فى أهلك مثله فوليته لما أحمدت من مذهبه وملت اليه لأدبه واحتماله » ، وأصر يحيى شهادته رغم تهديده بقتل ابنه الفضل وكان دخان الفتنة والوشاية بعبد الملك قد أخذ ينتشر من قبل « وقيل : بينما الرشيد يسير وفى موكبه عبد الملك بن صالح ، اذ هتف به هاتف وهو يساير عبد الملك فقال : يا أمير المؤمنين ، طأطىء من اشرافه وقصر من عنانه واشدد من شكائمه والا أفسد عليك ناحيته • فالتفت الى عبد الملك فقال : ما يقول هذا يا عبد الملك ؟فقال عبد الملك : مقال باغ ودسيس حاسد فقال له هارون : صدقت ، نقص القوم ففضلتهم ، وتخلفوا وتقدمتهم ، حتى برز شأوك فقصر عنه غيرك ، ففى صدورهم جمرات التخلف وحزازات النقص • فقال عبد الملك : لا أطفاها الله واضرمها عليهم حتى تورثهم كمدا دائما أبدا • وقال الرشيد لعبد الملك بن صالح وقد مر بمنبج وبها مستقر عبد الملك : هذا منزلك ؟ قال : هو لك ياأمير المؤمنين ، ولى بك • قال : كيف هو ؟ قال : دون بناء أهلى وفوق منازل منبج قال : فكيف أهلها ؟ قال سحر كله » • **ولم يزل عبد الملك محبوسا حتى توفى الرشيد فاطلقه محمد الأمين وعقد له على الشام فكان مقيما بالرقة** « وجعل لمحمد عهد الله وميثاقه لئن قتل وهو حى لا يعطى المأمون طاعة أبدا ، فمات قبل محمد فدفن فى دار من دور الامارة • فلما خرج المأمون يريد الروم أرسل الى ابن له : حول أباك من دارى • فنبشت عظامه وحولت » ، **وذكر ابن العديم « وقيل ان الرشيد لما غضب على عبد الملك بن صالح ولى أخاه عبد الله بن صالح ثم عزله سنة ثمان وثمانين وولى القاسم بن هارون ابنه • وقيل أن أحمد بن اسحق بن اسماعيل بن على ابن عبد الله بن العباس ولى قنسرين للرشيد** ، وقد كان ولى له مصر وعزله عنها سنة تسع وثمانين ــ فلا اتحقق ولايته فى أى سنة كانت • وقد ذكر بعضهم أن عبد الله بن صالح توفى أيام المنصور ، وقال بعضهم : وانه توفى بسليمة سنة ست وثمانين ــ **فعلى هذا يكون الذى**

ولاه الرشيد ابن ابنه عبد الله بن صالح بن عبد الله بن صالح والله أعلم ٠ ثم ان الرشيد ولى حلب وقنسرين خزيمة خازم من قبل انه ابنه القاسم بن الرشيد فى سنة ثلاث وتسعين ومائه ولم يزل القاسم بن الرشيد فى ولاية حلب وقنسرين حتى مات أبوه فى سنة ثلاث وتسعين ومائة فى جمادى الأخرة (٢٠٨) » ٠ **وفى سنة ١٩٢ هـ نجد واليا يفرد للثغور ويتولى الغزو ويباشر الفداء وهو ثابت بن نصر بن مالك** ،كذلك نجد عاملا يخصص لعشور الثغور فمن أخبار البلاذرى « **وتوفى الرشيد سنة ١٩٣ هـ وعامله على اعشار الثغور أبو سليم (٢٠٩) » ٠ ويبدو أن جزر البحر المتوسط كانت داخلة فى ولاية الثغور** ، فقد أورد البلاذرى عن أبى القاسم بن سلام وغيره « قالوا : أحدث أهل قبرس حدثا فى ولاية عبد الملك بن صالح بن على بن عبدالله بن عباس الثغور ، فأراد نقض صلحهم والفقهاء متوافرون ، فكتب الى الليث بن سعد ومالك بن أنس وسفيان ابن عيينة وموسى بن أعين واسماعيل بن عياش ويحيى بن حمزة وأبى اسحق الفزازى ومخلد بن الحسين فى أمرهم فأجابوه ٠٠٠ (٢١٠) »

٦ ــ **الأمين** : تولى الأمين **فاقر أخاه القاسم سنة ١٩٣ هـ على ما كان أبوه هارون ولاه من عمل الجزيرة واستعمل عليها خزيمة بن خازم ، واقر القاسم على قنسرين والعواصم كما اقر أبا سليم على أعشار الثغور ولكنه فى العام التالى عزل أخاه القاسم** عن جميع ما كان أبوه ولاه من عمل الشام وقنسرين والعواصم والثغور ، وولى مكانه **خزيمة ابن خازم** وأمره بالمقام بمدينة السلام (٢١١) ٠ واشتجر النزاع بين الأمين والمامون فولى الأمين الشام سنة ١٩٦ هـ **عبد الملك بن صالح بن على** ــ وهو الذى أطلقه فى ذى القعدة سنة ١٩٣ هـ ــ وأمره بالخروج اليها وهذه ولايته الثالثة ليستعين بجندها على قتال جند المامون آخذا بنصيحة عبد الملك الذى قال له « ٠٠٠ وأهل الشام قوم ضرستهم الحروب وأدبتهم الشدائد ، وجلهم منقاد الى مسارع الى طاعتى ٠٠٠ فولاه الشام والجزيرة واستحثه بالخروج استحثاثا شديدا ووجه معه كنفا من الجند

(٢٠٨) الطبرى جـ ١٠ ص ٨٩ : ٩١ رواية أحمد بن ابراهيم بن اسماعيل ، ابن العديم : زبدة الحلب جـ ١ ص ٦٢ : ٥ ، البلاذرى : فتوح البلدان ص ١٧٧ ٠

(٢٠٩) الطبرى جـ ١٠ ص ١٠٩ ، البلاذرى : فتوح البلدان ص ١٧٦ ٠

(٢١٠) البلاذرى : فتوح البلدان ص ١٦١ ــ ٢ ٠

(٢١١) الطبرى جـ ١٠ ص ١٢٩ ــ ١٣٠ ، ابن العديم : زبدة الحلب جـ ١ ص ٦٤ ، البلاذرى : فتوح البلدان ص ١٧٦ ٠

والأبناء ٠٠٠ فلما قدم الرقة أنفذ رسله وكتب الى رؤساء أجناد الشام ووجوه الجزيرة ، فلم يبق أحد من يرجى ويذكر بأسه وغناؤه الا وعده وبسط له أمله وأمنيته ٠ فقدموا عليه رئيسا بعد رئيس وجماعة بعد جماعة ، فكان لا يدخل عليه أحد الا أجازه وخلع عليه وحمله ، فأتاه أهل الشام الزواقيل والأعراب من كل فج واجتمعوا عنده حتى كثروا ٠٠٠ » ٠غير أنه سرعان ما نشبت المعارك بين هؤلاء وبين جند أهل خرسان والأبناء (٢١٢) — أى أبناء الدهاقين من الفرس (٢١٣) ٠ ومات عبد الملك بن صالح قبل الأمين وقد ذكر **المسعودى** أن عبد الملك ابن صالح توفى بالرقة سنة ١٩٧ هـ وكان متوليا الجزيرة وجندقنسرين والعواصم والثغور واضطربت البلدان بعد وفاته وتغلب كل رئيس على قومه ، وصار الناس حزبين : حزبا يظاهر الأمين وحزبا يظاهر المأمون « فلم يبق بلد الا وفيه قوم يتحاربون ، لا سلطان يمنعهم ، ولا شىء يدفعهم **ولما افضت الخلافة الى المامون كان بقورس وما والاها من كور العواصم العباس بن زفر الهلالى ، وبالحيار وما والاها من كور قنسرين عثمان بن ثمامة العبسى ، وبالحاضر الذى الى جانب حلب منيع التنوخى ٠**
وقد كان يعقوب بن صالح الهاشمى يحارب الحاضر فهرب أهل قنسرين، وكان بمعرة النعمان وتل منس وما والاها من أقاليم حمص الحوارى ابن حنطان التنوخى ، وبحماه وما والاها حراق البدائى وبشيزر وما والاها بنو بسطام ، وبمدينة حمص بنو السمط ٠ وأقام بدمشق والأردن وفلسطين جماعة من رؤساء القبائل — حتى ولى المأمون بن طاهر» **اما بن العديم** فيعقب على وفاة عبد الملك بن صالح بقوله « ثم ولى خزيمة **ابن خزيمة حلب وقنسرين فى سنة سبع وتسعين ومائة وقيل أن الوليد ابن طريف ولى حلب وقنسرين بعد عبد الملك بن صالح ،وبعده ورقاء عبد عبد الملك، ثم بعده يزيد بن هزيد ـ ثم استامن الى طاهر بن الحسين»(٢١٤)** ولحق القاسم بن الرشيد بالمأمون سنة ١٩٧ هـ ، كما خالف خزيمة بن خازم الأمين أخيرا واستأمن الى طاهر بن الحسين سنة ١٩٨ هـ (٢١٥) ٠ وقد انعقدت آمال قواد الأمين على الجزيرة والشام لتحويل التيار

---

(٢١٢) الطبرى جـ ١٠ ص ١٦١ — ٢ ، ابن العديم : زبدة الحلب جـ ١ ص ٦٤ — ٥ ٠
(٢١٣) دكتوران يحيى الخشاب والباز العرينى : ضبط وتحقيق الألفاظ الاصطلاحية التاريخية فى مفاتيح العلوم للخوارزمى — المجلة التاريخية المصرية م ٧ سنة ١٩٥٨ م ٠
(٢١٤) كرد على : خطط الشام جـ ٦ ص ٣٦٦ ، البلاذرى : فتوح البلدان ص ١٥٢ — ٣ ، ابن العديم : زبدة الحلب جـ ١ ص ٦٥ ٠
(٢١٥) الطبرى جـ ١٠ ص ١٧٤ ، ١٩٢ ٠

لصالحهم « ... فنخرج حتى نلحق بالجزيرة والشام ، فتفرض الفروض وتجبى الخراج وتصير في مملكة واسعة وملك جديد ... » غير أن طاهر ابن الحسين احتال عن طريق المتصلين به من رجال الأمين حتى صرفه عن هذا الرأى (٢١٦) .

٧ ــ المأمون : استهل المأمون عهده سنة ١٩٨ هـ بأن كتب الى **طاهر بن الحسين** وهو مقيم ببغداد بتسليم جميع ما بيده من الأعمال في البلدان كلها الى خلفاء الحسن بن سهل ، وأن يشخص عن ذلك كله الى الرقة ، **وجعل اليه حرب نصر بن شبث وولاه الموصل والجزيرة والشام والمغرب** . وقد حدث على بن موسى بن جعفر بن محمد العلوى ووجوه أهل العسكر المأمون يوما عن مساوىء الفضل بن سهل وسعيه لقتل هرثمة بن اعين الذى أراد نصحه « وان طاهر بن الحسين قد ابلى فى طاعته ما ابلى وافتتح ما افتتح وقاد اليه الخلافة مزمومة حتى اذا وطأ الامر أخرج من ذلك كله وصير فى زاوية من الارض بالرقة » . وفى سنة ٢٠٥ هـ ولى المأمون طاهر بن الحسين من مدينة السلام الى أقصى عمل المشرق ، وكان قبل ذلك ولاه الجزيرة والشرط وجانبى بغداد ومعاون السواد . **واستخلف طاهر ابنه عبد الله على الرقة وأمره بقتال نصر بن شبث** ، وولى المأمون **يحيى بن معاذ الجزيرة سنة ٢٠٥ هـ كما ولى عيسى بن محمد بن أبى خالد أرمينية واذربيجان ومحاربة بابك** . ومات يحيى بن معاذ فى العام التالى مستخلفا ابنه **أحمد** على عمله **فولى المأمون عبد الله بن طاهر الرقة وسيره لحرب نصر بن شبث(٢١٧)** ، فكتب اليه أبوه كتابا كان مما جاء فيه « فان الله قد أحسن اليك وأوجب عليك الرأفة بمن استرعاك أمرهم من عباده والزمك العدل عليهم والقيام بحقه وحدوده فيهم والذب عنهم والدفع عن حريمهم وبيضتهم والحقن لدمائهم والامن لسبيلهم وادخال الراحة عليهم فى معايشهم .. ولا يمنعك حسن الظن بأصحابك والرأفة برعيتك أن تستعمل المسألة والبحث عن أمورك ، والمباشرة لامور الاولياء والحياطة للرعية والنظر فيما يقيمها ويصلحها .. وأقم حدود الله فى أصحاب الجرائم على قدر منازلهم وما استحقوه .. واذا وعدت الخير فأنجزه ، واقبل الحسنة وادفع بها .. واعلم أن الاموال اذا كثرت وذخرت فى الخزائن لا تثمر ، واذا كانت فى

(٢١٦) الطبرى جـ ١٠ ص ١٩٦ .
(٢١٧) الطبرى جـ ١٠ ص ٢٢٦ ، ٢٤٩ ، ٢٥٥ ، ٢٥٧ ، ٢٥٨ ، ابن العديم : زبدة الحلب جـ ١ ص ٦٥ ــ ٦٦ .

اصلاح الرعية واعطاء حقوقهم وكف المؤنة عنهم نمت وربت وصلحت به العامة وتزينت به الولاة وطاب به الزمان ٠٠ ولا تحقرن ذنبا ، ولا تمايلن حاسدا ، ولا ترحمن فاجرا ولا تصلن كفورا ، ولا تداهنن عدوا ، ولا تصدقن نماما ، ولا تأمنن غدارا ، ولا توالين فاسقا ٠٠ وتفقد أمور الجند في دواوينهم ومكاتبهم ، وأدر عليهم أرزاقهم ووسع عليهم في معايشهم ٠٠ وانتفع بتجربتك وانتبه في صمتك واسدد في منطقك ، وانصف الخصم وقف عند الشبهة وابلغ في الحجة ، ولا يأخذك في أحد من رعيتك محاباة ولا محاماه ولا لوم لائم ، وتثبت وتأن وراقب وانظر وتدبر وتفكر واعتبر ٠ ولا تسرعن الى سفك دم ، فان الدماء من الله بمكان عظيم ٠٠ واعلم انك جعلت بولايتك خازنا وحافظا وراعيا ٠٠ فاستعمل عليهم في كور عملك ذوى الرأى والتدبير والتجربة والخبرة بالعمل والعلم بالسياسة والعفاف ووسع عليهم في الرزق ٠٠ فانك متى آثرته — يعنى العمل الذى وكل اليه — وقمت فيه بالواجب استدعيت به زيادة النعمة من ربك وحسن الاحدوثة في عملك ٠٠ فدرت الخيرات ببلدك وفشت العمارة بناحيتك وظهر الخصب في كورك ، فكثر خراجك وتوفرت أموالك ، وقويت بذلك على ارتباط جندك وارضاء العامة ٠٠ واجعل في كل كورة من عملك أمينا يخبرك أخبار عمالك ويكتب اليك بسيرتهم وأعمالهم حتى كأنك مع كل عامل في عمله معاين لامره كله ٠٠ وافرغ من عمل يومك ولا تؤخره لغدك، وأكثر مباشرته بنفسك ٠٠ وافرد نفسك للنظر في أمور الفقراء والمساكين ومن لا يقدر على رفع مظلمته اليك ٠٠ وانصب لمرضى المسلمين دورا تأويهم وقواما يرافقونهم وأطباء يعالجون أسقامهم ٠٠ وانظر عمالك الذين بحضرتك وكتابك : فوقت لكل رجل منهم في كل يوم وقتا يدخل عليك فيه بكتبه ومؤامرته وما عنده من حوائج عمالك وأمر كورك ورعيتك ، ثم فرغ لما يورده عليك من ذلك سمعك وبصرك وفهمك وعقلك وكرر النظر اليه والتدبير له ٠٠» وقد ذكر ان كتاب طاهر تنازعه الناس « وتدارسوه وشاع أمره حتى بلغ المأمون ، فدعا به وقرىء عليه ، فقال : ما بقى أبو الطيب شيئا من أمر الدين والدنيا والتدبير والرأى والسياسة واصلاح الملك والرعية وحفظ البيضة وطاعة الخلفاء وتقويم الخلافة الا وقد احكمه وأوصى به ٠ وتقدم وأمر أن يكتب بذلك الى جميع العمال في نواحى الاعمال(٢١٨) » وتوفى طاهر بن الحسين سنة ٢٠٧ هـ فولى المأمون ابنه عبد الله عمل طاهر كله — وكان مقيما بالرقة على حرب نصر بن شبث ،

(٢١٨) الطبرى جـ ١٠ ص ٢٥٨ : ٢٦٤ ٠

وجمع له مع ذلك الشام ، وبعث اليه بعهده على خراسان وعمل ابيه ، فوجه عبد الله بن طاهر أخاه طلحة لخراسان واستخلف بمدينة السلام اسحق بن ابراهيم » • ووفق عبد الله بن طاهر فى حرب نصر بن شبث حتى طلب الامان سنة ٢٠٩ هـ بعد أن ضيق عليه الحصار بكيسوم(٢١٩)، وولى المامون فى نفس العام **صدقة بن على المعروف بزريق ارمينية واذربيجان ومحاربة بابك** ، وانتدب للقيام بامره أحمد بن الجنيد بن فرزندى الاسكافى ، فاسره بابك • وافتتح عبد الله به طاهر مصر سنة ٢١٠هـ شاخصا اليها من الرقة فاستأمن اليه عبيد الله بن السرى بن الحكم، كما فتح الاسكندرية وأجلى عنها من كان تغلب عليها من أهل الأندلس **واقام عبد الله بن طاهر بمصر سنة ٢١١هـ واليا عليها وعلى سائر الشام والجزيرة** ، ثم قدم بغداد من المغرب فتلقاه العباس بن المامون وأبو اسحق المعتصم وسائر الناس ، وقدم معه بالمتغلبين على الشام كابن السرج وابن ابى الجمل وابن أبى الصقر(٢٢٠) » • وفى سنة ٢١٢ هـ وجه المامون محمد بن حميد الطوسى لحرب بابك ، فلقى مصرعه سنة ٢١٤ هـ وعرضت على عبد الله بن طاهر محاربة بابك مع ولاية ارمينية واذربيجان فاختار عليها ولاية خراسان ، فولى المامون على بن هشام الجبل وقم واصبهان واذربيجان ، ثم غضب عليه فقتله واخاه حسينا باذنه سنة ٢١٧ هـ وطيف براسه الشام والجزيرة كورة كورة(٢٢١) •

وفى سنة ٢١٣ هـ « **ولى المامون اخاه أبا اسحق الشام ومصر ، وولى ابنه العباس بن المامون الجزيرة والثغور والعواصم** ، وأمر لكل واحد منهما ومن عبد الله بن طاهر بخمسمائة الف دينار — وقيل انه لم يفرق فى يوم من المال مثل ذلك(٢٢٢) » • ووجه المامون ابنه العباس لبناء الطوانة سنة ٢١٨ هـ « وكان قد وجه الفعلة والفروض فابتدأ البناء ، وبناها ميلا فى ميل ، وجعل سورها على ثلاثة فراسخ ، وجعل لها اربعة ابواب، وبنى على كل باب حصنا • • وكتب الى أخيه أبى اسحق بن الرشيد انه قد فرض على جند دمشق وحمص والاردن وفلسطين أربعة آلاف رجل، وانه يجرى على الفارس مائة درهم وعلى الراجل أربعين درهما وفرض على

(٢١٩) الطبرى جـ ١٠ ص ٢٦٥ — ٦ ، ٢٦٧ — ٨ ، ابن العديم : زبدة الحلب جـ ١ ص ٦٦ •
(٢٢٠) الطبرى جـ ١٠ ص ٢٧٣ : ٦ ، ٢٧٦ ، ٢٧٨ ، ابن العديم : زبدة الحلب جـ ١ ص ٦٦ — ٧ •
(٢٢١) الطبرى جـ ١٠ ص ٢٧٩ ، ٢٨٠ ، ٢٨١ ، ٢٨٢ — ٣ •
(٢٢٢) الطبرى جـ ١٠ ص ٢٧٩ ، ابن العديم : زبدة الحلب جـ ١ ص ٦٧ •

مصر فرضا ، وكتب الى العباس بمن فرض على قنسرين والجزيرة ، والى اسحق بن ابراهيم بمن فرض على أهل بغداد ــ وهم ألف رجل ، وخرج بعضهم حتى واهى طوانة ونزلها مع العباس(٢٢٣) » • ويذكر ابن العديم أن المأمون عزل ابنه العباس سنة ٢١٤ هـ **وولى حلب وقنسرين والعواصم والثغور اسحق بن ابراهيم بن مصعب بن زريق** ، ثم عزله وولاه مصر **وأعاد العباس ثانية ، ثم ولى حلب وقنسرين ورقة الطريفى** ، وأظنه مع العباس ، وكانت لورقة حركة أيام الفتنة ، فلما قدم المأمون حلب للغزاة ونزل بدابق فى سنة خمسة وعشرة ومائتين ، لقيه عيسى بن على بن صالح الهاشمى فقال : يا أمير المؤمنين أيلينا أعداؤنا فى أيام الفتنة وفى أيامك ؟ فقال : لا ، ولا كرامة ــ فصرف ورقة • **وولى عيسى بن على بن صالح ــ نيابة عن ولده العباس** فيما أرى ، فوجد عنده من الكفاية والضبط وحسن السيرة ما أراد ، فتقدمه وكبر عنده وأحبه ــ وكان المأمون كلما غزا الصائفة لقيه عيسى بن على بالرقة ولا يزال معه حتى يدخل الثغور ثم يرد عيسى الى عمله • وولى المأمون فى سنة خمس عشرة ومائتين **قضاء حلب عبيد بن جناد بن أعين مولى بنى كلاب فامتنع عن ذلك** ــ فهدده على الامتناع فأجاب • ثم ولى المأمون **عبيد الله بن عبد العزيز بن الفضل بن صالح** لما غزا الصائفة فى سنة ثمان عشرة ومائتين العواصم فى غالب ظنى ، فان العباس ولى حلب وقنسرين والجزيره من سنة أربع عشرة ومائتين الى أن توفى أبوه المأمون ــ وفيها مات المأمون ، وانما وليها **عبيد الله عن العباس بن المأمون** بالبدندون من أرض طرسوس « (٢٢٤) » •

٨ ــ المعتصم : بويع المعتصم سنة ٢١٨ هـ وقد أشفق الناس من منازعة العباس بن المأمون له ، وكان العباس قد ولى الجزيرة والثغور والعواصم أيام المأمون وبالفعل شغب الجند ونادوه بالخلافة ولكنه بايع عمه وصرف مشايعيه عن هذا (الحب البارد !!) • **ولكن فى أعقاب غزوة** عمورية سنة ٢٢٣ هـ « لم يطلق ــ المعتصم ــ يد عجيف بن عنبسة فى النفقات كما أطلقت يد الافشين ، واستقصر المعتصم أمر عجيف وأفعاله واستبان ذلك لعجيف ، فوبخ عجيف العباس على ما تقدم من فعله عند وفاة المأمون حين بايع أبا اسحق وعلى تفريطه فيما فعل ، وشجعه على أن يتلافى ما كان منه ، فقبل العباس ذلك ودس رجلا يقال له الحارث السمرقندى ••• فصيره العباس رسوله وسفيره الى القواد •• فلما أرادوا

(٢٢٣) الطبرى جـ ١٠ ص ٢٨٤ •

(٢٢٤) ابن العديم : زبدة الحلب جـ ١ ص ٦٧ ــ ٨ •

أن يدخلوا الحرب ، أشار عجيف على العباس أن يثب على المعتصم فى الدرب وهو فى قلة من الناس ٠٠ فأبى العباس عليه وقال لا أفسد هذه الغزاة » ٠ وقد نما الخبر الى المعتصم فقبض على العباس والمتآمرين معه « فكان فى يدى الافشين ، فلما نزل المعتصم منبج وكان العباس جائعا سأل الطعام فقدم اليه طعام كثير فأكل فلما طلب الماء منع ٠٠ فمات بمنبج(٢٢٥) » ٠ وعقد المعتصم للأفشين حيدر بن كاوس على الجبال سنة ٢٢٠ هـ ووجهه لحرب بابك(٢٢٦) ٠ وعلى الرغم من بلاء الافشين فى حرب الروم وبابك فقد غضب عليه المعتصم وعزله وحبسه سنة ٢٢٥هـ (٢٢٧)٠ وقد روى عن المعتصم انه شكى لاسحق بن ابراهيم ليلة من فشله فى اصطناع الرجال قال : « نظرت الى أخى المأمون وقد اصطنع أربعة انجبوا طاهر بن الحسين ـ فقد رأيت وسمعت ، وعبد الله بن طاهر ـ فهو الرجل الذى لم ير مثله ، وانت ـ فانت والله الذى لا يعتاض السلطان منك أبدا ، وأخوك محمد بن ابراهيم واين مثل محمد ؟ وأنا : فاصطنعت الافشين ـ فقد رأيت الى ما صار أمره ، واشناس ـ ففشل ايه ، وايتاخ ـ فلا شىء ، ووصيف ـ فلا مغنى فيه ٠٠ قلت : يا أمير المؤمنين اعزك الله ـ نظر أخوك الى الاصول فاستعملها فانجبت فروعها ، واستعمل أمير المؤمنين فروعا لم تنجب اذ لاأصول لها ٠ قال : يااسحق ـ لمقاساة ما مر بى فى طول هذه المدة اسهل على من هذا الجواب(٢٢٨) » ٠ وولى المعتصم **حلب وقنسرين حربها وخراجها وضياعها عبيد الله بن عبد العزيز بن الفضل ابن صالح بن على الهاشمى ، ثم انه ولى اشناس التركى الشام جميعا والجزيرة ومصر** وتوجه والبسه وشاحين بالجوهر سنة ٢٢٥ هـ ،قال ابن العديم : « وأظن انه بقى فى ولايته الى أن مات سنة ثلاثين ومائتين فى أيام الواثق(٢٢٩) » ٠

٩ ـ **الواثق** : استهل الواثق عهده بحبس الكتاب والزامهم أموالا سنة٢٢٩ هـوذلك سوى ما أخذ من العمال بسبب عمالاتهم(٢٣٠)وفى آخر سنة ٢٣٠ هـ خرج خاقان الخادم فى فداء اسرى المسلمين على موعد مع رسل صاحب الروم ، وكان خاقان خادم الرشيد وقد نشأ بالثغر ثم

(٢٢٥) الطبرى جـ ١٠ ص ٣٠٤ ، ٣٤٤ : ٨ ، ابن العديم : زبدة الحلب جـ ١ ص ٦٨ ـ ٩ ٠
(٢٢٦) الطبرى جـ ١٠ ص ٣٠٧ ٠
(٢٢٧) الطبرى جـ ١٠ ص ٣٦٣ : ٧ ٠
(٢٢٨) الطبرى جـ ١١ ص ٨ ـ ٩ ٠
(٢٢٩) ابن العديم : زبدة الحلب جـ ١ ص ٦٠ ، الطبرى : اخبار ٢٢٥ ، ٢٢٨ هـ ٠
(٢٣٠) الطبرى جـ ١١ ص ١٠

عقد الواثق لاحمد بن سعيد ابن قتيبة الباهلي على الثغور والعواصم وأمره بحضور الفداء (٢٣١) • ويذكر ابن العديم قبل ولاية احمد بن سعيد ولاية عبد الله ابن عبد العزيز بن الفضل بن صالح الهاشمي للواثق حلب وقنسرين حربها وخراجها وضياعها ، وقال «واظنه كان متوليا في ايام المعتصم من جهة اشناس فاقره الواثق على ولايته» • وولى الواثق قنسرين وحلب والعواصم بعد عبيد الله محمد بن صالح بن عبد الله بن صالح — فكانت سيرته غير محمودة • وكان أحمر أشقر فلقب (سناقة) لشدة حمرته • ويقال انه أول من أظهر البرطيل بالشام وأوقع عليه هذا الاسم وكان لا يعرف قبل ذلك الا الرشوة على غير اكراه • وكان أكثر الناس سكوتا وأطولهم صمتا لا يكاد يسمع له كلام الا في أمر يأمر به أو قول يجيب عنه • وكان قاضي حلب في أيامه ابا سعيد عبيد بن جناد الحلبي ، توفي سنة احدى وثلاثين ومائتين وكان المأمون ولاه قضاء حلب» • فلما ولي الثغور والعواصم أحمد بن سعيد غزا شاتيا فاجهد الناس فعزله الواثق وولاها نصر بن حمزة الخزاعي(٢٣٢) •

١٠ — **المتوكل** : لقي ايتاخ مصرعه على يد المتوكل سنة ٢٣٥ هـ بعد أن بلغ نفوذا عظيما ، فرفعه المعتصم ومن بعده الواثق حتى ضم اليه من أعمال السلطان أعمالا كثيرة •• فلما ولي المتوكل كان ايتاخ في مرتبته ، اليه الجيش والمغاربة والاتراك والموالي والبريد ودار الحجابة(٢٣٣) » • وفي سنة ٢٣٥ هـ عقد المتوكل البيعة لبنيه الثلاثة : **المنتصر** وضم اليه افريقية والمغرب كله من عريش مصر الى حيث بلغ سلطانه من المغرب وجند قنسرين والعواصم والثغور الشامية والجزرية وديار مضر وديار ربيعة والموصل وهيت وعانات والخابور وقرقيسيا وكور باجرمي وتكريت وطساسيج السواد وكور دجلة •• الخ ، **والمعتز** ، وضم اليه كور خراسان وما يضاف اليها وطبرستان والري وارمينية واذربيجان وكور فارس ، كما ضم اليه في سنة ٢٤٠ هـ خزن بيوت الأموال في جميع الافاق ودور الضرب وأمر بضرب اسمه على الدراهم ، **والمؤيد** ، وضم اليه جند دمشق

(٢٣١) الطبري جـ ١١ ص ١٩ •
(٢٣٢) ابن العديم : زبدة الحلب جـ ١ ص ٧٠ — ٧١ ، المسعودي : التنبيه والاشراف ص ١٦١ •
(٢٣٣) الطبري جـ ١١ ص ٣٣ : ٥ •

وجند حمص وجند الاردن وجند فلسطين(٢٣٤) • وهكذا سار على سابقه الرشيد في العهد لابنيه وتقسيم ملكه بينهما وزاد فعهد الى ثلاثة أبناء •

وفي سنة ٢٣٦ ﻫ هلك **أبو سعيد محمد بن يوسف المروزي** اذ وثب به أهل ارمينية وكان قد عهد له بأذربيجان وامينية فارس بن بغا الشرابي وهو خليفة أبيه • وثار لمقتله بغا فشخص الى ارمينية من ناحية الجزيرة • كذلك وثب أهل حمص بعاملهم على المعونة أبي المغيث الرافعي موسى بن ابراهيم سنة ٢٤٠ ﻫ فأخرجوه وأخرجوا صاحب الخراج ، وتولى محمد ابن عبدوية برضائهم فعمل فيهم الاعاجيب ثم وثبوا به في العام التالي ، فأمر المتوكل بمناهضتهم وأرسل الى حمص جندا من راتبة دمشق مع صالح العباسي التركي عاملها وجندا من الرملة(٢٣٥) • **وشخص المتوكل الى دمشق سنة ٢٤٣ ﻫ** في أواخرها فدخلها سنة ٢٤٤ ﻫ « وعزم على المقام بها ونقل دواوين الملك اليها وأمر بالبناء بها ، فتحرك الاتراك في أرزاقهم وأرزاق عيالاتهم ، فامر لهم بما أرضاهم ثم استوبأ البلد(٢٣٦) » • وقد ظهر في جهاد الروم أمير الثغور **علي بن يحيى الأمني** سنة ٢٣٧ ، ٢٣٩ﻫ ، سنة ٢٤٢ﻫ ، سنة ٢٤٥ﻫ ، سنة ٢٤٦ وكذلك أمير ملطية **عمر بن عبد الله الاقطع** وبخاصة سنة٢٤٢ﻫ، سنة٢٤٦ﻫوبغا سنتي ٢٤٤،٢٤٥ﻫ(٢٣٧)• العديم « **وولى الشاربامياني في أول أيام المتوكل على حلب وقنسرين والعواصم واليمن** •• وكان الشار باميان أحد قواد المتوكل وكان خصيصا عنده ، فاما أن يكون المتوكل ولاه جند قنسرين والعواصم ، أو انه كان السلطان في أيام المتوكل فكان أمر الولاية اليه • فانني قرأت في كتاب نسب بني صالح بن علي قال : وولى الشاربامياني جند قنسرين والعواصم **علي بن اسماعيل بن صالح بن علي أبا طالب** ، وانما أراد أن يتزين به عند المتوكل ، فامتنع من قبول ولايته ، فاعلمه ان لم يفعل كتب فيه الى الخليفة ــ فقبلها ، وأقام على ولاية جند قنسرين والعواصم حتى مات ، فكانت أيامه أحسن أيام وسيرته أجمل سيرة • وكان علي بن اسماعيل اذا خرج الى العواصم استخلف ابنه محمد بن علي على قنسرين وحلب فلا يفقد

---

(٢٣٤) الطبرى جـ ١١ ص ٣٨ ــ ٩ ، ابن العديم : زبدة الحلب جـ ١ ص ٧٢ •
(٢٣٥) الطبرى جـ ١١ ص ٤٤ ــ ٥ ، ٤٧ ، ٤٩ ، ٥٠ ــ ١ •
(٢٣٦) الطبرى جـ ١١ ص ٥٥ •
(٢٣٧) الطبرى جـ ١١ ص ٤٧ ، ٤٩ ، ٥٥ ، ٦٠ ، اليعقوبى جـ ٢ ص ٢٤١ ، المسعودى التنبيه والاشراف ص ١٦٢ ، فازيلييف : العرب والروم ترجمة دكتور شعيرة ص ١٨٨ ، ٢٠٥ ، ٢١٥ وفى نفس المرجع زيل بنصوص منقولة عن تاريخ اليعقوبى ص ٢٤١ •

الناس من أبيه شيئا • قال : وولى الشارباميان جند قنسرين والعواصم **عيسى بن عبيد الله ابن الفضل بن صالح بن على الهاشمى** •

قال : وولى المتوكل **طاهر بن محمد بن اسماعيل بن صالح على المظالم بجند قنسرين والعواصم والنظر فى أمور العمال** ، وجاءته الولاية منه فالقاه الرسول فى مرضه الذى مات فيه(٢٣٨) » •

***

ويتضح من هـذا العرض ان ولاية الثغـور والعواصم بعد أفرادها **ظلت تجمع مع غيرها من الولايات للولاة** ، فهى تجمع تارة مع الجزيرة وأخرى مع قنسرين وربمـا جمعت معهما معا • والواقع ان موقع الثغور الجغرافى وارتباطهـا بشمالى الشام من ناحيـة والجزيرة وشمالى العراق من ناحية أخرى قد جعل من الاسلم أن تساير الادارة ظروف الطبيعة ، بل ومن الولاة من كان يجمع بين الجزيرة وارمينية أيضا • وعلى كل حال فقد اهتم الخلفاء ـ امويون وعباسيون ـ بولاية الثغور ، **وعهدوا بها الى اخوتهم وأبنائهم وكبار رجال دولتهم** • وقد رأينا الكثير من بنى مروان يجاهدون الروم ويحكمون الجزيرة وأرمينية وأشـهرهم فى ذلك مسلمة ابن عبد الملك •

كذلك رأينا الكثير من بنى صالح بن على العباسى يتولون قنسرين والعواصم حتى ذكر ابن العديم فى مراجعه كتابا عن نسب بنى صالح بن على نقل عنه مادة طيبة عن ولاة حلب والعواصم ، ومن أشهر بنى صالح عبد الملك بن صـالح ثم رأينا **ظاهرة تجزئة الخلافة بين أولياء العهود** ، وكانت الثغور والعواصم ـ مضمومة الى الشام تقـع فى عهد من يتـولى القسم الغربى من الدولة واذا كانت ولاية أولياء العهـود لهذه المساحات الشاسعة نوعا من التكريم الشرفى لا الادارة العملية كما حدث فى أوربا عندما خلعت القاب الدوقيات والكونتيات على أمراء الاسر المالكة ونبلائها الا ان **ثمة ولاة فعليين قائمين بالادارة قد عهد اليهم أيضا بولايات واسعة ليحكموها** مثل طاهر بن الحسين وابنه عبـد الله • ويدل ما سجله ابن العديم من وجود **عملة مضروبة فى حلب وقنسرين** على ازدهار هذا الاقليم وارتفاع شأنه • وقد كان الخلفـاء يزورونه فى طريقهم الى الغزو خاصة الرشيد والمأمون •

(٢٣٨) ابن العديم : زبدة الحلب جـ ١ ص ٧١ ـ ٢ •

ثانيا : النظم المالية

فى الدولة البيزنطية :

كانت الامبراطورية البيزنطية مكونة تكوينا مركبا complex organism فهى دولة بيروقراطية ، وهى ملكية مطلقة ، وهى شبه شرقية semi-Oriental وهى مجتمع يونانى مسيحى Graeco-Christian، وهى فى الوقت نفسه دولة تلعب العاصمة فيها دورا قد يرجع ما تلعبه العاصمة فى دولة المدينة city-state ــ مثل اثينا أو روما أو البندقية • وميزانية الدولة ــ كما يقول نابليون ــ مرآة حياتها السياسية والاجتماعية ، وقد انعكست ملامح الدولة البيزنطية على ماليتها ، ووضحت فى بنود مصروفاتها • وقد اثنى دييل Diehl على الادارة البيزنطية قائلا : **انهـــا قوية التركيز حكيمة التنظيم** strongly centralized and wisely organised" ولم تكن الادارة أقل فضلا من الجيش فى احلال الامبراطورية البيزنطية مكانتها الرفيعة فوق دول العصور الوسطى ، وفى تمكينها من اجتياز التغيرات العديدة التى أحدثها الاباطرة دون أن تهوى الى الفوضى • غير أنه من جانب آخر كانت الادارة المدنية تكلف الدولة **مصروفات باهظة** : فقد كا نعدد الموظفين كبيرا وجلهم يتقاضون **رواتبهم** من الدولة • ومثلما يجرى الحال فى الدول المعاصرة كانت الدولة البيزنطية تعتنق **سياسة الاقتصاد الموجه** State-directed economy، فهى تلح على مراقبة وتنظيم كل مظاهر حياة الجماعة: من انتاج وعمل واستهلاك وتجارة وانتقال للسكان وكل مايمس الصالح العام • ومن أجل هذه الرقابة احتاجت الدولة لعدد هائل من الموظفين • بل انها عــلاوة على ذلك كانت تمتلك مساحات ضخمة من الاراضى وكانت تشغل نفسها بصناعات عدة • واذا كانت ممالك عصر النهضة Renaissance قد مارست التدخل الاقتصادى ــ ان لم يكن مارست نظام المركزية المطلقة ــ اذ كانت الدولة تمتلك ممتلكات زراعية وصناعية ، الا انها كانت تتبع نظام بيع الوظائف العامة فخفف هذا من أعبائها • أما الامبراطورية البيزنطية فلم يكن يباع فيها الا القليل من وظائف البلاط أو الالقاب الجوفاء • ومن ثم كان من الضرورى اعطاء **الرواتب** للموظفين العموميين ، وكان كل راتب يتكون من ثلاثة عناصر : المؤن siteresion ، والنقد rogn ، والكسوة • وكان النقد والكسوة يوزعان مرة واحدة فى السنة ويتــولى هذا التــوزيع الامبراطور شخصيا بالنسبة لكبار الموظفين ، أما بالنســبة لباقيهم فيتــولى اعطاءهم رواتبهم الموظف المسمى parakoimômenos • وقد تقاضى الموظفون الكبار رواتب

طيبة — فعميد مدرسة الحقوق مثلا وصلت حصته النقدية الى أربعة أرطال ذهبية سنويا علاوة على الثياب الفاخرة . كذلك كانت الدولة تنفق على ابتناء **القصور** الفاخرة متأثرة فى ذلك بتطور بدأ منذ عهد دقلديانوس وعززه تأثير خلافة بغداد . وكان للمسيحية **وكنائسها** التزاماتها هى الاخرى ، وذلك بجانب **النفقات العسكرية** طبعا التى كانت أول واجبات الانفاق ، ومن ذلك تكاليف الجيش والاسطول والحصون على الحدود والموانى وذخائر الحرب وعطاءات الجنود المرتزقة . ومن أجل أبراز ابهة الامبراطورية اغدقت الاموال على **احتفالات** الاعياد والمواكب والاستقبالات والهدايا والمنح ، واستنزفت **المبانى العامة** مبالغ ضخمة ، وانفقت الدولة الكثير فى القرون الاولى على **توزيع الخبز واللحم والخمر والزيت** على سكان العاصمة ، ولكن هرقل قد اضطر للكف عن ذلك بتأثير الازمة المالية فى سنى حكمه الاولى ، ويبدو أن خزن القمح بعد ذلك كان لمواجهة حاجات الجيش . وقد كان من الواجب المحافظة على المنشآت العامة ، وجبيت ضريبة خاصة لاصلاح **أسوار العاصمة** .

ومن الرجم بالظنون محاولة تقدير **الايرادات البيزنطية** ، فالمؤرخ يشعر بضيق المجال أمامه لصمت المراجع عند بحث المسائل المالية ، وبوده لو استبدل بالروايات المسهبة عن حملات الحدود شيئا يهديه فى عمليات النظام المالى . وقد كتب بنيامين التطيلى Benjamin de Tudela ان الدولة جبت فى القرن ١٢م من القسطنطينية وحدها ٧٫٣٠٠٫٠٠٠ نومسما ، بينما وعد الصليبيون بلدوين الحاكم اللاتينى للقسطنطينية بدخل يومى قدره ٣٠٫٠٠٠ نومسما (وهى تساوى ١٢ شلنا) . كما أكد يوحنا برومبتون John Brompton ان كورفو دفعت سنة ١١٩٠م للدولة ١٥٠٠ لترا litrai أى ما يساوى ٦٤٫٨٠٠ جنيه من المعدن (وهو لا يعين قيمتها الشرائية) **وكانت موارد الدخل : عقارات الافراد الذين يموتون دون وارث أو صية ، وهبات الرعية المباشرة ، وما يدفعه مرشحو وظائف البلاط أو الخدمة المدنية ، ودخل الممتلكات الامبراطورية فى آسيا ، والضرائب المباشرة وغير المباشرة العادية وغير العادية** . وكانت الدولة تعتمد على الضرائب فى الحصول على الدخل بصورة رئيسية وكانت **ضريبة الارض** مفتاح المالية البيزنطية . وقد كانت هذه تجمع أيام دقلديانوس على شكل جزء من محصول الارض يستخدم فى تموين فرق الجيش الجديدة والموظفين المدنيين وأهل العاصمة ، وظلت هذه الضرائب العينية على طابعها الاول غير ثابتة القيمة تقررها الحاجة الطارئة . ولكن كان هناك ميل قوى خلال القرن الرابع لاستبدال الضريبة العينية بما

يعادلها من المال • وقد تحقق ذلك فى النهاية وصار دفع الضرائب النقدية اجباريا •

وأجبر الناس على الاستقرار فى قطع معينة من الارض وزراعتها ، والزمت الجماعة بضمان هذا الالتزام ، وأصبح لزاما على هيئة كبراء كل بلد الذين كانوا يكونون مجلسها أن تلتزموا سداد الضرائب المستحقة على البلد وما يحيط به من القرى فى حالة ما اذا هرب أحد الملاك ولم يخلفه فى القيام بالتزاماته أحد •

وحينما وضع دقلديانوس نظامه الخاص بمنح الاراضى لجنود الحدود اخذت هذه الالتزامات صورة قانون ثابت وخرجت عن دائرة العقود الفردية ، وما شرعه دقلديانوس لجنود الحدود أصبح فى القرن الرابع قانونا عاما لفلاحى الامبراطورية كلها •

وقد شهد القرن الرابع والربع الاول من القرن الخامس النزاع بين الدولة والمالك الكبير ، ولم تتبين خزانة الدولة بوضوح السبيل الحقيقى لضمان مواردها ، وكان أعضاء مجلس القرى قد انهكتهم المطالب فوضح ان المالك الكبير يستطيع أن يستعمل سلطانه نائبا عن مزارعيه فى مقاومة الدولة ، بيد ان الدولة كانت تكسب اذا هى جعلت مالك الارض يقوم بجمع الضرائب لها ــ اذ كان فى مركز يخوله تقديم الضمانات التى تريدها الدولة ، وكانت الارض أوثق أنواع الضمان • ولم تتردد الدولة فى الاختيار ، ورجح لديها الاعتبار الاخير سنة ٤٢٥ م ، واسلمت الدولة نفسها لسطوة المالك الكبير Patronus فاستثنيت اصقاع شاسعة من بلاد الريف منالمسئولية الجماعية لمجالس القرىعن الضرائب وأصبحت جماعة أهل القرية فى خلال القرن الخامس الميلادى مسئولة مسئولية مباشرة عن نصيبها من الضريبة • وهكذا يتميز القرنان الخامس والسادس الميلاديان بنمو قوة الملاك الكبار ، وأصبح تاريخ الامبراطورية بعد ذلك اذا نظرنا اليه من زاوية معينة **نزاعا بين الدولة والملاك الارستقراطيين** ، لان الحكومة المركزية ــ اذا صرفنا النظر عن الناحية المالية ــ كان لابد أن ترعى الزارع الصغير وتقلل من سلطة السيد الاقطاعى الخطر • وشهد القرن السادس الميلادى أفرادا منالمواطنين يكونونعصابات مسلحةمن التابعينBuccellarii وكان النبلاء العظام يستطيعون بعصاباتهم المنظمة تحدى السلطات المدنية • ولكن غزوات الصقالبة الرحل والآفار فى القرن السابع الميلادى من الشمال ، وغزوات الفرس والعرب من الشرق والغرب استطاعت أن

تكسر شوكتهم ، وحين استتب النظام ثانية فى عهد أسرة هرقل كانت هناك فرص جديدة أمام المالك الصغير .

وقد نظم الايسوريون الامبراطورية البيزنطية كوحدة دفاعية فاعطيت سلطات كبيرة للعسكريين ، وفى خلال الحروب الاخيرة كانت المحاولات المتزايدة لتامين الامبراطورية تعطى قيمة جديدة للارض كمصدر للثروة . ولقد حاولت الدولة انقاص اعباء الميزانية السنوية بالتضحية بمساحات كبيرة من الاراضى العامة وتوزيعها على المواطنين مقابل التزام وراثى بالخدمة فى الجيش . واذا كان دقلديانوس قد منح قوات الحدود Limitanei هبات من الارض يمكن نقلها الى الغير وكان الابن ملزما بحكم الوراثة بان يأخذ مكان ابيه فى الجندية ، فقد ظهر ثانية نظام منح الاراضى نظير الخدمة العسكرية الذى كان مطبقا على حرس الحدود فى القرن الرابع واخذ يتسع نطاقه هذه المرة فى الولايات الثغرية . وكان لا يجوز انتقال هذه المنح لان منحها كان يتضمن الزاما للخدمة فى الجيش يرثه الابن عن ابيه . وان القوة التى استخلصتها الاسر الكبيرة لنفسها قد جعلت منها خطرا يهدد الحكومة المركزية ، وقد توقع هذا كل من رومانوس الاول وقسطنطين السابع اللذين حاولا علاج الموقف باصدار تشريعات لم تكن كافية للحيلولة دون تراكم الاراضى والضياع . فحاول التشريع الاصلاحى فى القرن العاشر الميلادى مثلا ان يحرم على المالك الكبير ــ سيدا او كنيسة ــ حيازة ارض علاوة على أملاكه الاخرى فى حدود زمام القرية سواء بطريق الهبة أوغيرها وجاء انتصار السلجوقيين الحاسم فى واقعة ملاذكردسنة ١٠٧١م التى أسر فيها الامبراطور رومانوس ضربة قاضية لهذا النظام العسكرى الذى تطور زمن الحكام العسكريين من البيت المقدونى . ونتج عن ازدياد طبقة النبلاء العسكريين الاقوياء أصحاب المقاطعات الكبيرة فى آسيا الصغرى ان انتاب الحكومة المركزية قلق كبير ، بينما سعت الادارة المدنية الى اضعاف النزعة الانفصالية بفرض ضرائب باهظة . ولما كانت الدولة أعجز من أن تهاجم امتيازات الملاك الكبار بصورة مباشرة فقد حاولت أن تخلق طبقة مقابلة لهم ــ فمنحت الجنود اقطاعات واسعة . ولم تصلنا معلومات كافية عن نظام البرونيا الجديد (Pronia مئونة) الذى أدخله ميخائيل السابع دوكاس وتطور زمن آل كومنين . ويظهر أن هذه المنح كانت تمنح لمدى حياة الممنوح ، مثلها فى ذلك مثل الاقطاعات الاولى فى غربى أوربا ــ مع استثناء ان صاحبها لم يكن له حق توريثها من بعده . وكانت المنحة المتضمنة فيما يبدو الزاما بالاقامة على الارض تعطى فقط

للجنود من ذوى الرتب العاليه ، وكانت بوجه عام مكافأة على خدمات سابقة . وكان الممنوح ملزما بان يقدم للدولة عددا معينا من الجند للجيش مقابل تنازل الدولة له عن حق جباية ضرائب معينة داخل اقطاعيته . وكان من المحرم عليه زيادة الاموال التى ينبغى أن يدفعها المزارعون ويسمح له بامتيازات فى مسائل القضاء والبوليس . ولم تكن هذه الاراضى كما يبدو تقتطع من ممتلكات النبلاء او من اراضى الكنيسه، وانما من المساحات التى كانت مقصورة على العسكريين . وكان جشع الارستقراطيين فى حيازة الاراضى يغريهم بضم كثير من هذه الممتلكات العسكرية الى ممتلكاتهم مما كان يؤدى فى النهاية الى اضعاف الجيش ، فضلا عما الحقته غزوات السلاجقة فى آسيا الصغرى من اقتطاع أراض من الامبراطورية وتخريب أراض أخرى ظلت رومانية . فهرب الفلاحون من المزارع الى المدن ، وواجه اباطرة القرن الثانى عشر الميلادى هبوطا خطيرا فى اعداد السكان الاحرار بسبب غارات المجر والعرب والسلاجقة ، واجتهد آل كومنين فى تعويض ذلك باسكان الاتراك والبشناق كمعمرين للارض داخل الامبراطورية وتحرير العبيد على حساب الدولة . **وقد اتحد الاباطرة وكبار الموظفين المدنيين الاكفاء ضد الارستقراطية العسكرية الاقليمية فى آسيا الصغرى التى كانت تستثير حسد بيروقراطية العاصمة** . واذا كانت احقاد البيروقراطية ضد الارستقراطية العسكرية الساعية الى القوة قد ادت فى النهاية الى تدهور النظام الدفاعى للامبراطورية فان الانتعاش الذى احدثه عهد آل كومنين قد أدى الى رد فعل ضد غلبة المدنيين. وهكذا لم يجد اللاتين الذين قدموا الى الشرق ظروفا مخالفة لتنظيمهم الاقطاعى ، غير أنه فى عهد اسرة باليولوجوس كانت البيروقراطية لا تزال سند الدولة التى تنافح عن بقائها .

وبجانب ضريبة الارض كانت هناك ايرادات عامة أخرى . **وكانت الممتلكات التابعة للدولة : صناعية وزراعية ومعدنية والاولى تقدم ادوات الجيش والترف** ، وكانت منتجات المصانع الامبراطورية تباع نادرا ـ ومع ذلك كونت دخلا غير مباشر فقد وفرت على الدولة نفقات شراء كثير من السلع الضرورية للجيش والاسطول والبلاط والادارة . وورث الاباطرة البيزنطيون من اسلافهم اراضى زراعية تناقصت بتوزيع الاراضى العسكرية وهبات الكنائس والمؤسسات الخيرية وبالاغداق على الاقارب وأصحاب الحظوة . لكن هذه الاراضى تزايدت من ناحية أخرى بالفتوح ، والمصادرات ـ التى كانت تكثر فى الاوقات العصيبة لان القواد المتمردين

كانوا غالبا من النبلاء ذوى الضياع الواسعة ، وهذا يفسر استمرار وجود الضياع الكبيرة التي تغطى حاصلاتها جزءا لا قيمة من المصروفات العامة ، اذ كانت الاراضي العامة على اطراف القسطنطينية تقدم المؤن **للبلاط وآلاف من الموظفين ـ والتابعين • وللموارد المدنية** urban resources أهميتها في الدخل البيزنطي ، فقد فرضت **ضريبة الايركون** aerikon على أراضى البناء كما يظهر ، وربما كانت هذه الضريبة على أراضى المدن تقابل الضريبة على أراضى الريف ، وكانت هناك **ضرائب بلدية وضرائب على أصحاب الحرف وضرائب على التركات ، فضلا عما يفرض لسداد نفقات الاحتفالات والانتصارات** • وقد كانت هناك ضرائب غير مباشرة من **المكوس** الموضوعة على التجارة في محطات مثل جوتاب Jotabe الواقعة على طرق شبه جزيرة سينا والتى كانت تحصل مكوس التجارة الشرقية ، ونظرا لتقدم التجارة البحرية فقد كان دخل المكوس ذا أهمية حيوية • **وقد ضاعفت خزانة الدولة مواردها بتحصيل المكوس في الثغور ، والرسوم من الاسواق ، فضلا عن أرباح احتكارات الدولة لصناعة الحرير** • وكان للحاكم المطلق الحق إن يسخر الشعب في **المحافظة على محطات الطرق وتموين خيل البريد الامبراطوري واضافة السفراء والموظفين بجانب ضريبة المحاكم •• وكانت هناك ضريبة على الاستهلاك الداخلى للبضائع** ، وكل سلعة أو مجموعة سلع لها ضريبتها الخاصة مما يبين أن الضريبة كانت متغيرة والبضائع المستوردة لا يعفيها دفع المكوس من اقتضاء ضرائب عند البيع بالتجزئة • ووجدت ضريبة على **الموازين والمقاييس** يدفعها المشترى ، كما كانت هناك **رسوم للترخيص بمزاولة المهن** • على أن احتياجات الخزانة البيزنطية كانت على وجه العموم محتملة بالنسبة لسكان الريف على وجه الخصوص اذا سلمت من المطالب الطارئة أو الفرعية •

ويقدر بابا ريجوبولوس Paparrigopoulos **ميزانية الامبراطورية البيزنطية** بناء على ما نقله الرحالة الاجانب وسجلته الحوليات بمبلغ ٦٤٠ مليون فرنك ذهبى ، وهو رقم له قيمته الشرائية التى تفوق قيمته العددية . بينما يقدر شتاين Stein هذه الميزانية بما تتراوح بين ١٠٠ ، ١١٥ مليــون • ويرى اندريادس Andradès أن الحقيقة تقع بين هذه الرقمين ، على أنه من المستحيل تحديد رقم معين للميزانية كلها أو لأى جزء من أجزائها الرئيسية • فالمادة التى تقدمها المصادر الرئيسية يكتنفها الشك ، وكذلك الحال بالنسبة للمصادر الاجنبية • وهناك قدر من المصروفات النوعية من سلع او عمل وهذه يصعب تقدير

قيمتها بعد ما فصلتنا ءرزمنها القرون الطوال واذا كانت أبواب الصرف الرئيسية قد بقيت دون تغيير ما بقيت ملامح شخصية الامبراطورية ثابته ، فان المبالغ المدرجة تحت هذه الابواب كانت تختلف كثيراً من عهد امبراطور الى آخر تبعا لاختلاف أسلوبه في الحكم . ومع هذا كله فمن المحتمل ان تقرر انه باستثناء أيام أسرة باليولوجوس ١٢٦١ : ١٤٥٣م حينما كانت الأمبراطورية ظلاً باهتا لعظمتها السابقة وباستثناء بعض العهود الشاذة في تعاستها ، كانت ايرادات الدولة لا بد أن تزيد ــ واحيانا تزيد بكثرة ــ عن ١٠٠ مليون فرنك ذهبي . ولا تسعفنا المقارنة مع ميزانيات ملوك الغرب في العصور الوسطى اذ كان هؤلاء يحكمون دولا اقطاعية ولا يعرفون شيئا من معظم بنود الصرف المقررة لدى البيزنطيين وخاصة الصرف على جيش وجهاز من الموظفين . والميزانية الصالحة للمقارنة في هذا الصدد هي ميزانية خلفاء بغداد . **وتدل الوثائق التي نشرها فون كريمر أن الميزانية العباسية في عهد الرشيد وصلت الى رقم يصل الى ما أعطاه بابا ريجوبولوس Paparrigopoulos فهي ٥٣٠ مليون درهم مع استبعاد الضرائب النوعية وقد كانت اقاليم الدولة في عهد الرشيد أكثر امتداداً من ممتلكات الاباطرة ، كما يرى البعض أن النظام الاسلامي في الضرائب ربما كان أثقل على الرعية** ، ومع ذلك تبقى لهذه الارقام دلالتها في التقدير . وقد كان لممتلكات الامبراطورية البيزنطية التي تديرها بنفسها اهمية تفوق الاهمية الحالية لاملاك الدولة العامة ، وامتصت الخزانة عن طريق الضرائب نسبة من الدخل القومي تعد عالية اذا نظر اليها بالتقدير السائد قبل عام ١٩١٤م . **وربما جمع خلفاء بغداد ايرادات فاقت في فترة معينة ايرادات الاباطرة البيزنطيين ، لكن نظامهم المالي يتهم بالقسوة ــ على الاقل في بعض العهود ــ كما ان رخاءهم المالي لم يدم طويلا ، فقد بلغ ذروته في عهد الرشيد ثم اخذ يتناقص خلال القرن التاسع الميلادي حتى تدهور في القرن العاشر الميلادي . في حين استمر الدخل البيزنطي وفيرا طيلة قرون عدة ، مما يكشف عن كفاءة الاداة المالية البيزنطية** . واذا كان الاباطرة قد احتفظوا بالنظم الامبراطورية التي تلقوها عن اسلافهم فانهم قد ادخلوا عليها تحسينات تهدف الى جعل الضريبة محتملة وتسعى لحماية المالك الصغير . وفشل البلغار وغيرهم ممن غلبوا على اجزاء من أراضي الدولة البيزنطية في اعطاء رعاياهم ادارة أفضل ، وعانوا مصاعب مرهقة في جمع دخل يعد أصغر بكثير مما كانت تتسلمه أصغر ولاية بيزنطية دون كبير جهد ، وكانت نظمهم المالية

لا تجاوز مرحلة الطفولة . ويلاحظ اتجاه المالية البيزنطية ، المتزايد الى **استبدال الدفع عينا بالنقد** وكان للثروة الذهبيــة التى يملكها الامبراطور أهميتها فكــان القواد يتقاضــون رواتبهم بالنقد . فاحتفظت الدولة المركزية بسيطرتها وكان نقدها المتوفر قابلا للزيادة لأن ملاك الارض يخضعون لضرائب تتغير قيمتها ولم تكن زيادة ثروة التاج تعنى ضرورة مصــادرة الأملاك أو الغــزو الخــارجى ، ومن هــذا أمكن ايجــاد جيش تطول مدة الخدمة فيه فيحسن تدريبه وتنظيمه ، وهكذا كان جهد الدولة مستمرا لا مجرد تشــنج وقتى تدفع اليه الظروف . وكان الامر مختلفا عند الجرمان الغربيين ، اذ لا توجد ضريبة مباشرة على الارض ، فكان الملك مضطر الى ان يعتمد على دخله ليقوم بمصاريف البلاط ، ولم تكن رواتب موظفى التاج تؤدى نقدا بل على صورة منح من الارض . ولم يكن مثل هؤلاء يدفعون الضريبة المباشرة التى كانت تفرض لتواجه حاجات الدولة أولا بأول لكنهم كانوا يجبرون فقط على القيــام بخدمات معينة ، الا أن تعويض الموظفين عن أعمالهم بمنح من الارض أوجد علاقة دائمة بين الارض ومن منحت له ، وكانت النتيجة الطبيعية أن أصبحت الحقوق التى يمارســها الموظف المقطع فى الارض وراثية ، بمــا أن الملك لم يكن يستطيع زيادة أراضيه حسب ارادته فقد كان عليه اما أن يفتقر أو يزيد أمواله بالفتح والمصادرة فحسب . فاذا ضعفت الدولة المركزية كف التابع عن تأييد الحاكم المطلق وربط نفسه بمصالح اقليمه المحلية ؟ ولم يكن هناك سبيل لاعادة السلطة المركزية سوى التدخل العسكرى .

وقد باشر **الادارة المالية البيزنطية** فى العاصمة أول الامر **وزير يشرف على الهيــات المقــدســة** Comes Sacrarum Largitiorum وهو ليس مجرد موزع لصدقات الامبراطور فقد أصــبحت ماليــة الامبراطور هى خزانة الدولة واضحى رئيس الهيئات المقدسة مسئولا عن مالية الامبراطورية بوجه عــام ، وكان هنــاك **وزير آخر يشرف على الاملاك الامبراطورية** Comes Rerum Privatorum التى تضخمت على حساب الحكام السابقين الذين صودرت أملاكهم أما بالنسبة لاقسام الامبراطورية **فكان أمــير لــواء امبراطورى** Praefectus Praetorius **يبيت ماله الخاص** الذى ينفق منه على مطالب الجيش . **وحين أعيد بناء النظام البيزنطى الجــديد بعد هجمات القــرن الســابع واصبحت الولايات اقساما عسكريه يحكمها قائد عســكرى ، انهدمت الوزارات المركزية الكبيرة وحل محلها عدد كبير من الدواوين لكل منها عمل خاص**

يكمل عمل الآخر ، وظهر وزير وحيد **للمالية** Sacellarius أصبح في القرن التاسع الميلادي يشرف على الوظائف التي تتعلق بالمالية أو ادارة موارد الدخل اشرافا عاما ومنظما ، وخفف هذا الى حد ما من اثر النقص الذي نتج عن عدم وجود ديوان مالي وحيد مركزي . وكان **سكان الولايات الثغرية** themata **يتحملون نفقات الجيوش القائمة فيها ،وكانت تجبى نقدا للخزينة المركزية** ، في حين انها كانت في الغرب تدفع عينا ، ويعلل هذا بأن معظم سكان الغرب كانوا زراعا صقالبة مشتغلين بالزراعة بينما كانت المدن التي يقوم اقتصادها على النقد منتشرة في المقاطعات الاغريقية الواقعة على الساحل ، وعندما حاولت الحكومة المركزية في القرن الثاني عشر الميلادي أن تدخل الى الغرب طريقة التعامل بالنقد المعمول بها في الولايات الثغرية الشرقية ثارت بلغاريا وانفصلت . وكانت الامبراطورية البيزنطية **تفضل استخدام الذهب على السيف في سياستها الخارجية** ، وتؤثر استغلال موارد الامبراطورية في كسب الحلفاء بين جيرانها ، اذ كانت اجهزة الدفاع تتطلب نفقات باهظة لبناء السفن وصناعة الاسلحة والمعدات ودفع تكاليف القوات الاحتياطية والجنود المرتزقة ، واذا قدر عدد الضباط بحوالى ٣١٢٠ فانه كان على الدولة أن تدفع لهم ٣٩٦٠ رطلا أو ــ ٢٧٦ر٨٠٠ر٤ فرنكا ذهبيا في السنة . وقد احتفظت العملة البيزنطية بنقائها ، وثبت النظام المالي البيزنطي رغم اسراف بعض الاباطرة ، ويقول جلزر Gelzer « لم تجد الحكومة الرومانية من عهد دقلديانوس الى عهد الكسيوس كومنينوس طوال فترة مدتها ٨٠٠ سنة نفسها في وضع يضطرها الى اشهار افلاسها أو التوقف عن الدفع ، ولا نجد في العالم القديم أو الحاضر شيئا يشبه هذه الظاهرة . لقد ضمن هذا الاستقرار العجيب في السياسة المالية الرومانية لبيزنطي عملته العالمية ــ فقد كانت مقبولة عند جميع الامم المتجاورة بسبب وزنها المضبوط كأساس ثابت التعامل ، واستطاعت بيزنطة أن تسيطر بنقودها على كلا العالمين المتحضر والبربري » (٢٣٩) .

وقد وصل الى المؤلفين المسلمين شيء عن النظم المالية البيزنطية ، فقد أورد ابن خرداذبة في ثنايا المعلومات التي قدمها عن بلاد الروم **« وخراج الروم مساحة على كل مائتي مدى ثلاثة دنانير في كل سنة ــ**

---

(٢٣٩) Runciman : Byz. C'v p. 41. Byzantium. pp. 72:85, 293 الامبراطورية البيزنطية ترجمة دكتور مؤنس وزايد ص ١٢٨ : ١٤٤ ، ١٤٨ : ١٥١ ، ١٥٥ ، ١٦٦ ، ١٦٩ ، ١٧٣ ، ١٧٥ : ٨ .

والمدى ثلاثة مكاكيك • ويؤخذ عشر الغلات فيصير فى الاهراء للجيوش ، ويؤخذ من اليهود والمجوس دينار فى السنه ، ويؤخذ من كل بيت يوقد فيه نار فى السنة ستة دراهم – (ضريبة الموقد التى جدت فى أيام آل كومنين وربما تكون قد حلت محل ضريبة القرن السادس المسماه أيركون: بينز ص ١٦١) – وثمار الروم تدرك فى السهل والجبل فى ايلول .. والعطاء مختلف : أكثره أربعون رطلا ذهبا ، الى ستة وثلاثين رطلا ، الى أربعة وعشرين رطلا ، الى اثنى عشر ، الى ستة أرطال ، الى رطل • واعطيات الجند ما بين ثمانية عشر دينارا الى اثنى عشر دينارا – هذا مرسوم لهم فى كل سنة ، وانما يعطون ذلك فى كل ثلاث سنين وربما كان فى اربع سنين وربما كان فى خمس سنين وربما كان فى ست سنين عطاء واحدا • واكبر البطارقة خليفة الملك ووزيره ، ثم اللغثيط صاحب ديوان الخراج ، وصاحب عرض الكتب ، والحاجب ، وصاحب ديوان البريد ثم القاضى ، ثم صاحب الحرس ، ثم المرقب ••• قال العالم ببلاد الروم : أعطيات الرؤساء ما بين ثلاثة ارطال ذهب الى رطل ، والرطل تسعون مثقالا • وانما يقبض الروم فى ديوانها الغلمان المردان ، فياخذ الغلام فى السنة الاولى دينارا وفى الثانية دينارين وفى الثالثة ثلاثة دنانير – حتى يتم اثنتى عشرة سنة فياخذ اثنى عشر دينارا ... وليس للروم فى عساكرهم أسواق ، انما يحمل الرجل من منزله كعكه وزيته وخمره وجبنه » (٢٤٠) •

ونقل ياقوت : « وقال بعض الجلساء : سمعت المعتز بالله يقول لأحمد بن اسرائيل – يا أحمد كم خراج الروم ؟ فقال : يا أمير المؤمنين خرجنا مع جدك المعتصم فى غزاته ، فلما توسط بلد الروم صار الينا بسيل الخرشنى – وكان على خراج الروم – فسأله محمد بن عبد الملك عن مبلغ خراج بلدهم ؟ فقال : خمسمائة قنطار وكذا وكذا قنطارا ، فقال – حسبنا ذلك فاذا هو أقل من ثلاثة آلاف ألف دينار . فقال المعتصم : اكتب الى ملك الروم : انى سألت صاحبك عن خراج أرضك فذكر أنه كذا وكذا ، وأخس ناحية فى مملكتى خراجها أكثر من خراج أرضك ! قال – فضحك المعتز وقال : من يلومنى على حب أحمد بن اسرائيل ، ما سألته عن شىء الا أجابنى بقصته (٢٤١) •

وقد نقل ابن الفراء هذه القصة مفصلة لكنه ذكر أن ملك الروم لا رسول

---

(٢٤٠) ابن خرداذبة : المسالك والممالك ص ١١١ – ١١٢ •

(٢٤١) ياقوت : معجم البلدان ج ٤ ص ٣٢٠ – ١ ، المقدسي ، أحسن التقاسيم ص ٦٤.

الروم كان باسيل فيحين أن المعتصم كان معاصرا لتيوفيل ، أما باسيل هذا فقد عاصر المعتز والمهدي والمعتمد من بعد . وقد جرت هذه المناقشة مع رسول لملك الروم يحمل هدايا ويطلب افتداء مائة وخمسين بطريقا ، فاقبل عليه محمد بن عبد الملك الزيات فقال له : كم خراج بلدكم ؟ قال : أقل من مائة ألف دينار ، فقال محمد : هذا غلة بعض ضياع امير المؤمنين ، فقال الرسول : نحن أحزم واحكم في باب الخراج منكم ، أنتم تستخرجون من الناس مالا فتكسبون عداوتهم ، وتوغرون صدورهم ، ويسرق المال عمالكم ويعطون عليه الارزاق ، ثم يحمل من بلد الى آخر ، فيذهب ويتخرم في الطريق ، وتحتاجون ان يسلم الى خزنة وحراس ، ثم تخرجه الى رجالكم . **ونحن جعلنا خراجنا رجالا ،** فكفينا هذه المؤنة، وصيرنا هذاالمقدار الذي ذكرته لك رسما للخراج لئلا يبطل اسمه فأمنا عداوة الناس وحفظنا المال وكفينا ما أنتم فيه . قال المؤلف :فسكت محمد بن عبد الملك الزيات ، ولم يحر جوابا الى الرسول . وقد كان الجواب ممكنا والحجة متوجهة عليه والخطأ في القول لازما له : وذلك أن رجال الحرب بمثابة الجوارح التي لا يجوز أن تمرن بعمل من الاعمال، ولا مهنة من المهن غير اختطاف الارواح وصيد الرجال واعمال الحيلة في التسليم من اللقاء والكر والفر ، وفي الاقامة والتحيز . فلما صارت الروم أهل تناية وأصحاب فدان وزراعة ومهن وصناعة ، نشأ الابناء على ما عليه الآباء فركنوا الى الدعة وهابوا الحروب ، ونكصوا عن لقاء الاعداء وصيد الرجال ، وصاروا جمع العصا ، وخشوا الفلس، فحينئذ صار الرجل الواحد من المسلمين لايهاب لقاء الجمع الكثير من الروم ، وله تسلط عليهم واقتدار على تفريق جماعتهم . هذا مضاف الى ما وعد الله به في كتابه من النصر ... ثم صار الملك منهم لا تتعلق به رغبة ، اذ هو قليل المال نزر الجباية . فلما احست الروم بعدم الرغبة امتنعت من الخطار بأنفسها ، وقل من يعمل للاخرة منهم ، وانما تخاطر التماسا للمثوبة والجزاء ، وتحقق العلج منهم أنه اذا أسر وحصل في بلاد الاسلام ، يؤمر أو يقود ، ويعفى من كد التعب ودأب النصب ، ويصير بعد الذل عزيزا وبعد المهانة والذلة وادعا مكرما . وصار ما بأيدي الروم من الضياع والاقطاع كأنما هو كالملك لهم ، يرثه خلف عن سلف ، والحق **الذي لا يجب لغيره شيء فيه ، وان غير أو بدل على ما سننتهم الآن جارية** من البدل قائما ينقل من مشتى الى مصيف أو ربيع الى خريف ، **وصار الملك اذا دعته ضرورة الى انتزاع بعض ما في أيديهم كانوا العدو الحاضر المشارك في الدار ، غير المأمون الضرر والغوائل ، المطالب بالذحول**

والطوائل ، الواضح الفساد ، العديم الرشاد . فكيف صار أحكم من عمل المسلمين في الخراج ؟ وقد كنت أعرف عن الروم أن أخس الرتب والمنازل عندهم رتبة الكاتب ، وأن الشاكرى أجل رتبه منه ، حتى علمت الآن قلة احتياجهم الى من يحفظ الارتفاع ويحمل اعباء الملك ، وتساوى كافتهم في البلاده ، وعله المعلوم . **وعمرى ان بوائع الروم وأغراضهم ودواعيهم وأوطارهم أقل من نفقات المسلمين ودواعيهم ، ولو الزم ملك الروم من في بلاده من المؤن والمغارم ما يلزم في بلاد المسلمين ، لما قامت لهم قائمة ، ولا احتاجوا الى احد أمرين : أما اجتياح أموال رعاياهم التسلط على من يجاورهم ، وحيازة ما في ايديهم اليهم** .

والرومى اذا تجمل قطع الثوب الديباج الذى من عمل زوجته وابنته وأخته ، يقيم على لابسه عشرين سنة اذا صانه من البذلة ، ولا عهد للرومى بالشرب والعصب ، والمعلم ، والمذهب ، والمصنف ، والمنير ، ولا باستعمال الرومى والأصبهانى ولا برفيع التونى الذى يودع أنابيب الذهب والفضة ، هذا ما لا عهد لملوكهم به ــ فكيف لوضائعهم ؟ والملك منهم وغيره يتساويان في اللباس: انما هو الطلى الديباج والمسده وأوانيهم الذهب والفضة ، ولو ابتاع أحدهم قحفا خزفيا بمائة دينار يلحقه الصدع فلا يساوى درهما ، أو من مخروط البلور ورفيع المحفور ما اذا بات نديا من الماء أو النبيذ في غلافه تصدع وعادت القطعة التى تساوى ألف دينار بالنزر اليسير من الثمن . وكذلك الزجاج المحكم والقلب سليم وغرائب الصينى من الصحون البلق والمشمشى والسواد والزمردى والخافقيات الفائقات والرشيدى الشفاف وملح الطرائف ــ هذا مالا يتملكونه على الامر الاكثر ، انما يهدى اليهم ويسمعون بذكره . فأما الفروش عندهم فمن صنعتهم أيضا ــ انما هى الديباج والطنافس والقطف والبزيون ، فأما طميم القرقوبى ومذهب الدبيقى ورفيع الخسروانى فتفرد بملكه ملوك الاسلام . وأغذية الروم الشواء والصليق وأكثرها في صيدهم مما في مروجهم من الطير والدواب »(٢٤٢) . وقد أصاب ابن الفراء الحقيقة في أمور ، منها اشارته الى **خطر تحول افراد الجيش الى طبقة ارستقراطية مالكة** « فلما صارت الروم أهل تناية وأصحاب فدان وزراعة ومهن وصناعة ، نشأ الابناء على ما عليه الآباء فركنوا الى الدعة وهابوا الحروب .. » ، وكذلك اشارته الى **النزاع بين الاقطاع العسكرى والسلطة المركزية الامبراطورية** « وصار ما بأيدى الروم من الضياع واقطاع كأنما هو كالملك لهم ، يرثه خلف عن

(٢٤٢) ابن الفراء : رسل الملوك ص ٣٤ : ٨ .

سلف ، والحق الذى لا يجب لغيره شىء فيه ... وصار الملك اذا دعته ضرورة الى انتزاع بعض ما في ايديهم كانوا العدو الحاضر المشارك فى الدار ، غير المأمون الضرر والغوائل ... » ومعلومات ابن الفراء غير صحيحة بالنسبة لمستوى المعيشة عند البيزنطيين « ولعمرى أن نوازع الروم وأغراضهم ودواعيهم وأوطارهم أقل من نعمات المسلمين ودواعيهم ... » وان الصورة المسهبة التى قدمها لابراز تخلف البيزنطيين عن المسلمين فى فنون التمدن ومظاهر الترف فيها كثير من التجنى والمبالغة **عند المسلمين :**

اهتدى التنظيم المالى للدولة الاسلامية بسوابق النظم البيزنطية ، فقد روى الواقدى أن عمر استشار المسلمين فى تدوين الديوان ، فقال له على بن أبى طالب : تقسم كل سنة ماإجتمع اليك من مال ولا تمسك منه شيئا ، وقال عثمان : ارى مالا كثيرا يسع الناس وا نلم يحصوا حتى يعرفوا من اخذ ممن لم يأخذ حسبت ان ينتشر الامر فقال له الوليد بن هشام بن المغيرة : **قد جئت الشام فرأيت ملوكا قد دونوا ديوانا وجندوا جندا** فدون ديوانا وجند جندا ــ فاخذ بقوله فدعا عقيل بن أبى طالب ومخرمة بن نوفل وجبير بن مطعم وكانوا من نسابة قريش فقال : اكتبوا الناس على منازلهم • وقد ارجع أبو سفيان ــ الخبير بنظم الروم بحكم نشاطه التجارى فى الشام والحريص على النشاط الاقتصادى الفردى ــ هذا النظام الى أصله حين قال : اديوان مثل ديوان بنى الاصفر ؟ انك ان فرضت للناس اتكلوا على الديوان وتركوا التجارة ، فقال عمر : لا بد من هذا فقد كثر فىء المسلمين (٢٤٣) •

وقد احتفظ العرب بالكتاب اليونان والفرس فى أول عهدهم • ويرى فلهوزن أن عمر بن الخطاب منظم الدولة الاسلامية بعد الفتوحات « لم يكن مبدعا لنظام جديد لكن يرجع له الفضل فى أنه نحى قانون الغنائم العربى جانبا ، وانه أدخل الدولة بين الجيش وبين الامم المغلوبة فحمى الرعية بعض الحماية ، واستند الى تقوية الدولة ها ىالجيش معتمدا على الخراج الذى كانت تدفعه هذه الرعية » • ومهما يكن من شأن هذا الرأى فان الطابع المالى غلب على الادارة العربية ــ خاصة فى أول امرها ، وكان ديوان ادارة الدولة ديوان حساب كما يقول فلهوزن، بل ذهب (حتى) الى أن « الحكومة العربية الاقليمية فى دورها البدائى سواء فى الشام أو مصر أو العراق كانت حكومة عسكرية محضة ذات

(٢٤٣) البلاذرى : فتوح البلدان ص ٤٥٢ ، ٤٦٣ •

هدف مالى واضح » (٢٤٤) . على أن هذا لا يعنى أن الحكم الاسلامى فى الاقاليم المفتوحة كان خلوا من أهداف حضارية أو قيم انسانية ، وانما الذى يعنيه ان جهاز الادارة الاسلامية شغل فى أول نشأته بالضرورات المالية العاجلة المباشرة حتى تطور واستوعب شتى ضروب النشاط المالى للدولة .

ورواة التاريخ الاسلامى ينظرون عادة للحوادث الجسيمة والحروب والفتن ، ويعقبون باخبار الشعراء والكتاب والفقهاء ومن اليهم ، « وان الناظر الى تاريخ دول المشرق في موجز تاريخى جامع مثل الكامل لابن الاثير ليجد **أن المشكلة الرئيسية التى دار عليها تاريخ المشرق حتى نهاية العصر العباسى الاول هى مشكلة الحكم : من يحكم ومن لا يحكم ؟ وابتداء من خلافة الواثق تختفى مشكلة الحكم لتحل محلها المشكلة المالية** . فقد كانت الدولة فى حالة افلاس حقيقى من عهد المتوكل ، وعلى صخرة الازمة المالية تهاوى الخلفاء والوزراء والكتاب وعجز الجميع عن أن يجدوا لها حلا — وانتهى الامر بزوال الدولة كلها جملة !! وقد بدات المشكلة المالية من أول يوم قام فيه بنو العباس ، فقد تربعوا على امبراطورية واسعة تضم ولايات فسيحة — لكل منها طبيعة واحوال خاصة ، فكان لابد من وضع نظام ادارى وآخر مالى — ولم يوضع هذا ولا ذاك !! ومضت الايام والخليفة لا يعرف ما عنده وما ليس عنده ، والرعية لا تعرف ما عليها ، ولم يلحظ احد شيئا ما دامت الدولة فى سعودها والجباية وافية ، ولكن الانفاق كان دائما أكثر من الايراد ! وطلب الرشيد من أبى يوسف القاضى دستورا اداريا ماليا ، فوضع له مبحثا فقهيا لم ينتفع به الرشيد أو من جاء بعده . فلما جاء اليوم الذى وجد الخليفة فيه الخزانة خاوية بدأ فى مصادرة أموال النـاس ، ونظر الوزراء والكتاب الى المكوس والمغارم والمعاون يقتضونها من الناس قسر ، فثبطت الهمم وانحسرت الثروات ونزر الوارد الى بيت المال شيئا فشيئا حتى وصلت الدولة الى الافلاس . وبدات مأساة تصفية الدولة العباسية من القرن الرابع الهجرى والثروة الطبيعية لا تغنى شيئا اذا كان النظام فاسدا ، فقد كان ارتفاع الاهواز مضرب المثل ولكن سوء النظام وفساد الذمم هبطا بها الى هاوية الفقر ، وكانت مصر من أغنى بلاد دولة الاسلام

(٢٤٤) فلهوزن : تاريخ الدولة العربية ترجمة دكتور أبى ريدة ص ٣١ — ٣٢ ، حتى : تاريخ سورية جـ ٢ ترجمة دكتور اليازجى ص ٢٢ .

فى المشرق ولكنها أفلست تماما فى منتصف العصر الفاطمى بسبب سوء الادارة وفساد النظام ا لمالى » !! (٢٤٥) .

وفى حدود المادة التاريخية والفقهية التى نجدها عن النظام المالى الاسلامى وفى حدود ما يتصل بالثغور والعواصم بالذات ، نعرض للموارد فالمصارف المالية ، ثم نتناول الاقطاع بصفة خاصة ثم الادارة المالية والعملة .

(أ) الموارد المالية :

يذكر عادة أن أهم موارد بيت المال فى النظام الاسلامى هى : الزكاة، والخراج والجزية ، والفىء ، والغنيمة بجانب عدد من الموارد الاخرى . والزكاة انواع : زكاة الذهب والفضة ، وزكاة السوائم ، وزكاة الزروع والثمار ، وزكاة عروض التجارة ، وزكاة المعدن والركاز . والزكاة مورد عام فى الدولة الاسلامية كلها لارتباطه الوثيق بالدين وشريعته ، وليس فيه مجال للتميز بالنسبة للثغور والعواصم خاصة . اما الخراج والجزية فهما يتأســــسان فى احكامهما على الفتح ، وأما الفىء والغنيمة فهما يخلصان من الحرب — فهذه الموارد بالذات أوثق علاقة بالموضوع .

الخراج :

ان تحـديد الاصـطلاحات خاصــة فى النظم المالية أمر دقيق — **فالتمييز بين الجزية — ضريبة الرءوس ، وبين الخراج — ضريبة الارض من جهة والتمييز بين الغنيمة والفىء** من جهة أخرى يحتاجان الى متابعة دقيقة لمراحل التطور الفقهى والتاريخى . وأبو يوسف مثلا — وهو الذى عاصر الرشيد — لا يفرق فى احكامه بين الفىء والخراج فيقول « فأما الفىء يا أمير المؤمنين فهو الخراج عندنا — خراج الارض » . والخراج عنده يطلق على خراج الارض التى افتتحت عنوة او صلحا فهو يقول « والخراج ما افتتح عنوة مثل السـواد وغيره .. وايما قوم من أهل الشرك صالحهم الامام على أن ينزلوا على الحكم والقســم وان يؤدوا الخراج — فهم أهل ذمة وارضهم أرض خراج ، ويؤخذ منهم ما صولحوا عليه ويوفى لهم ولا يزاد عليهم » . ونص ابو يوسف ايضا على ان « سبيل ما يؤخذ من أهل الذمة جميعا وأهل الحرب ســبيل خراج » ، وكذلك ما يؤخذ من أهل الذمة جميعا من جزية رءوسهم وما يؤخذ من مواشى

(٢٤٥) دكتور مؤنس : فجر الأندلس ص ٥٣٣ : ٥ .

بنى تغلب فان ذلك كله سبيل الخراج » . وقال ابو حنيفة « لا يترك ذمى فى دار الاسلام بغير خراج رأسه » (٢٤٦) .

ومن هنا كان هناك مجال كبير فى النظام المالى الاسلامى للاجتهاد الفقهى والاستجابة للاحتياجات العملية ، **ويتسب الى عمر تقرير مبدأ أن ما وقع فى أيدى المحاربين من أموال منقولة واسرى حرب انما هو داخل فى الغنيمة وهو من نصيب المقاتلين — كما جرى الامر الى حين ، أما اراضى البلاد المفتوحة فليست كذلك اذ هى من حق جمهور المسلمين وهى فيئهم** . « وكان من المستحيل احداث تغيير هائل فى نظام التملك على أثر الفتح الاسلامى مباشرة — كما يقول فلهوزن — حتى لو لم يصب اهل الطبقات الدنيا اصابة كبيرة اذ لم يكونوا يملكون الارض بل يزرعونها لان العرب لم يكن فى وسعهم أن يقتسموا فيما بينهم نصف العالم ، ولا كانوا يستطيعون أن ينتشروا فى تلك الارض الواسعة لكى يزرعوها بل كان لابد لهم أن يتجمعوا فى معسكرات ان ارادوا المحافظة على سلطانهم .. وفوق هذا كان لابد للعرب أن يفكروا فى المستقبل ، فلو أن كل شىء قسم على الغوربين الفاتحين الحقيقيين لتبددت الغنيمة التى حصلوا عليها بالسرعة التى اغتنموها بها . **ولذلك اعتبرت الارض بمثابة راس مال ثابت واعيرت لملاكها الاصليين على أن يزرعوها ويؤتوا غلتها ، وهذه الغلة وحدها هى التى كانت نصيب العرب المحاربين ومن يرثهم من ذراريهم ، فهم لم يكن لهم رأس المال بل ما يخرج منه** . وعلى هذا النحو لم تكن المدن والقرى التى فتحت عنوة بأسوأ حالا فى الحقيقة من المدن التى سلمت صلحا ، وكذلك كان اسم الاتاوة فى الحالين واحدا غير أن الاتاوة فى الحال الثانية كانت تحدد فى شروط الصلح وكان لا يجوز تغييرها على الهوى . وهكذا نشأ التمايز بين الغنيمة والفىء .. وكانت غلة الارض تجبيها الدولة بوساطة موظفيها ، ثم هى لا تعطى الغلة الكاملة للمقاتلة او وارثيهم ، بل كانت تدفع اعطيات وارزاقا ثابتة — على حين يبقى ما يفضل عن ذلك فى بيت مال الدولة » . **فالارتباط وثيق اذن بين اختيار هذا النهج فى تأويل النصوص وتطبيقها وبين الضرورات العسكرية للدولة** ، اذ أن المسلمين حرصوا على دوام تفرغهم للجهاد وحفظ الثغور وربما كان من الصحيح فى عهد عمر المزعوم صدوره من الخليفة لاهل الشام أن يحافظ العرب على أنسابهم والا يقتنوا المزارع

---

(٢٤٦) أبو يوسف : الخراج ص ٢٣ ، ٥٩ ، ٦٣ ، ١٣٢ ، ١٣٤ .

«وألا يعملوا في الارض(٢٤٧)» وقد أورد أبويوسف أن المسلمين لما أكثروا على عمر أن يقسم فيهم الشام كما قسم الرسول خيبر قال لهم : اذن اترك من بعدكم من المسلمين لا شيء لهم !! وفي موضع آخر برر عمر وجهه نظره حينما نوقش في قسمة الارض « فتكلم قوم فيها وارادوا أن يقسم لهم حقوقهم ومافتحوا .. فقال له عبد الرحمن بن عوف : فما الرأى ، ما الارض والعلوج الا مما أفاء الله عليهم !! فقال عمر : ماهو الا كما تقول ــ ولست ارى ذلك ، والله **لا يفتح بعدى بلد فيكون فيه كبير نيل** ــ بل عسى أن يكون كلا على المسلمين . **فاذا قسمت ارض العراق بعلوجها وارض الشام بعلوجها ــ فما يسد به الثغور** ؟ وما يكون للذرية والارامل بهذا البلد وبغيره من أرض الشام والعراق ؟.. قالوا : فاستشر فلما اجتمعوا حمد الله واثنى عليه ، ثم قال : **ارايتم هذه الثغور لا بد لها من رجال يلزمونها ، ارايتم هذه المدن العظام ــ كالشام والجزيرة والكوفة والبصرة ومصر ــ لابد لها أن تشحن بالجيوش ، وادرار العطاء عليهم ، فمن أين يؤتى هؤلاء اذا قسمت الارضون والعلوج؟** فقالوا جميعا : الرأى رأيك ، فنعم ما قلت وما رأيت ، ان لم تشحن هذه الثغور وهذه المدن بالرجال وتجرى عليهم ما يتقوون به رجع أهل الكفر الى مدنهم .. » وهكذا مضت تلك القاعدة التى سجلها عمر فى التفرقة بين الاراضى المفتوحة وغنيمة العسكر ، وكتب عمر الى سعد حين افتتح العراق « فاذا أتاك كتابى هذا فانظر ما أجلب الناس عليك به الى العسكر من كراع ومال فاقسمه بين من حضر من المسلمين واترك الارضين والانهار لعمالها ليكون ذلك فى أعطيات المسلمين ، فانك ان قسمتها بين من حضر لم يكن لمن بعدهم شيء .. » . وقد زكى أبو يوسف رأى عمر فى تأويل نصوص الشرع « والذى رأى عمر من الامتناع عن قسمة الارضين بين من افتتحها عندما عرفه الله ما كان في كتابه من بيان ذلك ــ توفيقا من الله كان فيما صنع ، وفيه كانت الخيرة لجميع المسلمين . وفيما رآه من جمع خراج ذلك وقسمته بين المسلمين عموم النفع لجماعتهم ، لان هذا لو لم تكن موقوفا على الناس فى الاعطيات والارزاق لم تشحن الثغور ولم تقو الجيوش على السير فى الجهاد ، ولما امن رجوع اهل الكفر الى مدنهم اذا خلت من المقاتلة والمرتزقة ، والله أعلم بالخير حيث كان » . وعلى هذا أورد ابو يوسف حكمه فى الارض

(٢٤٧) فلهوزن : تاريخ الدولة العربية ترجمة دكتور أبى ريدة ص ٢٨ ، ٣٢ ، حتى : تاريخ سورية جـ ٢ ترجمة دكتور اليازجى ص ٢٠ ــ ١ ، العرب ترجمة نافع جـ ١ ص ٢٠٩ ؛ ٢١١ .

المفتوحة : « وايما أرض افتتحها الامام عنوة فقسمها بين الذين افتتحوها فان رأى أن ذلك افضل فهو فى سعة من ذلك — وهى أرض عشر ، وان لم ير قسمتها ورأى الصلاح فى اقرارها فى ايدى اهلها كما فعل عمر فى السواد فله ذلك — وهى ارض خراج وليس له أن يأخذها بعد ذلك منهم وهى ملك لهم يتوارثونها ويتبايعونها ويضع عليهم الخراج ولا يكلفوا من ذلك مالا يطيقون » • **وقد وضع أبو يوسف حد أرض العشر من أرض الخراج « فكل ارض اسلم اهلها عليها وهى من أرض العرب أو أرض العجم فهى لهم — وهى أرض عشر •• وايما دار من دور الاعاجم قد ظهر عليها الامام وتركها فى ايدى اهلها — فهى ارض خراج ، وان قسمها بين الذين غنموها فهى أرض عشر •• وكل ارض من اراضى الاعاجم صالح عليها اهلها وصاروا ذمة فهى أرض خراج » (٢٤٨)** •

على أن الماوردى يبقى على التفرقة فى الحكم بين الارض المأخوذة عنوة والمأخوذة صلحا ويفرق فى الأرض التى جرى عليها الصلح بين ما جلا عنه أهله وبين ما أقاموا فيه وصولحوا على اقراره فى ايديهم « والأرضون كلها تنقسم أربعة أقسام : **أحدها ما استأنف المسلمون احياءه** فهو أرض عشر لا يجوز أن يوضع عليها خراج •

والقسم الثانى ما أسلم عليه أربابه فهم أحق به فتكون على مذهب الشافعى أرض عشر ولا يجوز أن يوضع عليها خراج ، وقال أبو حنيفة الامام مخيرين أن يجعلها خراجا أوعشرا فان جعلهاخراجا لم يجز أن تنقل الى العشر وان جعلها عشرا جاز أن تنقل الى الخراج •

والقسم الثالث ما ملك من المشركين عنوة أو قهرا فيكون على مذهب الشافعى غنيمة تقسم بين الغانمين وتكون أرض عشر لا يجوز أن يوضع عليها خراج ، وجعلها مالك وقفا على المسلمين بخراج يوضع عليها ، وقال أبو حنيفة يكون الامام مخيرا بين الأمرين •

والقسم الرابع ما صولح عليه المشركون من أرضهم فهى الارض المختصة بوضع الخراج عليها وهى على ضربين : **أحدهما ما جلا عنه أهله** حتى خلصت للمسلمين بغير قتال فتصير وقفا على مصالح المسلمين ، ويضرب عليها الخراج ويكون أجرة تقر على الابد وان لم يقدر بمدة لما فيهما من عموم المصلحة ، ولا يتغير باسلام ولا ذمة ، ولا يجوز بيع رقابها اعتبارا لحكم الوقوف •

(٢٤٨) أبو يوسف : الخراج ص ٢٤ : ٧ ، ٦٣ ، ٦٩ •

والضرب الثاني ما اقام فيه أهله وصـــولحوا على اقراره فى أيديهم بخراج يضرب عليهم فهذا على ضربين : **أحدهما أن ينزلوا عن ملكها لنـــا عند صلحنا** فتصير هذه الارض وقفا على المسلمين كالذى انجلى عنه أهله، ويكون الخراج المضروب عليهم أجرة لا تسقط باسلامهم ، ولا يجوز لهم بيع رقابها ، ويكونون أحق بها ما أقاموا على صلحهم ولا تنتزع من أيديهم سواء أقاموا على شركهم أو أسلموا ٠٠ ولا يسقط عنهم بهذا الخراج جزية رقابهم ان صاروا أهل ذمة مستوطنين ٠٠ والضرب الثانى أن يستبقوها على أملاكهم ولا ينزلوا عن رقابها ويصالحوا عنها بخراج يوضع عليهـــا فهذا الخراج جزية تؤخذ منهم ما أقاموا على شركهم وتسقط عنهم باسلامهم، ويجوز الا يؤخذ منهم جزية رقابهم ، ويجوز لهم بيع هذه الأرض على من شاءوا معهم أو من المسلمين أو من أهل الذمة : فان تبايعوها فيما بينهم كانت على حكمها فى الخراج وان بيعت على مسلم سقط عنه خراجها ، وان بيعت على ذمى احتمل الا يسقط عنه خراجها ٠٠ واحتمل أن يسقط عنـــه خراجها ٠٠ الخ » (٢٤٩) ٠ على أن الفقه الشافعى الذى لا يرتضى للأرض المفتوحة عنوة الا أن تقسم‌غنيمة بين الفاتحين لم يعدم تخريجا فقهيا لاتجاه عمر الى عدم القسمة ، فهو اما أن يكون قد جرى فى أرض أخذت صـــلحا أو يكون قد جرى بعد استطابة أنفس الفـــاتحين ان كان فى أرض فتحت عنوة « وهذا حلال للامام لو افتتح اليوم أرضا عنوة فاحصى من افتتحها، وطابوا نفسا عن حقوقهم منها أن يجعلها الامام وقفا ٠٠ » كما يقول الشافعى فى (الام) ، « **فالخلاصة أن أئمة الفقه الاسلامى وان اختلفوا فى التكييف القانونى لما قرره عمر وأمضاه فى أرض العنوة وفى التوفيق بين آيتى الفىء والغنيمة ، وما فعله الرسول مرة كتقسيم خيبر وتركه مرة أخرى كترك مكة وقرى بنى النضير وغيرها ٠ بالرغم من ذلك قد انتهوا الى أن الأراضى التى فتحها المسلمون فى عصر صدر الاسلام قد صارت (وقفا) أى ملكا للأمة الاسلامية كمجموع » (٢٥٠)** ٠

تركت الادارة الاسلامية اذن الأراضى المفتوحة فى أيدى أصحابهـــا الأصليين ، وعلى تتابع الايام **كان من أصحاب الارض من يعتنق الاســـلام** وهنا ثارت القضية الثانية من قضايا نظام الارض فى البـــلاد المفتوحة : « قال الواقدى : قال مالك وابن أبى ذئب : اذا أسلم كافر من أهـــل العنوة أقرت أرضه فى يده يعمرها ويؤدى الخراج عنها ـــ ولا اختلاف فى ذلك ٠ وقال مالك وابن أبى ذئب وسفيان الثورى وابن أبى ليلى عن الرجل

---

(٢٤٩) الماوردى : الاحكام السلطانية ص ١٣١ ـ ٢ ٠

(٢٥٠) دكتور الريس : الخراج فى الدولة الاسلامية ص ١١٤ : ١١٧ ٠

يسلم من أهل العنوة : الخراج في الارض والزكاة من الزرع بعد الخراج — وهو قول الاوزاعي • وقال أبو حنيفة وأصحابه : لا يجتمع الخراج والزكاة على رجل » (٢٥١) • على أنه قد تقدم رأى أبي يوسف أن كل أرض أسلم عليها أهلها وهي من أرض العرب أو أرض العجم « فهي لهم ، وهي أرض عشر » وقد واجه الأمويون مشكلة الوضع القانوني للارض الخراجية التي يتحول أصحابها الى الاسلام : فاذا خفضت الجزية والخراج بمقدار ما ينقص منها بسبب الدخول في الاسلام أضر ذلك ببيت المال ، واذا أخذ مبلغا اجماليا بالمقدار الذي كانا عليه أولا زاد العبء على الجماعة التي نقص أفرادها أثر اسلام بعضهم • فاذا هجر المسلمون الجدد — كما كان يحدث في العادة وربما في الغالب — قراهم ومزارعهم الى المدن التي كان يقطنها العرب كان هذا سببا في حرمان القرى من اليد العاملة • ولما كان هؤلاء يسعون الى الالتحاق بالجيش العربي ، فان عملهم هذا كان من شأنه أن يوقع بيت المال في خسارة مزدوجة : نقصان الخراج والجزية من جهة وزيادة العطاء من جهة أخرى •

وكان الالحاح على ملء الفجوة في صفوف المقاتلين بعد ما أريق من دماء في ثورة المختار — بالعراق — قد يفسح مجالا للمسلمين الجدد القادمين من القرى والرساتيق ، وهكذا تفقد مدن الجيش والحكومة طابعها العربي المميز • ولم تكن هذه المشكلة قد ظهرت في عهد عمر بن الخطاب لأن الدخول في الاسلام لم يبلغ حد تهديد بيت المال ، كما كان بيت المال يفيض بالغنائم ولا تزدحم عليه النفقات ، أما في الجيل الثاني خصوصا في عهد الأمويين فقد تغيرت الأحوال• ويروى أن الحجاج كان أول من قرر تغيير النظام الموروث لكي يقاوم النقص الذي لحق بيت المال ، **فلم يعف العرب الذين تملكوا أرضا من أرض الخراج من أن يدفعوا ما عليهم منها ، وفرض الخراج من جديد على قوم كان في ذلك الحين موضوعا عنهم ولابد أنه عامل المسلمين الجدد — من غير العرب — الذين بقوا في قراهم واحتفظوا بأراضيهم من حيث ما يجب عليهم من خراج بمثل ما عامل به العرب ، ولكنه حرم عليهم الهجرة الى الحواضر** ، وكان في بعض الأحيان يعيدهم الى قراهم بالقوة • ولقى ذلك سخطا بالطبع ، وواجه عمر بن عبد العزيز التقي الورع المشكلة » فاستنبط من السنة السابقة **أن أرض الخراج يجب أن تكون ملكا للمسلمين جميعا أولا ، ثم هي بعد ذلك لأهل القرى الذين**

(٢٥١) البلاذري : فتوح البلدان ص ٤٥٢ •

تركها لهم المسلمون مقابل خراجها بحيث لا يصح أن تقتطع أجزاء منها وتعتبر بسبب انتقالها الى أيدى المسلمين ملكا خاصا يعفى من الخراج • وتبعـــا لذلك أعلن عمر بن عبد العزيز أن بيع أرض الخراج على العرب والمسلمين غير جائز اعتبارا من سنة مائة للهجرة •

ولكنه لم يجعل لهذا المنع أثرا رجعيا ، أما اذا دخل المالك الملزم بدفع الجزية فى الاسلام فالظاهر أن عمر قرر رجوع ممتلكاته الى أهل القرية التى هو منها ، وكان المالك يستطيع بعد ذلك أن يبقى فيها متقبلا لها ـ وليست القبالة خراجا ـ كما كان يستطيع أن يرحل الى العواصم خلافا لما جرى عليه الحجاج •• وكان تحريم انتقال ملكية أرض الخراج اجراء تشريعيا جديدا له أعمق الأثر ، ولكنه كان يستند على كل حال الى الفـكرة الاصلية فيما يتعلق بأرض الخراج ، وكان نتيجة للمبدأ الذى عمل به فى أيام الفتح وهو أن الأرض لم تعتبر غنيمـة بل بقيت دون تقسيم •• ولم يسـتطع عمر ابن عبد العزيز أن ينفذ سياسته •• فان الاضرار ببيت المـال صر شيئا لا يمكن تفاديه نظرا للطريقة التى حاول بها ما أراد •

ولم يمكن العمل بمبدأ عدم انتقال ملكية أرض الخراج ، ولم يمكن ايقاف انتقال الممتلكات كما لم يكن ايقاف تغيير الدين • ثم عاد الحال فيما بعد الى العمل بما كان قد جرى عليه الحجاج لكن مع تعديل •• ذلك أنه ظهرت تفرقة بين الخراج والجزية لم تكن موجودة من قبل : **فاعتبرت الجزية متعلقة بالشخص فلا تقع الا على غير المسلمين وكانت تسقط عن رؤوسهم اذا دخلوا فى الاسلام ، أما الخراج فصـــار يعتبر متعلقا بالأرض المزروعة كما اعتبر انه لا يشين الشخص ، ويجوز بل يجب أن يدفعه المسلمون أيضا اذا كانوا يملكون أرض خراج** • ولما كانت الأرض المنزرعة هى أهم ما يدفع عنه الخراج ، فان اسقاط الجزية عن الداخلين فى الاسلام لم يكن فى الحقيقة من جانب بيت المال تضحية كبيرة • وهكذا أمكن ان يفى بيت المال بحاجة الدولة الاسلامية من غير مشقة ، وكان الأمر أمر تدقيق فقهى ، • وعلى هذا النحو أجيز أن يؤخذ الخراج ممن أسلم لا بحكم أنه جزية فى الأصل وانما بحكم ابقائه على الأرض باعتبارها من فىء المسلمين • ولم تكن هذه النتيجة التى وصل اليها التطور الفقهى من فعل عمر بن الخطاب • كما لم تكن تطبيقا لقاعدة تقضى بمنع الملكية الخاصة للأرض ـ كما ذهب فون كريمر وأوجست موللر اللذين رأيا فى اجراءات عمر بن عبد العزيز مجرد محـاولة للاقتـداء بعمر بن الخطـاب وغفـلا عن أن عمر لم يقـل قط ان الخراج يتعلق بالارض والجزية تتصل بالشخص ، كما ان الاسلام

لا يمكن ان يقال انه حرم ملكية الأرض تماما على العرب فى الامصار ، لأن الأرض كانت تنتقل لهم عن طريق الشراء وغيره (٢٥٢) ٠

نقل ابن عساكر « قال الوليد : وأخبرنى أبو عمرو وغيره : **أن عمر واصحاب رسول الله** أجمع رأيهم على اقرار ما كان بايديهم من أرضهم، يعمرونها ويؤدون منها خراجها الى المسلمين ، فمن أسلم منهم رفع عن راسه الخراج وصار ما كان فى يده من الأرض وداره بين أصحابه من أهل قريته يؤدون عنها ما كان يؤدى من خراجها ، ويسلمون له ما له ورقيقه وحيوانه ، وفرضوا له فى ديوان المسلمين له ما لهم وعليه ما عليهم ٠ ولا يرون أنه وان أسلم أولى بما كان فى يديه من أرضه من اصحابه وأهل بيته وقرابته ـ لا يجعلونها صافية للمسلمين ، وسموا من ثبت منهم على دينه وقريته ذمة للمسلمين ٠ ويرون أنه لا يصلح لأحد من المسلمين شرى ما فى أيديهم من الأرضين كرها ، لما احتجوا به على المسلمين من أن امساكهم كان عن قتالهم وتركهم مظاهرة عدوهم من الروم عليهم ٠ فهاب لذلك أصحاب رسول الله وولاة الأمر قسمهم وأخذ ما كان فى أيديهم من تلك الارضين ٠٠ قالوا : وكرهوا شراءها منهم طوعا بما كان من ايقاف عمر وأصحابه الأرضين محبوسة على آخر هذه الأمة من المسلمين المجاهدين لاتباع ولا تورث ـ قوة على جهاد من لم يظهروا عليه بعد من المشركين ، ولما الزموه أنفسهم من اقامة فريضة الجهاد ٠٠ فسأل الناس **عبد الملك والوليد وسليمان** قطائع من أرض القرى التى بايدى أهل الذمة ، فأبوا عليهم ٠ ثم سألوهم أن يأذنوا لهم فى شرى الارضين من أهل الذمة ، فأذنوا لهم ـ على ادخال اثمانها بيت المال وتقوية أهل الخراج به على خراج سنتهم مع ما ضعفوا عن أدائه ٠ وأوقفوا ذلك فى الدواوين ووضعوا خراج تلك الارضين عمن باعها منهم وعن أهل قراهم وصيروها لمن اشتراها يؤدى العشر ـ يبيعون ويمهرون ويورثون ٠٠٠ قال : واعرض **عمر بن عبد العزيز** عن تلك الاشرية بالاذن لأهلها فيها ، لاختلاط الأمور فيها لما وقع فيها من المواريث ومهور النساء وقضاء الديون ـ فلم يقدر على تخليصه و لامعرفة ذلك ٠ قال : وأعرض عن الاشرية التى اشتراها المسلمون بغير اذن ولاة الأمر ، لما وقع فى ذلك من المواريث واختلاط الأمر٠ **وجعل الاشرية وغير الاشرية سواء ، وامضاه لاهله ولمن كان فى يده**

(٢٥٢) فلهوزن : تاريخ الدولة العربية ترجمة دكتور أبى ريدة ص ٢٦٣ : ٢٨٣ ، أيضا، حتى : تاريخ سورية جـ ٢ ترجمة دكتور اليازجى ص ٨٥ ـ ٦ ، تاريخ العرب : ترجمة نافع جـ ١ ص ٢٧١ ـ ٢ ، دكتور ماجد : التاريخ السياسى للدولة العربية، جـ ٢ ص ٢٦٢ : ٤

كالقطائع للأرض عشرا ليس عليها ولا على من صارت اليه بميراث أو شراء جزية • قالوا : وكتب بذلك كتابا قرئ على الناس في سنة مائة : واعلمهم انه لا جزية عليها وانها ارض عشر ، وكتب ان من اشترى شيئا بعد سنة مائة فان بيعه مردود وسمى سنة مائة المدة – فسماها المسلمون بعده المدة• فامضى ذلك فى بقيـة ولايته ، ثم أمضـاه يزيد وهشام أبنا عبد الملك – فتناهى الناس عن شرائها بعد سنة مائة بسنيات ، ثم اشتروا أشرية كثيرة كانت بايدى أهلها يؤدون العشر ولا جزية عليها • فلمـا أفضى الأمر الى ابى جعفر عبد الله بن محمد أمير المؤمنين رفعت اليه تلك الاشرية ، وانها تؤدى العشر ولا جزية عليها وان ذلك أضر بالخراج وكسره ، فاراد ردها الى أهلها ، وقيل له : قد وقعت فى المواريث والمهور واختلط أمرهـا • فبعث المعدلين الى كور الشام سنة اربعين أو احدى واربعين : منهم عبد الله ابن يزيد الى حمص واسماعيل بن عياش الى بعلبك – فى أشـباه لهم ، فعدلوا تلك الأشرية على من هي بيده شرى أو ميراث او مهر ، وعدلوا مابقى بارض الانباط من بقية الأرض على تعديل مسمى• ولم تعدل الغوطة فى تلك السنة ، وكان من كان بيده شيء من تلك الاشرية من أهل الغوطة يؤدى العشر حتى بعث أمير المؤمنين عبد الله بن محمد : هضاب بن طوق ومحرز ابن زريق – فعدلوا الاشرية ، وامرهم الا يضعوا على شيء من القطـائع القديمة ولا الاشرية خراجا وان يمضوها لاهلها عشرية ، ويضعوا الخراج على ما بقى منها بارض الانباط وعلى الاشرية المحدثة من بعد سنة مائة الى السنة التى عدل فيها » (٢٥٣) وأورد البلاذرى : كان ابو اسحق الفزارى يكره شرى الأرض بالثغر ، ويقول : غلب عليه قوم فى بدى الامر وأجلوا الروم عنه ولم يقتسموه ، وصار الى غيرهم وقد دخلت فى هذا الامر شـبهة العاقل حقيق بتركها (٢٥٤) • على أن الطبرى أورد مثلا فى اخبار سنة ٢٤١ هـ أن المتوكل « جعل كورة شمشاط عشرا ، ونقلهم من الخراج الى العشر ، وأخرج لهم بذلك كتابا » بل يبدو أن المتوكل قد جعـل الثغور عامة عشرية بدل أن كانت خراجية ، فيروى البلاذرى « ولم تزل شمشاط خراجية حتى صيرها المتوكل عشرية اسوة غيرها من الثغور » (٢٥٥) •

وقد عرض الفقهاء لأبحاث فرعية فى أحكام الخراج ، منها مدى التزام أهل الخراج بحفر الانهار والمجارى الى أرضهم « قال أبو يوسف : واذا احتاج أهل السواد الى كرى أنهارهم العظام التى تأخذ من دجلة والفرات

---

(٢٥٣) ابن عساكر : تاريخ مدينة دمشق م ١ ص ٥٩٣ – ٧ •
(٢٥٤) البلاذرى : فتوح البلدان ص ١٧٩ •
(٢٥٥) الطبرى جـ ١١ ص ٥٢ البلاذرى : فتوح البلدان ص ١٩٢ •

كريت لهم ، وكانت النفقة من بيت المال ومن أهل الخراج ولا يحمل ذلك كله على أهل الخراج ، وأما الأنهار التى يجرونها الى أرضهم ومزارعهم وكرومهم ورطابهم وبساتينهم وما أشبه ذلك فكريها عليهم خاصة ليس على بيت المـال من ذلك شيء • فأما البثوق والمسـنيات والبريدات التى تكون فى دجلة والفرات وغيرهما من الانهار العظام فان النفقة على هذا كله من بيت المال لا يحمل على أهل الخراج من ذلك شيء - لآن مصلحة هذا على الامام خاصة لأنه أمر عام لجميع المسلمين فالنفقة عليه من بيت المال لأن عطـب الارضـيين من هـذا وشبهه وانمـا يدخـل الضرر من ذلك على الخراج » (٢٥٦) •

وقد ذكر البلاذرى أن بالس والقرى المنسوبة اليها فى حدها الأعلى والأوسط والأسفل كانت اعذاء عشرية - والعذى ما تسقيه السماء - وقد رتب أبوعبيدة ببالس عند الفتح جماعة من المقاتلة واسكنها قوما من العرب الذين كانوا بالشام فأسلموا بعد قدوم المسلمين الشام « فلما كان مسلمة ابن عبد الملك توجه غازيا للروم من نحو الثغور الجزرية عسكر ببالس فأتاه أهلها وأهل بوبلس وقاصرين وعابدين وهى قرى منسوبة اليها ، فأتاه أهل الحد الأعلى فسألوه جميعا أن يحفر لهم نهرا من الفرات يسـقى أرضهم على ان يجعلوا له الثلث من غلاتهم - بعد عشر السلطان الذى كان يأخذه ، ففعل • فحفر النهر المعروف بنهر مسلمة ، ووفوا له بالشرط •• ويقـال بل كان ابتـداء الفرض من مسلمة وانهـم دعاهم الى هـذه المعاملة » (٢٥٧) •

كذلك حرصت أحكام من الفقه الاسلامى على ضمان الزراعة فى الأراضى الخارجية على الدوام « وقال أبو الزناد ومالك وأبو حنيفة وسفيان ويعقوب وابن أبى ليلى وزفر ومحمد بن الحسن وبشر بن غياث : اذا عطل رجل أرضه قيل له ازرعها وأد خراجها ، والا فادفعها الى غيرك يزرعها فأما أرض العشر فانه لا يقال له فيها شيء ، ان زرع أخذت منه الصدقة وان أبى فهو أعلم • وقالوا : اذا عطل رجل أرضه سنتين ثم عمرها أدى خراجا واحدا ، وقال أبو شـمر : يؤدى الخراج للسـنتين • وقال أبو حنيفـة وسفيان ومالك وابن أبى ذئب وأبو عمرو الاوزاعى : اذا أصابت الغلات

(٢٥٦) أبو يوسف : الخراج ص ١١٠ •

(٢٥٧) البلاذرى : فتوح البلدان ص ١٥٧ ، الدكتوران يحيى الخشاب والعرينى : ضبط وتحقيق الالفاظ الاصطلاحية التاريخية بمفاتيح العلوم للخوارزمى • المجلة التاريخية المصرية م ٧ سنة ١٩٥٨ •

آفة أو غرق سقط الخراج عن صاحبها ٠٠وقال أبو يوسف فى أرض موات من أرض العنوة يحييها المسلم ــ انهـــا له ، وهى أرض خراج ان كانت تشرب من ماء الخراج ، فان استنبط لها عينا او سقاها من ماء الســماء فهى أرض عشر ٠ وقال بشر : هى أرض عشر شربت من ماء الخراج أو غيره » ٠

وعرض الفقهاء لحكم الارض الخراجية اذا تعددت زراعاتها فى العام الواحد : « قال مالك وابن أبى ذئب وسفيان وأبو حنيفة : اذا زرع الرجل أرضه الخراجية مرات فى السنة لم يؤخذ منه الا خراج واحد ، وقال ابن أبى ليلى : يؤخذ منه الخراج كلما أدركت له غلة ــ وهو قول بن أبى سبرة وأبى شمر ٠ »

واذا استغلت الأرض الخراجية فى البناء « قال أبو حنيفة والثورى فى أرض الخراج اذا بنى مسلم أو ذمى فيها بناء من حوانيت أو غيرها أنه لا شىء عليه ، فان جعلها بستانا الزم الخراج ٠ وقال مالك وابن أبى ذئب: نرى الزامه الخراج لأن انتفـــاعه كانتفاعه بالزرع ٠٠ وقال أبو حنيفة والثورى وأصحابهما ومالك وابن أبى ذئب والليث بن سعد فى أرض الخراج التى تنسب الى أحد : يقعـد المسلمون فيها فيتبايعون ويجعلونها سوقا : انه لا خراج عليهم فيها » (٢٥٨) ٠

***

والخراج قد يعنى به ايرادات الدولة بوجه عام من الخراج وغيره ، وهذا هو المعنى الذى يفهم حين تذكر قوائم الخراج للدولة الاسلامية ٠ وقوائم الخراج التى ذكرها المؤلفون العرب تنسب عهودهـــا لى العصر العباسى الأول وتقدم صورة عن الحالة المالية لولايات الدولة المختلفة :

١ ــ قائمة البلاذرى : وهى قائمة مجملة لوظائف أجناد الشام ٠

وظيفة الأردن	١٨٠٫٠٠٠ دينار
فلسطين	٣٥٠٫٠٠٠ دينار
دمشق	٤٠٠٫٠٠٠ دينار

حمص مع قنسرين وكور العواصم ٨٠٠٫٠٠٠ أو ٧٠٠٫٠٠٠ دينـار (٢٥٩) ٠

(٢٥٨) البلاذرى : فتوح البلدان ص ٤٥٢ ــ ٣ ٠

(٢٥٩) البلاذرى : فتوح البلدان ص ٢٠١ ــ ٢ ٠

٢ ـ **قائمة الجهشيارى :** ذكر الجهشيارى فى كتابه (الوزراء والكتاب) « وجدت فى كتاب عمله أبو الفضل محمد بن عبد الحميد الكاتب فى أخبار خلفاء بنى العباس ، بخط أبى الفضل يقول : أنفذ الى أبو القاسم جعفر بن محمد بن حفص رقعة انتسخها من دواوين الخراج ، ذكر فيها أن أبا الورد عمير بن مطرف الكاتب من أهل مرو وأنه كان يتقلد ديوان المشرق للمهدى وهو ولى عهد ثم كتب له فى خلافته وللموسى وهارون ، **وانه عمل فى أيام الرشيد تقديرا عرضه على يحيى بن خالد لما يحمل الى بيت المال بالحضرة من جميع النواحى من المال والأمتعة »** .

ونحن نورد من هذه القائمة ما يتعلق بأجناد الشام والجزيرة فحسب :

الموصل وما يليها ٢٤٫٠٠٠٫٠٠٠ درهم ـ من العروض العسل الأبيض ٢٠٫٠٠٠ رطل .

الجزيرة والديارات والفرات ٣٤٫٠٠٠٫٠٠٠ درهم

أذربيجان ٤٫٠٠٠٫٠٠٠ درهم

أرمينية ١٣٫٠٠٠٫٠٠٠ درهم

البسط المحفورة ٢٠ ، الرقم ٥٨٠ قطعة ، المالح المنبود (ماهى) ١٠٫٠٠٠ رطل ، الطريخ ١٠٫٠٠٠ رطل ، البزاة ٣٠ ، البغال ٢٠٠ .

قنسرين والعواصم ٤٩٠٫٠٠٠ دينار ـ ونقلها لى سترينج ٤٧٠٫٠٠٠

حمص ٣٢٠٫٠٠٠ دينار

الزبيب ألف راحلة ـ وقد تكون صحتها الزيت كما لاحظ لى سترينج

دمشق ٤٣٠٫٠٠٠ دينار

الأردن ٩٦٫٠٠٠ دينار

فلسطين ٣٢٠٫٠٠٠ دينار

ومن جميع أجناد الشام من الزبيب ٣٠٠٫٠٠٠ رطل .

وقد جمع لى سترينج خراج أجناد الشام الخمسة فبلغت ١٫٦١٦٫٠٠٠ دينار مع ملاحظة أنه أثبت خراج قنسرين والعواصم ٤٧٠٫٠٠٠ دينار فقط، وقد قدر هذا بما يعادل ٨٠٨٫٠٠٠ استرليني بقيمته الأصلية أو ٢٫٥ مليون بالعملة القائمة فى وقته (٢٦٠) .

(٢٦٠) الجهشيارى : الوزراء والكتاب ص ٢٠٥ : ٨ .
Le Strange Palestine under the Moslems. p. 45.

٣ ـ **قائمة ابن خلدون** : نقل ابن خلدون فى مقدمته أنه « وجد بخط احمد بن محمد بن عبد الحميد عمل بما يحمل الى بيت المال ببغـــداد أيام المامون من جميع النواحى نقلته من جراب الدولة .. » . ويشك لى سترينج فى نسبة هذه القائمة الى عهد المامون ، ويرجح أنها ترجع الى قبل ذلك بنصف قرن أيام جده المهدى بين سنة ١٥٨ ، وسنة ١٧٠ هـ كما يلاحظ اتفاقها فى معظم الحالات مع قائمة الجهشيارى وفيما يلى ما يتعلق بموضوعنا من القائمة :

الموصل وما اليهـا ٢٤٫٠٠٠٫٠٠٠ درهم ـ مرتين ... العســل الأبيض ٢٠٫٠٠٠٫٠٠٠ رطل .

أذربيجان ٤٫٠٠٠٫٠٠٠ درهم ـ مرتين

الجزيرة وما يليها من أعمال الفرات ٣٤٫٠٠٠٫٠٠٠ درهم مرتين

الرقيق ١٠٠٠ رأس ، العسل ١٢٫٠٠٠ زق ، البزاة ١٠ ، الاكسية ٢٠ .

ارمينية ١٣٫٠٠٠٫٠٠٠ درهم ـ مرتين

البسط المحفورة ٢٠ ، الرقم ٥٣٠ ، المالح ١٠٫٠٠٠ رطل ، الطريخ ١٠٠٠ رطل ، البغال ٢٠٠ ، البزاة ٣٠ الزيت ١٠٠٠ حمل

قنسرين	٤٠٠٫٠٠٠ دينار
دمشق	٤٢٠٫٠٠٠ دينار
الأردن	٩٧٫٠٠٠ دينار
فلسطين	٣١٠٫٠٠٠ دينار

من الزيت ٣٠٠٫٠٠٠ رطل

وهذه القائمة تفتقد بيان خراج جند حمص ، ومجموع خراج أجناد الشام على حالتها بالقائمة ١٫٢٢٧٫٠٠٠ دينار وقدرها لى سترينج بمـــا يعادل ٦٢٠٫٠٠٠ جنيه استرلينى بقيمته الاصلية أى أقل من ٢٫٠٠٠٫٠٠٠ بقيمته السائدة فى وقته (٢٦١) .

---

(٢٦١) ابن خلدون : المقدمة . طبعة دكتور وافى جـ ٢ ص ٥٠٠ : ٤ ،
Le Strange : Palestine under the Moslems. pp. 4!-5.

ويرى الدكتور الريس أن قائمة ابن خلدون « ليست لعصر المأمون وانما هي لعصر الرشيد ، بل الحقيقة كلها هي أن هذه القائمة ليست الا قائمة الجهشياري نفسها ، وان كان هناك اختلاف فمن خطأ النساخ » . ويستدل على ذلك بأن مصدري قائمتي الجهشياري وابن خلدون متحد الاسم عدا تحريف بسيط كما أن الديباجتين صيغتهما واحدة . ثم ان القائمتين متطابقتان فى أكثر الأرقام المذكورة ، ومنها أرقام الموصـــل وأذربيجان والجزيرة والفرات وأرمينية ــ وبوجه عام فى ٢٢ موضعا أما بقية الأقاليم ــ وهى الأقلية ــ فالنظر يرجع أن الاختلاف من تحريف النساخ : ففى قائمة الجهشياري خراج قنسرين ٤٩٠ر٠٠٠ دينار ، بينما هو فى قائمة ابن خلدون ٤٠٠ر٠٠٠ دينار ، **وقد ســـقط من قائمة ابن خلدون خراج حمص ، كما سقط خراج موقان وجيلان مع بقاء ذكر العروض (الغرائب العينية) الخاصة بها عند (الجزيرة والفرات) مع أنها لا تناسب هـــذا الاقليم** اذ ورد فيها « ومن الرقيق ألف رأس .. الخ » . كذلك يلاحظ أن نفس العروض والأمتعة واحدة فى القائمتين : الأنواع والمقادير بالضبط وذكر فى قائمة ابن خلدون أن خراج الري « اثنا عشر الف الف درهم » وهذا الرقم ان كان كذلك فى قائمة الجهشياري الا انه مقبول حين يرجع الى عهد الرشيد لكنه غير مقبول بالنسبة الى عصر المأمون ، اذ ذكر البلاذري والطبري أن المأمون اسقط من وظيفة الري ألفي ألف درهم ، ولذا نص ابن خرداذبة على أن خراجها « عشرة آلاف الف درهم » كذلك ورد بقائمة ابن خلدون ذكر خراج السند وافريقية ، وهاتان الولايتان استقلتا أيام المأمون ولم يذكرهما قدامة ولا بن خرداذبة ، وقد لاحظ ذلك فون كريمر ، ورد عليه جرجي زيدان مرجحا رأى ابن خلدون (٢٦٢) .

وعلق الدكتور مؤنس على ذلك بقوله « لا يظن أن بن خلدون معصوم من الوهم فى مســـائل المال والجبـــايات خاصـــة ، بل وربمـــا كان وهمه فى هذه الناحية من اقوى المآخذ على تاريخه .. وقائمته لا تخلو من مشاكل تجعل الاعتماد عليها أمرا عسيرا . مثال ذلك : انه يذكر كلمة مرتين بعد رقم الخراج ــ وأحيانا يذكر ثلاث مرات ، فهل المراد ان المبلغ كان يدفع على مرتين ــ كل دفعة نصف القيمة ، أم المراد أن المبلغ يؤدى مرتين ــ فتكون جباية النواحى ضعف الرقم المذكور ؟ .. والرأى ان المراد بلفظ مرتين أن القدر يحمل الى الخليفة مرتين فى موعدين مختلفين بدليل أنه يقول فى بعض الحالات مرة فقط ، وبذلك تتغير أرقام القائمة تماما .

(٢٦٢) دكتور الريس : الخراج فى الدولة الاسلامية ص ٤٢٧ : ٤٣١

ثم ان القائمة تهمل قيمة الأشياء الأخرى التى كانت ترسل مع الأموال مع أنها جزء لا يتجزأ من الخراج ، فقد كان بعضه يرسل مالا وبعضه يرسل عينا » (٢٦٣) .

وقد لاحظ الدكتور الريس بعض ملاحظات حسابية بالنسبة لاحصاء مجموع الدراهم فى قائمة الجهشيارى وقد خرج بأن مجموع الخراج هـو ٤٩٠ر٣٧٠ر٠٠٠ درهما علاوة على أثمان الامتعة والعروض . (٢٦٤)

٤ ـ **قائمة قدامة** : وتمثل الحالة المالية للدولة فى خلال الربع الأول من القرن الثالث ابتداء من سنة ٢٠٤ هـ ، لأن هذه « أول سنة يوجد حسابها فى الدواوين بالحضرة » اذ ان الدواوين كانت أحرقت فى أيام الفتنة بين الامين والمامون ، فالقائمة تبين الخراج فى عصر المامون وأوائل عهد المعتصم ، ويبدو أنها اعتمدت على قوائم رسمية . ومما جاء فى هذه القائمة :

ارتفاع أعمال الموصل فى المتوسط ٦ر٣٠٠ر٠٠٠ درهم .

باقردى وبازبدى وقصبتاهمـا بجـزيرة ابن عمـر وباسـورين ٣ر٢٠٠ر٠٠٠ درهم .

ديار ربيعة وكورهـا بلد ونصـيبين ودارا ومَاردين ورأس العين والخابور وتل سنجار الخ ٤ر٦٣٥ر٠٠٠ درهم (٩ر٦٣٥ر٠٠٠ درهم) .

أرزن وميافارقين ٤ر١٠٠ر٠٠٠ درهم (٤ر٢٠٠ر٠٠٠ درهم)

طرون من أعمال ارمينية ١٠٠ر٠٠٠ درهم

ارمينية وكورها ٤ر٠٠٠ر٠٠٠ درهم

ديار مضر : الرها ، حران ، سروج ... الخ ٦ر٠٠٠ر٠٠٠ درهم .

أعمـال طريق الفرات : هيت ، عـانة ، الرحبة ، قرقيسـيا الخ ٢ر٩٠٠ر٠٠٠ درهم .

جند قنسرين والعواصم : حلب ، انطاكيـة ، منبج الخ ٣٦٠ر٠٠٠ دينار .

---

(٢٦٣) دكتور مؤنس : تعليق بها مش تاريخ التمدن الاسلامى لجرجى زيدان جـ ٢ ص ٥٦ : ٨ هامش .

(٢٦٤) دكتور الريس : الخراج فى الدولة الاسلامية ص ٤٣٣ : ٦

حمص	١١٨ر٠٠٠ دينار	(٢١٨ر٠٠٠ دينار)
دمشق	١١٠ر٠٠٠ دينار	
الأردن	١٠٩ر٠٠٠ دينار	
فلسطين	١٩٥ر٠٠٠ دينار	(٢٥٩ر٠٠٠ دينار)

وهناك **اختلافات بين القائمة التفصيلية التى اوردها قدامة ، ثم القائمة المجملة التى انهى بها بحثه** • **فخراج** ديار ربيعة مثلا مذكور على أنه ٤ر٦٣٥ر٠٠٠ درهم فى القائمة المفصلة وعند الاجمال ذكر أنه ٩ر٦٣٥ر٠٠٠ درهم ، كذلك ذكر ارتفاع اعمال حمص عند التفصيل على أنه ١١٨ر٠٠٠ دينار • واجمل على أنه ٢١٨ر٠٠٠ دينار وتكرر هذا بالنسبة لجند فلسطين ذكر فى التفصيل أنه ١٩٥ر٠٠٠ دينار وعند الاجمال ٢٥٩ر٠٠٠ • **وقد اخذ لى سترينج بماورد فى ثنايا البيان المفصل** • ويذكر قدامة « والذى بيناه فى مبالغ الارتفاعات فعلى التوسط، وما يرتفع بعض النواحى فى هذا الوقت وينقص البعض نقصانا لا تلتفت اليه ولا تعمل عليه ، لأنه انما عمل بقلة الضبط واضاعة الحزم ، والباقى الممنوع منه فهذه سبيله ايضا » • وقد جمع لى سترينج ارتفاع أجناد الشام فبلغ ٩٠٢ر٠٠٠ دينار أو ما يعادل ٤٥١ر٠٠٠ استرلينى بقيمته الأصلية أو ما يقرب من مليون وفق القيمة السائدة فى وقته (٢٦٥) •

وقد احصى الدكتور الريس المجموع الكلى للخراج بعد تحويل الدنانير الى دراهم ـ ويلاحظ انه يعتمد على الارقام الواردة فى قائمة قدامة الاجمالية ـ فبلغ ٣٩٣ر٢٣ر٣٥٠ درهم ، فاذا اضيفت اليه اثمان العروض والامتعة صار لا يقل عن ٤٠٠ر٠٠٠ر٠٠٠ درهم ـ ومعنى ذلك انه نقص ١٠٠ر٠٠٠ر٠٠٠ درهم عن عصر الرشيد (٢٦٦) •

٥ ـ قائمة بن خرداذبة : وهو من رجال القرن الثالث ، عاصر الواثق والمتوكل ثم المعتمد ، وقد تولى البريد بالجبال • ويستنتج دى خويه بأن ابن خرداذبة الف كتابه سنة ٢٣٢ هـ وهى آخر سنة من عهد الواثق ، وقد صرح ابن خرداذبة بأنه تلقى معلوماته عن الخراج من الفضل بن مروان ـ وهذا كان وزيرا للمعتصم ثم عزل ثم صار واليا على

(٢٦٥) قدامة : نبذ من كتاب الخراج ـ ملحق بالمسالك والممالك لا بن خرداذبة ص ٢٤٥ : ٢٥١ ، Le Strange : Palestine under the Moslems. pp. 45-6.

(٢٦٦) دكتور الريس : الخراج فى الدولة الاسلامية ص ٤٣٩ ـ ٤٤٠ .

ديوان الخراج للواثق ، ثم اعفى سنة ٢٣٣ هـ . فالقائمة قريبة العهد بقائمة قدامة وتشابههما كبير :

أذربيجان	٢ر٠٠٠ر٠٠٠ درهم	حمص	٣٤٠ر٠٠٠ دينار
الموصل	٤ر٠٠٠ر٠٠٠ درهم	قنسرين	٤٠٠ر٠٠٠ دينار
ديار مضر	٥ر٦٠٠ر٠٠٠ درهم	دمشق	٤٠٠ر٠٠٠ دينار
ديار ربيعة	٧ر٧٠٠ر٠٠٠ درهم	الأردن	٣٥٠ر٠٠٠ دينار
ارمينية	٤ر٠٠٠ر٠٠٠ درهم	فلسطين	٥٠٠ر٠٠٠ دينار

وقد جمع لى سترينج خراج أجناد الشام فكان ١ر١٩٠ر٠٠٠ دينار أو حوالى ١ر٠٠٠ر٠٠٠ استرلينى فى قيمته الأصلية ويعادل ثلاثة ملايين تقريبا بقيمة العملة فى عهده (٢٦٧) .

وقد قدر الدكتور الريس مجموع قائمة ابن خرداذبة فكان الناتج ٣٣٤ر٨٥٥ر٨٤٠ فكأنها تفرق عن قائمة قدامة نحو ٥٩ مليونا . ولكن يلاحظ أن ابن خرداذبة أغفل ذكر ارقام الخراج لبعض البلدان ولم يقدم قائمة مرتبة مسلسلة ، بل كان يتناول الخراج عرضا فى ثنايا حديثه عن وصف الطرق وعدد الأميال (٢٦٨) .

وقد نقل ابن خرداذبة بجانب الارقام التى أوردها أرقاما أخرى نقلها عن الاصبهانى الذى برز فى بداية القرن ٩ م وهى :

حمص ١٨٠ر٠٠٠ دينار ، دمشق ١٤٠ر٠٠٠ ، الأردن ١٧٥ر٠٠٠ ، فلسطين ١٧٥ر٠٠٠ ، وهذا يجعل المجموع ٦٧٠ر٠٠٠ دينار ويقدرها لى سترينج بما يعادل ٢٣٥ر٠٠٠ استرلينى بقيمته الأصلية أو حوالى مليون بالقيمة السائدة فى وقته (٢٦٩) .

٦ - **قوائم أخرى :** ذكر **اليعقوبى** أن خراج حمص ٢٢٠ر٠٠٠ دينار ، دمشق سوى الضياع ٣٠٠ر٠٠٠ دينار ، والأردن سوى الضياع ١٠٠ر٠٠٠ دينار ، وفلسطين سوى الضياع ٣٠٠ر٠٠٠ دينار ، فيكون

---

(٢٦٧) ابن خرداذبة : المسالك والممالك ص ٧٣ - ٦ ، ٩٤ ، ٩٥ ، ١٢١ ، ١٢٤ ، ايضا المقدسى : أحسن التقاسيم ص ١٨٩ ،

Le-Strange: Palestine under the Moslemsp. 46

(٢٦٨) دكتور الريس : الخراج فى الدولة الاسلامية ص ٤٤٦ .

(٢٦٩) ابن خرداذبة : المسالك والممالك ص ٧٤ : ٧ هامش .

Le Strange : Palestine under the Moslems p. 46-7.

المجموع ٩٢٠٠٠٠ر ٩٢٠ دينار ٠ ويقدرها لى سترينج بما يعادل ٤٦٠٠٠٠ر ٤٦٠ استرلينى بقيمته الأصلية أو مايقل عن مليون بالقيمة السائدة فى وقته (٢٧٠) ٠

وطبقا **لابن حوقل** يبلغ خراج الشام سنة ٢٩٦ هـ ، ٣٠٦ هـ بعد اسقاط رواتب الموظفين ٣٩٠٠٠٠ر ٣٩ درهم ، وقد قدره لى سترينج بـ ٣٠٠٠٠٠ر ١ استرلينى بالقيمة الاصلية أو حوالى أربع ملايين بالقيمة السائدة فى وقته (٢٧١) ٠

وينقل **المقدسى** أرقام ابن الفقيه وابن خرداذبة ، وهو يورد بالنسبة لايامه هذه الأرقام :

قنسرين والعواصم : ٣٦٠٠٠٠ر ٣٦٠ دينار ، دمشق ٤٠٠٠٠٠ر ٤٠٠ دينار ونيف الأردن ١٧٠٠٠٠ر ١٧٠ دينار ، فلسطين ٢٥٩٠٠٠ر ٢٥٩ دينار ٠ والمجموع ١٨٩٠٠٠ر ١ دينار أو حوالى ٦٠٠٠٠٠ر ٦٠٠ ألف استرلينى كما يقدره لى سترينج حسب القيمة الاصلية وهو يعادل ٨٠٠٠٠٠ر ١ بالعملة السائدة فى وقته ٠ وبعد أيام المقدسى لا يبدو أمامنا تسجيل لخراج الشام ٠ وبعد قرن من زمانه اتى الصليبيون ، وحينما استعاد المسلمون البلاد بعد قرن آخر لم يسجل صلاح الدين وخلفاؤه خراج الشام (٢٧٢) ٠

ومما عرف فى نظام الخراج فى الدولة الاسلامية ما يسمى **بالايغار** — وقد وردت الاشارة له منذ أيام عبد الملك ابن مروان ٠ وهو كما جاء فى القاموس أن يوغر الملك الرجل الارض فيجعلها له من غير خراج ، أو هو أن يؤدى الخراج للسلطان الاكبر فرارا من العمال ٠ وذكر الخوارزمى : ان الايغار هو الحماية ، وذلك أن تحمى الضيعة أو القرية فلا يدخلها عامل ، ويوضع عليها شىء يؤدى فى السنة لبيت المال فى الحضرة أو فى بعض النواحى ٠ وفى لسان العرب : والايغار المستعمل فى باب الخراج قال ابن دريد لا احسبه عربيا صحيحا ، وقد يسمى ضمان الخراج ايغارا ، وقيل الايغار ان يسقط الخراج عن صاحبه فى بلد ويحول مثله الى بلد آخر فيكون ساقطا عن الاول وراجعا الى بيت المال ، وقيل سمى الايغار لانه يوغر صدور الذى يزاد عليهم خراج لا يلزمهم (٢٧٣) ٠ وروى البلاذرى

(٢٧٠) اليعقوبى : البلدان : ملحق بالاعلاق النفيسة لابن رستة ص ٣٢٥ ، ٣٢٧ ، ٣٢٨ ، ٣٢٩ ٠ Le Strange : Palestine under the Moslems ,p. 47.

(٢٧١) ابن حوقل : Le Strange : Palestine. p. 47.

(٢٧٢) المقدسى : احسن التقاسيم ص ١٨٩ Le Strange : Palestine. p. 47.

(٢٧٣) الدكتوران يحيى الخشاب والعريلى : ضبط وتحقيق الالفاظ الاصطلاحية التاريخية بمفاتيح العلوم للخوارزمى — المجلة التاريخية المصرية م ٧ سنة ١٩٥٨م ، دكتور الريس: الخراج فى الدولة الاسلامية ص ٢٥٠

فى نهاية كلامه عن الثغور الشامية ، وكانت بالثغر ايغارات قد تحيفت ما يرتفع من اعشاره حتى قصرت عن نفقاته ، فامر المتوكل سنة ٢٤٣ هـ بابطال تلك الايغارات فأبطلت ، (٢٧٤) ٠

الجزية :

هى الضريبة الموضوعة على الرؤوس وتفرض على غير المسلمين فى البلاد المفتوحة ، وذكر الماوردى انها تفترق عن الخراج من ثلاثة أوجه : فأحدها : ن الجـــزية نص وان الخـــراج اجتهاد ، والثـــانى أن أقل الجزية مقدر بالشرع وأكثرها مقدر بالاجتهاد ، والخراج أقله واكثره مقدر بالاجتهاد والثالث : **أن الجزية تؤخذ مع بقاء الكفر وتسقط بحدوث الاسلام والخراج يؤخذ مع الكفر والاسلام** ٠٠٠ فيجب على ولى الامر أن يضع الجزية على رقاب من دخل بالذمة من أهل الكتاب ليقروا بهـــا فى دار الاسلام ، ويلتزم لهم ببذلها حقان : أحدهما الكف عنهم والثانى الحماية لهم ليكونوا بالكف آمنين وبالحمـــاية محروسين ٠٠٠ والعـــرب فى أخذ الجزية كغيرهم ، وقال أبو حنيفة لا آخذها من العـــرب لئــلا يجرى عليهم صغار ٠ ولا تؤخذ من مرتد ولا دهرى ولا عابد وثن وأخذها أبو حنيفة من عبدة الاوثان اذا كانوا عجما ولم يأخذها منهم اذا كانوا عربا وأهل الكتاب هم اليهود والنصارى وكتابهم التوراة والانجيل ويجرى المجوس مجراهم فى أخذ الجزية منهم ٠٠٠ ولا تجب الجزية الا على الرجال الاحرار العقلاء ، ولا تجب على امرأة ولا صبى ولا مجنون ولا عبد لانهم اتباع وذرارى ٠٠٠ واختلف الفقهاء فى قدر الجزية : فذهب ابو حنيفة الى تصنيفهم ثلاثة أصناف ــ أغنياء يؤخذ منهم ٤٨ درهما واوساط يؤخذ منهم ٢٤ درهما ، وفقراء يؤخذمنهم ١٢ درهما٠٠٠وقال مالك لا يقدر اقلها ولا اكثرها وهى موكولة الى اجتهاد الولاة ، وذهب الشافعى الى أنها مقدرة الاقل بدينار وعنده غير مقدرة الاكثر ٠٠٠ فاذا اجتهد ــ الوالى ــ رأيه فى عقد الجزية معهم على مراضاة اولى الامر صارت لازمة لجميعهم ولاعقابهم قرنا بعد قرن ولا يجوز لوال بعده أن يغيره الى نقصان منه أو زيادة عليه ٠ فان صولحوا على مضاعفة الصدقة عليهم ضوعفت كما ضاعف عمر مع تنوخ وبهـــراء وبنى تغلب بالشام ٠٠٠ ويثبت الامام ما استقر من عقد الصلح معهم فى دواوين الامصار ليؤخذوا به اذا تركوه فان لكل قوم صلحا ربما خالف ما سواه ٠ ولا تجب الجزية عليهم فى السنة الا مرة واحدة (٢٧٥) ٠

(٢٧٤) البلاذرى : فتوح البلدان ص ١٧٩

(٢٧٥) الماوردى : الاحكام السلطانية ص ١٢٦ : ١٣٠

أما من الوجهة التاريخية فقد روى عن الأوزاعى : كانت الجزية فى بادىء الامر جريبا ودينارا على كل جمجمة ، ثم وضعهـا عمر على أهل الورق اربعين درهما • وجعلهم طبقات : لغنى الغنى واقلال المقل وتوسط المتوسط • وقد كتب عمر الى أمراء الاجناد الا يضعوا الجزية الا على من جرت أو مرت عليه المواسى ، وبجانب الجزية النقدية – كان « عليهم ارزاق المسلمين من الحنطة مديين وثلاثة اقساط زيت لكل انسان كل شهر – **من كان من اهل الشام واهل الجزيرة** ، ومن كان من اهل مصر أردب لكل انسان وكل شهر ، ومن الودك والعسل شىء لم نحفظه ، وعليهم من البز التى كان يكسوها امير المؤمنين الناس شىء لم نحفظه ، ويضيفون من نزل بهم من أهل الاسلام ثلاثة أيام وعلى أهل العراق خمسة عشر صاعا لكل انسان » •

ويروى ابن العـــديم من شرط عمر على أهل قنسرين « على الغنى ثمانية وأربعون ، وعلى الوسط أربعة وعشرون ، وعلى المدقع اثنا عشر ، يؤديها بصـغار ، وعلى مشاطرة المنـازل بينهم وبين المسلمين وأن يقروا ضيف المسلمين ثلاثا ••• فدخل فى هذا الصلح أهل الجزيرة • وقيل ذلك ما كان أبو عبيدة فارقهم على أربعة دراهم ، وعبادة ••• على أن يكون عمر الفارض عليهم اذا قدم بلادهم (٢٧٦) •

ونزول الجند على أهل البلاد وعيشهم على نفقتهم تقليد عسـكرى قديم ، فقد كان جند الرومان مثلا اذا انزلوا بلدا استحلوا دخول بيوته وأرغموا أهله على اطعامهم واطعام دوابهم وكانوا يسـمون ذلك ضيافة Hospitalitas وكان الجنود ينتهزون هذه الفرصة ويرهقون الاهالى بمطالبهم من الطعـام وما اليه • وقد حاول أباطرة الرومان ان يحددوا الضيافة بثلاثة أيام وبأنواع معينة من الطعام فلم يستطيعوا ان يحملوا الجند على ذلك • وعندما غزا الجرمان اراضى الدولة الرومانية استغلوا حق الضيافة وقاسـموا الاهلين أموالهم واملاكهـم على أسـاس الثلثين للجرمانى والثـلث للرومانى وظل ذلك عرفا مقررا للمحـاربين فى اوربا طوال العصــور الوسـطى وكان يعرف بحـق الايواء droite de gite أما فى المصطلح الاسلامى فيعرف **بالنزلة** ، ويشك فيما ورد عن عمر فى هذا الشأن ، وبعض الروايات المروية عنه •• تحدد النزالة بثلاثة أيام

---

(٢٧٦) البلاذرى : فتوح البلدان ص ١٣٠ – ١ ، ابن عساكر : تاريخ مدينة دمشق م ١ ص ٥٧١ ، ابن العديم : بغية الطلب – مخطوط ص ٣ – ٤ •

وتعفى الناس من تقديم أصناف معينة للجنود تيسيرا عليهم وحماية لهم من الجند ومثل هذه الاحكام قد وضعت في زمن متأخر (٢٧٧) .

وكما استجابت الاحكام الفقهية للضرورات العملية في شأن الخراج ، فقد حدث هذا أيضا بالنسبة للجزية . فان الظروف والمطالب السياسية والحربية قد جعلت المسلمين لا يعممون حكم الجزية على مختلف رعاياهم وخاصة من كانوا يسكنون على حدود الدولة البيزنطية . فقد أراد عمر مثلا ان يأخذ الجزية من **نصـــارى بنى تغلب** فانطلقوا هاربين الى أرض الروم ، فقال رجل لعمر : انشدك الله في بنى تغلب فانهم قوم من العرب نائفون من الجزية وهم **قوم شديدة نكايتهم فلا يغن عدوك عليك بهـم** ، « فارسل عمر في طلبهم فردهم ، واضعف عليهم الصدقة ... وقالوا : إما اذا لم تكن جزية كجزية الاعلاج فانا نرضى ونحفظ ديننـــا » . قال الواقدى « وقال سفيان الثورى والاوزاعى ومالك وابن ابى ليـــلى وابن ابى ذئب وابو حنيفة وأبو يوسف : يؤخذ من التغلبى ضعف ما يؤخذ من المسلم في أرضه وماشيته وماله . فاما الصـبى والمعتوه منهم : فان أهل العراق يرون ان يؤخذ ضعف الصدقة من أرضه ولا يأخذون من ماشيتهم شيئا ، قال أهل الحجاز : يؤخذ ذلك من ماشيته وارضه. وقالوا جميعا : ان سبيل ما يؤخذ من أموال بنى تغلب **سبيل مال الخراج لانه بدل من من الجزية** » . وقد راعى المسلمون الوضـــع الخاص لبعض الطوائف مثل **السامرة** « والسامرة يهود وهم صنفان : صنف يقال لهم الدســـتان ، وصنف يقال لهم الكوشان » . وعند الفتح روى أن أبا عبيدة « صالح السامرة بالاردن وفلســطين **وكانوا عيونا وادلاء للمســلمين** على جزية رءوسهم وأطعمهم ارضهم » . فلما كان يزيد ابن معاوية « وضع الخراج على أرض السامرة بالاردن وجعل على رأس كل امرىء منهم دينـــارين ، ووضع الخراج ايضا على ارضهم بفلسطين وجعل على رأس كل امرىء منهم خمسة دنانير ... قالوا : وكان بفلسطين في أول خلافة الرشيد طاعون جارف ربما أتى على جميع أهل البيت فخربت ارضوهم وتعطلت ، فوكل السلطان بها من عمرها وتألف الاكرة والمزارعين اليها ، فصارت ضياعا للخلافة وبها السامرة . فلما كانت سنة ٢٤٦ هـ رفع أهل قرية من تلك الضياع تدعى بيت ماما من كورة نابلس – وهم سامرة – يشكون ضعفهم وعجزهم عن اداء الخراج على خمسة دنانير ، فأمر المتوكل بردهم الى ثلاثة دنانير » . كذلك صالح حبيب بن مسلمة الفهرى **أهل الجرجومة** – على

(٢٧٧) دكتور مؤنس . تعليق بهامش تاريخ التمدن الاسلامي لجرجي زيدان جـ ٤ ص ١١٢ .

جبل اللكام — عند معدن الزاج فيما بين بيـــاس وبوقا » على أن يكونوا **اعوانا للمسلمين وعيونا ومسالح في جبل اللكام** ، والا يؤخذوا بالجزية وأن ينفلوا اسلاب من يقتلون من عدو المسلمين اذا حضروا معهم حربا في مغازيهم ودخل من كان في مدينتهم من تاجر واجير وتابع من الانبــاط وغيرهم واهل القرى في هذا الصلح » • وبعد أن حاربهم مســلمة ابن عبد الملك سـنة ٨٩ هـ اتفق معهم ايضـــا على أن « لا يؤخذ منهـــم ولا من أولادهم ونسائهم جزية ، وعلى ان يغزوا مع المســلمين فينفلون أسلاب من يقتلونه مبـــارزة ، وعلى أن يؤخـذ من تجـــاراتهم واموال موسريهم ما يؤخذ من المسلمين ••• وقد كان بعض العمال الزم الجراجمة بانطاكيـة جزية رءوسهـــم فرفعوا ذلك الى الواثق وهو خليفة فامر باسقاطها عنهم (٢٧٨) • وروى الواقدي في أخبار غزوة المسلمين المبكرة داخل الدروب التي اسماها مرج القبائل « ••• ثم ان خالدا قال : ايها الأمير — مخاطبا ابا عبيدة — ارسل معهم **ادلاء يعرفونهم الطريق ويكونون لهم عيونا على أعدائهم • فطلب لهم من أهل حلب من المعاهدين من يكون ناصحا لهم ، فاختاروا لهم اربعة — واعطاهم أبو عبيدة واحسن اليهـــم وطرح عنهم الجزية (٢٧٩)** • وقد جرى هذا النهج في معاملة الرعية غير المسلمين الذين يخدمون مطالب الدولة الحربية في كل مكان » وكتب عمر الى قواده بالكوفة ان يستعينوا بمن احتـــاجوا اليه من **الاساورة** ويرفعوا عنه الجزاء » (٢٨٠) •

وقد فرض المسلمون **جزية جمـاعية** في بعض الاحيان — فعلوا ذلك مثلا مع **قبرص** التي صالحها معاوية على الحياد بين المسلمين والروم سنة ٢٩ هـ « فصالحهم على سبعة آلاف ومائتي دينار يؤدونهـــا في كل عام ، وصالحهم الروم على مثل ذلك — فهم يؤدون خرجين ، واشترطوا الا يمنعهم المسلمون أداء الصـــلح الى الروم ، واشترط عليهم المســلمون ألا يقاتلوا عنهم من ارادهم من ورائهم وأن يؤذنوا المسلمين بسير عدوهم من الروم • فكان المسلمون اذا ركبوا البحر لم يعرضوا لهم ولم ينصرهم أهل قبرص ولم ينصروا عليهم ••• ثم لم يزل المسلمون يغزونهم حتى صالحهم معاوية في أيامه صلحا دائما على سبعة آلاف دينار ، وعلى النصيحة للمســـلمين وانذارهم عدوهم من الروم •• قالوا : وكان الوليد بن يزيد بن عبد الملك

---

(٢٧٨) البلاذري : فتوح البلدان ص ١٨٩ : ١٩١ ، ١٦٥ ، ١٦٦ ، ١٦٨ •
(٢٧٩) الواقدي : فتوح الشام جـ ٢ ص ٣٠ — ١ •
(٢٨٠) الطبري جـ ٤ ص ١٩٥ رواية السرى عن شعيب عن سيف •

أجلى منهم خلقا الى الشام لامراتهمهم به ، فانكر الناس ذلك فردهم يزيد ابن الوليد بن عبد الملك الى بلدهم ... عن الواقدى : لم يزل اهل قبرس على صلح معاوية حتى ولى عبد الملك بن مروان فزاد عليهم الف دينار ، فجرى ذلك الى خلافة عمر بن عبد العزيز فحطها عنهم ، ثم لما ولى هشام ردها • فجــرى ذلك الى خلافة المنصـــورة فقـــال : نحن احق من أنصفهم » (٢٨١) •

وقد كان المسلمون يسمون ما يفرضونه على دولة أثر انتصاراتهم جزية ففى سنة ١٦٥ هـ غزا هارون الروم فى خلافة ابيـه المهــدى فعقد صـلحا مع ملـكتهم « والذى وقع عليـه الصـلح بينـه وبينهـا تسعون او سبعون الف دينار تؤديها فى نيسان الأول فى كل سنة وفى حزيران ... ووجهت معه رسولا الى المهدى بما بذلت على أن تؤدى ما تيسر من الذهب والفضة والعرض•وكتبوا كتاب الهدنة الى ثلاث سنين ، وفى سنة ١٨٦ قدمت الروم بالجزية معها » وذلكفيما قيل ٦٤٠٠٠ دينار عدد الرومية ، ٢٥٠٠ دينار عربية ، ٣٠٠٠٠رطل مرعزى » • وقد حاول نقفور التحلل من هذا الصلح سـنة ١٨٧ هـ فقاتله الرشـيد ، « فطلب نقفور الموادعة على خراج يؤديه فى كل سنة » • وعلى أثر انتصار الرشيد فى هرقلة سنة ١٩٠ « بعث نقفور الى الرشيد بالخراج والجزية عن راسه وولى عهده وبطارقته وسائر أهل بيته : خمسين الف دينار ــ منهـــا عن رأسه اربعة دنانير وعن راس استبراق دينارين » • كما ارسل نقفور الى الرشـيد على سبيل الهدية « وقردراهم اسـلامية على برذون كميت كان مبلغه خمسين الف درهم ، ومائة ثوب ديبـــاج ، ومائتى ثوب بزيون ، واثنى عشر بازيا ، واربعة اكلب من كلاب الصيد ، وثلاثة براذين » ، واشترط الرشيد أن يحمل نقفور ثلثمائة الف دينـــار (٢٨٢) • وقد اسمى الدكتور حميد الله الحيدر ابادى الدول التى يعقد معها المسلمون مثل هذه المعاهدات بالدول المستقلة التابعة أو الدول المستقلة التى تدفع الجزية Tributary Independant States (٢٨٣)

موارد أخرى :

ومن أهم الموارد الأخرى للدولة الاسلامية : **العشور وهى الرسوم التى تؤخذ على اموال وعروض تجارة أهل الحرب وأهل الذمة المارين**

(٢٨١) البلاذرى : فتوح البلدان ص ١٦٠ ــ ١ •
(٢٨٢) الطبرى جـ ٩ ص ٣٤٧ ، جـ ١٠ ص ٢ ، ٩٢ ، ٩٩ •
(٢٨٣) Hamidullah : Muslim Conduct of State. p. 99.

بهـا على ثغور الاسـلام ، (٢٨٤) والمكوس : ضرائب تؤخـذ من التجار في المراصد التي تقام خصيصا لهذا الغرض • فقد كتب أبو موسى الاشعري الى عمر : ان تجارا من قبلنا من المسلمين يأتون أرض الحرب فيأخذون منهم العشر ، فكتب اليه عمر : خذ أنت منهم كما يأخذون من تجار المسلمين وخذ من أهـل الذمة نصف العشر ومن المسـلمين من كل اربعين درهما ـ درهما ـ وليس فيمـا دون المائتين شيء •• **وكتب أهل منبج ـ قوم من اهل الحرب وراء البحر ـ الى عمر : دعنا ندخل أرضك تجارا وتعشرنا ، فشاور عمر اصحاب الرسول فاشاروا عليه به ـ فكانوا أول من عشر من أهل الحرب** • وبعث عمر زياد بن حدير الاسـدي على عشور العراق والشـام فمد حبلا على الفرات فمر عليه رجل من تغلب فأخذ منه ، ثم انطلق فلما رجع مر عليه فاراد ان يأخذ منه فقال : كلما مررت عليك تأخذ مني ؟ وشكى الى عمر ، فلما رجع وجد كتاب عمر قد سبق اليه « ومن مر عليك فاخذت منه صدقة فلا تأخذ منه شيئا الى مثل ذلك اليوم من قابل الا ان تجد فضـلا » • وهكذا وجد نظام العشـور والمكوس او الضرائب الجمركية « وقال أبو يوسف : فان عمر بن الخطاب وضع العشور ، فلا بأس باخذها اذا لم يتعد فيها على الناس ويؤخذ بأكثر مما يجب عليهم ـ **وكل ما اخذ من المسلمين من العشـور فسبيله سـبيل الصدقة ، وسبيل ما يؤخذ من اهل الذمة جميعا واهل الحرب فسـبيله سبيل الخراج** » • وقد لقيت العشور نفورا من الفقهاء ، ولعلهم كانوا أميل الى أن تترك التجارة حرة «Laisser passer» « عن ابن الزبير : **ان هذه المآصر والقناطر سحت لا يحل اخذها** ، وبعث عمالا الى اليمن ونهاهم أن يأخذوا من مأصرة او قنطرة أو طريق شيئا ••• وعن انس بن سيرين : أرادوا أن يستعملوني على عشور الابلة فأبيت•••العشور أخبث ما عمل عليه الناس (٢٨٥) • وقال الماوردي « واما أعشار الأموال المتنقلة في دار الاسلام من بلد الى بلد فمحرمة لا يبيحها شرع ولا يسوغها اجتهاد ، ولا هي من سياسات العدل ولا من قضايا النصـفة وقل ما تكون الا في البلاد الجائرة » (٢٨٦) • ومع ذلك فقد انتشرت مراصد المكوس تؤدي مهمتها المالية ـ والحربية ايضا فقد قال أبو يوسف « **وينبغي للامام أن تكون له مسالح على المواضـع التي تنفذ الى بلاد اهل الشرك في الطرق فيفتشون من مر بهم من التجار** : فمن كان معه سلاح اخذ منه ورد ، ومن

(٢٨٤) دكتور الريس : الخراج في الدولة الاسلامية ص ١٢٣ •
(٢٨٥) أبو يوسف : الخراج ص ١٣٤ : ٧ •
(٢٨٦) الماوردي : الاحكام السلطانية ص ١٨٣ •

كان معه رقيق رد ، ومن كانت معه كتب قرئت كتبه ــ فما كان من خبر من اخبار المسلمين قد كتب به اخذ الذى اصيب معه الكتاب وبعث به الى الامام ليرى فيه رأيه (٢٨٧) ٠ وكانت المكوس على البضـــائع الصادرة والواردة تؤخذ على **الحدود بين الشـــام والروم** ، وكثيرا ما كان الروم اذا قويت شوكتهم فى الشام يقيمون فى حلب رجلا منهـــم لاخذ مكس البضائع كما جرى فى القرن الرابع (٢٨٨) ٠

وكانت **غنائم الحرب** من موارد الدولة المالية ، فقد كانت الحملات تتتابع على بلاد الروم فتصيب احيانا غنائم كبيرة ، ومن ذلك ما اسفرت عنه حملة هارون ســـنة ١٦٥ هـ الى بلاد الروم من غنائم كبيرة ، وكان الذى أفاء الله على هارون الى أن اذعنت الروم بالجزية : ٥٦٤٣ رأسا ٠٠٠ ومما أفاء الله عليه من الدواب الذلل بأدواتها : ٢٠٠٠ر٢٠ دابة ، وذبح من البقر والغنم : ١٠٠ر١٠٠ رأس ــ وكانت المرتزقة سوى المطوعة وأهل الاسواق مائة الف ٠ وبيع البرذون بدرهم ، والبغل باقل منعشرة دراهم والدرع بأقل من درهم ، وعشرون سيفا بدرهم » ٠ وفى سنة ١٩٠ هـ ولى حميد بن معيوف سواحل بحر الشـام الى مصر فبلغ قبرس فهدم وحرق وسبى من أهلها ستة عشر الفا ، فاقدمهم الرافقة فتولى بيعهم ابو البحترى القاضى ــ فبلغ أسقف قبرس الفى دينـــار » وعلى أثر غزوة المعتصم بعمورية سنة ٢٢٣ هـ « اقبل الناس بالاسرى والسبى من كل وجه حتى امتلأ العسكر ، فمر المعتصم بسيل الترجمان ان يميز الأسرى ثم أمر المعتصم فوكل بالقاسم قواده : ووكل اشناس بما يخرج من ناحيته وأمر بالباقى فضرب بالنـــار ٠٠٠ فلما كان من الغـد أمر الا ينادى على ينادى ويبيع ، وأمر ايتاخ بناحيته مثل ذلك ، وجعفر الخياط بمثل ذلك فى ناحيته ٠ ووكل مع كل قائد من هؤلاء رجلا من قبل احمد بن ابى دؤاد يحصى عليه ، فبيعت المقاسم فى خمسة أيام ــ بيع منها ما استباع، وأمر بالبـاقى فضرب بالنـــار ٠٠٠ فلما كان من الغـد أمر الا ينادى على السبى الا ثلاثة اصوات ليتروج البيع ــ فمن زاد بعد ثلاثة أصوات والا بيع العلق فكان يفعل ذلك فى اليوم الخامس ــ فكان ينادى على الرقيق خمسة خمسة وعشرة عشرة والمتاع الكثير جملة واحدة (٢٨٩) ٠

ووجدت **ضرائب مختلفة على السلع** ، وقد ذكر المقدسى أنه كان فى

---

(٢٨٧) ابو يوسف : الخراج ص ١٩٠ ٠
(٢٨٨) ابو يوسف الخراج ص ١٠٥ ، ٤٧ : ٥٠ ٠
(٢٨٩) الطبرى جـ ٩ ص ٣٤٧ ، جـ ١٠ ص ٩٩ ، ٣٤٢ ٠

بيت المقدس ضرائب ثقال على الرحبة « فلم يكن يجوز لاحد أن يبيع شيئا مما يرتفق به الناس الا بهـا وثم رجال على أبوابها وآخرون على مايباع فيها » . ومن ضرائب هذا الاقليم ضرائب الحمـاية على من يكون عنده مركب ، وكانت حصيلتها تعادل ما يأتى من خراج الارض . واختلفت الضرائب باختلاف الحكام خاصة بعد ضعف الخلافة العباسية وغلبة امراء مختلفين عليها ، فيقول ابن حوقل « فاما خراجاتها وأعشسارها ومرافق سلاطينها فكان ذلك على أوقات مختلفة بقوانين متباينة وجبايات ناقصة وزائدة ، وذلك انها منذ ستة ثلاثين (٣٣٠ هـ) بين قوم يتطاول أحدهم على الآخر ، **واكثرهم غرضه ما اجتلبه فى يومه وحصله لوقته ، لا يرغب فى عمارة ولا يلتفت اليها برؤية ولا اشارة** (٢٩٠) .

(ب) المصارف المالية :

العطـــاء :

تزايدت الغنائم الواردة الى بيت المـــال ، فلم يكن يستوعبهـــا أن تقسم لوقتها على الجند فى أعقاب كل حملة « وأول من وضـــع الديوان فى الدولة الاسلامية عمر ـــ يقال بسبب مال أتى به أبو هريرة من البحرين فاستكثروه وتعبوا فى قسمه ، فسموا الى احصاء الاموال وضبط العطاء والحقوق ، فاشار خالد بن الوليد بالديوان وقال : **وايت ملوك الشـــام يدونون** فقبل منه عمر ، وقيل بل أشار عليه به الهرمزان لما رآه يبعث البعوث بغير ديوان ، فقيل له : ومن يعلم بغيبة من يغيب منهم ؟ فان من تخلف أخل بمكانه وانما يضبط ذلك الكتاب ... فكتبوا ديوان العساكر الاسلامية على ترتيب الانســاب » (٢٩١) . وروى أن عمر لما فتح بلاد فارس والروم « جمع أناسا من أصحاب رسول الله فقال ماترون ، فانى أرى أن أجعل عطاء الناس فى كل سنة ، واجمع المال فانه اعظم للبركة » فوافقوه ففرض الاعطيات . واستشارهم فى ترتيب الناس على منازلهم وكان أبو بكر يرى التسوية فى القسمة ولا يأخذ بتفضيل أهل السوابق والقدم « انما ذلك شىء ثوابه على الله ، وهذا معاشى فالاسوة فيه خير من الأثرة » . أما عمر فكان يرى أن لا يسوى بين من قاتل رسول الله ومن

(٢٩٠) متز : الحضارة الاسلامية ترجمة دكتور أبى ريدة جـ ١ ص ١٧٩ ـــ ١٨٠ ، المقدسى : أحسن التقاسيم ص ١٩٧ ، ابن حوقل .

(٢٩١) ابن خلدون : المقدمة طبعة دكتور وافى جـ ٢ ص ٦١٤ .

قاتل معه ، وبدأ بعم رسول الله ثم الاقرب فالاقرب ففرض لاهل بدر ٥٠٠٠ درهم ، ولمن بعدها الى الحديبية ٤٠٠٠ ، ولمن بعدها حتى نهاية قتال المرتدين ٣٠٠ — وهذا يشمل المقاتلين حتى القادسية ، ثم فرض لاهل القادسية **وأهل الشام ٢٠٠٠ — ولاهل البلاء البارع منهم ٢٤٠٠ ، وفرض لمن بعد القادسية واليرموك ١٠٠٠ ، ثم فرض للروادف المثنى ٥٠٠ ثم للروادف الثليث بعدهم ٣٠٠ — وقد سوى كل طبقة فى العطاء قويهم وضعيفهم عربهم وعجمهم — وفرض للروادف الربيع ٢٥٠ ، وفرض لمن بعدهم ٢٠٠** — وميز العباس ونساء النبي في العطاء وجعل لنساء أهل بدر ٥٠٠ ، ونساء من بعدهم الى الحديبية ٤٠٠ ، ونساء من بعد ذلك الى الايام ٣٠٠ ، ونساء أهل القادسية ٢٠٠ — ثم سوى بين النساء بعد ذلك وجعل الصبيان سواء على مائة • « **وفرض لاهل اليمن وقيس بالشام والعراق : لكل رجل ما بين الفين الى ألف الى تسعمائة الى خمسمائة — ولم ينقص احد عن ثلثمائة** » • « قالوا فرض عمر العطاء حين فرض لأهل الفيء الذين أفاء الله عليهم وهم أهل المدائن فصاروا بعد الى الكوفة — **انتقلوا عن المدائن الى الكوفة والبصرة ودمشق وحمص والأردن وفلسطين ومصر ، وقال : الفيء لاهل هؤلاء الامصار ولمن لحق بهم وأعانهم وأقام معهم** • ولم يفرض لغيرهم — ألا فبهم سكنت المدائن والقرى وعليهم جرى الصلح واليهم ادى الجزاء ، وبهم سدت الفروج ودوخ العدو ، ثم كتب فى اعطاء أهل العطاء اعطياتهم اعطاء واحدا سنة خمسة عشر » • **وكان بجانب العطاء النقد يرزق عيني** « فجمع عمر ستين مسكينا واطعمهم الخبز ، فاحصوا ما اكلوا فوجدوه يخرج من جريبتين ، ففرض لكل انسان منهم ولعياله جريبتين في الشهر » وقال عمر قبل موته « لقد هممت أن أجعل العطاء أربعة آلاف : ألفا يجعلها الرجل فى أهله وألفا يزودها معه وألفا يتجهز بها وألفا يترفق بها » — فمات قبل أن يفعل • وفرض عمر للطفل مائة درهم ، فاذا ترعرع بلغ به مائتي درهم ، وشمل ذلك اللقطاء وكان رضاعهم ونفقتهم من بيت المال ، كما شمل الرضيع والفطيم «فاذا بلغ أن يفرض له الحق بالفريضة فلما كان معاوية فرض ذلك للفطيم، **فلما كان عبد الملك بن مروان قطع ذلك كله الا عمن شاء** » وأجرى عمر القوت على المجذمين من نصارى الشام • وكان من المفروض **أن يحدد المسلمون موقفهم فى توزيع العطاء بالنسبة للبدو والحضر والعرب وغير العرب** فروى عن ابى عبيدة « أن رجالا من أهل البادية سالوه أن يرزقهم فقال : والله لا أرزقكم حتى ارزق اهل الحاضرة ••• وكتب عمر ابن عبد العزيز الى يزيد بن حصين أن مر للجند بالفريضة وعليك بأهل

الحاضرة » . وكان عمر « لا يعطى أهل مكة عطاء ولا يضرب عليهم بعثا ، ويقول هم كذا وكذا » . وخطب عمر يوم الجابية فقـــال « أما بعد فان هذا المال نقسمه على من أفاء الله عليه بالعدل – الا هذين الحيين من لخم وجذام فلا حق لهم فيه ، فقام اليه أبو حديدة الأجذمى فقال : ننشدك الله يا عمر فى العدل فقال عمر : العدل اريد ، أنا أجعل أقواما انفقوا فى الظهر وشدوا العرض وساحوا فى البلاد مثل قوم مقيمين فى بلادهم ؟ ولو أن الهجرة كانت بصنعاء وعدن ما هاجر اليها من لخم ولا جذام أحد. فقام أبو حديدة فقال : الله وضعنا من بلاده حيث شاء ، وساق الينا الهجرة فى بلادنا فقبلناها ونصرناها – أفهذا يقطع حقنا يا عمر ؟ ثم قال : لكم حقكم مع المسلمين . ثم قسم : فكان للرجل نصف دينار فاذا كانت معه امرأته أعطاه دينارا . ثم دعا ابن قاطور صاحب الارض فقال : اخبرنى ما يكفى الرجل من القوم فى الشهر واليوم ؟ فاتى بالمدى والقسط فقال يكفيه هذان المديان فى الشهر وقسط زيت وقســط خل ... » وهكذا رضى عمر أن يفرض لمن اسلم من قبائل العرب التى كانت مقيمة بالشام قبل الفتح ، وقد روى الطبرى لعمر كلاما يؤيد ذلك ويخالف كلامه الذى ادلى به فى الشام « وقيل له : قد سويت من بعدت داره بمن قربت داره وقاتلهم عن فنائه فقـال : من قربت داره أحق بالزيادة لانهم كانوا ردءا للحوق وشجى للعــدو ، فهـــلا قال المهاجرون مثل قولكم حين سوينـا السابقين منهم والانصار ؟ فقـد كانت نصرة الانصار بفنائهم ، وهاجر اليهم المهاجرون من بعد » . وشمل العطاء كافة المسـلمين ولو كانوا من غير العرب ، فكتب عمر الى امراء الاجناد «ومن اعتقتم من الحمراء فاسلموا فالحقوهم بمواليهم لهم مالهم وعليهم ما عليهم ، وان احبوا ان يكونوا قبيلة وحدهم فاجعلوهم اسوتهم فى العطاء » وروى أن عمر زار الشـام سنة ١٨ هـ « فدفع اليه أمراء الاجناد ما اجتمع عندهم من الاموال فجند ومصر الامصار ثم فرض الاعطية والارزاق » ، ثم قفل الى المدينة (٢٩٢) . وقد أجمل عمر سياسته المالية بقوله « ما من أحد الا له فى هذا المال حق أعطيه أو منعه وما أحد أحق به من أحد الا عبد مملوك وما انا فيــه الا كاحدهم ولكنا على منازلنا من كتاب الله وقسمنا من رسول الله والرجل وبلاؤه فى الاسلام والرجل وقدمه فى الاسلام والرجل وغناؤه فى الاسلام والرجل وحاجته (٢٩٣) .

(٢٩٢) الطبرى جـ ٤ ص ١٦٢ – ٣ رواية السرى عن شعيب عن سيف ، البلاذرى ، فتوح البلدان ص ١٣٦ ، ٤٥٣ : ٤٦٦ ، ابو يوسف : الخراج ص ٤٢ : ٧ ، ابن عساكر : تاريخ مدينة دمشق م ١ ص ٥٥٣ : ٦ ، الماوردى : الاحكام السلطانية ص ١٧٥ : ٧ .

(٢٩٣) – الطبرى جـ ٤ ص ٢٣ – ٤ .

وذكر الماوردى أن **تقدير العطاء معتبر بالكفاية** « حتى يستغنى به عن التماس مادة تقطعه عن حماية البيضة · والكفاية معتبرة من ثلاثة أوجه: أحدها ـ عدد من يعوله من الذرارى والمماليك ، والثانى ـ عدد ما يرتبطه من الخيول والظهر ، والثالث الموضع الذى يحله فى الغلاء والرخص ·· فيكون هذا المقدر فى عطائه ، ثم تعرض حاله فى كل عام فان زادت رواتبه الماسة زيد وان نقصت نقص · واختلف الفقهاء : اذا تقدر رزقه بالكفاية ـ هل يجوز أن يزاد عليها ؟ فمنع الشافعى من زيادته على كفايته وان اتسع المال ـ لان أموال بيت المال لا توضع الا فى الحقوق اللازمة ، وجوز أبو حنيفة زيادته على الكفاية اذا اتسع المال لهـا · ويكون وقت العطـاء **معلوما** يتوقعه الجيش عند الاستحقاق ، وهو معتبر بالوقت الذى تستوفى فيه حقوق بيت المال ·· واذا تأخر عنهم العطاء عند استحقاقه وكان حاصلا فى بيت المال كان لهم المطالبة به كالديون المستحقة ، وان أعوز بيت المال لعوارض أبطلت حقوقه أو أخرتها كانت أرزاقهم دينا على بيت المال وليس لهـم مطالبة ولى الأمر به ·· واذا اراد ولى الأمر اسـقاط بعض الجيش لسبب أوجبه أو لعذر اقتضاه جاز ، وان كان لغير سبب لم يجز ـ لانهم جيش المسلمين فى الذب عنهم · واذا اراد بعض الجيش اخراج نفسه من الديوان جاز مع الاسـتغناء عنه ، ولم يجز ، مع االحاجة اليـــه الا أن يكون معذورا ·· واذ نفقت دابة احدهم فى حرب عوض عنها ·· واذا استهلك سلاحه فيها عوض عنه ان لم يكن يدخل فى تقـدير عطائه ·· واذا مات أحدهم أو قتل كان ما يستحق من عطائه موروثا عنه على فرائض الله تعالى وهو دين لورثته على بيت المال · واختلف الفقهاء فى استبقاء نفقات ذريته من عطائه فى ديوان الجيش على قولين احدهمـا : أنه قد سـقطت نفقتهـم من ديوان الجيش لذهاب مسـتحقة ـ ويحـــالون على مال العشر والصدقة والقول الثانى : **ان يستبقى من عطائه نفقات ذريته ترغيبا له فى المقام وبعثـا له على الاقدام** · واختلف الفقهـاء أيضا فى سقوط عطائه اذا حدثت به زمانة ·· (٢٩٤) » ·

والطابع العسكرى واضح فى تقرير العطاء ، فهو مقرر للمسلمين اعانة لهم على الجهاد · وهو نظام جديد استحدثه عمر على هدى السوابق الرومية والفارسية ومن ثم كان المجال فسيحا أمام الخلفاء فى التعديل والتغيير · وهكذا كانت الأمور لا تجرى على وتيرة واحدة فى شأن اعطيات المقاتلة فى مدن المعسكرات وحاميات الثغور · فكانت الحكومة تسقط من

---

(٢٩٤) الماوردى : الاحكام السلطانية ص ١٨١ ـ ٢ ·

ديوان المقاتلة من تشاء وتفرض فيه لمن تشاء ، وتزيد الاعطيات أو تنقصها كما تشاء · ولم يسكت للمقاتلين صوت فى المطالبة بمال الفيء ،ووسع عمر بن عبد العزيز دائرة اصحاب الاعطيات حتى صارت أكثر شمولا لغير العرب مما كانت عليه من قبل ، ولم يقتصر على اعفاء الموالى الذين يحاربون مع العرب من الخراج بل جعل لهم أرزاقا واعطيات · كذلك أعاد عمر ما كان أوقفه عبد الملك من أعطيات ذرارى المقاتلة (٢٩٥) ، وزاد الوليد بن يزيد بن عبد الملك سنة ١٢٥ هـ الناس فى العطاء عشرة عشرة، ثم زاد أهل الشام بعد زيادة العشرات عشرة عشرة لأهل الشام خاصة فلما بويع يزيد بن الوليد بن عبد الملك سنة ١٢٦هـ نقص تلك الزيادة ورد اعطياتهم الى ما كانت عليه أيام هشام بن عبد الملك ــ فسمى يزيد الناقص وقيل أول من سماه بهذا الأسم مروان بن محمد (٢٩٦) » · وكان أهل الشام يتميزون فى العطاء خلال الحكم الأموى فقد وعد عبد الملك أهل العراق خلال ثورة ابن الاشعث أن يجعل عطاءهم مساويا لعطاء أهل الشام ولكنه لم يبر بوعده ، بل روى أن عمر بن عبد العزيز زاد عطاء أهل الشام عشرة دنانير على أهل العراق · ولما زاد الوليد بن يزيد جميع الأمصار لم لبث أن ميز أهل الشام بزيادة أخرى (٢٩٧) ·

وسارت تلك المحاولة الأولى لكفالة المواطنين على هذا النطاق الواسع سيرا حسنا بعض الوقت ، ويقول وليم ميور « ان تقسيم أمة كبيرة لكل موارد الطعام وغنائم الفتوح بين ابنائها : أولا على أساس الاخاء التام ، وثانيا وفق المواهب الحربية والتفوق الروحى ــ يعتبر ظاهرة من المحتمل أن تكون من الظواهر المقطوعة النظير فى تاريخ العالم » · ويبدو أن رواتب الجند كانت فى عهد معاوية ١٠٠٠ درهم للشخص سنويا بما فى ذلك عطاء الأسرة ، وفى سنة ٧٤هـ كان فى العراق وحدها ٦٠٫٠٠٠ من أصحاب العطاء بلغت رواتبهم واسرهم ٦٠ مليون درهما سنويا · وبالاضافة الى العطاءات السنوية الثابتة كان على الحكام أن يدفعوا للجند من حين الى آخر مبالغ اضافية عند قيامهم بمهام خاصة · كما كان على الأمويين من أجل الحصول على مدد دائم من الرجال تقديم اعانات مالية لشيوخ القبائل المختلفين مقابل أن يمدوهم بعدد معين من المحاربين عند الطلب ، فنال شيخ قبائل قحطان ٢ مليون درهم مقابل تقديم ألفى رجل·

---

(٢٩٥) فلهوزن : تاريخ الدولة العربية ترجمة دكتور أبى ريدة ص ٢٨٨ ــ ٩ ·
(٢٩٦) الطبرى جـ ٨ ص ٢٩٣ ، جـ ٩ ص ٢٢ ·
(٢٩٧) دكتور الخربوطلى : تاريخ العراق فى ظل الحكم الاموى ص ٤١٧ ــ ١٨ ·

وكان الجنود بجانب ذلك ينالون نصيبهم من الغنائم وكان تعداد الجيش الأموي يفوق ١٠٠٠٠٠ر١٠٠ جندى • وفى العصر العباسى الأول كان من الممكن حشد قوات كبيرة للقتال ، ففى حملة الرشيد سنة ١٩٠هـ وجد ١٣٥٠٠٠ر جندى من أصحاب العطاء عدا المتطوعة • وبلغ عدد الجند فى عرض عسكرى فى حضرة الرسل البيزنطيين أيام المقتدر نحو ١٦٠٠٠٠ر من الفرسان والمشاه وكان متوسط راتب الجندى فى عهد الخليفة العباسى الأول نحو ٩٦٠ درهما سنويا بجانب الأرزاق الأخرى ونصيبه فى الغنائم ، ونال الفارس ضعف ذلك • وقد انخفض مرتب الجندى فى عهد الرشيد الى ٦٠ درهما شهريا ، وفى عهد المأمون الى ٤٠ درهما فقط • على أنه لا يغيب عن الذهن أن المنصور عندما بنى بغداد دفع لكل عامل دانقين فقط يوميا أى ⅓ درهم • وقد أدت ضخامة عدد الجند ورغبة الاجناس المختلفة التى ضمتها الدولة بعد اتساعها فى كسب العيش عن طريق الانتظام فى الجيش الى قلة الرواتب • على أنه كانت ترفع الرواتب فى المهام الخاصة وعند وجود الأخطار • ونالت القوات التى تحرس الحدود **رواتب أعلى ومقرارات اضافية ، وخصص المعتصم ١٠٠ درهم شهريا لكل جندى من الفرسان** ، ٤٠ لجندى المشاه من المدافعين عن معقل طوانة الاستراتيجى • وقد تغير سعر الدينار فى السوق زمن الرشيد فبعد أن كان يساوى عشرة دراهم صار يساوى من ٢٠ الى ٢٢ درهما (٢٩٨) • وكان للخلفاء هبات سخية على كبار الأمراء والقواد فحين ولى المأمون أخاه أبا أسحق الشام ومصر وولى ابنه العباس الجزيرة والثغور والعواصم أمر لكل منهم ومن عبد الله بن طاهر بخمسمائة ألف دينار (٢٩٩) • وحين خرج المهدى لتوديع الصائفة سنة ١٦٣ هـ ذكره العباس بن محمد بسابقة فضل لمسلمة بن عبد الملك صاحب البلاء المحمود فى جهاد الروم على محمد بن على ، فقرر الخليفة العباسى أن يقابل الوفاء بالوفاء فأمر لولد مسلمة ومواليه بعشرين ألف دينار وان تجرى عليهم الأرزاق (٣٠٠) •

وبجانب عطاءات الجند كانت هناك **رواتب الموظفين الاداريين** : وفى عهد الراشدين كان العمال يتناولون رواتب عالية كما منحت لهم جرايات وارزاق عينية بجانب مقرراتهم السنوية ، فنرى عمار بن ياسر

---

(٢٩٨) حسينى : الادارة العربية ترجمة دكتور العدوى ص ١١٧ ــ ٨ ، ٢٤٩ ، ٢٥٠ ، ٤٠٥ ــ ٦ ، ٤٠٩ : ٤١٣ ، أمير على مختصر تاريخ العرب والتمدن الاسلامى ترجمة رافت ص ٣٧٥ •

(٢٩٩) الطبرى جـ ١٠ ص ٢٧٩ •

(٣٠٠) الطبرى جـ ٩ ص ٣٤٣ •

يتناول ٦٠٠ درهم سنويا بجانب جراية من القمح واللحم . وكانت **نفقات الادارة الاقليمية تستمد من موارد المقاطعات فاذا تبقى فائض حفظ في بيت مال الولاية بعد ارسال النصيب المقرر الى بيت مال العاصمة** وكان كبار موظفى الولاية ينالون فى العهد الأموى ٣٠٠ درهم شهريا . وبقى هذا فى العصر العباسى الأول حتى دفع الفضل بن سهل الرواتب أيام المأمون ، فروى أن قاضى مصر تقاضى فى ذلك العهد ٤٠٠٠ درهم شهريا كما روى أن راتب الكاتب العادى كان عشرة دراهم شهريا وهو ما يعادل أجر العامل فى بناء مدينة بغداد (٣٠١) . وقد أوصى أبو يوسف الرشيد « **فاجعل ما يجرى على القضاة والولاة من بيت المال المسلمين . من جباية الأرض أو من خراج الأرض والجزية — لانهم فى عمل المسلمين فيجرى عليهم من مالهم** . ويجرى على كل والى مدينة وقاضيها بقدر ما يحتمل وكل رجل تصيره فى عمل المسلمين فأجر عليهم من بيت مالهم ، ولا تجر على الولاة والقضاة من مال الصدقة شيئا — الا والى الصدقة فانه يجرى عليه منها .. فأما الزيادة فى أرزاق القضاة والعمل والولاة مما يجرى عليهم فذلك اليك .. فأما قولك يجرى على القاضى اذا صار اليه ميراث من مواريث الخلفاء وبنى هاشم وغيرهم من الذى يصير اليه ويوكل من قبله من يقوم بضياعهم وما لهم — فلا ، انما يعطى للقاضى رزقه من بيت المال ليكون قيما للفقير والغنى والصغير والكبير (٣٠٢) » .

النفقات العسكرية فى الثغور :

قام نظام الاجناد فى أسسه المالية على اعتماد كل جند على خراجه فى كفالة نفقاته « وذكروا أن الجزيرة كانت الى قنسرين فجندها عبد الملك ابن مروان — أفردها ، **فصار جندها يأخذون أطماعهم بها من خراجها** (٣٠٣) » . وقد استدعى بناء مدن الثغور وتحصينها وشحنها بالمقاتلة نفقات طائلة ، وكان الخلفاء ينفقون فى ذلك عن سخاء ويزيدون فى عطاء الجند ، فقد بعث معاوية مثلا الى قبرص « باثنى عشر ألفا — كلهم أهل ديوان ، فبنوا بها المساجد ونقل اليها جماعة من بعلبك ، وبنى بها مدينة ، واقاموا يعطون الأعطية الى أن توفى معاوية وولى بعده يزيد فاقفل ذلك البعث .. » . وكان للعباسيين الأوائل آثار مشكورة على

(٣٠١) حسينى : الادارة العربية ترجمة دكتور العدوى ص ٨٤ ، ١٨٧ ، ٨ ، ٣٣٥ — ٦ .
(٣٠٢) أبو يوسف : الخراج ص ١٨٦ — ٧ .
(٣٠٣) البلاذرى : فتوح البلدان ص ١٣٨ .

خط الحدود الاسلامية البيزنطية » فلما استخلف أبو العبـــاس فرض بالمصيصة لاربعمائة رجل زيادة فى شحنتها **واقطعهم ٠٠وفرض المهدى لخمسمائة مقاتل على خاصة عشرة دنانير ٠٠** ثم لما كانت سنة ١٩٤ بنى أبو سليم فرج الخادم أذنه فاحكم بناءها وحصنها وندب اليها رجلا من أهل خراسان وغيرهم **على زيادة فى العطاء ٠٠ وتوجه أبو سليم** الى مدينة السلام فاشخص الندبة الأولى من أهل خراسان وهم ثلاثة آلاف رجل فوردوا طرسوس ، ثم أشخص الندبة الثانية وهم ألفا رجل : ألف من أهل المصيصـة وألف من أهل انطاكيـة **على زيادة عشرة دنانير عشرة دنانير لكل رجل فى أصل عطائه ٠٠** وأمر الرشيد ببناء مدينة الكنيسة السوداء وتحصينها وندب اليهـا المقاتلة **فى زيادة العطاء** » ٠ هـذا عن الثغور الشامية ، أما فى الثغور الجزرية فقد « كتب المنصور الى صالح ابن على يأمرة ببناء ملطية وتحصينهـا ، ثم رأى أن يوجه عبد الوهاب ابن ابراهيم الامام واليا على الجزيرة وثغورها » فتوجه فى ســنة ١٤٠ ومعه الحسـن بن قحطبة فى جنود أهل خراسان فقطع على أهل الشـام والجزيرة فتوافى معه سبعون ألفا فعسـكر على ملطية وقد جمع الفعلة من كل بلـد ٠٠ وجعـل يغدى النـاس ويعشيـهم من ماله ٠٠ فكان الحسن يقول : من سبق الى شرفة فله كذا ، فجد الناس فى العمل حتى فرغوا من بناء ملطية ومسجدها فى ستة أشهر ٠٠ وأسكن المنصور ملطية أربعة آلاف مقاتل من أهل الجزيرة لانها من ثغورهم ــ **على زيادة عشرة دنانير فى عطاء كل رجل ومعونة مائة دينار ــ سوى الجعل الذى تتجاعله القبائل بينها** ، ووضع فيهـا شحنتها من السـلاح وأقطع الجند **المزارع** ٠٠ وبنى مرعش صالح بن على فى خلافة المنصور وحصنها وندب الناس اليها **على زيادة العطاء ٠٠** وفرض محمد بن ابراهيم ــ والى الجزيرة وقنسرين أيام الهادى ــ للحدث فرضا من أهل الشام والجزيرة وخراسان فى اربعين دينارا من العطاء واقطعهم المساكن واعطى كل امرىء ثلثمائة درهم (٣٠٤) » وفى بناء المأمون للطوانة سنة ٢١٨ هـ « كتب الى أخيه أبى اسحق بن الرشـيد أنه قد فرض على جنـد دمشق وحمص والأردن وفلسطين أربعة آلاف رجل ، وأنه يجرى على الفـارس مائة درهم وعلى الراجل أربعين درهما ٠ وفرض على مصر فرضا ٠ وكتب الى العباس بمن فرض على قنسرين والجزيرة ، والى اسحق بن ابراهيم بمن فرض على أهل بغداد وهم ألفا رجل ٠٠ » (٣٠٥) ٠ وهكذا تكلفت المطالب الحربية فى

(٣٠٤) البلاذرى : فتوح البلدان ص ١٦٠ ، ١٧٣ ، ١٧٥ : ٨ ، ١٩٥ ــ ٦ ، ١٩٨ ــ ٩ ٠
(٣٠٥) الطبرى : جـ ١٠ ص ٢٨٤ ٠

الثغور نفقات هائلة . فقد جرى تشجيع المرابطين فيها على ما يواجهون من مخاطر . فكان المرابط يتلقى بادىء ذي بدء معونة يتجهز بها ، وينال سكنا وزيادة في العطاءثم اقطاعا في ريف الثغر (٣٠٥ م) .

ولم يكن ينتظر لايرادات هذه المناطق النائية أن تكفى مطالبها الحربية الباهظة ومن هنا كانت تمد بأموال العاصمة، ويقدم قدامة فيهذا الشأن معلومات عنايرادات الثغور ومصروفاتها « **وارتفاع الثغور الشامية نحو المائة ألف دينار** ، ينفق في مصالحها وسائر وجوه شانها ، وهي المراقب والحرس والفوائير والركاضة والموكلين بالدروب والمخايض والحصون ، وغير ذلك مما جانسه من الأمور والأحوال ، **ويحتاج الى شحنتها من الجند والصعاليك ، ورواتب مغازيها الصوائف والشواتي في البر والبحر في السنة على التقريب مائتي ألف دينار وعلى المبالغة ان يتسع لثلثمائة ألف دينار .. وارتفاع الثغور الجزرية مع ملطية سبعون ألف دينار ، يصرف منها في مصالحها أربعون ألف دينار ويبقى ثلاثون ألف دينار ، ويحتاج لنفقة الأولياء والصعاليك على التجزلة مائة ألف وعشرين ألف دينار ، تنضاف الى البقية ، وعلى المبالغة مائة ألف وسبعون ألف دينار تنضاف اليها تتمة مائتى ألف دينار ، سوى نفقات المغازى في أوقاتها** ، وهذه الثغور هيالواسطة ومنها كانت تقع المغازى ، فان احتيج الى الغزو منها كانت النفقة حسب الغزاة .. **وارتفاع الثغور البكرية في السنة ألف وثلثمائة درهم ، تحتاج نفقتها في مصالحها وحصونها وارزاق شحنتها الى هذا المقدار وزيادة ألف ألف وسبعمائة ألف درهم ــ تتمة ثلاثة آلاف ألف درهم .. ومقدار النفقة على المراكب اذا غزت من مصر والشام نحو مائة ألف دينار** » (٣٠٦) . وروى البلاذرى أنه أجرى على كل امرىء من الجراجمة سنة ٨٩ هـ ثمانية دنانير وعلى عيالاتهم القوت من القمح والزيت وهو مديان من قمح وقسطان من زيت ، كما روى أن عبد الملك فرض لقوم من أهل انطاكية وأنباطها وجعلوا مسالح واردفت بهم عساكر الصوائف ليؤذنوا الجراجمة فسموا الرواديف وأجرى على كل امرىء منهم ثمانية دنانير ، وأجرى المتوكل الارزاق على من يستعان به من الجراجمة في المسالح (٣٠٧) . وقد كانت الحملات الاسلامية الكبرى

(٣٠٥م) د. شعيرة : المرابطون في الثغور البرية العربية الرومية ــ بحث في كتاب (الى طه حسين في عيد ميلاده السبعين) .

(٣٠٦) قدامة : نبذ من كتاب الخراج ملحق بالمسالك والممالك لابن خرداذبة ص ٥٣ : ٥ .

(٣٠٧) البلاذرى : فتوح البلدان ص ١٦٨ ــ ٩ .

تتكلف نفقات ضخمة ، ففي سنة ٩٨ هـ « لما دنا مسلمة من قسطنطينية ، أمر كل فارس أن يحمل على عجز فرســـه مدين من طعام حتى يأتي به القسطنطينية ــ فأمر بالطعام فالقى فى ناحية مثل الجبال (٣٠٨) وفى حملة الرشيد ضد الروم أيام أبيه المهدى سنة ١٦٥ هـ « سار هرون فى خمسة وتسعين الفا وسبعمائة وثلاثة وتسعين رجلا وحمل لهم من العين مائة ألف دينار واربعة وتسعين الفا واربعمائة وخمسين دينارا ومن الورق احدا وعشرين ألف ألف واربعمائة الف واربعة عشر ألفا وثمانمائة درهم (٣٠٩) » ووروى عن الفضل بن مروان : « لم يكن للمعتصم لذة فى تزيين البناء وكانت غايته فيه الاحكام ، ولم يكن بالنفقة على شيء اسمح منه بالنفقة على الحرب » • وقد وجه المعتصم سنة ٢٢٢ هـ مع ايتاخ الى الافشين ثلاثين ألف ألف درهم عطاء للجند والنفقات فى قتال بابك(٣١٠) « وكان يجزى الافشين فى مقامه بازاء بابك ــ سوى الأرزاق والانزال والمعاون ــ فى كل يوم يركب فيه عشرة آلاف درهم وفى كل يوم لايركب فيه خمسة آلاف درهم ، وكان جميع من قتل بابك فى عشرين سنة مائتى ألف وخمسة وخمسين ألفا وخمسمائة انسان، •• فتوج المعتصم الافشين واليسه وشاحين بالجوهر ووصله بعشرين ألف ألف درهم منها عشرة آلاف ألف صلة وعشرة آلاف ألف درهم يفرقها فى أهل عسكره •• وفى سنة ٢٢٣ هـ شخص المعتصم غازيا الى بلاد الروم فذكر انه تجهز جهازا لم يتجهز مثله قبله خليفة قط : من السلاح والعدد والآلة ،وحياض الأدم والبغال والروايا والقرب ، وآلة الحديد والنفط (٣١١) •• »واذا ما كلف جندى بمهمة عسكرية ذات شأن فقد كانت تخصص له مكافأة مغرية ، ففى حملة عمورية مثلا « وجه المعتصم من عسكره قوما من الادلاء وضمن لهم لكل رجل منهم عشرة آلاف درهم على أن يوافوا بكتابه الافشين، واعلمه أن أمير المؤمنين مقيم فليقم اشفاقا من أن يواقعه ملك الروم • وكتب الى اشناس كتابا يأمره أن يوجه من قبله رسولا من الادلاء الذين يعرفون الجبال والطرق والمشبهة بالروم ، وضمن لكل رجل منهم عشرة آلاف درهم هو أوصل الكتاب •• (٣١٢) • وعرض الجعائل فى الحرب على هذا النحو أمر له عيوبه ومضاره ، وان كانت له مزاياه » قال أبو حنيفة : تكره الجعائل ما دام للمسلمين قوة فاذا لم يكن فلا بأس

(٣٠٨) الطبرى جـ ٨ ص ١١٧ •
(٣٠٩) الطبرى جـ ٩ ص ٣٤٦ ــ ٧ •
(٣١٠) الطبرى جـ ١١ ص ٨ •
(٣١١) الطبرى جـ ١٠ ص ٣١٧ ، ٣٣٣ ــ ٤ ، ٣٣٥ •
(٣١٢) الطبرى جـ ١٠ ص ٣٣٦ •

أن يقوى بعضهم بعضا • وذكر عن ابن عباس أنه سئل عن هذا فقال : من جعله فى كراع أو سلاح فلا بأس به » وينبغى أن توفر نفقات الحملات العسكرية من بيت المـال أولا ، ولا يلجأ الى مطالبة الأهلين الا للضرورة وعلى هذا لو أراد الامام أن يجهز جيشا فان كان فى بيت المال سعة فينبغى له أن يجهزهم بمال بيت المال ولايأخذ من الناس شيئا، وان لم يكن فى بيت المال سعة كان له أن يتحكم على الناس بما يتقوى به الذين يخرجون الى الجهاد (٣١٣) » •

نفقات أخرى :

كانت كل ولاية تنفق من ايراداتها على مرافقها الخاصة كانشاء الطرق وحفر الجداول وبناء المؤسسات العامة من مساجد ودور للعلم والعلاج ، ومن أخبار الثغور الشامية فى هـذا الصدد أن الوليد بن عبد الملك وجه أربعة آلاف جاموسة الى المصيصة ، كمـا وجه يزيد بن عبد الملك اليهـا أربعة آلاف جاموسة أيضا للانتفاع منها هناك والاستعانة بها على تأمين الطريق بين انطاكيـة والمصيصة وكانت تقطعه الوحوش • واهتم الوليد ابن عبد الملك بتعبيد الطريق وشيد عليهـا محطات البريد ، وأمر هشام بحفر قنـاة للموصـل بلغ تكاليفهـا ٨ مليون درهـم وزرع الطريق على جانبيها بالاشجار وكانت قنطرة سنجة قرب سميساط تعد من عجائب الدنيـا • وراعت الدولة المعوزين والمحتـاجين وبرز فى ذلك الوليـد بن عبد الملك الذى رعى المجذمين والمرضى والمشوهين ثم الوليد بن يزيد بن عبد الملك الذى أجرى على الزمنى والعميان وكان يطعم أهل الصائفة(٣١٤)•

وسلك العباسيون نفس السـبيل فأنفقوا على آبار الرملة وقناتها التى كان ينفق عليها الأمويون بعد سليمان بن عبد الملك « وكان الأمر فى تلك النفقة يخرج فى كل سنة من خليفة بعد خليفة، فلما استخلف المعتصم أسجل بتلك النفقة سجلا — فانقطع الاستئمار وصارت جارية يحتسب بها العمال فيحسب لهم (٣١٥) • وقد كانت هناك طريق مستدقة تشرف على الوادى عند عقبة بغراس التى عرفت بعقبـة النساء منذ سقط عندها

(٣١٣) شرح السير الكبير لمحمد بن الحسن الشيبانى املاء السرخسى جـ ١ ص ١٣٨ — ٩ •
(٣٤١) البلاذرى : فتوح البلدان ص ١٧٤ ، حسينى : الادارة العربية ترجمة دكتور العدوى ص ٢٣٩ — ٢٤٠ ، ٢٤٦ ، ٣٨٣ ، الطبرى جـ ٨ ص ٢٩٣ •
(٣١٥) البلاذرى : فتوح البلدان ص ١٥٠ — ١ •

محمل امرأة فى احدى غزوات مسلمة بن عبد الملك فأمر مسلمة النساء باجتيازها مشيا ، وبنى المعتصم على حد تلك الطريق حائطا قصيرا من حجارة اتقاء لتردى الناس فيها (٣١٦) ٠

ومن هنا استدرك ديموبين على نفسه عندما تناول مدى اهتمام الدولة الاسلامية بالاعمال العامة اذ يقول « خلال هذه الادارة الواسعة لا نجد شيئا مخصصا للصرف على المشاريع الانتاجية والاعمال العامة (كالطرق والجسور والقنوات والرى الخ) كما فى الامبراطورية الرومانية ٠٠ ومع هذا فان بعض الحكام احتذوا حذو الحجاج وأشرفوا بأنفسهم على الأعمال العامة وغذوها بالمال ، وحتى الخليفة قد يهتم أحيانا بمشروع يمس عن قرب مصالحه الخاصة ٠ ومع هذا فقد كان الأمل فى الثواب يدفع الحكام وكبار الشخصيات بحماس شديد الى مشروعات نافعة ٠٠ هؤلاء الأفراد شادوا المساجد وعملوا على فتح قنوات ومخازن للمياه لتنتفع بها الحجاج ، كما اقاموا جسورا ومحطات للاستراحة ، ومدارس وزوايا ومستشفيات ، وعملوا على ضمان استمرارها عن طريق خيرات الوقف (٣١٧) » ٠ وقد روى الاصطخرى وابن حوقل عن مدينة طرسوس « انه ليس من مدينة عظيمة من حد سجستان وكرمان وفارس وخوزستان والجبال وطبرستان والجزيرة واذربيجان والعراق والحجاز واليمن والشامات ومصر والمغرب الا وبها لأهلها دار ينزلها غزاة تلك البلدة ويرابطون بها اذا وردوها ، وتكثر لديهم الصلات وترد عليهم الأموال والصدقات العظيمة الجسيمة ، الى ما كان السلاطين يتكلفونه وأرباب النعم يعانونه وينفذونه متطوعين متبرعين ، ولم يكن فى ناحية ذكرتها رئيس ولا نفيس الا وله عليه وقف من ضيعة ذات مزارع وغلات أو مسقف من فنادق ٠٠ وبغرس كانت فيها دار لزبيدة ولم يكن بالشام دار ضيافة غيرها كبيرة (٣١٨) » ٠

(ج) الادارة المالية :

كانت الادارة المالية الاسلامية منذ انشائها صريحة الدلالة على أصولها الرومية أو الفارسية ، فمشورة تدوين الديوان قدمها خبير بشئون الشام ، أو الهرمزان الفارسى بل يذكر ابن خلدون أن عمر « سأل عن اسم الديوان

(٣١٦) البلاذرى : فتوح البلدان ص ١٧٤ ٠
(٣١٧) ديموبين : النظم الاسلامية ، ترجمة الشماع والسامر ص ١٥٥ ٠
(٣١٨) ابن حوقل ، الاصطخرى : المسالك والممالك ص ٤٧ ٠

فعبر له » . وانتقد ابو سفيان هذا النظام فقال « أديوان مثل ديوان بنى الأصفر؟ انك ان فرضت للناس اتكلوا على الديوان وتركوا التجارة (٣١٩) » ويذكر ان كلمة الخراج ليست عربية أصيلة بل نقلت عن اللغة اليونانية عن طريق البيزنطيين ، أو هى تعريب الكلمة الآرامية choregia وتعنى الضريبة عامة ، وعلى أنه من المؤكد « ان هذه الاستعارة ان كانت حدثت لم تكن فى العصر الاسلامى ولا وقعت كأثر للفتوح الاسلامية ، بل لابد أن حدوثها كان قبل مجيء الاسلام بوقت طويل أو كثير . ذلك لأننا نجد الكلمة قد استعملت فى القرآن وتكرر ورودها فى الأحاديث وعلى لسان العرب قبل بدء الفتوح (٣٢٠) » ، والجزية أيضا يذكر أنها معرب (كزيت) وهو الخراج بالفارسية (٣٢١) . وقد استعملت اصطلاحات خراجية يعترى الشك عروبة أصلها فقال ابن دريد عن الايغار « لا أحسبه عربيا صحيحا » كما جاء فى لسان العرب ولا عجب أن يقتبس المسلمون من نظم الادارة عند غيرهم ، فقد **قال أبو يوسف : اذا كانت فى البلاد سنة أعجمية قديمة لم يغيرها الاسلام ولم يبطلها فشكاها قوم الى الامام لما ينالهم من مضرتها — فليس له ان يغيرها وقال مالك الشافعى : يغيرها لأن عليه نفى كل سنة جائرة سنها احد المسلمين فضلا عن أهل الكفر (٣٢٢) »** .

وينبغى **التفريق بين الديوان بصفة عامة وديوان المال :** فالديوان لم يكن أول الأمر الا سجلا أو سجلات تدون فيها البيانات الخاصة بهذه أو تلك من نواحى الادارة ، فديوان الجند هو سجل الجند المقيدين الذين تجب عليهم الخدمة العسكرية وما يستحق لهم من العطاء والرزق ، وديوان الأموال تقيد فيه الأموال — ومالى ذلك . بل كانت هناك دواوين أموال : لكل ولاية اسلامية ديوان خاص بأموالها ويذهب فلهوزن الى أن ديوان المال حل محل بيت المال — وهذا غير صحيح ، لأن بيت المال هو خزانة أو خزائن المال ويكون عند الخليفة ، أما ديوان المال فهو الادارة الخاصة بتسجيل الدخل والخرج وكان فى الغالب فى بيت الوزير (٣٢٣)

---

(٣١٩) البلاذرى : فتوح البلدان ص ٤٥٤ ، ٤٦٣ ، ابن خلدون : المقدمة . طبعة دكتور وافى جـ ٢ ص ٦١٣ — ١٤ .

(٣٢٠) دكتور الريس : الخراج فى الدولة الاسلامية ص ١١٩ .

(٣٢١) الدكتوران يحيى الخشاب والعرينى : ضبط وتحقيق الالفاظ الاصطلاحية التاريخية بمفاتيح العلوم للخوارزمى . المجلة التاريخية المصرية م ٧ سنة ١٩٥٨ .

(٣٢٢) البلاذرى : فتوح البلدان ص ٤٥٣ .

(٣٢٣) دكتور مؤنس : تعليق بهامش التمدن الاسلامى لجورجى زيدان جـ ٢ ص ١٥ هامش

الاختصاصات : وذكر الماوردى أن الديوان موضوع الحفظ ما يتعلق بحقوق السلطنة من الأعمال والأموال ، ومن يقوم بها من الجيوش والعمال « والذى يشتمل عليه ديوان السلطنة ينقسم اربعة أقسام : أحدها ما يختص بالجيش من اثبات وعطاء والثانى ما يختص بالاعمال من رسوم وحقوق، والثالث ما يختص بالعمال من تقليد وعزل ، والرابع ما يختص ببيت المال من دخل وخرج » . فأما اثبات الجند وعطائهم فقد سبق التعرض له ، **وأما ما يختص بالاعمال من رسوم وحقوق** فيفصل الماوردى جوانبه على ستة « احدها : **تحديد العمل** بما يتميز به من غيره وتفصيل نواحيه التى تختلف أحكامها .. الثانى : أن يذكر حال البلد **هل فتح عنوة أو صلحا وما استقر عليه حكم ارضه من عشر أو خراج** .. فان كان جميعه أرض عشر لم يلزم اثبات مسائحه لأن العشر على الأرض دون المساحة ، ويلزم تسمية اربابه عند رفعه الى الديوان ــ لأن وجوب العشر فيه معتبر بأربابه دون رقاب الأرضين ، واذا رفع الزرع باسماء اربابه ذكر مبلغ كيله وحال سقيه بسيح أو عملا لاختلاف حكمه .. وان كان جميعه أرض خراج لزم اثبات مسائحه لان الخراج على المساحة ، فان كان هذا الخراج فى حكم الأجرة لم يلزم تسمية أرباب الارضين لأنه لا يختلف باسلام ولا كفر ، وان كان الخراج فى حكم الجزية لزم تسمية اربابه ووصفهم بالاســـلام أو الكفر لاختلاف حكمه باختلاف أهله .. الثالث : **احكام خراجه وما استقر على مسائحه** : هل هو مقاسمة على زرعه أو هو رزق مقدر على خراجه..الرابع: ذكر من فى كل بلد من **أهل الذمة** وما استقر عليهم فى عقد الجزية .. الخامس : ان كان من بلدان **المعادن** ــ ان يذكر أجناس معادنه وعدد كل جنس منها ، وهذا مما لا ينضبط بمساحة ولا ينحصر بتقدير لاختلافه ، وانما ينضبط بحسب المأخوذ منه اذا أعطى وأنال .. السادس : **ان كان البلد ثغرا يتاخم دار الحرب وكانت اموالهم دخلت دار الاسلام معشورة عن صلح استقر معهم ــ أثبت فى ديوان عقد صلحهم ، وقدر المأخوذ منهم من عشر أو خمس وزيادة عليه أو نقصان منــه ، فان كان يختلف باختلاف الامتعة والاموال فصلت فيــه وكان الديوان موضوعا لاخراج رسومه ولاستيفاء ما يرفع اليه من مقادير الامتعة المحمولة اليه »** .

وفيما يختص بالعمال من تقليد وعزل يشـــتمل على ســـتة أمور « احدها : ذكر **من يصح منه تقليد العمال** ، وهو معتبر بنفوذ الأمر وجواز النظر .. وهذا يكون من أحد ثلاثة : أما من السلطان ، وأما من وزير التفويض ، وأما من عامل عام الولاية كعامل اقليم أو مصر عظيم يقلد فى خصوص الأعمال عاملا .. الثانى : **من يصح أن يتقلد العمالة** ، وهو من

استقل بكفايته ووثق بأمانته .. الثالث : ذكر **العمل** الذى تقلده ـ تحديد الناحية ، وتعيين العمل من جباية أو خراج أو عشر ، والعلم برسوم العمل وحقوقه .. الرابع : **زمان النظر** ـ (فيقدر العمل بمدة محصورة ، أو بانجاز العمل ، أو يرد التقليد مطلقا ..) الخامس : **فى جارى العمل** على عمله (وقد يكون مسمى معلوما أو مسمى مجهولا فيقدر جارى المثل ، أو غير مسمى مجهول أو معلوم ..) .. السادس : **فيما يصح به التقليد** .. فاذا صح التقليد بالشروط المعتبرة فيه ، وكان العمل قبله خاليا من ناظر ـ تفرد هذا المولى بالنظر واستحق جاريه من أول وقت نظره فيه وان كان فى العمل ناظر قبل تقليده نظر فى العمل : فان كان مما لايصح الاشتراك فيه كان تقليده الثانى عزلا للأول ، وان كان مما يصح فيه الاشتراك روعى العرف .. واذ طولب العامل برفع الحساب فيما تولاه لزمه رفعه فى عمالة الخراج ولم يلزمه رفعه فى عمالة العشر ومصرف العشر الى أهل الصدقات ، وعلى مذهب أبى حنيفة يؤخذ برفع الحساب فى المالين لاشتراك مصرفهما عنده .. واذا أراد العامل أن يستخلف على عمله فذلك ضربان : أحدهما أن يستخلف عليه من يتفرد بالنظر فيه دونه ـ فهذا غير جائز منه لأنه يجرى مجرى الاستبدال وليس له أن يستبدل غيره بنفسه وان جاز له عزل نفسه ، والضرب الثانى أن يستخلف عليه معينا له فيراعى مخرج التقليد » .

وفيما اختص ببيت المال من دخل وخرج « فهو أن كل مال استحقه المسلمون ولم يتعين مالكه منهم فهو من حقوق بيت المال ، فاذا قبض صار بالقبض مضافا الى حقوق بيت المال سواء أدخل الى حرزه أو لم يدخل لأن بيت المال عبارة عن الجهة لا عن المكان . وكل حق وجب صرفه فى مصالح المسلمين فهو حق على بيت المال ، فاذا صرف فى جهة صار مضافا الى الخراج من بيت المال سواء خرج من حرزه أو لم يخرج .. فأما الفىء **فمن حقوق بيت المال** لأن مصرفه موقوف على رأى الامام واجتهاده ، وأما الغنيمة فليست من حقوق بيت المال لأنها مستحقة للغانمين .. وأما خمس الفىء والغنيمة فينقسم ثلاثة أقسام : قسم منه يكون من حقوق بيت المال وهو سهم النبى المصروف فى المصالح العامة ، وقسم منه لا يكون من حقوق بيت المال وهو سهم ذوى القربى وقسم منه يكون بيت المال فيه حافظ له على جهاته وهو سهم اليتامى والمساكين وابن السبيل ان وجدوا دفع اليهم وان فقدوا أحرز لهم . وأما الصدقة فضربان : صدقة مال باطن فلا يكون من حقوق بيت المال لجواز أن ينفرد أربابه باخراج زكاته فى أهلها ، والضرب الثانى صدقة مال ظاهر كأعشار الزروع والثمار وصدقات المواشى ـ فعند

أبي حنيفة أنه من حقوق بيت المال لأنه يجوز صرفه على رأى الامام واجتهاده ولم يعينه فى أهل السهمين ، وعلى مذهب الشافعى لا يكون من حقوق بيت المال لأنه معين الجهات عنده ، ولكن اختلف قوله هل يكون بيت المال محلا لاحرازه عند تعذر جهاته .. **وأما المستحق على بيت المال** : (فان كان) مصرفه مستحقا على وجه البدل كأرزاق الجند وأثمان الكراع والسلاح ـ فاستحقاقه غير معتبر بالوجود وهو من الحقوق اللازمة مع الوجود والعدم ، فان كان موجودا عجل دفعه وان كان معدوما وجب فيه على الانظار . (وان كان) مصرفه مستحقا على وجه المصلحة والارفاق فاســـتحقاقه معتبر بالوجود دون العدم ، وان كان معدوما سقط وجوبه عن بيت المال وكان ان عم ضرره من فروض الكفاية على كافة المسلمين حتى يقوم به منهم من فيه كفاية ـ كالجهاد ، وان كان مما لا يعم ضرره ـ كوعور طريق قريب يجد الناس طريقا غيره بعيدا سقط وجوبه عن الكافة .. واذا فضلت حقوق بيت المال عن مصرفها فقد اختلف الفقهاء فى فاضله فذهب أبو حنيفة الى أنه يدخر فى بيت المال لما ينوب المسلمين من حادث ، وذهب الشافعى الى أنه يقبض على أموال من يعم به صلاح المسلمين ولا يدخر لأن النوائب تعين فرضها عليهم (٣٢٤) » .

الموظفون : وقد عرض الماوردى لموظفى الادارة المالية : **فعامل الخراج** « يعتبر فى صحة ولايته : الحرية والأمانة والكفاية .. فان ولى **وضع الخراج** اعتبر فيه أن يكون فقيها من أهل الاجتهاد ، وان ولى **جباية الخراج** صحت ولايته وان لم يكن فقيها مجتهدا . **ورزق عامل الخراج فى مال الخراج ، وكذلك أجور المساح ، واما أجرة القسام فقد اختلف الفقهاء فيها** : فذهب الشافعى الى أن أجور قسام العشر والخراج معا فى الحق الذى اســـتوفاه السلطان منهما ، وقال أبو حنيفة : أجور من قسم غلة العشر وغلة الخراج وسط من أصل الكيل ، وقال الثورى : أجور الخراج على السلطان وأجور العشر على أهل الأرض ، وقال مالك : أجور العشر على صـــاحب الأرض وأجور الخراج على الوسط » .

واما كاتب الديوان فالمعتبر فيه العدالة والكفاية « فاذا صح تقليده فالذى ندب له ستة أشياء : **حفظ القوانين** على الرسوم العادلة من غير زيادة تتحيف بها الرعية أو نقصان ينثلم به حق بيت المال ، وان تقدمته القوانين المقررة فيها رجع فيها الى ما أثبته أمناء الكتاب اذا وثق بخطوطهم .. الثانى : **استيفاء الحقوق** ، فيعمل فيه على اقرار العمـــال بقبضـــها ، ثم

(٣٢٤) الماوردى : الاحكام السلطانية ص ١٧٩ : ١٨٩ .

فهو من القسم الاول وان لم يسح فهو من القسم الثانى ، وأما الكظائم فهو ما شرب من الآبار : فان نضح منها بالغروب فهو من القسم الثانى وان استخرج من القناة فهو غيل يلحق بالاول .. فلابد لواضع الخراج من اعتبار ما وصفناه ، من غير زيادة تجحف باهل الخراج ولا نقصان يضر باهل الفىء .. ومن الناس من اعتبر شرطا رابعا وهو **قربها من البلدان والاسواق وبعدها** لزيادة اثمانها ونقصانها ، وهذا انما يعتبر فيما يكون خراجه ورقا ولا يعتبر فيما يكون خراجه حبا » . **ويجرى وضع الخراج على مســائح الارض ويعتبر فى هذه الحالة بالسـنة الهلالية ، او على مسائح الزرع ويعتبر هنا بالسنة الشمسية ، او مقاسمة فيعتبر بكمال الزرع وتصـفيته** . ويرى الماوردى **تثبيت قدر الخراج** المقرر بشروطه « لا يجوز ان يزاد فيه ولا ينقص منه ما كانت الارضون على أحوالها فى سقيها ومصالحها ، فان تغير سقيها ومصالحها الى الزيادة والنقصان فذلك ضربان : احدهما ان يكون حدوث الزيادة والنقصان بسبب من جهتهم — كزيادة حدثت بشق انهار او نقصان حدث لتقصير فى عمارته ، فيكون الخراج عليهم بحاله .. الثانى أن يكون حدوث ذلك من غير جهتهم — فيكون النقصان لشق انشق او نهر تعطل ، فان كان سـده وعمله ممكنا وجب على الامام ان يعمله من بيت المـال والخراج ساقط عنهم ما لم يعمل ، وان لم يمكن عمله فخراج تلك الارض ساقط عن أهلها اذا عدم الانتفاع بها ، فان امكن الانتفاع بها فى غير الزراعة كمصايد او مراع جاز ان يستأنف وضع خراج عليها بحسب ما يحتمله الصيد والمرعى . وأما الزيادة التى احدثها الله — فكانهار حفرها السيل، فان كان هذا عارضـا لم يجز ان يزاد الخراج وان وثق بدوامه راعى الامام فيه المصلحة لارباب الضياع وأهل الفىء » (٣٢٦) .

وقد ذكر الماوردى أن عمر أقر نظام تقدير الخراج **بالمساحة** الذى كان سائدا ايام الفرس — وفيه يتقرر خراج معين على مساحة محددة من الارض تجبيه الدولة فى كل عام جملة او منجما دون نظر الى ما يحدث من اختلاف كميات المحصـول او غيره الا أن يغير قدر الخراج برمته لظروف معينة . ثم حدث العمل بنظام المقاسمة أيام العباسيين — وفيه تتقاسم الدولة مع الزراع ما ينتج من محصول الارض بنسبة معينة دون اعتبـار للمسـاحة فيتغير الخراج بتغير كميـة المحصول النـاتج . « ولم يزل السواد على المساحة والخراج الى أن عدل بهم المنصور عن الخراج

(٣٢٦) الماوردى : الأحكام السلطانية ص ١٣٢ : ٥ .

الى المقاسمة لان السعر نقص فلم تف الغلات بخراجها وخرب السواد فجعله مقاسمة . واشار ابو عبيد الله على المهدى ان يجعل ارض الخراج مقاسمة بالنصف ان سقى سيحا ، وفى الدوالى على الثلث وفى الدواليب على الربع ، وان يعمل فى النخل والكرم والشجر مساحة خراج تقدر بحسب قربه من الاسواق والفرض » . **والماوردى لا يرحب بهذا التغيير** « والذى يوجبه الحكم أن خراجها هو المضروب عليها اولا ، وتغييره الى المقاسمة ــ اذا كان لسبب حادث اقتضاه اجتهاد الائمة فيكون امضى مع بقاء سببه ، والا احيل الى حاله الاول عند زوال سببه ، اذ ليس للامام أن ينقض اجتهاد من تقدمه » . وأما التزام العمال بتقديم قدر معين من الخراج وهو ما يعرف **بالتقبل او الالتزام** فالماوردى يرفضه كلية « فأما تضمين العمال لاموال العشر والخراج فباطل لا يتعلق به فى الشرع حكم ، لان العامل مؤتمن يستوفي ما وجب ويؤدى ما حصل ، فهو كالوكيل الذى اذا أدى الامانة لم يضمن نقصانا ولم يملك زيادة وضمان الاموال بقدر معلوم يقتضى الاقتصار عليه فى تملك ما زاد وغرم ما نقص ــ وهذا مناف لوضع الامانة وحكم العمالة فبطل » (٣٢٧) . ويرفض أبو يوسف نظام التقبل أيضا ، الا أنه يؤثر **نظام المقاسمة** على نظام المساحة فيقول : « نظرت فى خراج السواد وفى الوجوه التى يجبى عليها ، وجمعت فى ذلك أهل العلم بالخراج وغيرهم وناظرتهم فيه ... فناظرتهم فيما كان وظف عليهم في خلافة عمر فى خراج الارض واحتمال ارضهم اذ ذاك لتلك الوظيفة حتى قال عمر لحذيفة وعثمان بن حنيف : لعلكما حملتما الارض مالاتطيق ... فذكروا أن العامر كان من الارضين فى ذلك الزمان كثيرا وأن المعطل منهما كان يسيرا ، ووصفوا كثرة العامر الذى لا يعمل وقلة العامر الذى يعمل .. فرايت ان وظيفة من الطعام ــ كيلا مسمى او دراهم مسماة توضع عليهم مختلفة فيه دخل على السلطان وعلى بيت المال وفيه مثل ذلك على أهل الخراج بعضهم من بعض . اما وظيفة الطعام فان كان رخصا فاحشا لم يكتف السلطان بالذى وظف عليهم ولم يطل نفسا بالحط عنهم ولم يقو كذلك الجنود ولم تشحن به الثغور ، واما غلاء فاحشا لايطيب السلطان نفسا بترك ما يستفضل أهل الخراج من ذلك والرخص والغلاء بيد الله تعالى لا يقومان على أمر واحد . وكذلك وظيفة الدراهم ــ مع اشياء كثيرة تدخل فى ذلك تفسيرها يطول .. ولم أجد شيئا

(٣٢٧) الماوردى : الاحكام السلطانية ص ١٥٧ .

اوفر على بيت المال ولا اعفى لاهل الخراج من التظالم فيما بينهم وحمل بعضهم على بعض ولا اعفى لهم من عذاب ولاتهم وعمالهم — ومن مقاسمة عادلة خفيفة فيها للسلطان رضى ولاهل الخراج من التظالم فيما بينهم وحمل بعضهم على بعض راحة وفضل » . وأبو يوسف يرى تعميم نظام المقاسمة حتى على النخل والكرم والبساتين (٢٢٨) . واذا قارنا بين نظام المساحة وبين نظام المقاسمة « فانا نجد ان نظام المساحة يكون فى صالح المزارعين اذا كانت الغلات عالية الاسعار لانه لا يكون على المزارع الا ان يدفع خراجا محدودا — نقدا فى الغالب — ويبيع غلاته فيستفيد من غلاء الاسعار . وكلما اجتهد فزاد انتاجه جنى ثمرة جهده وذلك بشرط ان تكون الوظيفة حددت بعدل وان تظل ثابتة . والا فان نظام المقاسمة يكون افيد للمزارعين فهو اصلح لهم اذا كانت الاسعار رخيصة لان الغلات حينئذ قد لا تفى بخراجها ، وهو اصلح اذا كان الخراج المقرر باهظا ... » (٣٢٩) . وقد كانت الادارة المالية في الدولة الاسلامية مرنة ، تغير اساس تقدير الخراج من عهد الى عهد ، كما تعدل فى قدر الخراج المربوط نفسه — دون أن تساير فى ذلك الرأى الفقهى القائل بالتأبيد . فالبلاذرى يروى انه كان بفلسطين فروز بسجلات من الخلفاء مفردة من خراج العامة وبها التخفيف والردود « وذلك ان ضياعا رفضت فى خلافة الرشيد وتركها أهلها ، فوجه الرشيد هرثمة بن أعين لعمارتها فدعا قوما من مزارعيها وأكرتها الى **الرجوع اليها على أن يخفف عنم من خراجها ويلين معاملته فرجعوا، فاولئك أصحاب التخافيف ، وجاء قوم منهم بعد فردت عليهم ارضوهم على مثل ما كانوا عليه — فهم أصحاب الردود** » . والبلاذرى يسوق خبرا كهذا فى شأن السامرة الذين وضع عليهم يزيد بن معاوية خراجا خمسة دنانير ، ثم اصابهم الطاعون بالخراب فتالفهم الرشيد ، كما ردهم المتوكل الى ثلاثة دنانير (٣٣٠) .

وقد بدأ تنظيم الادارة المالية الاسلامية فى اجناد الشام منذ عهد عمر فقد قسم الارزاق وعين امراء الاجناد فى زيارته سنة ١٧ هـ وخطب حين أراد القفول فقال « ... قسطنا بينكم فيئكم ومنازلكم ومغازيكم، وابلغنا ماالديكم — فجندنا لكم الجنود وهيأنا لكم الفروج ، وبوأناكم

---

(٣٢٨) ابو يوسف الخراج ص ١٠٥ ، ٤٧ : ٥٠ .

(٣٢٩) دكتور الريس : الخراج فى الدولة الاسلامية ص ٣٨٨ : ٣٩١ .

(٣٣٠) البلاذرى : فتوح البلدان ص ١٥١ ، ١٦٥ .

ووسعنا عليكم ما بلغ فيئكم عليه من شامكم ، وسمينا عليكم اطماعكم، وأمرنا لكم باعطائكم وأرزاقكم ومعاونكم ... » ويلاحظ ان عمر خصص عاملا للاهراء هو عمرو بن عبسة (٣٣١) ، وقد كانت الاهراء مخازن لايرادات الدولة النوعية ، وكان بحمص هرى « يرده قمح وزيت من الساحل وغيرها مما قوطع أهله عليه واسجلت لهم السجلات بمقاطعتهم». كما بنى مسلمة بن عبد الملك بالباب هريين للطعام والشعير ، وجعل عبدالله ابن عبد الملك كنيسة فى حصن المصيصة هريا (٣٣٢) .

وقد جاء تعريب الدواوين فى عهد عبد الملك بن مروان خطوة واسعة فى سبيل تقدم الادارة المالية الاسلامية ، بعد ان كان كتابها من الروم والفرس حتى روى البلاذرى ان زادان فروخ ان بيرى كان يقول عن الحجاج انه « .. لا يجد من يكفيه حسابه غيرى » وكان معه صالح ابن عبد الرحمن مولى بنى تميم من سبى سجستان يخط بين يديه بالعربية والفارسية فقال له « لو شئت أن احول الحساب الى العربية لحولته » . فلما عزم الحجاج على أن يجعل الديوان بالعربية وقلد ذلك صالحا « قال له مروان شاه بن زادان فروخ : كيف تصنع بدهوية وششوية ؟ قال : اكتب عشر ونصف عشر ، قال فكيف تصنع بويد ؟ قال اكتبه ايضا والويد النيف والزيادة تزاد ، فقال : قطع الله اصلك كما قطعت أصل الفارسية . وبذلت له مائة الف درهم على أن يظهر العجز عن نقل الديوان ويمسك عن ذلك فابى ونقله ، فكان عبد الحميد ابن يحيى كاتب مروان بن محمد يقول : لله در صالح ـ ما أعظم منته على الكتاب » (٣٣٣) » ، وهكذا بدا فى الظهور جهاز ادارى مالى عربى أو مستعرب وتغلب الكتاب الجدد على مصاعب كتابة الكسور ، وكوفىء الموظف الذى عرب ديوان الشام بخراج الاردن لمدة عام وكان مائة وثمانين الف دينار « وبقى النظام الرومى والفارسى في الديوان كما هو بطبيعة الحال ، ولم يتغير الا لغة الديوان . ولا شك أيضا فى أن الكتاب الروم والفرس الذين كانوا فى خدمة الدولة قد بقوا كما كانوا لانهم كانوا يعرفون العربية ، وكان لا بد للكاتب من معرفة الفارسية والرومية لكى يستطيع النقل الى العربية . وينسب تيوفانيس الى الوليد الاول ـ لا الى من قبله ـ احلال اللغة العربية محل الرومية ، ويقول ان العرب قد اضطروا

---

(٣٣١) الطبرى جـ ٤ ص ٢٠٣ ـ ٤ رواية السرى عن شعيب عن سيف .
(٣٣٢) البلاذرى : فتوح البلدان ص ١٤١ ، ١٧٢ ، ٢١٤ .
(٣٣٣) البلاذرى : فتوح البلدان ص ٣٠٨ ـ ٩ .

الى الاحتفاظ بعلامات الارقام الرومية وان كتابه كانوا ما يزالون نصارى. والحقيقة أن الكتاب النصارى في العصر العباسي -الذى الف فيه هذا المؤرخ البيزنطي كتابه - كانوا أقوى نفوذا وأعظم سلطانا مما كانوا في أى وقت مضى ، ولكن البغض لهم لم يبلغ ما بلغه في ذلك العصر أيضا . وقد أخذ على عبيد الله بن زياد انه استعمل الدهاقين في جباية الخراج فعلل ذلك بأنهم (ابصر بالجباية ، واوفى بالامانة ، وأهون فى المطالبة من العرب) . واصبحت ادارة الدولة فى عهد عبد الملك ذات طابع فنى ومتدرج اكثر مما كانت عليه من قبل ، وان لم تبلغ فى ذلك الا درجة أقل بكثير مما بلغته ادارة الدولة العباسية » . (٣٣٤) وذكر الطبرى « روى عن عبد الله بن على : جمعت دواوين بنى مروان فلم ار ديوانا اصح ولا أصلح للعامة والسلطان من ديوان هشام . وقال غسان بن عبد الحميد : لم يكن أحد من بنى مروان أشد حصرا فى أمر أصحابه ودواوينه ولا أشد مبالغة فى الفحص عنهم من هشام » . (٣٣٥) واذا كان تدوين الدواوين فى الاصل قد اجرى لاسباب مالية ، فان تطورها وزيادة عددها وأحكام أعمالها قد دفعت اليه أسباب مالية أيضا . وديوان الخاتم الذى يعزى انشاؤه الى معاوية قد قام توقيا للتزوير والاختلاس ، فيروى البلاذرى أن رجلا انتقش على خاتم وأصاب به مالا من خراج الكوفة ، ونقل عن ابن المقفع علم بسوابق فى الادارة الفارسية لضبط هذا الامر « قال : كان ملك الفرس اذا أمر بامر وقعه صاحب التوقيع بين يديه ، وله خادم يثبت ذكره عنده فى تذكرة تجمع لكل شهر فيختم عليها الملك خاتمة وتخزن . ثم ينفذ التوقيع الى صاحب الزمام فيعرضه على الملك فيقابل به ما فى التذكرة - ثم يختم بحضرة الملك أو أوثق الناس عنده ... وعنه أيضا قال : كان لملك من ملوك فارس خاتم للسر ، وخاتم لمرسل وخاتم للتخليد - يختم به السجلات والاقطاعات وما شبه ذلك من كتب التشريف ، وخاتم للخراج . فكان صاحب الزمام يليها ، وربما أفرد بخاتم السر والرسائل رجل من خاصة الملك » .

وعلى هدى هذه السوابق « كان زياد بن أبى سفيان أول من اتخذ من العرب ديوان زمام وخاتم امتثالا لما كانت الفرس تفعله ... وأخبرنى مشايخ من الكتاب : أن دواوين الشـــام انما كانت فى قراطيس وكذلك

---

(٣٣٤) فلهوزن : تاريخ الدولة العربية . ترجمة دكتور أبو ريدة. ص ٢١١ : ٢١٣ .
(٣٣٥) الطبرى جـ ٨ ص ٢٨٥ .

الكتب الى ملوك بني امية في حمل المال وغير ذلك ، فلما ولي المنصور أمر وزيره أيوب الموريائي أن يكتب الرسائل بحمل الاموال في صحف وأن تصغر الصحف – فجرى الامر على ذلك (٣٣٦) » .

وهكذا ظهر ديوان الخاتم في عهد معاوية بينما انشىء ديوان الزمام في عهد العباسيين في خلافة المهدي سنة ١٦٢ هـ « ولم يكن لبني أمية دواوين أزمة » وذلك أن الدواوين جمعت لعمر بن بزيع احد موالي المهدي الخاصين به وحينذاك « تفكر فاذا هو لا يضبطها الا بزمام – يكون له على كل ديوان ، فاتخذ دواوين الازمة وولى على كل ديوان رجلا (٣٣٧) » . انتظمت الادارة المالية الاسلامية في الاقاليم « وكان خزيمة بن خازم هو الذي سن المساحة بدبيل والنشوى ولم يكن قبل ذلك ... ولم يزل بطارقة أرمنية مقيمين في بلادهم يحمي كل واحد منهم ناحيته فاذا قدم الثغر عامل من عماله داروه ، فان رأوا منه عفة وصرامة وكان في قوة أدوا اليه الخراج وأذعنوا له بالطاعة ، والا اغتمزوا فيه واستخفوا بأمره » (٣٣٨) » .

وكانت الجباية تسند الى عامل الخراج مستقلا عن الوالي ، فاذا ما جمع الوالي الى عمله وظيفة صاحب الخراج فانه كان يدع مهمة الجباية الى الكاتب . وتتناثر روايات تاريخية متفرقة تصور سير العمل في الادارة المالية ، ومن ذلك ما يرويه احمد بن المدبر « كنت اتقلد مجلس الاسكدار – وهو مدرج يكتب فيه عدد الخرائط والكتب الواردة والنافذة وأسامي أربابها – في ديوان الخراج (٣٣٩) .. » .

وقد تمخضت زيارة المأمون للشام سنة ٨٢٩م ٢١٥ هـ عن وضع كشف جديد لاراضيها على أمل زيادة جبايتها (٣٤٠)، ويبدو أن السلطة المركزية في العهد العباسي لم تكن تدع للولايات الســلطان المطلق في الشئون الادارية – خاصة بالنسبة للشام التي كانت تنظر اليها الدولة نظرة معينة باعتبارها قاعدة خصومها السابقين من الأمويين فضــلا عن كونها مثار فتن متلاحقة ضد العباسيين .

(٣٣٦) البلاذري : فتوح البلدان ص ٤٦٨ : ٤٧٠ .
(٣٣٧) الطبري جـ ٩ ص ٣٤٢ ، جـ ١٠ ص ١٠ .
(٣٣٨) البلاذري : فتوح البلدان ص ٢١٧ – ٨ .
(٣٣٩) الجهشياري : الوزراء والكتاب ص ١٩٩ .
(٣٤٠) حتى : تاريخ سوريا جـ ٢ ترجمة دكتور اليازجي ص ١٦٥ .

وفى العاصمة كان هناك **فصل بين بيت المال العام وبين خزانة الخليفة وهى المسماه بيت مال الخاصة** وان كان يعهد بأمرها لرجل واحد فيصبح الفصل بين حساباتهما مسألة تتعلق بضميره . وفى بيان يرجع الى أول القرن الرابع الهجرى **نجد ان أموال مصر والشام كانت تحمل الى بيت مال الخاصة** — اذ تحمل جزية أهل الذمة الى بيت مال الخليفة باعتباره أمير المؤمنين لا الى بيت مال العامة — فهذ واجب الخليفة نظريا ، كما كان يحمل الى بيت المال الخاص من أموال الضياع والخراج بالسواد والاهواز والمشرق والمغرب . وعندنا **أبواب لميزانية الدولة** سنة ٣٠٦هـ — سنة ٩١٨م — وهى تقوم على ميزانية عام سنة ٣٠٣هـ ، **فكانت الميزانية العامة تقسم على نحو ما كانت تقسم الدفاتر** فى دواوين الى الخراج الى باب الاستخراج أو الدخل وباب النفقات،وكذلك **يقسم باب النفقات الى النفقات الراتبة والحادثة ، وكانت الميزانية تنتهى بعجز . وكانت مقادير الخراج لاقاليم من المشرق تذكر عينا وحتى عام ٢٦٠ هـ/٨٧٣ م كان يذكر النوع الى جانب القيمة بالذهب مما يدل على تقدم النظام المالى ، اما فيما يتعلق بالشـام والعراق فكان الخراج يحسب بالعين والنوع. وبحكم اعتبار الخليفة اماما للمسلمين كان عليه أن يتكفل من بيت المال الخاص بنفقات موسم الحج والغزوات الصائفة وفداء أسرى المسلمين واستقبال الرسل الوافدين ، اما العطايا وكل ما يتعلق بنفقات دار الخلافة. فكان يؤخذ من بيت المال العام .**

وكانت بيت المال فى كل من مصر والشام بالمسجد الجامع « وهو شبه قبة مرتفعة محمولة على أساطين ، لبيت المال باب حديد وأقفال والصعود عليه على قنطرة من الخشب ، واذا صليت العشـاء الاخرة أخرج الناس كلهم من المسـجد ثم أغلقت أبوابه وذلك لوجود بيت المـال فيه » (٣٤١) .

وصحبت الحملات العسكرية ضد الروم ادارة مالية خاصة ، ففى سنة ١٦٣ هـ أخرج المهدى مع هارون « على أمر العسكر ونفقاته وكتابته والقيام بأمره يحيى بن خالد » (٣٤٢) .

ولم تجر الريح طيبة دائما فى شئون المال طوال عهد العباسيين ، فقد ظهر نذير الازمة المالية . وفى سنة ٢٣٢ هـ أمر الواثق بترك جباية

---

(٣٤١) متز : الحضـارة الاسـلامية . ترجمة دكتور أبى ريدة جـ ١ ص ١٧٢ : ٥ ، ١٤٤ ، ١٨٠ .

(٣٤٢) الطبرى جـ ٩ ص ٣٤٣ .

اعشار البحر تيسيرا لامر التجارة ، ولكن هذا التيسير لم يكن نتيجة استغناء بيت المال وانما هي محاولة لعلاج بعض نواحي الازمة ، وقد حبس الواثق الكتاب سنة ٢٢٩هـ والزمهم أموالا « فدفع احمد بن اسرائيل الى اسحق بن يحيى بن معاذ صاحب الحرس وأمر بضربه كل يوم عشرة أسواط ، فضربه فيما قيل نحوا من الف سوط فادى ثمانين الف دينار ، وأخذ من سليمان بن وهب أربعمائة الف دينار ... ومن احمد الخصيب وكتابه الف دينار ... وذلك سوى ما أخذ من العمال بسبب عمالاتهم (٣٤٣) » . وهذا دليل على مواضع سوء في الادارة المالية مكنت هؤلاء الكتاب من الخيانة ، أو سوء في حالة الدولة الجاها الى المصادرة بهذا الاعتساف . وقد اخذ نظام التقبل أو الضمان ينتشر بالتدريج في العصر العباسي (٣٤٤) ، بالرغم من أن الفقهاء صرحوا بمخالفة هذا النظام لمبادىء الشريعة الاسلامية « فان المتقبل اذا كان في قبالته فضل عن الخراج عسف أهل الخراج وحمل عليهم مالا يجب عليهم وظلمهم وأخذهم بما يجحف بهم ليسلم مما دخل فيه . وفي ذلك وامثاله خراب البلاد وهلاك الرعية ، والمتقبل لا يبالي بهلاكهم بصلاح أمره في قبالته ، ولعله يستفضل بعد ما يتقبل به فضلا كثيرا ... فيضر ذلك بهم فيخربوا ما عمروا ويدعوه فينكسر الخراج ، وليس يبقى على الفساد شيء ولن يقل مع الصلاح شيء (٣٤٥) » .

وقد كان امراء الاطراف يظهرون على مسرح الاحداث في غالب الامر ضامنين للبلاد التي يحكمونها فهم لم يظهروا في صورة أصحاب الاقطاعات كما كان الحال في الامبراطورية الرومانيةالمقدسة ، بل يتوصلون الى الملك بأن يشرعوا في احتلال المدن الاقاليم غصبا ويقاتلوا عليها عسكر الخليفة حتى يقر لهم بالامارة مقابل مال يضمنون أداءة . في سنة ٢٩٦هـ — سنة ٩٠٩ م ضمن ابن أبي الســاج أرمينية وأذربيجان قبل أن تؤولا للسامانيين على ١٢٠,٠٠٠ دينار — وهو ما يقرب من عشر الدخل الذي كانت تدفعه هذه البلاد منذ مائة سنة (٣٤٦) .

ولم تجد الاقتراحات شيئا في علاج الاحوال فان ابن المقفع مثلا قد كتب للمنصور ما عرف باسم (رسالة الصحابة) نصح فيها الا يولى

(٣٤٣) الطبري جـ ١١ ص ٣٤ ، ١٠ .
(٣٤٤) دكتور الريس : الخراج في الدولة الاسلامية ص ٤٨٥ .
(٣٤٥) ابو يوسف : الخراج ص ١٠٥ .
(٣٤٦) متز : الحضارة الاسلامية . ترجمة دكتور أبي ريدة جـ ١ ص ١٨٧ .

جند خراسان شيئا من الخراج « فان ولاية الخراج مفسدة للمقاتلة ، ولم يزل الناس يتحامون ذلك منهم وينحونه عنهم — لأنهم أهل دالة ودعوى بلاء ، وانه اكان جلابا للدراهم والدنانير اجترأ عليهما ، واذا وقع فى الخيانة صار كل أمره مدخولا ٠٠٠ »

وافصحت الرسالة عن مساوىء النظام المالى منذ ذلك العهد المبكر من حكم العباسيين « ان أصول الوظائف على الكور لم يكن لها ثبت ولا علم ، وليس من كورة الا وقد غيرت وظيفتها مرارا فخفيت وظائف بعضها وبقيت وظائف بعض ٠٠ فلو ان أمير المؤمنين أعمل رأيه فى التوظيف على الرساتيق والقرى والارضين وظائف معلومة وتدوين الدواوين بذلك واثبات الاصول ٠٠ لرجونا أن يكون فى ذلك صلاح للرعية وعمارة للارض وحسم لابواب الخيانة وغشم العمال » ٠ وختم ابن المقفع نصائحه بتخير العمال وتفقدهم والاستعتاب لهم والاستبدال بهم(٣٤٧) ٠ ثم جاء أبو يوسف فكتب كتابه فى الخراج للرشيد ، ولكن لم تجد الكتب فى علاج الامور ٠ وقد عقد ابن خلدون فصلا ممتعا فى الجباية لكنه جاء متأخرا جدا بالنسبة للاحوال السياسية والاقتصادية ، وان كان متقدما بالنسبة لتاريخ العلوم والمعارف ٠ فقال ابن خلدون : ان الجباية فى أول الدولة تكون قليلة الوزائع كثيرة الجملة وآخر الدولة تكون كثيرة الوزائع قليلة الجملة « والسبب فى ذلك ان الدولة ان كانت على سنن الدين فليست تقتضى الا المغارم الشرعية : من الصدقات والخراج والجزية — وهى قليلة الوزائع ، وهى حدود لا تتعدى ٠ وان كانت على سنن التغلب والعصبية فلا بد من البداوة فى أولها : والبداوة تقتضى المسامحة والمكارمة ٠٠ فيقل لذلك مقدار الوظيفة الواحدة ، والوزيعة التى تجمع الاموال من مجموعها ، واذا قلت الوزائع والوظائف على الرعايا نشطوا للعمل ورغبوا فيه فيكثر الاعتمار ويتزايد محصول الاغتباط بقلة المغرم ، واذا اكثر الاعتمار كثرت اعداد تلك الوظائف والوزائع فكثرت الجباية التى هى جملتها ٠ فاذا استمرت الدولة واتصلت وتعاقب ملوكها واحدا بعد واحد وتكثرت عوائدهم وحوائجهم بسبب ما انغمسوا فيه من النعيم والترف ، فيكثرون الوظائف والوزائع حينئذ على الرعايا والاكرة والفلاحين وسائر أهل المغانم ، ويزيدون فى كل وظيفة ووزيعة مقدارا عظيما لتكثر لهم الجباية ويضعون المكوس على المبايعات والابواب ٠ ثم تتدرج الزيادات

(٣٤٧) دكتور الريس : الخراج فى الدولة الاسلامية ص ٣٧٣ : ٥ ٠

فيها بمقدار بعد مقدار — لتدرج عوائد الدولة في الترف وكثرة الحاجات والانفـــاق بسببه ، حتى تثقل المغارم على الرعايا وتنهضم وتصير عادة مفروضة ٠٠ ثم تزيد الى الخروج عن حد الاعتدال ، فتذهب غبطة الرعايا في الاعتمار لذهاب الامل عن نفوسهم بقلة النفع اذا قابل بين نفعه ومغارمه وبين ثمرته وفائدته ٠٠ وربما يزيدون في مقدار الوظائف اذا رأوا ذلك النقص في الجباية ، ويحسبونه جبرا لما نقص — حتى تنتهى كل وظيفة ووزيعة الى غاية ليس وراءها نفـــع ولا فائدة ٠٠ الى أن ينتقص العمران بذهاب الامال من الاعتمار ويعود وبال ذلك على الدولة » ٠

وقد فطن ابن خلدون الى أن اقلال الدولة من نفقاتها وعطائها يؤدى بالتالى — بعد دورة اقتصادية — الى نقص فى الجباية « والسبب فى ذلك ان الدولة والسلطان هى السوق الأعظم للعالم ومنه مادة العمران ، فاذا احتجن السلطان الاموال أو الجبايات أو فقدت فلم يصرفها فى مصارفها — قل حينئذ ما بأرض الحاشية والحامية ، وانقطع أيضا ما كان يصل منهم لحاشيتهم وذويهم ، وقلت نفقاتهم جملة — وهم معظم السواد ونفقاتهم أكثر مادة للاسواق ممن ســواهم ، فيقــع الكساد حينئذ فى الاســواق وتضعف الارباح فى المتاجر ، فيقل الخراج لذلك — لان الخراج والجباية انما تكون من الاعتمار والمعاملات ونفـاق الاسواق وطلب الناس للفوائد والارباح ٠ ووبال ذلك عائد على الدولة بالنقص لقــلة أموال السلطـــان حينئذ بقلة الخراج(٣٤٨) » ٠

(د) العملة :

كانت الدنانير الرومية والدراهم الكسروية وقليل من الدراهم الحميرية (وعليها صورة البومة الاثينية) وهى الجارية فى بلاد العرب ٠ وقد أبقى عليها عمر وربما اضيفت اليها عبارة (لا اله الا الله) أو كلمة (جائز) للدلالة على انها عملة مقبولة ٠ وكانت هذه العملة تحمل نقوشا فيها تماثيل — أى صوره الملك أو أمير أو حصن او حيوان او بيت نار او صليب ، وبعضها كان يحمل تواريخ قديمة ترجع الى ما قبل الاسلام بأربعمائة سنة ٠ وقد ظهرت محاولات لسك عملة اسلامية من الفضة والنحاس على أيدى معاوية ومصعب بن الزبير بأمر أخيه عبد الله ، ولكن هذه العملات لم تنجح ٠ ومن اصلاحيات عبد الملك بن مروان المالية الكبرى تعريب العملة بعد تعريب الادارة ٠

(٣٤٨) ابن خلدون : المقدمة طبعة دكتور وافى جـ ٢ ص ٦٦٧ : ٩ ، ٦٧٩ ٠

والبلاذرى يروى ان ضرب الدنانير بدا فى دمشق سنة ٧٤ هـ بينما بدا ضربها فى العراق على يد الحجاج سنة ٧٥ هـ وهناك رواية للواقدى تذهب الى انه لم يبدأ فى ضرب الدراهم الفضية والدنانير الذهبية الا بعد ذلك سنة ٧٦ هـ « وكانت مثاقيل الجاهلية التى ضرب عليها عبد الملك اثنين وعشرين قيراطا الا حبة وكان العشرة وزن سبعة ، والمثقال الشامى هو الذى ضربت عليه الدنانير » • ويذكر تيوفانيس ان رد جستنيان الثانى للدنانير الذهبية الدمشقية كان هو السبب فى استئناف الحرب بين المسلمين والروم • ويروى البلاذرى « وكانت القراطيس تدخل بلاد الروم من أرض مصر ، ويأتى العرب من قبل الروم الدنانير • فكان عبد الملك بن مروان أول من أحدث الكتاب التى يكتب فى رءوس الطوامير من (قل هو الله أحد) وغيرها من ذكرها فكتب اليه ملك الروم : انكم أحدثتم فى قراطيسكم كتابا نكرهه فان تركتموه والا اتاكم فى الدنانير من ذكر نبيكم ماتكرهونه • فكبر ذلك فى صدر عبد الملك فكره أن يدع سـنة حسنة سنها فارسل الى خالد بن يزيد ابن معـاوية •• واخبره الخبر ، فقال : أفرخ روعك يا أمير المؤمنين ـ حرم دنانيرهم فلا يتعـامل بهـا ، واضرب للناس سككا ، ولا تعـف هؤلاء الكفرة مما كرهوا فى الطوامير • فقال عبد الملك : فرجتها عنى فرج الله عنك ـ وضرب الدنانير» • وهكذا ولدت العملة العربية • وروى ان الحجاج سأل عما كانت الفرس تعملّ به فى ضرب الدراهم « فاتخذ دار ضرب وجمع فيها الطباعين ، فكان يضرب المال للسلطان مما يجتمع له من التبر وخلاصة الزيوف والستوقة والبهرجة ، ثم أذن للتجـار وغيرهم فى أن تضرب لهم الاوراق واستغلها من فضول ما كان يؤخذ من فضـول الاجرة للصناع والطبـاعين » • وتتـابع الولاة الامويون على تجويد النقود : عمر بن هبيرة وخالد ابن عبد الله البجلى القسرى ويوسف بن عمر « فكانت الهبيرية والخـالدية واليوسفية أجود نقود بنى أمية ، ولم يكن المنصور يقبل فى الخراج من نقود بنى أمية غيرها» **وسك كل امير فى ناحيته العملة بتفويض من الخليفة** • وقد جاء سك العملة العربية استجابة لمقتضيات سـيادة الدولة الاسلامية ، كما انتفع الناس باشراف الدولة عليها ، فتميز الصحيح من المغشوش • وكان الخليفة بنفسه يحدد المقدار أى الوزن • ولم تتغير وحدة العملة بتعريبها فبقى الدينـار الذهبى والدرهم الفضى والقطـع من الدرهم مثل الدانق والمثقال ، ولكن تغير نقش العملة وأصبح كلمـات من غير صور فكانت الدنانير والدراهم على شكلين مدورين والكتابة عليهما فى دوائر متـوازية

فيكتب على أحد الوجهين أسماء الله وصـلاة على النبى وعلى الوجه الآخر التاريخ واسم الخليفة .

وكان وضع علامة السلطان على النقود دليلا على جودتها « بحسب الغاية التى وقف عندها السبك والتخليص فى متعارف أهل القطر ومذاهب الدولة الحاكمة .. ولفظ السكة كان اسما للطابع ــ وهى الحديدة المتخذة لذلك ، ثم نقل الى أثرها وهى النقوش المـاثلة على الدنانير والدراهم ، ثم نقل الى القيام على ذلك والنظر فى اسـتيفاء حاجاته وشروطه ــ وهى الوظيفة .. وهى وظيفة ضرورية للملك اذ بهـا يتميز الخـالص من المغشوش بين الناس فى النقود عند المعاملات .. ولما جاء الاسلام أغفل ذلك لسذاجة الدين وبداوة العرب .. الى أن تفاحش الغش فى الدنانير والدراهم لغفلة الدولة عن ذلك » . وقد أثنى المقريزى على فعل عبد الملك «فكان فيما صنع فى الدراهم ثلاث فضائل : الاولى ــ ان كل سبعة مثاقيل زنة عشرة دراهم ، والثانية ــ انه عدل بين صغارها وكبارها حتى اعتدلت وصار الدرهم ستة دنانير ، والثالثة ــ انه موافق لما سنه رسول الله فى فريضة الزكاة بغير وكس ولا اشتطاط(٣٤٩) » .

وقد كانت الدولة الاسـلامية تتعامل بالدينـار والدرهم معا ، ويجبى الخراج بهما معا « وكانت الدولة منقسـمة الى منطقتين : المنطقة الاولى ــ يكثر التعامل فيها بالدينار أو يعتبر أساسا كمصر والشام أو المنطقة التى كانت تابعة للدولة البيزنطية ، والثانية ــ يكثر التعامل فيها بالدرهم أو يعتبر النقد الرئيسى مثل العراق وفارس أو المنطقة التى كانت تابعة للدولة الفارسية . فالاولى يصح أن تسمى منطقة الذهب والثانية تسمى منطقة الفضة . ولكن مع ذلك كان التعامل مقبولا بأحد النقدين أو الآخر ، ويحـول أحدهما الى الآخر بحسب النسبة ــ أى **سعر الصرف السائد فى السوق الذى تحدده الاحوال التجارية دون تدخل الحكومة .** فنظام النقد للدولة الاسلامية بصفة عامة هو نظام المعدن المزدوج Bimettalism

وقد اختلف سعر الصرف : فبعد أن كان الدينـار مسـاويا لعشرة

(٣٤٩) الطبرى جـ ٧ ص ٢٤٢ رواية الواقدى ، البلاذرى : فتوح البلدان ص ٢٤٩ ، ٤٧١ : ٤ ، ابن خلدون : المقدمة طبعة دكتور وافى جـ ٢ ص ٥٧٧ ، ٦٣٨ : ٦٤٠ ، فلهوزن: تاريخ الدولة العربية ترجمة دكتور ابى ريدة ص٢١٠ ــ ١١ ، دكتور ماجد : التاريخ السياسى للدولة العربية جـ ١ ص ٢٣٧ ــ ٨ ، جـ ٢ ص ١٦٥ : ١٧٠ ، المقريزى : النقود القديمة الاسلامية ص ٢٢ : ٧ .

دراهم فى العهد الاول صار فى النصف الثانى من العهد الاموى يساوى اثنى عشر درهما ، الى أن صار يساوى خمسة عشر أو أكثر فى العهد العباسى » • ويرجع الدكتور الريس تقدير الدينار بستين قرشا مع اختلاف تقدير الدرهم باختلاف سعر الصرف « ولكن هذه التقديرات كلها من حيث قيمة العملة فى ذاتها ولايدخل فيها تقدير القوة الشرائية(٣٥٠)» وقد ضربت النقود فى مختلف أقاليم الدولة الاسلامية ، **وفى عهد مروان بن محمد آخر خلفاء بنى امية ضربت الدراهم بالجزيرة وكانت السكة بحران(٣٥١) • والتقط فلس ضرب فى قنسرين أيام صالح العباسى وكان يكتب على العملة اسم الخليفة أو العامل ـ وهناك عملة عليها اسم العكى عامل الرشيد(٣٥٢) •**

وذكر ابن العديم « ورأيت فلوسا عتيقة ، فتتبعت ما عليها مكتوب، فاذا أحد الجانبين مكتوب عليه (ضرب هذا الفلس بمدينة حلب سنة ست وأربعين ومائة) وعلى الجانب الآخر (مما أمر به الأمير صالح بن علي أكرمه الله) •• ورأيت فلوسا عتيقة فتتبعت ما عليها مكتوب ، فاذا أحد الجانبين مكتوب عليه (ضرب هذا الفلس بمدينة حلب سنة سبع وخمسين ومائة) وعلى الجانب الآخر (ممـــــا أمر به الأمير موسى مولى أمير المؤمنين) وهو موسى بن سليمان الخراساني (٣٥٣) » •

(هـ) الاقطاع :

في القرن السابع الميلادي انتشر الطابع الاقطاعي في النظم الحربية، فالملك يقسم الأرض بين البارونات الذين يلزمون بتقديم عدد معين من الجند لخوض معارك الحرب مع الملك ، وبهذا النظام **لايكون الجنـــد ملزمين بالطاعة اذ كانوا هم جند البارونات أو تابعى الملك • لكن عمر بن الخطاب أدخل طريقة منظمة لدفع رواتب الجند (٣٥٤) ، بل حرص عمر على أن يحول بين الجند وبين تملك الأرض والاشتغال بالزرع ، فاعتبرت الأراضى المفتوحة فيئا** ـ أى من الملك العام للدولة وتركت فى أيدى أصحابها على أن

---

(٣٥٠) دكتور الريس : الخراج فى الدولة الاسلامية ص ٣٤٥ : ٧ •
(٣٥١) المقريزى : النقود القديمة الاسلامية ص ٤٥ •
(٣٥٢) الكرملى : علم النميات ص ١٣٦ ـ ٧ •
(٣٥٣) ابن العديم : زبدة الحلب جـ ١ ص ٦٠ •
(٣٥٤) حسينى : الادارة العربية ترجمة دكتور العدوى ص ١١٧ •

يؤدوا الخراج . فالى أى حد طبقت هذه القاعدة عموما وفى الثغور بوجه خاص ؟ **وهل كانت الدولة الاسلامية فى نظمها بالثغور اقرب الى القاعدة العمرية أم الى ماكان لدى الروم من نظم حربية ومالية ؟**

يقول جرونيباوم « ادى استمرار حرب الثغور (الحدود) الى حدوث نفس التطور الاجتماعى لدى كل من الدولتين ، فمنذ القرن السابع شرعت كل منهما تقطع أجزاء كبيرة من مناطق الثغور لطائفة وراثية من المقاتلين المحترفين . حقا ان الاسلام والامبراطورية البيزنطية كانا يعرفان الاقطاع خارج ولايات الحدود أيضا ، على أن أهميته السياسية كانت على أشدها حيثما كان الأمر يقتضى قيام حالة مستديمة من بالغ اليقظة لدفع عدوان المغيرين . والاقطاع عند المسلمين والبيزنطيين كبير التشابه ، وهو يختلف عند الفريقين عن سميه فى الغرب اختلافا جوهريا — من حيث ارتبـــاط صاحب الاقطاع بعاهله مبـــاشرة على حين كان المقطع الغربى vassal عضوا فى مجموعة متدرجة من الاقطاعيين الذين كانوا يستطيعون أن يعطوا الأرض التى منحها لهم مولاهم المبـــاشر اقطاعا لآخرين دونهم — فيصبحون بذلك اتباعا مقطعين لمقطعين وهكذا دواليك (٣٥٥) » . ومن هنا ارتأى الدكتور مؤنس ان **المسلمين « كانوا ينظرون الى الولايات الثغرية نظرة تخالف نظرتهم الى الولايات المدنية ، فكانوا اميل الى التساهل مع السكان فى النواحى الثغرية طمعا الى كسبهم فى نواحى المسلمين وكانوا كذلك أكثر كرما على الجنود المقيمين فى الثغر** منهم على المقيمين فى الولايات المدنية ، وقد وزع عمر ابن الخطاب أراضى أقصى شرقى فارس على فاتحيها من المسلمين وسماها الثغور الهندية ، وقد فعل ذلك استئلافا لقلوب هؤلاء الجنود ولتقوية نفوسهم على ســــداد ثغرهم . واعتبر عمر بن عبد العزيز الأندلس ولاية ثغرية : فأقر الاقطاعات فيها ، وتسامح المسلمون مع أهل النواحى من النصارى فيها . فحكومة المسلمين فى الولايات الثغرية فى حاجة الى الدرس — فقد كانت لها نظم خاصة تختلف كل الاختلاف عن النظم التى أقرها المسلمون فى البلاد المفتوحة (٣٥٦) » .

وهناك روايات مبكرة عن **اقطاع الأرض فى الاسلام** ، فقد روى عن تميم الدارى انه استقطع رسول الله أرضا بالشام قبل أن تفتح فاعطاه اياها ، فلما فتحت الشام أيام عمر أتاه تميم فأخبره الخبر ، فجعل عمر ثلثها لابن السبيل وثلثا لعمارتها وثلثا لتميم . وقد كانت الأرض تقطع

(٣٥٥) جرونيباوم . حضارة الاسلام ترجمة جاويد ص ٢٤ .

(٣٥٦) دكتور مؤنس . فجر الأندلس ص ٢٩٨ والهامش .

فى أول الامر تعويضا لما فقده المهاجرون أو معونة أو تحقيقا للاستثمار الاقتصادى · **ويعتبر أبو بكر من المقلين فى الاقطاع الى درجة المنع ، بينما اهتم عمر باقطاع أرض الموات بصفة خاصة لما رآه فى ذلك النفع العام ،** وشدد عمر فى ان المقطع اذا عجز عن استغلال اقطاعه خلال ثلاث سنوات استرجعه منه أو استرجع القدر الذى لم يطق عمارته ، **أما الأرض العامرة المزروعة فعلا التى انتقلت الى حوزة المسلمين بالفتح فيئا كانت أو غنيمة فلم يرعمر اقطاعها مثل أرض السواد بالعراق واسترجع ما كان اقطعه · وكانت المراعى تعتبر من المنافع ومن ثم ندر اقطاعها · أما اقطاع المساكن فكان معروفا منذ فجر الاسلام وذلك لضرورة التعمير والاستقرار واسكان المهاجرين والنازحين واقامة المدن والامصار ·** وأجاز الرسول حيازة المعادن لمن يرد الأرض التى تحويها أولا ، لكنه لا يقطع ما دام المعدن ظاهرا · **وقد توسع عثمان فى منح القطائع** « وذكر أبو هلال العسكرى فى الأوائل ان أول من أقطع القطائع بالأرضين عثمـــان ـ ووجه ذلك ان أول من أقطع القطائع بعد الفتح » . تلك هى أصول الاقطاع فى الاسلام « ويلاحظ ان الفكرة نبتت لأول مرة فى الدولة الاسلامية خلال العشرة سنين الأولى من القرن الأول الهجرى وأوائل القرن السابع الميلادى ، وانها لم تعد مجرد اجراء فرعى تنظيمى لجأ اليه ولى الأمر من بين ما لجأ اليه من نظم وتشريعات كى يمنح بعضا من الرعايا مساحات معينة ان ملكا وان استغلالا لأسباب ماثلة لديه وهو فى حل من أن يمنح أو لا يمنح ، **بل اعتبرت من الصدقة للفريق من المقطعين** · وربما كان هذا المعنى هو الذى دفع المقريزى فيما بعد لأن يقول (وانما القطائع علىوجه النفل من خمس ما افاء الله) ، وهــذا ما جعل للاقطاع الاسلامى **صـــفة المنحة الشخصية** التى ظلت بارزة فى الدولة الاسلامية خلال العصور اللاحقة ـــ حتى فى أقصى مراحل تطور الاقطاع الاسلامى ونضجه » · (٣٥٧) ·

وكان من نتائج الفتح الاسلامى ان أراضى عديدة فى العراق والشام وغيرهما بقيت بدون مالك ـ اذ جلا عنها أهلهـــا أو كانت تابعة للملوك السابقين أو الدولة · فقرر عمر ضمها الى بيت المال وعرفت بالصوافى اذ جعلت خالصة صافية لبيت المال ، واستثمرت مباشرة دون اقطاع ، وروى أن غلتها كانت أربعة أو سبعة أو تسعة آلاف الف درهم كانت تصرف فى مصالح المسلمين · ثم رأى عثمان أن اقطاعها أوفر لغلتها على أن يأخذ

---

(٣٥٧) دكتور طرخان : الاقطاع الاســلامى المجلة التاريخية المصرية م ٦ سنة ١٩٥٧ ، القلقشندى : صبح الاعشى جـ ١٣ ص ١٠٤ ـ ٥ ·

ممن اقطعه اياها حق الفيء ، وقد بقيت هذه الأراضي مسجلة في الديوان حتى أحرقت الدواوين في أثناء فتنة ابن الأشعث (٣٥٨) ٠

وقد ظهرت آثار سياسة عثمان في التوسع في الاقطاع في ثغور الشام وسواحلها : فروى البلاذرى « كانت انطاكية عظيمة الذكر والامر عند عمر وعثمان، فلما فتحت كتب عمر الى أبي عبيده: أن رتب بانطاكية جماعة من المسلمين أهل نيات وحسبة واجعلهم بها مرابطة ولا تحبس عنهم العطاء ٠ ثم لما ولى معاوية كتب اليه بمثل ذلك ، ثم ان عثمان كتب اليه يأمره أن يلزمها قوما وأن يقطع قطائع ففعل ٠ قال ابن سهل : وكنت واقفا على جسر انطاكية على الارنط فسمعت شيخا مسنا من أهل انطاكية وأنا يومئذ غلام يقول : هذه الأرض **قطيعة من عثمان** لقوم كانوا في بعث أبي عبيدة اقطعهم اياها أيام ولاية عثمان الشام .. وكانت بالس وقاصرين لأخوين من أشراف الروم أقطعا القرى التي بالقرب منهما وجعلا حافظين لما بينهما من مدن الروم بالشام ، فلما نزل المسلمون بها صالحهم أهلها على الجزية والجلاء فجلا أكثرهم الى بلاد الروم وأرض الجزيرة وقرية جسر منبج ، ورتب أبو عبيدة ببالس جماعة ن المقاتلة وأسكنها قوما من العرب الذين كانوا بالشام فأسلموا بعد قدوم المسلمين الشام وقوما لم يكونوا من البعوث نزعوا من البوادى من قيس ، واسكن قاصرين قوما ثم رفضوها أو اعقابهم ، وكانت بالس والقرى المنسوبة اليها في حدها الاعلى والأوسط والأسفل أعذاء عشرية ٠٠ ولما ستخلف عثمان كتب الى معاوية يأمره بتحصين السواحل وشحنتها ، **واقطاع من ينزله اياها القطائع ففعل** ٠٠٠ وأمره ان يعد في السواحل اذا غزا واغزى جيوشا سوى من فيها من الرتب ، **وان يقطع الرتب ارضين ويعطيهم ما جلا عنه اهله من المنازل** ويبنى المساجد .. قال الوضين : ثم ان الناس بعد انتقلوا الى السواحل من كل ناحية » ٠ وهكذا جرى الامر في سواحل صيدا وعرقة وجبيل وبيروت وعسقلان ، كما جرى في انطرطوس ومرقية وبلنياس وقاليقلا (٣٥٩) فنحن نلاحظ منذ ذلك العهد المبكر مخالفة للسياسة العربية التي يعبر عنها معاذ بن جبل بقوله « لئن قسمت الارض لتكونن ما نكره ، ويصير الشيء الكثير في ايدى القوم ثم يبيدون فيبقى ذلك لواحد ، ثم يأتي من بعدهم قوم يسدون في

---

(٣٥٨) دكتور الريس : الخراج في الدولة الاسلامية ص ١٣٩ : ١٤١ ٠

(٣٥٩) البلاذرى : فتوح البلدان ص ١٥٤ ، ١٥٧ ، ١٣٣ ، ١٣٤ ، ١٣٥ ، ١٤٠ ، ١٥١ ـ ٢٠٥ ٠

الاســـلام مسدا فلا يجـــدون شــيئا ، فانظر أمر يســـع أولهـــم وآخرهم » . (٣٦٠) . كذلك اذن للعرب في تلك المناطق بالزرع بعد ان كان عمر ينفر من اشتغال الجند بالزراعة « ولما ولى معاوية الشام والجزيرة لعثمان أمره أن ينزل العرب بمواضع نائية عن المدن والقرى ، **ويأذن لهم في اعتمال الارضين التي لا حق فيها لأحد** ، فانزل المازحين والمدبير اخلاطا من قيس وأسد وغيرهم وفعل ذلك في جميع نواحي ديار مضر ، ورتب ربيعة في ديارها على ذلك (٣٦١) .

ومضى الامويون قدما في هذا السبيل ، واستلزم تحول الخلافة الى ملك استكثار الانصار ، واقطعت الدولة الحسن ابن على اقطاعا كبيرا على أثر تنازله عن الخلافة لمعاوية .

« **واتاحت السعة في رقعة الدولة الاسلامية للخليفة أن يتوسع في اقطاع القطائع ، من ذلك ما استلزمته المحافظة على هذا الملك العريض من اقامة المعاقل والحصون التي عرفت بالمسالح ولا سيما على حدود الدولة وشحنها بالجند المرابطين والثاغرين ليكونوا على أهبة الدفاع .. ثم ان عملية التوسع نفسها وما تخللها من عمليات حربية أدت بطبيعة الحال الى اختلال الامن** وفقدان الطمأنينة سواء في حدود الدولة من العدو الجاثم على الابواب ، أو داخل حدود الدولة نفسها من الصعاليك وقطاع الطرق .. وظهرت تلقائيا فكرة (الالجاء) ومعناها أن يلجيء ضعيف ضيعة الى جار قوى ثم يسترجعها منه ثانية اقطاعا أو يلجيء أهل القرية قريتهم باراضيها الى السيد القوى قائدا كان أو أميرا ثم يستردونها منه اقطاعا فيصبحون مزارعين له ، وفي نظير ذلك يتولى السيد الدفاع عنهم . وثمة عامل آخر لانتشار الاقطاع الاسلامي هو **أن الثراء المفرط الذي صار للخلفاء نتيجة للفتح وتكدس الغنائم** مكن لهم أن يبسطوا أيديهم كل البسط في الهبات الاقطاعية على سبيل الجـائزة أو المكافأة .. هـذا **وشخصية ولاة الامر أنفسهم** كانت من أكبر العوامل في انتشار الاقطاع ، اذ عمل القوى منهم على استئداء الاقطاع لتدعيم سلطانه وتثبيت قواعد ملكه كخلفاء الدولة الاموية وخلفاء العصر العباسي الاول وأوائل الفاطميين ، على حين اضطر الضعيف فيهم الى اشباع رغبـــات المتسلطين من الاعوان على اختـــلاف أجناسهم ومناصبهم فحازوا الاقطاعات الواســعة وتصرفوا هم في المنح

(٣٦٠) البلاذرى : فتوح البلدان ص ١٥٨ .
(٣٦١) البلاذرى : فتوح البلدان ص ١٨٦ .

الاقطاعية لانصارهم(٣٦٢) ، ومن هنا **نجد آثار التوسع فى الاقطاع بأراضى الثغور** « فاقطع الوليد بن عبد الملك جندا بأنطاكية **أرض سلوقية** عند الساحل ، وصير الفلثر وهو الجريب بدينار ومدى قمح ـ فعمروها وجرى لهم ذلك وبنى حصن سلوقية ، وكانت أرض بغراس لمسلمه بن عبد الملك فوقفها فى سبيل البر ، وكانت عين السلور وبحيرتها له أيضا، فلما كان مسلمه بن عبد الملك توجه غازيا للروم من نحو الثغور الجزرية عسكر ببالس ، فأتاه أهلها وأهل بوبلس وقاصرين وعابدين وصفين وهى قرى منسوبة اليها فاتاه أهل الحد الأعلى فسألوه جميعا أن يحفر لهم نهرا من الفرات يسقى أرضهم على أن يجعلوا له الثلث من غلاتهم بعد عشر السلطان الذى كان يأخذه ، ففعل .. فلما مات مسلمه صارت بالس وقراها لورثته ، وأقطع عبد الملك بن مروان **القعقاع بحياد بنى القعقاع قطيعة**، واقطع عمه العباس بن جزء بن الحارث **قطائع أوغرها له إلى اليمن** فاوغرت بعده .. ولم تزل بحيرة الطريخ بأرمينية مباحة حتى ولى محمد ابن مروان الجزيرة وارمينية فحوى صيدها وباعه فكان يستغلها ثم صارت لمروان بن محمد .. وأسكن مروان بن محمد الخصوص شرقى جيحان ـ بجانب المصيصة فرسا وصقالبة وأنباطا نصارى ، وكان موضع نهر سعيد بن عبد الملك ـ وهو الذى يقال له سعيد الخير ـ غيضة ذات سباع فاقطعه اياها الوليد فحفر النهر وعمر ما هناك ، وقال بعضهم : الذى أقطعه ذلك عمر بن عبد العزيز ... وعن مشايخ من كتاب الرقة وغيرهم : كانت عين الرومية ومالها للوليد بن عقبة فاعطاها أبا زيد الطائى ... **وكان ابن هبيرة اقطع غابة ابن هبيرة** وهى من أرض سروج ... **وكان هشام اقطع عائشة ابنته قطيعة برأس كيفا** تعرف بها ... وكان**لعبد الملك وهشام قرية تدعى سلعوس ونصف قرية تدعى كفر جدا من الرها ، وكانت بطوان للغمرين يزيد تل عفراء وأرض تل مذابا وارض المصل وصوافى فى ربض حران ومستغلاتها (٣٦٣)** » .

ولما جاء العباسيون قبضوا ما كان بأيدى بنى أمية من الاقطاعات وأعطوها لآلهم وانصارهم ، فأرض مسلمة مثلا فى بالس قبضها عبد الله بن على واقطعها السفاح سليمان بن على فصارت لابنه محمد سليمان ، ثم آلت للرشيد فاقطعها المأمون وصارت لولده من بعده (٣٦٤) .

---

(٣٦٢) دكتور طرخان : الاقطاع الاسلامى : المجلة التاريخية المصرية مـ٦ سنة ١٩٥٧م .
(٣٦٣) البلاذرى : فتوح البلدان ص ١٥٥ ، ١٥٧ ـ ٨ ، ١٥٣ ، ٢٠٨ ، ١٧٣ ، ١٨٧ : ٩ .
(٣٦٤) البلاذرى : فتوح البلدان ص ١٥٨ .

وكانت هناك **أرض من الحمى** « وحمى الموات هو المنع من أحيائه أملاكا ليكون مستبقى الاباحة لنبت الكلا ورعى المواشى .. واذا استقر حكم الحمى على أرض فاقدم عليها من أحياها ونقض حماها روعى الحمى : فان كان مما حماه رسول الله كان الحمى ثابتا والاحياء باطلا .. وان كان من حمى الأئمة بعده ففى اقرار أحيائها قولان : أحدهما لا يقر ويجرى عليه حكم الحمى ، والثانى يقر الأحياء ، ويكون حكمه أثبت من الحمى .. (٣٦٥) » .

وقد كان مرج عبد الواحد حمى لخيل المسلمين قبل أن تبنى الحدث وزبطرة « فلما بنيتا استغنى بهما فعمر ، فضمه الحسين الخادم الى الأحواز فى خلافة الرشيد . ثم توثب الناس عليه فغلبوا على مزارعه حتى قدم عبد الله بن طاهر الشام فرده الى الضياع». وعلى أثر طاعون أصاب فلسطين عطل أراضى السامرة فى عهد الرشيد « وكل السلطان بها من عمرها وتألف الأكرة والمزارعين اليها فصارت ضياعا للخلافة » (٣٦٦).

وهكذا تراكمت ضياع بنى العباس ، فيروى الطبرى « **ولى سلام أو رشيد الخادم بعض خدام الخاصة ضياع الرشيد بالثغور والشامات ، فتواترت الكتب بحسن سيرته ، فأمر الرشيد بتقديمه وضم ما أحب أن يضم اليه من ضياع الجزيرة ومصر... »(٣٦٧) واستخدم العباسيون الاقطاع على نطاق واسع لتعمير مدن الثغور** ــ فعل هذا المنصور فى **المصيصة « واقطع الفرض قطائع ومساكن » ، وفى ملطية بنى للجند مساكن وثكنات « واقطع الجند المزارع »** وعلى هذا النهج تتابع خلفاء بنى العباس ، فبنى الرشيد طرسوس « فبلغ ذلك أربعة آلاف خطة كل خطة ٢٠ ذراعا فى مثلها ، **واقطع أهل طرسوس الخطط » كما اقطع المنازل بعين زربة ، واقطع المساكن والقطائع بالحدث** . على أننا نجد أحيانا شذوذا عن هذا السبيل من ذلك أن المهدى « فرض بالمصيصة لألفى رجل ، **ولم يقطعهم لأنها كانت قد شحنت من الجند والمطوعة » (٣٦٨)** .

تضخمت القطائع اذن بأراضى الثغور ، وابن عساكر يقدم لنا قصة هذه القطائع وتطورها « قال الوليد : واخبرنى أبو عمرو وغيره أن عمر وأصحاب رسول الله أجمع رأيهم على اقرار ما كان بأيديهم ــ أى أصحاب الارض ــ من أرضيهم يعمرونها ويؤدون منها خراجها الى المسلمين ... وكرهوا شراءها منهم طوعا بما كان من ايقاف

(٣٦٥) الماوردى : الاحكام السلطانية ص ١٦٤ : ٦ .

(٣٦٦) البلاذرى : فتوح البلدان ص ١٨٨ ــ ٩ ، ٢٠٠ ، ١٦٥ .

(٣٦٧) الطبرى جـ ١٠ ص ١١٧ .

(٣٦٨) البلاذرى : فتوح البلدان ص ١٧٣ ، ١٧٧ ، ١٧٨ ، ١٩٦ ، ١٩٩ .

عمر وأصحابه الارضين محبوســـة على آخر هذه الأمة من المسلمين المجاهدين لا تباع ولا تورث ... فقلت لغير واحد من مشيختنا ممن كان يقول هذه المقالة : فمن أين جاءت هذه القطائع التي بين ظهراني القرى الراهنة والمزارع التي بيد غير واحد من الناس ؟ فقال : ان بدء هذه القطائع أن أناسا من بطارقه الروم اذ كانت ظاهرة على الشام كانت هذه القرى التي منها هذه القطائع ، **فلما هزم الله الروم هربت تلك البطارقة عما كان في أيديها من تلك المزارع فلحقت بأرض الروم ، ومن قتل منها في تلك المعارك التي كانت بين المسلمين والروم ـ فصارت تلك المزارع والقرى صافية للمسلمين موقوفة يقبلها والي المسلمين كما يقبل الرجل مزرعته..**

قالوا : **فلم تزل تلك المزارع موقوفة مقبلة تدخل قبالتها بيت المال فتخرج نفقة مع مايخرج من الخراج ، حتى كتب معاوية في امرته على الشام الى عثمان : ان الذي أجراه عليه من الرزق في عمله ليس يقوم بمؤن من يقدم عليه من وفود الاجناد ورسل أمرائهم ومن يقـــدم عليه من رسل الروم ووفودهم ، ووصف في كتابه هذه المزارع الصافية وسماها له ـ يسأله أن يقطعه اياها ليقوى بها على ما وصف له ، وانها ليست من قرى أهل الذمة ولا الخراج ، فكتب اليه عثمان بذلك كتابا .** قالوا : فلم تزل بيد معاوية حتى قتل عثمان ، وأفضى الى معاوية الأمر ـ فاقرها على حالها ، ثم جعلها من بعده حبسا على فقراء أهل بيته والمسلمين . قالوا : ثم **ان أناسا من قريش وأشراف العرب سألوا معاوية أن يقطعهم من بقايا تلك المزارع التي لم يكن عثمان أقطعه اياها ـ ففعل** فمضت لهم أموالا ـ يبيعون ويمهرون ويورثون فلما أفضى الأمر الى عبد الملك بن مروان وقد بقيت من تلك المزارع بقايا لم يكن معاوية اقطع منها أحدا شيئا ـ سأله أشراف الناس القطائع منها ـ ففعل . قالوا : ثم ان عبد الملك سئل القطائع ـ وقد مضت تلك المزارع لأهلها فلم يبق منها شيء ، **فنظر عبد الملك الى أرض من أرض الخراج ـ وقد باد أهلها ولم يتركوا عقبا ، فأقطعهم منها ورفع ماكان عليها من خراجها عن أهل الخراج ولم يحمله أحدا من أهل القرى ، وجعلها عشرا ـ ورآه جائزا له مثل الخراجه من بيت المال الجوائز للخاصة .** قالوا : فلم يزل يفعل ذلك ـ حتى لم يجد من تلك الارض شيئا . **فسأل الناس عبد الملك والوليد وسليمان قطائع من أهل القرى ـ التي بأيدي أهل الذمة ، فأبوا عليهم . ثم ســألوهم أن ياذنوا لهم في شرى الأرضين من أهل الذمة ، فأذنوا لهم على ادخال أثمانها بيت المال** وتقوية أهل الخراج به على خراج سنتهم مع ما ضعفوا عن أدائه ، وأوقفوا ذلك في الدواوين ، ووضعوا خراج تلك الأرضين عمن باعها منهم وعن أهل قراهم ،وصيروها

لمن اشتراها يؤدى الشر — يبيعون ويمهرون ويورثون . قالوا : **فلما ولى عمر بن عبد العزيز أعرض عن تلك القطائع التى اقطعها عثمان معاوية ، وعبد الملك والوليد وسليمان — فلم يردها عمر عل ما كانت عليه صافية ولم يجعلها خراجا ، وامضاها لأهلها تؤدى العشر ...** » (٣٦٩)

وعلى هدى هذا التطور **اجاز الفقهاء هذا الاقطاع** « سمعت محمد ابن يوسف الفاريابى يقول : بعسقلان هاهنا قطائع اقطعت بأمر عمر وعثمان لو دخل فيها رجل لم اجد بذلك باسا ... وعن مكحول نى عشرى بالشام فهو مما جلا عنه أهله فاقطعه المسلمون فأحيوه وكان مواتا لا حق فيه لأحد فاحيوه باذن الولاة » . على **أن أبا اسحق الفزارى « كان يكره شرى ارض بالثغر** ويقول : غلب عليه قوم فى بدى الأمر وأجلوا الروم عنه فلم يقتسموه ، وصار الى غيرهم ، وقد دخلت فى هذا الأمر شبهة العاقل حقيق بتركها » (٣٧٠) وقال أبو يوسف عن القطائع أنها بمنزلة المال الذى لم يكن لأحد ولا فى يد وارث « **فللامام العادل أن يجيز منه ويعطى من كان له غناء فى الاسلام ويضع ذلك موضعه** ولا يحابى به ... فاما من أخذ من واحد وأقطع آخر فهذا بمنزلة مال غصبه واحد من واحد وأعطى واحدا . وانما صارت القطائع يؤخذ منها العشر لأنها بمنزلة الصدقة وانما ذلك الى الامام : ان رأى أن يصير عليها عشرا فعل ، وان رأى أن يصير عليها عشرين فعل ، وان رأى أن يصيرها خراجا اذا كانت تشرب من أنهار الخراج فعل ذلك موسعا عليه فى أرض العراق خاصة . وانما يؤخذ منها العشر . لما يلزم صاحب الاقطاع من المؤنة فى حفر الانهار وبناء البيوت وعمل الارض . وكل أرض ... عامرة ، وليست لأحد ولا فى يد أحد ولا ملك أحد ولا وراثة ولا عليها أثر عمارة . فاقطعها الامام رجلا فعمرها : فان كانت فى أرض الخراج أدى عنها الذى اقطعها الخراج ،وانكانت من أرض العشر أدى عنها الذى اقطعها العشر ... فكل أرض اقطعها الامام مما فتحت عنوة ففيها الخراج الا أن يصيرها الامام عشرية ... وكل من أقطعه الولاة المهديون أرضا من أهل السواد وارض العرب والجبال ... فلا يحل لمن يأتى بعدهم من الخلفاء أن يرد ذلك ولا يخرجه من يدى من هو فى يده وارثا أو مشتريا ... فلا يحل للامام ولا يسعه أن يقطع أحدا من الناس حق مسلم ولا معاهد ولا يخرج من يده من ذلك شيئا — الا بحق يجب له عليه ... **والارض عندى بمنزلة المال ، فاللامام أن يجيز**

---

(٣٦٩) ابن عساكر : تاريخ مدينة دمشق م ١ ص ٥٩٣ : ٦ .

(٣٧٠) البلاذرى : فتوح البلدان ص ١٥١ ، ١٥٩ ، ١٧٩ .

من بيت المال من كان له غناء في الاسلام ومن يقوى به على العدو ويعمل في ذلك بالذي يرى أنه خير للمسلمين وأصلح لأمرهم ، وكذلك الارضون يقطع الامام منها من أحب ... ولا أرى أن يترك أرضا لا ملك لأحد فيها ولا عمارة — حتى يقطعها الامام ، فان ذلك أعمر للبلاد وأكثر للخراج» .
واقطاع موات الارض يكون جائزا اذن من باب أولى « فاذا لم يكن في هذه الارضين أثر بناء ولا زرع ولم تكن فيئا لأهل القرية ولا مسرحا ولا موضع مقبرة ولا موضع محتطبهم ولا موضع مرعى دوابهم وأغنامهم ، وليست بملك لأحد ولا في يد أحد — فهي موات ، فمن أحياها أو أحيى منها شيئا فهي له . ولك أن تقطع ذلك من أحببت ورأيت وتؤاجره ، وتعمل فيه بما ترى انه صلاح » . **وواضح من هذه النصوص أن الفقهاء كانوا يضعون نصب أعينهم أهدافا اقتصادية وحربية وهم يجيزون الاقطاع** « فقد جاءت الآثار بأن النبي اقطع أقواما وان الخلفاء من بعده أقطعوا » ، ورأى رسول الله الصلاح فيما فعل من ذلك اذ كان فيه تألف على الاسلام وعمارة للارض ، **وكذلك الخلفاء انما اقطعوا من رأوا له غناء في الاسلام ونكاية للعدو** ورأوا ان الأفضل ما فعلوا » (٣٧١) .

أما الماوردي فهو ينص على أن « اقطاع السلطان مختص بما جاء فيه تصرفه ونفذت فيه أوامره ، ولايصح فيما تعين فيه مالكه وتميزمستحقه» وهو يقسم الاقطاع الى اقطاع تمليك واقطاع استغلال . **فأما اقطاع التمليك** فيكون في الارض الموات والعامرة والمعادن . **والأرض الموات** منها ما لم يزل مواتا على قديم الدهر أو ما كان عامرا في الجاهلية فخرب .وهذان لا خلاف في جواز اقطاعهما « أما ما كان اسلاميا جرى عليه ملك المسلمين ثم خرب فقد اختلف الفقهاء في حكم احيائه (وأوسط آرائهم ما قاله أبو حنيفة) : ان عرف أربابه لم يملك بالأحياء ، وان لم يعرفوا ملك بالاحياء — وان لم يجز على مذهبه أن يملك بالأحياء من غير اقطاع.. فمن خصه الامام به وصار بالاقطاع أحق الناس به لم يستقر ملكه عليه قبل الاحياء ... قال أبو حنيفة لا يعارض فيه قبل مضي ثلاث سنين ، فان احياه فيها والا بطل حكم اقطاعه .. وعلى مذهب الشافعي أن تأجيله لا يلزم ، وانما المعتبر فيه القدرة على احيائه .. فلو تغلب على هذا الموات المستقطع متغلب فاحياه فقد اختلف العلماء في حكمه ... » **والارض العامرة** قد يتعين مالكها فلا يجوز اقطاعها اذا كانت في دار الاسلام لمسلم أو ذمي « **فان كانت في دار الحرب التي لا يثبت للمسلمين**

(٣٧١) أبو يوسف : الخراج ص ٥٨ ، ٥٩ ، ٦٢ ، ٦٣ — ٦٤ .

عليها يد فاراد الامام أن يقطعها ليملكها المقطع عند الظفر بها جاز ...
واذا صح الاقطاع والتمليك على هذا الوجه نظر حال الفتح : فان كان صلحا خلصت الارض لمقطعها وكانت خارجة عن حكم الصلح بالاقطاع السابق، وان كان الفتح عنوة كان المستقطع والمستوهب أحق بما استقطعه واستوهبه من الغانمين » وأما الارض العامرة التى لم يتعين مالكوها ولم يتميز مستحقوها فمنها ما يصطفيه الامام لبيت المال من فتوح البلاد اما بحق الخمس واما باستطابة نفوس الغانمين عنه من أموال الملك أو الدولة التى دالت أو من هرب من رجالها أو هلك ، فكان عمر يصرف غلتها فى مصالح المسلمين « ولم يقطع شيئا منها ، ثم أن عثمان أقطعها لأنه رأى اقطاعها أوفر لغلاتها من تعطيلها ، وشرط على من أقطعها اياه أن يأخذ منه حق الفيء ـ فكان ذلك اقطاع اجارة لا اقطاع تمليك ، فتوفرت غلتها ... ثم تناقلها الخلفاء بعده ، فلما كان عام الجماجم سنة اثنتين وثمانين فى فتنة ابن الأشعث أحرق الديوان وأخذ كل قوم مايليهم • فهذا النوع من العامر لا يجـوز اقطاع رقبته لأنه قد صار باصطفائه لبيت المال ملكا لكافة المسلمين، فجرىعلى رقبته حكم الوقوف المؤبدة والسلطان فيه بالخيار : بين أن يستغله لبيت المال كما فعل عمر ، وبين أن يتخير له من ذوى المكنة والعمل من يقوم بعمارة رقبته بخراج يوضع عليه مقدر بوفور الاستغلال ونقصـانه كما فعل عثمان ويكون الخراج أجرة تصرف فى وجوه المصالح ـ الا أن يكون مأخوذا بالخمس فيصرف فى أهل الخمس » • وأما أرض الخراج من الأراضى العامرة فلا يجوز اقطاع رقابهـا تمليكا ، وأما مامات عنه أربابه ولم يستحقه وارث فهو ينتقل الى بيت المال وأجاز البعض فيه البيع والاقطاع خلافا لآخـرين قالوا بوقفها • والنوع الثـانى من الاقطاع اقطاع الاستغلال ، وهو لا يجوز فى أرض العشر ، وأما اقطاع أرض الخراج للاستغلال : فاذا كان من يتلقى الاقطاع من أهل الصدقة فلا يجوز « لأن الخراج فيء لا يستحقه أهل الصـدقة كما لا يستحق الصدقة أهل الفيء ـ وجوز أبو حنيفة ذلك » ، وان كان المقطع من أهـل المصالح « ممن ليس له رزق مفروض فلا يصح أن يقطعه على الاطلاق وأن جاز أن يعطاه من مال الخراج ـ لأنه من نفل أهل الفيء لا من فرضه » ، فان كان من يتلقى الاقطاع من مرتزقة أهل الفيء وفرضية الديوان ـ وهم أهل الجيش « فهم أخص الناس بجواز الاقطاع ، لأن لهم أرزاقا مقدرة تصرف اليهم مصرف الاستحقاق لأنها تعويض عما أرصدوا نفوسهم له من حماية البيضة والذب عن الحريم • فاذا صح أن يكونوا من أهل

الاقطاع ، روعى حينئذ مال الخراج ... فاما ماكان منه جزية : فهو غير مستقر على التأبيد ، لأنه مأخوذ مع بقاء الكفر وزائل مع حدوث الاسلام ، فلا يجوز اقطاعه أكثر من سنة ... وأما ماكان من الخراج أجره : فهو مستقر الوجوب على التأبيد فيجوز اقطاعه سنين ... (أما)أن يستقطعه مدة حياته ثم لعقبه وورثته بعد موته فهذا اقطاع باطل ... (وأما) أن يستقطعه مدة حياته ففى صحة الاقطاع قولان : أنه صحيح وأنه باطل ... »

واذا كان الماوردى يرى أن أفراد الجيش أحق باقطاع الاستغلال فانه قد عرض لأرزاق من عدا الجيش اذا اقطعوا بها من مال الخراج « فيقسمون ثلاثة أقسام : أحدهما — من يرتزق على عمل غير مستديم كعمال المصالح وجباة الخراج فالاقطاع بأرزاقهم لا يصح ... الثانى — من يرتزق على عمل مستديم ويجرى رزقه مجرى الجعالة وهم الناظرون فى أعمال البر التى يصح التطوع بها اذا ارتزقوا عليها كالمؤذنين والأئمة فيكون جعل الخراج لهم فى أرزاقهم تسببا به وحوالة عليه ولا يكون اقطاعا . الثالث — من يرتزق على عمل مستديم ويجرى رزقه مجرى الاجارة ، وهو من لا يصح نظره الا بولاية وتقليد مثل القضاة والحكام وكتاب الدواوين فيجوز أن يقطعوا بأرزاقهم خراج السنة واحدة ويحتمل جواز اقطاعهم أكثر من سنة وجهين لما يتوجه اليهم من العزل والاستبدال » . بقيت من أنواع الارض المقطعة المعادن « فان اقطعت المعادن الظاهرة — كمعادن الكحل والملح والقار والنفط — لم يكن لاقطاعها حكم وكان المقطع وغيره فيها سواء ، وجميع من ورد اليها أسوة مشتركون فيها ، فان منعهم المقطع منها كان بالمنع متعديا وكان لما أخذه مالكا وأما المعادن الباطنة فهى ماكان جوهرها مستكنا فيها لا يوصل اليه الا بالعمل — كمعادن الذهب والفضة والصفر والحديد سواء احتاج المأخوذ منها الى سبك وتخليص أو لم يحتج ، وفى جواز اقطاعها قولان ... » (٣٧٢) .

وبتتبع الأصول التاريخية والفقهية للاقطاع الاسلامى نجد له ميزاته وخصائصه بالنسبة للاقطاع الغربى « فهناك اتفاق فى الدلالة اللفظية على مساحة معينة من الارض يمنحها ولى الأمر لبعض رعاياه ، مع اختلاف الدوافع والنتائج التى ترتبت على المنح فى كل من الشرق الاسلامى والغرب المسيحى — ومع وجود التشابه الكثير فى التفصيلات الفرعية لكل من النظامين وأقدم أصول للاقطاع الغربى هى الاحداث التى وقعت خلال

(٣٧٢) الماوردى : الاحكام السلطانية ص ١٦٨ : ١٧٥ .

العصر الميروفنجي فى القرن السادس الميلادى بصفة خاصة حين نشب نزاع حاد وحشى بين أبناء وأحفاد كلوفس Clovis نظرا لما جروا عليه من تقسيم الملك كارث خاص ثم بين هؤلاء الملوك من الفرنجة وكبار الارستقراطيين فى القرن السابع الميلادى ، فسببت هذه الاحداث الخطيرة اختلالا فى الأمن فى المناطق الواقعة بين نهـرى الرين واللوار .. وزاد الأمر سوءا ان عجزت الحكومة عن حماية الأمن ـ مما أتاح الفرصة لظهور ونمو فريق من الرعايا الاثرياء الاقوياء ، لجأ اليهم جيرانهم من مفتقدى الأمن وطلاب الدعة .. وفى نظير هذه الحماية كان لا بد من لقاء لها .. وكيفما كانت أهداف هذه القلة من الجيران الأقوياء سـواء أكانت للافادة من الفوضى السياسة الكائنة فى تنمية قواتهم أو ثرواتهم أو للقيام بدور سياسى ، فقداحتاجوا فعلا الى خدماتآخرين يرتبطون بهم شخصيا ـ ولم تكن سوى الاعمال العسكرية • تطور فريق من الناس اذن الى نوعين من تلقاء أنفسهم تحت الأحوال السائدة : سادة وأتباع .. أما أصـول الأرض الاقطاعية التى توزع على أولئك الاتبـاع أو على الفلاحين فترجع كذلك الى العصر الميروفنجي ، وجاءت عن طريق تأجير الاراضى اليهم • وربما كان الاصل الاقدم راجعـا الى **عصر الرومان** : فى كيفيـة زراعة الابعاديات الكبيرة فى فلسـطين مثلا Latifundia أو المسـتعمرات الزراعية Colonate بل ان الميروفنجيين منحوا قطعا من الاراضى على سبيل الهبة والرزقة Beneficium • وفى الحالات القصوى ربمـا اعتبر التابع أو الممنوح الحر عبدا لحاميه أو مانحه القوى ، غير أن الامثلة على هذه الحالات لم تكن من الكثرة فى العصر الميروفنجي بحيث نقول انها كانت منتشرة وشائعة قبل منتصف القرن الثامن الميلادى كما ان ارتباط المنحة بالتبعية التى تؤدى معنى القيام بخدمات معينة واضحة المعالم كان نادرا فى تلك الفترة • ووضح هذا فى **عصر الكارولنجين** خلفاء الميروفنجيين حين احتاج بين الثـانى Pepin II وشارل مارتل Charles Martel الى مزيد من القوة الحربية فأكثرا من الاتباع ومنح الضياع حتى يستطيع التابع تجهيز نفسه حربيا ولاسيما ان الفارس فى ذلك الزمن كان العامل الحاسم فى الحروب ، ومنحت تلك الضـياع فى أغلب الاحيـان تمليكا لا استغلالا • والملاحظ ان بعض هذه المنح كان من الاملاك الشخصية لببن أو شارل والبعض الآخر من الضياع الملكية fisci • وسار شرلمان على هذا النحو فكثر اتباعه كما منح الاتباع أراضيهم لغيرهم فتكونت طبقة اتباع الاتباع subvassals بل صـارت التبعية شرفا ، **ولم يات آخر القرن التاسع حتى صارت هذه الطريقة عامة • وخلال فترات الاضطراب التى اقترنت بالغزو الخارجى من جانب النورمان أو الصـقالبة** Slavs او العرب

أو المجريين بدت حاجة صغار الملاك الى التماس الأمن ، ولما تعارضت هذه الحاجة مع حرصهم على الابقاء على منزلتهم الاجتماعية كرجال أحرار — لم يكن أمامهم سوى دخولهم ضمن طبقة المحاربين الممتازين التابعين لكبار السادة Qualified Warrious بمعنى آخر الجاوا املاكهم الى أولئك السادة Feudalisation ثم استردوها منهم ثانيا كاقطاع · وفيما يتعلق بالمراعى اعتبرها الاقطاع الغربى ملكا عاما لأهل القرى common وهذا وجه الاتفاق مع استغلال المراعى فى فجر الاسلام · أما وجه الخلاف فانها تابعة للسيد فى الاقطاع الغربى ويتولى هو تنظيم استغلالها بين المزارعين التابعين له .. أما اقطاع المراعى فى الاسلام واستغلالها لحساب السيد الاقطاعى فهذا ما حدث فى عصر المماليك » · (٣٧٣) ·

وتزايد الاقطاع الاسلامى نتيجة للنظام الملكى الوراثى واتساع رقعة الدولة واضطراب الامن نتيجة للحروب الخارجية والفتن الداخلية ، فضلا عن ثراء الخلفاء ومحاولاتهم لتدعيم شخصياتهم · وتمثلت اول صورة من الصور الاقطاعية بمعناها الغربى فى تاريخ الاسلام فى ظاهرة التلجئة ، وقد عرفها الخوارزمى « أن يلجىء الضعيف ضيعته الى قوى ليحامى عليها » · (٣٧٤) · فيلجىء الرجل أرضه الى أمير أو قوى يحتمى به فتكتب باسمه ، فلا يتجرأ الجباة على العنف والظلم ، ويقوم بدفع خراجها ويجعل صاحب الضيعة نفسه مزارعا له ، وتصبح الضيعة بتوالى الأيام ملكا للملجأ اليه · وهو نفس نظام الحماية Patronage, Autopragia حين اضطر المزارع البيزنطى الذى لا حول له ولا قوة أمام تضاعف الاعباء ان يبحث عن رجل غنى أو قوى يضع أرضه تحت تصرفه ليقوم بدلا منه بدفع الضرائب ويحميه من عسف الحكومة · وقد الجأ ناس الى مسلمة بن عبد الملك ضياعا كثيرة فى البطائح للتعزز به ، والجأ أهل المراغة باذربيجان أرضهم الى مروان بن محمد ، والجا كثير من العجم فى اذربيجان قراهم الى العرب الذين نزلوا بتلك الولاية للخفارة وصار أهلها مزارعين لهم . وبدات هذه القطائع امثلة قليلة حدثت فى الجهات النائية او الجديدة فى العهد الاموى ، ولكنها تكررت فى مناطق اخرى فى العصر العباسى · وصارت التلجئة اصطلاحا قائما بذاته بين مواضعات الكتابة فى دواوين الخراج بخراسان وأصبح لها قسم خاص بها فى القرن الرابع الهجرى .

---

(٣٧٣) دكتور طرخان : الاقطاع الاسلامى المجلة التاريخية المصرية م ٦ سنة ١٩٥٧ .

(٣٧٤) دكتور الخشاب والعرينى : ضبط وتحقيق الالفاظ الاصطلاحية التاريخية بمفاتيح العلوم للخوارزمى — المجلة التاريخية المصرية م ٧ سنة ١٩٥٨ ·

وشاعت فى فارس بنوع خاص لثقل الخراج بها ° (٣٧٥) وحدث ما كانت تخشاه الدولة العباسية من استقلال الولاة نتيجة لسياسة الاقطاع التى اتبعتها ° **على ان الاقطاع الاسلامى قد لا يدخله العنصر الحربى فى منشئة** أحيانا مثل الاقطاع الغربى ، فالاقطاع الاسلامى فى مصر مثلا خلا من هذا العنصر الحربى حتى أيام الأيوبيين والمماليك ، ودخل هذا العنصر الحربى أخيرا بأسلوب آخر يتلخص فى انتفاع الجند بدخل الاقطاعات المختلفة لا الاستقرار فى الارض وزراعتها كما لم يوجد حق الوراثة الذى كان يتمتع به أصحاب الاقطاع فى أوربا ° **ومنذ عهد الرشيد اتبع العباسيون سياسة اقطاع بعض اقاليم الدولة لبعض الشخصيات مقابل مال يؤدى للخلافة ، دون ان يتوارث هؤلاء المقطعون اقطاعاتهم ، ومن ذلك ان الرشيد اقطع** افريقية (تونس) لإبراهيم بن الاغلب سنة ١٨٤ هـ — وان كانت قد توارثتها سلالته بتحديد الاقطاع واحدا بعد الآخر ° وجرت قسمة العالم الاسلامى الى قسمين فى عهد المعتمد (٢٥٦ : ٢٥٩هـ) قسم شرقى يحكمه أخوه الموفق وقسم غربى ويحكمه ابنه المفوض ، وقد سبقتها فى صورة أخف قسمة أخرى فى عهد المأمون : فيذكر الطبرى انه فى سنة ٢١٣ هـ ولى المأمون أخاه المعتصم الشام ومصر وولى ابنه العباس الجزيرة والثور والعواصم ، وجاء المعتصم فثبت من الحكام من ثبت وعزل من عزل فى البلاد الخاضعة لحكمه ° وتدل أوراق البردى على انه فى سنة ٢١٧هـ كانت الاوامر والرسائل التى تصدر الى الولاة باسم المأمون بذكر فيها اسم المعتصم بجانبه ° ولما ولى المعتصم الخلافة سنة ٢١٨-٢٢٧هـ اقطع أشناس التركى ولاية مصر واذن له ان يولى الحكام بنفسه وكان يذكر اسمه فى خطبة الجمعة مع الخليفة ، ومنذ سنة ٢٢٧ هـ كانت تحت حكمه دولة تمتد من بغداد الى آخر حدود المغرب ° واقطع المتوكل سنة ٢٣٤ هـ — بعد قتله ايتاخ التركى الذى كان قد أقطع مصر منذ عهد الواثق — ابنه المنتصر — مصر ° وكان القواد الاتراك الذين يقطعون الولايات يؤثرون البقاء فى العاصمة ويستخلفون نوابا يحملون اليهم الأموال ويدعون لهم على المنابر، ويستطيع النائب ذو الشخصية والطموح أن يستقل بما تحت يده ° (٣٧٦)

ويعتبر عهد المقتدر ٢٩٥ : ٣٢٠ هـ ٩٠٨ : ٩٣٢ م ايذانا بمرحلة مميزة فى تطور نظام الاقطاع فى الدولة الاسلامية « لأنه عمم اقطاع الولايات الكبار قواده نظير قدر معين من المال يدفع لخزانة الخلافة عرف

(٣٧٥) الدكتور الريس : الخراج فى الدولة الاسلامية ص ٢٤٩ — ٥٠ ، ٤٨٦ — ٧ ، متز : الحضارة الاسلامية ترجمة دكتور ابى ريدة جـ ١ ص ١٦٣ °

(٣٧٦) سيدة كاشف : مصر فى فجر الاسلام ص ٣٤ : ٦ ، ٥٣ — ٤ °

باسم مال المقطعة اوالجزية ، على أن يقوموا بجميع نفقات الادارة المحلية »٠
وقد كانت قوة الخلفاء أمثال المعتصم والواثق تحد من نفوذ الأتراك المقاطعين رغم سطوتهم ، وجاء المقتدر وتفاقم ذلك فى عهد بنى بويه « **حتى أضحت الخلافة العباسية قرب نهايتها ٠ فى كثير من الوجوه ــ كما كانت أسرة هيوكابى** Hugh Capet **فى بدايتها : أسرة اقطاعية فى خضم من الولايات الاقطاعية** ، فلم يعد للخلافة سوى بغداد وبعض ضواحيها ٠٠ ولم يكتف الولاة المقاطعون بحيازة ولاياتهم وتوارثها بل **أقطعوا بدورهم لشيعتهم وأعوانهم** ٠٠ ووجد السيد الأوسط Medius Lord والسيد الأعلى Over Lord والتابع أو المزارع Tenant Vassal وتابع التابع Subtenant, ولهذا نظائره فى الغرب الاقطاعى ، واستنصر الاتباع بأتباعهم ضد السيد الأعلى ٠٠ **حتى كان القرن الخامس الهجرى ــ ١١م حين حدث تطور خطير** فى المنح الاقطاعية اذ صارت حربية عامة ، وغدت الطريق الوحيد للحصول على القوة الاساسية فى الدولة ٠٠ وكان السبب المباشر هو ازدياد ضعف الدولة العباسية ، وسوء تصرف بنى بويه فى الاقطاعات وما نجم عن هذا من بوارها ، وضعف القوة الحربية فى نفس الوقت ٠ **وتوسع سلاطين بنى بويه فى الاقطاعات الحربية لكنهم لم يعمموها** ، وغدت مطمع الاتباع العسكريين دون تقديمهم ما يقابلها ، واختل الميزان المالى بجانب انحطاط القوى الحربية ٠ **وكان على السلاجقة الذين خبروا الاقطاع الحربى وهم فى خدمة بنى بويه ــ أن يصلحوا الحال ماليا وحربيا « فرأوا أن يعمموا هذا النظام بحيث يحل محل العطاء للجند عامة** وكان عهد السلطان ملكشاه السلجوقى (٤٦٥ : ٤٨٥هـ/١٠٧٢ : ١٠٩٢م) ووزيره نظام الملك مفرق الطرق فى تعميم هذا النظام فى دولة اسلامية عريضة تمتد من جنوب فارس الى قلب آسيا الصغرى ٠ يقول المقريزى : (**واعلم انه كانت عادة الخلفاء من بنى أمية وبنى العباس والفاطميين ــ من يوم عمر بن الخطاب، أن تجبى أموال الخراج ثم تفرق فى الأمراء أو العمال أو الاجناد ، وعلى قدر رتبهم وبحسب مقاديرهم ٠ وكان يقال لذلك فى صدر الاسلام العطاء٠ وماززال الامر على ذلك الى ان كانت دولة العجم ،ففير هذا الرسم وفرقت الأراضى اقطاعات على الجند** ٠ وأول من عرف أنه فرق الاقطاعات الملك أبو على الحسن بن على ابن العباس ــ وهو نظام الملك ــ وزير الب أرسلان ٠٠ وذلك أن مملكته اتسعت :فرأى أن يسلم الى كل مقطع قرية أو أكثر أو اقل ــ على قدر طاقته ، لأنه رأى أن فى تسليم الأراضى الى المقطعين فيه عمارتها ــ لاعتناء مقطعيها بأمرها ، بخلاف ما اذا شمل جميع أعمال المملكة ديوان واحد ــ فان الخرق يتسع ويدخل الخلل فى البلاد ٠ **فعل نظام الملك**

ذلك وعمرت البلاد وكثرت الغلات» • ولكى يجعل من الاقطاع الحربى نظاما يكفل ولاء الجنود وخضوعهم بعثر الاقطاع الواحد فى أماكن متباعدة (وربما قرر لواحد من الجند الف دينار فى السنة : فوجه نصفه على بلد من الروم ونصفه على وجه فى أقصى خراسان ـ وصاحب القرار راض) ، فكان الأمير الذى يستقل بمدينة أو ولاية يحكمها حكما مطلقا ، ويمارس فيها سلطة (صاحب المعقل) الاقطاعى ويجهز جنوده على نفقته ويقاتل مع السلطان ويدفع له المال » • على أن الاقطاع الحربى الاسلامى لم يصبح عاما بجميع الدولة الاسلامية فى القرن الحادى عشر الميلادى : فلم تعممه الدولة الفاطمية فى بلادها مع ما هو معروف عنها من كثرة الاقطاعات لجنودها وأمرائها ، كما اختلفت طرق الانفاق على الجنود بالأندلس فجرت أولا على اقطاع الأرض ثم تغيرت الى العطاء والرواتب ثم عادت الى الاقطاع ••• « **أما الدول التى قامت فى احضان السلاجقة وعلى انقاضهم : الزنكية ثم الايوبية فالمماليكية ـ فانتشر النظام الاقطاعى الحربى اليها كاملا •• يقول المقريزى** (واما منذ كانت أيام صلاح الدين يوسف بن أيوب الى يومنا هذا فان أراضى مصر كلها صارت تقطع للسلطان وأمرائه وأجناده) • ومن كبار أمراء الاقطاع وأعيان دولة ملكشاه : **آق سنقر الملقب بقسيم الدولة ـ وهو أبو عماد الدين زنكى ـ فقد شمل اقطاعه قلعة حلب وأعمالها وحماه ومنبج واللاذقية ولواحقها ، كما ان ابنه زنكى كان أقوى الاقطاعيين فى عصره اذ شملت دولته الاقطاعية ما بين حلب والموصل • وصار هو يقطع اتباعه** ، لا سيما ان الجهاد ضد الصليبيين كان على أشده فى تلك الفترة فاحتاج الى تدبير القوة الحربية اللازمة » • وفى ذلك الوقت ـ القرن الحادى عشر الميلادى أيضا ـ كان وليم الفاتح ينظم الاقطاع الحربى بانجلترا على أثر الفتح النورماندى سنة ١٠٦٦ م وكان يبعثر اقطاعات اتباعه ويأخذ عليهم من العهود والمواثيق « ما جعل الاقطاع الانجليزى يختلف عن نظائره فى بقية أوربا ، ويقترب فى كثير من التفاصيل من الاقطاع الحربى الاسلامى ـ مع انه منقول من نورمانديا الفرنسية » • (٣٧٧) •

***

كان على الحكم الاقليمى فى الدولة الاسلامية ثلاث مهام : الادارة ، وجباية الضرائب والتوجيه الدينى • ويقوم بهذه المهام الثلاث على

(٣٧٧) دكتور طرخان : الاقطاع الاسلامى • المجلة التاريخية المصرية م ٦ سنة ١٩٥٧ ، أمير على : مختصر تاريخ العرب والتمدن الاسلامى ترجمة رافت ص ٣٧٣ : ٥ •

الترتيب : الوالى الذى يضطلع بأعبـــاء الشئون السياســـية والادارة العسكرية فى ولايته ، وصاحب الخراج ، والقـــاضى . **وكانت الثغور** والعواصم باعتبارها احدى ولايات الدولة الاسلامية تشترك فى نظمهـــا الادارية والمالية مع سائر الوحدات الاقليمية الاسلامية فى أمور ، وتتميز **عنها فى أمور أخرى** . ومن أهم **خصائصها الادارية** : ذلك **الطابع العسكرى فى حكمها** ، فعلى رأسها قواد محاربون — لا من الوجهة الرسمية فحسب على اعتبار أن أمير الولاية هو قائد جيشها ، بل من الوجهة العملية اذ لا ينفكون عن الخروج لجهاد الروم ، حتى تداخلت قائمة ولاة الثغـور مع قواد الصوائف ، وحتى طغى مد الحروب وجزرها على الاستقرار الادارى لتلك الولاية : من اضافة مسئولياتها الى أعباء حاكم ولاية مجاورة اكتفاء بمباشرة قواد الحملات الدورية لتصريف الأمور الجارية ، الى كثرة العزل والتولية تتلجة الأحداث الحربية ، الى شيوع القلق من هجمات العدو — خاصة فى فترات الضعف والتهيؤ دوما للنزوح والرحيل عند الخطر . ومن أهم **خصائص الثغور المالية : زيادة نفقاتها بحكم الأعباء العسكرية الملقاة عليها ، وقلة مواردها نظرا لافتقاد الاستقرار وهو شرط الجد فى الاستثمار ، بل ان الدولة كانت تتسامح هناك فى عطاء جندها واقطاع أرضها اغراء بتعميرها والرباط فيها وجهاد الاعداء** . وقد كان ياقوت دقيقا فى ابراز الطابع العسكرى لهذا الاقليم الادارى ، فقال فى تعريفه « والعواصم **حصون** موانع ، **وولاية** تحيط بها بين حلب وانطاكية (٣٧٨) »

---

(٣٧٨) ياقوت : معجم البلدان ص ٩ ص ٢٣٧ .

الفصل السابع

حياة المسلم فى أراضى الحدود

أولا : الثغور وحركة التبادل التجارى :

(أ) حركة التبادل التجارى ، ودور شمالى الشام والجزيرة والعرب فيها قبل الاسلام .

(ب) موقع الثغور واهميتها التجارية ، بالنسبة للتجارة المحلية بين الشام والجزيرة وارمينية وآسيا الصغرى ، وبالنسبة للتجارة العالمية بين الشرق والغرب .

(ج) تجارة الشرق والغرب بعد الاسلام ودور ثغور الشام والجزيرة فيها (من القرن ٧ الى ١٠ م) .

ثانيا : الثغور فى المجال الثقافى :

تراث الفكر اليونانى بين المسلمين والبيزنطيين

(أ) الاتصال الثقافى فى مدن الحدود .

(ب) الاتصال الثقافى عن طريق الأسرى .

(ج) السفارات العلمية .

(د) أدب الحرب .

(هـ) الفنون .

ثالثا : الدين فى الثغور :

اهمية أنطاكية فى الكنيسة المسيحية ــ الطابع الدينى فى صراع الفرس والروم ثم فى صراع المسلمين والروم :

(أ) الجهاد الدينى .

(ب) السياسة الدينية إزاء المخالفين فى الدين .

(ج) الأديرة ، الرباطات .

(د) التأثير المتبادل فى الفكر الدينى .

رابعا : المجتمع فى الثغور :

« الحرب بين الروم البيزنطيين والفرس الساسانيين سجال ، على أن كل فريق منهما كان يرى للفريق الآخر ضرورة وجوده .. **الأصل الحرب الدائمة ، ولكنها حرب محدودة تبقى ـ وتذر ، ويصاحب الحرب الدائمة علاقات سلمية دائمة فى أعمال مشتركة** • وينسب لأحد الأكاسرة قوله : ان هناك عينين اثنتين وكلت اليهما القدرة الالهية أن تبصرا العالم: فعلى يد هاتين الامبراطوريتين العظيمتين يكبح جماح الشعوب المتبربرة المجبة للحرب ويتسنى للبشرية حكم أفضل وأشد أمنا فى كل مكان • واستمدت دولة الروم قوتها ـ وتذاك ـ من قدرتها الاقتصادية ، فكانت الزراعة والصناعة والتجارة مزدهرة فى ولاياتها الكبرى : آسيا الصغرى وسوريا ومصر ، ولكل منها قاعدة عالمية الشهرة : القسطنطينية وانطاكية والاسكندرية (١) » •

بهذا التصوير قدم الاستاذ شفيق غبريال لكتاب ارشيبالد لويس « القوى البحرية والتجارية فى حوض البحر المتوسط ٥٠٠ : ١١٠٠م » وقد استمرت الصورة نفسها حين صار العرب هم القوة التى آلت اليها أراضى الفرس • بل وجزء كبير من أراضى الروم • وقد كتب نيقولا ميستيكوس Nicholas Mysticus بطريق القسطنطينية حوالى منتصف القرن ١٠م الى أمير جزيرة كريت أيام تبعيتها للمسلمين :

« ان أعظم قوتى العالم أجمع : قوة العرب وقوة الروم ـ تعلوان وتتألقان كالشمس والقمر فى السماء • ولهذا وحده يجب أن نعيش أخوة، على الرغم من اختلافنا فى الطبائع والعادات والدين (٢) » •

وفى هذا الفصـــل عرض سريع للجانب الســـلمى من العلاقات الاسلامية البيزنطية : فى مجال التجارة والثقافة والدين والمجتمع ، مع ابراز دور الثغور بصفة خاصة فى هذا الاتصال الحضارى •

(١) أرشيبالد لويس : القوى البحرية والتجارية ترجمة أحمد عيسى ـ مقدمة الاستاذ شفيق غربال ص ١٥ ـ ١٦ •

(٢) فازيلييف : ترجمة بحث : بيزنطة والاسلام من كتاب Byzantium ملحق بترجمة كتاب بينز : الامبراطورية البيزنطية للدكتور مؤنس وزايد ص ٣٦٤ ، دكتور العدوى : الامبراطورية البيزنطية والدولة الاسلامية ص ١٧٢
Vasiliev : L'Emp. Byz. Vol. I. p. 405

أولا : الثغور وحركة التبادل التجارى

« أكد مؤرخو الأزمنة الحديثة الجمع فى دراسة واحدة بين القرى البحرية والتجارة ٠٠ واتخذوا لمعناه شعارا حينما قالوا : (التجارة تتبع العلم) (٣) » ، ومن هنا كان الارتباط بين القوة السياسية والعسكرية فى جانب وبين القوة التجارية فى الجانب الآخر ٠

وتشغل الثغور الشامية والجزرية موقعا حساسا على طريق التجارة العالمية بين الشرق والغرب عموما ، وعلى طرق التجارة المحلية بين الشام وبين بلاد النهرين وآسيا الصغرى ومصر وبلاد العرب ٠

التبادل التجارى ودور شمالى الشام والجزيرة فيه قبل الاسلام

وهذه المنطقة لها ماضيها التجارى العريق من قديم بحكم موقعها الفريد « فالدور الذى لعبته سوريا نتيجة موقعها بين القارات القديمة : أوربا وآسيا وافريقيا — تشرحه لنا أعمال الفينيقيين الذين كانوا أول التجار الدوليين ٠٠ وقد امتد الى أحد طرفيها وادى النهرين والى الطرف الآخر وادى النيل ٠٠ » ويمكن تتبع الطريق الدولى العظيم من دلتا النيل وعلى ساحل سيناء حيث يتفرع الى مناجم النحاس والفيروز فى سيناء ، كما يتفرع الى أراضى البخور فى جنوبى الجزيرة العربية ٠ ومن سيناء يتحول الطريق شمالا نحو ساحل فلسطين حتى الكرمل على مسافة من البحر ، وهنا يتفرع الى طريقين يتجه الواحد الى الساحل فيصل صور

(٣) مقدمة الاستاذ شفيق غربال لكتاب ارشيبالد لويس : القوى البحرية والتجارية ترجمة عيسى ص ١١ ٠

وصيدا وجبيل وسائر الموانى السورية ، ويسير الآخر الى الداخل فيتجاوز سهل مجدو ويعبر الأردن فى واديه الشمالى ثم يتجه رأسا الى دمشق فى الشمال الشرقى • ومن هنا **يتفرع عبر بادية الشام بواسطة تدمر ويربط مركز سوريا مع قلب بلاد الرافدين** الذى مثلته على التوالى : بابل والمدائن وبغداد ، أما الطريق الرئيسى فيتجه من دمشق غربا ويعبر لبنان الشرقى بواسطة ممر الزبدانى ويسير شمالا عبر سوريا المجوفة متبعا نهر العاصى وقادش الى شمالى سوريا ، ويتفرع فى سيره عند قادش فى اتجاه غربى ليتصل بالبحر المتوسط بواسطة النهر الكبير • **وبعد أن يتفرع الطريق** فى شمالى سوريا عبر الابواب السورية فى جبل اللكام (أمانوس) ، ويتفرع الى الشمال الغربى عبر الأبواب القيليقية ليصل آسيا الصغرى ـ **فانه يتحول الى الشرق بطريق الجسر السورى نحو الفرات** ، ومن هناك نحو الدجلة وجنوبا الى الخليج الفارسى : « ولقد سلك بعض أجزاء هذا الطريق التجارى العظيم سرجون وسنحاريب ونبوخذ نصر والاسكندر وبومبى وعمرو بن العاص وبونابرت واللنبى ، وابراهيم وموسى والعائلة المقدسة ـ كما سلكه كثيرون غيرهم • وكانت تنقل على هذا الطريق فى العصور القديمة والوسطى احمال العاج والذهب من افريقية والمر والبخور والتوابل من الهند وجنوبى بلاد العرب ، والكهرمان والحرير من آسيا الوسطى والصين ، والقمح والاخشاب من سهول سوريا وجبالها • غير أن القوافل كانت تحمل أكثر من **ذلك : فقد كانت تحمل معها أحمالا غير منظورة من الأفكار** » •

فالأراضى الكائنة بين خليج الاسكندرونة ـ حيث يحدث البحر أعظم فجوة فى البر ـ وبين منحنى الفرات على مسافة نحو مائة ميل تشكل **ممرا طبيعيا بين الساحل ومنطقة بلاد الرافدين** • وفى هذه المنطقة يتحول الحاجز الجبلى فى الشمال والغرب والحاجز الصحراوى فى الجنوب الى ممر واحد منخفض ، يؤدى الى واد من جهة والى بحر من جهة أخرى ـ ولذلك فقد سمى بالممر السورى • ويقع الممر فى سفح جبال طوروس ـ وهو المرحلة الأخيرة من خط المواصلات الذى يبدأ عند الخليج الفارسى ويصعد دجلة حتى ضواحى نينوى ، ثم يتجه غربا الى الموانى السورية « وفى هذا السهل يبدأ التاريخ السورى المستمر : وأول ممثلين للساميين هم العموريون ، ومنذ ذلك الوقت حاول البابليون والمصريون والاشوريون والكلدانيون والفرس والمقدونيون ـ كل بدوره ـ السيطرة عليه كنقطة انتقال •• ، وكانت ميتانى (على المنحنى الكبير للفرات) من أسباب اضمحلال بابل بحكم موقعها الجغرافى على طريق بابل الى سوريا ،

فاصبحت عقبة أمام سلطة بابل فى آسيا الصغرى • وكانت أشور مركزا هاما على طريق القوافل بين البلاد فى شرقها وغربها ، كما ذهبت قوافلها لآسيا الصغرى للاتجار فيما تدره مناجم الفضة ، وقد حاولت أن تشق طريقها للوصول الى مياه البحر المتوسط • وهكذا **كانت بلاد الرافدين تشكل الاراضى الداخلية التى تقع فيما وراء سوريا** ، **ومنطقة حلب خاصة كانت تستعمل كطريق تجارى تمر فيه معادن قيليقيه الخام الى امبراطورية بلاد النهرين** ، وكانت كميات الفضة والذهب التى وجدت فى قبور أور الملكية (حوالى ٢٧٠٠ ق•م) تمر غالبا بهذا الطريق ، كما كان أمراء سومر يحصلون على الأرز من جبل اللكام (أمانوس) بالاضافة الى الذهب من قيليقية • وتجار بلاد بين النهرين الذين كانوا يبحثون عن هذا الخشب المرغوب قد اكتشفوا — قبل ذلك العهد — المرتفعات المكسوه بالغابات فى جبال سوريا الشمالية •

وكان الفينيقيون تجار البحر والبر • فقد أصبحت طرقهم الرئيسية تبدأ فى صيدا وصور فتصل مصر ، أو تتجه شمالا الى قبرص ، وغربا الى ليكيا تحت جبال طوروس ثم الى جنوبى رودس ، فكريت وجزيرة كورسيرا حتى صقلية ، ومنها الى مستعمراتهم فى شمالى افريقية فاسبانيا • وكان الفينيقيون أول من قدم اربع مواد هامة مفقودة فى كثير من بلدان البحر المتوســـط : وهى الأخشاب والقمح والزيت والخمر وكانت محطـــاتهم التجارية فى الداخل تضم ادنسا وربما نصيبين — بحيث **تصل موانئهم على البحر المتوسط بمراكزهم على الخليج الفارسى** •

وبعث التجار الآراميون قوافلهم الى جميع مناطق الهـــلال الخصيب بل الى منابع الدجلة فى الشمال ، واكتشفت فى خرائب نينوى بعض الموازين البرونزية التى تركوها — **وكانوا يحتكرون تجـــارة ســـوريا الداخلية ، كما كان يحتكر ابناء عمومتهم ومنافسوهم الفينيقيون التجارة البحرية** ، وكانت عاصمتهم دمشق ميناء البادية كما كانت جبيل ثم صور من موانىء البحر • وقد تاجر الآراميون بالأرجوان من فينيقية والمطرزات والكتان واليشب Gaspar والنحاس والأبنوس والعـــاج من افريقية و (بمحصول البحار) الذى ربما كان اللؤلؤ الذى اشـــتهر به الخليج الفارسى خلال العصور •

وجاءت الامبراطوريات الـكبرى : **امبراطورية الفرس وامبراطورية الاســـكندر** ، وأصبحت الشـــام كما أصـــبحت بلاد النهرين جزءا من امبراطورية عظيمة ، واعتنى بالطرق وأخذت المدن الفينيقية فى الازدهار

وواصلت نشاطها التجارى ، خاصة وقد شملت الامبراطوريتان الكبيرتان على التوالى رقعة ضخمة من العالم المعمور حتى أضحت معظم مسالك تجارة الشرق والغرب فى حمى دولة واحدة ضخمة • فلما تجزأت امبراطورية الاسكندر بين قواده « كانت سوريا العمود الفقرى للامبراطورية السلوقية (السليوكية) ، وانطاكية راســـها السياسى ، وسلوقيه (سليوكيا) عاصمتها التجارية ، وافاميه مقرها الحربى ، وسلوقية (سليوكيا) على الدجلة عاصمة جناحها الشرقى ، وساردس عاصمة جناحها الغربى » • واهتم السلوقيون بربط هذه الأرجاء بالطرق ، فتمتع العالم الهلنستى ـ حتى فى عهد تجزئته ـ بمقومات تحقق شيئا من الانســـجام الثقـــافى والاقتصادى • ويبدو أن السياسة السلوقية كانت تهدف الى أن تجذب الى بلادها بضائع الجزيرة العربية والهند وأواسط آسيا للاستهلاك المحلى والمرور ، كما تهدف الى تشجيع العلاقات التجارية السورية مع الغرب وخاصة العالم اليونانى ـ الرومانى •

وهذه السياسة أدت الى تنافس البطالمة مع السلوقيين على تجـــارة الترانسيت ، فمنتجات الهند يمكن أن تأتى بحرا الى اليمن Arabia Felix لتصبح جزءا من تجارة الجزيرة العربية فتنقل برا الى البتراء وبـــلاد البطالمة ، كما يمكن أن تتجه بحرا عن طريق الســـاحل الغربى للخليج الفـارسى فتمر بالعقـــير Gerrha وتصعد دجلة الى سلوقية وبتجمع هناك أيضا ما تجلبه تجارة القوافل البرية ثم تتجه غربا فتصعد الفرات مارة بدورا ـ أوروبس Dura - Europos الى أنطاكية أو تتبع الطريق القديمة شرقى دجلة فتعبر ما يدعوه العرب جزيرة ابن عمر وتسير غربا الى نصيبيين فادسا ثم أنطاكية أو دمشق • وقد جعل هذا من سلوقية على دجلة مركز توزيع البضائع بالنسبة للتجارة الشرقية فكانت وريثة بابل القديمة وسلفا لبغداد فى العصور الوسطى • وقد بقيت هذه الطرق التجارية الشرقية التى تمر بسلوقية على دجلة مطروقة خلال القرن ٣ق •م ولكن فى الفترة المضطربة فى أواخر القرن ٢ وأوائل ١ق •م أصبحت الطرق الصحراوية المارة بتدمر أكثر ملاءمة ، وخاصة لأن القبائل التدمرية كانت فى وضـــع يمكنها من ضـــمان الأمن والمياه ، واستمرت الأمور على هذا النحو ٤ قرون • وكان بامكان القوافل الآتية من مصر والبتراء أو الساحل الفلسطينى أن تتبع الطريق الســـاحلية حتى اللاذقية ومن هناك تتصل بسلوقية وانطاكية ، أو يمكنها أن تنعطف من مجدو أو صور الى دمشق متتبعة الطريق القديمة الكبرى • أما القوافل القـــادمة من أرواد أو مارثوس فيمكن أن تتبع الطريق الساحلية شمالا أو تســـتدير شرقا باتجاه حمص وافاميه • وكانت ســـلوقية

أو جارتهـــا أنطاكية على نهر العاصى الصالح للملاحة وقتذاك نقطة التقاء القوافل المختلفة ٠ وكان السلوقيون فى ذروة حكمهم سادة طريق الحرير التى تخترق الهضبة الايرانية وآسيا الوسطى حتى منغوليا ، وكان قسم كبير من الطريق يقع فى الامبراطورية السلوقية ٠ **والتقت منتجات الشرق الأقصى بمنتجات الهند وغربى الجزيرة العربية فى بلاد الرافدين ، وانتقلت غربا أما بطريق نصيبين وادسا (الرها) أو بطريق دورا – أوروبس –** وكانت احدى المراكز القوية التى أسسها السلوقيون لتحمى الطرق الرئيسية كما كانت محطة قوافل ، وهى فى موقع متوسط بين سوريا وبلاد الرافدين . وقد تطورت من حصن قوى الى سوق تجارية هامة ، وموقعها ذو منعة طبيعية على هضبة صخرية تشرف على الفرات ويحيط بها واديان سحيقان ٠ وقد بلغت ذروتها كمركز للقوافل فى عهد البارثيين واستخدمها الرومان كمعقل على حدود الامبراطورية من جهة الفرات، واحتلها الساسانيون بعد سنة ٢٥٦م بقليل وهدموها ٠ وكانت جرها Gerrha أهم مركز تجارى على الخليج الفارسى ، وهى مدينة عربية تقريبا لها واجهتها البحرية كما لها موقعها على طرق القوافل الكبرى ، ومنهـا طريق يصلها باليمن جنوبا بينما تتجه طرق أخرى فى قلب الصحراء الى تيمـاء فالبتراء ٠ وكان الاتصـــال البحرى الرئيسى بين الهنـد والامبراطورية السـلوقية يتم بواسطة العقير ، كما كان السـلوقيون يتزودون بحاجاتهم من بضائع الجزيرة العربية عن طريقها خاصـــة حين كانت ســـوريا الجنوبية جزءا من دولة البطالمة – وأهمها المر واللبان والعطور ٠ وكانت بضائع الجزيرة العربية والهند وأواسـط آسـيا المصدرة الى سوريا يستهلك جزء منها محليا ، ويعاد تصدير الجزء الآخر الى الغرب ٠ وقد كان للتجارة دورها الكبير فى ازدهار سوريا ، وكانت تتألف من منتجات سوريا الزراعية والصناعية – مثل الزجاج والنسيج – بالاضافة الى البضائع المارة بها من البلاد الواقعة فى شرقها – وكانت تجارة الرقيق من العناصر الهامة فى التجارة السورية (٤) ٠ وهكذا بينما كانت الحاصلات الهندية العربية وحاصلات شرقى افريقية من توابل وعقاقير وعاج ولاليء تحمل الى موانيء مصر برنيق Berenice وميـــوس هورموس Myos Hormos وارسينوى Arsinoe والقلزم Clysma ومنها تنقل الى أسواق الاسكندرية – كان حرير الصين ينزل فى ايله أو ليوكى كومى Leuce Come أحيانا (الحوزة) وتحمله القوافل الى سوريا ٠ وكان

(٤) حتى : تاريخ سوريا جـ ١ ترجمة دكتور حداد ورافق ص ٥ ، ٦٤ – ٥ ، ٧٤ – ٥ ، ١٠٤ – ٥ ، ١٠٧ ، ١٤٩ – ١٥٠ ، ١٨١ – ٢ ، ٢٤٠ ، ٢٦٩ : ٣٠١ ، برستد : انتصار الحضارة – ترجمة دكتور فخرى ص ١٩٨ : ٢٠٣ ٠

الموقع الجغرافى الممتاز لسوريا بالنسبة للتجارة الشرقية عبر الطرق البرية يرفع من قيمة مكانها بالنسبة للتجارة البحرية القادمة من الخليج الفارسى بل ومن البحر الأحمر أحيانا — وهذا من خصائص سوريا التى مكنتها من منافسة مصر بنجاح فى السيطرة على تجارة بعض البضائع وتسويقها حتى خلال العصور الوسطى — أما بالنسبة للشمال فقد اتصلت البداوة والتجارة فى أقصى شمالى الجزيرة ، وقامت أسواق فى بعض مراكز مثل أورفا (الرها) وقد عمل البدو من العرب فى نقل بضائع التجار الاغنياء فى المدن المستقرة بينما اغار سكان الجبال الاكراد على القوافل وهى تجتاز الطرق التجارية • وقد عملت المنافذ عبر الجبال الممتدة طوليا فى سوريا كمسالك بشرية وتجارية بين الداخل والساحل ومن أهمها بوابة حلب ، ومنفذ اليرموك — برج ابن عامر Esdraleon والمنطقة المنخفضة جنوب مؤاب ومرتفعات اليهودية Judaea وقد شاركت حلب (Khalpa القديمة) فى النشاط التجارى عبر الطريق الملكى Royal Road **الذى يربط بين افسوس على بحر ايجة وبين مدن الامبراطورية الفارسية، كما كانت مستودعا للتجارة بين موانى الساحل السمانى الفينيقية مثل انطاكية واللاذقية وطرسوس وطرابلس من جهة وبين مدن شمالى الهلال الخصيب مثل نصيبين وادسا (اورفا) وماردين وغيرها** • وسوف تقاسمها هذا الخير حماه وحمص فى العصور الوسطى لسهولة مواصلاتها مع الساحل عن طريق العاصى والنهر الكبير (٥) •

(أ) كان شمالى الشام والجزيرة اذن طريقا الى الاتصال بالهضبة الايرانية، التى كانت بدورها معبرا بين آسيا الغربية والشرقية — اذ اتصلت فارس بالصين من قديم ، ويقوم أول شاهد تاريخى على التأثير المباشر لهذا الاتصال فى القرن ٦ق٠م٠ وبعد قيام الصين الموحدة كان أمامها طريقان للاتجار مع الغرب : البر والبحر ، ويمكن القول عموما بأنه حين تركزت قوة الامبراطورية فى الشمال كان الاهتمام بطريق التجارة البرية على عكس الحال حين تركزت قوة الامبراطورية فى الجنوب • كذلك أدى توسع الصينيين البحرى الى الاتصال بمنطقة الملايو الهندية Indo-Malaysia وساعد توسع الفرس البحرى على اقامة اتصال مباشر بين جنوبى شرقى آسيا والشرق الأقصى ، وكان الخليج الفارسى مجالا طيبا للتقدم الملاحى المبكر ، وهناك نظرية ترجع موطن الفينيقيين الأصلى الى الخليج الفارسى • وقد استفاد الاشوريون والبابليون من هذا الخليج فى اقامة العلاقات

(٥) Huzayyin: Arabia and the Far East. p. 11-3. 102.

التجارية مع سواحل عمان والبحر العربى وربما الهند نفسها • وكانت البضائع المتبادلة هى اللبان والتوابل واللآلىء والمعادن والاخشاب • وقد اهتم الاكمينيون بطرق التجارة البرية على حساب الطرق البحرية ، ولم تكن سيطرة السلوقيين على الخليج الفارسى فعالة اذ قامت امارة محلية عند مصب دجلة والفرات وجاء البارثيون ــ وموطنهم شمالى ايران ــ فاهتموا باحتكار التجارة البرية بين الصين ووسط آسيا والهند من جانب وبين الاقاليم الرومانية من جانب آخر • واهتم التجــــار الاغريق من سوريا وفينيقية ومصر بطريق البحر الأحمر ، كما نشطت قبائل الانباط فى تجارة طريق الحجاز الذى يربط جنوبى بلاد العرب بالبحر المتوسط ، وفى عهد الساسانيين ــ وموطنهم جنــــوبى ايران ــ (حوالى ٢٢٥ــ٦م) أخذ الخليج الفارسى يستعيد أهمية التجــــارية • وأدت المنافسة بين ذراعى المحيط الهندى : البحر الأحمر والخليج الفارسى الى صراع الفرس والروم للسيطرة على الطرق التجارية (٦) •

(ب) وفى الوقت نفسه **كان شمالى الشام والجزيرة طريقا للاتصال بآسيا الصغرى وشواطىء البحر المتوسط** من جهة أخرى • ويمكن تتبع التوغل التجارى الاغريقى فى بلاد العرب فى النظام النقدى قبل الاسلام• فهناك دلائل على تداول العملة الاتيكية فى القرن ٥ ق•م• فى جنــــوبى فلســطين وشمالى الحجاز ثم تغلغت جنوبا فى قلب بلاد العرب حتى أدركت آثارها حملات المعينيين والسبئيين والحميريين والقتبانيين• ثم قامت امبراطورية الاسكندر فزادت النفوذ الاغريقى الاقتصـــادى فى الشرق ، وقامت الدولة البكترية Bactrian Kingdom جنوبى التركستان وشمالى غرب الهند كنموذج مثالى للدولة التجارية ، اذ قامت حياتها على احتكار تجارة وســـط وشرقى آسيا • واستفادت دول الارشــــاقيين Arsacids (فى بارثيا) والسلوقيين من موقعهــــا الممتاز على الطرق التجارية ، وحاول البطالمة فتح سبل الاتصال البحرى مع الحبشة والهند والتقوا فى طريقهم بالعرب الجنوبيين والهنــــود وغيرهم ، وغدا نفوذهم محسوسا بصفة خاصة على ساحل اكسوم Auxome حيث قامت فيما بعد دولة تسير فى فلك بيزنطة وتعتنق المسيحية (٧) •

وقد بلغت المبادلات التجارية السورية ذروتها **أيام الحكم الرومانى ،** وغدت مدن القـــوافل كالبتراء وجرش وبصرى وتدمر ودورا أورويس

(٦) Huzayyin : Arabia and the Far East. pp. 17:22, 76:8. 87...

(٧) Huzayyin : Arabia and the Far East. pp. 25:7.

Dura Europos مراكز تجـــارية مزدهرة . ثم نشـــطت الطرق البحرية حين أعاد تراجان تجديد القناة التى تصل النيل بالطرف الشمالى الغربى الاقصى للبحر الاحمر والتى كان الفراعنـــة القدماء أول من بدأ بحفرها ، وصدرت المدن الفينيقية البلح وأحسن دقيق القمح . وكان اللبان المصدر من سوريا يأتى من جنوبى الجزيرة العربية ، كما صدرت المحاصيل من نباتات غربى آسيا من عقاقير وعطور تمتعت بشهرة عالمية ، وغالبا ما تشير المصادر اللاتينية الى شجيرة الميعة والسلفيوم Silphium والمجيداريس Magidaris والناردين الآتية من سوريا . كما كانت تصدر الخمور والزيوت والثمار المجففـــة والدهون . ووجدت فى مصر وقبرص وايطاليا وكولونيا وجنوبى روسيا آنية من زجاج صيدا ترجع الى القرن أم ، كما عاش أحسن عمال للبرونز فى صيدا . ووجدت فى أمكنة متعددة خارج سوريا آثار النسوجات السورية من كتانية وصوفية وحريرية . واشـــتملت الواردات السورية على الخزف من اليـــونان وايطاليا ، والسمك المجفف من مصر واســـبانيا ، والبردى من مصر ، والمر والبخور من جنوبى الجزيرة العربيـــة ، والتوابل والجواهر من الهند ، والحرير من الصين . وكانت عكا مركزا هاما لتجارة السمك . وانتعشت الخصائص الفينيقية القديمة ، ونشط السوريون فى المغامرات التجارية وانتشرت حواضرهم على طول شاطىء البحر المتوسط ، وعلى الطرق التجارية الرئيسية ، ومجارى الانهار الكبرى فى الداخل ، كما وجدت جالياتهم فى جزيرة ديلوس الايجية وصقلية والميناءين الايطاليين نابلى وأوسيتا ، ووصلوا عن طريق الدانوب الى بانونيا Pannonia وعن طريق الرون الى ليون وكان لهم مراكز فى اسبانيا والغال . واحتكر التجار السوريون تجارة الولايات اللاتينية مع الشرق ، ولم يكن لهم منافس كصيارفة ، وكانت ســلعهم تســتخدم كنماذج يجرى عليهـا التعليم هناك (٨) .

وارتبطت دمشق أيام الرومان بطرق القوافل التى تسير فى جميع الاتجاهات : الى تدمر Palmyra والفرات ، وفى اتجاه الشمال الى ابيفانيا Epiphania ومنها يمكن الوصول الى مدن نهر العاصى حتى انطاكية ، كما يمكن الوصول عن طريق خالكيس Chalcis وبيروا Beroea الى معبر الفرات الشـــهير عند زيجمـــا Zeugma أو غربا الى ممرات جبل اللكام (امانوس) Amannus فى قيليقية .

(٨) حتى : تاريخ سوريا جـ ١ ترجمة دكتور حداد وعبد الكريم رافق ص ٣٢٩ — ٣٣٠ ، ٣٨٣ — ٤ .

وقد تفرعت الطرق من انطاكية في كل اتجاه : غربا الى قيليقية ثم بيزنطة نفسها ، وشرقا الى تدمر Palmyra والفرات وبابل ، وشمالا الى معابر الفرات الهامة عند سميساط Samosate وزيجما Zeugma والى مناجم الحديد ومقالع الحجر في تلك المناطق. وبعد عهد تراجان كانت هناك ٥ طرق تمر بالمدينة وكان هناك مركز اقتضاء المكوس ، وفي هذه المنطقة وبجوار قورس Cyrrhus اكتشف الكثير من آثار الرومان وقناطرهم .

وكانت هناك طرق من مدن الداخل الهامة الى الساحل : فارتبطت انطاكية بسلوقية (سليوكيا) ، وفاميه (اباميا) باللاذقية (لاوديكيا) وحمص بارواد (ارادس) ، ودمشق بصيدا ، وأورشليم بقيصرية . وكانت هناك طرق محلية في منطقة بحيرة طبرية ، ولكن الخطوط الرئيسية للمواصلات كانت تسير شمالا وجنوبا ، وفي كثير من المواضع كانت التربة الصحراوية متماسكة بدرجة كافية ، ولم يكن يحتاج الا الى قناطر على المجاري السريعة ، كما يحتاج لتعبيد أجزاء الطرق التي تؤدي الى داخل المدن مثلما حدث عند انطاكية . وقد كان وجود القوات الرومانية وما كفلته من اقرار النظام والأمن أكبر ضمان للتجار والمسافرين ، وبعد ضم تراجان لاقليم العرب الصخرية أقيمت مجموعة طيبة من الطرق المعبدة شرقي نهر الاردن واقيمت في أقصى الشرق مراكز الحراسة والبريد ، كذلك نظمت الطرق الرئيسية في سوريا والولاية اليهودية (جوديا) وعبدت بعناية ، وحمى الطريق من انطاكية الى الشرق بفرق مسلحة قدمتها البلديات واعتنى بها بدرجة كبيرة . ولقيت طرق شمالي سوريا اهتماما كبيرا ، ووضعت عليها العلامات الدالة على المسافات بالاميال . ووجهت عناية أيضا الى الطرق المائية الموجودة : فأمكن الوصول الى انطاكية من مينائها سلوقية (سليوكيا) بعد ابحار يوم في الارنط ، وكانت هناك رحلات مائية أقصر . كذلك اعتنى بموانيء ساحل البحر المتوسط وان لم تكن كبيرة مثل سلوقية (سليوكيا) واللاذقية وارواد Aradus وبيروت وبطلمية وجوبا وعسقلون وغزة ، فازدهرت تجارتها وملاحتها .

وقام فسباسيان باصلاحات كثيرة في سلوقية بصفة خاصة وهي الميناء الاكبر لشمالي سوريا . وازدحمت هذه المواني بالسفن من سوريا والاسكندرية وآسيا الصغرى ، وكان يوصل الى روما عن طريق الاسكندرية . وكانت الاقاليم الشرقية في الدولة الرومانية عموما تمثل مراكز الصناعة والنسيج والسجاد والخزف والزجاج وغيرها ، وان كانت

تتميز أيضا ببعض المواد الخام، بينما كانت الاقاليم الغربية هي المستودع الضخم للمواد الخام خاصة المعادن من ذهب وفضة ونحاس ورصاص وصفيح وحديد وغيرها ثم أخذت الصناعة تدب تدريجيا في الغرب أيضا، وكان للجاليات الشرقية — ومنها سوريون — فضل كبير في ذلك . وقد بذلت محاولات — خاصة في عهد أغسطس — لتعبيد وتأمين الطريق بين آسيا الصغرى وسوريا التي تجتاز الابواب القيليقية وكان هناك طريق جنوبي في آسيا الصغرى يخترق مناطق تكثر فيها فرص التجارة ، وعن طريق الابواب القيليقية كان يمكن الولوج جنوبا الى انطاكيا بسوريا أو عبر الجبال الى الفرات عند زيجما ، كما كانت هناك **شبكة من الطرق المستعرضة التي تربط بين الطرق الرئيسية — مثل الطريق الذي يربط بين سينوب** Sinope وطرسوس Tarsus .

وأدى تشوب الاضطرابات بين الرومان وأمراء الولايات الحاجزة الحليفة من جهة ، وتزايد قوة بادثيا من جهة أخرى الى اتجاه الرومان الى تحويل هذه الولايات الى أقاليم تابعة للدولة مباشرة ، وتأمين الطرق المؤدية الى الفرات بالحاميات . فوضعت بنطس Pontus وارمينية الصغرى تحت الحكم (الروماني) المباشر ، وربطت بالجزر حول قيلقيه ببقية أقاليم كابادوكيا ، ووضعت حاميات قوية في ستلا Satala وملطية Melitene ووصل بينهما طريق أقيم في عهد فسبسيان ، وكان الاشراف على هذه المنطقة العليا وامتلاك معابر سميساط Samosate وزيجما Zeugma يعنيان أن الفرات كله صار تحت رقابة الرومان(٩) .

وحملت متاجر الهند وسيلان وحرير الصين عن طريق البحر الاحمر ، وعن طريق الخليج الفارسي بمدنه التجارية : جرها Gerrha وعمان Ommana ، وشراكس Charax Spasini التي امتد منها طريق على طول الفرات الى الشمال الغربي حتى يتصل بطريق الشرق البرى الكبير عند سلوقية (سليوكيا) .

وخلاصة ما ورد عن جرها Gerrha انها من المراكز التجارية الخطيرة ، وملتقى طرق القوافل الواردة من بلاد العرب الجنوبية ومن الحجاز ومن الشام والعراق ، كما كانت سوقا للتجارة البحرية تستقبل تجارة افريقية والهند وبلاد العرب الجنوبية وتعيد تصديرها الى مختلف

(٩) Charlesworth : Trade Routes and Commerce of the Rom. Emp. pp. 37:42, 78: 84, 237-8.

الاسواق بطريق القوافل البرية حيث ترسل عن طريق حائل وتيماء الى موانى البحر المتوسط ومصر أو بالطريق البرى الى العراق ومنه الى الشام ، وقد ترسل بالسفن الى سلوقية Seleucia أو بابل و Thaposcus ومنها بالبر الى البحر المتوسط ، وتستقبل تجارات البحر المتوسط والعراق والاسواق المتعاملة معها لتعيد تصديرها الى بلاد العرب الجنوبية وافريقية والهند وربما الى ما وراءها ، فهى سوق وساطة (ترانسيت) • وهى كما فى كتب الكلاسيكيين واقعة فى بلاد العرب الشرقية على ساحل الخليج على مسافة منه أو عليه مباشرة ، ويرى البعض انها العقير ، أما مدينة Charax فاول من أشار اليها المؤرخ بلينوس، وقد أنشأ الاسكندر فى جملة المدن التى أنشأها فى الشرق ويظن انها المحمرة(١٠) ، ولقد روى ان اليهود أسسوا لأنفسهم مستعمرة على ساحل ملبار بالهند عند موزيريس Muziris قرب موضع Crangnnare الحالية بعد سقوط أورشليم ومثل هذه الاسطورة ايا كان نصيبها من الصحة تبين أهمية هذا الساحل التجارية • وقد سعى تجار الرومان بدأب حتى عبروا مضيق ملقا سنة ١٦٠م ووجدوا أنفسهم وجها لوجه مع الصين ، وكان الرومان جد حريصين على الاتصال بالصين ولكن البارثيين دأبوا على الحيلولة بينهم وبين هدفهم ، وأوفد الامبراطور ماركوس أورليوس بعثة تجارية الى الصين نجحت فى مهمتها وأخذت التقارير الصينية تذكر بلاد Ta-Tsin وتعنى الحدود السورية للامبراطورية الرومانية ، وبدا فيها تقدير أمانة التجار، الرومان ونزاهتهم ، كذلك تكلم بلينى وبطليموس عن فراء التبت • واتجهت السياسة الرومانية الى تشجيع التجارة البحرية للاستيلاء على العائدات الباهظة منها ومنعها من أن تقع فى أيدى البارثيين حيث كان الطريق الذى يخترق بلادهم طويلا معرضا للناهبين والمشاغبين(١١) •

وقد حاول الرومان القضاء على طريق الخليج الفارسى الذى يتحكم فيه خصومهم - لصالح طريق البحر الاحمر الذى يسيطرون عليه فى مصر وسوريا ، سيما وقد تزايدت مطالبهم للبان والتوابل واللآلىء والعاج والدقيق ومنسوجات الهند القطنية وحرير الصين وفرائها وحديدها •

وكان العرب الحميريون يهددون مصالح الرومان عند المدخل الجنوبى

(١٠) دكتور جواد على : تاريخ العرب قبل الاسلام جـ ٢ ص ٣٧٥ ، جـ ٣ ص ٢٧٧ ، ص ٤١٨ وما بعدها •

(١١) Huzayyin : Arabia and Far East. pp. 95:106, Charlesworth : Trade Routes and Commerce of the Rom. Emp. pp. 67:73.

للبحر الاحمر ، وفى عهد اغسطس جردت حملة بقيادة آليوس جالوس Aelius Gallus ٢٥ق٠م ابحرت من ارسينوس Arsinos الى ليوكى كومى Leuce-Come (الحورة ميناء البتراء عاصمة الانباط) ويشك فى مدى معاونة الانباط لها ٠ وقد تقدمت نحو جنوبى بلاد العرب لاخضاع الحميرين وانتزاع موارد ثروتهم ٠ وتعرف أحد الرعايا الرومان Hippalos على طريقة الاستفادة من الرياح الموسمية الجنـوبية الغربية حوالى سنة ٤٠ ــ ٥٠م فى السفر مباشرة عن طريق البحر من خليج عدن الى الهند ، وربما كان ذلك معروفا لدى تجار البحر العربى الذين عبروا المحيط الى مواضع مختلفة من ساحل الهند ولكنهم لم يفشـــوا سرهم الى منافسيهم الاغريق المصريين ٠ وهكذا كان ما وصل اليه هيبالوس كشفا من وجهة نظر الرومان وحدهم ، وقد أفاد هذا الامبراطورية فى مواردها وتجارتها ، كما اضعف من تحكم العرب الجنوبيين ويذكر لنا سترابو أن القوافل من ليوكى كومى Leuce-Come الى البتراء Petra كانت من الضخامة لدرجة انها تقارن بجموع الجيوش ، وسارت حركة الملاحة بين مستودعات الجنوب الغربى لبلاد العرب وموانىء ساحل الانبـاط ، واندفع الملاحون المصريون والاغريق والسوريون موغلين فى البحار الشرقية(١٢) ٠ وفى خلال القرن الرابع الميـلادى وجزء كبير من القرن الخامس الميلادى كانت الظروف المحلية فى جنوبى شرقى آسيا تضعف من ملاحة الصين وتجارتها٠ فكانت القوة الشرائية للامبراطورية الرومانية الغربية تنهار بسرعة، بينما كانت الامبراطوريتان البيزنطية والساسانية فى دور التكوين ٠ وكذلك كان الحال فى غربى آسيا أيضا ٠ وغدت الحركة ضئيلة فى خطوط البحر الاحمر والخليج الفارسى والطرق البرية عند الحدود السورية وفى وسط آسيا ، واخذت تتدهور أسواق الشرق الرومانى عموما ٠

وهكذا تميز طوران فى تاريخ العلاقات التجـارية بين شرقى آسيا وغربيها ، وهماما يسميان : بالطور الاغريقى الرومانى والطور الايرانى (الفارسى) العربى ٠ ويمكن تسجيل البداية الحقيقية للنشاط البحرى الصينى من حوالى وسط القرن الخامس الميـلادى وبداية القرن السادس الميلادى(١٣) ٠

وشهد غربى آســـــيا تغيرات . ففى أوائل عهـد الامبراطورية الرومانية ، كانت الجهود مركزة فى فتح طريق البحر الاحمر والسـيطرة

(١٢) Huzayyin : Arabia and the Far East. pp. 110 : 3, 119.

(١٣) Huzayyin : Arabia and the Far East. p. 126.

على المراكز التجارية فى بلاد الانباط فى جنوبى فلسطين وفى شمالى الحجاز وعندما نهضت التجارة الهندية فى الخليج الفارسى فى بداية القرن الثانى الميلادى كان الطريق من رأس الخليج الى البحر المتوسط يجتاز حدود صحراء النفود بين شراكس Charax Spasini والبتراء الى غزة ، وقد احتل الرومان البتراء سنة ١٠٦م فى عهد تراجان كما حاولوا توطيد نفوذهم فى شراكس • وبعد قرن أو قرنين أخذت المراكز التجارية على **جانبى الصحراء فى سوريا وبين النهرين تنتقل تدريجيا صوب الشمال** ، وحلت بصرى وتدمر Palmyra ودمشق محل البتراء وتيماء ، كذلك حلت الحيرة وبتناى Batnae محل شراكس وابولوجوس Apologos كمركز لتجمع التجارة البرية والبحرية •

وتأسست الامارتان الحاجزتان للغساسنة واللخميين منذ القرن الثالث الميلادى فساعدا على حدود الامبراطوريتين الرومانية والبيزنطية ليأخذا مكانيهما الى الشمال قليلا من سالفيتهما : الانباط وميسين خراسين Mesene-Kharacene **ومن اهم أسباب هذه النقلة صوب الشمال ارتقاء موانى ساحل فينيقية ــ بدلا من غزة ــ عند قيام الامراطورية البيزنطية ، وتقدم مدن شمال سوريا وبين النهرين كمراكز تجارية ودينية** • وربما كان ما يعزى من جفاف فى شمالى الجزيرة العربية قد أدى الى التدهور التدريجى للاجزاء الجنوبية من الصحراء السورية من رأس الخليج الفارسى الى الركن الجنوبى الشرقى للبحر المتوسط ، مما حفز الى الهجرة منها •

غير انه من الصعب ان تعزى هذه الحركة صوب الشمال الى انتعاش الطرق البرية عبر وسط آسيا وشمالى ايران على حساب الطريق البحرى للخليج الفارسى ، لان تلك الطريق كانت مازالت متأخرة • وفى الوقت نفسه كانت القبائل من جنوبى بلاد العرب وجنوبها الغربى تهاجر الى ساحل الخليج الفارسى وأطراف الهلال الخصيب من جهة وسواحل الحبشة والصومال من جهة أخرى ، وكان لهذا آثاره على التجارة •

واجتهد الساسانيون الأوائل بدورهم (٢٢٥ ــ ٦٣٨ م) فى تنشيط تجارة الخليج الفارسى ، **فتجددت المنافسة بين الخليج الفارسى والبحر الاحمر بالنسبة لتجارة المحيط الهندى،وبينما كان الخليج تحت سيطرة الساسانيين وحدهم ، كان البحر الاحمر موزعا بين عناصر متنافسة من رومان وهنود وعرب ــ وكانت النتيجة لصالح الخليج الفارسى الذى اجتذب معظم التجارة الشرقية ، ومنه كانت تحمل فى دجلة والفرات ثم تنقلها**

القوافل الى السوق العظيم تدمر Palmyra على الجانب السورى • وأدت الخصومة السياسية بين الروم والفرس الى عرقلة التجارة ، وحطم أورليان فى أواخر القرن الثالث الميلادى تدمر التى عملت وسيطة بين الجانبين فأفاد ذلك تجارة البحر الاحمر نسبيا • وادى اتساع نفوذ ملوك سبأ الحميريين الى الاتصال باكسوم على الساحل المقابل وكانت مركزا تجاريا هاما ، وانتهى أمرها بأن دخلـت فى فلك الـروم semi-vassal وانتقل اليها مبشرو المسيحية وقويت اكسوم تدريجيا واستولت أسواقها فى القرن الخامس الميلادى على معظم تجارة البحر الاحمر ، واستطاعت أن تغزو اليمن سنة ٥٢٢ م على أثر اضطهاد ملكهـا اليهـودى ذى نواس لنصارى نجران، وكان هذا يعنى تركز التجارة كلها فى أيدى الاحباش. ويذكر بروكوبيوس ان جستنيان ٥٢٧ ــ ٥٦٥ م أرسل سنة ٣٥٠ ــ ١م بعثة تجارية الى اكسوم لتعرض على أهلها تحقيق أرباح طائلة عن طريق شراء الحرير من تجار موانى الهند وسيلان وبيعه للرومان ، ويكون ذلك فى الوقت نفسه خدمة جليلة للرومان حتى لا يدفعوا أموالهم لاعدائهم الفرس. ويمضى المؤلف قائلا : انه كان من المتعذر على الأثيوبيين شراء الحرير من تجار الهنود ، لان التجار الفرس كانوا أقرب الى مراسى السفن الهندية بحكم مجاورتهم لها وهكذا كانوا يتمكنون من السبق الى شراء بضائع تلك السفن • **والواقع ان الامبراطورية الساسانية بسيطرتها على جانبى الخليج الفارسى استفادت كثيرا من التحكم فى التجارة ، وما كانت لتسمح بنمو طريق البحر الاحمر** • وقرب نهاية القرن السادس الميلادى أرسل انوشروان حملة الى اليمن أجلت الاثيوبيين عنها ، كما أرسل أسطولا الى سيلان (سرنديب) وفق رواية حمزة الاصفهانى • وهكذا كان الخليج الفارسى يشهد تجارة متضخمة فى عشرات السنوات التى سبقت الاسلام (١٤) • وقد ذكر المسعودى أن سفن الصين والهند كانت تصل لملوك الحيرة ، مما أثار جدلا حول تحديد وقت وصول الجنك الصينى الى الحيرة ، فرأى يرجع ذلك الى القرن الثالث الميلادى ، ورأى يرجعه الى الربع الاول من القرن الخامس الميلادى ، وآخر يرجعه الى وقت معـركة القادسـية ، وربمـا كان الارجح أن ذلك كان فى بداية القرن السادس الميلادى • وقد كانت هذه التجـارة مورد ربح كبير لللخميين والساسانيين على السواء ، ولكنها بدأت تتدهور قبيل الاسلام لعـدة

---

(١٤) Huzayyin : Arabia and the Far East. pp. 130 : 4. حورانى : العرب والملاحة فى المحيط الهندى ترجمة دكتور بكر ص ٩١ : ٥ ، ارشيبالد لويس : القوى البحرية والتجارية ترجمة أحمد عيسى ص ٥٢ ــ ٣ •

عوامل : منهـا الصراع السيـاسى بين البيزنطيين والسـاسانيين ، واضطرابات البدو المتجددة على أطراف الهلال الخصيب ، فضـلا عن التغيرات المتعددة للمجارى الدنيا لدجلة والفرات التى كانت تعرقل الملاحة وتنقل مواقع الموانى . فيذكر المسعودى مثلا طغيان مياه دجلة على كلد يا سنة ٦٢٧ م • وهذه الظروف الملاحية تؤثر على الجنك الصينى بصفة خاصة لحجمه الكبير وفقا لوصف المصادر العربية والصينية على السواء ، مما اضطر ملاحى الخليج الفارسى الصينيين الى اتخاذ سيراف ومسقط موانى لهم فى الجنوب ، ومنها تنقل القوارب الصغيرة المتاجر الصينية والشرقية الى مصب دجلة والفرات • ومن هذا كانت أهمية ميناء جرها فى القرن السابع الميلادى كمدخل شرقى لوسط بلاد العرب ومكة ، وحلول الطريق من جرها الى نجد الوسطى ومكة وشمالى الحجاز فسوريا محل الطريق من موانى بابل عبر الصحراء السورية الى الحدود البيزنطية ، وربما فضل الوسطاء المحايدون الطريق الجديدة لبعـده عن نفوذ الروم والفرس نسبيا • واستمر نشاط تجار الصـين فى البحـار الغربية بعد الاسلام ، وفى سنة ٨٥١ م تكلم سليمان التاجر ــ أول رحالة عربى وصلتنا كتاباته عن بحار وأراضى جنوبى آسيا وجنوبها الغربى ــ عن السفن الصينية وتجارتها مع سيراف (١٥) •

واستعمل الطريق بين البحر الاسود وبحر قزوين من أيام جستنيان (٥٢٧ : ٥٦٥ م) ومنذ سنة ٥٦٨ م فصاعدا تبودلت السفارات بين الترك الغربيين والبيزنطيين ، ولعل سياسة الساسانيين العدائية تجاه الترك الغربيين ومنع الساسانيين رعاياهم من المتاجرة مع الترك الغربيين مما أدى الى تحالف هؤلاء الأخيرين مع الروم ، وجاء هذا الطريق انقاذا للروم من تدخل الفرس وتجار العرب الوسطاء على الحدود بين الامبراطوريتين ، ولكن لم يدم مفتوحا لامد طويل وذلك بسبب اضطرابات القبائل التركية التى عرقلت التجارة • وقرب نهاية القرن السابع الميلادى كانت العلاقات البرية بين آسيا الشرقية والغربية عموما قد تقطعت ، ولا يرجع هذا الى توسع العرب كما يظن ، بل يرجع الى الاضطرابات على حدود التبت التى استمرت حوالى ١٤٠ سنة حتى فجر القرن التاسع الميلادى ثم بدت بوادر للتعاون بين الامبراطوريتين الاسلامية والصينية لضمان الامن والسلام فى الطريق البرية ، وتتكلم التقارير الصينية عن تجديد العلاقات وتذكر

---

(١٥) Huzayyin : Arabia and the Far East, pp. 138 : 143.

أيضا حورانى : العرب والملاحة ترجمةدكتور بكر من ٩٧ ــ ٨ ، ١٠٩ ــ ١١٥ •

٣ سفراء قدموا الى البلاط الامبراطورى سنة ٧٩٨م وأدت الجهود من الجانبين الى زيادة النشاط التجارى بينهما كما يبدو من كتابات المسعودى وابن خرداذبة ، وان كانت الكتابات العربية عن الطرق البحرية أوفر . والحق انه ما من أسرة حكمت شمالى الصين فى ذلك الوقت ، بلغت من القوة بحيث تستطيع حفظ الطرق البرية تحت سيطرتها الكاملة . وأدى ادخال شرنقة الحرير من الصين الى خوتان Khutan فى أوائل القرن الخامس الميلادى تقريبا وانتشارها منها الى مختلف واحات التركستان الغربية واقليم طبرستان والشرق الادنى نفسه أدى هذا الى تحول نسبى فى تلك الاقاليم عن حرير الصين ، وان لم يكن انتاج وسط وغربى أسيا منه كافيا لتغطية احتياجات أسواق الشرق الأدنى ، **وكان الاتصال بين الشرق والغرب بحريا بصفة أساسية خلال سيطرة العرب على العلاقات الدولية (١٦) .**

هذا وقد كان البلاط الامبراطورى فى الصين يصر أكثر من أى بلاط شرقى على اشراف الحكومة على العلاقات التجارية الاجنبية للبلاد . وكان ممثلو الامبراطور يرفضون العلاقات التجارية مع الأجانب الا اذا كانت وفقا لشروطهم . وكان قسم من التجارة يتخذ شكل المنح كعلامة للخضوع والاعجاب من جانب ملك بعيد ، ويدفع الثمن الكامل فى صورة منح مقابلة للسفير المزعوم – التاجر فى حقيقته . ومعظم مايسمى بالسفارات الحاملة للجزية التى تتكلم عنها الحوليات الصينية فى مختلف الأزمان ، لم تكن أكثر من بعثات تجارية خاصة . ولم يعترض تجار الشرق العربى فى العصور الوسطى اعتراضا جديا على النظام الامبراطورى للمبادلات، وان كان قد بلغ من الصرامة فى بعض الاوقات حتى وصل الى درجة احتكار الدولة لكل المتاجر الهامة (١٧). والحرير أهم السلع التى كانت تحمل من الصين منذ زمن بعيد . ويذكر بلينى وبعض المصادر الصينية ان المنسوجات الصينية كان يجرى نسلها واعادة نسجها وفقا للذوق الغربى للمستهلكين ، وبلغت فنون النسج والتصميم والصباغة فى صناعة النسيج فى مدن العالم الهلنستى درجة كبيرة من الاتقان . ولما أقيم أسرى الروم فى سوس وغيرها على أثر حروب البيزنطيين والساسانيين تحركت المراكز الصناعية شرقا من

---

(١٦) Huzayyin : Arabia and the Far East. pp. 147 : 151. ارشيبالد لويس : القوى البحرية والتجارية ترجمة أحمد عيسى ص ٥٣ .

(١٧) Huzayyin : Arabia and the Far East. p. 161.

القرن الرابع الميلادى فصاعدا ، ولم تستعد مراكز الهلال الخصيب بهاءها القديم الا فى عهد الخلافة الاسلامية • وفى خلال عهد هذه الخلافة وطول العصور الوسطى أخذت صناعة الحرير والنسيج عموما تنتشر على السهول الشمالية للشرق العربى وعلى الجوانب الغربية والشمالية الغربية للهضبة الايرانية وأخذ انتاجها يتزايد حتى أمكن تصديره لأسواق أوربا وأقطار الشرق الأخرى • وكانت الحكومات الامبراطورية فى الصين جد حريصة على منع وصول سر انتاج الحرير الى العملاء الغربيين ، ولكن السر تسرب فى أوائل القرن الخامس الميلادى ، وتذكر الكتابات الصينية أن تسرب الحرير أتى عن طريق زواج أميرة صينية أخذت معها شرانق الحرير الى بلاد زوجها ملك خوتان ، ومنها انتشرت فى غربى التركستان والشرق الادنى ويذكر بروكوبيوس أنه فى حوالى سنة ٥٥٢ ــ ٤م جلب راهبان نسطوريان مقيمـــان فى وتان ــ المعروفة بسرينـديا Serindia لدى الغرب ــ شرانق الحرير مخبأة فى عصا الى بلاد جستنيان • وقد شجع البيزنطيون والساسانيون المتأخرون على السواء تربية دود الحرير وصناعة منسوجاته، واستمر انتشاره حتى بلغ صقلية والحوض الغربى للبحر المتوســط • وساعد على تقدم صناعة الحرير مطالب البلاط الرسمية لدى البيزنطيين الساسانيين ثم لدى الأمويين والعباسيين ، وكان قيام دول جديدة فى أوربا وراء المتوسط ، وماتمتعت به الكنيسة من قوة فى مطالع العصور الوسطى مما زاد الطلب على الحرير للباس والزينة • ويمكن القول بأن استيراد الحرير من شمالى غربى الصين وأن أخذ يقل تدريجا خلال الطور الايرانى العربى فى العلاقات التجارية فى الشرق الأقصى ، الا أن حرير الأقاليم الســاحلية للصين لم ينقطع وروده للبلدان الغربية كما يذكر الكتاب العرب • وبجانب الحرير كانت تحمل من الصين كميات يسيرة من السلع الصوفية من الحدود الشمالية الغربية للصين عبر طرق آسـيا ــ خاصة الى التركستان ، كما كان ينقل الفراء من غربى الصين والتبت عن طريق الهند الى الشرق الأدنى ونقلت السجاجيد والأبسطة من ايران الى الصين ، كذلك كانت المنسوجات القطنية تصدر من شمالى الهند خاصة عند هبوط القوة الشرائية للمستهلكين الرومان • وكان يستورد من الصين أيضـا ــ كما يذكر ابن خرداذبه والادريسى ــ الحديد ، وهناك ما يدعو الى القول بأن مصانع الحديد المشهورة فى دمشق وغيرها من مدن سوريا فى العصــور الوسطى كانت تســتخدم حديد الصين ، أما الصـــفيح فكان يحمله تجار الغرب فى العهد الرومانى الى المشرق خاصة الهند ، وبينما كانت تتدهور مناجم الامبراطورية الرومانية كانت

تزدهر مناجم الملايو الهندية Indo Malaysia حيث تجمع المصادر على أن تلك المناجم كانت مورد العالم فى ذلك الوقت . كذلك كان الشرق الرومانى يصدر الزجاج المتقن الى الشرق الأقصى خاصة الصين حيث كان يباع بأسعار غالية ، حتى أدخلت تلك الصناعة هناك قرب نهاية الربع الاول من القرن الخامس الميلادى عن طريق السوريين أو البكتريين أو الهنود ، وقد استمر تصدير الزجاج من الشرق — من حلب مثلا — بعد ذلك . وصادفت صناعة الخزف تقدما حقيقيا منذ القرن السابع الميلادى وصارت عنصرا هاما فى الصادرات — وقد سجل ذلك سليمان التاجر ، وتميزت على المصنوعات المماثلة فى ملبار وايران — كما يؤكد أبو دلف ، بينما امتد سوق الخزف الصينى من جنوب شرقى آسيا الى بلاد المغرب . أما التوابل والعطور والعقاقير كالصبر والصندل والكافور فقد كان مركزها القديم بلاد بنط حول خليج عدن ، وفى عهد الرومان استوردت هذه السلع من جنوبى بلاد العرب وساحل أثيوبيا ، ولكن عجزت هذه المنطقة أخيرا عن الوفاء باحتياجات العالم الرومانى وأخذ مركز هذه النباتات يتحرك تدريجا صوب الهند وجنوب شرقى آسيا فى الملايو الهندية Indo Malaysia وساحل ملبار وجزر الهند الشرقية ، وكانت هذه الحاصلات تصدر الى الصين والغرب أيضا وأنتجت التبت وبعض أقاليم الصين المسك والراوند .

ويورد سليمان التاجر (٨٥١م) أول ذكر للشاى ، وان كان تصديره للغرب قد تأخر الى فترة تالية . وكان يصدر اللبان من جنوبى بلاد العرب وشرقى أفريقيا الى الهند وآسيا الشرقية . ويتحدث ابن خرداذبه والمسعودى عن مصائد العنبر فى المحيط الهندى حتى فضلها الأخير على انتاج البحر المتوسط وصقلية وسواحل الأندلس . وكانت اللآلىء وسلع الزينة سلعا تجارية وواسطة للتبادل فى الوقت نفسه ، وقد اشتهرت الهند بلآلئها كما كان زمرد الصحراء الشرقية المصرية مطلوبا حتى الصين، وكانت مصائد اللآلىء والمرجان فى البحرين المتوسط والأحمر والخليج الفارسى تلعب دورا هاما فى الحياة الاقتصادية والتجارية لسكان غربى آسيا ، وقد واجهت منافسة شديدة منذ بداية العهد المسيحى من مصائد سيلان وجنوبى الهند . أما الصينيون فقد كانوا يقدرون اللآلىء الأجنبية وقد كانت جزءا هاما من وارداتهم ، كما كانوا يجلبون العاج من شرقى افريقية ، وهكذا كانت الصين طوال الطور الأغريقى الرومانى والطور الايرانى العربى من تاريخ العلاقات التجارية أحد الأسواق الهامة لسلع الزينة ، وكان للصينيين وضعهم الخاص بالنسبة للرق ، وقد احتكروا فى

موانيهم بتجـار الرقيق من المـلايو الهندية وجنوب غربى آسـيا وشرقى أفريقيـا ، وانتشرت هـذه التجـارة فى العهود الصـينية التى اهتمت بالاتصالات البحرية . وقد كانت التجارة بين شرقى آسيا وغربيها كبيرة بالرغم من مصاعب النقل وسائر العقبات الفنية فى وجه النشاط التجارى مثل أساليب المبادلات وتحديد عدد مستهلكى السلع الرئيسية ، وتعددت السـلع فى هذه التجـارة بتزايد احتياجات الأفراد والمجتمعـات نتيجة للتمدن . وكان الميزان التجارى بالنسبة للصين فى صالحها عموما ، الا أن المخازن الامبراطورية اكتظت أحيانا باللآلىء وغيرها من السلع الثمينة التى جلبها معهم التجار الغربيون مقابل الحرير والخزف وسائر السلع الصينية، مما أدى الى كسـاد فى أسوق الشرق الأقصى . وفى الوقت نفسـه كان الميزان الظاهرى لبلاد الشرق عامة فى الجانب المقابل ، ولكن يلاحظ هنا أن جزءا كبيرا من السـلع الشرقية التى كانت تصل لآسيا الغربية كان يعاد تصديرها الى الغرب ، بينما كانت الأرباح الكبيرة لتجار الشرق كوسطاء وناقلين هى سبب الزيادة فى جزء كبير من الواردات (١٨) .

الطرق التجارية ودور العرب فيها قبل الاسلام

ويهمنا من تتبع طرق التجارة التى كانت تسلكها التجارة الشرقية، تحديد دور شمالى الشام والجزيرة ودور العرب قبل الاسلام بالنسبة لهذه التجارة الهامة .

(أ) الطرق البرية :

كان من الممكن لهذه التجارة أن تتجه من التركستان الى بحر قزوين ثم تسلك بعد ذلك أحد سبيلين :

١ ـ شمالا الى الفلجا والبحر الاسود عند خرسون Cherson

٢ ـ جنوبا خلال شـمالى فارس الى نصيبين على حدود امبراطورية الروم وخلال ارمينية الى طرابزون .

وطريق الشمال من بحر قزوين الى أراضى القرغيز والصغد لم يسمع عنه قبل أواسط القرن السادس الميلادى ، عنـدما حاول أباطرة بيزنطة

(١٨) Huzayyin : Arabia and the Far East. pp. 191:215.

تامين هذا الطريق بالاتفاق مع زعماء الترك الغربيين لتجنب المرور في الاراضى الايرانية •

اما طريق الجنوب عبر ارمينية فكان يحتاج الى الاتفاق مع أقاليم شمالى ارمينية وهذا ما لجأ اليه الروم للسبب نفسه• وكان يمكن للتجارة الشرقية اذا عبرت الاراضى الايرانية أن تواصل سيرها عبر الطريق الامبراطورى القديم ، اذ يلتقى الطريقان الفرعيان من اكباتانا Ecbatana وزيجما Zeugma بالفرات عند ادسا (الرها ، اورفا) شمالى الهلال الخصيب ، ثم يمتد الطريق الى افسوس على بحر ايجه •

وثمة طريق يخترق الاراضى الايرانية يجتاز الهند وافغانستان ووسط فارس الى نصيبين ومنها الى سوريا •

اما الطريق الجنوبى من حوض الاندس Indus الادنى وسهول بلوخستان الى الاراضى القفراء جنوبى ايران حتى برسبوليس Persepolis وسوسيانا Susiana والذى يصل أدنى بلاد النهرين فمراكزه التجارية قليلة وهو أقل الطرق أهمية • وكان للحركة التجارية النشطة خلال هذه الطرق آثارها فى منطقة الشام والفرات ، التى تتوسط الشرق والغرب فتدفقت السلع على دمشق والموانى البحرية المتقاربة : طرابلس وبيروت وصور وعكا ، وكان الفرات صالحا للملاحة من الخليج الفارسى حتى قرب البحر المتوسط ، وكانت كالينيكوم Callinicum (الرقة العربية فيما بعد) مركز الروم لشراء الحرير من الفرس ، وقد واصلت أداء دورها التجارى فى العهد الاسلامى لا فى جهات الفرات وحدها بل فى الجهات الشمالية الشرقية مع نصيبين والموصل ، وفى الجهات الجنوبية الغربية مع دمشق• وكانت بالس على مسيرة يومين من الرقة ، ويصفها الاصطخرى بأنها فرضة أهل الشام حيث كان محط رحال التجارة الذاهبة الى الشرق والآتية منه . وكانت حلب على مسيرة يومين غربى بالس ـ مركزا تجاريا هاما فى شمالى الشام ، يقابل مركز دمشق فى الوسط . وتواصل بعض المتاجر طريقها الى انطاكية ومنها الى البحر . وقد بلغت أهمية الشريان التجارى بين حلب وانطاكية ان اتفق البيزنطيون والحمدانيون على استمراره آمنا بعد سقوط انطاكية فى أيدى الروم . ونحن نجد فى قائمة عشور التجارة فى اتفاق الجانبين أسماء هذه السلع : الذهب والفضة والحرير الرومى والحبر الخام والاحجار الثمينة واللالىء والديباج والاقمشة والماشية . كذلك كانت المتاجر الشرقية تصل الى الغرب عن طريق طرابزون ويشير الى أهمية دورها فى هذا الصدد المسعودى والاصطخرى .

(ب) الطرق البحرية :

كان هناك طريق الخليج الفارسي ومنه الى سوريا ، وطريق البحر الاحمر فمصر ، ومن ميزة الطريق الآخر انه يتوقى المرور فى الاراضى الفارسية . وكانت فارس خطرا يهدد التجارة الشرقية بالنسبة للروم ، فقد وضعت مكوسا عالية ، وفى أوقات الحرب قطعت الاتصال تماما . ويمكن تلخيص اتجاهات الحرب الفارسية الرومية فى محاولة فارس مد ذراعيها للوصول للبحرين الاسود والابيض للسيطرة تماما على التجارة الشرقية استيرادا وتصديرا ، ومحاولة الروم تحطيم الاقتصاد الفارسى بالوصول الى مناطق استيراد التجارة الشرقية . وتفسر هذه المحاولات كثيرا من مظاهر العداء بين المدائن والقسطنطينية حتى سنة ٦٢٩م مما كان يؤدى الى تعطل مصانع الحرير عند الروم وان لم يصل الى حد الاضرار بميزانهم التجارى .

وقد حاولت الدبلوماسية البيزنطية خلال القرنين الخامس والسادس الميلاديين تأمين الطريقين البعيدين عن النفوذ الفارسى ، فسعت لتأمين **طريق الشمال البرى** بالتفاهم مع ممالك الهون والترك فى الاستبس — فى الوقت الذى عملت فيه الجيوش فى شبه جزيرة القرم وارمينية والقوقاز ودعم البيزنطيون سلطانهم فى ميناء خرسون ضد ضغط الترك سنة ٥٨١م، أما **طريق الجنوب البحرى فى البحر الاحمر** فقد سعى البيزنطيون الى الاتفاق مع الاحباش فى اكسوم مؤملين أن ينمى الاحباش التجارة مابين سيلان والبحر الاحمر للاضرار بالساسانين ولفائدة البيزنطيين ، وقد كان البيزنطيون الى حد كبير سبب اتجاه الحبشة الى محاولات الفتح فى الساحل العربى للبحر الاحمر (١٩) .

وقد ذكرت بعض مدن الحدود فى المعاهدات بين فارس والروم ليمر بها الحرير الخام دون غيرها : مثل كالينيكوم Callinicum فى جنوب خسروان ، ونصيبين فى الجزيرة فى منتصف خط الحدود ، وارتكستاتا Artaxata ودوفن Dovin فى الشمال عند ارمينية . وكانت نصيبين وحدها هى التى يصرح فيها لتجار الرومان بالتجارة قبل المعاهدة التى عقدها امبراطور الروم جوفيان Jovian (٣٦٣ — ٤م) وقد رفض نرسى

(١٩) Huzayyin: Arabia and the Far East pp. 106-7 Runciman: Byz. Civ p. 131.
Heyd. Hist. Du Commerce du Levant Vol. I. pp. 40:45.
ارشيبالد لويس : القوى البحرية والتجارية ترجمة احمد عيسى ص ١٦ — ١٧ ، ٥١ : ٣ .

مثل هذا الشرط من دقلديانوس سنة ٢٩٨م ، وكان كل من الفرس والروم يخشون التجسس عن طريق التجارة • وفى سنة ٤٠٨ ـ ٩م صدر منشور امبراطورى لتوجيه حكام مناطق الحدود ، ومنه نعلم اتفاق الدولتين على قصر التبادل بين تجارهما على أنواع معينة • وكانت معظم السلع الشرقية قبل القرن السادس الميلادى تسلك الطريق المتوسط عبر الاراضى الساسانية ، على حين كان ينقل بعضها الآخر بحرا الى الخليج الفارسى ثم عن طريق بين النهرين الى الحدود السورية ، وسلك جانب ثالث طريقا برية من التركستان وشمالى ايران الى حدود ارمينية وسوريا•

وغدت مناطق الامبراطورية الرومانية الاقتصادية الكبرى نهاية لطريق هام من طرق تجارة الشرق الاقصى : فكانت مصر نهاية الطريق البحر الاحمر ، وسوريا نهاية لطريق الخليج الفارسى والطريق البرى عبر فارس ، والقسطنطينية نهاية لطريق ارمينية والبحر الاسود • وشاركت كل منطقة فى الرخاء الناتج عن اعادة تصدير البضائع المارة بها ، وكانت مدن القرم مثل خرسون والبوسفور ذات أهمية كبيرة ورخاء باعتبارها مراكز لتجارة الفراء الروسى ونهايات لطرق الحرير الآتية من الشمال • واستمر قيام المدن على الحدود بالتحكم فى الوارد والصادر ، وظلت دارا وارتكسانا ونصيبين وكاليكوم قوية فى عصر جستنيان ، واعترف بهذا النظام فى المعاهدة التجارية مع الفرس سنة ٥٦٢م • ويبدو ان التحكم الاقتصادى فى شئون النقل والتجارة الخارجية شغل الاباطرة البيزنطيين منذ عهد جستنيان وخلفائه أكثر مما شغل اسلافهم من الرومان(٢٠) •

ومن هنا يتبين أهمية الدور الذى لعبته مناطق الحدود فى الجزيرة وارمينية بين فارس والروم ، ولا بد أن تكون الرها بحكم موقعها قد شاركت فى تبادل التجارة عبر الحدود • ومنذ القرن الخامس الميلادى قصرت الدولة البيزنطية السماح بشراء الحرير على وكلاء امبراطوريين على الحدود لكيلا يكون لها منافس •

وتاجرت موانى القرم مع الهون والآفار وجنوبى روسيا ، وفى خلال القرن السادس الميلادى ازدهرت التجارة الشرقية وظل الحرير ينقل برا عبر الاراضى الفارسية الى مراكز المكوس ثم يصنع فى مصانع القسطنطينية

---

(٢٠) ارشيبالد لويس : القوى البحرية والتجارية ص ٢٧ ، ٥٣ ـ ٤ ، ٦٤ ، بينز : الامبراطورية البيزنطية • ترجمة دكتور مؤنس وزايد ص ٢٧١ ، كريستنسن : ايران تحت حكم الساسانيين • ترجمة دكتور الخشاب ص ١١٥ ـ ٦ •

أو صور أو بيروت ولكن بعض الحرير كان يأتي عن طريق البحر • وقد تحدث كوزماس Cosmas Indicopleustes عن تجاربه الخاصة كتاجر فابرز أهمية سيلان في القرن السادس الميلادي كملتقى تجار الشرقين الاقصى والادنى فهناك كان تجار من الهند والحبشة يبادلون الحرير والمر وخشب الصندل الوارد من الصين بالزجاج والاقمشة المطرزة من سوريا • وكان تجار الحبشة يجلبون هذه المنتجات الى ادولة على البحر الاحمر عاصمة اكسوم Axum الحبشية وكان للتجار الاحباش جولاتهم التجارية داخل افريقية • وتاتى السفن الرومانية الى ادولة فتحمل التجارة الشرقية الى جوتاب وهى جزيرة تبعد عن سينا كانت تصلها أيضا سفن البهار من موانىء اليمن على ساحل البحر الاحمر الشرقى ، فاذا دفعت المكوس فى محطة الجمارك الامبراطورية فى جوتاب تقدمت مع أحد خليجي البحر الاحمر الى ايلات (ايلة — العقبة) أو الخليج الآخر الى القلزم ومنها الى الاسكندرية •

وقد أدت الحروب بين الروم والفرس زمن جستنيان الى ارتفاع أسعار الحرير الخام، فلجأ الامبراطور الى تحديد سعره فرفض تجار الفرس البيع، وجاء انفراج الأزمة بتهريب شرانق الحرير الى أراضي امبراطورية الروم زراعة أشجار التوت فى سوريا • وقد حاول جستين الثانى خلال النصف الثانى من القرن السادس الميلادى فتح طريق التجارة الشمالى ، ففاوض خان الأتراك ولكن شغلته حروب الغرب (٢١) •

وكانت قوافل العرب البرية تشارك الطريق البحرى نشاطه فى نقل التجارة الشرقية قبل الاسلام ، فكانت هناك رحلتا الشتاء والصيف الى اليمن والشام •ويرى أن مغامرا فارسيا يدعى Amarkesos آثر العيش فى اقليم رومانى فى عهد الامبراطور ليو الاول (٤٥٧ — ٤٧٤م) ، وأقام فى الولاية العربية Arabia وأخذ يوسع نفوذه ويغير على عرب المنطقة • واستولى على جوتاب التى كانت تابعة للروم وكانت مركزا تجاريا له قيمته وبها حامية رومانية ، وربما سكنها بعض التجار ، وكانت تجمع المكوس ، ويعطى عنها وثائق تبرز فى الموانى الرومانية والا دفعت المكوس من جديد • وقد قام هذا المغامر بطرد موظفى المكوس الروم ، وأخذ يقتضى هو المكوس من السفن المارة ، وبسط نفوذه على الجزر والسواحل شمالى البحر الاحمر وعلى الطريق التجارى الذى يربط سوريا

(٢١) بينز : الامبراطورية البيزنطية ترجمة دكتور مؤنس وزايد ص ٢٧١ : ٦
Runciman : Byz. Civl. pp. 181-2.

ببلاد العرب الجنوبية ، وأراد بعد اتساع نفوذه أن يصير فيلارخا على العرب في ولاية بلاد العرب الصخرية Arabia Petraea فارسل اسقف العرب المسيحيين الساكنين في الخيام Saracens المسمى Peter للتفاوض في ذلك ثم زار هو العاصمة حيث استقبله ليو بنفسه وأعد له برنامج حافل خلال زيارته وأعطيت له الهدايا واغدقت عليه الامتيازات ، ونقلت اليه ملكية جوتاب واعترف بحكم امور كيزوس لقرىمجاورة على الرغم من أن معاهدة الصلح مع الفرس نصت على عدم السماح لأى لاجىء من الاقليم الفارسى بالاقامة في الدولة الرومانية ولم تعد جوتاب الى حظيرة الامبراطورية الا في عهد انستاسيوس • ويرى موزيل أن هذا المغامر الفارسى هو عربى انتقل من منطقة النفوذ الفارسى الى منطقة النفوذ الرومانى » واغلب الظن أن الاسم الذى عرفت به عند الرومان Nakalians كان يدل على معنى الانتقال ، وأن الذى اطلقه على القبيلة هم سكان المقاطعة الرومانية من العرب القاطنين فوصفوا القبيلة الطارئة عليهم بنعت يحمل معنى الانتقال والبداوة — أى ناقلة (٢٢) •

وكان العرب يسكنون على ساحل البحر الاحمر، الذى جرى الصراع بين الروم والفرس على السيطرة عليه والتحكم في تجارته ، وكانت بلاد اليمن بوابة الثالث منها قوتا بيزنطة وفارس الى جنوب بلاد العرب ، وتزاحمتا على السيطرة التجارية في تلك البلاد • ذلك أن صحراء الشام وما والاها جنوبا وقفت حائلا دون هاتين القوتين العالميتين اذ ذاك من الامتداد الى بلاد العرب من ناحية الشمال ، ومن ثم تسربت حمى التنافس التجارى بين القوتين العظيمتين اللتين احاطتا ببلاد العرب شرقا وشمالا عبر اليمن ، وتمكنت فارس من اقصاء الشبح البيزنطى وحلفائه من الاحباش عن تلك البوابة وغدت الرقيب المهيمن عليها حتى اطاح بها الاسلام (٢٣) » •

لقد كانت اليمن « بحكم موقعها الممتاز نقطة تبادل تجارى بين الحضارات العريقة التى نشأت في وادى النيل وفى وادى دجلة والفرات وفى حوض البحر المتوسط من جهة وبين الحضارات التى عاصرتها فى أوقات مختلفة في الهند وفى جنوب شرقى آسيا وفى شرقى افريقية من جهة أخرى • ونظرا الى صعوبة الملاحة فى البحر الاحمر ، بالاضافة الى

(٢٢) Bury : Hist. of Later Rom. Emp. Vol. II. pp. 7-8. موسل : شمال الحجاز • ترجمة الدكتور الحسينى ص ١١٨ : ١٢١ •

(٢٣) دكتور العدوى : الامبراطورية البيزنطية والدولة الاسلامية ص ١٦ — ١٧ •

سيطرة اليمن على مدخله الجنوبي والمام اليمنيين بالملاحة فى المحيط الهندى وفى البحار المحيطة ببلادهم ، **استطاعت الدول اليمنية القديمة أن تحتكر التبادل التجارى بين الشرق والغرب** وأن توجهه لمصلحتهـا على طول طرق القوافل فى شبه جزيرة العرب ، وكانت سلع الشرق تنتقـل الى حوض البحر المتوسـط وبالعـكس خلال ٣ طرق للقوافل : الاول من الســاحل الجنوبى على ظهور الابل غربا حتى صنعاء ثم شمالا بمحاذاة ساحل البحر الاحمر مخترقة تهامة والحجاز ومارة بمكة والمدينة الى العلا ثم **بطرة حيث كانت تخرج طرق فرعية الى تدمر والى الشام** والى مصر ـ وهذا أهم طرق القوافل العربية ، والطريق الثانى من أقصى شـمالى بلاد اليمن على طول وادى الدواسر الى وسـط بلاد العرب ومن هنـاك يسير**طريق الى جنوب العراق**، والطريق الثالث من وسط شبه الجزيرة **الى جنوبى شرقى سورية** مارا بواحات الجوف فى الشمال . وكانت هذه الطرق تحت رحمة العرب وحدهم . واستفادت اليمن من ميزاتها التجارية ، فارتقت حضـــارتها وانتشرت بانتشار المحطات والمستعمرات اليمنية على طول الطرق التجارية، ومن هنا وجدت صـلات بين الخط المسـند اليمنى وبين الخـط الصفوى بحوران واللحيانى بالعلا والحجر والثمودى . وخلال الالف الاولى قبل الميلاد كان الجزء الاكبر من التجـارة العالمية فى بلاد العرب واقعـا فى يد السبئيين والمعينيين المسيطرين على الجزء الجنوبى الغربى من الجزيرة العربية ، وكانت تقيم فى كل واحة مهمة على طريق الطريق التجارى جالية من عرب الجنوب ومعها مقيم منها مهمته تنظيم الاتصال بالاقليم ورؤسائه حتى لا يسيئوا لمصالح سيده السبىء او المعينى الذى قد يكون على راس المملكة الجنوبية السبئية او المعينية تبعا لاختلاف العهود التاريخية . وقد كان حكام سوريا وملوك آشور البعيدون عن طريق التجــارة الرئيسية لا يهتمون بالمفاوضات مع الملوك المحليين للاقليم واشرافه ، بل يتجهون الى المقيم الجنوبى كما لو كان هو الملك الجنوبى ، وهذا يفسر اشارات الوثائق السريانية ، والعبرية عن السبئيين كما لو كانوا يقيمون فى الجنـوب الشرقى للبحر الميت . وطريق التجارة القديم الذى يســير من أيلة الى الشمال عن طريق معان يمر على الحـدود بين البدو والحضر ، وتبعـا للمصادر الاشورية والعبرية فان البدو كانوا يسمون عروبى او عرب وان ارضهم كانت تحمل نفس الاسم ، فيجب ان نفرض أن هذا الطريق كان يحمل اسم (الطريق العربى) لانه كان يمر على حافة الحـدود الغربية لارض عروبى أو عريبى او بلاد العرب . وقد اتصـل بنو اسرائيل بهذا الطريق عند نقطة قريبة نوعا من محطـة القويرة الحالية فداروا الى

الشمال ، وسلكوا خلال جبل سعير ولكن كانوا على غاية من الحذر من قبائل البادية التي تقيم على حافته الشرقية ، اما أهل سعير فلم يعترضوا طريقهم . ويفهم من اشارات الكتاب المقدس التى تهدد ملوك البلاد العربية ، ان المقصود هم ملوك الواحات العربية ديدان وتيماء وبوز — وديدان هى مركز العرب اللحيانيين ، ثم اخذت تحل محلها الحجر Hagart 'Agra 'Hagra فى أوائل القرن الثانى الميلادى وتقع شمالى ديدان وصارت التجارة مركزة فيها . ويشير بروكوبيوس الى وجود اليهود فى جزيرة جوتاب ، وفى ذلك العهد كانت توجد حى أو خطة لليهود تختلف فى المساحة باختلاف المدن والقرى فى القاطعة العربية . وقد حل اليهود محل الفينيقيين فى النشاط التجارى ، خاصة بعد اضطهاد الرومان لهم سنة ٧٠ م ، فاتجهوا نحو الطرق التجارية العالمية واستقروا على طولها — ومن اهمها طرق القوافل العربية وافرعه المختلفة . واستقروا عند الطرف الشمالى لطريق القوافل فى بطره (البتراء) ، كما استقروا فى الواحات على طول طريق القوافل فى تيماء والعلا ويثرب، واتجهوا نحو اليمن وأكسوم فى الحبشة وعظم شأنهم فى الواحات الواقعة على طول الحجاز كما كان شأنهم فى يثرب قبل الاسلام (٢٤) .

وقد حاول الرومان الاستيلاء على طريق القوافل العربى فى حملة اليوس جالوس سنة ٢٤ ق . م ، وادى فشلهم الى انتعاش بلاد اليمن وبسطت سبأ نفوذها اواخر القرن الثالث الميلادى على اليمن ، وكان شمريهرعش ملك سبأ فى أواخر القرن الثالث الميلادى واوائل القرن الرابع الميلادى محاربا نشيطا غزا حضرموت ومد نفوذ سبأ للموانى فى شرق الساحل الجنوبى وبسط سلطانه فوق المرتفعات الجنوبية الغربية من اليمن ، فأشرف على تجارة البر والبحر . ولكن ضعفت سبأ نتيجة للحروب الداخلية ، ثم احتلال الاحباش لها سنتى ٣٤٥ ، ٣٧٨ م وصراع الروم والفرس على السيطرة على التجارة العربية . وقد كانت حملة امرىء القيس بن عمرو ملك الحيرة الموالى للفرس على نجران التى اشار اليها نقش النمارة سنة ٣٢٨ م فصلا من الحروب الرومانية الفارسية ، وكانت محاولة للسيطرة على القبائل العربية بين حدود الهلال الخصيب والحدود الشمالية لليمن ، والسيطرة على طرق القوافل العربية والقضاء على

(٢٤) دكتور حسن الباشا — طرق التجارة العربية من عهد سبأ الى صدر الاسلام — المجلة ع ٤ ابريل سنة ١٩٥٧ ، موسل : شمال الحجاز ترجمة الدكتور الحسينى ص ١ — ٢ ، ٢٣ ، ٦٠ ، ١٠٧ ، ١٢٢ .

الاحتكار اليمنى للتبادل التجارى بين الشرق والغرب • ولكن فشل هذا الهجوم واعانت على ذلك قبيلة كندة ، التى ظلت منذ تأسيسها فى نجد مخلصة للملوك اليمن • وبعد قرن قام الملك اليمنى ابو كرب اسعد او تبع (حوالى ٣٨٥ : ٤٢٠ م) مع ابنه بهجوم مضاد نحو الشمال حتى استولى على الحيرة وتوغل فى الأراضى الفارسية ، منتهزا فرصـة الاضطراب الذى اعقب وفاة يزدجرد الاول سنة ٤٣٠ م وانشغال الفرس بحرب الرومان او قتال الهون • وتفرغ التبابعة لاحياء طرق القوافل العربية والسـيطرة على التبادل التجارى بين الشرق والغرب ، بينما انشغل الفرس والروم بهجمات الهون والجرمان عن الصراع على التجارة العالمية وطرق القوافل العربية مؤقتا ، ولم تكن الحبشةوقتها منافسة خطيرة لليمن لعدم توحيدها فى دولة قوية • وبعد ان تمكن الساسانيون والبيزنطيون من صد الخطر البربرى ، تفرغتا لصراعهما ، فتعرضت اليمن للمطامع التجارية الاحتكارية منهما ، كما ظهرت مملكة اكسوم كدولة موحدة قوية فى الحبشة •

ويستشف من النقوش اليمنية القديمة ان التبابعة سـاهموا فى الحروب الفارسية البيزنطية من ٥٠٦ الى ٥٢٦ م فى جانب البيزنطيين غالبا ومع ذلك يبدو أن اتجاه بيزنطة الى تشـجيع المسيحية فى نجران أثار ذا نواس اخر التبابعة فاعتنق اليهودية. وتحالف مع المنذر الثالث ملك الحيرة ـ وادى هذا السـلوك العدائى الى **الغزو الحبشى البيزنطى لليمن سنة ٥٢٢م وسقوط التبابعة واحتلال الاحباش لليمن • وكان من المتعذر على الاحباش الاشراف على طرق القوافل الخطرة ، ففضلوا طريق البحر الاحمر • كما كانت دولتا النبط وتدمر قد سقطتا على التوالى بايدى الروم ، وقامت دولتا المناذرة والغساسنة اللتان اصطنعتهما الفرس والروم•وقد ارتبطت هذه الدويلات العربية بتجارة المرور ، حتى ارتآى حتى** Hitti **« أن شان هذه الدويلات العربية الشمالية شان دول الجنوب تستمد قوتها فى الغالب من التجارة ، ولم تكن بحال من الاحوال دولا حربية لاعند نشاتها ولا عند تطورها » • غير أن هذا القول يصـعب اطلاقه بالنسبة للغساسنة واللخميين بصفة خاصة ـ مع التسليم بدور طرق التجارة العالمية فى قيام هذه الدويلات** ، والدكتور حتى يقول بالنسبة للبتراء نفسها انها « وصلت الى أقصى درجات الغنى والرخاء فى القرن الاول الميلادى تحت رعاية الرومان الذين كانوا يتخذون منها مملكة حاجزة تقيهم شر بارثيـا » . ويقول عن تدمر كذلك انها « كانت تقـع بين الامبراطوريتين المتنافستين ـ بارثيا وروما فكانت تعتمد فى سلامتها على حفظ التوازن بين الدولتين وتستفيد من حيدتها» على أن اثر التجارة بارز

فى قيام هذه الدويلات وقد يكون سابقا على العوامل السياسية ، والدكتور حتى يشير الى اجتماع الظروف الاقتصادية والسياسية فى نشأة تدمر « وادى الاتجاه الجديد فى الامبراطوريات العالمية والتحول فى طرق التجارة الدولية الى رفع هذه القرية الصغيرة الى مكانة باهرة من الغنى والسلطة بين مدن العالم القديم .. واستفاد تجارها من وضعها الفريد **كمحطة رئيسية لنزول القوافل** عند نقطة التقاء الطرق التى تعبر الصحراء من الشمال الى الجنوب ومن الشرق الى الغرب ، واستغل رجال السياسة بذكاء **موقعها الاستراتيجى بين دولتين كبيرتين متنافستين**» .

وساعدت الظروف مكة ــ خاصة موقعها ــ كى تخلف اليمن ، وغدت فى القرن السادس الميلادى مدينة دولية يعيش فيها بجانب أهلها من قريش عشائر عربية أخرى وجنسيات اجنبية وديانات مختلفة وبعض هؤلاء تجار وبعضهم رقيق. وذكر الاخباريون ان هاشم بن عبدمناف الذى ولد فى العقد السابع من القرن الخامس الميلادى هو اول من قام برحلة الشتاء لليمن ورحلة الصيف للشام . وصارت مكة ــ والحجاز عامة ــ مركز التبادل التجارى والنقدى وعمليات التسليف والرهن والتأمين والتصدير والاستيراد والاشتراك فى المشروعات التجارية المختلفة وكان بها سفراء يحافظون على مصالح دولهم التجارية ، كما عقدت قريش الاحلاف والمعاهدات التجارية لتؤمن قوافلها التجارية فى بلاد العرب . فعقد هاشم مع بيزنطة والغساسنة معاهدة للاتجار فى الشام ، وعقد عبد شمس اتفاقا تجاريا مع نجاشى الحبشة ، وسمح الفرس لنوفل والمطلب بالاتجار مع العراق وفارس « فكان العرب ينزلون دومة الجندل على سيف بادية الشام اول يوم من ربيع الاول فيقيمون اسواقها للبيع والشراء والاخذ والعطاء وكان يعشوهم فيها اكيدر دومه ــ وربما غلب على السوق كله فيعشوهم بعض رؤساء كلب فيقوم سوقهم هناك الى آخر الشهر ثم ينقلون الى سوق هجر ــ قاله القلقشندى ... وروى القالى ان قريشا كانت تجارا وكانت تجارتهم لا تعدو مكة ــ اى تقدم عليهم الاعاجم بالسلع فيشترونها منهم ثم يتبايعونها بينهم ويبيعونها على من حولهم من العرب ، فكانوا كذلك حتى ركب هاشم بن عبد مناف الى الشام فنزل بقيصر وتمكن عنده وقال له : ان قومى تجار العرب فان رأيت ان تكتب لى كتابا تؤمن تجارتهم ، فيقدموا عليك بما يستطرف من ادم الحجاز وثيابه فتباع عندكم فهو ارخص عليكم ، فكتب له كتاب امان لمن يقدم منهم ــ فاقبل هاشم بذلك الكتاب ، فجعل كلما مر بحى من العرب بطريق الشام اخذ من اشرافهم ايلافا . **والايلاف أن يأمنوا عندهم فى أرضهم من غير**

حلف – انما هو امان الطريق ، وعلى أن قريشاً تحمل اليهم بضائع فيكفونهم حملانها ويؤدون اليهم رؤوس اموالهم وربحهم ، فاصلح هاشم بذلك الايلاف بينهم وبين أهل الشام ، حتى قدم مكة فاتاهم بأعظم شيء اتوا به بركة . فخرجوا بتجارة عظيمة وخرج هاشم معهم يجوزهم ، يوفيهم ايلافهم الذى اخذه لهم من العرب حتى اوردهم الشام واحلهم قراها ، فاتسعت قريش فى التجارة الجاهلية • وهاشم هذا هو جد الرسول ، مات بغزة فنسبت اليه فقيل لها غزة هاشم ، لان الروم كانوا يقيمون لهم سوقا فى غزة فى موسم معلوم وكانت قريش فى الجاهلية تحضره وتمتار منه • وكانت لهاشم رحلتان : رحلة فى الشتاء نحو العباهلة من ملوك اليمن ونحو اليكسوم من ملوك الحبشة • ورحلة فى الصيف نحو الشام وبلاد الروم • وقال الثعالبى : وكان يأخذ الايلاف من رؤساء القبائل وسادات العشائر ••• **ومعنى الايلاف انما هو شيء كان يجعله هاشم لرؤساء القبائل من الربح يجعل لهم متاعا مع متاعه ويسوق اليهم ابلا مع ابله ، ليكفيهم مئونة الاسفار ويكفى قريشا مئونة الاعداء ••• وذكر اللغويون من جملة التخريجات فى اسم قريش ، انها سميت بذلك لتجرها وكسبها وضربها فى البلاد تبتغى الرزق** ، وقيل لانهم كانوا اهل تجارة ولم يكونوا أصحاب زرع وضرع – من قولهم : فلان يتقرش المال أى يجمعه ••

وهكذا ورثت مكة الاشراف على طرق القوافل العربية من اليمن ، وورثت أيضا صراع الروم والفرس على هذه الطرق • فجهز ابرهة حملة كبيرة الى مكة سنة ٥٧٠ م فشلت فى غرضها ، ويميل بعض العلماء الى اعتبارها فصلا من فصول الحروب البيزنطية الفارسية بين سنة ٥٧١ ، سنة ٥٨٠ م وكان ابرهة يرمى من ورائها الى السيطرة على وسط بلاد العرب وشمالها فتتصل بحدود حليفته الدولة البيزنطية فى الشام ، ويتسنى لبيزنطة خنق فارس ، وان كانت هى فى الحقيقة فصلا من المنافسة حول احتكار التبادل التجارى والسيطرة على طرق القوافل • ولا ينال من هذه الحقيقة ذلك الطابع الدينى المستفاد من الروايات القائلة بمحاولة ابرهة صرف الحج عن الكعبة الى كنيسة القليس التى ابتناها بصنعاء • وقد ازداد نفوذ مكة وقريش على اثر فشل حملة ابرهة • ولما سيطر الفرس على اليمن سنة ٥٧٥ م بالاضافة الى سيطرتهم فى الحيرة فى الشمال ، جاء يوم الفجار الثانى الذى نهضت فيه قريش تنتصر لمن قتل شخصا اضطلع بحماية قافلة تجارية للنعمان بن المنذر ملك الحيرة ، وكان مقتله بسبب المناقسة على نقل التجارة • غير أن سيطرة مكة تعرضت للخطر لانتشار

الترف وبدت بوادر التحلل الاجتماعي وافتقاد النظام الحكومي في الداخل (٣٥) .

وكان جل الاهتمام بشئون التجارة والمال عند قريش قبل الاسلام في **بني عبد الدار** ، الذين تركوا لبني عبد المطلب الجاه المعنوي بقيامهم بشئون الكعبة والحجاج . ولقد كانت قريش كلها تسهم في تجارة الشام ، ولكن بني أمية كانوا ينظمونها ويوجهونها ويتولون قيادة القوافل الخارجة بالمتاجر ــ فكان رؤساء قافلة بدر كلهم أمويين ، وهكذا كانت تجارة قريش مع الشام اموية ، واهتم بنوعبد شمس بالتجارة والسفر اهتماما فسر دوافعه ابن هشام بقوله : ان عبد شمس كان رجلا سفارا قلما يقيم بمكة ، وكان مقلا ذا ولد وكان هاشم موسرا » . ويقال ان عثمان بن عفان سفر لقريش عند عامل الروم على بصرى فمنحه لقب فيلا رخوس ، كما سأل قيصر أبا سفيان عن النبي ، وكان لابي سفيان ضيعة في البلقاء . واتبع بنو أمية في قيادتهم لقوافل التجارة الطريق التجاري القديم ، وهو يؤدي بعد اجتياز بلاد الحجاز الى الاراضي البيزنطية عند ايلة (العقبة) التي ضمها الرومان اليهم سنة ١٠٩م وعندها يبدأ طريق تراجان بين البحر الاحمر وفلسطين وينتهي عند غزة ، ويذهب فرع آخر منها الى بصرى التي كانت عاصمة الولاية العربية بالشام وسوقا كبيرا وفدت اليه القوافل التجارية قبل الاسلام . وكانت القوافل تجد كل معونة من السلطات البيزنطية عند دخولها ايلة ــ مقر الفيلق العاشر الذي احتل جزءا من جزيرة جوتاب لاكمال الرقابة على تجارة البحر . وكان التجار الامويون يحرصون على الحصول على الدينار البيزنطي لتصريف شئونهم التجارية ، وقد لقوا كل ترحيب في المدن التي سادها نفوذ الغساسنة . وكانت قوافل مكة تحصل من الشام على المنسوجات القطنية والحريرية والاقمشة المصبغة ذات اللون الارجواني ، كما كانت تجلب من بصرى الاسلحة والحبوب والزيت (٢٦) .

---

(٢٥) دكتور حسن باشا : طريق التجارة العربية من عهد سبأ الى صدر الاسلام ــ المجلة ع ٤ ابريل سنة ١٩٥٧ ، أيضا دكتور العدوى : الامويون والبيزنطيون ص ١٩ : ٢٣ ، حتى تاريخ العرب ترجمة نافع جـ ١ ص ٥٩ : ٨٠ ، ٨١ ، ٨٧ ، ٨٨ ، ٩٢ ، تاريخ سوريا جـ ١ ترجمة حداد ورافق ص ٤١٧ وما بعدها ، كرد علي : خطط الشام جـ ٤ ص ٢٥٨ : ٢٦٠ ، القلقشندي : صبح الأعشى حـ ١ ص ٤١٠ ــ ٢١١ حـ ٤ ص ٢٦٣ ــ ٤ .

(٢٦) دكتور مؤنس : المسلمون في البحر المتوسط ــ المجلة التاريخية المصرية م ٤ ع ١ مايو سنة ١٩٥١ ، دكتور العدوى : الامويون والبيزنطيون ص ٢٣ : ٣٢ .

على أن نشاط العرب البحري قبل الاسلام كان محدودا ، واذا كانت لقريش صلة بالحبشة عبر البحر الاحمر بدليل هجرة اوائل المسلمين اليها اليها حوالى سنة ٦١٥ م الا انها كما يبدو لم تكن تملك سفنا خاصة واذا كان للبحرين وعمان ملاحوهما على الســـاحل الشرقي والجنوبي الشرقي حيث انطلقت غارات العرب البحرية بعد الاسلام مباشرة الا انه كان هناك عنصر فارسى قوى في تلك السواحل بعد تبعية المنطقة للساسانيين ، وربما كان المشتغلون بالملاحة فى أيلة مزيجا من الفرس والعرب . وهكذا سار اتجاه الفتح الاسلامي الى الشمال تجاه الشام ، ولم يعبر البحر الاحمر الى الحبشة وافريقية (٢٧) .

كانت اهم مراكز صناعة الحرير عند الروم فى الشام ــ خاصة في صور وبيروت . **وكانت الشـــام عمــوما من اكـــثر اقاليم الامبراطورية ازدهارا** . ويقول بروكوبيوس عن انطاكية عاصمة الاقليم انها كانت اولى مدن الشرق الرومانية نظرا لثرائها ومساحتها وسكانها وجمالها وآثارها ويعجب القديس انطونينالشهيد S. Antonin Martyr لابهة انطاكية وبهاء افامية وبيروت وغزة . ولم تستمر الحالة التى نشأت عن تحديد جستنيان لاسعار الحرير والتى ضاق بهـا التجار والصناع ، اذ ادخل الحرير الى أراضى الدولة بعد ذلك وبدأت زراعة اشجار التوت فى نواحى بيروت فى القرن الأخير من الحكم البيزنطى للشام . وكان لاهل الشـــام نشاطهم التجارى ايضا، فقد حملوا معهم الحرير الى شواطىء البحر المتوسط ليتعاملوا فى منتجاته متحملين فى ذلك صعابا جمة . وحين استقر الامر للجرمان فى اوربا ــ الغربية زاد نشاط السوريين التجـــارى ، واستقر بعضهم هناك.ولم يكن للروم أنفسهم مثل نشاط السوريين فى العلاقات التجارية بين الشرق والغرب . وكان موقع دمشق التجارى ممتازا ، فهى مرحلة هامة فى طرق القوافل بين آسيا الصغرى أو اقاليم الفرات وبين بلاد العرب ومصر ــ ونهر الفرات ينتهى الى الخليج الفارسى الذى اطلق عليه احد جغرافيى القرن العاشر اسم بحر الصــين لانه نقطة انطلاق السفن نحو الشرق الاقصى . وكان البيزنطيون قبل الاسلام سادة البحر المتوسط وكانت امبراطوريتهم تضم الســواحل التى تنتهى اليها الطرق التجارية الاسيوية ، ففى حوزتهم مصر حيث تجتمع شــواطىء البحرين الاحمر والابيض ، والشام حيث تنحدر المتاجر القادمة عبر الخليج الفارسى أو خليج العقبة او الطرق البرية من وسط آسيا كما كان للروم نفوذهم

(٢٧) حورانى : العرب والملاحة في المحيط الهندى ــ ترجمة د. بكر ص ١٥٠ ـ ٨ .

على شواطىء البحر الاسود حيث المراكز التجـارية التالية فى الاهمية ٠ حتى كان ظهور القوة العربية على مسرح الاحداث بعد الاسلام ، وما ترتب عليه من آثار عميقة فى شتى الاتجـاهات ، ومن بينهـا الحياة التجارية والاقتصادية (٢٨) ٠

وكان الشام يعتمد على التجارة البحرية بجانب التجارة البرية .
وقد استفاد الامويون من خبرتهم بالشام وجهة بحرية متوسطية اتضحت منذ ولاية معاوية الشام واستقرت عند قيام الخلافة الاموية؛ «وهكذا بدا التحول ـ فى اتجاه الدولة الاسـلامية عامة ـ منذ فتوح الشـــام ايام ابى بكر وعمر وكان أثر بنى أمية واحلافهم فيها واضح ، ثم حرص معاوية منذ استقر له الامر فى الشام ان يوجه الدولة كلها وجهة غربية متوسطية وجرى على هذا السنن من آتى بعده من خلفاء بنى أمية بعد ان نشـأت الدولة قارية فى محيط صحراوى ٠٠٠ وقد عـــبر عن ذلك بدقة جود فروا ديمومبين : (لقد كان الشام الاموى مسندا ظهره للبحر المتوسط ، مواجها خصمه الخطر الوحيد الامبراطورية البيزنطيـة وكان يبـدو ان مصائر الشام فى ذلك العصر الاموى كانت متوسطية ولكن موارده كانت قليلة ٠٠٠ فكان لابد له من الاستعانة بموارد وادى النيل (٢٩) ٠

وقد قام بعبء الملاحة فى البحر المتوسط أهل سواحل الشـام وقد كانوا على طول أيام الروم وحتى منتصف القرن السابع الميلادى حمـلة النصيب الاكبر من عبء التجارة فى البحر المتوسط ٠ وكانت لهم جاليات تجارية فى كل موانىء البحر ، وفى كثير من بلاد الداخل ، بل فى العاصمة نفسها ٠

ومن الاسباب المقررة لاضمحلال بيزنطة الاقتصادى اختناق أهلهـا مبدأ عدم نقل السلع الى المناطق الاجنبية ، وانتظار المشترى الاجنبى حتى يحضر اليها فتحدثنا نصوص القرن السادس الميلادى أن سكان أربونة (نربون) Narbonne مثلا يتكونون من الرومان واليهـــود والاغريق والســـوريين ، وأشـــار سيدونيس Sidonius الى وجود كثير من السوريين فى رافنا أواخر القرن الخامس الميلادى ، ويذكر الرواة أخبار رجال سوريين فى ثغور غاله وبلادها كانوا يملكون الضياع والقصـــور

(٢٨) Heyd : Hist. du Commerce du Levant. Vol. I. pp. 19:22, 24, 26-7

(٢٩) دكتور مؤنس : المسلمون فى البحر المتوسط ـ المجلة التاريخية المصرية م٤ع١ مايو ١٩٥١

Gaudefroy-Demombynes, Platonov : Le Monde Mus. et Byz. p. 270.

ويبتنون البيع ، وقد يذكرون فى النصوص باسم المشـــارقة الى جانب اليهود والاغريق • وانتشر السوريون فى أرجاء فرنسا فى خلال العهـد الميروفنجى وتوغلوا فى الداخل واندمجوا مع السكان حتى يتعذر اعتبارهم غرباء • وقد أقاموا فى نيس ومرسيليا ، ومن مرسيليا ساروا مع الجارون الى بردال (بوردو) وصعدوا مع نهـر ردانة (الرون) الى ليون ومع اللوار أورليان وتور ، وفى ايطاليا أقام المشارقة فى نابلى وأوســتيا Ostia بل تستطيع تتبع آثارهم فى بريطانيا وألمانيا • وهنـــاك شواهد على تمتع الجاليات الشرقية بذاتيتها فى مدن الغـرب بين القرنين الرابع والسادس الميلاديين • وكانت البضائع التى تحمل الى موانى هذا البحر شرقية ، وقد أورد بيرين قائمة بها ، ومن أهمها التوابل ــ خاصة الفلفل ــ والبردى والزيت ، وقد صدرت سوريا الحرير والخمور من غزة وساربتا Sarepta وعسقلان والزجاج من صيدا ومواد متقنة الصنع من صور وبيروت •

وكان الحرير السورى زينة القصور والكنائس وكان التجار المشارقة المقيمون فى غالة وغيرها من النواحى المطلة على البحر التيرانى ــ يهودا وغير يهود يحترفون التصدير بجانب الاســتيراد وبخاصة الرقيق وظل الجزء الشرقى أى الاغريقى من الدولة الرومانية والجزء الذى أغار عليه الجرمان يتعـــاملان بالعملة الواحدة التى كانت أســاس التعامل أيام الامبراطورية الرومانية Solidos ، مع اختلافات طفيفة أحيانا فى بعض الجهات فى الوزن أو المعدن ، وكان التجار السوريون لدى نزولهم فى موانى البحر التيرانى يجدون نفس العملة التى اعتادوا عليها فى بحر ايجة • بل ان ملوك المتبربرين أنفسهم قد أدخلوا على العملة فى بلادهم نفس التعديلات التى أدخلها الأباطرة البيزنطيون • وبقى الشرق والغرب مرتبطا أحدهما بالآخر اقتصاديا لصالح التجار الشرقيين وفيما عدا جهات من ايطاليا مثل البندقية التى تاجرت بسفنها مع الشرق بقى الغرب مجالا لاستثمار سوريا والاسكندرية والقسطنطينية ، ولم يتوقف البحر المتوسط ــ **الذى اتجه نحوه نشاط ولايات الامبراطورية الرومانية من بريطانيـا الى الفرات ــ** عن القيام بدوره التقليدى بعد الغزوات الجرمانيـة وظل عند المتبربرين طريق الاتصال الرئيسى مع الامبراطورية البيزنطية ويكفى أن نذكر هنـا النشاط البحرى السورى الذى ظل قائما فيما بين القرنين الخامس والثامن الميلاديين بين ثغور حوض البحر المتوسط وثغور مصر وآسيا الصغرى ،

واحتفاظ الرومان بالصـــولدى الرومانى ۰۰۰۰ » على حد تعبير بيرين Pirenne (٣٠) .

وجاء الاسلام « فورث الاحتكار القرشى لرحلة الشتاء والصيف » ، وانتهت اليه مهمة الاشراف على التبـــادل التجارى بين الشرق والغـرب والسيطرة على طرق القوافل العربية ، وورث مع ذلك كله عبء مجـابهة المنافسات الداخلية والخارجية حول هذه الطرق ٠ وقد وجه الاسلام عنايته نحو **طريق القوافل الشمالى** : حيث كان عليه أن يؤمن المصالح التجارية ضد مناوأة اليهود فى الواحات الواقعة على طوله ، وضد فلول الغساسنة وضد القبائل العربية الشمالية الموالية للبيزنطيين ، وضد الخطر الذى يهدد التجارة العربية من ايلة ومن دومة الجندل (٣١) » ٠

الثغور وأهميتها التجارية فى الدولة الاسلامية

تشغل ثغور الشام والجزيرة على السواء موقعا هاما بين الشام (وهو يطل على البحر المتوسط) والعراق وأرمينية (وهى قريبة من بحر قزوين والبحر الاسود) وآسيا الصغرى ، وقد ارتبطت مع هذه الجهات بشـبكة من الطرق يسرت اتصالها بما حولها وهيأت لها دورا تجاريا كبير ٠ وقد عدد الجغرافيون المسلمون فى كتب المسالك وغيرها هذه الطرق ، وفصلوا مراحلها ومسافاتها وسككها وبتتبع هذه الطرق يمكن تبين هذه المجموعات:

١ ـ الاتصال بين الجزيرة والثغور الجـــزرية : تتفرع الطرق داخل العراق فترتبط بين مختلف أجزائه ، وعن طريق الجزيرة فى الشمال يمكن الوصول الى الثغور الجزرية والى أرمينية أو الشام ٠ وقد كانت الرقة مركزا هاما للمواصلات ومنها يمكن الوصول الى الثغور الجزرية : وهى سلغوس وكيسوم وشـمشـــاط وملطية وزبطرة والحدث ومرعش وكمخ وحصن منصور ٠ ويسير الطريق من الرقة الى عين الرومية ، فتل عبدا ، فسروج ، فالمزينة ، فسميساط فحصن منصـــور ، فملطية ، فزبطرة ، فالحدث ، فمرعش ، فعمق مرعش وهناك طريق من ملطية الى كمخ ٠

(٣٠) دكتور مؤنس المسلمون فى البحر المتوسط ـ المجلة التاريخية المصرية م ٤ ع ١ مايو ١٩٥١ ، بينز : الامبراطورية البيزنطية ترجمة دكتور مؤنس وزايد ص ٢٧٧ ـ ٨ ، ارشيبالد لويس : القوى البحرية والتجارية فى حوض البحر المتوسط ترجمة عيسى صفحة ٢١ ـ ٢ ،
Heyd: Hist. du Commerce du Levant. Vol. I. pp. 40-1. Byzantium. p.67

(٣١) دكتور حسن الباشا : طرق التجارة العربية من عهد سبأ الى صدر الاسلام ـ المجلة ع ٤ ابريل ١٩٥٧ ٠

٢ ـ **الاتصال بين الشام والثغور الشامية :** وتتفرع الطرق داخل الشام فتصل بين شتى انحائها وعن طريق حلب في الشمال يمكن الوصول الى الثغور الشامية ومنها الى آسيا الصغرى أو ثغور الجزيرة • وهكذا تربط الطرق حلب بقنسرين وانطاكية والمصيصة واذنة وطرسوس وعين زربة والهارونية والكنيسة السوداء وتل جبير •

٣ ـ **الاتصال بين الجزيرة والشام :** وقد أورد الجغرافيون اتجاهات متعددة للاتصال بين ذراعي الهلال الخصيب ، ويمر معظمها بمنطقة الثغور والعواصم :

(أ) **فهناك طريق يربط الجزيرة بساحل الشام :** ويسير من الرقة الى دوسر ويستمر حتى يصل جسر منبج فمنبج ، ويدخل في ديار الشام فيمر بحلب والاثارب ويجتاز عمق انطاكية الى انطاكية ثم يصل اللاذقية على ساحل البحر المتوسط • ويتابع الطريق الساحل متجها نحو الجنوب فيمر بجبلة وطرابلس وبيروت وصيدا وصور وقيسارية وارسوف ويافا وعسقلان وغزة •

(ب) **وهناك طريق من الرقة الى قلب الشام حتى دمشق :** وهو حين يصل الرصافة يصير أمامه طريق الى دمشق في البرية ، وآخر الى حمص في العمران والأخير يمر بسلمية وحمص •• ومنها تتعدد السبل للوصول الى دمشق •

(ج) **غير أن هناك طريقا جنوبيا يصل بين العراق والشام ويسير من الكوفة الى دمشق :** وهذا الطريق بالطبع بعيد عن نطاق الثغور الشامية والجزرية •

٤ ـ **الاتصال بين شمالي الشام والجزيرة وبين آسيا الصغرى :** وقد حاول ابن خرداذبة أن يتتبع مراحل طريق درب السلامة الى آسيا الصغرى حتى خليج القسطنطينية ويبدأ من طرسوس الى العليق (١٢ ميلا) ، ثم الى الرهوة ثم الى الجوزات (١٢ ميلا) ، ثم الى الجرد قوب (٧ أميال) وثم الى حصن الصقالبة ، ثم الى البذندون (٧ أميال) وهو يتابع بيان مراحل الطريق في قلب بلاد الروم ، ويذكر الطرق المتعددة في داخلها للولوج الى خليج القسطنطينية • أما المقدسي فيذكر أن أقصر الطرق الى القسطنطينية من اقليم اقور « وكان ثغرة ملطية » •

٥ ـ **الاتصال بين الجزيرة وارمينية :** وتقترب الجزيرة من أرمينية ، علاوة على قربها من آسيا الصغرى واتصالها بالشام عن طريق الثغور •

وقد ذكر الجغرافيون المسلمون مراحل طريق يمتد من نصيبين الى أرزن ، وهو يسير من نصيبين الى دارا الى كفر توثا الى قصر بنى نازع الى آمد الى ميافارقين الى أرزن » وهي مدينة تتاخم أرمينية (٣٢) » .

فمنطقة شمال الشام والجزيرة - والثغور على حافتها - تربطها الطرق بما حولها من أقاليم ، وتقترب بوساطة هذه الطرق من البحار .
وهذا الموقع يهيىء لتلك المنطقة دورا هاما بالنسبة لتجارة الشرق مع الغرب . وقد أبرز المنصور من بين أسباب اختياره موقع بغداد سهولة مواصلاتها مع الجزيرة وأرمينية والشام وما جاوز ذلك بجانب اتصالها عن طريق الخليج الفارسي بتجارة الشرق الأقصى فقال : « هذه دجلة ليس بيننا وبين الصين شيئا يأتينا فيها كل ما فى البحر ، وتأتينا الميرة من الجزيرة وأرمينية وما حول ذلك ، وهذا الفرات يجيء فيه كل شيء من الشام والرقة وما حول ذلك (٣٣) » . وقد تكلم ابن خرداذبة عن « مسلك التجار اليهود الراذانية الذين يتكلمون بالعربية والفارسية والرومية والافرنجية والاندلسية والصقلبية » واليهود الراذانية هم الذين عرفوا فى غربى أوربا باسم Radanites نسبة الى نهر الرون وهو روادنوس فى اللاتينية لأن مراكزهم كانت فى بلاد حوض هذا النهر وقد كانوا يقدمون حاصلات الشرق لمجتمع الغرب فقدموا للكنائس البخور وللبيوت الفلفل ، وهؤلاء كانوا « يسافرون من المشرق الى المغرب ومن المغرب الى المشرق ، برا وبحرا يجلبون من المغرب الخدم والجوارى والغلمان والديباج وجلود الخز والسمور والسيوف . ويركبون من فرنجة فى البحر الغربى ، فيخرجون بالفرما ويحملون تجارتهم على الظهر الى القلزم . وبينهما خمسة وعشرون فرسخا ، ثم يركبون البحر الشرقى من القلزم الى الجار وجده ، ثم يمضون الى السند والهند والصين فيحملون من الصين المسك والعود والكافور والدارصيني وغير ذلك مما يحمل من تلك النواحى حتى يرجعوا الى القلزم ثم يحملون الى الفرما ، ثم يركبون فى البحر الغربى : فربما عدلوا بتجارتهم الى القسطنطينية فباعوها الى الروم ، وربما صاروا الى ملك الفرنجة فيبيعونها هناك . **وان شاءوا حملوا تجارتهم من فرنجة فى البحر الغربى فيخرجون بانطاكية ويسيرون على الارض ثلاث مراحل الى الجابية ، ثم يركبون فى الفرات الى بغداد** ، ثم يركبون فى دجلة

(٣٢) بن خرداذبة : المسالك والممالك ص ٩٦ : ١٠٤ ، ١١٠ ، ١١٣ قدامة : نبذ من كتاب الخراج - ملحق بالمسالك والممالك لابن خرداذبة ص ٢١٤ - ٥ ، ٢١٦ ، ٢١٨ - ٩ ، ٢٢٨ - ٩ ، المقدسى : أحسن التقاسيم ص ١٤٨ .

(٣٣) الطبرى جـ ٩ ص ٢٣٨ .

الابلة ومن الابلة الى عمان والسند والهند والصين ـ كل ذلك متصل بعضه ببعض • فاما مسلك تجارة الروس ، وهم جنس من الصقالبة ـ فانهم يحملون جلود الخز وجلود الثعالب السود والسيوف من أقصى صقلبة الى البحر الرومى ، فيعشرهم صاحب الروم وان ساروا فى تنيس ـ نهر الصقالية ـ مروا بخمليج مدينة الخزر ، فيعشرهم صاحبها ثم يصيرون الى بحر جرجان فيخرجون فى أى سواحله أحبوا ، وربما حملوا تجاراتهم من جرجان على الابل الى بغداد ، ويترجم عنهم الخدم الصقالبة ويدعون انهم نصارى فيؤدون الجزية (٣٤) » •

ولمدن الشام وثغورها مركز تجارى هام من قديم ، ونرى الاصطخرى يبين مدى ارتباط الشام بالبحر الاحمر فيعتبر القلزم « فرضة مصر والشام ، ومنها تحمل حمولات الشام ومصر الى الحجاز واليمن وسواحل هذا البحر » ، كما يبين أهمية حلب فى اتصال الشام بالعراق فهى «عامرة بالأهل جدا على مدرج طريق العراق الى الثغور وسائر الشامات » وكما يقول ابن حوقل انها كان لها « أسواق حسنة وحمامات وفنادق ومحال وعراص ، ولم تزل أسعارهم فى الاغذية وجميع المآكل قديما واسعة رخيصة (٣٥) » • ويروى ياقوت من رسالة كتبها ابن بطلان المتطبب الى هلال بن المحسن بن ابراهيم الصابى سنة ٤٤٠ هـ فى دولة بنى مرداس « ومن عجائب حلب ان فى قيسارية البز عشرين دكانا للوكلاء ، يبيعون فيها كل يوم متاعا قدره عشرون ألف دينار مستمر ذلك منذ عشرين سنة والى الآن » • ونقل ابن الشحنة هذه الحقيقة واستطرد الى الحرير خاصة فقال :

« ومن خصائصها نفاق ما يجلب اليها من البضائع كالحرير والصوف واليزرى والقماش العجمى وأنواع الفرا من السمور والوشق والفنك والسنجاب والثعلب وسائر الحرير والبضائع الهندية وأجناس الرقيق من الجركس والترك والروم وسائر الاجناس فانه قد يتفق أن يباع فيها فى يوم واحد ما لا يباع فى غيرها فى شهر ـ كل ذلك بأطيب ثمن ورغبة • مثلا اذا أحضر اليها مائة حمل حرير فانه يباع فى يوم واحد ويقبض ثمنه ، ولو حضر الى القاهرة التى هى أم البلاد عشرة أحمال لا تباع فى شهر » •

---

(٣٤) ابن خرداذبة : المسالك والممالك ص ١٥٣ ـ ٤ دكتور مؤنس : المسلمون فى البحر المتوسط ـ المجلة التاريخية المصرية م ٤ ع ١ ـ مايو ١٩٥١ •

(٣٥) الاصطخرى : المسالك والممالك ص ٣٠ ، ٤٦ ، ابن حوقل •

ويذكر ياقوت أن « لأهل حلب عناية باصلاح أنفسهم وتثمير الاموال ، فقل ما ترى من نشئها من لم يتقبل أخلاق آبائه في مثل ذلك ، فلذلك فيها بيوتات قديمة معـــروفة بالثروة ويتوارثونها ويحافظون على حفظ قديمهم بخلاف سائر البلدان » ، وتجود فيها حاصلات كثيرة على المطر • فلا غرابة أن ينهض رخاء حلب بالتزامات الدفاع عنها وهى ثقيلة ، فنقـل ياقوت أن حلب تقوم برزق خمسة آلاف فارس موسع عليهم ولولا الاسراف لقامت برزق سبعة آلاف فارس اذ يحصل بعض الفرسان في العام على مابين ١٠،٠٠٠ ، ١٥،٠٠٠ درهم « وفى أعمالها احدى وعشرون قلعـة يقـــام بذخائرها وأرزاق مستحفظيها •• ثم يرتفع بعد ذلك كله من فضـــلات الاقطاعات الخاصة بالسلطان من سائر الجبايات الى قلعتهـا عنبا وحبوبا ما يقارب في كل يوم عشرة آلاف درهم ، وقد ارتفع اليها في العام الماضى ــ وهو سنة ٦٢٥ هـ ــ من جهة واحدة وهى دار الزكاة التى يجبى اليها العشور من الافرنج والزكاة من المسلمين وحق البيـــــع : سبعمائة ألف درهم ، وهذا هو العدل الكامل والرفق الشامل (٣٦) » •

وقد كان لمتابعة الجهاد فى منطقة الثغور وشحنها بالمقاتلة آثار محمودة فى تأمين الطرق ورواج التجارة ، فيذكر ابن حوقل : « وبالس أول مدن الشام من العراق كان الطريق اليها عامرا ومنها سابلا ، وكانت فرضـة لأهل الشام على الفرات • وكان طرســـوس رخص عام على مر الايام ، وكانت من العمارة والخصب بالغاية ، وليس من مدينـــة عظيمة من حد سجستان وكرمان وفارس وخرزســـتان والمغرب ــ الا وبهـا لأهلها دار ينزلها غزاة تلك البلدة ويرابطون بها اذا وردوها وتكثر لديهم الصلات وترد عليهم الاموال والصدقات العظيمة الجسيمة ، الى ما كان الســلاطين يتكلفونه وأرباب النعم يعانونه وينفذونه متطوعين متبرعين ،ولم يكن فى ناحية ذكرتهـا رئيس ولا نفيس الا وله عليه وقف من ضيعة ذات مزارع وغلات أو مسقف من فنادق ، فهلكوا • وبغرس على طريق الثغور كان فيها دار لزبيدة ، ولم يكن بالشام دار ضيافة غيرها كبيرة (٣٧) » •

ويروى ياقوت فيما يرويه من رســـالة ابن بطلان « ••• فوجدنا المسافة التى بين حلب وانطاكية عامرة لا خراب فيها أصلا ، ولكنها أرض تزرع الحنطة والشعير تحت الزيتون قراهـــا متصلة ورياضها مزهـــرة

(٣٦) ياقوت : معجم البلدان جـ ١ ص ٣١٤ ، ٣٢٠ ، ابن الشحنة : الدار المنتخب ص ٢٥٤ •

(٣٧) الاصطخرى : المسالك والممالك ص ٤٦ ، ٤٧ ، ابن حوقل •

ومياهها متفجرة يقطعها المسافر في بال رضى وأمن وسكون • وبين انطاكية والبحر نحو فرسخين ولها مرسى في بليد يقال له السويدية ترسى فيـه مراكب الافرنج يرفعون منه أمتعتهم على الدواب الى انطاكية » • « وقال أحمد بن الطيب : رحلنا من المصيصة الى اذنة في مرج وقرى متدانية جدا وعمارات كثيرة (٣٨) » • وتصل الشام حاصلات جزر البحر المتوسـط « وعرض البحر من سواحل الشام اذا استوت الريح يومان الى قبرص ، ومن قبرص الى الجانب الآخر من البحر نحو ذلك • ويقع بقبرص الميعة التى تحمل الى بلدان الاسلام من بلد الروم والمصطكى تكون بقبرص • وليس في البحار أحسن حاشية من هذا البحر ، فان العمارات في الجانبين ممتدة غير منقطعة •• وبصقلية من الخصب والسعة والزروع والمواشى والرقيق — أكثر ما يقع منها — ما يفضل على سائر ممالك الاسـلام المتاخمة للبحر (٣٩) » •

وقد كان للرباطات البحرية دور في التبادل التجـارى « وفي كل رباط قوم يعرفون لسانهم — الروم — ويذهبون اليهم في الرسالات ويحمل اليهم أصناف الاطعمة ، وقد ضج بالنفير لما ترايت مراكبهم •• فرجل يشترى رجلا وآخر يطرح درهما أو خاتما حتى يشترى ما معهم (٤٠) » •

وعن الجزيرة وأهميتها التجارية كتب المقدسى يقول : « اقليم اقور واسطة بين العراق والشام ومنازل العرب في الاسـلام ، ومعدن الخيل العتاق ومنه ميرة أكثر العراق ، رخيص الاسعار جيد الثمار » • ويقول عن مدينة الرقة : « حسنة الاسواق ، وانتشر في الاقليمين ذكرها : فالشـام على تخمها والفرات الى جنبها ، الا ان الاعراب بها محيطة والطرق اليهـا صعبة » • ويسهب المقدسى في تعداد تجارات اقوار ، من خيول وحبوب وفواكه وفحم وحديد وزيوت وعسل وصابون وثياب الصوف والكتان • واشتهرت الموصل كذلك بالمصنوعات الخشبية لأن موقعها على الاطراف الشمالية ووجود الجبال حولها أتاح نمو الغابات ، ويتصل الاقليم من ناحية بآسيا الصغرى « وأقصر الطرق الى القسطنطينية من هذا الاقليم ، وكان ثغرة ملطية » ، كما يتصل من ناحية أخرى بارمينية اذ ترد الى الموصل قوافل الرحاب — وأرمينية جزء منه في تقسيم المقدسى ،وهذا الاقليم « جل وطاب ،وكثرة فيه الثمار والاعناب ورخصت به الاسعار ،منه ترتفع الاصواف

---

(٣٨) ياقوت : معجم البلدان جـ ١ ص ٣٥٤ ، ١٦٦ •

(٣٩) الاصطخرى : المسالك والممالك ص ٥١ •

(٤٠) المقدسى : أحسن التقاسيم ص ١٧٧ •

المعمولة والتكك العجيبة • ثمن الخروف درهمان ، والخبز بدانق لبنان ، والفواكه بلا عد ولا ميزان ، به المتاجر المفيدة والثمار اللذيذة » • ويشتهر الاقليم بصناعة أنواع مختلفة من المنسوجات كما يشتهر بسمك الطريخ وأنواع من الفواكه (٤١) • ووصف ياقوت الموصل بأنها « محط رحال الركبان ومنها يقصد جميع البلدان ، فهى باب العراق ومفتاح خراسان ومنها يقصد الي اذربيجان • وكثيرا ما سمعت ان بلدان الدنيا العظام ثلاثة : نيسابور لأنها باب الشرق ، ودمشق لأنها باب الغرب ، والموصل لأن القاصد الى الجهتين قل أن لا يمر بها ••» ، ونصيبين « من بلاد الجزيرة على جادة القوافل من الموصل الى الشام ، وفيها وفى قراها على ما يذكر أهلها اربعين ألف بستان (٤٢) » •

وكانت الصلات التجارية بين الدول الاسلامية وجيرانها من الامم الشرقية كالصين والهند والتركستان والروم منتعشة فى فترات السلم لتيسير المواصلات البرية او البحرية ، اما اوربا فكانت تتاجر معها الاقاليم الواقعة على ساحل بحر الروم وبخاصة الشام ومصر • وفكر الرشيد فى فتح قناة بين البحرين الابيض والاحمر مما يلى الفرما ـ كما يروى السيوطى ـ لتصل سواحل شمالى افريقية والاندلس وصقلية والفرنجة بسواحل جزيرة العرب وفارس والعراق ، غير أن بعض خاصته ومنهم يحيى البرمكى ثناه عن ذلك مخوفا اياه من خطر هجوم الروم على مقدسات المسلمين فى للحجاز بعد أن ينفتح امامهم الطريق ، وقال البعض بطغيان مياه البحر الابيض على الاحمر مما يسبب غرق سواحل مصر والصعيد واليمن والحجاز (٤٣) •

ولعبت السوق دورا كبيرا فى حياة المدينة العربية ، وتركت فيها الحياة الصناعية والتجارية • وفى الشام كان السوق من آثار التراث البيزنطى ، فالمصانع والدكاكين تقوم فى المدن المتأثرة بالطرز الاغريقية على طول طريق النصر بين الباب الرئيسى للمدينة ومعبد الاله الأكبر الذى تحول الى كنيسة فمسجد ، وتجمع أصحاب الحرف والتجارة فى جماعات فى حي أو عدد من الأحياء الخاصة • وكان التجار الأجانب يخزنون بضائعهم فى مخازن خاصة ، كما كانوا ينزلون هم ودوابهم فى بنيات مستطيلة واسعة حيث وجدت حول الصحن اصطبلات ومخازن يعلوها طابق ثان يحوى غرفا

---

(٤١) المقدسى : احسن التقاسيم ص ١٣٦ ، ١٤١ ، ١٤٥ ـ ٦ ، ١٤٨ ، ١٣٨ ، ٣٧٣ ، ٣٨٠ •

(٤٢) ياقوت : معجم البلدان حـ ٨ ص ١٩٥ ـ ٦ ، ٢٩٢ •

(٤٣) دكتور جومرد : هرون الرشيد حـ ٢ ص ٣٧٠ : ٢ •

تنفتح على الفناء فقط وتتصل ببعضها عن طريق بهو دائرى – وهذا هو القيصرية (أى السوق الامبراطورية) بالاصطلاح السورى الفلســطينى والمغربى ايضا • وهذه الفنادق أو الخانات لا توجد فى المدن فحسب ، بل وفى المحطات على طول الطرق التجارية فى الشرق • ولم يقتصر نشــاط السوق على بيع الانتاج المحلى اذ توفرت فيها البضائع الأجنبية كذلك ، وحملت اليها تجارة الشرق الأقصى عن طريق البر والبحر • ويعود الفضل للأمويين فى بناء أساطيل اسلامية فى الشام ومصر • **ولم تعق الحروب داخل الشرق الأدنى ، رحلات التجار كثيرا ، وانما عاقتها ثورات الزط والزنج القرامطة ورحب المسلمون بالتجار الأجانب وكانوا يدفعون العشور ويعتبرون مســتأمنين لمدة عام قد تمد أحيانا ، وكان للتجار مكانتهم الاجتماعية • ونال الدمقس (نسبة الى دمشق) والموسلين (نسبة الى الموصل) تقدير الغرب ، فالأقمشة الرقيقة والمخمل والأنسجة الناعمة المطرزة أو المصنوعة من الحرير خرجت من مصانع فارس وبغداد ودمشق** وآسيا الصغرى • واحتفظ الصناع القبط فى مصر بتقاليد الفراعنة فى صناعة الحرير ، وكان الخليفة يمنح الخلع كجوائز او هدايا وحاكاه فى ذلك رجاله وعماله • وتحوى المجموعات الاثرية العالمية نماذج عديدة من أوانى الخزف والنحاس والزجاج والصناديق المطعمة بالأحجار الكريمة والفضة والعاج وغيرذلك –كمانشطت صناعة الجلود •وأدت مقايضة المعادن الثمينة من معاملات مستمرة **وكانت العملة فى الايام الأولى للاسلام الدينار من الذهب فى الغرب حيث الولايات التى كانت تابعة للبيزنطيين والدرهم من الفضة فى الشرق حيث الولايات التى كانت تابعة للفرس • وفى القرن العاشر الميلادى – الرابع الهجرى ساد الدينار الذهبى البيزنطى والدرهم الفضى الفارسى جنبا الى جنب فى التعامل • وحين ضرب الخلفاء عملات ذات قيم متعددة انغمرت الاسواق بقطع نقدية ذات أصول وقيم مختلفة كان على الصرافين الموازنة بينها تحت اشراف المحتسب** ، وكان الصيارف اليهود والنصارى يعيرون مبالغ كبيرة للدولة والتجار ويشتغلون فى ضروب المعاملات النقدية كما اشتغل الاغريق بذلك أيضا (٤٤) • ويرى ماسينيون ان الصيارفة المسلمين لعبوا دورا فى فتن الشيعة ، اذ كانوا يتسلمون الأموال والزكاة ويرسلونها الى الأئمة • وقد أعفيت الارض التى تقام عليها الحوانيت من الخراج ، وسمح بتحويل الارض التى ليس لها مالك الى أسواق • وكانت الأسواق مركزا لعقد الصفقات والمؤامرات أيضا ومجالا

(٤٤) ديموميين : النظم الاسلامية ترجمة السامر والشماع ص ٢٤٩ : ٢٥٥ ، ٣٥٨ •

للاتصال والاختلاط وقد وضعت تحت مراقبة دقيقة فبعد الغروب يحمل التجار تجارتهم الى مخازنهم وتخلى السوق الا من الحراس ٠ وقد كان التفتيش يجرى على الاسعار والمكاييل والموازين ٠ وكان يجلس فى السوق الناقد لتمييز الدراهم ويراقب المحتسب عمليات البيع لمنع غش المبيعات وتدليس الاثمان والبخس والتطفيف ويختار الدلالين متوخيا فيهم الامانة والنزاهة ، ويراقب جودة المصنوعات والصاغة والحاكة والصباغين حتى لا يهربوا بأموال الناس أو حاجاتهم ، **كما كان من مهام المحتسب مراقبة السفن والملاحة والتجارة الخارجية فى الثغور** ٠ واتبعت الحكومة سياسة حرية التجارة ، فلم تقيد نقل السلع بين مختلف ولايات الدولة الاسلامية ولم تحتكر تجارة أى بضاعة ، أو تمنع مبادلتها ، وكانت احتكارات الافراد فى الغالب محلية مؤقتة لا تدعمها امتيـــازات حكومية ، فلم تؤثر على الاسعار تأثيرا مستمرا أو شاملا فى كافة أنحاء الدولة ٠ وكانت الحكومة تجبى ضرائبها من الزراع نقدا وعينا فتخفف عنهم أعباءها فلا يضطرون لبيع محصولاتهم بأسعار رخيصة كى يحصلوا على أموال لسداد الضرائب ٠ كذلك كانت ضرائب الدولة ثابتة فأدى هذا الى ثبات الاسعار بعض الشىء٠ وكانت الحكومة تدفع الى المقاتلة وعيالاتهم عطاء ثابتا يحدد القوة الشرائية لهم كمستهلكين ، وقد ضيقت أرزاق الحنطة والشعير والزيت فرص التلاعب فى أسعار ضروريات المعيشة كما يرى الدكتور صالح العلى ٠ وفى عهد عبد الملك بن مروان زيدت الجزية على أهل الجزيرة ــ فأقبلوا يبيعون انتاجهم فانخفضت الاسعار ، أما فى عهد عمر بن عبد العزيز فقد كثرت الاموال فى أيدى النـــاس نتيجة لتيسيره عليهم فارتفعت الاسعار (٤٥) ٠ وكان ولاة البريد يكتبون للمنصـــور كل يوم بسعر القمح والحبوب والادم وبسعر كل مأكول ، فاذا وردت كتبهم نظر فيها فاذا رأى الاسعار على حالها أمسك وان تغير شىء كتب للوالى والعامل سائلا عن العلة (٤٦) ٠ وكان ترف الخلفاء من دواعى رواج التجارة ، وكان للعباسيين أثر كبير فى ذلك ٠ واقترن نمو التجارة بظاهره فى سياسة الخلافة النقدية اذ استخدمت عوضا عن الاساس الفضى أساسا ذهبيا فى القرن التاسع الميـلادى ، فبينما كانت الضرائب تحصـــل فى الاقاليم الشرقية بالدراهم الفضية تحول الحساب الى الدينار الذهبى » (٤٧) ٠

---

(٤٥) دكتور الخربوطلى : تاريخ العراق تحت الحكم الاموى ص ٣٦٢ ــ ٣ ، ٣٦٦ ــ ٧ ، ٣٧٤ ، ٣٧٧ ٠

(٤٦) غنيمة : تجارة العراق ص ٤٦ ٠

(٤٧) فازيلييف : العرب والروم ترجمة دكتور شعيره ص ١٧ ــ ٥٨ ٠

وكان للتجار الأجانب المارين بديار الاسلام وضع خاص ، فهم قد يتسترون بالتجارة ويقصدون التجسس وقد قيل للمنصور انه لا يؤمن أن يكون بين التجار الغرباء الذين يقدمون بغداد جواسيس ومن يتعرف الاخبار « فأمر باخراج السوق من المدينة وجعلها للشرط والحرس وبنى للتجار بباب طاق الحراني وباب الشام والكرخ (٤٨) » ومن أجل هذا نص أبو يوسف على أنه « لا ينبغي للامام أن يترك احدا من أهل الحرب يدخل بامان أو رسولا من ملكهم يخرج بشيء من الرقيق والسلاح أو بشيء مما يكون قوة لهم على المسلمين . فاما الثياب والمتاع فهذا وما اشبهه لا يمنعون منه » . وعرض أبو يوسف لحكم القادم المستامن فى المبايعة بالخمر والخنزير واخذه بالحدود ورجح أن تجرى عليه أحكام الاسلام فى هذا الصدد ، وان طال به المقام أمر بالخروج فان أقام حولا وضعت عليه الجزية . ولو أن مركبا من مراكب المشركين من أهل الحرب حمله الريح بمن فيه حتى القته على ساحل مدينة من مدائن المسلمين ، فقال أهل المركب : انما نحن تجار حملنا معنا تجارة لندخلها بلادكم « لم يقبل ذلك منهم ، وصبروا وما معهم فيئا لجماعة المسلمين » (٤٩) .

حركة التبادل التجارى بعد الاسلام

كان رخاء سوريا وآسيا الصغرى عظيما تحت الحكم البيزنطى ، على الرغم من تأثر بعض أجزائها بالزلازل وغزوات الفرس ، واستمر رخاؤهما حتى بداية القرن السابع الميلادى واعترف بروكوبيوس بانتعاشهما ولا بد أن ادخال تربية دودة القز فى **أواخر القرن السادس م** اضاف الى رخائهما الزراعى رخاء آخر وزاد من الحرير الخام ، واثرت مدنهما بالتجارة مع جميع بلاد البحر المتوسط . وتركزت التجارة العالمية بين أقاليم الغرب الزراعية وبين بلاد الشرق فى ايدى العملاء الشرقيين من السوريين واليونانيين و اليهود ذلك ان السوريين المقيمين بفرنسا فى القرن السادس وأوائل القرن السابع استوردوا التوابل والانبذة وورق البردى الى مرسيليا والى المدن الداخلة مثل باريس وتور ، واستقرت جاليات منهم فى كل مركز هام من مراكز التجارة ويصدق هذا أيضا على اليهود الذين نشطوا اخصة فى تجارة الرقيق

(٤٨) الطبرى : جـ ٩ ص ٢٦٢ .
(٤٩) ابو يوسف : الخراج ص ١٨٨ ـ ٩ .

بمدن جنوب فرنسا ، اما نشاط اليونانيين التجارى فى الاقليم فكان أقل • وقد كان احتياج أقاليم الشرق للحبوب من صقلية والقمح وزيت الزيتون من شمالى افريقية والخشب والملح من البحر الادرياتى والحديد والمعادن الأخرى من أسبانيا والغال وغير ذلك من المنتجات الطبيعية ، لا يقل عن احتياج الغرب للتوابل وورق البردى والانبذة ، والحرير والمنسوجات وسائر المنتجات الصناعية الفاخرة المصنوعة فى الاسكندرية وسوريا والقسطنطينية • فليس من الصحيح ان التجار المشارقة — استنزفوا ذهب الاقاليم الغربية أثناء تسلطهم على تجارة حوض البحر المتوسط ، وليس هناك ما يدل على انحطاط مستوى العملة الذهبية التى ضربها الفرنجة فى القرن السادس وأوائل القرن السابع الميلاديين على التصميم البيزنطى • ولم تنجح تماما محاولات البيزنطيين فى تحويل طرق التجارة الشمالية الجنوبية بعيدا عن ايران ، ولا فى الاستغناء بالحرير الخام عن استيراده ، ولا فى ارغام المستوردين للفرس على قبول الأسعار التى حددوها لشراء الحرير ، فاستمر اعتماد بيزنطة على الفرس كوسيط تجارى فضلا عن مواصلتها ارسال منح مالية لآل ساسان • لكن هذا لا يعنى أن ذهب الامبراطورية قد تحول الى الشرق ، بل اوجدت الصناعات الناجحة فى سوريا والقسطنطينية نوعا من التعادل فى ميزان التجارة مع فارس • فقد غدت العملة البيزنطية فى منتصف القرن السادس عملة دولية دون منازع فى منطقة المحيط الهندى التى كان يسيطر عليها تجار الفرس ، ولم يضرب الساسانيون عملة ذهبية قط مكتفين بالعملة الفضية مما يشير الى سيادة البيزنطيين اقتصاديا (٥٠) •

استمرت احوال التجارة فى البحر المتوسط على ما هى فى **النصف** الأول من القرن السابع الميلادى (الثلث الأول من القرن الأول الهجرى) ولم تغير الفتوح الاسلامية فى أول الأمر هذه الأحوال الا قليلا، فاستمرت التجارة فى أيدى السوريين واليونانيين ، ولم يحدث تغيير كبير فى توزيع السكان الا فى الاقاليم الساحلية السورية التى تحرك سكانها على أثر الهجوم الفارسى فالعربى ، يلتمسون مأمنا فى آسيا الصغرى وجهات أخرى من بلاد البحر المتوسط ، واستمرت هذه التحركات اوائل الحكم الاموى خاصة بين عامى ٦٦٦ ، ٦٨٩م حيث نشطت جماعات المردة فى توغلها فى اقليم لبنان ، وسحب جستنيان الثانى ١٢ الفا منهم سنة ٦٨٩م ووطنهم فى آسيا الصغرى ، كما أسكن معاوية جماعات من الفرس

(٥٠) ارشيبالد لويس : القوى البحرية والتجارية ترجمة احمد عيسى ص ٦٥ ، ٧١ ، ٠٣

والزط على طول سواحل الشام . ويمكن القول ان معظم المهاجرين من سوريا او قبرص أكثرهم من رجال الحكومة البيزنطية أو الكنيسة الارثذوكسية الملكانية ، وأقلهم من التجار أو أهل الحرف الذين تعتبر هجرتهم خطرا اقتصاديا . كذلك ينبغي الا يبالغ في خسائر الحروب البرية والبحرية بين دمشق وبيزنطه حتى عام ١٩٢ م والواقع ان الوحدة المالية لاقاليم البحر المتوسط ظلت كما هي واستمر استخدام العملة الذهبية البيزنطية كأداة دولية للتعامل التجارى . لكن توقف بالطبع ارسال القمح من مصر الى القسطنطينية مما دفع الاخيرة الى محاولة التوصل لمصادر جديدة خاصة في المناطق الزراعية في البلقان وآسيا الصغرى وجنوبي روسيا وهذا أدى لرخاء الفلاحين . وأرسلت مصر قمحها لمكة والمدينة ، وحفر عمرو ابن العاص سنة ٦٤٣م قناة تصل النيل بالبحر الأحمر فانشىء طريق مائي نحو الجنوب . ولم تكن للمسلمين مصلحة في الابقاء على قوانين وتعليمات جستنيان في الاستيراد والتصدير ، **اذ اجتمعت تحت حكمهم أراضي الدولة الساسانية والشام ومصر فلم يكن داع لبقاء مراكز المكوس القديمة التي كانت تقع بين المنطقتين** ، ثم ان القسطنطينية لم تتعنت في تجارتها مع الشام ومصر الا فيما يتعلق بأخشاب السفن . ولم يسلم البيزنطيون بدورهم حتى سنة ٦٩٣م بانقطاع الصلات بينهم وبين مصر وسوريا نهائيا ، ومن هنا لم يطبقوا عليها أنظمة جستنيان وان تقاضوا الرسوم المقررة على البضائع الواردة منها ويرى (هيد) ان العداء الديني والسياسي بين المسلمين والبيزنطيين قد ذات أمام ضروريات الاتصال بين الفريقين . وقد كانت السفن البيزنطية في فترة الفتح بعيدة بالطبع عن مصر والشام ولكن هذه القطيعة لم تدم طويلا . واحتكرت الحكومة الامبراطورية صناعة الحرير الارجواني — كما احتكرت الحكومة العربية في مصر دور الطراز — الا أنها لم تتشدد في تطبيق الاشراف الحكومي على صناعات أخرى ؛ واختفت رقابتها على أصحاب سفن التجارة البحرية navicularii **وصارت حرية التجارة فيما يبدو هي قاعدة التعامل في بلاد البحر المتوسط** . يتضح هذا من قانون رودس البحرى الذى صدر حوالى هذا الوقت تقريبا ، وبمقتضاه صار ربابنة السفن أحرارا في تصرفهم لهم أن يتجهوا للحصول على شحنات لسفنهم حيث شاءوا . وليس هناك دليل على اشراف الحكومة على البحرية التجارية بعد الفتح الاسلامي في القرن السابع على عكس ما كان أواخر العصر الرومانى وأوائل الحكم البيزنطى ، ويمكن القول بصفة عامة ان **القرن**

السابع كان مصر تجارة غير مفيدة في البحر المتوسط ، وعم الرخاء مدن الشام الداخلية ، وساعد عليه وعلى نشاط التجارة زوال الحواجز الرومانية القديمة بين الشام والعراق ، أما المدن الساحلية فان الهجرة منها والغارات البحرية عليها قد عاقتها عن بلوغ مستوى مدن الداخل • على انها ظلت قادرة حتى أوائل الحكم الأموى على امداد الأسطول العربى بقوات كبيرة • وعانت الدولة البيزنطية من غارات المسلمين على حدودها وعاصمتها ، ولكن أرشيبالد لويس يرى أنه « ليس ثمة دليل على وجود ـ ازمات اقتصادية حادة ازعجت الدولة ـ مثل تلك الازمات التي واجهها هرقل • والواقع ان نظام حكومات الثغور أو الأجناد أثبت انه نظام فعال زهيد التكاليف ، واحتفظت معه تجارة القسطنطينية باهميتها المعهودة • كما لم تقل العملة الذهبية في وزنها ولا عيارها » • وازدهرت تجارة البحر الاسود مع مدينة خرسون ومملكة الخزر ـ التي قامت في منطقة جنوبي الروسيا وبحر قزوين والتي حالفت هرقل في كفاحه ضد العرب ، وتوطدت علاقاتها بالبيزنطيين منذ ذلك الوقت ففتح ذلك أمامهم طرقا للتجارة مع الصين غير الطرق الفارسية التي يتحكم فيها العرب • ومن هنا قامت العدواة بين الخزر ـ ودولتهم تقوم على التجارة خاصة ـ وبين جيرانهم الأمويين ، مما يشهد بما كان للتجارة عبر بلادهم من اهمية • والظاهر أن نصف القرن الأول من حكم العرب لسوريا ومصر لم يحدث انقلابا كليا في الأوضاع الاقتصادية في شرقي البحر المتوسط ولا يوجد دليل على ان ذلك العصر شهد تدهورا في رخاء اقتصاديات الأقاليم الغربية • حقيقة وجد ثمة أثر لهجرات السكان وتحركاتهم ، كما اضطربت التجارة العالمية بسبب الحروب التي نشبت بين دمشق والقسطنطينية في البحار ، ولكن تأثير هذا كله كان فيما يظهر طفيفا جدا خلال القرن السابع الميلادي(٥١) وقد استعمل طريقا الخليج الفارسي والبحر الاحمر جنبا الى جنب ، فقد صارا تحت نفوذ قوة سياسية واحدة • وجاءت الملاحة العربية في البحار الشرقية امتدادا ، للملاحة والتجارة الساسانية التي تبرز نشاطها في جهات الشرق الأقصى كتابات كوزماس ـ وبروكوبيوس ، وكان الفرس يبحرون طلبا للاحجار الكريمة والحرير وقد استخدموا سفنا كبيرة • وهناك مايدل على ان الملاحة الشرقية كانت سنة ٧٢٧م في ذروتها ، مما يرجع ابتداءها قبل ذلك بكثير ، وثمة روايات عن رحلات

(٥١) ارشيبالد لويس : القوى البحرية التجارية ترجمة احمد عيسى ص ١٢٠ ـ ٦ • Heyd: Hist. du Commerce Lu Levant. Vol. I. p. 52.

سابقة تصل الى سنة ٦٧١م وقد واصل الفرس الملاحة فى ظل الحكم الاسلامى ، كما ان المسلم العربى كان فى طبيعته تاجرا ــ ومن هنا كان لابد ان يدخل فى هذا الميدان ، ونرى فى القرن التاسع ان الوثائق العربية الخاصة بالتجارة البحرية مع الشرق الاقصى تذكر المسلمين والعرب أكثر مما تذكر الفرس (٥٢) ويبرز ديموميين وضع الدولة الاسلامية بالنسبة لطرق التجارة العالمية بقوله « كان الخليج الفارسى طريقا نحو المحيط الهندى وحاصلات الشرق النادرة ، كما كان الفرات طوال كثير من العصور طريق السالكين الى البحر المتوسط ــ الى اليونان وروما » . وكانت الشام اقليما مرتبطا بالبحر المتوسط ومتصلا بآسيا الصغرى من جهة ومصر وبلاد العرب من جهة أخرى ، وقد ارتبط بوادى النهرين عن طريق منحنى الفرات وعبر الطريق الصحراوى المار بتدمر . وقد جمع الساسانيون بين جانبى الهلال الخصيب فى القرن السابع الميلادى لفترة قصيرة ، لكن الشام كان أكثر ارتباطا بآسيا الصغرى ومصر . **وغدت الدولة الاسلامية باستيلائها على فارس والعراق وريثة نشاط الفرس التجارى فى الشرق الأقصى ، كما غدت بفتح الشام ومصر مطلة على البحر المتوسط وهو حلم الفرس القديم الذى عجزوا عن تحقيقه .**
وكان موقع الثغور الجزرية (ومعها ارمينية) والشامية (ومعها ثغور البحر المتوسط) هاما كمحطات لتوزيع ماجلبه المسلمون من تجارة الشرق على بلدان الغرب ، فطريق الخليج الفارسى يؤدى الى الفرات وثغور الجزيرة وارمينية وطريق البحر الأحمر تكملة الطرق البرية فتصل به المتاجر الى الشام وثغورها وموانى البحر المتوسط . وحين أرادت بيزنطة أن تستخلص للتجارة مسالك بعيدة عن دار الاسلام تنتهى الى طرابزون ، قامت ثغور الجزيرة وارمينية باستقبال التجارة القادمة عن طريق بيزنطة . « فالشريان التجارى القديم المتدفق الى بلاد الشام وآسيا الصغرى لم يمس بأى تغيير ، اذ ادرك أهالى البلاد المفتوحة فى سرعة واعجاب أن العرب الفاتحين ليسوا شعبا متبربرا متغطرسا يضع العقبات فى سبيل الحياة الاقتصادية فى البلاد ، بل رأوا من العرب أناسا يتركون الحياة الاقتصادية تسير فى مجراها الطبيعى ويحوطونها بتشجيعهم ورعايتهم » (٥٣) .

(٥٢) حورانى : العرب والملاحة فى المحيط الهندى ــ ترجمة دكتور السيد بكر ص ١٧٤ ، ١٩٠ : ٧ ،
Hadi Hassan : Hist. of Persian Navigation. pp. 103:5

(٥٣) دكتور العدوى : الامبراطورية البيزنطية والدولة الاسلامية ص ٩٢١ .
Heyd. Hist. du Commerce du Levant au Moyen Age. Vol. I. p. 25.
Gaudefroy-Demombynes, Platonov : Le Monde Musulm. et Byz. pp. 40:2.

وظهر النظام الاقتصادى للبحر المتوسط بصـــورة مغايرة خلال **النصف الثانى من القرن السابع الميلادى** (بقية القرن الاول الهجرى) ويبرز أرشيبالد لويس صورة الاحوال القائمة « ... انه الاضطراب فى مصر ، **والركود فى سوريا** ، والفوضى فى اسـبانيا وشـمالى افريقية ، والكساد فى فرنسا ، واختفاء التجار السوريين والمصريين من الاسواق الغربية ، وشيوع العملة الفضية فى اسبانيا وفرنسا . انه عالم لم يفلت من تدهوره الاقتصادى ســوى بيزنطة وايطاليا وبلاد الخزر . أما فى الناحية السياسية **فقد حل العباسيون والكارولنجيون محل الامويين والميروفنجيين ، واتخذ الأولون عاصـمتهم الجديدة فى بغداد والآخرون فى اكس لاشابل وكلاهما بعيد جدا عن شواطىء البحر المتوسـط** » .

فما هى اسباب هذا الانقلاب العميق ؟ لا نجد هذه الاسباب فى هجرات **السكان او تخريب الحروب ، ويرى ارشيبالد لويس « أن ايضاح ما حدث** من تغيرات سـياسية واقتصـادية ، نجده **فى تغير طبيعة الصراع بين الأمويين والبيزنطيين فى الفترة من سنة ٦٩٣ حتى سـنة ٧٥٢م ... فقد تطرق اليه عنصر اقتصادى** » . وهو يشير الى ضرب عبد الملك للدنانير وتوقفه عن تصدير البردى لبيزنطة « انه اراد ان يقيم سـلطانه على اســاس اقتصـــادى مستقل ، وان ينزل باعدائه نوعا من الضـغط الاقتصادى ، فكان هذا بمثابة اعلان لاستقلاله الاقتصادى عن بيزنطة ، وهو عمل لم يجرؤ أحد من أسلافه على القيام به » . وأجاب جستنيان الثانى باعلان الحرب سنة ٦٩٣ م ، وربما قطع التجارة ايضا . وقد يكون هذا سبب اقفار قبرص من سكانها الذين عاشوا على تجارتهم مع الشام ، وقد يكون هذا أيضا سبب ثورة أسطول كبير هايوت الذى كان يرابط باقليم تربطه علاقات تجارية هامة مع مصر سيما فى تجارة الخشب ، وهذا يفسر دور تجار رافنا فى اسقاط الامبراطور وقد كانوا يصدرون الخشب لمصر من زمان بعيد . وجاء تيبريوس الثانى ، فقرر اعادة اهل قبرص ، ولعله حاول التوصل الى ســلام اقتصـــادى مع الامويين ، لكن عودة جستنيان الثانى الى العرش سنة ٧٠٥ م حملت معها الصراع . والوليد ايضا قد تابع سياسة ابيه سنة ٧٠٩ م وهو الذى سن أنظمة جوازات السفر لسكان مصر وربما طبق ذلك فى اجزاء اخرى من دولته ، وتقدمت اساليب الرقابة « **وصارت للامويين دولة عربية اسلامية منظمة على اساس من الوعى الذاتى ، وتجرى على خطة معادية لجاراتها . وهكذا انتهت تلك الايام ـ ايام التجارة الحرة التى عرفها القرن السابع** ، وأقبل على الناس عهد جديد » . وفرض حكام

بيزنطة اشرافا اقتصاديا محافلا، وضيقوا على الراغبين فى الانتقال للبلاد العربية، وعادوا الى نظام الرقابة على التجارة الذى كان قد جرى عليه جستنيان وخلفاؤه تجاه الدولة الساسانية، والذى كانت التجارة الخارجية وطرق نقلها فيه أداة لخدمة الدولة ومصالحها والدفاع عنها — وهو نظام لم يكن قد عدل عنه تماما فى القرن السابع. ومن أمثلة ذلك اصرار بيزنطة على توجيه التجارة نحو ميناء خرسون الخاضع لاشرافها الدقيق، وقد استخدمت بيزنطة الحرب الاقتصادية حوالى ٧١٥ — ٦ م يشد أزرها الاسطول ضد اقاليم الدولة الاموية وضد بعض جيرانها الاخرين « والظاهر أن بيزنطة اغلقت البحر المتوسط فى وجه السفن والتجارة القادمة من البلاد العربية ما دامت هذه لم تسر فى المسالك البحرية التى رسمتها وتتبع التعليمات التى اصدرتها، وعلى هذا لايبدو غريبا ان تقلع فى العام التالى الى القسطنطينية عمارة بحرية اسلامية كبيرة (ثم حصار القسطنطينية ايام سليمان ٧١٧ م/ ٩٨ هـ) .. غير أن بيزنطة لم تكن تستطيع الاستغناء عن جميع منتجات العالم العربى : فالتوابل والبضائع الشرقية التى يقوم العرب فى تجارتها بدور الوسيط هى مواد ضرورية لسلامة الاقتصاد البيزنطى. وعلى هذا **لم تحاول بيزنطة فرض حصار شامل اطلاقا، وخصصت ميناء او اثنين لاستقبال تلك التجارة وفرضت عليهما رقابتها**، ويذكر لنا الجغرافيون العرب **ان طرابيزون** كانت الميناء الوحيد لدخول جميع التجارة العربية الى بيزنطة فى القرن السابع، ومع هذا فان قيام ذلك النظام قبل عام ٧١٦ م او بعده مجرد استنتاج فان طرابيزون التى كانت مركز التجارة العربية البيزنطية قامت بعدة وظائف اخرى لحكام القسطنطينية أولها — انها اعطتهم ميناء فى البحر الاسود آمنا، بعيدا عن الهجمات البحرية، الثانى — أن البيزنطيين باتخاذهم تلك المدينة نهاية للتجارة العربية **حولوا تجارة الحرير والتوابل التى يحتاجون اليها الى طريق العراق الذى لا يتهددهم منه خطر بحرى وابتعدوا بها عن سوريا ومصر، وهما المركزان البحريان لاعدائهم الامويين**. ويحتمل ايضا قيام **القسطنطينية** نفسها بمهمة الثغر الثانى لاستقبال وخروج التجارة العربية » . وهكذا وجدت التجارة الشرقية سبيلها عن طريق البر عبر آسيا الصغرى، أو اتجهت صوب البحر الاسود الى طرابيزون حيث تنقلها سفن الروم الى القسطنطينية، على اثر توقف المواصلات المباشرة بين الشـام والامبراطورية اول الامر. وقد يسر للبيزنطيين مهمة الرقابة انتشار قوتهم البحرية فى البحر المتوسط منذ انتصارهم سنة ٧١٨ م وامتلاكهم

جزء البليار – وسردانية وقورسقة واشرافهم على مضيق سيناء بينما كانت الطريق الممتدة على سواحل البحر المتوسط الجنوبية بين مصر وشمالى افريقية وهى الواقعة تحت نفوذ المسلمين – شديدة الخطورة على الملاحة ، ولكن رعايا بيزنطة كانوا يحاولون هم أيضا أن يتملصوا من رقابة دولتهم ، فقد كانت التجارة مع الاقاليم الاسلامية عصب حياتهم الاقتصادية على أن الحصار الاقتصادى البيزنطى ادى الى آثار بالغة الأهمية « ففقدت سوريا مركزها التجارى حوالى سنة ٧٥٢م (أى بعد سقوط الامويين) وفقدت مدنها الساحلية اهميتها كذلك ، ولم تعد قادرة على حشد الأساطيل لأكثر من ٢٠ عاما • وسقطت خلافة الأمويين عقب انكسارهم البحرى والاقتصادى على أيدى البيزنطيين ، ثم انتقلت الخلافة الى العباسيين فاقاموا سلطانها فى العراق حيث تمر التجارة الهامة الى طرابيزون ، وهبطت دمشق الى مستوى المراكز الاقليمية ذات الدرجة الثانية » (٥٤) •

ويلقى ارشيبالد لويس مسئوليه الحالة التى انتهى اليها البحر المتوسط وتجارته فى النصف الثانى من القرن السابع الميلادى كما صورها على بيزنطة التى اسرفت فى استخدام كل مالديها من وسائل الحرب البحرية والاقتصادية لاحراز النصر ، ولكن هنرى بيرين صاحب الكتاب الذائع « محمد وشرلمان » وغيره من الابحاث فى الموضوع يرى الامور من زاوية اخرى . وخلاصة نظريته ان دخول المسلمين حوض البحر المتوسط افقده طابعه الذى لازمه طول العصور القديمة ، وبدلا من أن يظل واسطة الاتصال بين الشرق والغرب أصبحت مياهه حدا فاصلا بينهما • واذا كانت الدولة البيزنطية قد وفقت فى حماية بحر ايجه من المسلمين الى حد ما فان أوربا الغربية قد عجزت امامهم حتى سادوا حوضه الغربى والبحر التيرانى وحصروا السواحل الجنوبية لغربى أوربا معتمدين على مراكزهم فى المغرب والاندلس وجزائر صقلية وسردانية وقرسقة والبليار التى ملكوها ، فامتنع ركوب البحر على أهل غالة وشرقى ايطاليا « واستحال عليهم أن يخرجوا فيه بسفين » • كما يقول ابن خلدون • وجاءت امبراطورية الكارولنجيين برية صرفة على حين كان البحر مفتوحا فى عهد الميروفنجيين ومن سبقهم من الرومان • وكان لهذا اثاره البعيدة فى أحوال أوربا الغربية الاقتصادية والاجتماعية

---

(٥٤) ارشيبالد لويس القوى البحرية والتجارية ترجمة احمد عيسى ص ١٣٢ : ١٤٣ وايضا Runciman : Byz. Civ. p. 133.

خلال القرن التاسع والنصف الأول من القرن العاشر الميلاديين — حين بلغ عداء الجبهتين النصرانية والاسلامية ذروته . وبينما نجد حركة تجارية متواضعة بين بلاد المسلمين والبندقية وبعض المواقع البيزنطية على ساحل البحر التيرانى مثل نابلى وامالفى نلاحظ توقف كل لون من التبادل التجارى بين غاله وبلاد المسلمين ، وقد هاجم المسلمون سواحل أوربا النصرانية فى عنف متصل حتى اوائل القرن الحادى عشر،وتوقفت الملاحة والتجارة ، لان التجار الذين عرفهم غربى أوربا قبل القرن التاسع كانوا يعتمدون اعتمادا تاما على البضائع الواردة من الشرق عبر البحر المتوسط . وعلى هذه التجارة الشرقية عاشت المدن الرومانية التى ظلت عامرة الى اواخر العصر الميروفنجى اى نهاية القرن الثامن الميلادى . وكانت نتيجة النشاط البحرى الاسلامى « اقفال البحر الابيض الغربى » على حد تعبير بيرين La fermeture de la Mediterranée occidentale وهو يقول « طالما ظل البحر الابيض مسيحيا كانت الملاحة الشرقية هى التى تقوم بعبء التجارة مع الغرب ، وكانت مصر والشام مركزيها الرئيسيين . وكانت هاتان الولايتان الغنيتان أول ما وقع تحت سلطان المسلمين .. ولم تتوقف تجارة التوابل أو صناعة البردى ، ولم يتوقف النشاط فى الموانى .. وعلى هذا فقد استمرت التجارة ، ولكن اتجاهها هو الذى تغير . ومن الطبيعى أن الفاتح (المسلم) منع رعاياه من المتاجرة مع بلاد النصارى طول فترة الفتوح، وعندما هدأت الحرب واستقر السلام عمد الاسلام الى توجيه التجارة فى الوجهات الجديدة التى فتحتها أمامها فتوحه ، لقد انفتحت طرق تجارية جديدة ربطت بحر قزوين بالبحر البلطى من طريق نهر الفولجا . ومن المؤكد ان الاضطراب الذى كان لابد أن يلازم حركة الفتح الاسلامى للشام ولمصر قد اوقف الملاحة مؤقتا .. **وابتداء من منتصف القرن السابع اصبحت الملاحة — من موانى البلاد الاسلامية وموانى بحر ايجة مع البلاد التى ظلت نصرانية — مستحيلة . اما من الموانى البيزنطية وما كانت تحميه من السواحل المحيطة بها فقد ظلت الملاحة قائمة فى حماية الاسطول البيزنطى** . واستمر الاتصال مع الأقاليم الاغريقية من بلاد اليونان والبحر الادرى (الادرياتى) وايطاليا الجنوبية وصقلية.. وبدأ المسلمون يهاجمون صقلية ابتداء من سنة ٦٥٠ م .. ثم بدأ فتح الاندلس عام ٧١١ م وكانت النتيجة ان اصبح كل لون من الملاحة البحرية مستحيلا فى البحر الأبيض الغربى ، ولم يعد فى استطاعة بقية الموانى النصرانية أن تحتفظ باتصال ملاحى فيما بينها . وهكذا نستطيع ان نقرر **ان الملاحة**

توقفت من حوالى سنة ٦٥٠ م مع كل البلاد الشرقية الواقعة شرقى صقلية ، وانه خلال النصف الثانى من القرن السابع توقفت الملاحة تماما فى شواطىء الغرب جميعها . ويبدو توقف هذه الملاحة تماما فى أوائل القرن الثامن . لم تعد هناك ملاحة فى البحر الأحمر الا فى السواحل البيزنطية .. وخلال القرن التاسع نجد المسلمين يستولون على الجزائر ويخربون الموانى .. **لقد انكسرت الوحدة الاقتصـــادية للبحر الأبيض وستظل كذلك حتى الحروب الصليبية »** . واهم نتائج هذا التغيير فى اوضاع البحر المتوسط سرعة تحول العالم الاوربى الغربى الى عـــالم زراعى قارى لا صلة له بالبحر ، وقد جر ذلك بدوره الى نتائج أخرى - اذ وقع غربى أوربا بين حصار النورمانديين من الشمال وحصار المسلمين من الجنوب وغارات الافار والمجر من الشرق : « وكان نتيجـــة هـــذا الحصار الشديد وما تبعه من اختفـــاء التجـــارة واضمحلال المدن ، أن تحول المجتمع فى غربى أوربا الى مجتمع زراعى صرف واصبح الناس جميعا يعيشون على نتاج الارض وحده مباشرة وغير مباشرة .. ويمكن القول ان غلبة نظام الاقطاع على غربى أوربا خلال القرن التاسع ، كان النتيجة السياسية لتحول المجتمع الاوربى الى مجتمع زراعى خـــلال هذا القرن » (٥٥) .

ولا يوافق ارشيبالد لويس على ما وصـــل اليه بيرين فيقول « رأى المؤرخ بيرين ماحل بالبحر المتوسط من خراب ، ولكنه أخطأ التحرى عن المســـئول عن ذلك . **كان البيزنطيون لا العرب كما زعم هم الذين دمروا الوحدة القديمة التى ربطت اجزاء البحر المتوسط بعضها ببعض ، ذلك ان بيزنطة استخدمت فى حرب الحياة أو الموت التى كانت بينها وبين الامويين جميع ماليديها من وسائل الحرب البحرية والاقتصـــادية** لاحراز النصر فى المدة بين ٧١٥ : ٧٥٢ م وتكون بيزنطة قد دمرت بعملها الوضع الاقتصادى القديم لعالم البحر المتوســط وهيأت المسرح لظهور حياة أخرى جديدة » (٥٦) .

ويذكر الدكتور حزين أشـــارة ابن خرداذبة الى رحلات التجـــار اليهود الراذانية بين الغرب والشرق ، واشارته الى رحلات التجار الروس الذين ياتون عن طريق جنوبى روسيا الى بحر قزوين وبغداد أو يسلكون

---

(٥٥) دكتور مؤنس : المســلمون فى البحر المتوسط ـ المجلة التاريخيـة المصرية م ٤ ع ١ مايو ١٩٥١ نقلا عن Pirenne : Mohammed et Charlmagne

(٥٦) ارشيبالد لويس : القوى البحرية والتجارية ـ ترجمة احمد عيسى ص ١٤٥ .

الطرق البرية خلال الاندلس والفرنجة ثم يعبرون الى المغرب الاقصى فافريقية فمصر فدمشق فالكوفة فبغداد ثم يسيرون شرقا حتى الصين، ويرى أن هاتين الاشارتين تجعلان من الواضح انه **حتى الجزء الأخير من القرن التاسع الميلادى لم يكن الشرق الاسلامى حاجزا دون الاتصال المباشر بين طرفى العالم ، وعلى ذلك ينبغى ـ على الاقل ـ تأجيل تاريخ مثل هذه القطيعة حتى القرن العاشر الميلادى (٥٧)** .

ومضى حكام القسطنطينية فى سياستهم الاقتصادية ازاء اقاليم البحرين الابيض والاسود خلال **القرن الثامن الميلادى** (اواخر القرن الاول الهجرى ، ومعظم القرن الثانى الهجرى) وكانت بيزنطة قد تفوقت بحرا من ٧٥٢ م ، فاستمر الضغط البرى عليها من جانب الفرنجة والبلغار والعباسيين . وحيل بين سفن التجار المصريين والسوريين وبين الوصول الى غرب البحر المتوسط . وربما كان لسياسة العباسيين فى مواصلة سياسة الامويين الخاصة بالرقابة التجارية وتقييد حركة التنقل أثر فى اغلاق غربى البحر فى وجه المسلمين ، ولكن الأرجح أن سياسة القسطنطينية وحدها هى التى ادت الى هذه النتيجة. **واستمر قصر دور التجارة الشرقية اللازمة لبيزنطة خاصة ولبلاد الغرب عامة عبر ثغر طرابيزون على البحر الاسود ، وهذه التجارة هى المستوردة من الوسطاء العرب فى بلاد فارس والعراق** . وربما سمحت بيزنطة لبعض التجارة ان تمر عبر مصر والشام ، على أنه من المؤكد أن هذا كان يخضع لاشراف دقيق ، ولا بد أنهم اشترطوا أن تأتى السلع الى القسطنطينية أولا . ووصلت بعض منتجات شرقية اخرى كالمنسوجات الحريرية والتوابل بيزنطة عن طريق بلاد الخزر الى ثغرخرسون حيث الاشراف الدقيق ، وقد ظل هذا الثغر بالنسبة لتجارة الشمال اكبر منفذ لتجارة الفراء والرقيق وسائر المنتجات الروسية التى تحكم فيها الخزر كوسطاء ، اما تجارة البلغار فاتجهت صوب سالونيكا والقسطنطينية والظاهر انه وجد **تراخ ملحوظ فى تنفيذ تعليمات الرقابة زمن ايرين** (وصية ـ ٧٨٠ : ٧٩٠ م ٧٩٢ : ٧٩٧ م ـ امبراطورة ٧٩٧ : ٨٠٢ م) حيث كانت التجارة تسير فى حماية اسطول الشام الذى واصل العباسيون الاهتمام به على الرغم من بقائه غير قوى ، وكان من الصعب على بيزنطة اغلاق جميع طرق التجارة البحرية من قواعدها فى كريت وصقلية وقبرص ومالطة وقوصره . ويتضح مما كتبه ابن خرداذبة عن

(٥٧) Huzayyin : Arabia and the Far East. pp. 154:6.

الطرق فى عصر العباسيين الأوائل ان الطريق الرئيسية بين الرقة ومصر لم تسلك سبيلها الى الساحل ، بل سارت فى الداخل من الرقة الى دمشق واقتربت من الساحل فقط عند جنوبى فلسطين ، ولم يتبع الطريق بين مصر وشمالى افريقية الطريق الرومانية الساحلية بل سلكت فى الداخل مجموعة من الواحات الصحراوية . وتعذر انتقال السفارات بين الكارولنجيين والعباسيين عبر المسالك البحرية التى تسيطر عليها بيزنطة بين الشرق والغرب ، فسلك معظمها طريقا ملتوية . على أنه رغم القيود البيزنطية نشط التجار البنادقة فى تصدير الرقيق والخشب لمدن الشواطىء الاسلامية حتى حذر ليو الخامس رعاياه فى أوائل القرن التاسع (لا سيما البنادقة) من الاتجار مع سوريا ومصر – وهذا يدل على انتشار هذا التعامل من قبل وعلى ان البيزنطيين كانوا لا يرون فيه حرجا كما يستنتج (هيد) بحق ، ويحتمل وجود محاولات مشابهة لوقف التعامل التجارى المحظور بين جزر بحر ايجة وشواطىء آسيا الصغرى من جهة وبين مصر والشام من جهة أخرى . وقد دفعت محاولات بيزنطة المسلمين الى اتخاذ اجراءات انتقامية مما ادى الى هجرة كثير من المسيحيين من الشام الى قبرص والأناضول سنة ٨١٣م. وربما كانت بيزنطة ترد بمحاولاتها تلك على ثورة توماس الصقلى ٨٢١ : ٣ م الذى تقبل العون من الاساطيل المحلية للولايات البيزنطية ومن المأمون . **ولا شك ان فرض قيود دقيقة على التجارة مع سوريا ومصر كان معناه القضاء على رخاء البنود (الثيمات) البحرية وهى قواعد الاساطيل الاقليمية .** ويفسر اتجاه اللاجئين الاندلسيين من الاسكندرية الى كريت مباشرة بوجود محاولات للتهرب من القيود على التجارة ، وليس ببعيد وجود علاقات تجارية بين جزيرة كريت والاندلسيين اثناء اقامتهم بالاسكندرية . فى الجانب الغربى من البحر المتوسط نشأت علاقات تجارية بين البلاد العربية وبين ممتلكات تابعة لبيزنطة مثل أمالفى ونابلى وجاتيا من مدن البحر التيرانى .

على أن غالبية طرق التجارة الدولية فى البحرين الأسود والمتوسط ظلت تتجه عموما نحو المناطق التى تريدها بيزنطة مثل خرسون وطرابيزون والقسطنطينية وسالونيكا وصقلية وجاتيا وأمالفى ونابلى وبارى والبندقية. **ولعل نظام الرقابة على التجارة هو خير ما يفسر الصراع الطويل بين شرلمان**

وبين بيزنطة حتى عام ٨١٢م : اذ حاول أن يواجه قواعد الاحتكار التجارى البيزنطى فى ايطاليا ولا سيما البندقية ٠

وقد أدت الرقابة البيزنطية الى تغيير وسطاء التبادل التجارى بين الشرق والغرب ، فابتداء من سنة ٧١٦ م حالت التدابير الاقتصادية البيزنطية دون وصول التجار السوريين والمصريين الى أسواق الغرب ، وانتهى الأمر بأن حددت بيزنطة عددا معينا من المنافذ التجارية واشترطت ألا تسلك التجارة غيرها ، بل جعلت توزيع البضائع الثمينة كالحرير والتوابل احتكارا لتجار تلك المنافذ التجارية ومن سمح لهم بالقدوم اليها لأغراض التجارة : فمن خرسون قام الخزر بتصدير البضائع البيزنطية الى روسيا وممتلكاتها ، ومن طرابيزون عاد التجار العرب والأرمن بالبضائع الى بلادهم ، ومن صقلية قام تجار شمالى افريقية بتوزيع بضائع القسطنطينية على سكان المغرب الاقصى ٠ ثم أخذت هذه المدن ترسل سفنها الى مصادر التجارة والى القسطنطينية لتربح من نقلها بجانب توزيعها ٠ **ولقد ظلت القسطنطينية مركز التقاء جميع طرق التجارة من الشمال والجنوب والشرق والغرب ولكنها لم تتول الا القليل من عمليات الاستيراد والتصدير ، ولذا انتقلت الاهمية التجارية أكثر فأكثر الى أطراف الدولة وادى هذا الى قيام قوى بحرية عند أطراف الدولة استطاعت مخالفة السياسة البيزنطية ، وتاجرت مع الموانىء الاسلامية فى شمالى افريقية ومصر والشام ٠**

وبازدياد خروج عمليات نقل التجارة من أيدى البيزنطيين الى أيدى الأغراب البعيدين ، ازداد التدهور الملحوظ فى قوة أساطيل الأجناد البيزنطية فى بحر ايجة وكبيرهايوت ، وهذا يفسر ضعف بيزنطة البحرى فى أوائل القرن التاسع وهكذا انتهى هذا النظام البيزنطى الى نوع من السلبية الاقتصادية والى ضعف بحرى « وأخذت بيزنطة طريق الركود الاقتصادى : شأنها شأن ضحيتها سوريا ومصر ٠ حقيقة كانت بيزنطة لا تزال غنية ولا تزال قوية ، ولكنها لم تستطع أن تحافظ المحافظة الواجبة على نظام الرقابة على تجارة البحر المتوسط الذى أقامته ضد اعدائها » ٠

ويبدو أن أكثر توابل الشرق وحريره ومنتجاته وردت الى القسطنطينية وعالم البحر المتوسط عن طريق الطرق الساسانية القديمة : البرية التى تسلك فارس ، أو البحرية التى تسلك الخليج الفارسى الى البصرة ثم بغداد التى غدت مدينة عالمية كبرى ٠

ونشط التجار المسلمون فى مياه الشرق الأقصى حتى وصلوا الصين، **وانتقلت عن طريق العراق كميات من بضائع الشرق الى البحر الاسود الذى كان المدخل البيزنطى لتجارة العرب ٠ وأصبحت أرمينية بحكم عبور التجارة الى طرابيزون أشبه ما تكون بدولة حاجزة بين دولتين كبيرتين وان** خضعت بصورة أوضح **للنفوذ العباسى** ، وقد بلغت درجة كبيرة من الثراء والرخاء ٠ **وربما لم يشجع العباسيون استخدام طريق البحر الاحمر لنقل تجارة الشرق بسبب حرصهم على زيادة رخاء العراق مثلما فعل الساسانيون** ولكن السبب الأقوى هو أن بيزنطة لم تشجع ورود هـــذه التجارة عن طريق البحر المتوسط ، رغم ازدهار تجارة البحر الاحمر فى أوائل عهـد الأمويين ٠

وتقول الروايات العربية ان المنصور طم القناة الموصلة للبحر الأحمر سنة ٧٦٢م لقطع أوصال فتنة وقع فى الحجاز ، ولكن الأرجح أن ذلك كان لتحويل التجارة للعراق مركز قوة العباسيون ووجد الرشيد من صرفه عن فكرة وصل البحرين الأبيض والأحمر بحجج شتى ٠

وحوالى عام ٨٠٠م اختفت تجارة البحر الاحمر الا من أيدى اليهود وحدهم ٠ وشاهدت موانى مصر على البحر المتوسط وموانى الشام ركودا الا بعض رحلات من الأخيرة لعلها بلغت القسطنطينية ٠ ونزح عدد من المسيحيين من هذه السواحل سنة ٨١٣م تحت ضغط العباسيين ، ويدل بقاء استخدام الذهب فى الشام على استمرار بقاء التجارة بينها وبين مصر والقسطنطينية على أن أحوال قبرص الواقعة بين شواطىء الشـــام وبين الامبراطورية البيزنطية دون أن يتسلط عليها أحدهما أو كلاهما تدل على أن التجارة بين تلك الأقاليم المتجاورة لم تكن على جانب كبير من الانتعاش ، ومن هنا تدهورت مدن قبرص فى تلك الفترة ٠

وما يقال عن نهايات طرق تجارة البحر المتوسط فى الشام ومصر يقال مثله عن نهايات الطرق فى غربى هذا البحر ٠ ولم يفلت من هــذا الركود الاقتصادى الذى أصاب بلاد البحر المتوسط سوى الامبراطورية البيزنطية ذاتها وايطاليا معها (٥٨) ٠

وشهد **القرن التاسع** الميلادى (أواخر القرن الثانى الهجرى ، معظم القرن الثالث الهجرى) عهدا جديدا فى تاريخ البحر المتوسط ، بدأ باغارة

---

(٥٨) ارشيبالد لويس : القوى البحرية والتجارية ـ ترجمة أحمد عيسى ص ١٧٤ : ١٩١ ، ١٩٥ ٠
Runciman : Byz. Civ. pp. 133-4.
Heyd: Hist. du Commerce du Levant. Vol. I. pp. 52-3.

للسلمين على صقلية ثم استيلائهم على كريت سنة ٨٢٧م • فعادت الامبراطورية البيزنطية الى مواجهة قوة بحرية معادية وأخذت السيطرة على البحر المتوسط تنتقل الى المسلمين الذين انتشروا على الشواطيء الجنوبية لذلك البحر من جبال طوروس حتى جبال البرانس ، ولم يأت القرن العاشر الا وقد انتقلت السيادة الكاملة فى البحر المتوسط للمسلمين•

غير انه لم يكن هناك نظام موضوع لسيطرة تامة الا بالمعنى العام ، ولم توجد وحدة سياسية وبحرية شاملة تضم جميع البلاد الاسلامية المحيطة بالبحر المتوسط • وأهم القوى الاسلامية : قوة متوسطة ربطت صقلية بشمالى افريقية تحت حكم الاغالبة ثم الفاطميين ، والى غربها قوة الأندلس، والى شرقها قوة تتكون من كريت المستقلة ومن أساطيل طرسوس وهى فى حكم المستقلة وأساطيل الشام ومصر •

وقد توحدت هذه القوة تحت حكم الطولونيين والأخشيديين ولكن ذلك لم يدم • وكان أول المستفيدين من سيطرة المسلمين البحرية من الوجهة الاقتصادية هم سكان صقلية وسكان شمالى افريقية بصفة خاصة • وتمتع الشام بالرخاء أيضا رغم تأثر بعض الاقاليم بالصراع بين العباسيين والطولونين والاخشيديين وبين الاسرات الصغيرة الحاكمة فى دمشق وحلب وطرسوس ، وانتعشت طرابلس وبيروت وصور سائر الموانى الساحلية لاعادة فتح البحر أمام التجارة الاسلامية ، وعاد التجار السوريون الى البحر ثانية رغم أن مجال تجارتهم ظل أكثر انحصارا فى نطاق محلى من مجال تجارة اخوانهم أهل المغرب الذين اتجهوا الى مصر والقسطنطينية • وعظم الرخاء — التجارى والصناعى — فى حلب ودمشق وبيت المقدس •

وانتشر الدينار الذهبى شرقا وغربا ، وصارت بلاد العالم الاسلامى مرتبطة تجاريا داخل وحدة اقتصادية واحدة ، وفى أواخر القرن التاسع الميلادى وأوائل العاشر اختفى الدرهم الفضى من العراق وايران والمحيط الهندى وانتشر الدينار الذهبى أيضا وبقيت الفضة للاستخدام المحلى والثانوى والتعامل التجارى مع روسيا وغربى أوربا فحسب • وانتشر نظام الجوازات المعمول به فى مصر والموروث عن الأمويين شرقا حتى بغداد ، وشاعت أساليب حكومية واقتصادية مماثلة من الاندلس الى التركستان، **واشرفت الدولة الاسلامية بدقة على تجارة الصادر والوارد واقتضاء العشور من التجار • وليس ثمة دليل على محاولة الشعوب الاسلامية التحكم فى التجارة الذاهبة الى الامبراطورية البيزنطية أو الخارجة منها ،** وكان تعدد الدول الاسلامية يحول دون تطبيق مثل هذه السياسة لو وجدت — وسمحت فترات السلام الطويلة بين المسلمين والبيزنطيين بكثير من

النشاط التجارى بين الطرفين ، فظلت القسطنطينية أواخر القرن التاسع الميلادى وأوائل العاشر مدينة قوية غنية وبقيت عملتها نقية متداولة ٠

واستمرت طرابيزون المنفذ التجارى الذى تتلقى بيزنطة عن طريقه الحرير والتوابل والعطور وبضائع العراق وفارس من بلاد شرقى العالم الاسلامى ، كما استمرت خرسون المدخل الوحيد لمنتجات روسيا ونهاية طريق تجارة الحرير الذاهب الى الصين ــ وهو الطريق الذى ظل طويلا تحت اشراف الخزر ، وفرضت ضريبة العشر على الواردات ٠ واتجر البلغـــار والروس الفارنجيون مع القسطنطينية ، وقد حافظت بيزنطة على صلاتها مع بلاد الغرب اللاتينية عن طريق المدن التجارية الايطالية ، ولكن أنشط علاقات بيزنطة التجارية كانت مع المسلمين الذين أمدوها بما تحتاج اليه من الحرير والتوابل والعطور **وعدل أباطرة القسطنطينية عمليا فى أساليب الرقابة الموجهة ضد التجار المسلمين فى البحر المتوسط** ، ويبدو أنه كانت هناك محاولة لاجتذاب التجـارة الاســـلامية فى البحر المتوســـط الى القسطنطينية ، واقيمت وكالتان بها لتجار الحرير الفاخر وتجـار التوابل والعطور ، وعومل التجار المســلمون الذين حملوا المنســـوجات الحريرية والكتانية معاملة أفضل من سائر التجار الاجانب ، ولقى السوريون ترحيبا خاصا وهم يحملون معهم العطور والمنسوجات البغدادية ٠ وشاهدت هذه الفترة تعاملا أكثر حرية من جانب القسطنطينية مع بلاد البحر المتوســط الاسلامية ٠ على أن الرقابة الحكومية الاقتصـــادية لم تخف الا قليلا ٠ اذ تطلب النظام الامبراطورى البيزنطى تنظيما دقيقا لأحوال الصناعة فاق ما عرف عند المسلمين فى مصر وشمالى افريقية ، ويؤكد كتـاب المحتسب The Book of the Prefect مدى اتساع تلك الرقابة المرة بعد المرة ٠

وقد تضمنت قصة القديس الياس الكاستروجيوفانى خبرا ذا دلالة : فقد تنقل الرجل داخل بلاد المســـلمين بحرية تامة ، على حين قبض عليه كجاسوس فى ايطاليا البيزنطية ٠ وكان البيزنطيون يجعلون لأنفســـهم وحدهم الحق فى أنفس الاقمشة ، والحكومة وان لم تحرم تصديرها بصورة رسمية الا أنها وضعت فى سبيل ذلك مختلف العقبات ٠

ونحن نرى ليتبراند Liutprand أسقف كرمون Cremone فى نهاية سفارته الثانية يحتجز موظفو المكوس منه خمسا من أنفس قطع الحرير ، رغم تأكيده بأنه اشتراها للكنيسة وبتصريح الامبراطور ٠ على أن ليتبراند لم يتعرض لمثل هذه المعاملة فى زيارته الأولى سنة ٩٤٩م ٠

وقد كانت البضائع تمر مهما كانت القيود صارمة أو هينة ، وكان

التجار يتحايلون برشوة موظفى المكوس أو تجنبهم كلية بسلوك طرق بعيدة عن مراكزهم ، وهكذا وصلت البضائع المحظورة الى جهات ايطاليا مرات متعددة وبكميات ليست بالقليلة . والغالب أن ميزان التجارة البيزنطية مع العالم الاسلامى كان فى صالح البيزنطيين ، لأن أقمشتهم الحريرية الرقيقة والمطرزة ومصنوعاتهم الدقيقة كانت موضع التقدير فى الشرق والغرب ، لكنها ربحت أكثر فى تجارتها مع أوربا وروسيا .

على أن كميات الحرير التى كانت تنتجها المصانع الامبراطورية فى القسطنطينية لم تكن كافية قط لاحتياجات البلاط والدولة ، وكان الأباطرة خلال القرن التاسع الميلادى ــ والعاشر أيضا يشترون الاقمشة الواردة من مصر الى القسطنطينية والأشياء المصنوعة فى الشرق عموما والتى تدل أسماؤها على أصلها ، من أجل زينة قصورهم وبهاء حاشيتهم .

وكانت المصانع الخاصة أكثر عجزا عن الدفاع بمطالب التجارة فقد كانت تشكو منافسة مصانع الدولة وفداحة الضرائب ، وقد حرمها الفتح الاسلامى من أسواق هامة . وقد كان التاجر القادم الى القسطنطينية يجد عند مقدمه أنواعا متعددة من الحرير المحلى والأجنبى ، وقد اشتهرت العاصمة البيزنطية كسوق تحوى أكبر كمية من أنواع الحرير . وكان الطلب يتجه خاصة الى الاقمشة الارجوانية التى كانت تعدها المصانع الامبراطورية بإتقان ، واكتفت بيزنطة بأن تكون مجالا للتجارة دون أن تعمد الى الاتجار لحسابها الخاص ، ولم يتحمس البيزنطيون لنشر تجارتهم فى البلاد المجاورة كما لاحظ هيد Heydوديل Diehl فيقول هيد : ان البيزنطيين بوجه عام لم يبذلوا كثيرا من الجهد لتوزيع المنتجات المحلية الأسيوية المكدسة بمخازنهم فى الأقطار المجاورة . فقد كان الأباطرة يرغبون أن يبهروا أعين الأمراء الأجانب بجودهم وهداياهم الغريبة ، وهكذا أحبوا استعراض الواردات الثمينة فى القسطنطينية ولم يعرفوا ميزة السياسة التجارية الواسعة النطاق والتى تيسر لشعوب أخرى الحصول على هذه الأشياء الفخمة . وقصر التجار البيزنطيون نشاطهم على الحصول على الضروريات اللازمة تاركين للمغامرين الأجانب مصاعب الرحلات التجارية البعيدة ومخاطرها . وكان يرضى كبرياءهم أن يروا السفن التجارية لمختلف أمم أوربا فى ميناء القسطنطينية ، وأن تغدو (سيدة المدن) مركز تجارة الغرب ، أما أن يفقدوا باهمالهم أحسن الفرص لزيادة ثروتهم ــ فقد كان شيئا أقل أهمية فى نظر البيزنطيين وما كان أيسر عليهم لو أرادوا أن يلقوا بالبضائع بالجملة فى أسواق

أوربا – خاصة جهات أوربا التى كانت علاقاتهم بها وثيقة ، ولكنهم آثروا ان يقدم الى القسطنطينية أهل تلك الجهات ٠

وقد ساعدت الايطاليين مواهبهم التجارية على الافادة من هذه الظروف حتى صاروا بمضى الوقت الموردين الوحيدين لمنتجات حوض البحر المتوسط الشرقى فى أرجاء الغرب ٠ وفى هذه الفترة ظهرت شمال افريقيا واسبانيا وصقلية كمناطق صناعية هامة : تستغل مناجمها وترقى بصناعاتهـا وزراعاتها ، وتسيطر على تجارة البحر المتوسط القاصـدة الى الشرق والمخترقة طرق الصحراء الى ذهب السودان ، كما عاد الرخاء الى الشام ومصر وعادت التجارة الى البحر الأحمر ٠

والغالب ان سياسة المسلمين ازاء تجارة أوربا اللاتينيـة كانت هى سياسة السماح التى اتبعوها مع بيزنطة (٥٩) ٠

وساعد على نشـاط المسلمين فى التجارة الشرقية امتداد دولتهم نحو الشرق ٠ وتسابق المسلمون والبيزنطيون فى السيطرة على أسواق الروس (الصقالبة) ، وقد وصف ابن خرداذبة فى القرن الثالث الهجرى طريقهم من أقصى بلاد روسيا الى العراق : مارين ببلاد الخزر حيث يجبى صاحبها منهم المكوس ومنها الى بحر جرجان ثم يحملون متاجرهم من جلود الثعالب السود والسيوف على ظهور الابل الى بغداد ٠

وفى سنة ٣٠٩ هـ – ٩٢١ م اتصل الخليفة بملك البلغار ، وأسلم الملك وشعبه فى العام التالى ٠ وحين تولى آل سامان حكم الجزء الشمالى الشرقى من دولة الاسلام حفظوا تخوم البلاد وضمنوا للتجار الوافدين الربح ومعظم النقود العربية التى اكتشفت فى شمال أوربا ترجع الى القرن الرابع الهجرى وأكثر من ثلثها من نقود السامانيين ٠

وكانت بلاد الروس منذ ذلك العصر الى ما بعد الحروب الصليبية هى الطريق بين شمالى أوربا وبين الشرق ٠ على أن المسلمين لم يســتطيعوا مزاحمة البيزنطيين فى روسيا بعد أن اعتنق أهلها المسيحية على مذهب كنيسة القسطنطينية ، وفشل البلغار فى تحويل فلاديمير أمير كييف الروسى الوثنى الى الاسلام ٠ فتولى أمير كييف حراسة التجار البيزنطيين خلال مسيرهم فى نهر الدنيبر الجنوبى ، واضطلع الروس بصد خطر بلغار

(٥٩) ارشيبالد لويس : القوى البحرية والتجارية – ترجمة أحمد عيسى ص ٢١١ ، ٢٥٠ : ٢ ، ٢٥٨ – ٩ ، ٢٦٢ ، ٢٦٤ : ٨ ، ٢٧٥ :
Heyd: Hist. du Commerce du Levant. Vol. I. pp. 53:6.

القرم عن اجتياح منطقة خرسون ، وفي مقابل ذلك منحت الدولة البيزنطية سفن الروس تسهيلات في البحر الأسود ، وخلا الجو للروس والبيزنطيين تماما بتخريب عاصمة الخزر على أيدي فرع من النورمان سنة ٣٥٨ هـ - ٩٦٩ م ركبوا نهر الفلجا ، فغدا الروس يقصدون بلاد الخزر وديار الاسلام مباشرة حاملين متاجرهم ولكن عمل الخزر كوسطاء في تجارة الشمال ٠

وقد نشأ عن التقدم التجاري ازدهار الجاليات الاسلامية في كثير من الأطراف التي تغلب عليها غير المسلمين فكان لا يرأس الجالية الا مسلم وكان افرادها لا يقبلون غير حكم المسلمين فيهم مهما قلوا : مثلما حدث في بلاد الخزر والسرير واللان وغانة وكوغة وصيمور (الهند) ، وكان بالصين وكوريا جالية اسلامية ، أما في بيزنطة فكان لا يسمح لتجار المشرق بالاقامة أكثر من ثلاثة أشهر ، وكانت أكبر جالية لهم في طرابيزون (٦٠) ٠

ومن وجهة النظر الاقتصادية يمكن القول باستمرار الأحوال على ما هي عليه في عالم البحر المتوسط الاسلامي بين لشبونة ودمشق خلال **القرن العاشر** ، الميلادي (أواخر القرن الرابع الهجري) ، على الرغم من ضعف بحرية العالم الاسلامي وانتعاش بحرية بيزنطة وعلى الرغم من الانقسام السياسي في الاندلس وشمالي افريقية، ولم يؤثر تغير ميزان القوى على الرخاء الاقتصادي في أقاليم البحرين الأبيض والأسود والأندلس واتسعت زراعة الحاصلات الشرقية وازدادت حركة التجارة وشاع استخدام الدينار الذهبي ٠ وشاركت الامبراطورية البيزنطية العالم الاسلامي في الرخاء، **وادى توسع البيزنطيين في شمال الشام واستيلاؤهم على انطاكية وسيطرتهم على حلب الى زيادة قوتهم التجارية التي دعمها ما كان لهم من سلطان على شمال العراق ٠ وللمرة الأولى منذ القرن السابع الميلادي وقع في أيديهم أفضل طرق التجارة من العراق والخليج الفارسي الى البحر المتوسط ٠**

ومع أن معظم تجارة الشرق الذاهبة الى البحر المتوسط جاءت عن طريق عدن والبحر الأحمر - وهو الطريق الواقع تحت سلطان الفاطميين ، الا أن طرق التجارة الساسانية القديمة ظلت محتفظة بأهميتها ودليل ذلك

(٦٠) متز : الحضارة الاسلامية - ترجمة دكتور ابى ريدة حـ ٢ ص ٢٧٣ : ٥ ، دكتور العدوى : الامبراطورية البيزنطية والدولة الاسلامية ص ١٣٠ : ٤ ، ابن خرداذبة المسالك والممالك ص ١٢٤ ٠
Heyd: Hist. du Commerce du Levant. Vol. I. pp. 57:74.

يتمثل فى المعاهدة التى عقدت أواخر القرن العاشر بين القسطنطينية وبين حكام المسلمين فى حلب ، ومن شروطها : أن يكون للموظفين البيزنطيين فى المدينة حق تحصيل العشر على كل الوارد من الحرير الخام والمخمل والأحجار الكريمة والحلى النفيسة ، على حين يحصل الحكام المحليون ضرائب على الملابس والكتان والماشية وسائر البضائع المستوردة من بلاد الامبراطورية •

ولقد غدت حلب احد المنافذ الرئيسية لتجارة بيزنطة مع العالم العربى فى الشرق ، حتى استثناها باسيل الثانى من قرار تحريم الاتجار مع الخلافة الفاطمية فى مصر اثر اضطهاد الحاكم للمسيحيين سنة ١٠١٥ م •

والغالب أن حلب أصبحت بدرجة كبيرة أهم قواعد التبادل التجارى مع فارس وبلاد الشرق بدلا من طرابيزون ، **ولا شك أن الطريق الى حلب وانطاكية كان أسهل كثيرا من الطريق المار فى جبال أرمينية الى البحر الأسود ، وأدى نفوذ بيزنطة فى شمال الشام الى فقد أرمينية أهميتها السياسية والاقتصادية** •

وقد أعقب ذلك اتباع بيزنطة لها وضمها الى امبراطوريتها فى القرن الحادى عشر • ويبدو أن الأرمينيين أنفسهم انتقلوا جنوبا بانتقال الطرق التجارية للجنوب ، وبحلول نهاية القرن الحادى عشر كانوا قد استوطنوا مدن جنوبى الاناضول وشمالى العراق بين الرها وأذنة ـ وعرف هذا الاقليم زمن الحروب الصليبية باسم أرمينية الصغرى • وازدهرت قبرص وغدت مركزا تجاريا غنيا عامرا وبلغت القسطنطينية ذروة الرخاء ، ولكن استمرت على سلبيتها فى مجال التجارة الأجنبية ، مع مواصلة اشراف الحكومة على التجارة الخارجية • وقد جرت محاولات لمنع ارسال السفن المحملة بالخشب والحديد والسلاح الى المسلمين ومنع الاتجار مع الفاطميين، على أن الاتجار لم ينقطع طويلا وبقى بعض التجار البيزنطيين يترددون على موانى الشام ومصر ، لكن أغلب التبادل التجارى كان يتم على أيدى التجار المسلمين (٦١) •

وجنت بيزنطة من الحياة الاقتصادية المستقرة فى الشام ثمارا طيبة طالما كان فى استطاعتهما متابعة علاقاتها التجارية مع الشرق » وقد اتيح للامبراطورية البيزنطية والخلافة الاسلامية من فترات السلام ما أعانهما على تبين أهمية قيام العلاقات التجارية بينهما ، فقد ظهر التجار البيزنطيون

---

(٦١) ارشيبالد لويس : القوى البحرية والتجارية ـ ترجمة أحمد عيسى ص ٢٣٢ : ٦ ، Runciman : Byz. Civ. p. 183., Heyd: Hist. du Commerce du Levant. Vol. I. p. 43.

فى كثير من المدن العربية، كما كان التجار يفدون الى بيزنطة لانجاز أعمالهم وأصبحت طرابزون فى القرن العاشر أهم مركز للاتصالات التجارية بين بيزنطة وتجار المسلمين وقال عنها المسعودى « لها أسواق فى السنة يأتى اليها كثير من الأمم للتجارة من المسلمين والروم والأرمن وغيرهم » ٠

وكانت العلاقات الاقتصادية مع العرب غاية فى الأهمية لبيزنطة ولم تكن أهميتها لتقتصر على الناحية التجارية فحسب ، بل كانت تعزز مكانتها الدولية كذلك بالنسبة لعرب أوربا ، اذ كان أكثر تجارة الشرق الاسلامى ينقل قبل فترة الحروب الصليبية عن طريق بيزنطة ، وكانت هذه تجنى دخلا عظيما بفضل قيامها بدور الوسيط بين الشرق والغرب ولكن الصليبيين أقاموا علاقات تجارية مباشرة بين أوربا والشرق ، حتى أن ازدهار بيزنطة الاقتصادى تلاشى بعد ذلك بقليل ٠ وانتهى دور السيادة الاقتصـــادية الى المدن الايطالية وعلى رأسها البندقية وجنوة ٠ (٦١م) ٠

(٦١م) فازيلييف : بيزنطة والاسلام ــ فصل من كتاب Byzantium ملحق بكتاب بينز : الامبراطورية البيزنطية ترجمة دكتور مؤنس وزايد ص ٢٧١ : ٢ ، وايضا ص ٢٨٢ : ٦ ٠

ثانيا : الثغور فى المجال الثقافى

كانت أراضى الهلال الخصيب على اتصال بالصحارى العربية من جهة ، وكانت أطرافه الشمالية بصفة خاصة على اتصال بالهضبة الشمالية فى ايران وشرقى آسيا الصغرى من جهة أخرى ، مما أتاح مجالا خصبا لانتقال الافكار من هنا وهناك • وعلى مقربة من الهلال الخصيب كان هناك العالم الاغريقى ذو الطابع البحرى ، وقد تميز بتوسعه وتغلغله التجارى فى أراضى الهـلال الخصيب خاصة فى فترات الرخاء والسلم النسبية ، وهكذا لم يتوقف دخول الآراء الجديدة الى أراضى الهـلال الخصيب منذ فجر المدنية •

وتحركت هجرات عربية من صحراء العرب الى بلاد الشام • على ان لبنان كانت واقعة تحت تأثير عناصر قادمة من جهـات الهضاب ، وكانت السهول الساحلية تضم بجانب سكان الهضاب والصحارى عناصر من جزر البحر المتوسط الشرقى • وأدى وجود مواضع منعزلة فى أنحاء الشام الى بقاء الجماعات القـديمة التى لم تنصهر مـع بقية السكان • ويختلف الجانب السورى من الهلال الخصيب فى هذا الصدد عن جانب الجزيرة والعراق حيث كان يتم تمثل الجماعات الصغيرة بصورة أيسر •

وفى خلال الكثير من فترات تاريخ الهلال الخصيب كانت ســهوله مسرح نزاع بين الهضاب والصحراء ، كما كانت الهضاب معبراً للتحركات الجماعية من المراعى الشمالية فى التركستان •

وتعتبر حلب من أقدم مراكز المدنية فى هذه المنطقة ، كما وجدت مناطق التجاء عند شعاب الجبال التى تكتنف سهول الهلال الخصيب مثل جبل سنجار • وقد استمر تسرب المؤثرات الثقافية من الهضبة الى الهلال

الخصيب حتى عند ذروة المد السامي• وقد شقت الافكار الفارسية طريقها عبر هضبة الأناضول وسهول الهلال الخصيب الى عالم البحر المتوسط ، وكان عليها ان تصارع فى عنف المؤثرات الاغريقية خلال عبورها آسيا الصغرى • كما توغلت الثقافة الفارسية داخل بلاد العرب قبل الاسلام ، وخلف النشاط التجارى للفرس آثارا بينة حتى اليمن ، بل امتد النفوذ السياسى الفارسى الى هناك فى نهاية القرن السادس الميلادى ، وواصل الفرس تأثيرهم الثقافى داخل نطاق الدولة الاسلامية بعد سقوط امبراطوريتهم • وكانت انطاكية من جهة اخرى نقطة هامة للاتصال ومركزا كبيرا للفكر اليونانى فى الشام •

وقد تأثرت الاخلاقيات المسيحية خاصة فى الكنيسة الشرقية بالفلسفة اليونانية ، وكذلك كان الحال بالنسبة للثقافة الاسلامية فيما بعد• وقد كان التبادل التجارى بين غربى آسيا وشرقيها يجعل من بعض السلع مثل المنسوجات الحريرية والمصنوعات المعدنية والزجاج والخزف خير وسيط لتبادل المؤثرات الفنية بين مختلف الاقاليم ، كما ان اجتماع التجار من مختلف البلاد فى المراكز التجارية المختلفة ، كان من شأنه تحقيق الاتصال بين مختلف الثقافات • وكانت الطرق التجارية تمهد السبيل للأهداف الثقافية(٦٢) •

وقد تعددت صور العلاقات بين المسلمين والبيزنطيين ، وكانت الثقافة احدى جوانبها وكان أمام الفريقين مورد الثقافة اليونانية وقد أكب على تراثه البيزنطيون من قبل وتمثلوه وعلموه • والتقى المسلمون بهذه الثقافة فى الولايات البيزنطية وبعض الاراضى الفارسية التى بسطوا سلطانهم عليها • ويقول ديموميين « ان الامبراطوريتين – الاسلامية والبيزنطية ، على تنافسهما بحكم الموقع الجغرافى والتقاليد التاريخية ، وتعاديهما نظرا للخلاف الدينى – كانت كلتاهما ممثلتين للفكر الاغريقى وحفيظتين عليه • وكانت القسطنطينية – الوريثة الطبيعية – قد تركت

(٦٢) Hyzayyin : Arabia and the Far East. pp. 1-2, 14-5, 25, 217-8.

هذا الفكر يتضاءل حتى لم يعد له سوى مظهر باهت فى الادب والدين ٠٠ أما الفكر الاسلامى الذى أخذ يتجه أيضا نحو ايران والهند فقد كان أكثر اخلاصا للتراث الهلينى(٦٣) »

على ان الدولتين الاسلامية والبيزنطية كانتا تشتركان فى مظاهر أخرى ، فالوحدات الثلاثة التى كانت قائمة فى العصور الوسطى وقتئذاك: الاســـلام ، والمسيحية اليونانية ، والمسيحية اللاتينية ـ كان لكل منها رابطة قوية من الوحدة الثقافية داخل أراضى كل كتلة « وكان الدين فى غالب الامر العامل الاكبر فى تحديد تخوم تلك الكتل ، غير ان هذه الكتل الثلاثة جميعا كانت وارثة الامبراطورية الرومانية وقد صارت الى المسلمين فى الاراضى التى ورثوها عن الروم تقاليد فى القانون والادارة والمالية ، بل حتى فى الفلسفة والأدب والعمارة » ٠ وقد كان على المسلمين أن يمضوا فى عملية اختيار وانتقاء ، ثم ادماج وصهر ، حتى يبدعوا ثقافتهم المتميزة « ولا يلبث الدارس أن يتنبه رويدا رويدا الى التباين المتناهى وراء القناع البهيج الزاهى ، ومع هذا فلا بد من أن يشهد فى النهاية بقيام تلك الوحدة فى التكوين الروحى ، كما يشهد بقـــوة التكيف المدهشة ٠٠ والحضارة الاسلامية تبدو كانما تلتهم كل شىء صادفته ، ولكن الواقع انهـــا كانت تتخير غذاءها تخيرا دقيقا ، فلقد تقبلت ـ بل التمست ـ فى الخارج كل مســـاهمة من شأنها أن تساعدها على الاحتفـــاظ بذاتيتها مهما تغيرت الظروف(٦٤) » ٠

وقد كان للتراث الهلينى وضعه الخاص بالنسبة للفكر الاسلامى «ففى الغرب بقيت لغة الحضارة باقية بعينها أما فى الشرق فقد تغـيرت اللغة وتغير الدين ، فكان لا بد لتراث الاوائل الضخم من أن يبدأ أولا فيصبح عربيا اسلاميا : واذا كان تراث الاوائل فى الغرب قد استطاع أن يغزو شعوبا جديدة ويكسبها لنفسه شـيئا فشـــيئا وبقوة متزايدة وأن يمر بأشخاص كثيرة حملته ، فانه كان لا بد للطبقة الحاملة لمشعل الحضارة الهيلينية فى الشرق من أن تصبح اســـــمية ٠ فـكان تراث الأوائل قد اصطدم اذن فى الشرق بأفكار جديدة ، بينما هو فى الغرب قد اصطدم باناس جديدين فحسب(٦٥)» ولاغرو أن تقوم الشام والعراق ـ وأعاليهما

---

(٦٣) Gaudefroy-Demombynes, Platonov : Le Monde Mus. et Byz. p. 326.

(٦٤) جرونيباوم : حضارة الاسلام ـ ترجمة جاويد ص ١٢ ، ١٤ ، ٤٠٦ ـ ٧ ٠

(٦٥) كارل هينرش بكر : تراث الأوائل في الشرق والغرب ـ من كتاب دكتور بدوى : التراث اليونانى فى الحضارة الاسلامية ص ٦ ٠

بوجه خاص ـ بدور هام في عمليات الامتزاج الحضاري والتبادل الثقافي من قديم ، بحكم موقعهما الجغرافي الذي ييسر لهما الاتصال بما حولهما ، وقد تحقق هذا الاتصال على مدار التاريخ . والمؤرخ الفيلسوف توينبي يرى الحضارة الاسلامية مؤلفة من اتحاد مجتمعين شقيقين : هما المجتمع الايراني والمجتمع العربي ، وان هذين المجتمعين يرجعان في نسبهما عبر ألف عـام من الحقبة الهيلينية في الشرق الى أصل الحضارة السريانية القديمة ، ويرجع التعقيد الذي يتصف به تاريخ المجتمع السرياني ـ أصل الحضارة الاسلامية في نظر توينبي ـ الى ما خالطه وشاع فيه من العناصر الأشورية والهيلينية الدخيلة . ولكن توينبي يحاول رغم ذلك التعقيـد أن يعرفه بقوله : « عندما نرد المجتمع السوري الايراني Syro-Iranian أو السرياني Syriae الى أصله نجد ان **سوريا هي موطنه الاصلي** ، وان الفينيقيين والفلسـطينيين والاسرائيليين والآراميين ـ هـم شـعوبه السورية(٦٦) » . وقد كان لمنطقة شمال الشام والجزيرة دورها الثقافي في عالم الفكر اليوناني قبل الاسلام ، فنحن نقرأ في القرن السـادس الميلادي عن الفيلسوف النصراني يوحنا الابامي ـ نسبة الى Apamea (افامية أو فامية فيما بعد) والطبيب الفيلسوف سرجيوس الرأس عيني (نسبة الى رأس عين) ، والطبيب ايتيوس Aetios الآمدي(٦٧) .

واسـتمرت هـذه المنطقة تؤدي دورها الحضـاري في ظل الدولة الاسلامية ، وقد روى ان الحجاج سأل زادان فروخ عن العرب في الامصار فقال عن أهل الشام « نزلوا بحضرة أهـل الروم .. فأخذوا من ترفقهم وصناعتهم وشجاعتهم(٦٨) » .

(أ) الاتصال الثقافي في مدن الحدود :

انتقلت الحضارة الاغريقية زمن سيادة الاغريق والرومان الى الشام والعراق ، ثم امتزجت مع المسيحية واعتنى أهل الشام بها ، فترجموا في الاديرة ما يتعلق بالدين والدنيـا . واسـتمرت الحيـاة الفكرية في القسطنطينية وآسيا الصغرى والشام ومصر والمغرب في نفس اتجـاهها قبل المسيحية ، بحيث يمكن القول ان حوض البحر المتوسط كانت تسوده

(٦٦) منح خوري : التاريخ الحضاري عند توينبي ص ٥٧ : ٩ .

(٦٧) ماكس مايرهوف : من الاسكندرية الى بغداد ـ من كتاب دكتور بدوي : التراث اليوناني في الحضارة الاسلامية ص ٤٣ .

(٦٨) ياقوت : معجم البلدان جـ ١ ص ٤٨ .

قبل الاسلام ثقافة اغريقية لاتينية غلب عليها الروح المسيحى . وقد كان الفكر فى العالم البيزنطى وثيق الصلة بالاصول الاغريقية القديمة ، ومن هنا « لم تختف طلاوة الفكر الاغريقى ونقاؤه ، بل فتحا لنشاطهما ميدانا جديدا ، لقد انتقلت خصائص ذلك الفكر اليونانى من ميدان الفلسفة الوثنية الى ميدان اللاهوت المسيحى، والى هذا الميدان الجديد نقل مشاكله ومعاركة القديمة » على حد تعبير مارشال F.H. Marshall . وفى كل نواحى الانتاج الفكرى البيزنطى نجد الصور القديمة نماذج يحتذيها الناس فيما يكتبون من أدب مسيحى ، والمسافة قريبة جدا بين زوزيموس Zosimus آخر أعلام المؤرخين الوثنيين وبروكوبيوس مؤرخ جستنيان المسيحى . بل ان الفكر السريانى الذى بلغ أوجه فى القرن السادس الميلادى كان يحمل بوضوح طابع الفكر الاغريقى القديم ، فقد نهج يعقوب السروجى وفيلوكسين المنبجى ويوحنا الايسورى ويعقوب البردعى السريان المسيحيون على نهج قدماء الاغريق، وفلاسفتهم . وأخرجت سوريا نفرا من أعلام الفكر اليونانى المسيحى مثل بروكوبيوس من قيصرية الشام ، ويوحنا مالالاس من انطاكية ، وبروكوبيوس الغزى ، ودوروتيوس وأناتوليوس القانونيين من بيروت، **وقامت مدارس الطب فى الرها وحران وانطاكية** على ترجمة مؤلفات أطباء الاغريق الى السريانية . ووجد النساطرة الذين اضطهدتهم الامبراطورية البيزنطية لأنفسهم مأوى عند الفرس ، وفى سنة ٣٥٠ م أسس كسرى أنوشروان مدرسة فى **جند يسابور** بغربى فارس لدراسة الطب والفلسفة . وواصلت حران نشاطها الفلكى . (٦٩) . وقد انتشرت المدارس خلال الشرق الرومانى ، ومن ذلك قيصرية فى كابادوكيا وقيصرية الجديدة ناحية بنطس ومنها مدارس فى قيليقية وبامفيليا . وكانت الاسكندرية مركز الدراسة لاقليم الجنوب ، كما جدت معاهد فى قيصرية بفلسطين وحمص على الحدود العربية ، وفى القرن الخامس ذاع فى الشرق صيت بعيد لمدرسة الخطابة المسيحية فى غزة بينما كانت **انطاكية وافامية وخلكيس وحمص** فى سوريا تفخر باساتذتها المشهورين. والى انطاكية ينسب الخطيب المشهور ليبانيوس المتوفى سنة ٣٩٣ م ، والمؤرخ اميانوس مارسلوس (٣٣٠ : ٤٠١ م) الذى كان جنديا لمع فى

---

(٦٩) هل : الحضارة العربية ـ ترجمة دكتور العدوى ص ١٠٦ ، دكتور مؤنس : المسلمون فى البحر المتوسط ـ المجلة التاريخية المصرية م.٤ ع ١ مايو سنة ١٩٥١ .

معارك غالة وبين النهرين أكمل تاريخ تاسيتوس واحب انطاكية وفاخر بها ٠ (٧٠) ٠

ودخلت فى رحاب الدولة العربية هذه المراكز الثقافية الزاهرة : مثل انطاكية فى الشام وقيصرية وغزة فى فلسطين ، ثم الاسكندرية بوجه خاص ، وصـــارت بكتابها ومدارســـها ومتاحفها وبيئتها العامة المشبعة بالحياة الفكرية القوية والتقاليد الهيلينية القديمة ـ جزءا من الدولة الاسلامية . وأصبحت للثقافة الاغريقية أثرها الكبير فى الحياة العقلية العربية . وازدهرت الرها المركز المسيحى ، وحران المركز الوثنى، وانطاكية المستعمرة الاغريقية القديمة كثيرة العدد ، والاسكندرية ملتقى الفلسفتين الشرقية والغربية ، وغير ذلك من المراكز الشامية والعراقية التى لا حصر لها والتى كانت تدرس فيها العلوم والفلســـفة بجانب البحوث الدينية . **ولقد كانت الغارات المختلفة على أرض الروم ونجاحها فى أيام الرشيد سببا فى حصول العرب على كثير من المخطوطات اليونانية، وبخاصـــة من عمـــورية وأنقـــرة** Ancyra وكانت الثقافة الهيلينية الارث المشترك الذى استطاع ان يقرب ما بين بيزنطه ودولة الخلافة بعد فتح العرب للشام ومصر ، ولكن العرب كانوا لا يعرفون اليونانية ، وكان عليهم فى مبدأ الامر ان يعتمدوا على الترجمات التى يقوم بها رعاياهم من غير المسلمين وبخاصة النساطرة ٠ ولقد أصبح هؤلاء النساطرة الذين ترجموا أولا الى اللغة السريانية ومنها الى العربيـــة حلقة الاتصـــال بين الفلســـفة الاغريقية والاسلام ٠ (٧١) وفى ظل الحـــكم الاغريقى ـ كانت الطبقة الحاكمة الاغريقية فى ســـوريا تتـــكلم اليونانية وكانت الآرامية هى اللغة العادية فى ســـوريا والعراق ـ وهى لغـــة قريبـــة الى العربية ولكنها تغايرها ٠ والآرامية عموما لغة المرتفعات الشمالية والاقاليم الداخلية ، فى حين استعملت العبرية فى المنخفضات واقتربت من اللغة الفيقية المستعملة على الساحل ٠ وتشبعت الآرامية الى مهجات كثيرة وانتشرت فى منطقة كبيرة ، وانتشرت احدى لهجاتها أو مجموعة من لهجاتها فى وقت متأخر بين السكان المسيحيين فى سوريا والعراق متخذة الرها مركزا لها ، وعرفت بالسريانية ، « **وكانت هذه السريانية**

---

(٧٠) Byzantium بينز : الامبراطورية البيزنطية ـ ترجمة دكتور مؤنس وزايد ص ٢٠٨ ، رستم : الروم جـ ١ ص ١٥٠ ـ ١ ٠

(٧١) فازيلييف : بيزنطة والاسلام ـ ملحق بترجمة كتاب بينز : الامبراطورية البيزنطية للدكتور مؤنس وزايد ص ٣٦٠ ، ٣٧٤ حتى : تاريخ العرب ٠ ترجمة نافع جـ ٢ ، ص ٣٨٥ ـ ٦ ٠

الارامية – على حد تعبير أوليرى – هى الطريق الرئيسى الذى عبرته الثقافة الاغريقية الى شعوب الشرق الادنى » . وظلت سوريا قرونا تحت سلطة السلوقيين (السليوكيين) الاغريق فصرفت الشئون العامة بالاغريقية ؛ « وكان هذا (التهلين) سطحيا من غير شك ، ولكنه ترك طابعا خاصا . ثم أتى الحكم الرومانى فلم يجلب معه ثقافة جديدة ، ولكنه قوى النفوذ الاغريقى الموجود بالفعل . واخيرا جاءت الكنيسة المسيحية ، فكانت أكثر اغريقية فى نفوذها مو السلوقيين أو من الدولة الرومانية . ولقد وضعت الكنيسة يدها فى يد الدولة الرومانية بعد أيام قسطنطين ، وتم الاعتراف بأولية كنائس روما وانطاكية ثم بعد بعض التردد بالاسكندرية ، ولأسباب عاطفية أعطيت كنيسة بيت المقدس (أورشليم) مرتبة مماثلة ولو أنها فى الحقيقة كانت تتبع انطاكية . وكانت الكنيسة المسيحية فى عهدها الأول « قوة تهلينية » فى جوهرها على حد تعبير أوليرى « فكانت الاغريقية لغتها ، وكان انتشارها الاول بين هؤلاء الذين تكلموا الاغريقية وعاشوا على النمط الاغريقى ... ولقد استعملت المسيحية اللغة الاغريقية حتى فى روما نفسها » . ويبدو أن الرغبة فى السلامة من التعرض للاضطهاد ادت الى الاتجاه الى تكوين كنيسة مزدهرة فى بين النهرين خارج حدود الامبراطورية الرومانية ، وهذه الكنيسة الواقعة فى منطقة الرها وما حولها عاشت حياتها الخاصة، وكانت أكثر من أى شىء آخر هى التى احدثت تهلين هذه المنطقة عبر الحدود . وكانت كنيسة بين النهرين عبر الحدود تعتبر داخلة فى ابرشيه انطاكية ولكن اسقفها فى وقت اسبق كان يحمل لقب كاثوليكوس « وحيث تكونت الكنيسة هكذا نموذجا للامبراطورية الرومانية هيأت المجتمعات المسيحية للنمط الهيلينى ، لا فى العراق فحسب بل كذلك فى فارس . وهذه الانماط مطبقة على النظم الاجتماعية – هيأت الطريق للثقافة الاغريقية » . (٧٢) .

وفى أخبار سنة ٢٦٩م ان من تولى تفنيد أضاليل بولس السميساطى هو ملكيون (رئيس مدرسة العلوم اليونانية فى انطاكية) . وفى سنة ٢٩٠ م اتفق لوقيانوس السميساطى الاصل ودور وثاوس وبعض رجال الدين على جعل دارهم مدرسة لتدريس الاسفار المقدسة وشرحها . كما يذكر أن يوسطانيوس أسقف **انطاكية** اسس مدرسة بها

(٧٢) اوليرى : مسالك الثقافة الاغريقية الى العرب – ترجمة دكتور تمام حسان ص ٩٠ ، ١١ ، ٣٦ ، ٥٣ ، ٦٣ ، ٦٥ : ٧ .

يقلد مدرسة الاسكندرية الكبرى بعد مجمع نيقية سنة ٣٢٥ م » وقد أصبح ديودوروس أسقف طرسوس (المتوفى سنة ٣٩٣م) وتيودور أسقف موبسيوستيا (المصيصة) (المتوفى سنة ٤٢٩م) فى التقدير العام قادة علماء اللاهوت فى الكنيسة السورية التى تكلمت الاغريقية وتبعت انطاكية ، واعتبرت كتاباتهما بالاغريقية حصون العقيدة فى سوريا وكانت هناك منافسة بين انطاكية والاسكندرية ... » واشتهر من الادباء الانطاكيين يوحنا الذهبى الفم المتوفى سنة ٤٠٧م والذى نفى فى ثنايا جبال طوروس ثم بلاد بنطس . **وهكذا أصبحت انطاكية العاصمة الفكرية لسوريا الشمالية** . وقد تعلم فيها آريوس ونسطوريوس كلاهما . وكانت الدروس فى انطاكية تستمر فى أشهر الشتاء والربيع ويخصص الصيف للاحتفالات والاعياد . وشكلت العلوم الكلاسيكية اليونانية نواة المنهج المدرسى ، وكان للمنطق أهمية وحظى أرسطو بمكانة خاصة ويجمل الدكتور رستم الطابع الفكرى لمدرسة انطاكية بقوله « كانت مبادىء مدرسة انطاكية توجب فى كل موضوع بساطة فى المنهج وكمالا فى الايضاح ، وادراكا فى تعليم الايمان . وكانت تؤثر الأخذ بظاهر النصوص المقدسة فتبتعد كل الإبتعاد عن التأويل . وكانت تعتمد أرسطو أكثر من افلاطون . ومن ثم كانت هذه الفروق بينها وبين مدرسة الاسكندرية (ولهذا السبب تميز مدرسة انطاكية بين اللاهوت والناسوت فى شخص المسيح الواحد ...) » وكانت بيروت المدينة الوحيدة من بين مدن سوريا البيزنطية التى نافست انطاكية فى الزعامة الفكرية وذلك لوجود مدرسة الحقوق بها . وقد وصلت هذه أرقى مراحلها فى القرن الخامس الميلادى عندما اجتذبت بعض المفكرين الممتازين فى الامبراطورية البيزنطية .

وقد أسس الاسقف يعقوب مدرسة فى **نصيبين** تلت انشاء مدرسة انطاكية بعد مجمع نيقية سنة ٣٢٥م وكان غرضها نشر اللاهوت الاغريقى بين المسيحيين الذين يتكلمون الاغريقية . غير أن هذه المدرسة تعرضت للمتاعب ، ثم ضاعت أخيرا حين سقطت نصيبين فى يد الفرس سنة ٣٦٣م . وعاود رئيسها افرام السريانى عمله فى **الرها** ، فكان هناك اتصال طبيعى بين جهود المدرستين ، حتى **أن مدرسة الرها ربما اعتبرت بعثا لمدرسة نصيبين** . وأول من ورد ذكره من طلاب الرها لوقيانوس ، ثم يوسيبيوس الرهاوى أسقف حمص المتوفى سنة ٣٥٩م . وفى أواخر القرن الرابع الميلادى تتابعت اعمال الترجمة من الاغريقية الى السريانية، ووصل نسطور تلميذ مدرسة انطاكية الى كرسى بطريركية القسطنطينية

سنة ٤٢٨م . وحدث الانشقاق الشهير نتيجة جدل فى طبيعة العذراء : هل هى ام للمسيح بطبيعته الجسدية أم بصفته الالهية ؟؟ وتزعمت الاسكندرية المعارضة ضد نسطور الذى كان يرى فى العذراء (والدة المسيح) لا (أم الاله) لانها ولدت انسانا لا اله اللاهوت ، وهى (قابلة)(الآله لا غير . ونجحت الحملة ضد نسطور وانتهت بعزله ، لكن ايدته مدرسة الرها . وتعرض النساطرة لاضطهاد الروم ،واغلق الامبراطور زينو مدرسة الرها سنة ٤٨٩م . وهاجر المعلمون النسطوريون من الاراضى المسيحية الى بلاد الفرس ، وكان قد سبقهم الى الهجرة برصوما رئيس المدرسة فقابلهم واغراهم **بالاقامة فى نصيبين حيث افتتحوا مدرسة نسطورية خالصة . « وقد جاءت هذه المدرسة سليلة مباشرة لمدرسة نصـيبين** ، وأصـبحت فيما بعد جـامعة مركزية عظيمة للمجتمع النسطورى » . واستطاع برصوما ان يكسب ثقة الملك الفارسى فيروز الذى علم بقدرته على مفاوضة الرومان « فأطلعه على تحصينات الحدود، ثم بعث به فى مهمة لتفتيش الحدود مع المرزبان الفارسى (dux عند الرومان) وملك العرب . ويجب ان يكون هذا قد حدث قبل صيف سنة ٤٨٤م حين مات فيروز » . وهكذا لعبت مناطق الحدود دورا خطيرا فى الحركة الثقافية بين الفرس والروم « **ويبدو التحويل الدائم للثقافة الاغريقية ــ فى صورة سريانية معدلة ــ من الرها عبر الحدود الفارسية الى نصيبين** ، حيث انتشرت فى النهاية الى المجتمع النسطورى ووصلت الى العرب . وانها لحلقة واضحة فى سلسلة النقل ، ولكنها حلقة قد كادت تنكسر فى بعض الاحيان ، ثم تجددت » . وانتشر النشاط التبشيرى النسـطورى فى الاقاليم المحيطة ، حتى امتد الى الجنوب الغربى فى بلاد العرب قبل وقت طويل ، ثم الى الشرق عبر آسيا الوسطى حتى الشرق الاقصى . ويبدو أن كثيرا من نصارى الحيرة كانوا على المذهب النسطورى واستعملوا السريانية فى صلواتهم . وتقدمت البعثات النسطورية الى الجنوب حتى وادى القرى ــ الواقعة الى الشـمال الشرقى من المدينة ــ وكانت معسكرا لحامية رومانية لم يكن جنودها من الرومان ولكنهم كانوا من المرابطين من قبائل قضاعة ، وكان معظم هذه القبائل من النصارى أيام النبى . على أن الثقافة الاغريقية لم تنتقل الا عن **طريق جند يسابور** ، فقد كان كسرى الاول (٥٣١ : ٥٧٨م) رغم حربه للروم معجبا بالثقافة الاغريقية الرومية ، فاكرم الفلاسفة الذين طردوا على أثر اغلاق مدرسة اثينا أيام جستنيان ، **وانشأ مدرسة جنديسابور** على نهج مدرسة الاسكندرية الذى كان قد اتبع فى حمص

أيضا . وكان فى جنديسابور عند انشائها كمخيم للسجناء مواطنون يتكلمون الاغريقية وآخرون يتكلمون السريانية ، وينبغى أن يكون بعض السكان قد استعمل الفارسية كذلك ، ويبدو أن الأغريقية قد أهملت بطول الوقت وجرى التدريس بالسريانية كما كان الحال فى نصيبين وفى المدارس النسطورية الاخرى وان كانت دراسة الاغريقية كلغة قد استمرت.(٧٣) وظهر فى تاريخ الكنيسة اليعقوبية «القائلة بالطبيعة الواحدة لكلمة الله المتحدة» اعلام من منطقة الجزيرة مثل يعقوب السروجى أسقف حورا من ابرشية سروج (٥٠٢ ــ ٣م) وفيلوخينوس من تلاميذ مدرسة الرها مضارضى النسطورية ونصف أسقفا على هيروبوليس (منبج) ، ومارا أسقف آمد الذى كان من الذين طردهم جستين سنة ٥١٩م ونفى مع ايسيدور اسقف قنسرين الى بطره (البتراء) . وكان يوحنا الافتونى John of Aphtonia من المضطهدين فى عهد جستين ، وكان رئيسا لدير القديس توما فى سلوقية ، فلما طرد من ديره **انشا ديرا آخرا فى قنسرين بجانب الرها** « وازدهر هذا الدير فى بداية القرن السابع بدراسة الاغريقية وغشيه كثير من أحبار اليعاقبة ، ولم يكن لليعاقبة مدرسة قط كمدارس النساطرة نصيبين وجنديسابور ــ ولكن هذا الدير كان مركزا ثقافيا لا يقل عن هذه المدارس . وصارت المراكز الكبرى للدراسات اليعقوبية فى **اديرة مارمتا ثم طور عابدين على الفرات الأعلى الذى يعتبر أكبر دير فى العراق ثم قنسرين بقرب الرها** وكثيرون من المطارنة كانوا بين خريجى الدير الاخير » . وقد أرسل جستنيان يوحنا الافسوسى أو الآسيوى الراهب الذى كان قد هرب من ديره توقيا للاضطهاد الى آسيا الصغرى لتبشير الوثنيين حول أفسدوس ، وقد لقى يعقوب البرذعى فى القسطنطينية . واشتهر عالم سريانى فى العصر المتأخر هو سيفيروس سيبحت أسقف قنسرين (المتوفى ٦٦٦ ــ ٧م) وقد كتب فى موضوعات لاهوتية ومنطقية وفلكية . ويبدو أنه اتجه لنقل الارقام الهندية . » ولقد كان اليعاقبة مجدين وناجحين فى التبشير فقطعوا الصحراوات فى حمية بنى غسان ، وكانت ادباين وبيت عربايا مما حول طور عبدين منطقة يعقوبية وكذلك **ارمينية** والمنطقة التى حول جبل عزلا M. Izla الى الشمال قليلا من نصيبين،

(٧٣) اوليرى : مسالك الثقافة الاغريقية الى العرب ــ ترجمة تمام حسان ص ٦٩ : ٧٢ ، ٧٥ ، ٧٧ : ٩ ، ٨٤ : ٦ ، ٩٠ ، ٩٩ : ١٠١ ، رستم : الروم جـ ١ ص ١١٣ : ٩ ، ١٢٣ : ٥ ، ١٤٩ : ١٥٤ ، ١٦٢ : ٣ ، حتى تاريخ سوريا جـ ١ ترجمة دكتور حداد ورافق ص ٣٩٤ : ٦ ، ٣٩٩ .

وكانت مدينة شيسـسار Shissar مركزا يعقوبيا آخر ... وفى عهد جستنيان أرسلت الامبراطورة تيودورا مبشرا يعقوبيا الى أكسوم ، وقد شغلت اكسوم مكانا هاما فى السياسة البيزنطية أيام جستنيان . ولم يمض وقت طويل حتى بدأ ملك اكسوم يحاول بسط نفوذه على الشواطىء الجنوبية لبلاد العرب . وكان فى مكة كثير من العبيد والصناع الاحباش ومعظمهم كان مسيحيا من اليعاقبة . وكانت نجران مسيحية على المذهب اليعقوبى . وليس من الممكن أن نسمى مركزا يعقوبيا يدعى انه نقل الثقافة الاغريقية بنفس الثقة التى تصحب تسميتنا المركز النسطورى فى جند يسابور ، لكن هذا الاتصال لا يصح ان يتجاهل . حقيقة أن المراكز التعليمية اليعقوبية كانت اديرة وليست مدارس كمدرسة جند يسابور ولم تكن لهذا واضحة الاتصال بالعرب كالمدرسة النسطورية ـ ولكنها كانت على اتصال » . (٧٤)

***

وحكم الاسلام هذه المنطقة التى ازدهرت فيها الثقافة اليونانية والنظم الرومانية ، وكانت الشام قاعدة الحكم الاموى حيث كانت دمشق العاصمة الرسمية مدينة لا تخلو من آثار الطابع الاغريقى وان لم تكن ذات صبغة هيلينية تامة كما كانت انطاكية ، وكانت مقر الاساقفة المسيحيين الذين كانوا بعد بطارقة انطاكية من حيث التدرج الاكليروسى. وقد كانت بها مدرسة ذات شهرة فى وقت الفتح العربى ، ولكنها لم تبلغ درجة مدرسة الاسكندرية ولا انطاكية واستبقت هذه المدرسة سمعتها بعد الفتح . وقد بدت آثار الفكر الاغريقى على الفكر العربى فى الشام والعراق ، وربما وجدت هذه الاثار فى أكثر من منطقة واحدة منهما ، وربما انتشرت من منطقة الى أخرى . (٧٥)

وصار العرب ورثة الفكر اليونانى ، ولعب السريان دور الوسيط فى نقل هذا التراث اذ كانوا على اتصال باليونان لاكثر من عشرة قرون ، وكان علماؤهم فى القرنين السابقين لظهور الاسلام يعملون جاهدين فى نقل المؤلفات اليونانية الى السريانية . وهكذا فان الذين اتاحوا كنوز اليونان العلمية والفلسفية للفرس من قبل ، أصبحوا الآن يؤدون هذه الخدمة نفسها للعرب . (٧٦) ويذكر الفارابى والمسعودى وابن أبى

(٧٤) اوليرى : مسالك الثقافة الاغريقية الى العرب . ترجمة دكتور تمام حسان ص ١٢٩ ـ ١٣٠ ، ١٣٢ ـ ٣ ، ١٣٦ ، ١٣٨ : ١٤٢ .

(٧٥) المصدر السابق ص ٢١٠ ، ٢١٦ ـ ٧ .

(٧٦) حتى : تاريخ سوريا جـ ٢ ترجمة دكتور اليازجى ص ١٧٤ ـ ٥ .

أصبيعة نبأ انتقال مدرسة الفلاسفة والاطباء من الاسكندرية – اذا حسبنا انه لم يكن غير مدرسية واحدة هناك – الى انطاكية وحران فى عهد عمر بن العزيز . ويحاول ما يرهوف تعليل هذا الانتقال بقوله « ... من بين الأسباب : تلك العزلة التى أصبحت الاسكندرية فيهـا منذ فتح العرب ، فقد فصلت عن بيزنطة بسبب حروب البحر المستمرة ، وكان لا مناص من ان تذهب عنها أهميتها الثقافية والاقتصادية منذ اصبحت دمشق مركزا لادارة الامبراطورية الاسلامية الجديدة ... وعلى كل حال فلابد ان يكون العلمـاء الذين يعرفون اليونانية قد تناقص عددهم ، ولابد ان حركة الترجمة الى السريانية التى بدأها بعض العلماء الاسكندرانيين فى القرن السادس الميلادى قد أصيبت بشلل كبير . ومن أجل هذا كان طبيعيا جدا ان تنتقل المدرسة الى الشرق الادنى فى المنطقة التى تتكلم السريانية . وليس فى الروايات مايدلنا على ان الخليفة عمر بن عبد العزيز نفسه قد اشترك فى نقل المدرسة أو كان السبب فى هذا الانتقال ... ولسنا نفهم كذلك لماذا أصبحت انطاكية الوطن الجديد للمدرسة ، نعم كانت هذه المدينة مركزا للثقافة العلمية اليونانية ، الا انها عانت الكثير من الاحداث فى القرون الاخيرة قبل أن يستولى عليها العرب (١٧ هـ – ٦٣٨م) ، فقد خربها غزو الفرس وخربتها الزلازل ، ونظرا لوقوعها على الحدود القلقـة بين الامبراطورية البيزنطية والامبراطورية العربية بقيت فى العصر الاسلامى موضع نزاع مستمر . ومع هذا فلست أرى من غير الممكن ان تكون قد اختيرت ، **لأن هذا الموقع نفسه قد جعل من السهل احضار المخطوطات اليونانية من آسيا الصغرى لأن حركة التبادل كانت نشيطة دائما على الحدود فى الفترات الخالية من الحروب** . وكان القوم يجدون فى البحث عن امثال هذه المخطوطات – كما تبين لنا من كلام لحنين بن اسحق ، وذلك من أجل ايجاد مكتبة أو من أجل اكمال المكتبات القائمة من قبل . ومن المؤكد ان العناية فى المدرسة الحديثة اتجهت الى الترجمة الى السريانية ... ثم ان مصادرنا الثلاثة تتفق فى ان مجلس التعليم قد انتقل من بعد من انطاكية الى حران ، وهذا الانتقال اسهل فى الفهم من انتقالها من الاسكندرية الى انطاكية لأن مدينة **حران تقع فى وسط منطقة الثقافة اليونانية فى المنطقة التى تتكلم اهلها اللغة الارامية الشرقية ، وكانت الى جانب هذا نقطة مهمة للتبادل والاتصال** ، حتى أن آخر الخلفاء الامويين وهو مروان الثانى نقل مركز الخلافة أحيانا اثناء مدة خلافته اليها بالعراق الأعلى . وكانت الدراسات اليونانية متقـدمة منذ زمن بعيد فى المنطقة كلها (كانت حران تسمى هلينوبوليس – مدينة اليونانيين)

وكان القائمون بها من النصارى والوثنيين على السواء • ويبدو ان المدينة كانت على صلة ببعث الثقافة الذى اثر فى الكنيستين النسطورية واليعقوبية ... وكتاب التنبيه يحدد الزمن الذى انتقلت فيه مدرسة انطاكية فيقول ان ذلك كان فى خلافة المتوكل (٢٣٣ ، ٢٤٧ هـ) (٨٤٧ : ٨٦١م) فتكون المدرسة قد بقيت فى انطاكية ١٣٠ أو ١٤٠ سنة تقريبا قبل ان تنقل الى حران • (٧٧)

(ب) الاتصال الثقافى عن طريق الاسرى :

كانت الحروب بين المسلمين والروم متواصلة « وتقع الاسرى من كل من الجانبين فى يد الاخر ، فاسرى المسلمين قد يذهبون الى القسطنطينية واسرى الروم الى العراق • والحكايات كثيرة فى التاريخ عن النوعين من الاسارى وخاصة فى عهد الرشيد ، فكان هذا سببا من أسباب امتزاج الحياة الاجتماعية واقتباس كل من كل • وليس من المعقول ان يمر هذا الاتصال ــ بحكم الروم لكثير من البلاد الاسلامية أولا ، ثم بالرق والاسر ، ثم باحتكاك الدائم السلمى أحيانا والحربى أحيانا ــ من غير أن يترك بعضا من المسلمين يتكلمون الرومية وبعضا من الرومانيين يتكلمون العربية • فالرقيق الرومى مثلا فى البيوت كان يتكلم الرومية أولا بالضرورة ، ثم يتكلم العربية محرفة ، ثم العربية القريبة من الصحيحة ، وهكذا الشأن فى أسرى المسلمين فى الروم آن استقروا • وهذا يحمل بعض الافراد الراقين من الجانبين على ا ن يتبادلوا الآراء والافكار والكلام فى اللغة والادب • ويروى صاحب الاغانى فى ذلك خبرا طريفا فيقول : قدم رسول لملك الروم الى الرشيد فسأل عن أبى العتاهية وانشده شيئا من شعره ، وكان ــ اى الرسول ــ يحسن العربية ، فمضى الرسول ــ الى ملك الروم وذكره له ، فكتب ملك الروم اليه ورد رسوله يسأل الرشيد ان يوجه بأبى العتاهية ويأخذ فيه رهائن من أراد ــ والح فى ذلك ، فكلم الرشيد أبا العتاهية فى ذلك فاستعفى فى منه واباه » (٧٨) •

ويروى المقدسى صورة لمعيشة اسرى المسلمين فى بلاد الروم فيقول :

---

(٧٧) مايرهوف : من الاسكندرية الى بغداد ــ من كتاب دكتور بدوى : التراث اليونانى فى الحضارة الاسلامية ص ٦١ : ٧١ ،
اوليرى :مسالك الثقافة الاغريقية الى العرب • ترجمة دكتور تمام حسان ص ٢٥٨ •
(٧٨) احمد امين ــ ضحى الاسلام ص ٢٧٩ ــ ٨٠ •

« اعلم ان مسلمة بن عبد الملك لما غزا بلد الروم ودخل هذا المصر ، شرط على كلب الروم بناء دار ازاء قصره فى الميدان ينزلها الوجوه والاشراف اذا اسروا ليكونوا تحت كنفه وتعاهده . فاجابه الى ذلك ، وبنى دار البلاط ... ولا يسكن دار البلاط من المسلمين الا وجيه فى اجراء وتعاهد وتنزه ، وسائر الاسارى من عامة المسلمين يستعبدون ويستعملون فى الصنائع ، فالحازم الذى اذا سئل عن صنعته لم يقر بها ، وربما اتجر الاسارى بينهم وانتفعوا . ولا يكرهون احدا على أكل لحم الخنزير ، ولا يثقبون انفا ولا يشقون لسانا . ومن دار الكلب الى دار البلاط حبل ممدود فيه صورة فرس من نحاس ، ولهم أوقات يجتمعون فيها للعب واسم الملك وينطوا واسم الوزير براسيانا ، فاذا أرادوا ان يتفاءلوا فى لعبهم صاروا حزبين وارسلوا الخيل حول الدكة : فان سبقت خيل حزب الكلب قالوا ، ستكون الغلبة للروم فصاحوا وينطوا وينطوا ، وان غلبت خيل حزب الوزير قالوا ستكون الغلبة للمسلمين فصاحوا براسيانا براسيانا ، وذهبوا الى المسلمين فيخلعون عليهم ويصلونهم لكون الغلبة لهم » . (٧٩) وهذه الصورة التى ينقلها المقدسى لا شك ان مصدرها رواية احد الاسرى ، وهى تنبىء عن فرص للاتصال الاجتماعى والثقافى بين المسلمين والروم كان يتيحها الاسر للفريقين .

وقد روى المسعودى فى ثنايا كلامه عن فداء الأسرى الذى حدث فى عهد الواثق فى المحرم سنة ٢٣١هـ « والملك على الروم ميخائيل بن توفيل ، وكان القيم به خاقان الخادم التركى » : **أن من بين من أطلق فى هذا الفداء من أسرى المسلمين لدى الروم مسلم بن أبى مسلم الجرمى « وكان ذا محل فى الثغور ، ومعرفة باهل الروم وأرضها »** ، وله مصنفات فى أخبار الروم وملوكهم وذوى المراتب منهم وبلادهم وطرقها ومسالكها ، واوقات الغزو فيها والغارات عليها ، ومن جاورهم من الممالك من برجان والابر والبرغر والصقالبة والخزر وغيرهم (٨٠) » . ومن علم هذا الاسير الجليل استمد ابن خرداذبة قائمته لبنود الروم وذكر أن مسلم بن أبى مسلم الجرمى قال : ان أعمال الروم التى يوليها الملك عماله أربعة عشر عملا (٨١) .. الخ » .

(٧٩) المقدسى : احسن التقاسيم ص ١٤٧ ـ ٨ .
(٨٠) المسعودى : التنبيه والاشراف ص ١٦٢ .
(٨١) ابن خرداذبة : المسالك والممالك ص ١٠٥ .

وقدم القسطنطينية عن طريق البحر مكبلا في قيود الاسر **هارون بن يحيى** في زمن باسيل الاول (٨٦٧ : ٨٨٦م) أو الاسكندر (٩١٢ : ٩١٣م)، فوصف ما رآه من أبواب المدينـة والبذرون (Hippodrome الهبدروم) والقصر الامبراطوري ، واستلفت نظره الارغن الذي سمعه هناك ، ووصف موكب الامبراطور المهيب الى كنيسة أيا صوفيا ، كما وصف تمثال جستنيان وقناطر المياه وبعض الاديرة حول القسطنطينية . وفي طريقه من القسطنطينية الى روما زار سالونيك . وقد أعطى وصف هارون مادة طيبة لطبوغرافية القسطنطينية واحتفالات البلاط والاحتفالات الدينية (٨٢) . وقد روى ابن رسته صورة السباق « وعلى غربي الميدان مما يلي باب الذهب بابان يسوقون الى هذين البابين ثمانية من الخيل ، وهناك عجلتان من ذهب يشد كل عجلة اربعة من الخيل ، ويركب فوق العجلة رجلان قد البسا ثيابا متوجة بالذهب ... فايها سبق صاحبها القى اليه من دار الملك طوق من ذهب ورطل ذهب ، وكل من في قسطنطينية يشهدون ذلك الميدان ويبصرون » كذلك روى ابن رستة صورة خروج الملك الى الكنيسة العظمى « ... ثم يقبل الملك ... وخلفه الوزير ... كلما مشى خطوتين يقول الوزير بلسانهم من رمونتا ، وتفسيره اذكروا الموت ... فيسير كذلك حتى ينتهي الى باب الكنيسة ، فيقدم الرجل الطست والابريق ، فيغسل الملك يده ويقول لوزيره : اني بريء من دماء الناس كلهم ، لأن الله لا يسألني عن دمائهم وقد جعلتها في رقبتك ويخلع ثيابه التي عليه على وزيره ويأخذ دواة بلاطس ــ وهي دواة الرجل الذي تبرأ من دم المسيح ــ ويجعلها في رقبة الوزير ... وعلى الباب الغربي من الكنيسة مجلس فيه أربعة وعشرون بابا صغارا كل باب شبر في شبر ... معمولة على ساعات الليل والنهار ، فكلما انقضت ساعة انفتحت منها باب من ذات نفسها واذا انغلقت انغلقت من ذات نفسها » وابن رستة يعتمد على هرون بن يحيى فيما يقدم من معلومات « وذكر هرون ان حوالى قسطنطينية ديارات الرهبان ، وعلى باب قسطنطينية دير يدعى دير ساطرا ينزله خمسمائة راهب (٨٣) » .

---

(٨٢) فازيلييف : بيزنطة والاسلام من كتاب Byzantium مترجم وملحق بترجمة كتاب بينز : الامبراطورية البيزنطية للدكتور مؤنس وزايد ص ٣٧٧ : ٨ .

(٨٣) ابن رستة : الأعلاق النفيسة ص ١٢٠ : ١٢٧ .

(ج) السفارات العلمية :

واذا كان المسلمون لم ينسوا خلال غاراتهم على البيزنطيين ــ خاصة زمن الرشيد ــ أن يحاولوا الحصول على مخطوطات يونانية من مدائن العدو مثل عمورية وأنقرة (٨٤) ، Ancyra فانهم كانوا كذلك يرسلون الرسل من قبلهم لشراء هــذه المخطوطات اليونانية الموجــودة فى الامبراطورية البيزنطية ــ زمن الرشيد أيضا وبتشجيع البرامكة • « وهى سياسة سخية جاءت الى بغداد بكثير من المؤلفات الهامة ، وقد الحق هذا بكرم مماثل من جانب الأفراد الذين أنفقوا بسخاء على المخطوطات والمترجمين • وكثير من المادة التى حصل عليها بهذه الطريقة كان طبيا » (٨٥) •

وفى أخبار الحكماء أن الرشيد « ولى يوحنا بن ماسويه **ترجمة الكتب الطبية القديمة لما وجدها بأنقرة وعمورية ــ وسائر بلاد الروم حين افتتحها المسلمون وسبوا سبيها** ، ووضـــعه أمينا على الترجمة ، ورتب له كتابا حذاقا بين يديه » • ويروى ابن النديم فى الفهرست « **ان المأمون كان بينه وبين ملك الروم مراسلات ، وقد استظهر عليه المأمون فكتب الى ملك الروم يسأله الاذن فى انفاذ مايختار من العلوم القديمة المخزونة المدخرة ببلد الروم ، فأجاب الى ذلك بعد امتناع** فأخرج المأمون لذلك جماعة منهم : الحجاج بن مطر وابن البطريق ، وسلما صاحب بيت الحكمة وغيرهم ، فأخذوا مما وجدوا ما اختاروا • فلما حملوه اليه أمرهم بنقله ، فنقل ، وقد قيل ان يوحنا بن ماسويه ممن نفذ الى بلد الروم » • وجاء فى سرح العيون قول ابن نباته عند الكلام على سهل بن هرون : « وجعله كاتبا على خزائن الحكمة ، وهى **كتب الفلاسـفة التى نقلت للمأمون من جزيرة قبرص** • وذلك أن المأمون لما هادن صاحب هذه الجزيرة أرسل اليه يطلب خزانة كتب اليونان ، وكانت مجموعة عندهم فى بيت لا يظهر عليها أحد •• فأرسلها اليه واغتبط بها المأمون ، وجعل سهل بن هرون خازنا لها » • ويروى كذلك أن **المأمون أرسل الى صقلية أيضا فى طلب الكتب اليونانية** • وقد ذهب حنين ابن اسحق الى بلاد الروم وأجاد تعلم اليونانية ثم عاد ، وأخذ يرحل فى نواحى العراق والشـــام والاسكندرية يجمع الكتب النادرة (٨٦) •

---

(٨٤) حتى : تاريخ العرب ــ ترجمة نافع حـ ٢ ص ٣٨٥ •

(٨٥) أوليرى مسالك الاغريقية الى العرب ــ ترجمة دكتور تمام حسان ص ٢٢٨ : ٩

(٨٦) احمد أمين : ضحى الاسلام حـ ٢ ص ٦١ : ٣ ، ٧٩ ، دكتور حسن ابراهيم : تاريخ الاسلام حـ ٢ ص ٢٥٧ •

وهكذا استمر الاتصـــال الثقافى بين المسلمين والبيزنطيين رغم الصراع الدامى المستمر وقد أرسل الوليد ابن عبد الملك (٨٦ : ٩٦ هـ ـ ٧٠٥ : ٧١٥ م) الى الامبراطور البيزنطى يطلب ارسال بعض الصناع لتزيين جوامع دمشق والمدينة وبيت المقـــدس بالفسيفساء • ويروى الطبرى فى أخبار سنة ٨٨ هـ أن الوليد كتب الى امبراطور الروم للمعاونة فى بناء مسجد الرسول « فبعث اليه بمائة عامل وبعث اليه من الفسيفساء بأربعين حملا ، وأمر أن تتبع الفسيفساء فى المدائن التى خربت فبعث بها الى الوليد » • على حد رواية الطبرى • ويروى المقدسى أن ملك الروم بعث « بأحمال وبضعة وعشرين صـــانعا ـ فيهم عشرة يعدلون مائة ، وثمانين ألف دينار ••• » • على أن الدكتور ماجد يستبعد أن يطلب الخليفة المسلم من عدوه المعاونة على بناء مسجد رسول الله ، كما يستبعد اجابة الامبراطور البيزنطى له • ويروى ابن العديم مايكشف فى جلاء كيف تخللت معارك القتال اتصالات التبادل الثقافى والحضارى « كنا معشر أهل الشام واخواننا من أهل مصر واخواننا من أهل العراق نغزو فيفرض على الرجل منا أن يحمل من أرض الروم قفيزا بالصغير فسيفساء وذراع فى ذراع من رخام ، فيحمله أهل العراق الى العراق وأهل حلب الى حلب ، ويستأجر على ماحملوا الى دمشق ، ويحمل أهل حمص الى حمص ويستأجر على ماحملوا الى دمشق ، ويحمل أهل دمشق ومن وراءهم حصتهم الى دمشق » (٨٧) •

وفى القرن العاشر الميلادى كان العالم **الرياضى البارز ليو** فى ديار الروم فى عهد تيوفيل (٨٢٩ : ٨٤٢م) ، فدعاه المأمون (١٩٨ : ٢١٨ هـ ـ ٨١٣ : ٨٣٣م) الى بلاطه ، ولما سمع تيوفيل بذلك قرر له مرتبا وعينه مدرسا باحـدى كنائس القسطنطينية • وارسل المـأمون رسالة شخصية لتيوفيل يطلب منه السماح بحضور ليو الى بغداد لفترة قصيرة ، وقال انه يعتبر ذلك عملا وديا ويعرض فى مقابل ذلك صلحا دائما والفى قطعة ذهبية الا أن الامبراطور رفض العرض • وقد وصل خبر هذا العالم الرياضى الى المأمون عن طريق أحد أسرى المسلمين من تلاميذه براعة علمية حتى استثار رغبة الخليفة فى طلب رؤية أستاذه ، فكانت الدعـوة التى لفتت أنظـار

---

(٨٧) الطبرى : حـ ٨ ص ٦٥ ، العمرى : مسالك الأبصار حـ ١ ص ١٨٣ ، المقدسى : احسن التقاسيم ص ٨١ ، ابن العديم : بغية الطلب ـ مخطوط ص ١١١ ، فازيلييف: بيزنطة والاسلام ـ بحث من كتـاب Byzantium ملحق بترجمة الدكتور مؤنس وزايد لكتاب بينز : الامبراطورية البيزنطيـة ص ٣٧٩ ، دكتـور ماجد : التـاريخ السياسى للدولة العربية حـ ٢ ص ١٨٥ : ٨ •

الامبراطور الى ليو فى حياته المغمورة وقد ارتفع بذلك الى مرتبة كبير أساقفة سالونيك سنة ٨٣٠ م (٨٨) ٠

وتذكر آيات من سورة الكهف **قصة النائمين السبعة** الذين لجأوا الى أحد الكهوف فرارا من الاضطهاد فوقعوا فى سبات استغرق ٣٠٩ عاما ثم استيقظوا فوجدوا بلادهم قد دانت بدينهم ٠ ويرى البعض أن ذلك كان فى عهد الامبراطور ديكيوس (٢٤٩ — ٢٥١ م) وقد مات هؤلاء بعد اكتشاف أمرهم مباشرة فاقيم على أجسامهم بالكهف معبد قرب افسوس ٠ ومن المعروف أن القصاصين العرب اعتمدوا على ماتضمنت سورة الكهف من القرآن الكريم من اشارات الى أصحاب الرقيم ، وأنشأوا على أساسها قصصا طويلا نجده عند بعض المفسرين والمؤرخين ٠ ومن أمثلة ذلك ما ذكره المسعودى فى المروج : « **وقد اختلف الناس فى أصحاب الكهف والرقيم** : فمنهم من رأى أن أصحاب الكهف هم أصحاب الرقيم ، وزعموا أن الرقيم هو ما رقم من أسماء أهل الكهف فى لوح من حجر على باب تلك المغارة ، ومنهم من رأى أن أصحاب الرقيم غير أصحاب الكهف — وقد ذكرنا كلا الموضعين بأرض الروم ٠ وقد حكى أحمد بن الطيب عن مروان السرخسى تلميذ يعقوب بن اسحق الكندى عن محمد بن موسى المنجم حين أنفذه الواثق بالله من سر من رأى الى بلاد الروم حتى أشرف على أصحاب الرقيم ٠٠٠ وقد ذكرنا فى الكتاب الأوسط قصة أصحاب الكهف وموضعهم وكيفية أحوالهم الى هذه الغاية ، وخبر أصحاب الرقيم وما حكاه محمد بن موسى المنجم من خبرهم ، وما لحقه من الموكل بهم حين أراد قتله بالسم وقتل من كان معه من المسلمين ، وأخبرنا عن السد الذى بناه ذو القرنين مانعا ليأجوج ومأجوج ٠٠٠ » ٠

ولاشك أنه كان هناك قصص شعبى ، أوسع لم يصل الينا ، ولكننا نلتمس شيئا من آثاره فى قصص ألف ليلة وليلة ٠ وقد وصلت أطراف من القصص العربى حول أهل الكهف الى الروم ٠ وكتب عنها نيكيتاس البيزنطى الذى ألف فى النصف الثانى من القرن ٩م ، واستهوى الخليفة الواثق (٢٢٧ : ٢٣٢ هـ — ٨٤٢ : ٧ م) أن يطلب مالدى الروم من تفاصيل عن هؤلاء الفتية الذين دفنوا فى أرضهم ، فوجه محمد بن موسى المنجم الى بلاد الروم « لينظر الى أصحاب الرقيم ، وكتب الى عظيم الروم بتوجيه من

---

(٨٨) فازيلييف : بيزنطة والاسلام فصل من كتاب Byzantium ملحق بترجمة الدكتور مؤنس وزايد لكتاب بينز : الامبراطورية البيزنطية ص ٣٨٠ — ١ ، جرونيباوم : حضارة الاسلام ترجمة جاويد ص ٧٨ — ٩ ،

يوقفه عليهم ، فحدثني محمد بن موسى أن عظيم الروم وجه من صير به الى قره ثم سار أربع مراحل ... ، وقد نقل ابن خرداذبة صورة لمدفن هؤلاء « فاذا رواق الجبل على اساطين منقورة وفيه عدة أبيات ، منها بيت مرتفع العتبة مقدار قامة عليه باب حجر ، منقور فيه الموتى . ورجل موكل بحفظهم ، ومعه خصيان روقة ، وذا هو يحيد عن أن نراه أو نفتشه ، ويزعم أنه لا يأمن من أن يصيب من التمس ذلك آفة ــ يريد التمويه ، ليدوم كسبه بهم . فقلت له : دعني أنظر اليهم وأنت بريء ... واذا أجسامهم مطلية بالصبر والمر والكافور ليحفظها ، واذا جلودهم لاصقة بعظامهم غير أني أمررت يدي على صدر أحدهم فوجدت خشونة شعره وقوة نباته ... » وقد تحدث ابن خرداذبة في موضع آخر عن هوتة الرقيم بعد بحيرة المسكنين « وهي خسف في الأرض يكون مقدار مائتي ذراع في مائتي ذراع مشقوقة ، في وسطها بحيرة حولها أشجار ، وحول الأشجار في أصل الجبل بيوت ومساكن ... والقوم في مغارة يصعد اليها من ارض الهوتة بسلم لعله أن يكون ثمانية أذرع ونحو ذلك ، فاذا هم ثلاثة عشر رجلا ، وفيهم غلام أمرد ، عليهم جباب صوف وأكسية صوف ، وعليهم خفاف ونعال ، فتناولت شعرات في جبهة أحدهم فمددتها فما تبعني منها شيء » . والمقدسي يذكر عن الكهف أن « المدينة هي طرسوس وبها قبر دقيانوس وبرستاقها تل عليه مسجد قالوا هو على الكهف » . ويروى أن مجاهد ابن يزيد وخالد البريدي خرجا في سنة ١٠٢ هـ « وليس معنا ثالث من المسلمين فقدمنا القسطنطينية ثم خرجنا منصرفين الى عمورية ثم أتينا الى اللاذقية المحترقة في أربع ليال ، ثم انتهينا الى الهوية وهي جوف جبل ، فذكر لنا أن بها أمواتا لا يدرى ما هم وعليهم حراس فادخلونا سربا طوله نحو من خمسين ذراعا في عرض ذراعين بالسروج . واذا وسط السرداب باب من حديد ومكمن لعيالهم اذا يجيئهم العرب ، واذا خربة عظيمة وسطها نقرة من ماء عرضها نحو من خمسة عشر ذراعا يرى منها السماء ، واذا كهف ذلك المكان الى جوف ذلك الجبل ، فانطلق بنا الى كهف مما يلي الجوف من الهوية ، طوله نحو من عشرين ذراعا واذا فيه ثلاثة عشر رجلا رقودا على أقفيتهم ، على كل رجل منهم جبة لا أدري من صوف أو وبر فكشفت عن وجه أحدهم فاذا شعر رأسه ولحيته لم يتغير ، واذا بشرة وجهه منيرة ودم وجهه ظاهر كأنما رقدوا تلك الساعة ... وزعم أهل الهوية أنهم اذا كان رأس كل سنة في يوم عيد لهم يجتمعون فيه ، يقيمونهم رجلا رجلا ويتركونهم قياما ويمسحونهم

وينفضون غبار ثيابهم ويسوون أكسيتهم عليهم • فلا يسقطون •• الخ » • وزار الهروى الكهف والرقيم فى بلاد الروم عند أبسوس « خربة بها آثار عجيبة قريبة من مدينة ابلستين » • ويعلق فازيلييف على رواية هذه السفارة العلمية العربية الى بلاد الروم بقوله : « اننا لا نستطيع رفض قصة هذه الرحلة التى أوردها كاتب عربى فى القرن التاسع ، لأنها صادرة عن كاتب معاصر • **فهى ترينا أنه حتى فى الوقت الذى كانت العداوات فيه شديدة متصلة بين بيزنطة والعرب ، كان من الممكن أن يقوم بينهما نوع من التبادل العلمى** وقد كان هدف البعثة منسجما مطلقا مع عقلية العصور الوسطى » (٨٩) • وقد نظم الواثق كذلك بعثة على رأسها المترجم سلام الذى كان يعرف لغات عدة الى آسيا الصغرى لكشف السور الذى بناه ذو القرنين فى وجه يأجوج ومأجوج ، وقد دامت أعمال هذه البعثة ٢٨ شهرا ، قدم سلام على أثرها للخليفة تقريرا وافيا كما يروى ابن خرداذبة والمقدسى وياقوت ، وقام الخليفة بمكافأة أفراد البعثة (٩٠) •

(د) أدب الحرب :

قيل عن الالياذة : « ان على حسام آخيل نقش هوميروس آداب أمته » ، فكانت الملاحم فروسية وأدبا فى سجل واحد ، الأدب أداتها والحرب موضوعها • والملاحمة كما عرفها نقاد الغرب قصة شعرية لأعمال بطولية خارقة ، وقد تضم الشعر القصصى ولكن ليس كل شعر قصصى ملحمة • والشعر الحربى قديم فى الدهر • وقد كان يسمى الشاعر الحربى فى الأدب الفرنسى فى القرون الوسطى مغنيا أو منشدا Aéde, Chanteur يمضى بين المدن على غرار شعراء التروبادور أوربا الوسيطة والى جانب الشعر الحربى نشأ القصص الحربى وهو روايات وقصص أكثرها النثر وأقلها الشعر • وقد استغرب ابن الأثير فى خاتمة المثل السائر « أن لا يوجد فى اللغة العربية على اتساعها وتشعب فنونها وأغراضها

(٨٩) ابن خرداذبة : المسالك والممالك ص ١٠٦ – ٧ ، ١١٠ – ١١١ ، المقدسى : احسن التقاسيم ص ١٥٢ : ٤ ، العمرى : مسالك الابصار حـ ١ ص ٢١٧ – ٨ ، المسعودى: مروج الذهب حـ ١ ص ١٩٥ – ٦ ، التنبيه والاشراف ص ١٣٣ – ٤ ، جرويلباوم : حضارة الاسلام ترجمة جاويد ص ٤٢ : ٤ ، فازيلييف : بيزنطة والاسلام – فصل من كتاب Byzantium ملحق بترجمة الدكتور مؤنس وزايد بكتاب بينز : الامبراطورية البيزنطية ص ٢٨١ •

(٩٠) فازيلييف : العرب والروم – ترجمة دكتور شعيرة ص ١٩ •

منظومة كالشاهنامة — على أن لغة العجم بالنسبة اليها كقطرة فى بحرها ». وكان ابن الأثير يرى ان « العجم يفضلون العرب فى الاسهاب » (٩١) .

ولقد أثرت حروب المسلمين والبيزنطيين فى أدب كلا الفريقين ، ولم يبرح شعور العداء بينهما يشتد بين حين وآخر ، ونعم المسلمون بانتصارات باهرة عاشوا على ذكرياتها طويلا ، والأدب تسجيل للمشاعر والمفاخر ، أما البيزنطيون فقد كابدوا أهوال المخاطر وأوشكت امبراطوريتهم أن تنتهى تماما على يد العرب ثلاث مرات على الأقل — على حد تعبير جرنيباوم « سنة ٦٦٨ م ، ومن حوالى سنة ٦٧٣ م الى سنة ٦٧٩ — ٦٨٠ م ، وفى سنة ٧١٦ — ٧ م » وكان الخطر الاسلامى ماثلا على الدوام فى مخيلة كل بيزنطى ... والأدب البيزنطى يعكس الينا صورة جلية لهذه الحالة ولاريب ان حرب الثغور التى لم يكن ينطفىء لها مع الروم أوار قد تركت آثارها فيما سطر العرب ولم يقتصر الأمر على أن يشيد الشعراء بمعارك لعب فيها سادتهم دورا مشرفا ، بل ان أحداثا وشخصيات تتصل بهذا الكفاح الذى لم ينته قط الى نتيجة حاسمة قد أدخلت فى القصص الشعبى — كما تشهد بذلك رواية الملك عمر بن النعمان التى أضيفت فيما بعد الى كتاب ألف ليلة وليلة — بيد أن هذه الشواهد على الاهتمام المعاصر تبدو غير ذات بال اذا قورنت بصورة تلك الأحداث عينها ، كما انعكست فى الملحمة الشعبية Epic عند البيزنطيين. **فالأدب العربى لا يعوزه فحسب مؤلف من طراز وجدارة الملحمة اليونانية التى تتركز حول ديجينيس أكريتاس بطل حرب الثغور بل ان جو مناطق الثغور الخاص وطريقة الحياة فيها فى صورتها التى لا نشك انها تطورت اليها لم يجد لسانا يعبر عنهما فى كل من الشعر والنثر العربيين** . والواقع أن الأدب العربى قد أخذ اتجاهه يتحول بمرور الزمن شيئا فشيئا ويصبح أدب عواصم ... » (٩٢) ولعل ذلك كان أوضح ماكان أيام الحمدانيين فى قصائد المتنبى وأبى فراس .

لقد خلفت الاشتباكات العسكرية نموذجا لبطل قومى يتصف بالبسالة والاقدام والكرم وأصبح لبعض هؤلاء الأبطال شخصيات أسطورية وهبت قوى خارقة غير طبيعية وتقوم بأعمال عجيبة . وتدور ملحمة البطولة البيزنطية المشهورة التى نشأت حول شخصية **ديجنيس أكريتاس** Digenis Akritas وهى من ملاحم أعمال الأبطال ووقائعهم

(٩١) دكتور الحاسنى : شعر الحرب فى أدب العرب ص ٥ ، ١٤ ، ١٧ .

(٩٢) جرونيباوم : حضارة الاسلام — ترجمة جاويد ص ٢٥١ — ٢ .

Chanson de geste – تدور حول أعمال بطل قومى بيزنطى هو شخص حقيقى قتل فى معارك البيزنطيين مع المسلمين فى آسيا الصغرى سنة ٧٨٨م على مايستبين فازيلييف . وقبر البطل نفسه غير بعيد عن سميساط . وهذه الملحمة وما يسمى بالأغنيات الشعبية الأكريتية – نسبة لاكريتاس – تصور الحروب بين المسلمين والبيزنطيين تصويرا رائعا ودقيقا فى حالات كثيرة ، وخاصة حروب القرن التاسع م وعندما انتصرت الجيوش الاسلامية سنة ٨٣٨ م – سنة ٢٢٣ هـ على البيزنطيين انتصارا عسكريا عظيما فى عمورية بفريجيا . وقد انتهت الابحاث فى اشـــعار البطولة البيزنطية والعربية والتركية الى نتيجة هامة « وهى مسألة **الارتباط الوثيق بين ألف ليلة وليلة وبين شعر البطولة اليونانى وملحمة سيد البطال التركية – التى لم تدخل فى دائرة الشعر التركى الا بعد نقلها الى اللغة التركية وأصلها عربى .** فملحمة ديجينيس اكريتاس اليونانية مصدر غنى للمعلومات عن العلاقات الثقافية بين بيزنطة والعرب » (٩٣) . ونحن نجد فى الأدب الأسبانى صورة مشابهة فى قصة السيد الكنبيطور أو القمبيطور » ومعناه صاحب الفحص واسمه لذريق » – كما يقول ابن عذارى ، فهى اذن Cámpeador من Campus وهو الفحص ومقابل اللفظ فى اللاتينية Campidoctus أى قائد الغارات فى بلاد الأعداء . ويظن أنه ولد سنة ١٠٤٥ م – أى بعد زوال الخلافة القرطبية بخمس عشرة سنة ، وقد حارب مع المسلمين وعرف لغتهم ووجد عندهم المأوى عند تشريده . ثم انقلب عليهم فى قسوة وأعمل فيهم تقتيلا وتحريقا . والعجيب أن مثل هذا الشخص قد تحول بعد موته بقرن الى شخصية أسطورية لأجمل صفات البطل القـــومى الأسبانى ! ونسج القصاصون والشعراء حول حياته أروع ملاحم البطولة الأسبانية وهى قصيدة السيد El Poemadé Mio Cidh ، وقد أحدثت مغامراته دويا أعان عليه ظهوره فى فترة الصراع بين قشتالة وليون على الســيادة فى ايبريا وتزعمه القشتاليين ضد الليونيين ، وتكونت اسطورته بعد فترة بلغ فيها نفوذ غاله (فرنسا) أقصاه فى أسبانيا عن طريق الفرسان والرهبان الذين استعان بهم ملوك أسبانيا وأطلقوا أيديهم فى الكثير ، فضلا عن كفاحه ضد المسلمين الذى يثير الحماس ، فمضى القصاصون والمنشدون ينشئون حوله الأقاصيص والأشعار . وقد ظهرت (قصيدة السيد) – احدى الأناشيد والقصائد والملاحم التى تدور حول هذه الشخصية – بعد

(٩٣) فازيلييف : بحث بيزنطة والاسلام من كتاب Byzantium ملحق بترجمة دكتور مؤنس وزايد لكتاب بينز : الامبراطورية البيزنطية ص ٣٨١ : ٣ .

ملحمة رولان بأربعين سنة ، وكلتاهما أنشودة أعمال ووقائع Chanson de geste وكلتاهما من الشعر القصصى الشعبى الطويل النفس · وقد كتبها شاعر أسبانى مجهول لابد أنه قرأ ملحمة رولان وغيرها من أناشيد الأعمال الفرنسية وأنشأ قصيدة على غرارها ويغلب أن يكون هذا الشاعر مستعرب من مدينة سالم Medinaceli على الحدود بين مملكة قشتالة وامارة سرقسطة الاسلامية اذ ذاك وقد فرغ منها سنة ١١٤٠ م أى بعد وفاة السيد بأربعين عاما · وتتناول الملحمة فترات مختلفة من حياة السيد من صباه الى أواخر أيامه ، وتصور السيد بطلا محاربا شجاعا يجرى وراء الارض والمال ، ولا يغلب عليها الطابع الدينى كملحمة رولان ولا تصور المسلمين أشرارا أشقياء ، بل مدار الحديث هو الصراع بين القشتاليين والليونيين ، وان كانت القصيدة تصور السيد مسيحيا صادقا مخلصا · وتعطى القصة عن البطل صورة تختلف عن صورته فى التاريخ من نواح وتتفق معه فى نواح أخرى (٩٤) ·

ويفترض الأســــتاذ مافروجورداتو Mavrogordato للوقائع التى دارت حولها ملحمة ديجنيس زمنا هو **القرن الواقع بين عامى ٨٦٠م-٩٦٠ م، وقد جرت احداثها فى أعالى الجزيرة بين سميساط وملطية وفى كبادوكيا أيضا** ؛ وقد نظمها الشاعر فى فترة أعيد فيها الهدوء الى حدود البيزنطيين على الفرات ، مما قد يشير الى عهد قسطنطين التاسع Constantine IX Monomachus (١٠٤٢ : ١٠٥٤ م) أى أواسط القرن الحادى عشر وتشغل الملحمة مكانا خاصا فى الأدب البيزنطى ، فهى ليست صورة لصراع دنيوى بين الشرق والغرب ، فقد كان هذا شيئا غير مفهوم فى العالم البيزنطى وقد جلب بطل الملحمة الذى خلع عليها اسمه ووصفه السلام الى حدود الامبراطورية · وتمثل الملحمة بأقاصيصها وأناشيدها المتشابكة نقلة فى الادب اليونانى بين العصرين الوسيط والحديث · وهى لا تتابع التواريخ البيزنطية والحوليات المحلية وحدها ولكنها تساير — الى حد ما — الكتابات الهلينيستية غير المنظمة ومجموعة من الأدب الشعبى الذى لازال كثير منه متداولا فى العالم اليونانى · وتروى الملحمة قصة أمير عربى من الشام كان راكبا فى كبادوكيا على الحدود فأسر ابنة قائد رومى من أسرة دوكاس Doukas التى كانت قد أبعدت عن ديارها وضياعها · وقد هرع الاخوة الخمسة للفتاة واسمها ايرين لاستنقاذها من الأمير العربى واسمه

---

(٩٤) دكتور مؤنس : السيد القمبيطور وعلاقاته بالمسلمين — المجلة التاريخية المصرية م ٣ ع ١ مايو ١٩٥٠ ·

منصور الذى طلب أن يتزوجها على أن يحضر مع أتباعه الى بلاد الروم •
وذكر الأمير أنه ابن لرجل يدعى Chrysocherpes ، وابن أخ لمن يدعى
Karös وحفيد للأمير الكبير Ambron ، كما ذكر أن أباه قد توفى ،
وأن أعمامه العرب قد حولوه الى الاسلام • وقد وافق الاخوة على تزويج
اختهم من الأمير العربى منصور ، وعاد الجميع فرحين الى بلاد الروم حيث
جرى تعميد منصور وزواجه من ايرين • **ومن ذرية الزوجين السعيدين
ولد باسيل الذى عرف فيما بعد بديجنيس ــ لأنه ولد من تزاوج عنصرين،
واكريتاس ــ لأنه اختار المعيشة وحده على الحدود** • وقد كان بارونات
الحدود Akritae يلحقون بالفرق الموكلة بحماية الممرات Kheisurai
ــ وأحيانا يوضعون تحت قيادتها ــ ومن هؤلاء ديجينيس بطل الملحمة
الذى شن حملات دائمة على العرب بجهده الخاص، وان كان من المحتمل
أن يكون قد التحق بالجيوش الامبراطورية فى أية حملة منظمة • وقد
كتبت اليه أمه تعاتبه من ادسا (الرها) فزارها أخيرا واصطحبها مع أفراد
بيته جميعا عند عودته ، وتختص الكتب الثلاثة الأولى من الملحمة بالحديث عن
الأمير والد منصور المسيحى البولسى الذى مزج بزواجه بين جنسين وعقيدتين
بينما يتجه الكتاب الرابع من الملحمة الى باسيل ، فيصف كيف عرف
الوحوش واللصوص لأول مرة ، وكيف خطب الدوكيا Evdokia من أسرة
دوكاس اذ انتزعها ليلا الى العرس فى قلعة أبيه وأجبر أباها واخوتها على
القبول ، ثم ركب العروسان ليعيشا وحدهما وقد بدد ديجينيس شمل
اللصوص ونشر الســـلام على طول حدود الامبراطورية • وقد وصلت
شهرته مسامع الامبراطور الذى سار الى الفرات ــ وهو يذكر هنا لأول
مرة ــ لتهنئة الفارس البطل وتكريمه ، وهناك ألقى على مسامعه ديجينيس
درسا فى واجباته الامبراطورية • ويلى ذلك كتابان يضمان مجموعة من
أقاصيص البطولة غير مفصلة ، فنقرأ تارة قصة حماية البطل لعروسه من
الوحوش المفترسة ، وأخرى نسمع البطل يصف شــــيئاً من مغامراته
السالفة فى الحرب • وقد بنى ديجينيس قصرا على ضفة الفرات وزرع
حديقة ، وهناك عاش مكرسا مايملك للعمل الصالح وحفظ السلام ، وتوفى
فى نفس المكان وهو يستعيد على مسامع زوجه ذكريات مغامراته ، وقد
لحقت به الزوجة التى لم تســـتطع العيش بدونه • وقد جرى تحقيق
شخصيات الملحمة وتم التعرف على بعضها ، فوالد الأمير منصور الذى
يدعى Chrysocherpes هو Chrysocheir أحد قواد الطائفة البولسية الذين
عرفهم العرب باسم البيالقة وقد انهزم أمام جيش بيزنطى سنة ٨٧٣ م
أما عم الأمير المســـمى Karös فهو Karbeas (قربيـــاس) أحد قادة

البيالقة ، وجد المنصور المسمى Ambron هو أمير ملطية عمر الاقطع الذى حالف البيالقة وانما تذكـر قادتهم على البيزنطيين • على أن الملحمة لا تعرض لهرطقة البيالقة وانما تذكـــر قادتهم كأعداء شجعان يصعب تمييزهم عن العرب فى سياق الوقائع • وان فكرة الأصل المزدوج فى مولد العظماء كالاسكندر وغيره هى من ايحاء الفكر الاغريقى الشرقى ، وقد أكد المؤرخون البيزنطيون مثلا الأصل المزدوج فى مولد ليو الخامس (٨١٣ : ٨٢٠ م) وباســـيل الاول (٨٦٧ : ٨٨٦ م) • ولعل الشـــاعر كان لديه شيئا من حوليات بعض المدن مثل أدسا (الرها) وسميساط ، وربما كان لديه أيضا بعض الحوليات الشعبية الشعرية مثل تلك التى ظهرت فى كريت فيما بعد على أثر ثورة سنة ١٧٧٠ م • ولعله وجد فى أرض الجزيرة Mesopotamia رصيدا اسطوريا خلفته القرون المتتابعة على الشرق الأدنى ، وتناقلتها لغات أخرى وأعادت صياغتها • وقد ولج الى المصادر الأدبية والشعبية ، وقد امتلك فضلا عن ذلك ملكة عقلية لمزج كليهما فى قالب الملحمة الشعرى الشعبى • وعلى الرغم من أن الشاعر يفتقد العمق العاطفى ، فقد كان لديه من الاصالة مايعطى روايته هدفا ، فهى تنشد صلاحية الحكم وضمان السلام عن طريق تحالف المسيحى والعربى ••• والقصيدة تكرر نفس القصة مع ولد بعد ولد ، وكل من الأب والابن بطل ، وليس أحدهما مسيحيا نقيا أو عربيا نقيا ، ولكنه جمع خير مافى الاثنين • **ان فى ديجينيس اكريتاس قصة مزدوجة ذات أصل مزدوج ورواية تعكس صورة التحالف القـــديم بين عرب الشام والنصارى البيالقة فى كوماجين وكبادوكيا تسوقه رسالة للسلام على الحدود التى أكلتها الحروب فى شرقى الامبراطورية البيزنطية** » (٩٥) • ويبدو من الملحمة أن المصاهرة بين الفريقين لم تكن شيئا مستغربا ، ويذكر أنه كان لجون تزيمسكس John Tzmisces علاقة liaison بسيدة من آمد (٩٦) •

***

واذا كان هذا صدى الاشتباكات الحربية بين المسلمين والبيزنطيين فى أدب الروم فما يكون صداه فى أدب العرب ؟؟

لقد كان من أوليات **الشعر الحماسى** الذى قبـــل فى حرب العرب للروم ما قاله أسعد الكامل فى رواية عبيد بن شريه وهو من الفرسان الشعراء :

(٩٥) B.yzantium. pp. 245:9, 299.

(٩٦) Runciman : Byz. Civ. p. 234.

وغسان جازوا الروم كلهـــا وفى الروم صيرنا الملوك الأقاولا
فدوخت أرض الروم حتى نزلتهـا ثنايا طحون علوها والأسافلا(٩٧)

لكن لا نجد أصداء مبكرة فى شعر العرب لحروبهم مع الروم ، فمن المؤكد أن طبيعة الحياة التى عاشها المسلمون أول العهد بالفتوح لم تكن لتساعد على قولة الشعر ، استأثرت هذه الفتوح باهتمــــاماتهم الداخلية واستنفدت طاقاتهم النفسية ، وكانت هذه التجارب التى مروا بها تتيح لهم اختزان ثروة المواد الأولى فى العمل الفنى ، واكتساب المسارب الجديدة التى يسكبون فيها انفعالاتهم والمشاهد التى تثير اعماقهــم ، غير اننا لم نجد فى التليد الشعرى ما يدلنا على استفادتهم منهـــا واســـتخدامهم لها ٠٠٠ آية هذا ان حركات الاستنفار للجهـــاد حالت بين العرب وبين الاستقرار ، والقت على اكتافهم اعباء ثقالا ووضعت فى طريقهم عقبــــات ومصاعب ، وتركتهم يصطرعون مع هذه المصاعب ويتوزعون هذه الأعباء ، ولذلك تركزت قواهم المادية والمعنوية فى هذه المعارك التى امتحنوا بها وتبلورت فيها كل مواهبهم النفسية ، واستطاعت حركة الفتوح هذه بما واكبها من الق العقيدة أن تجمع حولها كل مطامحهم فى النجاح ومطامعهم فى الفوز ٠ ويبدو أن ما تناقله الرواة من شعر الفتوح حظه من الثقة قليل ، وأن كثرة منه انما جاءت بعد من عمل الرواة والمنتحلين ــ تزيينا لحوادث الفتح وزخرفة لها ، وأنه حين استقر بالمســــلمين المقام وبدأت حياتهم العلمية أول طريقها فى التدوين ، وكانت المغازى والسير بعض هذا التدوين المبكر ، أصاب الشعر الذى قيل فى الفتوح هذا التزيد فيه والبناء عليه والاكثار منه فى أعقاب كل واقعة ٠ فاذا هو لا يكاد يغــادر معركة من المعارك ولا خبرا من الأخبار الاذيله ببعض هذا الشعر يتخذ منه حلية حينا وشاهدا على صحة مايرويه حينا آخر ٠ ويبدو كذلك أن التنازع الذى آل اليه أمر الفاتحين فى بعض الأقطار قد لعب دوره فى هذا التزيد الشعرى ، ٠ ويلتقى شعر الفتوح فى نوعين كبيرين : شعر البطولة وشعر المواجد ، ومن ورائهما الرجز ٠ فشعر البطولة يشيد باقدام الشاعر أو قوة الكتيبة ، وفى سبيل ذلك يصور قوة المعارك وشدة اللقاء وكبريات الأحداث ، ولا يخرج شعر البطولة هذا عن أن يكون لونا من الوان الفخر الذى عرفته الحياة الجاهلية ، غير أنه هنا قد اكتسى هذا الصبغ الاسلامى الخفيف أو القوى ، فهو يتحدث عن الاســـلام والدين ، وهو يذكر الله والرسول وهو يصدر عن روح الجماعة أكثر مما كان الشعر الجاهلى يصدر

(٩٧) دكتور المحاسنى : شعر الحرب فى ادب العرب ص ١٥٣ ٠

عن روح الفرد أو القبيلة ، وأما شعر المواجد فهو تعبير عن أشـــواق الشاعر الى مواطنه وأهله ، وقد تثيرها مشاهد يراها أو أحداثا يكابدها . وتشارك الرجز هذين النوعين في الموضوع وتخالفهما في الشكل ، وكان الشاعر يرتجز حين يتصدى للبراز أو القتال او يحن للغناء « ولربما كان هذا الرجز في هذا الدور هو الصــورة القريبة للسـليقة الشعرية التي غادرت الجزيرة والتي كان يتنفس بها العاديون من الشعراء أو من الذين يريدون أن يقولوا الشعر ، على حين كانت المقطعات والقصائد هي سبيل المتازين من الشعراء وطريقهم الى التعبير والتصوير » . والواقع أن أكثر شعر الفتوح لم يكن يعدو في جملته الطوابع الجاهلية « ولم يكن ليجاوزها الا في خطى ضئيلة قصيرة ، وكانت هذه الخطى ظلالا للفكرة الاسلامية وللجماعة الجديدة من نحو ، كما كانت سبيله ـ بعد من نحو آخر ـ الى الشعر الاسلامي الذى ستتغنى به العرب في الأمصار » (٩٨) .

وفي العصر الأموى تذكر القصص **شجاعة يزيد بن معاوية في حصار القسطنطينية الأول** فقد أرسـله أبوه سنة ٤٩ هـ سـنة ٦٦٩ م لمعاونة الحملة البرية التي كان يقودها فضالة بن عبيد الأنصارى والتي عسكرت سنة ٦٦٨ ـ ٩ م في خلقدونية ضاحية بيزنطة الآسيوية ، وقد رفع حصار يزيد وفضاله في الصيف . ويروى أن يزيد اظهر من الشجاعة والقوة أسفل جدران القسطنطينية ما أكسبه لقب (فتى العرب) ، ونقل صاحب الأغاني أن صيحات التهليل كانت تسمع على التعاقب من خيمتين عندما كان يقدم العرب أو البيزنطيون في المعركة . ولما علم يزيد أن في احدى الخيمتين ابنة ملك الروم وفي الأخرى ابنة جبلة بن الأيهم ، ابدى نشاطا خارقا للعادة طمعا في سبى ابنة ملك الغساسنة . ولـكن بطل القصـة الحقيقى في تلك الحملة كان أبا أيوب الأنصـــارى الذى نزل عنده رسول الاسلام في هجرته للمدينة وكان صاحب لوائه في القتال .

ويروى أن أبا ايوب ثقل بعد أن صار جيش العرب على خليج في درب الروم ، فعاده يزيد فقال له : ماحاجتك ابا ايوب ؟ فقال : اما دنياكم فلا حاجة لى فيها ، ولكن قدمني ما استطعت في بلاد العدو ، فاني سمعت رسول الله يقول : (يدفن عند سور القسطنطينية رجل صالح) ـ أرجو أن أكون هو . ولكن المنية ادركت أبا ايوب دون أسـود القسطنطينية ، فامر يزيد بتكفينه وحمـلته الكتائب على سرير حتى جاوز الأسـوار

(٩٨) دكتور شكرى فيصل : المجتمعات الاسلامية ص ٣٤٣ : ٩ .

الموعودة ورأى قيصر سريرا محمولا والناس من حوله يقاتلون ، فارسل الى يزيد يسأله الخبر ، فأجابه : هذا صاحب نبينا وقد سألنا أن نقدمه فى بلادك ونحن منفذون وصيته أو تلحق أرواحنا بالله ٠ فارسل اليه قيصر: ابوك كان أعلم بك ، فوحق المسيح لأحفظنه بيدى ٠ ويقول صاحب العقد الفريد : ان قبر ابى ايوب كان معروفا فى القسطنطينية الى يومه ، فبنى عليه قيصر قبة يسرج فيها (٩٩) ٠ والأخبار المنقولة تؤكد أنه أصيب فى أثناء الحصار بزحار أودى به ، وأن قبره الذى قيل انه خارج المدينة لم يلبث ان غدا مزار النصارى الروم يقصدونه متى أصابهم جفاف لاعتقادهم بأن الابتهال فيه الى الله يستنزل المطر ويأتى بالرى ٠ وقيل أن الأتراك العثمانيين عندما حاصروا القسطنطينية بعد ذلك بزمن عثروا على هذا القبر ، اذ هدتهم اليه اشعةعجيبة ـ مما يذكر بقصة كشف الصليبيين الأول للحربة المقدسة فى انطاكية وقد أقيم عنده مسجد ، فغدا رجل القسطنطينية يتبرك به العرب والروم والترك (١٠٠) ٠

فاذا تجاوزنا هذه الروايات لا نجد رصيدا شعريا إسلاميا كبيرا يسجل الوقائع الحربية المجيدة التى خاضها الأمويون ضد الروم ٠ وان وجدنا اشارات سريعة الى **معارك مع الروم وردت فى ثنايا بعض القصائد** فحين مدح نابغة شيبان الوليد بن عبد الملك ذكر أخاه مسلمة وحصاره للقسطنطينية وبلاءه فى جهاد الروم :

اخرى (طرندة) منه وابل برد	وعسكر لم تقده العزل الجوف
مازال (مسلمة) الميمون يحصرها	وركنها بثقال الصخر مقذوف
وقد احاطت بها ابطال ذى لجب	كما أحاط برأس النخلة الليف
حتى علوا سورها من كل ناحية	وحان من كان فيها فهو ملهوف
فاهلها بين مقتول ومستلب	ومنهم موثق فى القد مكتوف
تدعو النصارى لنا بالنصر ضاحية	والله يعلم ما تخفى الشراسيف

وعرج الأخطل على قتال الروم فى طريقه لمدح الوليد بن عبد الملك ، فأفاض فى وصف الخيل التى ذهبت به مجتازة صحراء تدمر الى بلاد الروم ٠

---

(٩٩) دكتور المحاسنى : شعر الحرب فى ادب العرب ص ١٥٣ ٠

(١٠٠) حتى : تاريخ العرب ـ ترجمة نافع حـ ١ ص ٢٥١ ـ ٢ تاريخ سوريا حـ ٢ ترجمه دكتور اليازجى ص ٤٦ ـ ٧ ، دكتور المحاسنى : شعر الحرب فى ادب العرب ص١٠٩ عن قبور الصحابة في القسطنطينية هناك بحث لشنيدر أورده دكتور المنجد في المنتقى من دراسات المستشرقين ٠

وفي كل عام منك للروم غزوة بعيدة آثار السنابك والسرب
وان لها يومين : يوم اقامة ويوما تشكي القض منحذر الدرب

ويذكر الأخطل حرب الروم في سياق هجائه لقيس عيلان ويمدح الوليد في قصيدة أخرى :

يكفيه الأعنة لا سؤوم قتال الأعجمين ولا ضجور
قتلت الروم حتى شذ منها عصائب ما تحرزها القصور

وفي قصيدة ثالثة يفخر الأخطل بغزوات الوليد للروم وفتحه بلادهم بشجعانه وجيوشه :

وان اتعرض للوليد فانه نمته الى خير الفروع مضاربه
وما بلغت خيل امرىء كان قبله بحيث انتهت آثاره ومحاربه
وتضحي جبال الروم غبرا فجاجها بما اشعلت غاراته ومقانبه

على أن الشعراء لم يعطوا معارك الروم حقها في العصر الأموي كما فعلوا في العصر العباسي ، وقد لاحظ ذلك الدكتور المحاسني فقال : « ان الرقعة التي تقع بين القسطنطينية وانطاكية كانت مسرحا لحرب العرب مع الروم زمن بني أمية ، ولقد فتح العرب منذ أيام خالد بن الوليد الى أيام مروان بن محمد بلادا كان فيها الصقالبة واللان والفرنجة . ومن هذه البلاد اماسية وخرشنة وعمورية وسلوقية وقيسارية والمصيصة ، وفيها حصون فتحها العرب كحصن بولق والأخرم وبولس وقمقم وحصن المرأة ، وفي كل ذلك شاحذ للشاعر الأموي ليقول في آثار العرب بحربهما . ولعل شعراء قد قالوا شعرا في تلك الحروب ووصفوا هاتيك الأصقاع زمن الأمويين ، ولكن لم يبلغنا من شعرهم الا القليل تتنسم فيه روائح البطولة العربية في ديار الروم » (١٠٢) واشتهر في ادب الحروب الاسلامية ضد الروم في العصر الأموي **عبد الله البطال** ، وكان كبير حراس مسلمة في حصار القسطنطينية ٧١٦ ـ ٧ م ايام سليمان ، وقد الهب خيال الاخباريين - وتسبب الى مسلمة أنه بنى مسجدا في ابيدوس حيث رابط جيشه واحدث عين ماء هناك عرفت باسمه ، بل زعم أنه بنى مسجدا في القسطنطينية وفرض على الروم بناء بيت لأسرى العرب في جوار القصر الامبراطوري ودخل كنيسة القديسة صوفيا على ظهر فرسه . **أما البطال** فقد ذكر الطبري مقتله بأرض الروم مع جماعة من المسلمين سنة ١٢٢ هـ

(١٠٢) دكتور المحاسني : شعر الحرب في ادب العرب ص ١١٢ : ٤ .

(معركة اكروئينون بآسيا الصغرى سنة ٧٤٠ م) وقد صار هذا البطل الاسلامي فيما بعد النموذج الحي للبطل القومي الاسطوري سيد بطال غازي الذي لايزال قبره قائما في قرية جنوبي اسكي شهر (دوريليوم Dorylaeum في العصور الوسطى) بآسيا الصغرى . وقد أجله أبناء الاقليم من النصارى الروم وقدسوه ومثلوه في كنائسهم . وتظهر في ثنايا الرواية التركية المتأخرة عن السيد البطال اشـــارات واضحة الى الاحداث التاريخية في القرن التاسع الميلادي مما يكشف عن أصلها ، فهي تشير مثلا الى بابك وقتئذ . وقد توصل ماريوس كنار في قصة الفروسية العربية المسماة (بذات الهمة) الى مادة وفيرة اختلطت فيها وقائع التاريخ بخيال الأساطير وانتهت الى آثار تماثل المعروف عن السيد البطال وهكذا كانت جهود كنارفي التنقيب عن أدب الملاحم أو الفروسية العربية ذات قيمة كبـيرة . وقد اثبتت **أن هذا الأدب كان انعكاســا ادبيــا للحروب العربية الرومية** . وقد كانت الحملات الاسلامية المعروفة ضد القسطنطينية أربعة : ثلاث منها في العصر الأموي أيام معاوية ثم سليمان ، ومن هذه الحملات الثلاثة حملتان ضربتا حصارا حقيقيا حول المدينة احداهما حملة يزيد (٤٩ هـ ــ ٦٦٩ م) في عهد ابيه معاوية والأخرى حمـلة مسلمة (٩٨ هـ ــ ٧١٦ م) في عهد أخيه سليمان . أما الحملة الرابعة فقد شهدها العصر العباسي بقيادة هرون في عهد ابيه المهدي (١٦٦ هـ ــ ٧٨٢ م) غير أن الروايات التركية تجعل الحصارات ما بين سبعة وتسعة ، وتنسب منها اثنين الى هـــرون . وكان حمـلات القسـطنطينية مثارا لقصص الفروسية العــربية في (**ألف ليلة وليلة**) وغيرها ، خاصة في زمن الحروب الصليبية ثم جاءت ابادة جيش ملطية بقيادة عمر الأقطع فيما بعد ــ في عهد المتوكل العبـاسي ــ وهي التي تعد أكـــبر هزيمة لجيش الاسلام الى العهـــد الصليبي فتركت أثرها الدامي في الملاحم العربية ، الذي يبدو في الرواية العربية التركية عن (السيد البطال) وفي (ألف ليلة وليلة) (١٠٢) .

وتعتبر سيرة « **الاميرة ذات الهمة** » من أضـخم ما وصلنا من أدب شعبي عربي ، ان لم تكن أضخمها من ناحية الحجم على الاطلاق اذ تقع في

(١٠٢) فازيلييف : بيزنطة والاسلام . بحث من كتاب Byzantium ملحق بترجمة دكتور مؤنس وزايد لكتاب بينز : الامبراطورية البيزنطية ص ٢٨٢ ، حتى : تاريخ العرب ــ ترجمة نافع جـ ١ ص ٢٥٤ : ٦ ، جـ ٢ ص ٣٧٨ ، تاريخ سوريا جـ ٢ ترجمة دكتور اليازجي ص ٥١ ــ ٢ ،
Vasiliev : L'Emp. Byz. Vol. I. pp 314, 316.
مقدمة جريجوار لكتاب فازيلييف : العرب والروم ترجمة دكتور شعيرة ص ٣ ــ ٤ .

٧٠ جزءا ضخما من القطع الكبير، وتعتبر صدى روائيا للاحداث التاريخية الهامة التى دارت بين العرب والروم فى صراعهما الطويل . ويقول **فاژيليف** « ان ابادة جيش ملطية العظيم الذى كان يقوده عمر الاقطع تعد اكبر هزيمة لحقت الاسلام الى العهد الصليبى وقد تركت أثرها الدرامى فى الملاحم العربية وبقى هذا الاثر الى أيامنا فى الرواية العربية التركية المسماة : « **السيد البطال** » ويقول **هنرى جريجوار** « لقد اكتشف الاستاذ **كانار** فى رواية الفروسية العربية المسماة **بذات الهمة** مادة وفيرة ما تزال زاخرة بالتاريخ تحللت شيئا فشيئا فى ثنايا الاساطير وانتهت الى مثل **سيرة السيد البطال** ، بعد أن كان المستشرقون يظنون أنها آثار لا تحد بمكان ولا تاريخ . والسيرة التى بين أيدينا اسمها بالكامل « سيرة الاميرة ذات الهمة وولدها الامير عبد الوهاب . والامير أبو محمد البطال وعقبة شيخ الضلال وشو مدرس المحتال » . ولم يصل المستشرقين الا نصوص مبعثرة من جزء من أجزاء هذه السيرة المطولة ، اعتمدوا عليها فى دراستهم لأصداء الصراع بين أبناء منطقة الحدود الاسلامية البيزنطية من عرب وروم . ولم تلق السيرة من الدارسين العرب ما تستحقه من اهتمام حتى تقدمت الدكتورة نبيلة ابراهيم ببحثها عنها لنيل درجة الدكتوراة من جامعة توبنجن بالمانيا الغربية .

وبالطبع ليست « سيرة ذات الهمة » كتاب تاريخ ، وانما تقدم من خلال سردها لقصص بطولة الفرسان سمات المجتمع العربى الاسلامى فى صراعه مع الروم ، وفى احداثه الداخلية وتغلغل النفوذ الفارسى ثم التركى فى أجهزة الحكم ، كما تقدم صورة حية لمنطقة الثغور والعواصم الاسلامية وأبنائها المرابطين على الحدود ، وذلك الى ما تقدمه من صورة مشرقة للمرأة العربية التى تحافظ على عرضها وتبقى على وفائها وتقود الجيوش وتنتزع الفرسان .

و « سيرة الاميرة ذات الهمة » تبرز مشكلة **قبيلة بنى كلاب** التى تصطلى بنيران الحرب على الحدود دون أن يكون لها شأن فى أحداث الدولة العربية ، ولم تكن القبيلة راضية عن وضعها وانما كانت راغمة بعد أن زاحمتها عناصر دخيلة فى أرضها ووجدت هذه العناصر من الحاكمين عونا ونصيرا ، فنزحت الى منطقة « **الثغور** » **حيث اتخذت** « **ملطية** » **موطنا لها** ، وهذا ما تحكيه السيرة وتؤيده روايات المؤرخين مثل القلقشندى فى « صبح الاعشى » .

وتبدأ السيرة بذكر **الاجداد** ، فتتحدث عن سيرة الحارث الكلابى ، ومن بعده جندبة ثم الصحصاح ، وأعمالهم البطولية فى قلب الجزيرة

وخارجها • ثم تروى رؤيا الصحصاح التي تنبأت بأنه سيرزق بولدين : **أحدهما ظالم والآخر مظلوم** • وتحققت الرؤيا ، وولد لظالم (**الحارث**) الذي ورث عن أبيه ظلمه وغشمه ، وولدت لمظلوم بنت أقصاها أبوها خشية شماتة أخيه • وفي منفاها بين الغرباء ترعرعت « **فاطمة** » التي سرعان ما بدت ارهاصات مستقبلها وبطولتها • ولقد عرفت أهلها وانضمت الى قومها في صراعهم ضد « ظالم » ، وهنا وقع ابن عمها « الحارث » في غرامها ولكنها رفضت الزواج منه ، فأعمل الحيلة والغدر لبلوغ ماربه • **ونجح الحارث في الزواج من فاطمة التي أبدت كل صور الاباء حتى أطلق عليها عندئذ « ذات الهمة » ، ولم تكن تضع ابنها « عبد الوهاب » حتى اعتزمت النزوح مع قومها الى « الثغور » جهادا للعدو** فلم يجد زوجها ما يعرقل به مسعاها ويسيء الى سمعتها الا باشاعة أن « عبد الوهاب » ليس ولده ، وهنا أرجأت ذات الهمة رحيلها حتى ترد على قالة السوء ، واستطاعت بمعونة أهل الفراسة والكهانة أن تثبت براءتها • **وحينذاك رحلت الى « ملطية » على رأس جيش** كبير لتشرع في جهادها العظيم ضد عدو الخارج ، بعد بلائها المبين ضد عمها الظالم •

وقد اعتزم « بنو كلاب » بزعامة « ذات الهمة » أن يواجهوا الخليفة بمفاسد الحكم من وجهة نظرهم حتى يحددوا موقفهم منه في مراكزهم الامامية التي يرابطون فيها : هل يستقلون بجهودهم أم ينضوون تحت لوائه • وتروى السيرة أنه في عهد المأمون ثار ثائر على الدولة البيزنطية ونجح في أن يجمع حوله جيشا قويا ـ لعله توماس الصقلبي ـ ولم تر ذات الهمة في هذا الثائر ولا في ثورته كسبا لدولة الاسلام في شيء ، بل رأت صالح قومها ودينها في معاونة بيزنطة على كسر الخارج عليها بعد أن لوحت لمجاهدي الثغور من بني كلاب بـ «عمورية» مقابل مهادنتهم للروم حتى يقمعوا الثائر • فلما تم الاتفاق بين الجانبين ، سخط المأمون وتهدد بني كلاب ، فكان من رد ذات الهمة عليه « ••• ودعنا في وجوه الكفرة ـ لا لك ولا عليك ، ولا تلع علينا فيخرج الامر من يديك ويدينا » • وانفذ بنو كلاب خطتهم ، ولما قمع الروم فتنة الخارج عليهم واصل مجاهدو الثغور جهادهم من جديد •

ولقيت بنو كلاب نعم الظهير والنصير في « محمد البطال » من بني سليم الذي تشير المراجع التاريخية الى بطولته ، كما تحكي المراجع البيزنطية أن الروم كانوا يعلقون صورته في الكنائس والاديرة حتى يبدو شكله معروفا فلا يتسلل بين عدوه وينفذ فيه حيله وآثر محمد البطال الجهاد في صفوف بني كلاب بعد أن شهد تواطؤ قومه مع منافق عدو

للاسلام ودولته يدعى عقبة السليمى وهو فقيه مسلم ارتضى أن يبيع آخرته بدنياه ويتستر بالدين والعلم فى حين يوالى العدو • وكان السيد البطال من أهل الكيد لا من أهل الضرب ، وتروى عنه السيرة قوله «أناماصناعتى الحرب والطعن والضرب ، وانما صناعتى الحيل والخداع فى حصن أو قلعة » ، وقد كان يجيد التنكر والتحدث بلغة الروم وتلاوة الانجيل • وهكذا اجتمع لبنى كلاب « همة » الزعيمة وقوة شخصيتها ، وشجاعتها وشجاعة ابنها عبد الوهاب فى القتال ، الى دهاء البطال وكيده وحيلته • وقد أصر بنو كلاب على أن يكون جزاء المنافق عقبة السليمى أن يصلب على (باب الذهب) أحد أبواب القسطنطينية ، وكأنهم يضعون أمامهم من قريب رمز الامل المنشود • وقد تحقق فى السيرة الهدف المزدوج ، وان كان فتح القسطنطينية بالفعل فى وقائع التاريخ لم يحدث الا على يدى محمد الفاتح ١٥١٧ م •

كذلك تروى « قصة عمر النعمان » – من قصص ألف ليلة ، خبر ملك فاسق مستهتر لم يتورع عن أن يعرس بعروس ابنه (شراكان) وكانت رومية تدعى « أبريزة » ، ثم يقصى ابنه ويقطعه جزءا من مملكته توقيا لغضبه • ومن احدى الجوارى العديدات للملك المعربد ، ولد « ضوء المكان » و « نزهة الزمان » اللذان خرجا فى رحلة مهولة لم يعودا بعدها لمقر المملكة الا وعمر النعمان يلفظ آخر الانفاس • فحكم ضوء المكان فلم يلبث حتى توفى وتولى بعده ابنه (كان مكان) فسار مسيرة الرشد فتآمر عليه المنتفعون من فساد الحكم حتى أخرجوه ، وعند نهر الفرات جلس (كان مكان) يحلم بالعودة الى الديار ومدافعة الأشرار • ولحق بالمصلح المكافح شرذمة قليلون من قومه ، ارتأى أن يجاهد بهم الروم الذين كانوا يشدون أزر المفسدين • وفى المعركة غير المتكافئة أسر (كان مكان) فاذا بقائد الروم (رومزان) ولد لأبريزة والدة (كان مكان) الرومية التى اغتصبها أبوه من ابنه (شراكان) ، وكانت قد هربت بطفلها الى ديارها • وأخبرت خادمة لقائد الروم سيدها حقيقة نسب الأسير الذى أوشك القائد أن يطيح برأسه ، فاحتضن العم ابن أخيه وأعلن اسلامه والوقوف الى جانبه لاعادة الحق الى نصابه وارجاع الحاكم الصالح الى قومه وسلطته الشرعية (١٠٢) •

(١٠٢م) هنرى جريجوار : تقديم كتاب فازيلييف : العرب والروم – ترجمة دكتور شعيرة ص ٢ – ٤ ، دكتورة نبيلة ابراهيم : التعبير الشعبى عن الثورة – المجلة ع ١١٥ ، يوليو ١٩٦٦ ، فاروق خورشيد : ذات الهمة – دائرة معارف الاهرام •

وفي العصر العباسي اشتهر في شعر الحرب البحتري وأبو تمام الشاعران العربيان الصميميان ، فكان شعر ابي تمام أكثر من غيره في الحماسة . ويرى الدكتور المحاسني انه « كان خبيرا فيها اذ احبها وأحب المختار من شعرها فألف فيه ، واني لأعذره فهو شاعر قد صب في قوالب عصره ، ولو اتقدت الفتوح في زمنه لوجدنا صداها في شعره صريحا كما وجدنا في فتح عمورية وحروب الروم بما لم يعهد عنه شاعر قبله » . واضعف من شعر الحرب في العصر العباسي هدوء الفتوح وانشغال الدولة بالفتن الداخلية ، واقتصار قتال الروم على معارك الحدود الدورية وظهور الأعاجم في قيادة الجيوش وقول الشعر على السواء . وقد وصف البحتري صورة معركة منقوشة على ايوان كسرى تصور غزو الفرس لانطاكية وايقاعهم بالروم .

فاذا ما رأيت صورة انطاكيـة	ارتعت بين روم وفرس
والمنايا موائل ، وانو شروان	يزجي الصفوف تحت الدرفس
في اخضرار من اللبـاس على	اصفر يختال في صبيغة ورس
وعراك الرجال بين يديـه	في خفوت منهم واغماض جرس
من مشيح يهوى بعامل رمح	ومليح من السنان بترس
تصف العين انهم جدا أحياء لهـ	ـم بينهم اشارة خرس
يعتلي فيهم ارتيابي حتى	تتقراهم يداى بلمس

ومدح أبو المعالي الكلابي الرشيد فأثنى على جهاده للروم — حتى روى انه اتخذ قلنسوة مكتوبا عليها (غاز حاج) .

فمن يطلب لقاءك او يرده	فبالحرمين أو أقصى الثغور
وما جاز الثغور سواك خلق	من المتخلفين على الأمور

وقال أبو العتاهية في فتح هرقلة :

الا نادت هرقلة بالخراب	من الملك الموفق بالصواب
غدا هرون يرعد بالمنايا	ويبرق بالمذكرة القضاب

وتذكر الروايات العربية ايقاع تيوفيل بزبطرة أيام المعتصم ، وتذكر أن امرأة عربية من زبطرة صاحت حين سباها الروم : وامعتصماه ! فلما بلغ المعتصم خبر استغاثتها صرخ على سريره : لبيك لبيك ، وصاح في قصره : النفير النفير ! وشاء المؤرخون البيزنطيون ان يصبغوا آثار المعتصم حين فتح عمورية بصبغة الانتقام ، فزعموا أن زبطرة بلد المعتصم التي ولد فيها وأنه قوض مدن عمورية لأنها كانت دارة الأباطرة الروم

وبيت كرسيهم وحمى بطارقتهم • وقد وصف ابو تمام (٨٠٧ : ٨٤٧م) وقعة عمورية ، وسخر من المنجمين الذين نصحوا بالعدول عن الحملة فلم يعبأ بذلك المعتصم :

والعلم فى شهب الأرماح لامعة   بين الخميسين لا فى السبعة الشهب

وقد وصف الشاعر هذا الفتح الكبير :

فتح الفتوح تعالى أن يحيط به   نظم من الشعر أو نثر من الخطب
يا يوم رقعة عمورية انصرفت   عنك المنى حفلا معسولة الحلب
أبقيت جد بنى الاسلام فى صعد   والمشركين ودار الشرك فى صبب
لقد تركت أمير المؤمنين بها   للنار يوما ذليل الصخر والخشب
حتى كان جلابيب الدجى رغبت   عن لونها او كان الشمس لم تغب
تدبير معتصم بالله منتقم   لله مرتقب فى الله مرتغب
لم يغز قوما ولم ينهض الى بلد   الا تقدمه جيش من الرغب
لو لم يقد جحفلا يوم الوغى لغدا   من نفسه وحدها فى جحفل لجب
رمى بك الله برجيها فهدمها   ولو رمى بك غير الله لم تصب
من بعد ما اشبعوها واثقين بها   والله مفتاح باب المعقل الأشب
لبيت صوتا زبطريا هرقت له   كأس الكرى ورضاب الخرد العرب
لما رأى الحرب رأى العين توفلس   والحرب مشتقة المعنى من الحرب
غدا يصرف بالأموال جريتها   فعزه البحر ذو التيار والعبب
ولى وقد الجم الخطى منطقه   بسكتة تحتها الأحشاء فى صخب
تسعون الفا كآساد الشرى نضجت   جلودهم قبل نضج التين والعنب
والحرب قائمة فى مأزق لجب   تجثو الرجال به صغرا على الركب
كم كان من قطع أسباب الرقاب بها   الى المخدرة العذراء من سبب

وحفل شعر أبو تمام بالاشادة **بأبى سعيد محمد بن يوسف الثغرى** عامل العباسيين على أرمينية ، ويذكر ابن الأثير ولايته أرمينية وأذربيجان سنة ٢٣٥ هـ/٨٤٩ – ٨٥٠ م – ومات فى العام التالى أيام المتوكل ويذكر ميشيل السورى أنه ولى الشام والجزيرة منذ سنة ٨٣٩م وكان مقره حلب ويذكر غزوه للروم سنة ٨٣٩م – ٨٤٠م • وقد أمضى أيامه منذ ولاه المعتصم على أرمينية سنة ٢٢٠هـ الى موته فى خلافه المتوكل سنة ٢٣٧هـ يبغى الحصون ويقاتل الروم وكان له بلاء فى قتال بابك أيضا حتى غلب عليه لقب الثغرى • ولم يذكر المؤرخون شيئا عن غزو ابى سعيد الثغرى للقسطنطينية فى حين خلد ابو تمام هذه الغزوة التى مد فيها أبو سعيد رماح فرسانه الى حدود القسطنطينية ، وذكر الشاعر القسطنطينية

واسوارها • وذكر أن أبا سعيد بلغ الخليج وان رجع دون فتح القسطنطينية وهرب من أمامه قائد الروم منويل •

لولا جلاد ابي سعيد لم يزل ... للثغر صدر ما عليه صدار
قدت الجياد كأنهن أجادل ... لقرى (درولية) لهـا أوكار
حتى التوى من نقع قصطلها على ... حيطان (قسطنطينية) أعصار
أوقدت من دون الخليج لأهلها ... من خوف قارعة الحصار حصار
ولقد فصلت من الدروب اليهم ... بعرمرم للأرض منه خوار
أن يبتكر ترشده أعلام الصوى ... أو يسر ليلا فالنجوم منار
(فالحمة البيضاء) ميعاد لهم ... و (القفل) ختم و (الخليج) شعار
والمشي همس والنداء اشارة ... خوف انتقامك والحديث سرار

وقصائد أبي تمام في أبي سعيد كثيرة مثبتة في ديوانه أكثرها عن حروبه مع الروم وبعضها عن سائر وقعاته كاشتراكه في حرب بابك • يقول كنار : ان ابا سعيد له ذكر في حرب بابك وحملة عمورية• ولايكاد يذكر مؤرخو العرب شيئا عن دوره في حرب الروم الا اشارة موجزة في عمورية إلى أحد مواليه صعد الى الحصن ليحمل الى ياطس القائد الرومي الأمر لينزل ، ولكن دوره يجب أن يكون هاما اذا نظرنا اليه في ضوء أشعار أبي تمام والبحتري ، ولا بد أنه غزا مرات كثيرة آسيا الصغرى أيام المأمون والمعتصم والواثق والمتوكل • ويواصل كنار قوله : ان وقعه (عقرقس) كانت أشهر وقعات ابي سعيد وأضراها على الروم وأشراها ، وقد ذكرها أبو تمام ثلاث مرات وذكرها البحتري مرتين ، وقد صور أبو تمام في قصيدة قافية جنود ابي سعيد وعليهم الدروع السلوقية ، وجعل يذكر بنود الروم ومدنهم الكبرى واحدة واحدة وفي أكثرها حصون وحواليها أسوار ، وأبو سعيد يفتح ويغنم ويحرق ويقتل وكانت تحدث (معارك شوارع) في بعض المدن ، حتى اذا بلغ أبو سعيد وادي عقرقس كانت المعركة الفاصلة، وقد بلغ أبو سعيد فيغزوته هذهالخليج مرة أخرى ويصعب تحديد موقع عقرقس بالضبط • ويروى قسطنطين البورفيري انه حول سنة ٨٩٥م اقتطع من جند البقلار اربعة اقسام منها عقرقس ، وتحديد مكان كل قسم بالضبط غير ممكن وفي الشعر العربي ما يدل على أن عقرقس من جند البقلار أيضا ، ولكن المؤكد أنه يقع بين بحيرة تاتلا ونهر الهليس • ويقول ابو تمام في هذه المعركة :

في كماة يكسون نسج السلوقي ... وتعدو بهم كلاب سلوق
يتساقون في الوغى كأس موت ... هي موصولة بكأس الرحيق

وطئت عامة النواحي فلما ... ان قضت نحبها من (القبدوق).
الهبتها السياط حتى اذا اشفت ... اطلاقهـا على (النـاطلوق).
شنها شزبا فلما استباحت ... (بالبقلار) كل سهب ونيق.
سار مستقدما الى البأس يزجى ... رهجا باسقا الى (الأبسيق)
ثم ألقى على (درولية) البرك ... محلا باليمن والتوفيق
فحوى سوقها وغادر فيها ... سوق موت طمت على كل سوق
فهم هاربون بين حريق ... السيف صلتا وبين نار الحريق.
واجدا (بالخليج) ما لم يجد قط ... (بماشان) لا ولا (بالزريق)
وقعة زعزعت مدينة قسطنطين ... حتى ارتجت بسوق فروق.
كم أسير من سربهم وقتيل ... رادع الثوب من دم كالخلوق.
يستغيث البطريق جهلا ، وهل ... يطلب الا مبطرق البطريق
ثم ناهضت فى الفلول رجالا ... ورجالا بالضرب والتحريق.
وبوادى عقرقس لم تعرد ... عن رسيم الى الوغى وعتيق.
جار الدين واستغاث بك الاسلام ... من ذاك مستغاث الغريق
يوم بكر بن وائل (بقضات) ... دون يوم (المحمر) الزنديق
ويوم حلق اللمات ذاك وهذا ... اليوم فى الروم حلق الحلوق.
أورثت (صاغرى) صغارا ورغما ... وقضت (أو قضى) قبيل الشروق.
كم أفاءت من أرض (قرة) من ... قرة عين وربرب مومـوق.
أن أيامك الحسان من الروم ... لحمر الصبوح حمر الغبوق
معلمات كانها بالدم المهراق ... يوم للنحر والتشريق.

وفى قصيدة أخرى ذكر أبو تمام حرب أبى سعيد للروم والخرمية :

جدعت لهم أنف الضلال بوقعة ... تخرمت فى غمائها من تخرما.
لقد كان أمسى فى عقرقس أجدعا ... فمن قبل ما امسى (بميمذ) اخرما
قطعت بنان الكفر منهم (بميمذ) ... واتبعتها بالروم كفا ومعصما
وكم جبل (بالبذ) منهم هدرته ... وغاوغوى خلمته فتحلما.
فان يك نصرانيا النهر (آلس) ... فقد وجدوا وادى (عقرقس) مسلما
ولم يبق فى أرض (البقلار) طائر ... ولا سبع الا وقد مات مولما.

ويذكر أبو تمام كيف كان ترويع أبى سعيد للروم وملكهم :

ولما رأى (توفيل) رايتك التى ... اذا ما استقامت لا يقاومها الصلب.
تولى ولم يال الردى فى اتباعه ... كان الردى فى قصده هائم صب
كان بلاد الروم عمت بصيحة ... فضمت حشاها او رغا وسطها السقب
(بصاغرة)القصوى (وطمين)واقترى ... بلاد (قرنطاؤوس) وابلك السكب.

أما الشاعر العربى الآخر الذى اتجه الى شعر الحرب واحتفل بأبى سعيد فهو البحترى (٨٢٠ : ٨٩٧م) وهو شامى من منبج يرجح أنه عرف أبا سعيد حين قدم واليا على الشام فخصه بشعره وهو يقول فى وقعة عقرقس :

ربما وقعة شملت بها الروم ... فباتوا اذلة خاضعينا
فقد أمنا أن يأمنوك على حال ... ولو صيروا النجوم حصونا
وتوافت خيلاك من أرض ... (طرسوس وقاليقلا بأردندونا)
عابسات يحملن يوما عبوسا ... لأناس عن خطبه غافلينا
وزرن بالدارعين أرض (البقلار) ... فأجلوا عن (صاغرى) صاغرينا
قد طواهن طيهن الفيافى ... واكتسين الوجيف حتى عرينا
كوعول الهضاب رحن وما يملكن ... الا صم الرماح قرونا
ونفير الى (عقرقس) أنفرت ... فسكنت المظفر الميمونا
همة فى غد بتفليق هام ... فى قرى (العازرون والمازرونا)
ولعمرى ما ماء زمزم أحلى ... عنده من دم (بزارمينا)
غير وان فى طاعة الله حتى ... يطمئن الاسلام فى (طمينا)

وتتبع الشاعر حروب يوسف بن أبى سعيد فى حين لا يعرف التاريخ عنه الا أنه خلف اباه فى حكم ارمينية وأذربيجان واشترك مع أبيه قبل موته فى غزو الروم وليست هناك تفاصيل تاريخية عن غزوه للروم مع أبيه ثم منفردا بعد وفاته ، وقد توفى سنة ٢٣٧/٨٥١–٢م أثناء ثورة كبيرة فى أرمينية ٠ لكن البحترى يفصل القول فى وقائع يوسف حتى يصل به الى الخليج أيضا :

وما هو الا يوسف بن محمد ... أعداؤه والموت غربا ومشرقا
وعارضه المستمطر الجود انه ... تجهم فوق (الناطلوق) فاطرقا
واضعف (بالقباذقين) سجاله ... وارعد (بالآبسيق) شهرا فابرقا
فحرق ما بين الدروب أتيه ... الى (مجمع البحرين) حتى تحرقا
وبرد خريف قد لبسنا جديده ... فلم ننصرف حتى نزعناه مخلقا
وبدرين أنضيناهما بعد ثالث ... أكلناه بالايجاف حتى تمحقا
حوى كل ما دون الخليج ولم يدع ... فؤادا بما دون الخليج معلقا

ولعل البحترى كان مصاحبا لابن أبى سعيد فى حملته هذه ٠ وقد وقف الشاعر كثيرا من شعره على الروم فى حروبهم مع المسلمين ، حتى صححت به حوادث من التاريخ ووضحتها ، على حد تعبير المحاسنى ٠ وقد

وصف البحترى فىقصيدة له يمدح بها المتوكل وفدا للروم جاء للمخاطبة في الفداء وحضر مادبة اقامها له الخليفة ، لكنه اقتصر من وصفه على طعام القوم ومجلسهم الى الموائد وذهول عقولهم من هول ما طالعوا فى قصر الخليفة وما عاينوه • وقد عرف البحترى على بن يحيى الأرمنى – وهو قائد له بلاؤه فى حرب الروم وكان له خاصة من الشعراء ولكن البحترى كان يبغضه وهو يهجوه أحيانا ويتهمه بالغلول فى الغنائم والتولية يوم الزحف ومن هنا خلا شعر البحترى من الغزوات المتعددة لهذا القائد •

وقد وصف البحترى أسطول المتوكل الذى قصد القسطنطينية بقيادة أحمد بن دينار وهو شخص غير ذائع الذكر ، ويرجح كنار أن أباه دينار عبد الله من موالى الرشيد وكان له دور حربى سياسى أيام المأمون، ويقول أبو المحاسن عنه انه ولى دمشق مدة سنة ٢٢٥هـ/٨٤٠م وولى ابنه أحمد ولايات هامة لم تذكر وخلف فيها اباه • ولم يذكر المؤرخون غزوة بحرية لأحمد ابن دينار ، ولكن يمكن التقريب بين الغزوة التى يذكرها البحترى وغزوة يذكرها مؤرخو الروم ويذكرون اسم رئيسها أبى دينار Apodenar وهو تحريف من ابن دينار ، وقد أرخها فازيلييف بعام ٨٤٢م • ويقول مؤرخو الروم ان هذه الحملة كانت تقصد القسطنطينية وقد انتهت بكارثة بسبب عاصفة دون أن يذكروا موقعة بحرية ، فى حين يصور البحترى بحارة أحمد بن دينار يقذفون بالنار الاغريقية الرجال ذوى اللحى الحمر وينتصرون حتى يهرب ابن قيصر :

باحمد احمدنا الزمان واسهلت … لنا هضبات المطلب المتوعر
ولما تولى البحر والجود صنوه … غدا البحر من اخلاقه بين ابحر
اضاف الى التدبير فضل شجاعة … ولا عزم الا للشجاع المدبر
اذا شجروه بالرماح تكسرت … عواملها فى صدر ليث غضنفر
غدوت على الميمون صبحا وانما … غدا الموكب الميمون تحت المظفر
أطل بعطفيه ومر كانما … تشرف من هادى حصان مشهر
اذا زمجر النوتى فوق علاته … رأيت خطيبا فى ذؤابة منبر
يغضون دون (الاشتيام) عيونهم … وقوف السماط للعظيم المؤمر
وحولك ركابون للهول عاقروا … كئوس الردى من دراعين وحسر
تميل المنايا حيث مالت أكفهم … اذا اصلتوا حد الحديد المذكر
اذا رشقوا بالنار لم يك رشقهم … ليقلع الا عن شواء مقتر
صدمت بهم (صهب العثانين) دونهم … ضراب كايقاد اللظى المتسعر

ثم يعرض البحترى للروم ويصور المعركة البحرية بين الجانبين :

يسوقون اسطولا كان سفينة ... سحائب صيف من جهام وممطر
كان ضجيج البحر بين رماحهم ... اذا اختلفت ترجيع عود مجرجر
تقارب من زحفيهم فكانما ... تؤلف من أعناق وحسن منفر
فما رمت حتى اجلت الحرب عن طلى ... تقطعها فيها وهام مطير
وكنت ابن كسرى قبل ذاك وبعده ... مليا بأن توهى صفاة ابن قيصر
جدحت له الموت الزعاف فعافه ... وطار على الواح شطب مسمر
مضى وهو مولى الريح يشكر فضلها ... عليه ومن يول الصنيعة يشكر
اذا الموج لم يبلغه ادراك عينه ... ثنى فى انحدار الموج لحظة أخزر
تعلق بالأرض الكبيرة بعدما ... تنقصه جرى الردى المتمطر (١٠٣)

وقد رفع لواء شعر الحرب وسجل وقائع الثغور من بعد شاعران كبيران آخران هما المتنبى وأبو فراس ، فكان شعرهما تسجيلا لرفع الحمدانيين لواء الجهاد الاسلامى ضد الروم · واستطاع المتنبى أن ينشر على قصائده ـ على حد تعبير ديمومبين ـ ريحا ملحمية « ومع انه استعمل القوالب القديمة ، الا انه تغنى بالمروءة البدوية فى الفاظ خصبة مصقولة» · وقد انتقلت ملامح من الغارات البيزنطية بجانب أخرى من معارك الحروب الصليبية فى قصص البطولة المتأخرة مثل الف ليلة وليلة وقصة عنتر وغارات بنى هلال كما يرى ديمومبين (١٠٤) ·

كان الشعر الحربى الاسلامى تسجيلا تاريخيا للوقائع الحربية الهامة كما كان تسجيلا جغرافيا للمعالم والاماكن البارزة وقد استشهد به ياقوت والبكرى فى مواضع كثيرة من تعريفهما للبلدان · ومع ذلك فانه يصعب على المؤرخين والجغرافيين أن يتخذوا الشعراء كمصادر تاريخية ـ على حد تعبير ماريوس كنار « لبعدهم عن الدقة فى التوقيت وتحديد المكان فى اشاراتهم الى احداث حرب الروم ، فانهم لم يكتبوا شعرهم ليقصوا التاريخ لكن ليمدحوا فيحيطون ما يذكرون من الوقعات بعبارات شعرية حتى لتتكلف الجهد قبل ان نستخلص منها شيئا يسيرا من التاريخ وقد لا تخرج بعد العناء الا بمجرد فروض » · وابو تمام والبحترى من شعراء البلاط المقربين للخلفاء والولاة والقواد والوزراء العباسيين ومع ذلك فانهما على ما قدماه لنا من مادة أدبية عن حروب المسلمين والروم فى ثنايا

---

(١٠٣) دكتور المحاسنى : شعر الحرب فى ادب العرب ص ١٣٦ ، ١٥٣ : ١٩٤ ، كنار : تعليقات اضافية ملحقة بكتاب فازيلييف : العرب والروم ترجمة الدكتور شعيرة ص ٣٤٦ : ٣٥٧ ·

(١٠٤) ديمومبين :النظم الاسلامية ترجمة السامر والشماع ص ٢٧٠ ·

مداائحهما لابطالهم ، ورغم انفراد هذه المادة احيانا بوقائع وتفاصيل أغفلها المؤرخون فاننا نجد ان « جملة اخبارهما ــ وهما أكبر شعراء العرب فى عصرهما ــ اخبار على شيء من الضآلة ونقص التحديد • ولكنها مع ذلك تؤيد تأييدا طريفا بعض روايات المؤرخين الروم والسريان : مثل النضال بين أبى سعيد ونصر تيوفوب ، وهو بمنويل فى وقعة انزن وغزوة ابن دينار البحرية • وهى تدلنا كذلك على نقص اخبار المؤرخين العرب فى عدد من الوقائع والتفاصيل • ونخرج من قراءة الشعر بشعور واضح اننا لانزال نجهـــل الشيء الــكثير عن حروب الروم والعـــرب فى القرن التاسع » (١٠٥) •

يقول ياقوت عن برجمة مثلا « حصن للروم فى شعر جرير » ، ويقول عن **تاكيس** : قلعة فى بلاد الروم فى الثغور غزاها سيف الدولة فقال أبو العباس الصفرى :

فما عصمت تاكيس طالب عصمة ... ولا طمرت مطمورة شخص هارب

ويقول عن **جلباط** : ناحية يجيل اللكام بين أنطاكية ومرعش كانت بها وقعة سيف الدولة بن حمدان بالروم افتخر بها أبو فراس فيما افتخر فقال :

فاوقع فى بجلباط بالروم وقعة ... بها العمق واللكام والبرج فاخر

وفى كلامه عن جيحان ينقل قول ابى الطيب :

سريت الى جيحان من أرض آمد ... ثلاثا لقد أدناك ركض وابعدا

وينقل قول أبى تمام فى **درولية** :

ثم التقى على درولـيـــــه البرك ... محـــلا باليمن والتــــوفيق
فحوى سوقها وغادر فيهـــا ... سوق مزن مرت على كل سوق

ويروى عن أبى فراس فى **سمنين** :

وراحت على سمنين غارة خليه ... وقد باكرت هنزيط منها بواكر (١٠٦)

وهكذا كان شعر الحرب مصدرا لتسجيل المعالم الجغرافية والوقائع

---

(١٠٥) كنار : تعليقات اضافية ملحقة بكتاب فازيلييف : العرب والروم ترجمة دكتور شعيرة ص ٣٤٦ •

(١٠٦) ياقوت : معجم البلدان حـ ٢ ص ١١٢ ، ٣٥٣ ــ ٤ ، حـ ٣ ص ١٢٠ ، ١٨٦ ، حـ ٤ ص ٥٧ ، حـ ٥ ص ١٣٣ •

الحربية الى حد ما وقد استند ياقوت الى كثير من الأبيات التى سبق ذكرها لأبى تمام أو البحترى فى مادته الجغرافية التى يســـوقها فى معجم البلدان ٠

والنثر العربى ٠٠ ما دوره ـ فى غير القصص الشعبى ـ فى تسجيل معارك المسلمين والروم ؟

اشترط أن يعرف الكاتب كبريات المعارك ، قد ذكر فى (حسن التوسل) ان الكاتب يحتاج الى **معرفة أيام العرب** وتسمية الأيام التى كانت بينهم ومعرفة يوم كل قبيلة على الأخرى وما جرى بينهم من الاشعار والمناقضات وذكر فارس مشهور أو ملك مذكور أو واقعة معينة لشـخص خاص وما ادعاه كل منهم لنفسه أو ليومه ـ لمافى ذلك من العـــلم بما يستشهد به من واقعة قديمة أو يرد عليه فى مكاتبه من ذكر يوم مشهور أو فارس معين ـ ونحو ذلك ، مما مضى عليه أمر الجاهلية أو حدث فى الاسلام ٠ فان الكاتب اذا لم يكن عارفا بالوقائع عالما بما جرى منها لم يدر كيف يجيب عما يرد عليه من مثلها ولا ما يقول اذا سئل عنها » ٠ وقد ظهر فى الادب الرسمى للدولة الاسلامية « **كتب توسل الى الاطراف للحث على الجهاد** » قال فى (مواد البيان) : كما ان الدين ينتظم بالدعاء اليه والترغيب فيه ، كذلك ينتظم بصيانة حوزته وما دخل فى مملكته وكف أعدائه عن تنقص أطرافه والتغلب على بلاده ، ولهذا ، فرض الله تعالى الجهاد وأوجبه ، والسلطان يحتاج عند الحوادث التى تحدث عند تطرق المخالفين الى بعض الثغور أو شن الغارة على أهل الاسلام أن يدعو الى الجهاد ومقارعة الأعداء وصون حريم الملة وحفظ نظام الدولة ٠ ثم ذكر ان الرسم فيها أن تفتتح بحمد الله تعالى على جميع صنعه : على اعزاز الكلمة واسباغ النعمة باظهار هذه الملة وما وعد الله به من نصر أوليائه وخذلان أعدائه ، والصلاة على رسوله وذكر طرف من مواقعه فى الجهاد ، ثم يذكر الحادثة بنصها وينتدب من جاوره وداناه من أهل الملة أجمعين ، ويخاطبهم بما يرهف عزائمهم فى نصرة الدين وكافة المسلمين واتباع سبيل السلف الصالحين ٠٠ وان يحضهم على التمسك بعزائم الدين والعمل على بصائر المخلصين وافتراض ما فرض الله عليهم من جهاد اعدائه وتنجيز ما وعدهم به من الاظفار بهم والاظهار عليهم » ٠ وقد عقب على ذلك صاحب (صبح الاعشى) « قلت : وهذا الصنف من المكاتبات السلطانية مستمر الحكم الى زماننا ٠ وقد تقدم ان الشيخ شهاب الدين محمود الحلبى ذكر فى (حسن التوسل) انه **اذا كتب عن الملك فى أوقات حركات العدو الى اهل الثغور** يعلمهم بالحركة للقاء عدوهم أنه يبسط القول فى وصف العزائم وقوة

الهمم وشدة الحمية للدين ، وكثرة العسكر والجيوش وسرعة الحركة وطي المراحل ومعاجلة العدو ، وتخيل أسباب النصر والوثوق بعوائد الله في الظفر وتقوية القلوب منهم وبسط آمالهم ، وحثهم على التيقظ وحضهم على حفظ ما بأيديهم من ذلك وما أشبهه ، وانه يبرز ذلك في أبين كلام وأجله وأمكنه وأقربه من القوة والبسالة وأبعده من اللين والرقة ويبالغ في وصف الأنابة الى الله واستنزال نصره وتأييده والرجوع اليه في تثبيت الاقدام والاعتصام به في الصبر والاستعانة به على العدو والرغبة اليه في خذلانهم وزلزلة اقدامهم ، دون التصريح بسؤال بطلان حركتهم ورجاء تأخيرهم وانتظار العرضيات في تخلفهم — لما في ذلك من ايهام الضعف عند لقائهم واستشعار الوهن والخوف منهم . وان زيادة البسط ونقصها في ذلك بحسب المكتوب اليه » .

ومن الأمثلة على كتب الجهاد ما كتبه المنتصر الى مولاه محمد بن عبد الله بن طاهر عند اغزائه وصيفا مولاه سنة ٢٤٨هـ سنة ٨٦٢م وكان مما جاء فيه « .. وقد رأى أمير المؤمنين لما يحبه من التقرب الى الله بجهاد عدوه وقضاء حقه عليه فيما استحفظه من دينه والتماس الزلفى له في اعزاز أوليائه واحلال البأس والنقمة بمن حاد عن دينه وكذب رسله وفارق طاعته ، ان ينهض وصيفا مولى أمير المؤمنين من طاعته ومناصحته ومحمود تعبئته وخلوص نيته في كل ما قربه من الله ومن خليفته . وقد رأى أمير المؤمنين — والله ولي معونته وتوفيقه — أن يكون موافاة وصيف فيمن أنهض أمير المؤمنين معه من مواليه وجنده وشاكريته ثغر ملطية لاثنتى عشرة ليلة تخلو من شهر ربيع الآخر سنة ثمان وأربعين ومائتين — وذلك من شهور العجم للنصف من حزيران ودخوله بلاد أعداء الله في أول يوم من تموز . فاعلم ذلك واكتب الى عمالك على نواحي عملك بنسخة كتاب أمير المؤمنين هذا ، ومرهم بقراءته على من قبلهم من المسلمين وترغيبهم في الجهاد وحثهم عليه واستنفارهم اليه وتعريفهم ماجعل الله من الثواب لأهله ليعمل ذوو النيات والحسبة والرغبة في الجهاد على حسب ذلك ، في النهوض الى عدوهم والخفوف الى معاونة اخوانهم والذياد عن دينهم والرمي من وراء حوزتهم بموافاة عسكر وصيف مولى أمير المؤمنين ملطية في الوقت الذي حدده أمير المؤمنين لهم ان شاء الله ، والسلام عليك ورحمة الله وبركاته . وكتبه احمد بن الخصيب لسبع ليال خلون من المحرم سنة ثمان واربعين ومائتين (١٠٧) » .

(١٠٧) القلقشندي : صبح الاعشى جـ ١ ص ٣٩٠ ، جـ ٨ ص ٢٤٦ : ٨ ، الطبري اخبار سنة ٢٤٨ هـ .

(هـ) الفنون :

انتشر تأثير القسطنطينية الفني في ارجاء الشرق : في مصر وسوريا والجزيرة وآسيا الصغرى وارمينية وغيرها على أن كلا من هذه الجهات قد احتفظ بطابعه الفني الخــاص مع وجــود بعض الملامح العــامة . وقد واجه الفن المسيحي في الشرق في بداية القرن الرابع الميلادي تأثيرا مزدوجا من أصول الثقافة الهيلنستية التي كانت ما زالت تواصل حياتها في المدن الكبرى مثل الاسكندرية وانطاكية وافسوس ، ثم الاصــول القديمة للشرق الايراني أو السامي التي اتيح لها أن تعاود الحياة عن طريق فارس الساسانية في مصر وبين النهرين وارمينية وان تدافع التأثير الاغريقي الذي ما فتىء غلابا لأجل طويل . وقد كانت المســيحية في بغضها للوثنية مقبلة على أساليب هذه الفنون القومية والتعلم من الشرق وان كانت لم تستطع أن تنتزع نفسها تماما من بهاء التقاليد الاغريقية . ومن هنا قام هذا الازدواج بين هذين التأثيرين المتقــابلين وهو ازدواج استمر بقدر استمرار الفن البيزنطي نفسه بل الواقع ان هذا الازدواج هو الذي أعطى للفن البيزنطي طابعه المميز (١٠٨) وقد نقلت أنطاكية عن طريق تجارها فن الزخرفة السوري الى أقصى سواحل البحر المتوسط بينما نقل المعماريون في آسيا الصغرى فن بناء القباب ـ وربما من فارس ـ وحاولوا ان يجدوا الطريق لكي يتطوروا بها الى الصورة الشرقية (١٠٩).

وكان للفن البيزنطي آثاره على الحضارة الاسلاميــة وتأثر العرب بالمؤثرات الفارسية وبصورة أكبر بالمدنية الهلينستية السامية المسيحية في سوريا ومصر ، وظلت هذه المدنية ـ التي دعيت بيزنطية من قبل ـ على تأثرها ببيزنطة حتى بعد الفتح الاسلامي . وكان النصــارى في سوريا ـ مثل مؤلف Trophies of Damascus في القرن السابع ـ يعتبرون أنفسهم رعايا الامبراطور ، كلما كان الخلفاء الامويين يستخدمون المعماريين والفنانين الروم . وكانت العمائر الاسلامية الاولى بيزنطية في تصميمها كما كانت بيزنطية في زينتها بقدر ما تسمح بذلك أوامر الاسلام (١١٠). وكان المسلمون عند الفتح الاسلامي للشام يأخذون كنيسة ويستخدمونها مسجدا ، أو يأخذون شطرها أو جزءا منها ليكون مسجدا اذا أذعنت البلد صلحا ، فقد أخذوا ربع كنيسة القديس يوحنا في حمص . ويروى

---

(١٠٨) Byzantium 169-170

(١٠٩) بينز : الامبراطورية البيزنطية ـ ترجمة دكتور مؤنس وزايد ص ٢٣٣ .

(١١٠) Runciman : Byz. Civ. pp. 233-4

البلاذرى أنهم أخذوا نصف كنـــائس حلب وقد باشروا تحـديد القبلة بما يناسب اتجاه البيت الحرام • **وهكذا كانت المؤسسات الدينية الاسلامية الأولى تحت تأثير المؤثرات البيزنطية والمســيحية** • وتحدثت الروايات العربية عن روعة المؤسسات الدينية المسيحية ، فقد نقل بن رسته « قال محمد بن موسى المنجم : تقول الروم : ما من بناء بالحجارة أبهى من كنيسة الرها وما من بناء بالخشب أبهى من كنيسة منبج لأنها بطاقات من الخشب العناب ، ولا من بناء بالرخام أبهى من قسيان أنطاكية ، ولا من بناء بالحجارة أيضا أبهى من كنيسة حمص » • وقال المسعودى : « وبنت هيلانى كنيسة حمص وهى احدى عجائب العالم على أربعة أركان ، وكنيسة الرهاء من بناء ديار مضر وهى احدى عجائب العالم الاربع المذكورة (١١١) •

وكان الامويون ينزعون الى البادية فأقاموا مضاربهم فيها من الخيام أولا ثم تحولت بالتدريج أثر تزايد الترف الى مخيمات ثابتة ، ثم اقيمت مبانى ذات طابق ، وقد سكنوا أحيانا فى قلاع الحدود البيزنطية مثل الازرق ـ تلك القلاع التى كانت تكون جزءا من خط الاســتحكامات من خليج العقبة الى دمشق ومن دمشق الى بالميرا (تدمر) وبذلك وقعت هذه القصور فى مجال تأثير الفن البيزنطى • وقد توفى يزيد بن معاوية فى حوارين وأقام الوليد بن عبد الملك معظم الوقت على حافة الصحراء خاصة فى خناصرة الاحص (٥٥ كم الى الجنوب الشرقى من حلب) والقريتين بوأسيس (تل سيس ، ١٠٥ كم الى الجنوب الشرقى من دمشق) واختـار عمر بن عبد العزيز خناصرة لمقامه ، أما يزيد الثانى فكان يمضى وقته فى الموقر (بين المشتى وقصر خربة) • وعاش هشام فى قصر الحير الشرقى (٦٠ ميلا ـ الى الشمال الشرقى من بالميرا ـ تدمر ، ٤٠ ميلا الى الجنوب من الرصافة) وتتكون اطلاله من مدخلين محصنين وباحة مربعة حولها ابراج نصف مستديرة ، وعاش الوليد الثانى حياته فى البادية • ويتكلم الطبرى عن ذهابه للازرق (١٢ ميلا شرقى قصر عمره) ومقامه بجوار ماء الاغدف أو الغدف حيث يقوم قصر الطوبة وقد قتل فى قصر البخراء وهى قلعة رومانية على حافة الصحراء حوالى ١٥ ميلا الى الجنوب الغربى من بالميرا (تدمر) •

(وتنتمى نقوش قصير عمره الى الفن الهيلنستى المتأخر فى سوريا وقد **اثارت هذه النقوش مسالة شرعيتها من وجهة نظر الاســـلام** • ومع سيادة تأثير العمارة المسيحية فى الشام فقد كانت هنـــاك مؤثرات

(١١١) ابن رسته : الاعلاق النفيسة ص ٨٣ ، المسعودى : التنبيه والاشراف ص ١٢٤ •

ساسانية متأخرة نتيجة استعانة الخلفاء بحشود العمال من مختلف أنحاء البلاد الاسلامية ومن هنا جاء الخليط من التأثيرات فى الآثار الاسلامية مابين سورية أولا ثم فارسية وقبطية • وكما تأثر المسلمون فى الشام بالمؤثرات الهيلنسية والفن المسيحى فى بيئتهم تأثر المسلمون فى العراق وفارس بالمؤثرات الفارسية (١١٢) •

وقد بلغ من تأثير الفن البيزنطى على المسلمين فى العصر الأموى أن طلب الوليد بن عبد الملك من امبراطور الروم ـ كما يروى الطبرى وغيره ـ ان يرسل له صـــناعا لتزيين جوامع دمشق والمدينة وبيت المقـــدس بالفسيفساء (١١٣) • وهكذا كسا الأمويون ـ وخاصة الوليد ـ المساجد طابعا سوريا بيزنطيا أصيلا ـ كما يروى ديمومبين ـ يلائم زخرفة الرخام الملون والفسيفساء المذهبة المحببة لدى الفنانين البيزنطيين • ويبدو أن حماس الفاتحين وجد تعبيرا عن نفسه فى هذا المجال وقام بالبناء المعماريون السوريون الذين تولوا تكييف التقاليد البيزنطية المأثورة وفقا لعبقرياتهم الخاصة ، والرسومات الحائطية فى قصر عمره الذين كشفه موزيل سنة ١٨٩٨م يزدان فيها سقف القصر والأجزاء العليـــا من جدرانه بكثير من الاشكال الزخرفية الرمزية ومناظر الحياة اليومية وصور الحيوان والنبات بأسلوب هلنستى مع خليط من التعبيرات الايرانية والهندية على ان ديماند يرى **ان قصر المشتى الأموى فى صحراء سوريا وراء نهر الأردن** « **يعد من أعظم آثار القرن الثامن الميلادى اهمية ولم تقتصر زخارفه على الأساليب السورية والعناصر الساسانية وتكشف عن اسلوب شرقى جديد يصح تسميته بالأموى** » • وهل يذهب الى ظهور بشائر فن اسلامى جديد نتيجة تميز العمائر الأموية عن النماذج الهيلنستية • وقد أوضحت دراسة البردى استخدام العمال الاجانب على نطاق واسع فى اقامة العمائر الدينية «ويمكن أن نتبين من ذلك أصول المنشآت الأموية ومميزاتها ومدى اتصال الطرز التى استعملت فيها بالطرز القديمة ودخول عناصر جديدة شرقية وغربية على الزخارف » (١١٤) •

---

(١١٢) Creswell : A Short Account of Early Muslim Architecture. pp. 7,93:9,111, 156:8.

(١١٣) الطبرى حـ ٨ ص ٥٦ ، المقدسى : أحسن التقاسيم ص ٨١ ، العمرى : مسالك الأبصار حـ ١ ص ١٨٣ ، ديمومبين : النظم الاسلامية • ترجمة السامر والشماع ص ٢٦٤ •

(١١٤) هل : الحضارة العربية ـ ترجمة دكتور العدوى ص ٧١ ، ديمومبين : النظم الاسلامية ترجمة سامر والشماع ص ٢٦٤ ، ديماند : الفنون الاسلامية ترجمة عيسى ص ٣٧ ، ٩٠ ـ ١ •

وفي منطقة الثغور والعواصم **ابتنى مسلمة بن عبد الملك لنفسه قصرا بالناعورة** سنة ٩٠ هـ كان ينزله ، قال ابن شداد : ولحقت منه برجا وائر ابراج وقد تقدم انه بنى بحجارته باب قنسرين ، كذلك **بنى سليمان ابن عبد الملك قصرا في حاضر حلب** « وكان قد تانق في بنائه وزخرفته » . وقد أخربه عبد الله بن علي بأمر السفاح . وكان هناك قصر في خناصرة الاحص لعمر بن عبد العزيز (١١٥) .

وبانتقال العاصمة الى بغداد تزايد نطاق المؤثرات الفارسية على حساب المؤثرات البيزنطية مما ادى الى مولد فن سامرا . ويشبه كرزويل تأثيرا انتقال الخلافة من دمشق الى بغداد بتأثير انتقال العاصمة من روما الى القسطنطينية فقد تغير في الحال مركز ثقل الدولة وصار الجو العقلي والفني اقرب الى الشرق . وقد اشترك نفر من الروم في بناء بغداد نفسها . كذلك اثر بهاء البلاط العباسي في أباطرة الروم ، فجاء قصر تيوفيل في Bryas يحاكي قصور بغداد في الشكل والزينة (١١٦) . **وقد احييت السنن الأموية بإتجاه يلائم تقاليد بين النهرين وشيدت عمائر في بقاع ليس فيها حجر فاستفيد من اللبن الهش وهي طريقة اشوريين والبابليين فلم يتح لها البقاء** (١١٧) . وقد نقل البلاذري أن **بناء مدينة الحدث زمن المهدي كان باللبن** « قال الواقدي : ولما بنيت مدينة الحدث هجم الشتاء وكثرت الامطار ، ولم يكن بناؤها وثيقا فهدم سور المدينة وشعثها ونزل بها الروم . ثم ولي الرشيد فدفع عنها الروم واعاد عمارتها » . على ان البلاذري يذكر ان **الكنيسة السوداء كانت «من حجارة سود بناها الروم»** ويذكر في بناء ملطية في عهد المنصور ، ان الحسن بن قحطبة « ربما حمل الحجر حتى يناوله البناء » . وقد بنى في ملطية لكل عشرة نفر من الجند أو خمسة عشر « بيتان سفليان وعليتان فوقهما واصطبل » . كما بنى لملطية مسلحة على ثلاثين ميلا منها . وقد عدد البلاذري جهود العباسيين في **عمارة الثغور** ، ومن ذلك جهود فرج بن سليم الخادم في تخطيط طرسوس «اذ مسح ما بين النهر الى النهر « فبلغ ذلك أربعة آلاف خطة كل خطة عشرين ذراعا في مثلها واقطع أهل طرسوس الخطط (١١٨) » . **وبنى صالح بن علي قصرا في بطياس بظاهر حلب وبنى اولاده قصرا خارج باب**

---

(١١٥) ابن الشحنة : الدر المنتخب ص ٥٨ — ٩ .

(١١٦) Byzantium. p. 75, Runciman : Byz. Civ. p. 234 ,. Bury: Hist. of East Rom. Emp. p. 133, Creswell : A Short Account of Early Muslim Architecture. p. 318.

(١١٧) ديمومبين : النظم الاسلامية — ترجمة السامر والشماع ص ٢٦٧ .

(١١٨) البلاذري : فتوح البلدان ص ٢٠٠ ، ١٧٦ ، ١٧٨ ، ١٩٥ — ٦ .

انطاكية يعرف بالدارين وسط قنطرة على نهر قويق بداه عبد الملك بن صالح واتمه سيماء الطويل قائد المعتمد • كذلك **بنى صالح بن على قصرا عند جسر اذنة على سيحان** فى خلافة المنصور ، ولم يكن بناؤه محكما فهدمه الرشيد وأعاد بناءه (١١٩) •

وقد أقيمت الجسور والقناطر محكما مجارى المياه ، وعلى **جسر منبج** كانت القوافل تعبر من حران الى الشام ، وبين الجسر وبين منبج ٤ فراسخ واتخذ الجسر فى خلافة عثمان لتسير عليه حملات الصوائف ــ وقيل بل كان لم رسم قديم • وقد ذكر ياقوت **قنطرة على نهر سيحان قرب اذنة** نقلا عن أحمد بن الطيب « من حجارة عجيبة بين المدينة وبين حصن مما يلى المصيصة ــ وهى شبيهة بالربض والقنطرة معقودة عليه على طاق واحد » • وذكر المسعودى **عن قنطرة سنجة** أنها « احدى عجائب العالم وهى بناحلة سميساط من الثغور الجزرية » • وقال المقدسى « وكان يقال عجائب الدنيا ثلاث : فنارة الاسكندرية وقنطرة سنجة وكنيسة الرها•• وهذه القنطرة على خمسة فراسخ من جبل الجودى كبيرة شاهقة متصلة بالجبل على حجر مخوخ مركبة اذا زاد عليها الماء اهتزت » • وقد كانت القنطرة مبنية على الطريقة الأوربية ، وكان قد بناها فسباسيان على نهر سنجة أحد فروع دجلة قرب سميساط ، وكانت الرومان الأهمية الخاصة لهذه القنطرة (١٢٠) • ويذكر الطبرى أن **الرقة قد بنيت على طراز بغداد** فى الأبواب والفاصل والرحبات والشوارع ومع ذلك فالرقة ليست تامة الاستدارة بل هى تشبه حدوة الفرس والجانب الجنوبى مستقيم ، لكن جدرانها مزدوجة مثل بغداد وحول الجدار الداخلى أبراج • **وفى الرقة ــ كما فى حران كانت تلتقى المؤثرات الفنية للجزيرة والشام وقد ظل الفن الأموى قويا فى الشام فى العصر العباسى (١٢١)** •

ولقد كانت الفنون وجها من أوجه الاتصال الثقافى بين المسلمين وغيرهم • ومن طريف ما يروى من بواكير هذا الاتصـــــال ما يرويه ابن البطريق ان بطريق الروم فى قنسرين طلب الى ابى عبيدة الموادعة سنة حتى يلحق الناس بهرقل ومن أقام فهو فى ذمة وصلح ، وأجابه ابو عبيدة الى ذلك • فسأله البطريق وضع عمود بين الروم والمسلمين ، وصور الروم

---

(١١٩) ابن الشحنة : الدر المنتخب ص ٥٩ ــ ٦٠ ، البلاذرى : فتوح البلدان ص ١٧٥ •

(١٢٠) البلاذرى : فتوح البلدان ص ١٥٧ ، المسعودى : التنبيه والاشراف ص ٥٦ ، المقدسى : احسن التقاسيم ص ١٤٧ ، عبد المؤمن المراصد حـ ٢ ص ٧٤٥ ، متز : الحضارة الاسلامية ترجمة دكتور ابى ريدة جـ ٢ ص ٣٠٠ ــ ١ •

(١٢١) Creswell : A Short Hist. of Early Muslim Architecture. p. 322

فى العمود صورة هرقل جالسا فى ملكه ، فرضى أبو عبيدة ٠ فاعتدى عربى على الصورة ، فاعتبر البطريق ذلك نقضا للصلح وقطعا للهدنة ، وطلب ان يمكن من رد هذا الاعتداء بتصوير ملك العرب والاعتــداء على صورته ، فوافق أبو عبيدة على ان يصوروه ويفعلوا بصـــورته ما يشاء فابوا الا صورة الخليفة نفسه « فصورت الروم تمثال عمر بن الخطاب نفسه فى عمود واقبل رجل منهم ففقـــأ عين الصـــورة فقال البطريق قد انصفتمونا (١٢٢) » ٠

ونقل الصناع الفنيون وحملت مواد البناء الى مختلف البلدان الاسلامية وكان للعمال السوريين والبيزنطيين دورهم فى هذا المجال ـ خاصة فى التجميل بالفسيفساء وعلى حد تعبير ديماند « بدأ أسلوب اسلامى ناشىء ينمو تدريجيا ، مشتقا على الأخص من مصدرين بيزنطى وساسانى ٠ ويلاحظ اقتبـــاس التعبيرات الفنية ووجودها جنبا الى جنب فى الآثار الاسلامية الأولى ـ مثل فسيفساء قبة الصخرة ببيت المقدس سنة ٦٩١ ـ ٢ م وواجهة قصر المشتى وترجع الى القرن الثامن الميلادى وصور جدران قصير عمره حوالى سنة ٧٦٢م ٠ وكانت الآثار المسيحية فى مصر وسوريا والعراق مصدرا لموضوعات زخرفية فى آثار العصر الاسلامى الأول ٠٠ وتأثر الفن الاسلامى بالزخارف المسيحية الشرقية المحفورة على العاج والمجوهرات » ٠ والى الفن الساسانى يرجع فضل خلق أسلوب جديد من الزخارف النحتية الشبيهة بالأزهار ، والقائمة على الأصول الموروثة عن الفنيين الأشوريين والاخمينى ، ومن أهم خصائصـــها انتظام التكرار والتماسك ، وتعتبر تفريعات المراوح النخيلة ومشتقاتها المتعددة فى الفن الساسانى الأصول المباشرة لمثيلاتها فى الآثار الاسلامية الأولى ـ كما فى قصر المشتى وتيجان بعض الأعمدة المرمرية فى سوريا ، وأدى تطور هذه الأشجار تدريجيا الى أسلوب زخرفى اسلامى أصيل ٠ واكتسب الفن الاسلامى عناصر وأساليب زخرفية جديدة نتيجة الاتصال بقبائل الترك الرحل فى شرق ايران ووسط آسيا ، مثل طريقة الحفر المائل المشطوف فى المنحوتات الحجرية والجصية والخشبية فى أوائل العصر العباسى والتفريعات الهندسية ذوات الأوراق المستديرة ٠ وتوضيح زخارف آثار العصر العباسى الأول نشأة أشكال التوريق Arabesque فى الزخرفة الاسلامية ، وان لم يكتمل تطورها الا خلال القرن الحادى عشر ، وهناك

(١٢٢) كرد على : خطط الشام جـ ٤ ص ١١٨ ٠

مجموعة من التيجان المرمرية عثر عليها فى الرقة فى المنطقة بين الرصافة ودير الزور ، واقتبست المراوح النخيلية من الفن الساسانى وأصبحت من مميزات الأسلوب العباسى (١٢٣) .

وقد تقدمت فنون أخرى فى المنطقة مثل صناعة الأوانى الزجاجية ونسج الحرير ، وكان قد شاع فى سوريا بوجه خاص منذ الحكم الرومانى زخرفة الأوانى الزجاجية بالاقراص أو الخيوط المضافة الى سطح الاناء . وتوجد مجموعة أقمشة حريرية من نهاية القرن الثامن أو بداية التاسع زخارفها برتقالية على أرضية خضراء يمكن نسبتها الى مصانع الشام . واستخدم المسلمون غالبا فى القرنين التاسع والعاشر فنانين من مسيحيى الشام النساطرة واليعاقبة فى تصوير كتبهم وتذهيبها (١٢٤) .

---

(١٢٣) ديماند : الفنون الاسلامية ترجمة احمد عيسى ص ٢٤ : ٦ ، ٢٩ : ٣١ ، ٣٥ ، ٩١ - ٢ .

(١٢٤) ديماند : الفنون الاسلامية ترجمة احمد عيسى ص ٢٣٠ - ١ ، ٢٥٨ ، ٤١ .

ثالثا : الدين فى الثغور

كان أول مركز للمسيحية السورية المنظمـــة فى مدينة انطاكية ، وأصبحت كنيسة انطاكية ذات أهمية خاصة فى العالم المسيحى وكانت انطاكية فى آخر أيامها تأتى فى مرتبة القسطنطينية والاسكندرية كمقر بطريركى ، وقد عقدت فيها ١٠ مجامع كنسية بين سنة ٢٥٢ ، سنة ٣٨٠م واطلق اسم انطاكية على احدى مدارس اللاهوت التى كان من أفرادها يوحنا فم الذهب المتوفى سنة ٤٠٧م ٠ وبعد ان ارتقت انطاكية الى مكانة الزعامة فى الجزء الذى يتكلم اليونانية فى سورية ، بدأت **ادسا (الرها)** بالارتقاء الى مكانة مشـابهة فى البـلاد التى تتكلم الآرامية (السريانية) وكانت ادسا أقدم مركز للمسيحية فيما بين النهرين كما كانت مهد الأدب السريانى ٠ وقد أدت المجادلات حول طبيعة المسيح فى القرنين الرابع والخامس الى انقسام المسيحية الســـورية الى عدد من الفرق ، وكانت **قنسرين** فى شـمالى ســـوريا مركز هـــاما لاذاعة تعـــاليم الطبيعة الواحدة (١٢٥) ٠

وقد تداخل الدين فى رحـى الصراع بين الفرس والروم ، فاقلق الفرس انتشــــار المسيحية فى أرمينية ، ونشب الاحتكاك بين السلطات الايرانية الحـــاكمة والرعايا الأرمن المسيحيين ، واتجـــه المسيحيون

(١٢٥) حتى : تاريخ سوريا ولبنان وفلسطين حـ ١ ترجمة دكتور حداد ورافق ص ٣٧٠ ـ ١ ، ٤١٤ ، حـ ٢ ترجمة دكتور اليازجى ص ١٣٩ ، ابن رستة : الاعلاق النفيسة ص ٨٣ ٠

الأرمن بأنظارهم الى الامبراطور البيزنطى ، وقد بذل المرازبة الايرانيون الذين تعاقبوا على ولاية أرمينية مساعى جدية لتحسين أحوال الولاية وأعيدت حرية العقيدة اليها بعــد وفاة يزدجرد سنة ٤٥٧ م وقد أضر بالنصارى السريان استفحال الخلافات الدينية وتعرضوا للاضطهاد ولكن بدرجة أقل مما حدث من قبل فى عهد سابور الثانى (٣٠٩ أو ٣١٠ : ٣٧٩ م) .

وحين استقرت النسطورية على أنها المذهب الوحيد لنصارى ايران ابتعدت النصرانية فى الشرق عن نصرانية الغرب ، فحرم على رجال الدين أن ينذروا الرهبنة وانشئت مدرسة للقساوسة فى نصيبين على أثر اغلاق الامبراطور زينون (٤٧٤/٤٩١م) لمدرسة الرها . وحينمـــا انتشر النساطرة الذين طردوا من الامبراطورية البيزنطية فى العراق وايران خلال القرن الخامس ، فتحت مدارس نصرانية خاصة كان الطب يعلم فيها وأشهرها مدرسة جند يسابور ، وقد بقيت الى مابعد الساسانيين وظلت مركزا هاما لدراسة الطب فى القرون الاســـــلامية الاولى . ولكى نحدد العلاقات بين المسيحية والدين الرســـمى فى أيران ابان القرنين الرابع والخامس الميلاديين نسوق ما قاله سخاو : « لقد أجيزت المسيحية كل حين فى الامبراطورية الساسانية حتى فى أعنف أوقات الاضطهاد ، ومن الحق ان جماعات دينية فى المدن والقرى كانت عرضة فى الغالب لمضايقات ونكايات الموظفين الفرس الطامعين . **وقد اقامت المســيحية الشرقيــــة دستورها فى مجامع سنة ٤١٠ ، سنة ٤٢٠م التى عقدت فى عاصمة الدولة وتحت أنظار الحكومة ، وقد تم هذا وهو بليغ الدلالة بمساعدة رسولين من قبل امبراطور بيزنطة هما الأسقف (ماروثا) اسقف ميافارقين و (اكاس) اسف آمد** . وقدالف (أفرعت) مواعظ فى وقت الاضطهاد المروع الذى وقع على النصارى أيام سابور الثانى ولكنه لم يذكر مايدل على ان الديانة المسيحية فى عهده لم تكن تقام كالعادة دون عائق وكان الاضـطهاد يقع على رجال الدين خاصة ولم يذكر فى أى نص ان أحدا طلب من النصارى المدنيين أن يرتدوا عن دينهم . ويظهر ان النصـــارى فى دولتى الفرس والروم قد اتبعوا فى علاقاتهم القانونية قواعد القانون السريانى الرومانى Leges Constantini Theodos Leonis مع تطبيقاتها المحلية . وكانت الاضطهادات الكبيرة نادرة وقد استطاع النصارى أكثر الأحيان العيش هادئين تحت الارشاد الروحى من جثالقتهم وأساقفتهم » .

وقد اشتد الصراع بين النساطرة واليعاقبة ، وكان بين النساطرة

أنفسهم أنواع من المنازعات • وكان لغزوات الامبراطور هرقل فى أراضى ايران رد فعل فى حال النصارى ويقول جويدى فى Anonyme de Guidi ان كسرى أقسم حين انتصر فى الحرب ليأتين على جميع الكنائس فى الدولة ولا يترك ناقوسا منها وقد اضطهد النساطرة واليعاقبة على السواء (١٢٦) •

وكانت النزعة الدينية مسيطرة غلابة فى العصور الوسطى ، وهى التى كانت تلون التفكير السياسى والحضارى وكان المسلم والمسيحى يرى نفسه صاحب الدين الحق الاوحد • فكان البيزنطى الذى يعيش داخل الامبراطورية ينتسب الى (شعب الله) وأما من كان يعيش خارجها فهو لم يصل بعد الى الانسانية الكاملة ، وفى الإسلام كذلك من كان يقسم العالم الى (دار الاسلام) و (دار الحرب) ، واستشعر المسيحيون والمسلمون ضرورة التبشير بالدين فى المناطق التى لا تدين بها • واتسم اشعال الحرب بين الفريقين بسمة دينية ، فالقتيل فيها شهيد ، وكلا الجانبين يقاتل أعداءه من أجل رسالة هى فى صالح الانسانية وفى صالح أعدائه أنفسهم بالتالى •

وكانت الثقافة هى الدين والدين هو الثقافة• وكانت الدولة تستمد مبرر وجودها المعنوى من كونها هى حامية العقيدة وهى تتطابق فى رقعتها مع المنطقة التى تسودها عقيدة الحاكم ، وكان معنى المواطن والوطن ــ ان جاز استعمالها ــ الانتساب لعالم الاسلام أو المسيحية اليونانية أو اللاتينية أكثر منه الانتماء الى أية دولة خاصة فى داخل تلك الوحدات ، ويقول جرونيباوم « وعلى حين أن هذا الشعور بالوحدة كان على الراجح أقوى ما يكون فى الاسلام فان أوربا الغربية نفسها لم تنس قط وهى فى غمرة حروبها القتالة المتواصلة اتحادها فى العقيدة الكاثوليكية ضد الكفار » • على انه يذكر فى موضع آخر : « ان الخصومات الدولية بين الاسلام وبين بيزنطة أو الغرب لم تكن تؤثر فعلا فى حياة المسلم العادى المقيم خارج مناطق الثغور » •

ولم يبرح شعور العداء لبيزنطة يشتد فى مناسبات عديدة حتى شارف القرن العاشر نهايته ، « ولكن لم يحدث قط ان الامبراطورية البيزنطية ولا أوربا هددتا بيضة الاسلام الاصلية ، لذلك لم يكن للتدخل السياسى من قبل الغرب الا أهون الاثر فى تطور الحضارة الاسلامية وما

(١٢٦) كريستنسن : ايران تحت حكم الساسانيين : ترجمة دكتور الخشاب ص ٢٧٠ ، ٢٧٤ ــ ٢٨٣ ، ٥ ، ٤ ــ ٤٧٢ ، ٣ •

كان للخطر الخارجي سوى ثمرة ضعيفة هي مجرد اذكاء البغضاء في النفوس ولم يحدث قط ان اضطر المسلمون الى حشد كل ماوهبوا من موارد ثقافية وسياسية للقيام بقتال في سبيل البقاء ، وقد أفضى هذا الوضع المواتي الذي كان العالم الاسلامي ينعم به وذكريات الانتصارات الباهرة الاولى التي أحرزتها جيوشه الى صبغ احساسه بالاكتفاء الذاتي بشعور من التفوق كانت أحداث الزمان تفقده مبرراته يوما بعد يوم (٣٣٧) » ٠

وهكذا شهدت منطقة شمالي الشام والفرات صراعا عقائديا بين الاسلام والمسيحية ، وقد شهدت من قبل صراعا بين المسيحية البيزنطية والمعتقدات الفارسية ، ولكن الاسلام كان أكثر اصرارا واقل تساهلا ٠ وقد ساعدت الخلافات الطائفية المسيحية على تيسير السبيل أمام الاسلام في بعض أقطار الدولة البيزنطية مثل الشام ، ولكن قام خلاف ديني عميق بين المجتمع الاسلامي والمجتمع المسيحي ، وقد كان هذا الخلاف الديني سببا أساسيا من أسباب العداء بين الخليفة الاسلامي الذي يرعى دين الله وبين الامبراطور البيزنطي الذي اعتبر واجبه الأول أن يتعهد في رعاياه حكم الايمان وأن يلزمهم مذهبه الروحي (١٢٨) ٠

الجهاد الديني بين المسلمين والبيزنطيين :

ونحن نلمح الطابع الديني في الجهاد بين المسلمين والبيزنطيين منذ معارك الفتح المبكرة ، فنحن نقرأ في أخبار استعدادات الروم قبل واقعة اليرموك «ولزم الروم خنادقهم عامة شهر ، يحضضهم القسيسون والرهبان وينعون لهم النصرانية ، حتى استبصروا فخرجوا للقتال ٠٠(١٢٩) » ٠

وقد كان القائد البيزنطي يذكر جنده دائما بأن حربهم (حرب صليبية) النصر فيها من عند الله وحده ، ولابد للمرء من القيام بواجبه حتى ينال هذه الهبة من الله « ومازالت السماء تمنح النصر لجيوش روما ، ما آمن الجنود بهذا التقليد الروماني العسكري وحافظوا عليه » ٠ وكان وعاظ الميدان يعرفون كيف يستثيرون حمية الجند بالحديث عن واجباتهم

(١٢٧) جرونيباوم : حضارة الاسلام ترجمة جاويد ص ٢٢ ـ ٣ ، ٢٦ ، ٥٠ ـ ١ ٠

(١٢٨). Gaudefroy-Demombynes, Platonov : Le Monde Mus. et Byz. pp. 322, 325.

(١٢٩). الطبري حـ ٤ ص ١٣٣ رواية السري عن شعيب عن سيف ٠

تجاه الامبراطور والامبراطورية ، وتجاه الله والمسيحية ، وبتأكيد جزاء البطوله • وكان اليوم يفتتح ويختتم بالصلاة ، ويجرى القداس خلال الحملات • وتشير صيحه (أعلاء الصليب) الى تغلغل الروح الدينية فى الجند ، وكان الموت فى الميدان يعتبر استشهادا • وتدل أناشيد الحرب البيزنطية على أن روح القتال ابان مجد الجيش كانت مزاجا من الثقة بالله والاعتداد بالنفس ، ويظهر هذا جليا فى ملحمة ديجنيس أكريتاس وقد فطن نقفور فوقاس الذى يصفه متز بأنه أكبر عدو للاسلام فى القرن الرابع الهجرى الى قيمة الشهادة من الناحية الحربية فأراد أن يعلن أن كل من يموت فى حرب المسلمين هو شهيد ولكن الكنيسة لم تشأ أن تلبى رغبته سخطا منها عليه لأسباب مالية (١٣٠) •

وفى الجانب الآخر ، نجد معاذ بن جبل يخرج على الناس فى معركة اليرموك ، « فجعل يذكرهم ويقول : يا أهل القرآن ومستحفظى الكتاب وأنصار الهدى والحق ، ان رحمة الله لا تنال وجنته لا تدخل بالامانى ، ولا يؤتى المغفرة والرحمة الواسعة الا الصادق المصدق • ألم تسمعوا لقول الله عز وجل (وعد الله الذين آمنوا منكم وعملوا الصالحات • الخ الآية) ، فاستحيوا رحمكم الله من ربكم أن يراكم فرارا من عدوكم ، وأنتم فى قبضته وليس لكم ملتحد من دونه ، ولا عز بغيره — يمشى فى الصفوف ويذكرهم ، حتى اذا بلغ من ذلك ما أحب ورأى من الناس الذى سره بهم ، ثم حرضهم ، انصرف الى موقفه رحمة الله » • وسار أبو سفيان فى صفوف المسلمين ، فكانت لهجته الحماسية مشوبة بنغمة واقعية فقال « يامعشر المسلمين ، أنتم العرب ، وقد أصبحتم فى دار العجم منقطعين عن الأهل ، نائين عن أمير المؤمنين وامداد المسلمين • وقد والله أصبحتم بازاء عدو كثير عدده شديد عليكم حنقه ، وقد وترتموهم فى أنفسهم وبلادهم ونسائهم ! • والله لا ينجيكم من هؤلاء اليوم ، ولا يبلغكم رضوان الله غدا ، الا صدق اللقاء والصبر فى المواطن المكروهة ، الا أنها سنة لازمة ، وان الأرض وراءكم ، بينكم وبين أمير المؤمنين وجماعة المسلمين صحارى وبرارى ، ليس لأحد فيها معقل ولا معقول الا الصبر ورجاء ما وعد الله فهو خير معول ، فامتنعوا بسيوفكم وتعاونوا بها ولتكن هى

(١٣٠) بينز : الامبراطورية البيزنطية — ترجمة دكتور مؤنس وزايد ص ١٨٠ •
Byzantium : pp. 106, 117, 302-3.

ميتز : الحاضات الاسلامية فى القرن الرابع الهجرى — ترجمة دكتور ابى ريدة جـ ٢ ص ٣٩ •

الحصون • قالوا : ثم رجع أبو سفيان الى النســاء اللاتى مع المسلمين ، وكان كثيــر من المهاجرات قد حضرن يومئذ مع أزواجهن وأبنــائهن ، فاجلسهن خلف صفوف المسلمين وأمر بالحجارة فالقيت بين أيديهن ، ثم قال لهن : لا يرجع اليكن أحد من المسلمين الا رميتموه بهذه الحجارة ، وقلتن : من يرجوكم بعد الفرار عن الاســلام وأهله وعن النساء بأرض العدو ؟ فالله لله • قال : ثم رجع أبو سفيان فنـادى المسلمين فقال : يا معشر أهل الاسلام حضر ماترون ، فهـذا رسـول الله والجنة أمامكم والشيطان والنار خلفكم ، ثم وقف موقفه • قالوا : وزحفت الروم مكانها الى المسلمين يدفون دفيفا معهم الصلبان ، وأقبلوا بالاساقفة والقسيسيين والرهبان والبطارقة ، لهم رجل كرجل الرعد ، وقد تتابع عظماؤهم على الموت ، ودخل منهم ثلاثون ألفا ـ كل عشرة فى سلسلة لئلا يفروا •• قال : ثم ان الروم تداعوا وتحاضوا ، وذكرتهم الاساقفة والرهبان ، قال: فجعل معاذ اذا سمع ذلك منهم يقول : اللهم زلزل أقدامهم وأرعب قلوبهم، وانزل السكينة علينا وألزمنا كلمة التقوى وحبب الينا اللقاء ورضــنا بالقضاء(١٣١) » •

ونقرأ فى تاريـخ النســطوريين ما يؤكد النظرة الدينية الى صراع المسلمين والبيزنطيين « فى هذه الايام لما إتصل بهرقليس مالحق أصحابه واستيلاء العرب على مملكة الفرس ، جمع الاساقفة من أهل الشام كلها الى انطاكية ، وسألهم عما عندهم فى أمر القــوم الذين ظهروا من العرب وملكهم وما يذكره الكتاب من حالهم ، فاجاب كل واحد منهم بما عنده ، فقال هو لجماعتهم ولمن حضر من قواده : هؤلاء القوم بمنزلة الرمس الذى هو الواسطة بيْن النهــار والليل ، فليس فيه ضـــوء ولا ظلمــة لانهم لم يستضيئوا بنور سيدنا المسيح الذى هو شمس العالم ولا هم منهمكون فى ظلمة عبادة الاوثان • فلما سمع الاساقفة قوله عرفوه ماتذكره التوراة من بركة ابراهيم لاســماعيل وانه لا بد من ظهـور هــذا الامر • فتقدم هرقليس الى أصحابه ألا يغالبوا أمر الله ولا يقاتلوا القوم وأن يقتصروا على حفظ مدنهم وأعمالهم ، وان طولبوا بأداء الجزية أجابوا اليها • ورحل عن الشام آيسا منهــا ومن مصر ونصــيبين ونواحيهــا ، ومضى الى القسطنطينية آيسا مغموما بما جرى » وانتقل أكثر أهل تلك البــلاد الى دواخل الروم وتركوا أموالهم • ثم قال هرقليس لاصحابه : الله عز وجل

(١٣١) ابن عساكر : تاريخ مدينة دمشق م ١ ص ٥٣٦ : ٨ ، ٥٤٩ •

عادل ، وليس يعطى على الوجوه ، والا فما السبب فى نقل الملك عنا وهو فى أيدينا أكثر من ألف سنة وقد أكلنا خيرات هذه الارض كما قيل فى التوراة ويسلمه الى قوم لم يعرفوا خبزا قط وانما عاشوا فى البر يأكلون الثمار ويسكنون الخيم ؟ فاستصوب بعضهم قوله وأنكره البعض وعاودوا اقفال العرب فأبادوهم(١٣٢) » .

وقد حفلت الروايات الاسلامية بذكر نوادر البطولة : روى ابن قتيبة ان مسلمة بن عبد الملك حاصر حصنا فندب الناس الى نقب منه ، فما دخله أحد . فجاء رجل من عرض الجيش فدخله ففتحه الله عليهم ، فنادى مسلمة : اين صاحب النقب ؟ فما جاءه أحد ، فنادى : انى قد امرت الآذن بادخاله ساعة يأتى ، فعزمت عليه الا جاء . فجـاء رجل فقال : استأذن لى على الامير ، فقال له : أنت صاحب النقب ؟ قال : انا أخبركم عنه . فاتى مسلمة فأخبره عنه ، فاذن له فقال له : ان صاحب النقب يأخذ عليكم ثلاثا : الا تسودوا اسمه فى صحيفة ــ الى الخليفة ــ ولا تامروا له بشىء ، ولا تسألوه ممن هو . قال : فذاك له . قال : انا هو ــ فكان مسلمة لا يصلى بعـدها صلاة الا قال : اللهم اجعلنى مع صاحب النقب (١٣٣) .

وينقل الطبرى عن الواقدى فى اخبار سنة ٨٨هـ ان مسلمة ابن عبد الملك والعباس بن الوليد بن عبد الملك كانا على الجيش فى فتح طوانه ، فهزم المسلمون العدو ثم تحول الموقف « فانهزم النـاس حتى ظنوا الا يجتبروها ابدا ، وبقى العباس معه نفر منهم ابن محيريز الجمحى ، فقال العباس لابن محيريز : اين أهل القرآن الذين يريدون الجنة ؟ فقال ابن محيريز : نادهم يأتوك . فنادى العباس يا أهل القرآن : فاقبلوا جميعا فهزم الله العدو حتى دخلوا طوانة » (١٣٤) .

وقد كان المسلمون يؤمنون انه لن تقوم الساعة حتى يستولوا على القسطنطينية ويزيحوا الروم عن آخر معاقلهم ، وكان المسيحيون ــ لاتين أو اغريق ــ يعتقدون انه لن تقوم حتى يدخل ملكهم بيت المقدس ، وهكذا توفر للفريقين حافز معنوى يستثيرهم دائما للنضال مادام لابد من تحقيق الأهداف الكبرى النهائية قبل فناء العالم ــ على حد تعبير بارتولد(١٣٥) .

(١٣٢) تاريخ النسطوريين ــ القسم الثانى ص ٦٢٦ ــ ٧ .
(١٣٣) ابن قتيبة : عيون الاخبار جـ ١ ص ١٧٢ .
(١٣٤) الطبرى حـ ٨ ص ٦٤ .
(١٣٥) Vasiliev : L'Emp. Byz. Vol. I. p. 315.

ومن هنا اقبل المسلمون يلتمسون الاجر في جهاد الاعداء ، فقد طلب الحسين من على أن يلحق بالثغور كحل للازمة بينـــه وبين يزيد بن معاوية ، وأغزى الرشيد ابن القاسم الصائفة سنة ١٨٧هـ « وجعله قربانا له ووسيلة وولاه العواصم » (١٣٦) وتعددت الروايات عن الصالحين المرابطين للجهاد فى الثغور ومن ذلك جعفر بن عبد الواحد من ســلالة سليمان بن على العباس « قاضى القضاة بسر من راى ، ولزم الثغور وكان فاضلا » ، ومحمد بن محمد بن عبد العزيز من سلالة عبد الله ابن عمر بن الخطاب « لزم الثغور حتى مات هناك وولده بطرسوس » ٠ وكان الجهاد رهبانية الاسلام ، والى الثغور كان يهرع جرحى القلوب يشغلون أنفسهم فى ميدان القتال ، روى أن الحكم بن عبد المطلب فجع فى جارية قريبة الى قلبه طلبها أبوه منه ليزوجها لابنه الآخر واسمه الحارث ، وكان الحــكم بارا بأبيه فانفذ رغبته « ولزم الثغور حتى مات بالشام » ٠ وقال بعضهم : اتيت الشام فمررت بديرحرملة ، وبه راهب كان عينيه عدلا مزاد ، فقلت: ما يبكيك ؟ فقال : يا مسلم ، ابكى على ما فرطت فيه عمرى ، وعلى يوم مضى من أجلى لم يتبين فيه عملى ٠ قال : ثم مررت بعد ذلك فسألت عنه فقالوا : اسلم وغزا ، فقتل فى بلاد الروم (١٣٧) ٠

وكان المسلمون يعتزون باستشهاد من يمضى منهم فى قتال الروم، ومن ذلك ان زراره بن جزء به عمرو بن عوف بن كعب بن أبى بكر بن كلاب سيد أهل البادية غزا ابنه عبد العزيز مع يزيد بن معاوية بلاد الروم « فورد على معاوية كتاب ابنه يزيد ينعى عبد العزيز هناك ، فقال: هذا كتاب ينعى سيد العرب ، فقــال له زرارة ، هو والله يا أمير المؤمنين ابنى وابنك ــ وذهب أكثر قومه فى أرض الروم » ٠ (١٣٨) وكان غزاة المسلمين من كل بلد وناحية يتدفقون كالســـيل الى طرسوس ، وذكر الاصطخرى وابن حوقل انه : « ليس من مدينة عظيمة من حد سجستان وكرمان الى مصر والمغرب ، الا وبطرسوس لأهلها دار ينزل بها غزاة تلك البلدة ، ويرابطون بها اذا وردوها ، وتكثر لديهم الصلات ، وترد عليهم الأموال والصدقات العظيمة الجسيمة ، الى ما كان الســلاطين يتكلفونه وأرباب النعم يعانونه وينفذونه متطوعين متبرعين ، ولم يكن فى ناحية

(١٣٦) الطبرى حـ ٦ ص ٢٢٠ ، حـ ١٠ ص ٨٩ ٠

(١٣٧) ابن حزم : جمهرة انساب العرب ص ٣٠ ، الزبيرى : نسب قريش ص ٣٥٩ ، ٣٤٠ ــ ١ ، ابن قتيبة : عيون الاخبار م ٢ ص ٢٩٧ ٠

(١٣٨) ابن : جمهرة انساب العرب ص ٢٦٧ ٠

من النواحي المذكورة رئيس ولا نفيس الا وله عليها وقف من ضيعة ذات مزارع وغلات أو مسقف فنادق » • وكان أهل الثغور يكرمون في بغداد، ويحكى عن أبي علي القالي اللغوي المشهور المتوفى سـنة ٣٥٦ هـ سنة ٩٦٧ م انه سمي القالي لما انحدر الى بغداد ، في رفقة أهل قالي قلا ، وكانوا يكرمون لمكانهم في الثغر ، فنسب اليهم لكونه معهم ، وثبت على ذلك • بعض المكدين يتظاهرون بجمع المال للجهاد أو فك الأسرى ، وكثير من هؤلاء المحتالين كانوا يركبون دوابا كالغزاة ويطوفون البـلاد • وفي مصر كان القاضي يبعث ما يجتمع من أموال السبيل لتفرق على ثغورها المسماة بالمواحيز من العريش الى لوبية لتعطى للمتطوعة والفقراء من أهل الديوان• وكانت بلاد ماوراء النهر تلي طرسوس من حيث وقوف أهلهـا للجهاد ، لما اشتهر به أهلها من الشوكة والبأس والتضحية • وكان في بيكند بين بخارى ونهر جيحون ما يقرب من الف رباط للغزاة المجاهدين ، وكان باسفيجاب الف وسبعمائة رباط • وكانت رغبة الخراسانيين في الجهـاد وحميتهم له سببا في سيرهم الى الجبهة الغربية لقتال الروم عنـدما توالت انتصاراتهم على المسلمين في معارك الحدود ، حتى خرج عشرون الفا من خراسان سنة ٣٥٥ هـ يظهرون انهم غزاة حتى بلغوا الحدود الشرقية لدولة بني بويه ، وقد اصطدموا بابن العميد وزير ركن الدولة وطالبوه بالمال والرجال ، ثم كروا راجعين فاشلين الى ديارهم آخر الأمر • (١٣٩)

السياسة الدينية للمسلمين والبيزنطيين :

جرت العادة أيام الخلفاء المسلمين على تحديد القيود التي يلتزمها غير المسلمين في حياتهم العامة والخاصة ، وتقرير الحقوق التي يمتعون بها في دار الاسلام • وهناك عهد يعرف بعهد عمر بن الخطاب له صور متباينة ، وهو محل شك في صياغته ومعانيه ، والعهود الاخرى التي أعطيت لمدن الشام كانت بالغة البساطة • وقد جاء في بعض العهـود شرط على الذميين : **الا يدلوا على عورة المسلمين ، والا يلبسـوا السـلاح في عيدهم ، والا يظهروا السـلاح في بيوتهم** • ويقول ترتون « قد يدعي البعض ان موقع بلاد الشام على حدود الدولة الاسلامية جعلها أكثر من غيرها تعرضا للحروب مع البيزنطيين ، وان هذا الوضع أدى الى فرض

---

(١٣٩) متز : الحضارة الاسلامية ــ ترجمة دكتور أبي ريدة جـ ٢ ص ٦٤ : ٧ ، الاصطخري المسالك والممالك ص ٤٧ ، ابن حوقل •

قيود معينة على سكانها ، ويكفي للرد على ذلك ان نقول ان هناك قسما واحد من الولاية كان وحده دون غيره عرضة لخطر الغزو الاجنبي ، ثم هناك الجزيرة — أعني شمالي العراق التي كانت في نفس الوضع ان لم تكن أكثر منه عرضة للاحتكاك الحربي بالروم ، لكنا لا نسمع شيئا عن تلك القيود التي فرضت على أهل الشـــام وان تكن قد اتخذت فيما بعد في ربوع العالم الاسلامي ، لكن ليس ثمة بينة بين ايدينا تدلنا على انهـا طبقت في بلاد الشام زمن عمر ٠٠ بذلك ٠ ننتهي الى خاتمة لانستطيع منها فكاكا هي اننا لا نعرف كيف كان عهـد عمر ، ولا تعرف أية مجموعة من معاهدات الصلح يمكن أن توسم باسمه ، والظاهر انه كان من التقاليد المرعية في مدارس الفقه وضع نماذج للعهود والمعاهدات » (١٤٠) ٠

وقد روى ابن العديم ماذكر أنه شرط عمر على أهل قنسرين ، وكان مما جاء فيه « ٠٠٠ على الغني ثمانية واربعون وعلى الوسط أربعة وعشرون وعلى المدقع اثنا عشر يؤديها بصغار ، وعلى مشاطرة المنـازل بينهم وبين المسلمين ، وألا يحدثوا كنيسة الا ما كان في أيديهم ولا يضربوا بالناقوس الا في جوف البيعة ولا يرفعوا أصواتهم بالقراءة ولا يرفعوا صليبـا الا في كنيسة ٠ وأن يؤخذ منهم القبل من الكنائس للمساجد ، وأن يقروا ضيف المسلمين ثلاثا ، وعلى أن لا تكون الخنازير بين ظهراني المسلمين ، وعلى أن يناصحوهم فلا يغشوهم ولا يمالئوا عليهـم عدوا وأن يحملوا راحل المسلمين من رستاق وأن لا يلبسوا السلاح ولا يحملوه الى العدو ولا يدلوا على عورات المسلمين ٠ فمن وفى وفى المسلمون له ومنعوه بما يمنعون به نساءهم وأبناءهم ٠ ومن انتهك شيئا من ذلك حل دمه وماله وسبي أهله وبرئت الذمة منه وكتب بذلك كتـابا ٠٠٠ فدخل في هذا الصلح أهل الجزيرة ٠ وقبل ذلك ما كان أبو عبيدة فارقهم على أربعة دراهم وعباءة على كل جلجـلة على أن يكون عمر الغارض عليهم اذا قدم بلادهم » ٠ وقد اكتفى البلاذري بالاشارة الى أن صلح قنسرين كان كصلح حمص ، وبالنسبة لصلح حمص أجمل القول أنه كان على ١٧٠ر٠٠٠ دينار ٠

ومهما يكن من أمر فان الذميين ملزمون على كل حال بمراعاة ظروف الدولة الاسلامية السياسية والحربية ، وعليهم الا يمالئوا عدوها ، وقد جعل ابن القاسم مما ينقض عهد الذميين أن يجمعوا على قتال المسلمين أو يؤوي — أحدهم — للمشركين جاسوسا ، أو يعين على المســلمين بدلالة

(١٤٠) ترتون : أهل الذمة في الاسلام — ترجمة حسن حبشي ص ٩ : ١٥ ، ١٨ ،

فيكاتب المشركين بأخبار المسلمين » (١٤١) ٠

وكان عدد من القبائل العربية النازلة على تخوم سوريا والعراق كبني غسان وبكر وتغلب وتنوخ قد اعتنق النصرانيـــة ، وقد فرضت الجزية عليهم واعتبروا من أهل الذمة وجردوا من السلاح مقابل حمـاية المسلمين لهم ٠ ويقرر الدكتور حتى ان وضع أهل الذمة « قد أتاح لهم أن يتمتعوا بقسط وافر من الحـــرية وذلك في مقابل اداء ضريبة الخراج والجزية ، على انهم – اذ لم يكونوا من صميم المجتمع الديني ذى السيادة في البلاد كانوا في منزلة اجتماعية وسياسية ثانوية ٠ وظل مرجعهم في الأمور المدنية والقضائية الى رؤسائهم الروحيين الا في القضايا التي مست المسلمين » ٠ ويرى الدكتور حتى ان المسلمين كانوا أقل تساهلا في شأن النصارى المنحدرين من أصل عربي ، فقد قتل كبيرا بنى تغلب لامتناعهما عن اعتناق الاسلام في عهـــدى عبد الملك فالوليـــد ، ودعى النازلون في حوار قنسرين من التنوخيين الى الاســـلام على أثر فتح الشـــام ، وأجبر المهدى العباسى المقيمين منهم في جوار حلب على اعتناق الاسلام وعمد الى هدم كنائسهم (١٤٢) ٠ على أن ما ذهب اليه الدكتور حتى في شأن سياسة المسلمين مع العرب النصارى ليس على اطلاقه ، فقـد أراد عمر أن يأخذ الجزية من نصارى بنى تغلب بالجزيرة فهربوا « فتفرقوا فيما يلى الشام والجزيرة من بلاد الروم » فقيل لعمـــر : انهم قوم من العرب ذائفون من الجزية وهم قوم شديدة نكايتهم فلا يغنين عدوك عليهم بهم ، فارسل عمر في طلبهم ، فردهم واضعف عليهم الصدقة ٠

وقد روى البلاذرى ما ينبيء عن اخلاص أهل الشـام غير المسلمين للحكم الاسلامى « لما جمع هرقل للمسلمين الجموع وبلغ المسلمين اقبالهم اليهم لوقعة اليرموك ، ردوا على أهل حمص ما كانوا أخذوا منهم من الخراج وقالوا : قد شغلنا عن نصرتكم والدفع عنكم فأنتم على أمركم ، فقال أهل حمص : لولايتكم وعدلكم أحب الينا مما كنا فيـــه من الظلم والغشم ، ولندفعن ضد هرقل عن المدينـــة مع عاملكم ٠ ونهض اليهـود فقالوا : والتوراة لا يدخل عامل هرقل مدينة حمص الا أن نغلب ونجهد فاغلقوا

---

(١٤١) البلاذرى : فتوح البلدان ص ١٣٨ ، ١٥٢ ، ابن العديم : بغية الطلب – مخطوط ص ٣ – ٤ ، ترتون أهل الذمة في الاسلام – ترجمة حبشي ص ١٨ ٠

(١٤٢) حتى : تاريخ سوريا حـ ٢ ترجمة دكتور اليازجى ص ٩٨ – ٩ ، ترتون : اهل الذمة فى الاسلام ترجمة حبشى ص ٩٤ – ٥ ٠

الابواب وحرسوها ، وكذلك فعل أهل المدن التى صولحت من النصارى واليهود ، وقالوا ان ظهر الروم وأتباعهم على المسلمين صرنا الى ما كنا عليه ، والا فانا على أمرنا ما بقى للمسلمين عدد • فلما هزم الله الكفرة واظهر المسلمين فتحوا مدنهم ، وأخرجوا المقلس يلعبوا ، وأدوا الخراج، وسا أبو عبيدة الى جند قنسرين وانطاكية ففتحها » (١٤٣) • على أن الطبرى يروى عن أهل الجزيرة موفقا آخر ١٧ هـ سنة ٦٣٨ م ، فقد تكاتب الروم مع أهل الجزيرة يريدون طعن أبى عبيدة والمسلمين بحمص من الحلف « فضم أبو عبيدة اليه مسالحة وعسكروا بفناء مدينة حمص ، واقبل خالد من قنسرين حتى انضم اليهم فيمن انضم من أمراء المسالح••• فلما وقع الخبر لعمر كتب الى سعد بن مالك : ان اندب الناس مع القعقاع ابن عمرو وسرحهم من يومهم الذى يأتيك فيه كتابى الى حمص •• وكتب اليه أيضا : ان سرح سهيل بن عدى الى الجزيرة فى الجند وليات الرقة فان أهل الجزيرة هم الذين استثاروا الروم على أهل حمص وان أهل قرقيسياء لهم سلف ، وسرح عبد الله بن عتبان الى نصيبين فان أهل قرقيسياء لهم سلف ، ثم لينفضا حران والرهاء • وسرح الوليد ابن عقبة على عرب الجزيرة من ربيعة وتنوخ •• ولما بلغ أهل الجزيرة الذين أعانوا الروم على أهل حمص واستثاروهم وهم معهم مقيمون عن حديث من الجزيرة منهم بأن الجنود قد ضربت على الكوفة ولم يدروا الجزيرة يريدون أم حمص تفرقوا الى بلدانهم واخوانهم وخلوا الروم •• وقد ارفض أهل الجزيرة عن حمص الى كورهم حين سمعوا بمقبل أهل الكوفة ، وذلك انهم قالوا فيما بينهم : أنتم بين أهل العراق وأهل الشام فما بقاؤكم على هؤلاء وهؤلاء » (١٤٤) •

وقد حاول المسلمون استمالة **السامرة ، والجراجمة** ، وقد صالح أبو عبيدة الاخيرين « على أن يكونوا أعوانا للمسلمين وعيونا ومسالح فى جبل اللكام والا يؤخذ بالجزية ، وأن ينفلوا أسلاب من يقتلون من عدو المسلمين اذا حضروا معهم حربا فى مغازيهم » •

واستمرت هذه الميزات للجراجمة فى العهود الاسلامية المتتابعة رغم اتصالاتهم بالروم « فوجه الوليد بن عبد الملك اليهم مسلمة بن عبد الملك فاناخ عليهم فى خلق من من الخلق فافتتحها ، على أن ينزلوا بحيث أحبوا من الشام ويجرى على كل امرىء منهم ثمانية دنانير وعلى عيالاتهم القوت

(١٤٣) البلاذرى : فتوح البلدان ص ١٨٩ ، الطبرى حـ ٤ ص ١٩٨ •
(١٤٤) الطبرى حـ ٤ ص ١٩٥ : ٧ •

من القمح والزيت ، وعلى ألا يكرهوا ولا أحد من أولادهم ونسائهم على ترك النصرانية ، وعلى أن يلبسوا لباس المسلمين ، ولا يؤخـــذ منهم ولا من أولادهم ونسائهم جزية وعلى أن يغزوا مع المسلمين فينفلوا أســلاب من يقتلونه مبارزة ، وعلى أن يؤخذ من تجاراتهم وأموال موسريهم ما يؤخذ من أموال المسلمين » ٠

وتكرر اجلاؤهم فى عهد صالح بن على العباسى وكتب اليه الاوزاعى رسالة طويلة يعاتبه على موقفه « فكيف تؤخذ عامة بذنوب خاصة ، حتى يخرجوا من ديارهم وأموالهم وحكم الله تعالى (ألا تزر وازرة وزر أخرى) وهو أحق ما وقف عنده واقتدى به ٠ وأحق الوصايا أن تحفظ وترعى وصية رســـول الله فانه قال (من ظلم معاهــدا وكلفه فوق طاقته فانا حجيجه) ٠٠٠ » أما بالنسبة لليهود فنجد خبرا يقول ان معاوية أسكن اطرابلس جماعة كبيرة منهم (١٤٥) ٠ وقد أشار ابن خرداذبة الى التجار اليهود الرذانية « الذين يتكلمون بالعربية والفارسية والرومية والافرنجية والاندلسية والصقلبية ويسافرون من المشرق الى المغرب ومن المغرب الى المشرق برا وبحرا ويتنقلون بين دول أوربا وديار الاسلام ٠ فيخرجون بانطاكية ، ويسيرون على الارض ثلاث مراحل الى الجابية ، ثم يركبون فى الفرات الى بغداد ٠٠٠ » ومنها يتجهون شرقا حتى الصين (١٤٦) ٠

وكان المندعيون أو الصابئة الخلص طائفة يهودية تأثرت بالمسيحية يسكنون فى السهول السفلى لبابل ومقرهم الاصلى فلسطين ويمارســون التعميد ، أما **صابئة حران** فكانوا من عبدة النجوم وقد ازدهر شانهم فى أواخر أيام الامويين ، وانتحلوا لأنفسهم اسم الصابئة لما ســألهم المأمون عن دياناتهم وخيرهم بين الاسلام والقتل ، والتصق بهم هذا الاسم منذ ذلك الوقت ٠ وفى سنة ٣٢٠ هـ استفتى الخليفة القاهر فى شــأنهم فافتى بقتلهم ، فجمعوا مالا كثيرا فكف عنهم ٠ وقد صدر حوالى منتصف القرن ٤ هـ منشور كتب للصابئة بحران والرقة وديار مصر أمر فيه الخليفة بصيانتهم وحراستهم ، ولكنهم أخذوا يقلون شــيئا فشيئا ، ومع ذلك وجدوا حين هجوم المغول الذين حطموا آخر معابدهم (١٤٧) ٠

---

(١٤٥) البلاذرى : فتوح البلدان ص ١٦٥ : ٩ ، ١٣٣ ٠
(١٤٦) ابن خرداذبة : المسالك والممالك ص ١٥٣ ــ ٤ ٠
(١٤٧) ترتون : اهل الذمة فى الاسلام ــ ترجمة حبشى ص ٤٧ ، حتى : تاريخ العرب : ترجمة نافع حـ ٢ ص ٤٥٠ ــ ١ متز : الحضارة الاسلامية ــ ترجمة دكتور ابى ريده حـ ١ ص ٥٢ ٠

واستفاد المسلمون من الطائفة البولسية (البيالقة) الذين اضطهدهم البيزنطيون ففروا الى ما وراء الحدود ، وتلقاهم العرب مرحبين فانزلوهم فى مواضع أمينة واشركوهم فى جيوشهم. فى قتال الروم وبنى البولسيون لانفسهم مدنا جديدة فى ارجايوس وامارا ثم تفريك حيث عاش الزعيم البولسى قرباص (قربياس) الذى شارك على بن يحيى فى حملا ٠٠ عدة لقتال الروم ، وظل البيالقة يعينون المسـلمين « وهم من الروم الا انهم يخالفونهم فى كثير من اديانهم ٠٠ الى ان رحلوا دفعة واحـدة عن هذا الموضع باسـاءة أهل الثغور معاشرتهم وقلة اشراف المدبرين على أمرهم فتفرقوا فى البلاد وسكن مكانهم هؤلاء الأرمن » (١٤٨) ٠

***

وكان المسلمون فى الشام يعيشون مع غير المسـلمين ، بل كانوا احيانا يقاسمونهم بيتا لله نصفه مسجد ونصفه كنيسة ، وكانت الشام فى نظر المسلمين ارضا مقدسة ، وكتب أحد بطاركة الكنيسـة الشرقية على اثر الفتح العربى قائلا « ان العرب الذين ولاهم الله السلطة على العالم فى هذا العهد هم ــ كما تعلمون ــ يقيمون فيما بيننا ، ولا يتخذون من النصرانية موقف عداء ، بل هم على عكس ذلك : يمتدحون ديننـا ويجلون الـكهنة والقديسـين ويجودون بالتقدمات للـكنائس والمناسك » (١٤٩) . وقد نال معاوية محبة النصـارى ، وفى سـنة ٦٥٩ م اتى اساقفة اليعاقبة توادورس (بطريرك اليعاقبة من سـنة ٦٤٩ : سنة ٦٦٧م) وسـيكوت اسقف قنسرين الى دمشـق وجادلوا الموارنة بحضرة معاوية ، وانهزم اليعاقبة ففرض معاوية عليهـم عشرين الف دينار كان بطريركهم يجمعهـا من الاديار والرهبات والعامة « كيلا ينكف الخليفة عن حمايتهم ولا يضـطهدهم الموارنة » (١٥٠) ٠ وينكر تيوفانيس عن رعاية معاوية للنصارى ، وفى سيرة معاوية ما يؤكد ذلك مثل بنائه كنيسة الرها التى هدمها الزلزال واتخاذه سرجون بن منصور النصرانى مستشارا له ولابنه يزيد من بعده ، اما ماروى من أن معـاوية استعمل واليا نصرانيا على خراج حمص فهو خبر موضوع بغير شك ، وهو الخبر القائل ان معاوية ضمن لابن أثال ان يضع عنه الخراج ماعاش

---

(١٤٨) فازيلييف : العرب والروم ــ ترجمة دكتور شعيره ص ٢٠٠ : ٢٠٤ ، قدامة / نبذ من كتاب الخراج ملحق بكتاب المسالك والممالك لابن خرداذبة ص ٢٥٤ ٠

(١٤٩) حتى : تاريخ سوريا حـ ٢ ترجمة دكتور اليازجى ص ١٤٣ ٠

(١٥٠) الدبس : تاريخ سوريا حـ ٥ ص ٣٣ ٠

ويوليه جباية حمص مقابل أن يحتال فى قتل عبد الرحمن بن خالد بن الوليد عند انصرافه من بلاد الروم اذ كان قد عظم شأنه بالشام « لما كان عندهم من اثار ابيه خالد بن الوليد ولغنائه عن المسلمين فى ارض الروم وبأسه » (١٥١) ٠

وقد أبقى المسلمون ما وجدوه من نظم ادارية فى البلاد المفتوحة واصطنعوا الموظفين الذين لم يهربوا عند مقدمهم ، وجرت عادة الحكام على استعمال النصارى فى بعض الوظائف وحدث فى زمن الحجاج أن عمد محمد ابن مروان حاكم شمالى الجزيرة الى قتل انبستاسيوس بن اندريا كبير أهل الزها ، ويضيف راوى الواقعة فى Anonymous Syriac Chronicle « وحتى ذلك الوقت كان النصارى يشغلون مناصب الكتابة والولاية وحكم الاقاليم نيابة عن العرب » ٠ ويشير المقدسى فى القرن ٤ هـ الى أن الكتاب فى بلاد الشام ومصر كانوا من المسيحيين ، كذلك كان بمعظم المطببين فى بلاد الشام منهم (١٥٢) ٠ ولم يكن فى التشريع الاسلامى ما يغلق دون أهل الذمة ابواب العمــل وكان قدمهم راســخا فى الصنائع التى تدر الارباح الوافرة ٠

ولم تكن الحكومة الاسلامية تتدخل فى الشعائر الدينية لاهل الذمة ، وقد ازدهرت الاديرة ونعمت بالهدوء ، وفى سنة ٢٠٠ هـ ــ ٨١٥ م اراد المامون ــ حسب ما يرويه ميشيل السورى ــ ان يصدر كتابا لاهل الذمة يضمن لهم حرية الاعتقاد وحرية تدبير كنائسهم بحيث يكون لكل فريق منهم مهما كانت عقيدتهم ولو كانوا عشرة انفس ان يختاروا بطريقهم ويعترف له بذلك ، ولكن رؤساء الكنائس هاجوا واحدثوا شغبا ، فعدل المأمون عن اصدار الكتاب ٠ وسادت النسطورية واليعقوبية فى المنطقة ، وكان البطريق الجاثليق للنساطرة يقيم فى بغداد ونشــأ حول البطريركية التى عرفت بدير الروم حى سمى دار الروم ، **وازدهرت اسقفيات منها الموصــل ونصيبين ، وكان مقر بطريرك اليعــاقبة فى انطاكية** ثم نقل الى بغداد اثر اتهام طائفته بالميل الى البيزنطيين ، مع انه روى ان بطريرك انطاكية توج توماس ــ الثــائر على بيزنطة الذى قيل انه تحالف مع المامون ــ امبراطورا بيزنطيا ٠ ويلاحظ ان نســطور الذى وصل الى كرسى القسطنطينية سنة ٤٢٧ م قد ولد بمرعش ثم اصــبح بطريرك

(١٥١) فلهوزن : تاريخ الدولة العربية ــ ترجمة دكتور ابى ريده ص ١٢٧ ٠ ١٣١ ، الطبرى حـ ٤ ص ١٢٨ ــ ٩ ٠

(١٥٢) ترتون : اهل الذمة فى الاسلام ــ ترجمة حبشى ص ١٩ ــ ٢٠ ، ٢٣ ، ٢٧ ٠

انطاكية ، وكان يقول ان مريم ليست والدة الله لان الله لا يولد من انسان بل هي والدة المسيح فكان في المسيح اقنومان مستقلان وابنان احدهمـا من الله والثاني من مريم وقد رفض مجمع افسوس سنة ٤٣١ م هذه العقيدة . اما يعقوب البرادعي فصار اسقف الرها حوالى سنة ٥٤٣ م وتوفى سنة ٥٧٨ م ويقول بالطبيعة الواحدة. وكانت الكنيسة النسطورية تنتخب الجاثليق ويصادق الخليفة على انتخابه ويكتب له عهد مثل الولاة والمتصرفين ، كما كان يكتب لبطريق اليعاقبة عهد . وكانت الحكومة تراقب كبار رجال الكنائس ، الا ان هذا لا يمنعهـا من تأييد حقوقهم ، فقد حدث ان قدم على عبـد الله بن طاهر (أفرام) ورجاله يطلبـون تأييده ، كما وفد بطرك انطاكية ديونيسيوس . فاذن الامير للبطرك أولا ، فانباه بكل ما فعلوه وكيف كانت معارضتهم لاسلافه ودابهم على الشغب واثارة الاضطراب ثم امر عبد الله بادخال الاخر الذى ادعى انه البطرك فعارضه البطرك الشرعي . وامر عبد الله بسؤال الآف النصـارى المجتمعين في الخارج عن بطركهم الشرعي فقالوا : لا بطرك لنا ولا رئيس سوى ديونسيوس . فنظر عبد الله الى افرام نظرة تعنيف وانبه قائلا « لا تدعني مرة أخرى اسـمع انك لبست البيرق ــ Pallium ثوب يطرح على الراس وينزل على الكتفين وهو قبعـة كان جاثليق المدائن ينفرد بلبسه ، وتطور استعماله بحسب الزمان ــ او امسكت عصـا الرعوية أو نوديت بانك البطرك واذا سمعت بعد الآن انك سافرت في البلاد فدمك مهدور » فعاد ديونيسيوس الى انطاكية مبجلا .

أما فيما يتعلق ببناء الكنائس فلم تكن الدولة الساسانية من قبل تسير على خطة ثابتة في ذلك فكانت تسمح ببنائها احيانا ، على حين ان القانون الروماني في العهد الاخير كان يحرم على اليهود ان ينشئوا معابد جديدة لهم ولا يسمح لهم الا باصلاح ماتهدم منها ، اما في الاسلام فنجد سياسة الدولة تسمح للنصارى احيانا ببناء كنائس جديدة بينما يمنعهم احيانا حتى من اصلاح الكنائس القديمة (١٥٣) . وفى سنة ١٩٦ هـ امر الرشيد بهدم الكنائس بالثغور وكتب الى السندى بن شاهك بامره

(١٥٣) متز : الحضارة الاسلامية ــ ترجمة دكتور ابى ريده حـ ١ ص ٤٧ ــ ٨ ، ٥٢ : ٤ ، ٥٦ ، حتى : تاريخ العرب ترجمة نافع حـ٢ ص٤٤٨ Bury : Hist. of East Rom. Emp. pp. 88-9. فازيلييف : العرب والروم . ترجمة دكتور شعيرة ص ٣٧ فروخ : العرب والاسلام ص ١٥ ــ ٦ ، ترتون : اهل الذمة في الاسـلام ــ ترجمة حبشى ص ٨٦ ــ ٧ .

باخذ اهل الذمة بمدينة السلام بمخالفة هيئتهم هيئة المسلمين فى لباسهم وركوبهم (١٥٤) .

وكان الغرض من القواعد المتعلقة بملابس أهل الذمة سهولة تمييز النصارى ، وهذا ما يقره ابو يوسف وابن عبد الحكم وهما من اقدم الكتاب الذين وصلت كتبهم الينا . ويلاحظ ترتون انه لم تكن ثمة ضرورة وقت الفتح لالزام النصارى بلبس نوع معين من الثياب يخالف ما يلبسه المسلمون ، اذ كان لكل من الفريقين وقتذاك ثيابه الخاصة ، وكان النصارى يفعلون ذلك من تلقاء انفسهم دون جبر او الزام ، لكن الحاجة استلزمت هذه الفروض فيما بعد حين اخذ العرب بحظ من التمدن ، اذ حمل الاغراء الشعوب الخاضعة لهم على الاقتداء بهم فى ملبسهم والتشبه بهم فى ثيابهم . وقد خلت العهود الواردة فى الطبرى والبلاذرى من الاشارة الى الملابس ، على ان ابا يوسف المتوفى سنة ١٨٢ هـ سنة ٧٩٨ م وابن عبد الحكم المتوفى سنة ٢٥٧ هـ سنة ٨٧١ م ينسبان الى عمر قيودا من هذا النحو ، ولعمر بن عبد العزيز اوامر ايضا من هذا القبيل ، ويقول ابن العبرى انه منع النصارى من ارتداء ملابس الجند العرب ويشير مؤرخ سرياني آخر ـ وكذلك ابو يوسف ـ الى انه منعهم من وضع السروج على الخيول . ويرى ترتون انه ليس هناك ما يدل على وضع قيود على اللباس قبل عهد عمر بن عبد العزيز. ولما كان زمن الرشيد فرض على الذميين لبس الزنارات مثل الخيط الغليظ بعقد فى وسطهم ، وان تكون قلانسهم مضربة ، وان يتخذوا على سروجهم فى موضع القرابيس كرتين من الخشب مثل الرمانة ، وان يجعلوا شراك نعالهم مثنية ، وتمنع نساؤهم من ركوب الرحائل . وكان بعض هذه الاوامر قد صدر قبل ذلك بخمسين عاما . وفى سنة ٢٣٦ هـ سنة ٨٥١ م سار المتوكل على سياسة التشدد ازاء أهل الذمة فنهى عن الاستعانة بهم فى الدواوين او تعليم اولادهم فى مدارس المسلمين ، وامر المتوكل بالزامهم لبس الطيالس العسلية والزنانير وركوب السروج بركب الخشب وبتصيير كرتين على مؤخر السروج وبتصيير زرين على قلانس من لبس منهم قلنسوة ومخالفة لون القلنسوة التى يلبسها المسلمون ، وبتصيير رقعتين عسليتين على ماظهر من لباس مماليكهم فى الصدر والظهر بلون مخالف للون الثوب ، وامر المتوكل بلخذ مماليكهم بلبس الزنانير ومنعهم من لبس المناطق ، على انه وردت فى اخبار

(١٥٤) الطبرى حـ ١٠ ص ١٠٠ .

الجراجمة – كما سبقت الاشارة – ما يبيح لهم ارتداء لباس المسلمين سنة ٩٨ هـ سنة ٧١٧ م واعفوا من الجزية لانهم كانوا يقاتلون مع المسلمين ولكن المتوكل الزمهم بالجزية فى عهده .

وترد اخبار متناثرة عن ختم الاعناق ويشير أبو يوسف الى استعماله عند جمع الجزية فحسب ويرى ترتون ان هذا كان امرا شاذا لا قاعدة متبعة ومن الحق الا يحمل العرب وزر هذا العيب اذ لم يكونوا فيه بالبادئين ولا المبتدعين بل كانوا مقلدين لما اصطنعه البيزنطيون قبلهم ، ففى سنة ٥٠٠ م ذهب ديموسثنيس الى الامبراطور واخبره بنكبته فوصله الامبراطور بمبلغ غير قليل من المال لتوزيعه على الفقراء ، فلما عاد من حضرته الى الرها ختم على رقاب الجميع بأختام من الرصاص ، واعطى كل واحد منهم رطلا من الخبز كل يوم (١٥٥) .

ويذكر جرجى زيدان « ان اشتراط هذه الشروط على النصارى وحدهم صيانة لبلاد الشام من رجوع الروم اليها بمساعى اهلها النصارى، اذ يكونون عيونا للروم على المسلمين لما بينهم وبين الروم من الرابطة الدينية وهى اقوى الجامعات فى الشرق » (١٥٦) . وكان الخليفة الاسلامى يمارس الضغط على القسطنطينية عن طريق اضطهاد النصارى احيانا ، وكان النصارى انفسهم يزورون القسطنطينية وبلاطها الامبراطورى كلما أمكنهم ذلك (١٥٧) . ويذكر ان نصارى لبنان كانوا قد انتهزوا فرصة وجود اسطول بيزنطى فى طرابلس سنة ٧٥٦ – ٧٦٠م اثناء ولاية صالح بن على العباسى وانقضوا من قاعدتهم المنيطرة فى اعالى لبنان وانتهبوا عددا من قرى البقاع ، وكان هذا سببا فى اجلائهم ونثرهم فى شتى انحاء الشام على اختلافها . وكان أقدام المتوكل على التشدد فى سياسة التمييز بالنسبة لأهل الذمة سببا فى ان انطلقت فتنة عنيفة فى حمص اشترك فيها النصارى والمسلمون واخمدت بعد مقاومة شديدة ، وخربت الكنائس والبيع ، وصدرت الاوامر للوالى « أن لا يترك فى المدينة نصرانيا الا اخرجه منها ، وينادى فيهم قبل ذلك فمن وجده فيها بعد ثلاثة

---

(١٥٥) الطبرى : حـ ١١ ص ٣٦ : ٨ ، ٤٩ ، البلاذرى : فتوح البلدان ص ١٦٨ ، ترتون : اهل الذمة فى الاسلام – ترجمة حبشى ص ١٢٢ : ٧ ، ص ١٣٢ – ٣ .

(١٥٦) جرجى زيدان : تاريخ التمدن الاسلامى حـ ٤ ص ١١٣ .

(١٥٧) Runciman : Byz. Civ. p. 285.

احسن ادبه » (١٥٨) . على ان البطاركة كانوا اشبه بسفراء سلام بين ملوك الروم ، اذا وقع حيف على المســلمين فى بلاد اعدائهم يندبهم ولاة الاسلام الى مطالبة الروم بما ينال النصارى فى الشـــام وغيرها من الاضطهاد ان هم اساءوا الى المسلمين الواقعين فى أسرهم او الراحلين اليهم فى التجارة (١٥٩) . بل ان البطرك تيوفيل الاسكندرى أمضى اسابيع فى القســطنطينية سنة ١٠١٦ م فى وساطة بين باسيل الثانى وبين البطرك سرجيوس (١٦٠) .

أما أسرى الروم الذين يقعون فى أيدى المســلمين ، فقد كانت القاعدة العامة هى احسان معاملتهم وربما استرقوا ووزعوا على المقاتلين، وربما فودى بهم غير ان هناك رواية غير عربية تذكر ان المعتصم (حاول فرض الاســلام جبرا على ٤٠ من كبار أسرى الروم فى عمورية ، وان هؤلاء الأسرى ثبتوا على دينهم ـ عدا واحدا هو المعزو اليه خيانة قومه وتسليم عمورية للمسلمين ويدعى Boiditzes ، على انه فى النهاية قد لقى مصرعه كالآخرين تمـــاما . وقد أضفت اقلام كتاب الروم جوا اسطوريا على هذه القصة) (١٦١) .

ونحن نجد البيزنطيين فى الجانب المقابل يحاولون التـأثير على الاسرى المسلمين لتنصيرهم ،فيروى فى اخبار فداء سنة ٢٣١ هـ سنة ٨٤٦ م أيام الواثق « ... وكان خرج معنا ممن كان تنصر ببلاد الروم من المسلمين نحو من ثلاثين رجلا ، فودى بهم » وفى سنة ٢٤١ هـ سنة ٨٥٥ م يذكر الطبرى ان تدوره صاحبة الروم ام ميخائيل استقبلت نصر بن الازهر الذى قدم لمعرفة عدد أسرى المسلمين لمفاداتهم « فذكر ان تدورة امرت بعد خروج نصر بعرض اسراها واعراض التنصر عليهم ، فمن تنصر منهم كان اسوة من تنصر قبل ذلك ومن ابى عليها قتلته ، فذكر انها قتلت من الاسرى اثنا عشر الفا ، ويقال ان قنقلة الخصى كان يقتلهم من غير أمرها ... » وفى فداء سنة ٢٤٦ هـ سنة ٨٦١ م « كان عدد من صار فى ايدى الروم من المسلمين اكثر من الفين منهم عدة من

---

(١٥٨) البلاذرى : فتوح البلدان ص ١٦٩ ، الطبرى حـ ١١ ص ٤٩ ، ٥٠ ، حتى : تاريخ سوريا حـ ٢ ترجمة دكتور اليازجى ص ١٦٧ : ٩ ، تاريخ العرب ـ ترجمة نافع حـ ٢ ص ٤٤٥ ـ ٦ ، ترتون : اهل الذمة فى الاسلام ترجمة حبشى ص ٥٦ .

(١٥٩) كرد على : خطط الشام حـ ٦ ص ١٢ .

(١٦٠) Runciman : Byz. Civ. p. 235.

(١٦١) Bury : Hist. of East Rom. Emp. p. 271.

كان تنصر ٠٠٠ وكان قوم تنصروا فقال لهم ملك الروم : لا أقبل منكم حتى تبلغوا موضع الفداء ، والا فليضمن وليمض مع اصحابه . واكثر من تنصر اهل المغرب ، واكثر من تنصر بالقسطنطينية ، وكان هنالك طائفتان قد تنصرا فكانا يحسنان الى الاسرى ، فلم يبق في بلاد الروم من المسلمين من ظهر عليه الملك الا سبعة نفر : خمسة اتى بهم من سقلية اعطيت فداءهم على ان يوجه بهم الى سقلية ، ورجلين كانا من رهائن لؤلؤة فتركتهما ، قلت : اقتلوهما فانهما رغبا فى النصرانية » (١٦٢)

وساءت معاملة الاسرى بتدهور احوال الدولة الاسلامية واجتراء الروم على الثغور الشامية حتى روى الوزير على بن عيسى فى خلافة المقتدر بالله « كتب الى عاملنا بالثغر ان اسارى المسلمين كانوا فى بلد الروم على حال رفاهية وصيانة الى أن ولى ملك الروم آنفا حدثان منهم فعسفا وعاقباهم واجاعاهم واعرياهم وطالباهم بالتنصر وانهم فى بلاء وجهد ». وقد استعان الوزير ببطركى انطاكية وبيت المقدس للمطالبة بحسن معاملة اسرى المسلمين والتهديد بمعاملة النصارى فى الدولة الاسلامية بالمثل (١٦٣). وحين استولى نيقفور فوقاس على طرسوس سنة ٣٥٤ ﻫ سنة ٩٦٥ م « ٠٠٠٠ اشترط تخريب الجامع والمساجد ، وانه من اراد المقام فى البلد على الذمة واداء الجزية فعل ، وان تنصر فله الحباء والكرامة وتقر عليه نعمته ٠. قال : فتنصر خلق فاقرت نعمهم عليهم ، واقام نفر يسير على الجزية ، وخرج اكثر الناس يقصدون بلاد الاسلام وتفرقوا فيها وملك نقفور البلد فاحرق المصاحف وخرب المساجد .. خبرنى جماعة ممن جلا من ذلك الثغر ان نقفور لما فتح طرسوس نصب فى ظاهرها علمين ونادى مناديه : من اراد بلاد الملك الرحيم واحب العدل والنصفة والأمن على المال والاهل والنفس والولد وأمن السبيل وصحة الاحكام والاحسان فى المعاملة وحفظ الفروج وكذا وكذا ــ وعد اشياء جميلة ــ فليصر تحت هذا العلم ليقفل مع الملك الى بلاد الروم ، ومن أراد الزنا واللغط والجور فى الاحكام والاعمال وأخذ الضرائب وتملك الضياع عليه وغصب الأموال ــ وعد أشياء من هذا النوع غير جميلة ــ فليحصل تحت هذا العلم الى بلاد الاسلام ٠ فصار تحت علم الروم خلق من المسلمين ممن تنصر وصبر على الجزية » (١٦٤) ٠

---

(١٦٢) الطبرى جـ ١١ ص ١٢ ، ١٩ ، ٢١ ، ٥١ ــ ٢ ، ٦٠ ــ ١ ٠
(١٦٣) الصابى : تحفة الامراء فى تاريخ الوزراء ص ٣٥٤ : ٦ ٠
(١٦٤) ياقوت : معجم البلدان حـ ٦ ص ٣٩ ــ ٤٠ ٠

وقد بحث الفقهاء المسلمون مشروعية الاقامة تحت حكم غيرهم حين تقع بلاد الاسلام في ايدي غير المسلمين أثناء الصراع الطويل بين الاسلام والنصرانية في المشرق والمغرب . » وهي نتيجة طبيعيـة لحالة الحرب الدائمة بين الاسلام والنصرانية على طول العصور الوسطى وعرضها ، بل ترجع الى أواخر ايام مالك بن أنس نفسه وعاصر دورا من أدوارها أقطاب المالكية الاول من أمثـال عبد الرحمن بن القـاسم واشهب بن عبد العزيز وسحنون عبد السلام بن سعيد .. فأما أهل المشرق ما بين مسلمين ، ونصـارى فلم يعتبروها مشـكلة اذ لم يكن غريبـا عنهم خضوع النصارى للمسلمين او المسلمين للنصارى . وقد جرت عادة الجيين على أن تعيش الجماعة المغلوبة في حكم الغالب في حدود وقيود لا تبلغ مبلغ القضاء على الدين او اللغة ،او الشخصية . وصاحب الفضل في ذلك هو التشريع الاسلامي الذي وضع من أول الامر نظاما عادلا لاهل الذمة امنوا به على عقائدهم وشـخصيتهم من الضيـاع ، وقـد جرى جيرانهم الروم على آثارهم فصار من يقع من المسلمين تحت سلطانهم يعتبر ذميا من وجهة نظرهم يخضع لقيود ويؤدي اموالا ولكنه لا يخشى على عقيدته من الضياع اذا هو أحب ان يستمسك بها ، وقد تعارف الجيران على ذلك وعاش النصارى في ارض المسلمين والمسلمون في ارض النصـارى وتكفلت حوادث الايام وضرورات العيش باكمال مافات المشرعين » . على ان الامور في الاندلس لم تجر على هذا النحو وكانت معاملة النصارى للمسلمين حين تغلبوا غير معاملة المسلمين للنصـارى حين حـكموا . واختلف الفقهاء مابين محرم للاقامة تحت حـكم غير المسلمين الا عند العجز عن الهجرة مثل الونشريشي (المتوفى سنة ٩١٤ هـ سنة ١٥٠٨ م وينسب الى ونشريش بالجزائر) وقد راى ان من اجاز هذه الاقامة مارق من الدين ومفارق لجماعة المسـلمين وان شـكوى المهاجرين الى ارض الاسلام من ضيق المعاش زعم فاسد وتوهم كاسد ولارخصة لاحد في الرجوع الى بلاد النصارى بحال ، وان حكم المسلم الذي يزدرى دار الاسلام ويفضل عليها بلاد النصرانية الخزى في العاجلة والآجلة ، ولا يجوز للمسلم التخلف ببلد النصارى بدعوى خدمة شئون اخوانه لان ذلك يتنافى مع عزة الاسلام ، كما ان الاقامة في حكم النصارى تحول دون كمال الصلاة وتعطل الزكاة والصيام والحج والجهاد ، وتضع من امر الاسلام وتعرض للاستغراق في مشاهدة المنكرات ، فضلا عن احتمال نقض النصارى لعهودهم مما يعرض الانفس والاهل والاموال والاعراض للمخاطر ، كما يخشى على المسلمين من غلبة عادات النصارى

ولغتهم ولباسهم بل وفقد اللسان العربي « واذا فقد اللسان العربى فقدت متعبداته » ، فضلا عن التسلط على المال باحداث الوظائف الثقيلة والمغارم المجحفة المؤدية الى استغراق المال واحاطة الضرائب الكفرية به فى دفعة واحدة فى صورة ضرورة وقتية أو فى دفع « فقد ثبت بهذه المفاسد الواقعة والمتوقعة تحريم هذه الاقامة وحظر هذه المساكنة المنحرفة عن الاستقامة ٠٠ فلا فسحة للفاضل المذكور فى اقامته بالموضع المذكور للغرض المذكور ، ولارخصة له ولا لاصحابه فيما يصيب ثيابهم وابدانهم من النجاسات والاخباث » . بينما كان المازرى (صقلية) المتوفى سنة ٥٣٦ هـ سنة ١٠٤١ م قد ذهب غير هذا المذهب ، فقد كان يكرم من يعبر على افريقية من مهاجرى صقلية ولا يبخل عليهم بالمال والرأى (١٦٥) .

وقد كانت الدولة توجه اضطهادها أحيانا الى رعاياها ، ففى قلب الامبراطورية البيزنطية فى آسيا وارمينية ظهر **البولسيون** Paulicians (البيالقة) الذين كانوا يمقتون الرهبنة ، ويعارضون الخزعبلات والخرافات ، ومن هناك نشأ الاباطرة اللاصوريون وناصرهم الجيش الذى كان يجمع على الاغلب من آسيا الصغرى وارمينية وكثير من الموظفين المدنيين والاساقفة (١٦٦) ٠ وفى عهد ميشيل الثانى (٨٢٥:٩م) استفاد توماس فى ثورته التى انتهت بالفشل سنة ٨٢٣ م من سخط انصار الصور (الايقونيين) على سياسة الاباطرة المضادة للصور (اللاايقونية Iconclast) كما استفاد من تأييد المامون خليفة المسلمين ومع ذلك فاذا كان « حلف توماس مع العرب امده فى الحقيقة بالقوة المادية لكنه من جهة اخرى ابعد عنه الحزب الأرثذوكسى الذى ايده على انه حامى الصور والذى لم يكن يرتضى حلفه القريب مع الكفار ٠ فلما تقدم توماس فى آسيا الصغرى محوطا بجند مسلمين قل الحماس العام الذى كانت اثارته حركته قلة ظاهرة ، وكان لهذا التحول فى شعور انصاره اثر سيء على كل المشروع ، وكان سببا من الاسباب الرئيسية فى الاخفاق» (١٦٧). هذا ولم تصبر الدولة البيزنطية على أمر البولسيين (البيالقة) وقررت ارجاعهم الى الارثذوكسية أو اهلاكهم فشنقوا بالآلاف

(١٦٥) الونشريشى : اسنى المتاجر فى بيان احكام من غلب على وطنه النصارى ولم يهاجر – تحقيق وتقديم دكتور مؤنس – صحيفة معهد الدراسات الاسلامية فى مدريد م ٥ ع ١ – ٢ ٠

(١٦٦) بينز : الامبراطورية البيزنطية – ترجمة دكتور مؤنس وزايد ص ١١٣ – ٤ ٠

(١٦٧) فازيلييف : العرب والروم ترجمة دكتور شعيرة ص ٣٧ – ٨ ٠

وذبحوا ونزعت املاكهم، حتى اضطروا الى الفرار وراء الحدود الى ديار المسلمين حيث آزروهم فى حملاتهم ضد الروم ، وتدل اعمال الشهداء الاثنين والاربعين ان قرباص واصحابه كانوا فى ذمة العرب وراء الحدود فى آخر حكم تيوفيل (٨٢٩ : ٨٤٢ م). فقد حاول واليه على اقليم قلونيه ادخال بعض قادة البولسيين فى الارثذوكسية فلم يكن منهم الا ان اسلموه الى اصحاب قرباص اللعين المرتد ، ثم ارسل والى قلونية الى سامرا فكان شهيدا انضاف الى شهداء عمورية (١٦٨) .

اما بالنسبة للدولة الاسلامية فقد اتجهت بكل قواها لمحاربة طائفة **الخرمية** ، ولما راى بابك تضييق الافشين عليه « واشرف على الهلاك ، كتب الى ملك الروم توفيل بن ميخائيل بن جرجس يعلمـــه ان ملك العرب قد وجه عساكره ومقاتلته اليه حتى وجه خياطه ـ يعنى بن دينار وطباخه ـ يعنى ايتاخ ... طمعا منه بكتابه فى ان ملك الروم ان تحرك انكشـف عنه بعض ما هو فيه ، يصرف المعتصـم بعض من بازائه من جيوشه الى ملك الروم .. فذكر ان تيوفيل خرج فى مائة الف حتى صار الى زبطرة ومعه من المحمرة الذين كانوا خرجوا للجبـــال فلحقوا بالروم حين قاتلهم اسحق بن ابراهيم بن مصعب ـ جماعة رئيســهم بارسيس ، وكان ملك الروم قد فرض لهم وزوجهم وصيرهم يستعين بهم فى اهم اموره اليه » . وتظاهر بابك امام تيوفيل باعتناق المسيحية ووعد بتنصير اتباعه (١٦٩) . كذلك تعرض المسلمون الذين توقفوا عن متابعة الراى القائل **بخلق القرآن** الى اضطهاد كبير ، وهو راى قال به المعتزلة واخذ به الخلفاء العباسيون منذ عهد المأمون وبلغ من تعصبهم لهذا الرأى أن وجه الواثق فى فداء الاسرى ســـنة ٢٣١ هـ مع ابن ابى دواد رجلين لامتحان الاسرى « فمن قال القـــرآن مخلـــوق فودى به ومن ابى ذلك ترك فى أيدى الروم ... وامر ان يعطوا جميع من قال ان القرآن مخلوق » (١٧٠) .

---

(١٦٨) فازيلييف : العرب والروم ـ ترجمة دكتور شعيرة ص ٢٠٠ : ٣ .
(١٦٩) الطبرى حـ ١٠ ص ٣٠٤ ـ ٥ ،
Bury : Hist. of East. Rom. Emp. pp. 259-60.
فازيلييف : العرب والروم ـ ترجمة دكتور شعيرة ص ١٢٤ .
(١٧٠) الطبرى حـ ٧ ص ١٩ : ٢١ .

الاديرة والرباطات :

جاءت المسيحية تدعو الى الزهد ، وجاء الاضطهاد فى أول الامر فاضطر بعض المؤمنين الى الفرار بدينهم الى البرارى والقفار وهرب آخرون من وطأة الضرائب وقسوة النظام القائم • حتى اذا اطل القرن الرابع وجاء قسطنطين وخلفاؤه وتنفس معتنقو المسيحية الصعداء لم يشاؤا ان يغيروا هذا الاسلوب بل شعروا ان الحياة المسيحية أخذت تفقد مثلها العليا المتشددة وقالوا بوجوب الابتعاد عن العالم وممارسة حياة التقوى والتأمل ، ولم ينفصلوا عن الكنيسة انفصالا فعليا لكنهم كفوا أنفسهم بانفسهم وكانوا فى غنى عن الكنيسة • وهكذا قامت الرهبنة منفصلة عن الكنيسة ويمكن اعتبارها من بعض النواحى احتجاجا فرديا على نظام اعان كثيرا على تأييد الدولة وسعت الكنيسة بدورها لتثبيت مركزها ازاء هذه النزعة الجديدة • (١٧١) وظهر فى مصر رواد الرهبنة المسيحية انطونيوس الكبير (٢٥٠ : ٣٥٦ م) وباخوم (٢٩٠ : ٣٤٥ م) • ثم شاع أمر الترهب فى الشام ثم آسيا الصغرى واشهر رواده هناك باسيليوس الكبير (٣٢٩ : ٣٧٩ م) اسقف قيصرية فى كابادوكيا وهو ممن تعلموا على ليبانيوس الفيلسوف الانطاكى وفى الاسكندرية واثينا وقد زار الشام ومصر سنة ٣٥٧ م فلما عاد الى آسيا الصغرى سنة ٣٦٠ م عزم على الترهب فاختار بنطس حيث ادخلت الحياة الديرية على يد يوستاثيوس من سبسطية Instathius of Sebastea وانشأ هناك ديرا قرب قيصرية الجديدة فوضع نظام الرهبنة الباسيلية القائمة على الطاعة بجانب الفقر والعفة ، واشتهر اتباعه بنشاطهم فى الزراعة وتربية اليتامى وتعليم الصبيان وقد شاعت فى الاقطار الشرقية واليونان والبلقان وروسيا ، وآثر مسيحيو الشام الترهب الفردى على

(١٧١) دكتور رستم : الروم حـ ١ ص ١٠٢ – ٣ ، بينز : الامبراطورية البيزنطية – ترجمة دكتور مؤنس وزايد ص ١١٠ : ١١٣ •

الجماعي فتركوا المدن والقرى وانتشروا في السهول والوديان وعلى قمم التلال يتعبدون ، ومن **أشهرهم مارمارون المتوفى سنة ٤١٠ م وكان مقره في سوريا الشمالية ويرجح لامنس انه عاش ومات في القورسية Cytrhus وعاصمتها قورس على مسيرة يومين من انطاكية وعلى نحو ٧ كم من حلب الى شمالها الغربي وهناك رأى آخر ان مارمارون تنسك على جبل في ابامية (قلعة المضيق)** . وقد وجه اليه يوحنا الذهبي الفم رسـالة من منفاه في مدينة كوكيسوس Caucesus بجبال طوروس طالبا منه الصلاة من أجله سنة ٤٠٤ م أو سنة ٤٠٥ م واجتذب مار مارون تلاميذ عديدين رجالا ونساء التفوا حوله في صوامع قريبة . وهكذا نشأت أخوية مارونية تعمل بتعاليم هذا الناسك . (١٧٢) وهناك ايضـا **اوجينيوس** Eugenius **احد رواد الديرية في الشام** الذى تربى على الحيـاة الدينية في دير القديس باخوم واستقدم ٧٠ راهبـا الى الجزيرة، وأسس ديرا بجوار نصيبين ويذكر ان شخصا يدعى **جوليان ادخل الديرية في أعالى الفرات** في منطقة Osrhoene وعاش **القديس جيروم متنسكا في خلكيس** Chalcis بجوار انطاكية سنين عددا . وتناثرت الاديرة في ارجاء الشام وقد ذكرها المؤرخون . وعاش الرهبان في الشام في وحدة يحكمون أنفسهم بأنفسهم، ولا يخضعون لأى رقابة . وقد مارسوا الوانا من اضناء جسومهم دون ضـابط أو حاجز ، وأخذ زهدهم صورا عنيفة متعسفة أحيانا مثل القديس سمعان العمودى (سـان سيمون) الذى خلق لونا من الزاهدين توالى على مر القرون . ثم ادت عواصف الخلافات الدينية والهرطقة التى ثارت في الاسكندرية وانطاكية كما ادت حملات العرب الى عزل كل الاديرة تقريبا في وادى النيل ومعظم الاديرة في أقاليم الارنط والفرات ودجله عـن المذهب الارثذوكسى السائد . وقد صارت هذه الاديرة جماعات منعزلة لا تشارك في حياة الاسرة الديرية الكبيرة التى كانت تراثا لانطونيوس وباخوم . وهكذا انتشرت الديرية من مصر والشام وبلغ تيارها آسيا الصغرى، رغم ان المناخ القاسى في بعض مواضعها كان لا يلائم اصطناع أسلوب حياة النسك والزهد . (١٧٣) .

وقد أدت الاديرة دورا ثقافيا جليلا بجانب مهمتها الدينية ، فقـد انكب الرهبان في اديرة الشـام على ترجمة المؤلفات الدينية وغير الدينية

---

(١٧٢) دكتور رستم : الروم جـ ١ ص ١٠٣ : ٦٠٦ .

(١٧٣) Byzantium. pp. 139: 141

من أمثال مؤلفات ارسطو وابقراط وجالينوس ووجد النسطوريون الذين اضطهدتهم الحكومة البيزنطية وأدانهم المجمع الديني المسكوني الثالث سنة ٤٣١ م ملجأ في فارس الساسانية وحملوا اليها علوم الاغريق (١٧٤) . وما برحت الديارات في الشام تقدر البلاغة كما تقام فيها للموسيقى أسواق ، وقد عرفها المسلمون منذ فتحوا الشام قال معاوية ابن قزمل : كنت مع خالد بن الوليد حين غزا الشام فخرجنا فرفع لنا دير فاتيناه فقلنا : السلام عليكم فخرج الينا قس فقال : من أصحاب هذه الكلمة الطيبة؟ (١٧٥) • ولا يرى دير من الديارات الا وهو محصن بسور مكين شاهق يحميه ويصد عنه العدوان ، ولا يخلو دير كبير من خزانة كتب دينية وأدبية وعلمية كانت مجمع الرهبان الباحثين يقرأون وينسخون ويترجمون ويؤلفون كما كان للديارات الجليلة دور ضيافة للزوار اذ لايباح لهم المقام في صوامع الرهبان • وكان بعضها على فخامة تستدعى انتباه كبار الزائرين وأن تيسر الماء زرعت حول الدير البساتين (١٧٦) •

ومن غريب الامر أن هذه الاديار « كانت منبعا لشيئين متناقضين أشد التناقض : كانت منبعا لزهد وورع وبعد الدنيا ، **ومحطا لبعض زهاد المسلمين يروون عن الرهبان اقوالهم في الهرب من الملذات ....** وكانت كذلك مناخ الخليعين من الشعراء والادباء يخرجون اليها ويتشببون بفتيانها وفتياتها ويقولون في ذلك القول الخليع والشعر الجميل ذلك ان الاديار كانت غالبا في أجمل المواضع واحسنها هواء واجملها منظرا ، تحيط بها انواع البساتين وتجمل فيها الازهار والرياحين ... ويظهر أن الخمارين استغلوا شهرة الاديار بالشراب فانشأوا حولها الحانات قال ابن فضل الله العمرى (وكان حول دير العزازى حانات للخمارين والسائلين ومتنزهات) وكانت تقام لبعض الاديار اعياد سنوية ... وهكذا كانت الاديار مصدرا لنغمتين كان الناس يسمعونهما كثيرا في ذلك العصر : نغمة حزينة زاهدة تدعو الى الفرار من الحياة وارتقاب الموت ونغمة مرحة لاهية تدعو الى احتساء الكاس الى آخر قطراته ... » (١٧٧) .

---

(١٧٤) فازيلييف : ترجمة فصل الاسلام وبيزنطة من كتاب Byzantium _ ملحق بكتاب بينز : الامبراطورية البيزنطية ترجمة دكتور مؤنس وزايد ص ٣٧٤ •

(١٧٥) كرد علي : خطط الشام حـ ٤ ص ١٣٩ •

(١٧٦) مقدمة كوركيس عواد لكتاب الديارات للشابشتي ص ٣١ _ ٢ •

(١٧٧) احمد امين : ضحى الاسلام حـ ١ ص ٣٤٩ : ٣٥١ •

وقد انتشرت الديارات فى الجزيرة واعالى الشام ومنها ما كان حول الثغور جزرية وشامية ومن اديرة الجزيرة : الدير الأعلى بالموصل الذى كان مركزا أساسيا لطقوس الكنيسة الكلدانية يصفه الشابشتى بانه « دير كبير عامر .. فيه قلايات كثيرة لرهبانه » ويصفه العمرى بانه « يضرب به المثل فى رقة الهواء وحسن المستشرف تحته ... والجزائر تتفرق خلجانها وغدرانها بازائه ولم تزل الولاة تخرج اليه للطف الهواء والنظر فى الماء ويقال انه ليس للنصارى دير مثله » . وفى الجانب الشرقى من الموصل فى موضع نينوى دير ينسب ليونس بن متى النبى ويذكر العمرى دير متى « على جبل شامخ حسن البناء جيد الحصانة .. ورهبانه لا يأكلون طعاما الا جميعا ... وله عدة أبواب مفرطة فى الكبر ، وكلها من حديد . مصمت » ودير الشياطين غربى دجله من أعمال بلد بينهاوبين الموصل . وعمر نصيبيين مما يلى الجانب الشرقى منها فى الجبل والجبل مشرف على البلد ويقول عنه الشابشتى « وهو من الديارات الموصوفة والمواقع المذكورة بالطيب والحسن وحوله الشجر والكروم وفيه عيون تتدفق وهو كثير القلايات والرهبان وشرابه موصوف يحمل الى نصيبيين وغيرها وليس يخلو من اهل القصف واللعب فهو وسائر بقاعهمعمورة بمن يطرقها، وبهذا الجبل ثلاثة ديارات اخر فى صف واحد أحسن شىء منظرا واجله موقعا : وهى عمر الزعفران ومر ومر اوجى ومر يوحنا والعمر الكبير بالموضع أحد متنزهات الدنيا ، واسفل الجبل الهرماس وهو نهر نصيبين ... ويجرى هذا النهر بين جبلين وعلى حافته الكروم والشجر .. » ويقول العمرى : « وبه كثير من الزعفران وهو عجيب البناء كثير الرهبان وماؤه من صهاريج يجتمع فيها ماء السماء والصهاريج منقورة فى صخور والثلج به ممكن .. قال الخالدى، ولهذا الدير بيوت للضيافة فى علو الهيكل وللسور تسور عجيب وعليه أبواب من حديد مصمت . قال : وشعر زعفرانه فائق ومنه ومن العسل اكثر يسار رهبانه » . وانشىء دير ماراوجين فى الجبل المشرف على نصيبين فى أواخر المائة الرابعة باسم القديس اوجين الناسك القبطى الاصل الذى نشر الرهبانية فى بلاد الشرق واستولى الكلدان عليه فى المائة السادسة وهناك عمر أحويشا وتفسيرها بالسريانية الحبيس ، وهو بسعرت من ديار بكر قرب ارزن يقول عنه الشابشتى « وهو كبير عظيم ، فيه اربعمائة راهب فى قلالى ، وحوله بساتين وكروم وهو فى نهاية العمارة وحسن الموقع وكثرة الفواكه والخمور ويحمل منه الخمر الى المدن المذكورة وبقربه عين عظيمة تدير ثلاثة أرحاء والى

جانبه نهر يعرف بنهر الروم . وهذا العمر مقصود من كل موضع للتنزه فيه والشرب والخلعاء والمتطربون أغلب عليه من أهله » . وبالرقة دير زكى من أديار السريان المشهورة على جانبيه نهر البليخ « وهو من أحسن الديارات موقعا وانزهها موضعا وكانت الملوك اذا اجتازت به نزلته وأقامت فيه ... وبناحيته الغزلان والارانب وما شاكل ذلك مما يصطاد بالجارح ... » . ودير القائم الاقصى على شاطىء الفرات من جانبه الغربى فى طريق الرقة ويذكر العمرى « وهو مرقب من المراقب التى كانت بين الروم والفرس على أطراف الحدود » . ودير الرمان بين الرقة والخابور تنزلها القوافل من العراق للشام. ودير قنسرى على شاطىء الفرات من الجانب الشرقى فى نواحى الجزيرة وديار مضر مقابل جرباس. وجرباس شامية ، وبين هذا النهر ومنبج ٤ فراسخ بينه وبين سروج ٧ فراسخ ، ويصفه ياقوت بانه « دير كبير كان فيه أيام عمارته ثلثمائة وسبعون راهبا » . وقد ذكر الشابشتى ديارات عرفت بالعجائب فمنها دير الخنافس فى شرقى الموصل فاذا ظهرت الخنافس فى يوم معين من السنة التالية كان اليوم التالى هو عيد الدير واجتمع الناس «فقسوا وتقربوا وانصرفوا وقد غابت الخنافس فلا يرى منها شىء الى ذلك الوقت » . ودير الكلب بين الموصل فى الجانب الغربى من أعمال الحديثة « تحته عين قير ، وهى عين تفور بماء حار تصب فى دجلة ويخرج منه القير .. وله قائم وكل دير لليعقوبية والملكية فعنده قائم ، فاما ديارات النسطور فلا قائم لها » . وقيل ان القائم منارة عالية كالمرقب ، وقيل انه شبه صومعة تتخذ الى جانب بعض الاديار لسكنى النساك . وبميافارقين دير مارقوما – وذكر أحيانا برقوما وفرتوما على فرسخين منها فى جبل. مال وقيل ان برقوما هذا شهد المسيح ، وللدير عيد يجتمع الناس اليه . وهناك دير ابون بين الجزيرة وثمانين يذكره العمرى فيقول « وهو دير جليل عند النصارى ، وبه جماعة من الرهبان ، ويزعمون انه قبر نوح عليه السلام » .

وقد ذكر عن دير سعيد بالجانب الغربى من الموصل ان لترابه وماءه أثرا فى دفع العقارب ويقول العمرى « وحكى ان رهبانه الزموا بجباية فقاموا بثلثمائة ألف درهم » . ودير مارمخايل على ميل من الموصل يقول عنه العمرى « وبه قلالى كثيرة فى غاية الظرف محفوفة بانواع الشجر وأصناف الزهر ، وله عيد يكون قبل الشعانين باسبوع ، تخرج اليه النصارى بنسائهم وصبيانهم ويمر لهم فيه يوم وليلة تتجاوب فيه الجان الإغاني وقراءة الرهابين . وحكى انه أريد به حفر بئر فى بعض قلاليه ،

فأفضى الحفر الى صندوق من حجر فكشف فاذا فيه ميت لم يتغير من جسمه شيء واذا ثيابه صحيحة وعند رأسه صحيفة من صفر فيها كتابة قديمة لم يقفوا على قراءتها ولكنهم علموا ان فيها ذكره ، وقصد المسلمون انتزاعه منهم ، ثم دارت النصارى حتى خلى لهم فردوه الى مكانه وعفوا اثره » .

وفي شمالي الشام ديرا اسحاق بين حمص وسلمية ودير ميماس بين دمشق وحمص على نهر ميماس يذكره العمري فيقول « وهو فى رياض وبساتين وعليه طواحين رومية ، وزعم رهبانه ان به شاهدا من الحواريين، ودير مارمروثا صغير بظاهر حلب في سفح جبل جوشن ، ودير خناصرة قبلي حلب ودير رمانين أو السابان بين حلب فانطاكية مطل على سرمد ، ودير حافر بين حلب وبالس ، ودير حشيان بنواحي حلب من العواصم ، ودير مرقس من نواحي حلب ، ودير مسحل بين حمص وبعلبك ، ودير المغان أو المان بحمص . وهناك دير كفتون بطرابلس يقول عنه العمري «يحمل نارنجه الى طرابلس يباع بها ويرتفق بثمنه الرهبان وله مستشرف مطل على البلاد والمزارع ومنه مكان يشرف على بعد على البحر . ولهذا الدير صيت جائل وسمعة مذكورة ، وبه رهبان كثيرو العدد ، والنصارى تقصده وتحمل اليه النذور ، ويقصده كثير من أهل البطالة واللهو للتفرج به والتنزه فيه » . وكان لمارون دير عظيم شرقي حماة وشيزر ذو بنيان عظيم حوله أكثر من ٣٠٠ صومعة وفيه من آلات الذهب والفضة والجوهر شيء عظيم وهو قرب نهر الارنط . ويقول ابن بطريق عن مارون « وكان يقول ان سيدنا المسيح طبيعتان ومشيئة واحدة وفعل واحد واقنوم واحد . **وأكثر من تبعه على مقالته تلاميذه القائلون به أهل مدينة حماة وقنسرين والعواصم وجماعة من أرض الروم فسموا الموارنة** .. وقد خرب دير مارمارن سنة ٧٥ للهجرة لما غزا موريق وموريقان بلاد الشام وحملا على هذا الدير وقتلا منه ٥٠٠ راهب وهدما بنيانه ، ثم تحولا من هناك الى قنسرين والعواصم فقتلا الاهلين ونهبا وخربا المساكن ولم يعفيا عن أحد من اتباع مارمارون » . ودير حمطورا في شرقي طرابلس في جانب الوادى في سفح الجبل يقول عنه العمرى « وهو حصين جدا لا يسلك اليه الا من طريق واحد وظهر الجبل الذى له ممتنع » .

وفي نواحي الثغور يذكر ابن فضل الله العمرى **دير المحل بساحل** جيحان قرب المصيصة **ودير الرصافة** قرب رصافة هشام بن عبد الملك **ودير القاروس** على جانب اللاذقية من شمالها . ويذكر **ياقوت دير**

سمعان الذى يقول عنـــه ابن بطلان فى رسالته « وهو مثل نصف دار الخلافة ببغداد يضاف به المجتازون وله من الارتفاع كل سنة عـــدة قناطير من الذهب والفضة ، وقيل ان دخله فى الســـنة أربعمائة الف دينار ومنـــه يصـــعد الى جبل اللـــكام » • وقد اشتهر دير برصوما قرب ملطية • ويقول عنه ياقوت « هو الدير الذى ينادى له بطلب نذره فى نواحى الشام والجزيرة وديار بكر وبلاد الروم •• على راس جبل يشبه القلعة وعنده متنزه وفيه رهبان كثيرة يؤدون فى كل عام الى ملك الروم للمسلمين من نذوره عشرة آلاف دينار على ما بلغنى •• حدثنى العفيف مرجا الواسطى التاجر قال : اجتزت به قاصدا الى بلاد الروم فلما قربت منه اخبرت بفضله وكثرة ما ينذر له وا نالذين ينذرون له قل ما يخالف مطلوبهم وان برصوما الذى فيه أحد الحواريين فالقى الله على لسانى ان قلت : ان هذا القماش الذى معى مشتراة بخمسة آلاف درهم فان بعته بسبعة آلاف درهم فلبرصوما من خالص مالى خمســـون درهما • فدخلت ملطية وبعته بسبعة آلاف درهم سواء فعجبت فلما رجعت سلمت الى رهبانه خمسين درهما وسالتهم عن الحوارى الذى فيه فزعموا انه مسجى فيه على سرير وهو ظاهر لهم يرونه وان أظافره تطول فى كل عام وانهم يقلمونها بالمقص ويحملونها الى صاحب الروم مع ماله عليهم من القطيعة ، والله أعلم بصحته فان صح فلا شىء أعجب منه » (١٧٨) وقد روى ابن الشحنة انه كان بحلب نيف وسبعون هيكلا للنصارى ، كما ذكر مشاهد كثيرة بنواحى حلب المختلفة وما حولها منها مقامات لأنبيـــاء مثل مقام ابراهيم ومشهد الخضر ، ومقام داود ، وقبر يوشع بن نون ، « ومن شمالى حلب عمود تنذره المسلمون والنصارى واليهود ويقال ان تحتـــه قبرنبى •• قال : وبجبل الطور المجـــاور لقنسرين مشـــهد ، ذكر الشيخ على بن أبى بكر الهروى ان فى جبل قنسرين مشهدا يقال انه مقام صالح النبى عليه السلام ، ويغلب على ظنى ان هذا المشهد من بناء صالح ابن على ابن عبد الله ابن العباس فان ولاية الشام كانت اليه وله آثار.

---

(١٧٨) الشابشتى : الديارات ص ١١٢ ، ١١٥ ، ١١٧ ، ١٢١ ، ١٢٦ ــ ٧ ، ١٣٩ ، ١٩٥ : ٧ ، العمرى : مسالك الابصار حـ ١ ص ٢٥٤ ــ ٥ ، ٢٦٥ ، ٢٦٩ ، ٢٨٩ ــ ٢٩٠ ، ٢٩٣ ، ٢٩٤ ــ ٥ ، ٢٩٩ : ٣٠١ ، ٣٠٣ ، ٣٠٥ ، ٣١٠ ، ٣٢٨ ، ٣٣٠ : ٢ ، ٣٣٤ : ٣٣٦ ، الذيل لكوركيس عواد ص ٣٣٧ ــ ٨ ، ياقوت : معجم البلدان حـ ٤ ص ١٢٠ ، ١٢١ ، ١٢٣ ، ١٣٢ ، ١٣٤ ، ١٣٦ ، ١٣٧ ، ١٣٩ ، ١٤٠ ، ١٤١ ، ٣ : ١٤٧ ، ١٥٠ ، ١٥١ ، ١٦١ ، ١٦٥ ــ ٦ ، ١٧٠ ، ١٧٣ ، ١٧٥ ، ١٧٧ ، ١٧٨ ، ١٨٥ ، كرد على خطط الشام ص ٢٥ : ٣٧ •

بحلب وقنسرين فنسب المشهد اليه... قال: وبانطاكية قبر حبيب النجار فوق آل ياسين وبها قبر عون بن ارميا النبي عليه السلام ، وقبر عوص ابن سام بن نوح • قال : وقال كمال الدين بن العديم بسند يرفعه الى كعب الاحبار : ان بطرسوس من قبور الانبياء عشرة وبالمصيصة خمسة والبقية بسواحل الشام » (١٧٩) •

• • •

ومن ناحية المسلمين كان للشام والجزيرة عندهم ذكر وفضل ، فقد ورد عن النبى انه بشر أصحابه بفتح الشام والعراق « فقلت يا رسول الله من يستطيع الشام وفيه الروم ذات القرون ؟ فقال صلى الله عليه وسلم : والله ليستخلفنكم الله فيها حتى تظل العصابة منهم البيض قمصهم المحلوق اقفاؤهم قياما على الرجل الاسود ما أمرهم به فعلوا ، وان بها اليوم رجالا لأنتم اليوم أحقر فى أعينهم من القردان فى اعجاز الابل » •

قال ابن حوالة : قلت اختر لى يا رسول الله ان ادركنى ذلك فقال: **اختار لك الشام فانها صفوة الله من بلاده واليها يجتبى صفوته من عباده .. فان الله قد تكفل لى بالشام وأهله** » • ونقل المقدسى حديثا عن النبى : ان الله عز وجل أوحى الى : أى هؤلاء الثلاث نزلت فهى دار هجرتك ـ المدينة أوالبحرين أو قنسرين ونقل ابن الشحنة عن ابن العديم حديثا عن النبى : ليلة أسرى بى الى السماء رأيت قبة بيضاء لم أر أحسن منها وحولها قباب بيض كبيرة ، **فقلت : ما هذه القباب يا جبريل ؟ قال : هذه ثغور امتك ، فقلت : ما هذه القبة البيضاء فانى ما رأيت أحسن منها ؟ قال : هى انطاكية هى أم الثغور وفضلها على الثغور كفضل الفردوس على سائر الجنان ، الساكن فيها كالساكن فى البيت المعمور يحشد اليها خيار أمتك وهى سجن عالم من امتك وهى معقل ورباط وعبادة يوم فيها كعبادة سنة ومن مات فيها من امتك كتب الله له يوم القيامة أجر المرابطين** • وقد علق الغزى على هذا الحديث بقوله « هذا الحديث غريب وان كان لا يخلو من الدلالة على فضل هذه المدينة » ويذكر ابن العديم عن جبل اللكام «وهو مسكن العباد والزهاد ، وفيه من الفواكه المباحة ما يقتاتون به » ويقول عن طرسوس « وبها كان يقوم سوق الجهاد وينزلها الصالحون والعباد » وهو يروى الكثير فى زهادها وفضلها • ونقل ابن الشحنة عن ابن العديم بسند يرفعه الى كعب الاحبار : « **ان بطرسوس**

(١٧٩) ابن الشحنة : الدر المنتخب ص ٨١ ؛ ٤ ، ٩٢ : ٩ •

من قبور الانبياء عشرة ، وبالمصيصة خمسة ، والبقية بسواحل الشام » . وذكر ياقوت عن طرسوس « وقد نسبوا الى هـذا الثغر جماعة كثيرة من الرواة والزهاد والعباد .. كذا نسبوا غير واحد من المحدثين » . « وما زالت موطنـا للصالحين والزهاد يقصدونها لأنهـا من ثغور المسلمين » ، وقال « قد رابطَ بهـا الصالحون قديمـا » . وذكر المقـدسى عن الجزيرة (اقليم اقور) « ... به مشـاهد الانبياء ومنـازل الاولياء به استقرت سفينة نوح على الجودى وبه سكن أهلها وبنوا امدينة ثمانين وبه تاب الله علي قوم يونس واخرج منه العين ومنه دخل الظلمات ذو القرنين وبه كانت عجائب جرجيس مع اذيانة ووفيه أنبت الله تعـالى ليونس اليقطين ومنه خرج نهر الملة المبـارك المذكور دجلة ، اليس به جبل يونس بتل توبه : يقولون سبع زورات له يعدلن حجة ، مع مشاهد كثيرة وفضائل جمة ثم هو ثغر من ثغور المسلمين ومعقل من معاقلهم .. » .

وبحكم وقوع الثغور الشامية والجزرية على حدود العـــدو ، كان المسلمون الأتقياء يجاهدون بالرباط فى الثغور لحماية بيضة الاسلام ورد عادية المعتدين « يايها الذين آمنو أصبروا وصابروا ورابطوا واتقوا الله لعلكم تفلحون » . وقد أورد ابن العديم عن أبى الدرداء « أهل الشام وأزواجهم وذراريهم وعبيدهم واماؤهم الى منتهى الجزيرة مرابطـــون فى سبيل الله فمن احتل منهم مدينة فهو فى رباط ومن احتل منها ثغرا من الثغور فهو فى جهاد » وفى رواية « فمن احتل ساحلا من تلك السواحل فهو فى جهاد ومن احتل بيت المقدس وما حوله فهو فى رباط » (١٨٠) » .

وكانت الربط فى أول الأمر مجرد حصون تقام فى الجهات الأكثر تعرضا لغارات العدو تشحن بالمقاتلة والمؤن لصد المغيرين . وحين أنشا عقبة بن نافع القيروان قال له أصحابه « نريد أن نقربها من البحر ليجمع أهلها الجهاد والرباط » . وفى افريقية توســـع الأغالبة فى بناء الربط وكانت تسمى القصور والمحارس فانتشرت على ساحل البحر وكان الناس اذا دهمهم الغزاة يفزعون اليها ويتكاتفون فى مواجهة الخطر ولم تستطع الأساطيل البيزنطية فى القرن الثانى الهجرى أن تنال من السـاحل

---

(١٨٠) المقدسي : احسن التقاسيم ص ١٥٦ ، ١٣٦ ، ياقوت : معجم البلدان ج ٥ ص٢١٩ : ٢٢١ ، ج ٣ ص ١٨ ، ج ٦ ص ٣٨ ، ج ٨ ص ٨٠ ، ابن العديم : بغية الطلب مخطوط ص ٥٨ ، ١٠٦ : ٨ ، ٢٥٠ ، ٢٥٥ : ٢٦١ ، ابن الشحنة : الدر المنتخب ص ٩٩ الغزى : نهر الذهب ج ١ ص ٦٧ ، ٣٩٠ .

الافريقي . **وساعد انتشار الاســـلام وعلومه على أن تتحول الربط من وظيفتها الأولى الى وظيفة تعليمية** حتى قيل « ان قصــــور زياد المرابط بساحل افريقية (دار مالك) لكثرة من فيه من العلماء والعباد والصالحين من أصحاب مالك » . كما أشاع المالكية فى افريقية والمغرب موجة من الزهد والورع فهرع أهل التقى الى المحارس والقصور والربط فرارا من الدنيا وطلبا للعبادة فى وقت معلوم أو طول العمر ، وتناقل الناس عن هؤلاء العباد قصصا أقرب الى الاساطير . وقد كان لهذه الرباطات مزاياهـــا ووقت المسلمين غوائل فتن كثيرة ، « **وقد كانت حركات المرابطة فى الشـــام والمغرب متشابهة الى حد كبير ، ففى بلاد الشام على الحدود البيزنطيـة الاسلامية انتشرت الثغور والربط ، آوى اليها المتعبدون والزهاد للدفاع عن الاسلام والعزلة والتقشف** ، أما فى المغرب فقد انتشرت فى موانيه المعرضة لغارات البيزنطيين القصور والحصون والمحـارس والربط لأداء نفس الدور الذى كانت تؤديه ربط بلاد الشام . ولم يكن **التشـــابه فى الهدف فحسب ، بل كان فى عمارة هذه القصور وهذه الرباطات ... واذا عرفنا ان التأثيرات الشامية بيزنطية وان افريقية كانت تخضـــع للنفوذ البيزنطى ادركنا سر هذا التشابه فى عمارة هـــذه القصـــور** ، وعلمنا ان التأثيرات البيزنطية واضحة فى ربط بلاد الشام والمغرب . التى كانت فى الواقع حصونا بيزنطية أقيمت فى الموانى وشحنت بالمقاتلة للدفاع عن الســـاحل الطويل . وكان البيزنطيون يقيمون ســـلسلة من الحصون الشامية على الحدود فيشحنونها بمقاتلة يقفون على قدم الاستعداد لرد أى عدوان وهو ما يعرف بنظام الثغور ، اذن هنالك تأثيرات مسيحية فى عمارة الربط ، تأثيرات بيزنطية واضحة لاشك فيها . ولكن اذا عرفنا أن الربط الاسلامية كانت فى أول الأمر تؤدى غرضا حربيا .. ادركنا أن هناك تشابها بين الربط الاسلامية وبين الحصون البيزنطية التى أقيمت على سواحل المغرب ، ولكن بلاد المغرب تحولت فيها الربط الى أماكن للعبادة والانقطاع والتقشف صيام النهار قيـــام الليل واضناء البدن ومجـــاهدة النفس .

لقد كان الثغر عنوانا للدولة الاسلامية ، وهو يمثـــل الفروســـية والعلم والحضارة معا « والدولة حريصة على ابراز قوتها الدفاعية ولكنها حريصة على أن تبرز قوتها الحضارية أيضا اذ تؤمن بأن الحضارة قوة أمضى من السيف فى تأليف الشعوب المجاورة أو التحالف معها واخضاعها أو

منع عدوانها ... وان من العلماء من كانوا يقصدون الثغر ويقيمون فيه طلبا للرباط والتعليم بحيث أمكن أن يوجد فى المصيصة وحدها بين سنتى ٢١٩ ، ٢٢٥ هـ ١٢ عالما كبيرا ... وكان علماء المصيصة فى الأصل من اليمامة والبصرة والكوفة وبغداد واليمن وخراسان . وسرى فى الثغور نوع من التصوف نتيجة الحرص على اخفاء حسن البلاء فى المعركة والزهد فى التفاخر به » (١٨١) .

والفقهاء يتناولون المرابطة فى سبيل الله فى أبواب النذور من كتب الفقه ، وقد كان المسلم يقصد الثغر للرباط فيه والدفاع عنه مدة حياته أو جزء منها ، ويلتحق به ثان وثالث من أمثاله وهكذا ، حتى تتكون جماعة فيبنون الرباط الذى يسكنونه ، ويدخرون فيه حاجياتهم من أسلحة وأمتعة وزاد ويقوم شيخ الرباط على ادارته وتثقيف ساكنيه وتوجيههم وتربية نفوسهم . ولكل من المرابطين صناعة يدوية يحذقها أو تلقن له ليكسب منها قوته ولباسه وزاده وحتى أدوات حربه — فهو لا يعتمد فى شىء من ذلك على الناس ، ولا تمر مدة طويلة حتى يصبح الرباط معهدا للعلم يلقى فيه العلماء المرابطون على من يأتى اليهم من الطلبة من الجهات المجاورة قصد المرابطة أو طلب العلم دروسا دورية فى علوم الدين واللغة والتصوف وحتى فى الصناعة والتمريض . وكلما أتمت جماعة معلوماتها بارحت المكان وخلفتها أخرى . وكثيرا ما كانت الرباطات مستوصفات طبية لمعالجة الفقراء بالمجان على يد أطباء يتطوعون لهذا الغرض وكانت فى بعض الاحيان كمطابع تخرج الكتب وتعين على نشر العلم ، اذ يعمد أحد المرابطين الى املاء كتاب على عشرة من تلاميذه فيخرج منه عشر نسخ . وكان الصناع من المرابطين ينفقون ما يبيعون به مصنوعاتهم على حاجياتهم ويوفرون الباقى لينفقوه فى مصلحة الرباط. وازدهرت الرباطات ولفتت نظر الناس اليها واشتهر القائمون فيها بالعلم والصلاح نتيجة الدرس والمجاهدة فأخذ الناس يوفرون لها الأموال

(١٨١) دكتور حسن أحمد محمود : قيام دولة المرابطين ص ١٢٨ : ١٤٠ .
دكتور شمعية : المرابطون فى الثغور البرية العربية الرومية — بحث فى كتاب (الى طه حسين فى عيد ميلاده السبعين) .

ويجلبون اليها الأرزاق وأخيرا وقفوا عليها الدور والبساتين والمزارع الواسعة لتوفير نفقاتها اللازمة وضمان بقائها وقيامها بما أنشئت له من اصلاح النفوس وحماية الثغور ٠٠ الا انه بعد ترك المسلمين لامر الجهاد والمرابطة أضحت الرباطات دور علم فقط ، وأخذت شكل زاوية تضم ضريح المؤسس الأول لذلك الرباط ، وربما أضرحة تلاميذه واتباعه أو افراد كتيبته على أصح تعبير وصارت الاوقاف التى رصدت له تصرف على اطعام أبناء السبيل وطلبة العلم وحفظة القرآن الكريم ، يقصدها هؤلاء من كل مكان ، ويقيمون بها مكفولين بالسكن والاكل والملبس حتى يتم لهم ما أرادوه من استظهار القرآن ومبادىء العلوم بواسطة شيوخ تصرف لهم جرايات من الوقف ٠٠ (١٨٢) » ٠ وقد أوقف الكثيرون على المرابطين فى طرسوس « ليس من مدينة عظيمة من حدسجستان وكرمان ٠٠ الى مصر والمغرب ، الا وبها ـ طرسوس ـ لأهلها دار ينزل بها غزاة تلك البلدة ويرابطون بها اذا وردوها ٠ وتكثر لديهم الصلات ، وترد عليهم الاموال والصدقات العظيمة الجسيمة ، الى ما كان السلاطين يتكلفونه ، وأرباب النعم يعانونه وينفذونه متطوعين متبرعين ، ولم يكن فى ناحية ذكرتها رئيس ولا نفيس الا وله عليها وقف من ضيعة ذات مزارع وغلات او مسقف من فنادق » (١٨٣) ٠

وقد نقل ابن عساكر فى ترجمة عبد الله بن المبارك انه أملى هذه الأبيات بطرسوس فى رسالة منه الى الفضيل بن عياض سنة ١٧٠ هـ او سنة ١٧٧ هـ :

يا عابد الحرمين لو أبصرتنا	لعلمت انك فى العبادة تلعب
من كان يخضب خده بدموعه	فنحورنا بدمائنا تتخضب
أو كان يتعب خيله فى باطل	فخيولنا يوم الصبيحة تتعب
ريح العبير لكم ، ونحن عبيرنا	رهج السنابك والغبار الاطيب
ولقد أتانا من مقال نبينا	قول صحيح صادق لا يكذب
لا يستوى غبار خيل الله فى	أنف امرىء ، ودخان نار تلهب
هذا كتاب الله ينطق بيننا	ليس الشهيد بميت لا يكذب

---

(١٨٢) محيى الدين القليبى : مقال : الرباط فى سبيل الله ـ مجلة رسالة الاسلام السنة الرابعة العدد ٣ شوال سنة ١٣٧١ هـ ـ يوليو سنة ١٩٥٢ م ٠

(١٨٣) ابن حوقل الاصطخرى : المسالك والممالك ص ٤٧ ٠

فانطلق حامل الرسالة فلقى الفضيل بن عياض بها فى المسجد الحرام فلما قرأها ذرفت عيناه وقال : صدق أو عبد الرحمن ونصحنى (١٨٤) ٠

وروى ابن الشحنة ان بظاهر جبلة قبر ابراهيم بن أدهم أصـــله من بلخ « وكان أبوه ملكا **فترك الدنيا اختيارا لا اضطرارا وجعل الثغور الشامية له منزلا ودارا** » ، مات سنة احدى وســـنتين ومائة » ٠ (١٨٥)، ويذكر ان من الأولياء طائفة يسمون الابدال ، وهم « فئة من الصـــالحين لا تخلو الدنيا منهم أبدا وعددهم سبعون : أربعون منهم فى الشام وثلاثون فى سائر البلاد » ٠ وقد ورد فى طبقات الحفـــاظ للذهبى عن أبى ثوبة المتوفى سنة ٢٤١هـ الذى ولد بحلب وعاش فى طرسوس انه كان من الابدال (١٨٦) ٠

واورد ياقوت أسماء **كثير من العلماء نسبوا الى الثغور** فمن طرسوس أبو أمية محمد ابن ابراهيم بن مسلم بن سالم الطرسوسى الثغرى ، وهو بغدادى المولد سكن طرسوس الى ان مات بها سنة ٢٧٣هـ ٠ ونسب الى انطاكية جماعة كبيرة من أهل العلم منهم عثمان بن عبد الله بن محمد بن خرداذ الانطاكى أبو عمرو محدث مشــــهور مات فى انطاكية فى المحرم سنة ٢٨٢ هـ وقد روى عنه أبو عثمان سعيد بن حرب البغراسى نسبة الى بغراس ٠ وهناك عمر بن على بن الحسين أبو حفص العتكى الخطيب وقد غادر انطاكية فى طلب العلم ثم رجع اليها مستنفرا سنة ٣٥٩ هـ فحدث بها وبحمص ، وهناك ابراهيم بن عبد الرازق أبو يحيى الازدى ويقال له العجلى الانطاكى ، مات بانطاكية سنة ٣٣٨ هـ أو سنة ٣٣٩ هـ ٠ وينسب الى منبج جماعة منهم عمر بن سعد بن أحمد بن سنان أبو بكر الطائى المنبجى وقال ابن حبان **انه صام النهار وقام الليل مرابطا ثمانين سنة** فارســاله مقبول (١٨٧) ٠

---

(١٨٤) تفسير ابن كثير جـ ١ ص ٤٤٧ ٠

(١٨٥) ابن الشحنة : الدر المنتخب ص ١٠١ ٠

(١٨٦) متز : الحضارة الاسلامية ترجمة دكتور أبى ريدة جـ ٢ ص ٣٠ ــ ١ والهامش ٠

(١٨٧) ياقوت : معجم البلدان جـ ٣ ص ١٨ ، جـ ٦ ص ٣٨ ، جـ ١ ص ٣٥٨ ــ ٩ ، جـ ٢ ص ٢٤٥ ، جـ ٨ ص ١٧٠ ــ ١ ٠

التأثير المتبادل فى الفكر الدينى :

واجه المسلمون فى الشام « نظاما دينيا كان قد تطور تطورا عمليا وأصبح يقوم على أساس منطقى بفضل سلسلة طويلة من المناقشات المذهبية والمجادلات » . كما واجهوا فى الجزيرة والعراق ديانات وثنية قديمة « وقد نتجت عن اصطدام الاسلام الشديد بتلك الديانات مركبات وآثار عديدة ، وكان لتلك المعارك الفكرية وما ترتب عليها من تغيير فى الافكار أثر عميق فى تاريخ الشرق الدينى فى العصور التالية » . وقد كانت المسيحية أول دين اتصل بالاسلام عن قرب اذ كانت دمشق فى وقت من الاوقات مقرا للخلفاء الامويين وتقدمت فيها فى ذلك الوقت مدرسة دينية تخرج منها بعض علماء الكنيسة الشرقية البارزين كما ازدهرت حياة فكرية نشطة . وكانت المناقشات الدينية كثيرة بين علماء الدين المسلمين والمسيحيين وقد شجع التسامح على اتصال المسيحين بالمسلمين ، وتعلم العرب التفكير الفلسفى باتصالهم برجال الدين الاغريق الذين اتقنوا فن المناقشة المنطقية (١٨٨) .

وتكشفت الروايات المبكرة التى تتناول اتصالات المسلمين والروم عن هذه **الروح الجدلية** ، ومهما كان حظ هذه الروايات من الثبوت فانها تعكس الروح السائدة . روى ان قيصر كتب الى معاوية : سلام عليك ، أما بعد فانبئنى بأحب كلمة الى الله وثانية وثالثة ورابعة وخامسة ومن أكرم عباده اليه فاكرم امائه وعن أربعة أشياء فيهن الروح لهم يرتكض فى رحم وعن قبر يسير بصاحبه ومكان فى الارض لم تصبه الشمس الا مرة واحدة والمجرة ما موضعها من السماء وقوس قزح وما بدء أمره ؟ فلما قرأ كتابه قال : اللهم العنه ما أدرى ما هذا !! فارسل الى عبد الله بن

---

(١٨٨) فون كريمر : الحضارة الاسلامية ومدى تأثرها بالمؤثرات الاجنبية ترجمة دكتور بدر ص ٦٤ : ٦٠ .

عباس يسأله فقال : أما احب كلمة الى الله فلا اله الا الله لا يقبل عملا الا بها وهى المنجية ، والثانية سبحان الله وهى صلاة الخلق والثالثة الحمد لله كلمة الشكر ، والرابعة الله أكبر فواتح الصلوات والركوع والسجود ، والخامسة لا حول ولا قوة الا بالله ، واما أكرم عباد الله اليه فهو آدم خلقه بيده وعلمه الاسماء كلها ، وأكرم امائه عليه مريم التى أحصنت فرجها . والأربعة التى فيهن روح ولم يرتكضن فى رحم فآدم وحواء وعصا موسى والكبش . والموضع الذى لم تصبه الشمس الا مرة واحدة فالبحر حين انفلق لموسى وبنى اسرائيل والقبر الذى سار بصاحبه فبطن الحوت الذى كان فيه يونس . (١٨٩) .

كان المسلمون يدعون الى الاسلام فيقع الجدم بينهم وبين رؤساء النصرانية وكان ذلك أكثر ما يكون فى الشام ، وقد كان **يحيى أو يوحنا الدمشقى** نصرانيا شديد التمسك بنصرانيته وعمل هو وأبوه فى قصر عبد الملك بن مروان ، والف يحيى كتابا للنصارى لمحاجة المسلمين ، من امثال ما جاء فيه : اذا قال لك العربى : ما تقول فى المسيح ؟ فقل له : انه كلمة الله ، ثم ليسأل النصرانى المسلم بم سمى المسيح فى القرآن ، وليرفض ان يتكلم بشىء حتى يجيبه المسلم فانه سيضطر الى أن يقول « كلمة الله القاها الى مريم وروح منه » فان أجاب بذلك فاسأله : هل كلمة الله وروحه مخلوقة أو غير مخلوقة ؟ فان قال مخلوقة فليرد عليه بأن الله اذن كان ولم تكن له كلمة ولا روح قال يحيى : فان قلت ذلك فيفحم العربى لأن من يرى هذا الرأى زنديق فى نظر المسلمين . والمسلمون ردوا على هذا الاعتراض بأن المراد بالكلمة انه وجد بكلمة الله وأمره من غير واسطة وأما الروح فتستعمل بمعنى الرحمة، وقد قال الله عند آدم « ثم قال له كن فيكون » « ونفخت فيه من روحى » . وفى الفرق الاسلامية نجد ظلا للمجادلات النصرانية ، فقد تجادلت الكنائس النصرانية مثلا فى خلود العذاب ، وذهب اباء الكنيسة اليونانية الى انكار ابدية عذاب النار مخالفين فى ذلك الكنيسة الغربية ، واتخذت هذا الرأى نفسه فى الاسلام طائفة المرجئة . ورأى جهم بن صفوان ان الجنة والنار يفنيان ويفنى أهلهما . وقد كان أوريجين يؤيد القول بأن عذاب النار له نهاية وجميع الاسكندريين على اتفاق معه فى هذه النقطة ، وحتى معلمى كنيسة انطاكية : ديودور الطرسوسى

(١٨٩) ابن قتيبة : عيون الاخبار جـ ١ ص ١٩٩ – ١٠٠ .

وتيودور المصيصي مثلا — يشاركون أوريجين عقيدته فى هذه المسألة ولو أنهم عادة لايتفقون معه فى المسائل الاخرى. ويذهب فوق كريمر الى ان آراء المعتزلة نشأت من مناقشات النصرانية لأن آباء الكنائس كانوا يتجـــادلون فى حرية الارادة وان الانسان مجبور أو مختار كما كانوا يتجادلون فى صفات الله ، وقد تسربت هذه العقائد الى المعتزلة عن طريق النصارى بعد فتح المسلمين للشام • ومن أشهر من احتك بالمسلمين فى العصر الاموى يحيى الدمشقى سالف الذكر وتيودور أبو قره Abocara وقد تكلم يحيى فى أن الله مصدر الخير وقال ان الخير يصدر من الله كما يصدر الضوء من الشمس ، فتكلم المعتزلة الاولون فى القدر وفى صفات الله وقد يكونون تأثروا بســـوابق الجدل المسيحى فى مثل هذه الموضوعات • ويذكر متز ان علم العقـائد المسيحى كان لمدة طويلة فى ذلك الوقت قد اهتم ببيان وحدة الذات وتنزهها عن الكثرة ، ولا يخلو كلام المعتزلة من تأثير الفلسفة اليونانية البالغ فى القرن الثالث •

ولا يرى الاستاذ أحمد أمين هذا الرأى — ويشاركه الرأى الدكتور محمد البهى ، ويريان ان مسألة القدر صدرت عن المسلمين أنفسهم ، وانهـــا فكرة ثارت فى كل دين تقريبا ، ويدللون على ذلك بآيات القرآن وأحاديث الرسول التى تعرضت للقدر • (١٩٠)

ويوحنا الدمشقى (٦٧٥ : حوالى ٧٤٩م) الملقب بدفاق الذهب لفصاحة لسانه كان سوريا يؤلف باليونانية ، فضلا عن تكلمه الآرامية فى حياته اليومية بالطبع واحسانه العربية » وهو من أبرز من تسرب على يدهم الأثر المسيحى والعلم اليونانى الى الجو الاسلامى » وكانت المناقشات بينه وبين علماء المسلمين حول حرية الارادة والقضاء والقدر بادرة الحركة العقلية فى الاسلام ، وكانت تعاليمه ان الله خلق العالم وتركه يجرى بقوة استمراره • وقد تمتع سر جيوس والد يوحنا فى بلاط عبد الملك بمنصب المستشار وبعد وفاته أسند المنصب الى ابنه ، على انه اعتزل هذا العمل فى أوائل خلافة هشام ولجأ الى دير القديس سابا فى جنوبى شرقى القدس يعيش حياة الزاهدين المتعبدين • وقد وضع القديس يوحنـــا عددا من

(١٩٠) أحمد أمين : ضحى الاسلام ج ١ ص ٣٤٣ : ٦ ، فون كريمر : الحضارة الاسلامية ترجمة دكتور بدر ص ٦٦ : ٧١
فازيلييف : العرب والروم — ترجمة دكتور شعيرة ص ١٣ ، متز : الحضارة الاسلامية — ترجمة دكتور أبى ريدة ج٢ ص ٢٨٣ ، دكتور محمد البهى : الجانب الالهى من التفكير الاسلامى •

المؤلفات أهمها ينبوع الحكمة الذى لخص فيه آراء مشاهير المؤلفين الكنيسيين من قبله وقد اعتمده بطرس اللومباردى وتوما الاكوينى ونقل كثـيرا من مؤلفات يوحنا الى اللاتينية ، واتفقت الكنيستان اليونانيـة واللاتينية على اعتباره قديسا • ومن أطرف كتـاباته محاورتاه بين مسيحى ومسـلم اللتان شدد فيهما على الوهية المسيح وحرية الارادة الانسانية • وكان من وجوه نشاطه البارزة دفاعه عن اسـتخدام الصور للتعبد فى وقت كان ليو الايسورى الامبراطور البيزنطى يبذل الجهد البالغ لابطال الايقونات •

ولذلك تعرض لغضب الامبراطور ، وبلغ من جرأته ان قصـد الى القسطنطينية معرضا حياته للخطر ، وقد نظم أناشيد دينية « وكان القديس يوحنا آخر اباء كنيسة الروم الشرقية وكان من حيث هو عالم لاهوتى ، وخطيب دينى ، ومدافع كنسى ومجادل عقائدى ، ومنظم للفن البيزنطى وللموسيقى البيزنطية من أبرز مفاخر الكنيسة فى ظل الخلافة » (١٩١) •

وقد كان هذا الجدال الدينى من ظواهر الفكر فى القرنين الثـامن والتاسع الميلاديين ، وكان الداعى لهذا الجدل أن الخلفاء كانوا اذا ما ارتقوا عرش الخلافة وجهوا الى الملوك المعاصرين كتبا يدعونهم فيهـا الى الدخول فى الاسلام فلم يكن بد من الرد على هذه الكتب وحين ألف المسـيحيون كتابا يدافعون عن عقائدهم ويهاجمون عقائد المسلمين ـ ومن ذلك كتاب يوحنا الدمشقى فى الهرطقات On Heresies حفـز ذلك المسـلمين للرد عليهم • **وكان من الضرورى حماية أهل الثغور من خطر التحول عن المسيحية وهو خطر كان يتزايد بتقدم العرب فى كل نواحى حياتهم تقدما محسوسا كل يوم** ، وان تعزز مناعة المسيحيين الخاضعين للمسـلمين من الناحية المعنوية بعد أن ظلوا على ايمانهم وأصبحوا أهل ذمة • وكان كذلك من الضرورى ان تنشر الكتابات الدينية فى سوريا وفى مصر ، وقد جاءت هذه المؤلفات الجدلية المسيحية باليونانية لاستعمال تلك اللغة فى الشام فى زمن يوحنا الدمشقى أيام الامويين وفى زمن أبى قرة فى أوائل العهد العباسى ، ولكن الأخير بدأ استعمال العربية ، وكتب بها أبو كاليبس بحيرة الحوار بين عبد المسيح الكندى وبين عبد الله الهاشمى فى عهد المأمون ، والف برتلمى الرهاوى كتابات فى صورة رد على كتاب عالم مسلم لخصه فى المقدمة وقد عرض تصور المسيحية للاسلام فى أواخر القرن التاسع الميـلادى • **وقد اقتبس العرب فى العراق وديار بكر وديار مضر والفرات**

(١٩١) حتى : تاريخ سوريا جـ ٢ ترجمة دكتور اليازجى ص ١١٥ : ٧ ، تاريخ العرب ـ ترجمة نافع جـ ١ ص ٣٠٧ ـ ٨ •

الأوسط والثغور طرائق الفلسفة فى البحث الدينى ، وثار هجوم اسلامى قوى على أثر ما فعله ميشيل الثالث اذا أرسل مقالتين احتج فى احداهما بمبدأ السببية ، فرفض المسلمون فكرة وجود ابن لله مشـــارك فى الخلود والصفات • وظهرت رسالة للجاحظ مال فيها صاحبها الى تأييد سياســة المتوكل الشـــديدة نحو أهل الذمة • وعرض أبو القاســـم بن ابراهيم البلخى لفكرة النبوة ، والف أبو عيسى الوراق كتابا ضخما نقد فيه عقائد النصارى بمذاهبهم الثلاثة • (١٩٢) •

وقد بلغت هذه المجادلات الدينية حدا كبيرا من العنف والتعصب فى بعض الأحيان ، ومن ذلك ان الفقيه المسلم القفال الشـــاشى المتوفى سنة ٣٦٦/هـ ٩٧٦م راح يتبادل مع مجهول يتحدث باسم البيزنطيين ألوان الطعن والتجريح انتصارا لحملات ملكيهما الحربية سنة ٣٥٥هـ/ ٩٦٦ — ٩٦٧م ، فيعلى المسيحى صيحته :

ســافتح أرض الشرق طرا ومغربا	وانشر دين الصلب نشر المعـــالم
لعيسى علا فوق السموات عرشه	ففاز الذى والاه يوم التخـــاصم
وصاحبكم فى القرب أودى به الثرى	فصـــــار رفاتا بين تلك الرمائم

ويجيبه الشيخ المسلم من نفس الوزن والقافية :

ومن رام فتح الشرق والغرب ناشرا	لدين صـــــليب فهو أخبث دائم
ومن دان للصلبان يبغى بها الهدى	فذاك حمـــــار وسمه فى الخراطم
وان كان قد مات النبى محمـــــد	فاســـوة كل الأنبيـــاء الأعاظم
وعيسى له فى المـوت وقت مؤجل	يموت له كالرسل من نسل آدم (١٩٣).

ومع ذلك فقد كان هناك تماثل فى الجو الخلقى السائد لدى المسلمين والبيزنطيين ، ولا مراء ان العـــادات المرعية والمحظورات كـانت تختلف اختلافا بعيدا ، غير ان المعايير الخلقية كما تتجلى فى وصايا الآباء وفى النصائح الموجهة لغير ذوى الخبرة من الناس وآراء القادة الروحيين كانت فى الأغلب الأعم تلقى القبول بدرجة سواء على جانبى خط الحدود الفاصل بين العقيدتين • وكان كل من الطرفين فى العصر الوســـيط مولعـــا باستخلاص العظات الاخلاقية وكانوا فى كل من المكانين ينتجون مجموعات

---

(١٩٢) ارمان بل : تحاج اهل الاديان في القرنين الثامن والتاسع ملحق لكتاب فازيلييف العرب والروم — ترجمة شعيرة ص ٣٦٨ : ٣٧١ •
جرونيباوم : حضارة الاسلام — ترجمة جاويد ص ٣٢ ، ٦٥ — ٦ ، ٤٢٧ •
(١٩٣) جرونيباوم : حضارة الاسلام — ترجمة جاويد ص ٣٤ — ٥ •

ضخمة من مؤلفات تتسم بطابع التهذيب والارشاد كما انه فى كل من القطرين كانت تقلبات القدر والتعقدات فى الطبيعة البشرية تلاقى الى حد ما رد الفعل نفسه غير الحاسم عند الأفراد (١٩٤) » .

* * *

وقد ظهرت نزعة فى المسيحية تدعو الى **نبذ الصـــور والايقونات** باعتبار أنها تحمل مسحة وثنية ، وقد استهلت بوادر مبكرة لهذه النزعة منذ القرن الرابع الميلادى وضجت انطاكية مستنكرة تقديس الايقونات فى القرن السادس الميلادى وكانت آســـيا الصـــغرى مركز تلك النزعة **ولعل عداء الديانتين اليهودية والاسلامية فى تلك الجهات للصور والتماثيل له آثاره فى تلك النزعة كما يبدو فى اتهام انصار الصور ليو الثـــالث الايسورى المتوفى ٧٤٠ م بانه عـــربى التفكير Saracen-minded (١٩٥)** وزعم البعض أنه اعتنق الاسلام سراً على يد الخليفة الأموى يزيد بن عبد الملك مع ان عهده كان بداية فترة من فترات قوة الامبراطورية . فى حين وجه المجمع اللا ايقونى سنة ٧٥٤م الى يوحنا الدمشقى تهمـــة الميل الى الاسلام ! وقد سار خلفاء ليو الايسورى على سياسته فى محاربة الصـــور حتى أوقفتها الامبراطورة ايرينى مؤقتا وبذلك استمرت هذه الحركة ٥٠ سنة تقريبا من ٧٢٦ الى سنة ٧٨٠م وكان الانتصار الثانى للصور على يد تيودورا سنة ٨٤٣ م وان كانت قد عادت الى الظهور بعض الوقت فى عهد ليو الأرمنى (٨١٣ : ٨٢٠ م) . ويذكر خدابخش « ان كلوديوس أسقف تورين (المعين سنة ٨٢٨م) الذى قام بطمس واحراق وازالة جميع التماثيل والصلبان فى اسقفيته ولد وتربى فى الأندلس الاســـــلامية ، ولاشك ان كلوديوس رأى فى الاسلام والمسلمين الشىء الكثير الذى نال تقديره واعجابه ، وتوجد لدينا عبارة صريحة لأحد معارضيه يقول فيها : ان اليهود امتدحوه واعتبروه اعقل رجل بين المسيحيين وهو من ناحيتـــه امتدحهم وامتدح المسلمين كثيرا » (١٩٦) .

---

(١٩٤) جرونيباوم : حضارة الاسلام ـ ترجمة جاويد ص ٣٩ .

(١٩٥) Runciman : Byz. Civ. p. 234, Byzantium. p. 16. ، بحث فازيلييف عن الاسلام وبيزنطة المستخرج من كتاب Byzantium. والملحق بترجمة دكتور مؤنس وزايد لكتاب بينز : الامبراطورية البيزنطية ص ٣٧٦ .

(١٩٦) خدابخش : مقدمة لترجمته الانجليزية لكتاب فون كريمر : الحضارة الاسلامية ومدى تأثرها بالمؤثرات الأجنبية ـ الترجمة العربية للدكتور بدر ص ٢٩ : تعليقات الدكتور بدر ص ١٦٦ . بينز : الامبراطورية البيزنطية ـ ترجمة دكتور مؤنس وزايد ص ٦٠ ـ ١ .

ويرى المؤرخ اليـوناني المعـاصر باباريجوبولو Paparigopoulo ان محاربى الصور كانوا دعاة اصـلاح سياسى اجتماعى ويريدون تحرير التعليم والتربية من سيطرة الاكليروس • ويرى المؤرخ الفرنسى لومبـار Lombard انهم كانوا مصـلحين دينيين نظروا الى الصـور نظرتهم الى عبادة الاصنام وأشار لويس بربيه Brehier الى أن موضـوع الايقونات يثير البحث فى محاولة تصوير ماهو الهى فى صورة بشرية وتصـوير أسرار الروح تصويرا ماديا ، ولكن **فازيلييف يرى تشـابها بين الحركة** اللا ايقونية الرومية وبين الميل لتغليب العقل فى الاسـلام فى القرنين **الثامن والتاسـع الميلادى ويرى اوسبنسكى** Ospensky ان الدافع الأول لحرب الأيقونات هو خوف الامبراطورية من تزايد ثراء الرهبان ونفوذهم • وقد شعر صناع الصور المجيدون فى أفسـوس ـ ان الخطر يهدد رزقهم وكان الدفاع الحار عن الصور المقدسة أنها انجيل الجاهل وهى تذكر بالله وان من الطبيعى ان يتجه العقل الانسانى الى التماس المعاونة من قوى وراء الصور المتجسدة وان المسيح قد قدس المادة حين استحال الى جسد بشرى• غير ان معركة اللاصورية اكتسبت فى مرحلتها التالية طابعا سياسيا « ولم يكن الرهبان مجرد مدافعين عن الصور يذودون عن تقليد كنسى فحسب بل كانوا يكافحون عن حرية جديدة ويجاهدون فى سبيل تحطيم العلاقة بين الكنيسة والدولة ـ تلك العلاقة التى توطدت منذ زمن طويل فى العالم البيزنطى لأن امبراطور روما الشرقية لم يكن حامى الدين فحسب بل كان رئيس الكنيسة وكان فى مقدوره وحده ان يدعو المجمع الكنسى ـ برلمان الامبراطور الدينى » • وهذه النظرية عن علاقة الكنيسة بالدولة هى التى هاجمها تيودور أحد أنصار الصور المتأخرين ، ويوضح القديس يوحنـا الدمشقى وجهة نظر هؤلاء الرهبان فى قوله « نحن نطيع الامبراطور فيما يتعلق بحياتنا اليومية ـ أى فى الولاء والضريبة وما يحق له علينـا من الجبايات • أما فى الحكومة الكنسية فلنا القسيسون والمبشرون بالكتاب المقدس وشارحو القوانين الكنسية • فالتقدم السياسى من اختصـاص الامبراطور أما التنظيم الكنسى فهو من اختصاص القسيسين والمعلمين ،وليس تجريدهم منه الا من قبيل اللصوصية » • واذ كانت مصر والشام والعراق قد انفصلت عن جسد الدولة البيزنطيـة ولم يبق فيهـا الا الولايات الارثوذكسية فانه لم يعد هناك مجالا لأن يتدخل الأباطرة تدخلا مستمرا عنيفا كما كان الحال فى القرنين الخامس والسادس الميلاديين حين كان فى الدولة ارثذوكسيون وغيرهم • وقد نهض النزاع حول الصـور بالتفكير

اللاهوتى البيزنطى حتى يقول بينز « ان الكنيسة الارثوذكسية خرجت من نزاع اللا ايقونية ارثذوكسية أكثر من أى يوم مضى » ٠

ومع أن الخليفة الأموى يزيد عبد الملك (١٠١ : ١٠٥ هـ) (٧٢٠ : ٧٢٤ م)المعاصر للامبراطور البيزنطى ليو الثالث (٧١٧ / ٧٤١ م) كان قد أصدر منشورا قبل ليو الثالث بثلاث سنين كما تؤكد المصادر الموثوق بها يأمر بكسر الصلبان ومحو الصور والتماثيل فى الكنائس الا أن يوحنا الدمشقى الذى كان يعيش فى ظل الخلافة الاسلامية واصل دفاعه المتحمس عن الايقونات دون أى ازعاج ٠ ومن بين كتاباته المتعددة نجد ٣ مقالات عنوانها : « الرد على الذين يحطون من شأن الصور المقدسة » كتبها فى ظل الخـــلافة وأصـــبحت أمضى ســـلاح للمدافعين عن الايقونات من البيزنطيين (١٩٧) ٠

ويحكى تيوفانيس أن يهـــوديا عرافا من اللاذقية قال ليزيد بن عبد الملك أن خلافته ستمتد أربعين عاما ان هو كسر الصور التى فى الكنائس النصرانية بمملكته ويقول تيوفانيس ان هذا كان سببا فى اصدار يزيد أمره بذلك ولكن هذا الأمر لم ينفذ بسبب موت يزيد بعد ذلك بقليل بل لم يبلغ الأمر سوى فى أضيق نطاق ولكن ليو كان على هذا الرأى (الشنيع المخالف للدين) وقد أعانه على ذلك نصرانى اسمه بشر على أسماء العرب وكان وهو أسير حرب فى الشام قد اعتنق الاسلام ثم ارتد بعد اطلاقه وقد بقيت فى نفسه آثار منه ٠

ويشك فلهوزن فى صدور هذا الأمر من الخليفة اذ لم يعرفه الا الأقل من الناس اما مجرد نبوة يهودى للخليفة بامتداد حكمه أربعين سنة فنجدها عند الطبرى أيضا ولكن النبوءة لم تتحقق ولم يحكم يزيد سوى أربع سنوات (١٩٨) ٠ وقد ذكر المقريزى فى الخطط وساويرس فى سير البطاركة نبأ تنفيذ أوامر يزيد فى مصر « ووسم أيدى الرهبان بحلقة من حديد فيها اسم الراهب واسم ديره وتاريخه » أما مسلمة بن عبد الملك والى العراق وخراسان فقد أمر بمحو الصور جميعها سواء

---

(١٩٧) بينز : الامبراطورية البيزنطية ترجمة دكتور مؤنس وزايد ص ١١٩/١١٤ ، هامش المترجمين ص ١١٩ ـ ١٢٠ ، ملحق بالكتاب : الاسلام وبيزنطة لفازيلييف من كتاب Byzantium ص ٣٧٤ ـ ٣٧٥ ، سيدة كاشف : مصر فى فجر الاسلام ص ٢٠١ ٠
دكتور رستم : الروم جـ ١ ص ٣٠١ : ٤ ، فازيلييف العرب والروم ـ ترجمة دكتور شعيرة ص ١٣ ، ٢٨ ـ ٩ ، ٣٧ ـ ٨ ٠

(١٩٨) فلهوزن : تاريخ الدولة ترجمة دكتور ابى ريدة ص ٣١٤ ٠

ماكان فيها فى الكنائس أو على الجدران أو فى البيوت والكتب ، كما قام بتحطيم جميع الأصنام والتماثيل سواء أكانت من الحجر أم العاج كما جاء فى Anonymous Syriac Chronicle (١٩٩) ويميل المطران الدبس الى تأييد اتباع يزيد لرأى يهودى بل ويرى ان اليهود أيضا هم الذين أثاروا ليو الايسورى ضد الصور ويقول « أثار الوثنيون واليهود والمانويون وبعض أولى البدع قديما حربا على الصور على ماجاء فى أعمال المجمع السابع المسكونى فى المجلسين الأول والخامس على أن من تسبب فى محاربتها فى هذا القرن انما هو رئيس يهودى اسمه سارانتابك · مضى الى يزيد الخليفة – ابن عبد الملك ، فاغراه بأن يصدر أمرا ينهى به المسيحيين عن تكريم الصور فى معابدهم لأن استعمال الصور محظور بسنة المسلمين ، فانقاد الخليفة لاغرائه واصدر أمرا ينهى به عن ذلك فقلق النصـــارى ، **ولما كان هؤلاء الخلفاء قد اعتــادوا ترك النصارى وما يدينون لم يتشيث يزيد بتنفيذ أمره بل أغضى عنه فكان أعلم وأعدل من بعض المسيحيين ولاســيما الملكين لاون الايسورى وابنه قسطنطين الزبلى** ، اللذين أثاروا حربا عوانا على الصور ومن يكرمها حتى زادا كثيرين فى عذاب الشهداء · فان الملك لاون كان قد وعد اليهود بأنه سيصنع كل مايسألونه ليعاونوه على ترقيته الى منصة الملك فبعد أن استوى عليها زينوا له ان تكريم الصور ضرب من عبادة الأوثان وقد نهت عنه الاسفار المقدسة فى العهد القديم فانحاز الى رأيهم ·· وبلغت الاخبار ايطاليا فالقوا الى الارض صور الملك ووطئوها فاحتدم غيظا وكتب الى رومة أمرا بانتزاع الصور من الكنائس ومهددا البابا غريغوريوس الثانى بالعزل والنفى ان مانع من تنفيذ أمره فكتب الحبر الرومانى رسالة عامة الى جميع المؤمنين يحذرهم بها من هذا الضلال ومن مطاوعة الملك عليه وعزم سكان ايطاليا أن يقيموا ملكا ويحملوه الى قسطنطينية فيثلوا عرش لاون ويملكونه مكانه ·· وخلف لاون قسطنطين ابنه ·· وأراد قسطنطين ان يبرىء أعماله بسلطة الكنيسة فجمع كثيرين من الأساقفة سنة ٧٥٤ م فى قسطنطينية وعقدوا فيها مجمعا لم يكن فيه نائب عن الحبر الرومانى ولا نواب عن بطاركة اســكندرية وأنطاكية وأورشـليم وكان كرسى قسطنطين فارغا قضوا فيه بدسائس الملك وتهديداته وسر بعض الاساقفة بانه لا يجوز تكريم صور القديسين والالتجاء الى شفاعتهم لأن ذلك يحسب عبادة صنمية ·· ان الدين المسيحى والذوق السليم يرشداننا الى أن

---

(١٩٩) ترتون : أهل الذمة في الاسلام ترجمة دكتور حبشي ص ١١١ ·

العبادة السامية لا تحق الا لله خالق السماء والارض وما فيهما على أنها يرشدانا أيضا الى أنه يسوغ لنا أن نكرم بعد الله ولاجل الله بعض مخلوقاته التي أبدى بها قداســة وجوده وقدرته كالملائكة والقديسين الفائزين بســعادته ، بل يقضي علينا الدين والعقل أن نكـرم والدينا والمحسنين الينــا وملوكنا في الارض أيضا وان في جملة صنوف هذا التكريم أن نصور صورتهم ونكرمها اكراما يعود اليهم طبعا لا الى النسيج او الورق المصورة عليه الصورة فكيف لا يسوغ اذن للمسيحي أن يكرم صورة المسيح أو العذراء والدته أو القديسين أصفيائه ٠٠ ؟ وندر بين أهل الحضارة من يعتقد أن الصورة هي المصور بها نفسه وان وجد بين أهل الهمجية من هو كذلك لزم ارشاده الى ما هو معقول لا النهى المطلق عن تكريم الصور الذي لا تنكر منفعته بايقاظ عواطف العبادة وذكر فضائل المصور ، ولم ينه الله بوصاياه عن اتخاذ صورة أو تمثال الا لنبذ عبادة الوثنيين التي كانوا يعتقدون بها أن في أصنامهم قوة بنفسها (٢٠٠) ٠

ويرى فازيلييف أن التشابه بين الحركة الايقونية والحركة العقلية في الاســلام في القرنين الثامن والتاســع واضح جلي وعلى ذلك « فان دراسة هاتين الحركتين من ناحية أثر أحدهما على الأخرى قد يؤدى الى نتائج عظيمة الأهمية لتاريخ الامبراطوريتين الثقافي » (٢٠١) وقد كانت من نتائج نزعة تغليب العقل في الاسلام القول بخلق القرآن وحين اعتنق بعض خلفاء بنى العباس هذا الرأى كانت احدى البعثات التي توجه الى مناطق الثغور لفداء الأسرى تشترط اقرار الأسير بخلق القرآن لافتدائه ٠

---

(٢٠٠) الدبس : تاريخ سوريا ج ٥ ص ٢٧٨ : ٢٨٣ ٠

(٢٠١) فازيلييف : العرب والروم ـ ترجمة دكتور شعيرة ص ١٣ ٠

رابعا : المجتمع فى الثغور

انتقلت القبـــائل العربيـــة الى أطراف الجزيرة من قبل الاســـلام فالمسعودى يحدثنا أن المسلمين من طىء تفرقوا فى الحروب بين الغوث بن طىء وجديلة بن سعد ، فلحقوا بحاضر قنسرين من أعمال حلب وخالطوا الانباط وغيرهم وتزوجوا فيهم • وقد عدد ابن العديم من نزل من العرب حلب : من بنى كلاب ، وبنى نمير ، والنمر بن قاسط ، وقضاعة ، وكلب ، وسليم • وابن حوقل يقول فى خلال حديثه عن الجزيرة : وقد سكن طوائف من العرب من ربيعة ومضر والجزيرة حتى صارت لهم بها ديار ومراع فنزلوا على خفارة فارس والروم حتى ان بعضهم تنصر ودان بدين النصرانية مع الروم مثل تغلب بن ربيعة بأرض الجزيرة وغسان وبهراء وتنوخ من اليمن بأرض الشام • وهكذا كانت تطرق الشام والجزيرة قبل الفتح الاسلامى مجموعات عربية متباينة « وكانت تمارس فيها حياتها الجديدة وتتآلف معـها وتتأثر بهـا وتؤثر فيها وتكون فى هذا التأثر والتأثير صلة مابين الجزيرة وخارجها وما بين الجنس العربى والاجناس الأخرى » (٢٠٢) •

وجاءت الفتوح الاسلامية فلم يكن خروج العرب من جزيرتهم قبل الصورة بل كان الخليفة يبعث مستنفرا للجهـاد فتتوافد عليه الجموع فيصرفها فى الوجهة التى يراها وان كان يحدث أحيانا أن تكون كثرة من المحاربين من قبيلة من القبائل • وكانت أعمال الجيوش تقتضى بطبيعتها تعاونا جماعيا لا يعتمد على روح القبيلة الفردى ، ثم انتهى الاختلاط فى الجيوش الى الاختلاط فى المدن بعد الاستقرار • وقراءة أسماء القبائل

---

(٢٠٢) دكتور شكرى فيصل : المجتمعات الاسلامية ص ٢٧ ــ ٨ ، ابن العديم : بغية الطلب ــ مخطوط ص ٥١١ وما بعدها الى ٥٥١ •

والجماعات التى نزلت الكوفة مثلا تنبىء عن اشتراك قبائل من الشمال والجنوب ، من ربيعة ومضر ، من الحجاز ونجد ــ فى سكنى مدينة واحدة ٠ وان كثيرا من الحوادث التى تتصل بالحياة السياسية والمالية للمجتمع الاسلامى فى الفتوح والعطاء لتقوم مابين أهل البصرة وأهل الكوفة ومابين أهل الشام وأهل العراق ٠ والى جانب **تميز الجماعات بالمدن التى تسكنها كانت بعض الجماعات تتميز بالوقائع** التى خاضتها « ويبدو كأنما كان لكل معركة كبرى فى الفتوح فى الشام والعراق طبقة تفردت بلون خاص من الامتياز المادى أو الأدبى » وذلك بجانب التقسيم الأشهر الى صحابة وتابعين ونحن نقرأ للطبرى مثلا « كان أبو بكر لا يستعين فى حربه بأحد من أهل الردة حتى مات وكان عمر قد استعان بهم فكان لا يؤمر منهم أحدا الا على النفر وما دون ذلك وكان لا يعدل ان يؤمر الصحابة اذا وجد من يجزىء عنه فى حربه ، فان لم يجد ففى التابعين باحسان وكان لا يطمع من انبعث فى الردة من الرئاسة » ويقول الدكتور شكرى فيصل « هنالك قيمتان كبريان سادتا المجتمع الاسلامى وأرستا قواعده : قيمة معنوية تتمثل فى صحبة الرسول بكل ماوراء هذه القيمة من استمساك بالمثل الاسلامية الأولى الصحيحة وقيمة مادية تتمثل فى العطاء ــ بكل ماوراء هذا العطاء من فهم لأساليب الحكم وأنماط السياسة وطريقة السير بالدولة الاسلامية » وهو يقول عن العطاء « كان العطاء اول الأمر سبيلا لتقدير العمل وكان لا يناله الا الذين يستحقونه فى حدود ما أمر الله ٠ فلما انحرفت بالحياة الاسلامية الطريق حين استقرت فى مهاجرها الجديدة أصبح العطاء ثمنا للفراغ والدعة وطريقا للترف ولم يعد حقا من حقوق الجماعة وانما فسر على أنه حق من حقوق الخليفة يزيده وينقصه كيف يشاء ويصل به ويمنعه عمن يشاء » (٢٠٣) ٠

واذا كان الاسلام قد أعان على ادماج العرب فيما بينهم فانه بدوره لم يعزلهم عن سكان البـــلاد المفتوحة وأهاليها الأصليين ٠٠ فقد أمنهم المسلمون على أنفسهم وأموالهم وعقائدهم وشعائرهم « وفى هذه السياسة التى صار عليها المسلمون وفى هذه العهود التى كتبوها كانوا يضعون أسسا لمجتمع جديد ٠٠ لم يكن مجتمعا ضـــيقا ولا منطويا وليست له الانعزالية التى يحرص عليها المستعمرون ٠٠٠ كان مجتمعا طلقا حرا يســع الناس جميعــا من كل أمة ويؤوى اليه الناس جميعا من كل ملة يبيح المشاركة فيه لمن شاء هذه المشـــاركة ويتيح الخروج عنه لمن أراد

(٢٠٣) دكتور فيصل : المجتمعات الاسلامية ص ٣٥ ؛ ٧ ؛ ٤٤ ؛ ٧ ، ٣٥٢ ٠

الخروج ــ يشارك آمنا ويخرج آمنا » ٠ وفي هذا الجو الطلق الصافي **استيقظت القرابة القديمة بين عرب الضاحية وعرب الجزيرة** « وقد أحست القبائل سواء منها النازلة في العراق أو في الشام حاجتها الى أن تعتد بهذه القرابة ومكنت لها وحدة اللغة من هذا الاعتداد ٠ والتفتت فوجدت أن الأصداء التي كانت تنبعث من مراكز الحكم يونانية والأصداء التي كانت تنبعث من مراكز الحكم والتي كانت تستجيب لها آرامية ــ أضحت عربية مبينة صوتا ومقالا ٠٠٠ حارب عرب الضاحية عرب الجزيرة فلما رأوا أن ذلك لن يجديهم اقتربوا منهم ثم تضامنوا معهم ثم شاركوهم مثلهم وفكرتهم وتكونت منهم جميعا هذه الكتلة ألكبرى في جسم الدولة حتى لكان هذه القرابة هي الجرثومة التي نبت عنها تعريب الشام ٠٠٠ والدور الذي لعبته اللغة المشتركة بين عرب الضاحية وعرب الجزيرة أبعد مدى واشد ايغالا من الدور الذي لعبته القرابة ٠٠٠ ولم يكن هناك الا الروم وحدهم لا يتمثلون هذه اللغة وكانوا بالقياس الى العرب والآراميين قلة حاكمة وكان المسلمون في شروط الصلح نفوهم عن البلاد وآمنوهم على الخروج منها وسمحوا لمن شاء أن يبقى منهم ٠٠٠ أما اللغة اليونانية فلم تستطع البقاء ولم يمكن لها من قبل الفتح اذ لم تعد ان كانت لغة الدواوين أو لغة المترفين (المتهلينين) » (٢٠٤) ٠

وقد كان المسلمون حريصين على استمالة العرب في الشام والجزيرة « وانحاز جبلة بن الايهم الى الانصار فقال : أنتم اخوتنا وبنوا أبينا وأظهر الاسلام ٠ فلما قدم عمر بن الخطاب الشام سنة ١٧ هـ لاحى جبلة رجلا من مزينة فلطم عينه فأمره عمر بالاقتصاص منه فقال : أو عينه مثل عيني ــ والله لا أقيم ببلد على به سلطان فدخل بلاد الروم مرتدا وكان جبلة ملك غسان بعد الحارث بن أبي شمر ٠ وروى ايضا أن جبلة أتى عمر وهو على نصرانيته فعرض عمر عليه الاسلام وأداء الصدقة فأبى ذلك وقال : أقيم على ديني وأؤدي الصدقة فقال عمر : ان أقمت على دينك فاد الجزية فأنف منها فقال عمر : ماعندنا لك الا واحدة من ثلاث : اما الاسلام واما أداء الجزية واما الذهاب حيث شئت فدخل بلاد الروم في ثلاثين الفا ٠ فلما بلغ ذلك عمر ندم وعاتبه عبادة بن الصامت فقال : لو قبلت منه الصدقة ثم تألفته لأسلم ٠ وان عمر وجه سنة ٢١ هـ عمير بن سعد الأنصاري الى بلاد الروم في جيش عظيم وولاه الصائفة ــ وهي أول صائفة كانت ــ وأمره أن يتلطف لجبلة بن الايهم ويستعطفه بالقرابة

(٢٠٤) دكتور فيصل : المجتمعات الاسلامية ص ٦٤ : ٧٠ ٠

بينهما ويدعوه الى الرجوع الى بلاد الاسلام على أن يؤدى ماكان بذل من الصدقة ويقيم على دينه فسار عمير حتى دخل بلاد الروم وعرض على جبلة ما أمره عمر بعرضه فأبى الا المقام فى بلاد الروم » .

كذلك أراد عمر أن يأخذ الجزية من نصـــارى تغلب « فانطلقوا هاربين .. فقال النعمان بن زرعة أو زرعه بن النعمان : أنشدك الله فى بنى تغلب فانهم قوم من العرب نائفون من الجزية وهم قوم شديدة نكايتهم فلا يغن عدوك عليك بهم . فارســـل عمر فى طلبهـــم وأضعف عليهـــم الصدقة » (٢٠٥) .

وقد كانت المقاومة التى لقيتها اللغة العربية فى بلاد الامبراطورية الساسانية ـ باستثناء العراق العربى ـ أشد عمقا من المقاومة فى بلاد الامبراطورية البيزنطية فقد كانت اللغـــة الفارسية هى لغـــة الحكومة والشعب أما فى الشام فقد كانت اليونانية لغة الحكم والسريانية والآرامية والعربية السنة الشعب .

وقد كانت القبائل العربية تنزل فى ديار الجزيرة بشمالى العراق منذ الجاهلية ، أما غير العرب فقد أخذ تيار التعريب الاجتماعى واللغوى يشق مسالكه فيهم وكان للاسلام آثاره الكبرى كما فعلت الحياة المنزلية فعلها فى تعريب الفارسيات من حرائر واماء وتعريب أطفالهن . وبرزت مع استقرار العرب فى العراق ظاهرة بناء المدن وتمصير الامصار « وكان هذا تجسيما لكل حاجات المجتمع الجديد : كان تجسيما لحاجاته النفسية التى كانت رغبة عن القبيلة واستشرافا للوحدة ونزوعا الى حياة هى أسمى من الحياة التى كانت فى الجزيرة وكان تجسيما لحاجاته الحياتية التى كانت تحتم على هذه الجماعة أن تجد المنزل الذى تتاقلم فيه والذى تتخذ فيه الاعراف بين البيئة التى خلفتها وراءها والبيئة التى تستقبلها من أمامها وكان الى ذلك تجسيما لحاجاته السياسية والحربية فى التمركز بعد الانسياح وتثبيت الاقدام بعد أن بعدت الاماد وامتدت المســـافات ومحاولة الارتكاز الى هذه المواطن قبل أن يتبين الوثبة الجديدة ... وكان كذلك استجابة لدواعى البيئة فى العراق وما فرضته على هؤلاء المهاجرين من ألوان وأساليب . فمن الواضح أن هذا السواد الواسع لم يكن الا سهولا متصلة متلاحقة لا مدن فيها ، لم يكن كما كانت الشام تتعاقب فيه الارض والمدن ولم يكن كذلك كماكانت فارس ، وانما كان أرضا

(٢٠٥) البلاذرى : فتوح البلدان ص ١٤٢ ـ ٣ ، ١٨٩ .

متسعة ممهدة تتعاقب فيها السهول وتجرى فيها الأنهر والقنوات وينتشر المزارعون فلا تتميز الارض الا ببعض القرى ، ولا تكون هذه القرى الا ضرورة لا مناص منها للادارة أو للاشراف . فلما جاء العــرب مهاجرين فرض عليهم هذا السواد نفسه ــ مادام من رغباتهم أن يقيموا فيه دولة وينشئوا حكما ــ أن يمصروا فيه البصرة والكوفة أولا وواسط ثانيا ثم بغداد وسامرا بعد ذلك وأن يجعلوا من هذه المدن معالم حياته الجديدة (٢٠٦) .

وقد مصرت الموصل وخططت فى عهد عمر سنة ٢٠ هـ وسميت كذلك لأنها تقع بين العراق والجزيرة وتصل بين الجزيرة والشام وبين الفرات ودجلة ، ثم ازداد عمرانها فى ولاية محمد بن مروان ولما وليها سعيد بن عبد الملك حفر بها نهر سعيد كما بنى سورها وأعاد فرشها بالحجارة . وفى عهد هشام أسس واليه الحر مدرسة ومقرا منيفا تفنن فى بنائه وزخرفته وحلى سقوفه بماء الذهب كما شق جدولا عذبا وغرس الاشجار على جانبى الطرق .

وكان يسكن الموصل كثير من قبائل العرب من أبناء ربيعة ومضر ، وقد نقل محمد بن مروان فى خلافة أخيه عبد الملك الأزد وربيعة من البصرة الى الموصل (٢٠٧) .

وسكن العرب المدن الحربية التى وجدوها فى الشام وشرعوا ينشئون الأمصار فى غير الشام ، «ولم يكن يستطيع المرء أن يتمتع بما للمواطن من حقوق كاملة الا فى الجيش وفى المــدن ومعســكرات الجيش الكبرى » ــ على حد تعبير فلهوزن ، « وكان سجل المواطنين المشتمل على أسمائهم هو سجل ديوان الجيش وكانت القبائل والعشائر هى التى تؤلف فصائل الجيش وكتائبه » . وقد كان المجتمع الاسلامى يختلف فى الشام عنه فى العراق « وذلك انه لم يكن للكوفة والبصرة تراث غير تراث حياة البادية وغير تراث الاسلام وكانت حروب الفتح قد قذفت اليهما بجيوش عربية تتألف من مختلف القبائل فاقامت هناك أشبه شىء بالمستعمرات العسكرية ووجدت هذه القبائل نفسها قد انتقلت دفعة واحدة من ظروف حياة البادية الى ظروف الحضارة وصارت فى النقطة الوسطى لامبراطورية كبرى فلا عجب ألا يتحول العرب دفعة واحدة من حياة البداوة الى حياة المواطنين المهذبين . على انه قد هاجر الى الشام أيضا على أثر الفتح الاسلامى

(٢٠٦) دكتور فيصل : المجتمعات الاسلامية ص ١٠٥ : ١١٣ .
(٢٠٧) دكتور الخربوطلى : تاريخ العراق فى ظل الحكم الاموى ص ٢٩٩ ــ ٣٠٠ .

كثير من العرب ـ خصوصا من قيس الذين انتقلوا الى شمال الشام ولكن الغالبية فى الوسط كانت لكلب ولقبائل قضاعة الى جانب قبائل اخرى من ازاد الصراة· وكانت هذه القبائل قد توطنت هناك منذ قرون ولم تكن قد جاءت مع مجيء الاسلام وكانوا معرضين لتأثير الحضارة اليونانية الرومانية والكنيسة المسيحية والدولة الرومانية ـ.فلم تخل هذه العوامل كلها من أن تترك أثرها فيهم ولم تكن مظاهر الدولة المنظمة ولا روح الطاعة الحربية والسياسية معانى جديدة عليهم ··· ولم يكن من الممكن أن يصبح عرب الشام الذين ادمجوا فى الدولة العربية بعد الفتح فى المرتبة الثانية بعد العرب الذين دخلوها فاتحين ذلك أن دخول عرب الشام فى الاسلام جاء مبكرا وكان لهم فيه نصيب من الاختيار وان كان اسلامهم قد كان مجرد انضمام لراية العروبة المنتصرة ··· ولم يكن المسلمون فى الشام يعيشون بمعزل وفى مستعمرات مخصصة لهم بل كانوا يعيشون بين أبناء البلاد فى المدن القديمة مثل دمشق وحمص وقنسرين وغيرها بل كانوا أحيانا يقاسمونهم بيتا لله ـ نصفه مسجد ونصفه كنيسة » (٢٠٨) ·

وقد روى أن الحجاج سأل زادان فروخ عن العرب فى الامصار فاخذ يصف أهل كل مصر وخصائصهم فقال عن أهل الشام فلم يغفل تأثير الروم فيهم « نزلوا بحضرة أهل الروم فأخذوا من ترفقهم وصناعتهم وشجاعتهم » (٢٠٩) ·

ولم يكن فى وسع العرب مهما يكن الأمر يتناسوا تماما روح القبيلة ، فقد أقاموا فى مدن الشام مثل حمص وحلب فى أحياء مختلفة تبعا **لرابطتهم القبلية** (٢١٠) ـ ونقرأ فى أخبار الفتوح أن السمط بن الاسود الكندى « **قسم حمص خططا بين المسلمين حتى نزلوها ، واسكنهم فى كل مروض جلا اهله أو ساحة متروكة** (٢١١) · وهكذا انتقل العرب بمشاعرهم القبلية من بادية الجزيرة الى المدن والامصار» ولم يشأ الله أن يخالف العرب عن الفطرة بالطفرة ، ولذلك أخذوا بهذه الخطوة المزدوجة **خرجوا من قبلية الصحراء الى قبلية المدينة** ـ أعنى أنهم حققوا قدرا من التطور يتمثل فى محو ماكان من آماد بعيدة أو قريبة بين قبائل البادية

---

(٢٠٨) فلهوزن : تاريخ الدولة العربية ـ ترجمة دكتور ابى ريدة ص ٢٤ـ٥ ، ١٢٦ : ٨·
(٢٠٩) ياقوت : معجم البلدان ج ١ ص ٤٨ ·
(٢١٠) حتى : تاريخ سوريا ج ٢ ترجمة دكتور اليازجى ص ٩٤ دكتور فروخ العرب والاسلام فى حوض البحر المتوسط ص ١٤٨ ·
(٢١١) البلاذرى فتوح البلدان ص ١٣٧ ·

تحول بينها وبين أن تأتلف أو تتقارب ··· لأن حيـــاة المدينة نفسها ستفرض عليهم ألوانا من النظم ، وستضطرهم الى اشكال من العلائق ، وستدفعهم الى نماذج كثيرة من الصـــلات والترابط ··· وكان يزداد الشعور بالمدينة نموا وأصالة بالقدر الذى ينتقص من شعور القبيلة ذبولا وتخلخلا وكثيرا ماكان يحدث أن تجتمع المدينة كلها ـ أعنى كل القبائل النازلة فيها ـ على شيء تطلبه يخالف ماتطلبه المدينة الأخرى ·· » (٢١٢) على أن هذا لا يمنع من حدوث انتكاسات الى العصبية القبيلية أحيانا خاصة فى العهد الأموى ·

ويتهم ديموميين الخلفاء بانهم تسببوا فى احياء الروح القبلية لأنهم كانوا يتصلون بجمهور الناس عن طريق زعماء القبائل ، فكان الخليفة يؤكد ويؤيد وضـــع رئيس القبيلة ويزوده بســـلطة عسـكرية وادارية ومالية ·

وكان هناك عداء مستحكم بين اليمنية والمضرية ، كما اشـتد الخلاف بين قيس وتغلب ، وكانت قيس تنزل قبل الاسلام فى نجد وبوادى الحجاز وتمتد بطونها وعشائرها حتى تشرف على منازل تميم وبكر ، أما تغلب فكانت تنزل فى الموصل وكانت بطونها وعشائرها تقيم فى المنطقة الممتدة من الحيرة الى شواطىء الفرات والى بادية الشـــام · فلما ظهر الاسلام خرجت قبائل قيس للاشتراك فى حركة الفتوح ، ونزل جزء كبير منها فى الشام وسكنوا بوجه خاص فى شمالى الشام والجزيرة على جانبى الفرات وفى قنسرين وقرقيسيا وحران ، وامتدت بعض فروعها الى منازل تغلب فى الموصل وحوض الفرات · وهكذا كان بين قيس وتغلب تزاحم فى المنازل وتضارب على المعيشة والمكان · وقد حنقت قيس على نفوذ كلب أصهار معاوية ، ومن هنا وثبت على سعيد بن مالك بن بحدل الكلابى حين ثولى قنسرين ، وساندت ابن الزبير بعد وفاة يزيد « وهكذا امتزج الخصام القبلى بالسياسة العليا ، وكانت مجموعات القبائل المرتبطة برابطة النسب هى بالاجمال الاحزاب السياسية التى كانت فى أصلها ـ مستقلة عن القبائل ـ » كما يقول فلهوزن ، واستمر الصراع القبلى فى الشام حتى أيام العباسيين ،وعانى الرشيد من ذلك حتى اضطر أن يعقد لجعفر بن يحيى على القيام باخماد الفتنة (٢١٣) ·

---

(٢١٢) دكتور فيصل : المجتمعات الاسلامية ص ١٠٢ ، ١٠٥ ·

(٢١٣) دكتور الخربوطلى : تاريخ العراق فى ظل الحكم الاموى ص ٢٤٢ ـ ٤ ، ٢٥٠ · فلهوزن : تاريخ الدولة الاموية ـ ترجمة أبى ريدة ص ١٦٧ ، ١٧٧ ، الطبرى حـ ١٠ ص ٥٢ ، ٦٠ ، ٦٦ ـ ٧ ·

وقد كان العرب والبدو الذين رغبوا فى الزراعة قليلين ومن هنا غلب عليهم التجمع فى المدن وتحاشى العرب جبال لبنان فلم ينزحوا اليه الا فى القرن التاسع الميلادى وبقى معظم سكانه من الآراميين الذين تحدروا من أصـــل فينيقى وظلوا يعتنقون المسيحية ويتكلمون السريانية فان الأماكن الاخرى ـ خاصة المنـــاطق الجبلية ـ قد حافظت على مظاهرها الاقليمية وأبقت على طابعها الحضارى المحلى • على أن بعض العرب قد تسللوا الى الريف وأنشأوا القرى « وقد تم نشوء هذه القرى على مراحل انتقالية واضحة من استيطان مؤقت الى حياة بدوية زراعية ذات حظ من الاستقرار ، فالى حياة ريفية مستقرة • ونشأت معظم هذه القرى حول منابع الميـــاه ، واعتبر فى اختيـــار مواقعها سهولة الدفاع وخصـــب التربة ••• » ولكن ظلت مناقب الحياة البدوية هى البارزة • وقد أخذت العربية تغدو لغة المدن ، وأدى تردد أبناء الريف الى المدن لبيع منتجاتهم أو مزاولة أعمالهم الى **محاولتهم تعلم اللغة الجديدة** •

وكذلك حاول تعلم اللغة كل من يتأهب للعمل فى احدى وظائف الدولة ، كما أخذ القوم فى **اعتناق الاسلام أيضا** واعتنق خمسة آلاف من نصارى بنى تنوخ بجوار حلب الاســـلام أيام المهدى العباسى ، وكان التنوخيون الذين دخلوا لبنان فى مطلع القرن التاسع الميلادى من الأسر العربية الاسلامية الأولى التى استوطنت الجبل ، وقد اقتطعوا لأنفسهم فى منطقة قليلة السكان مقاطعة حكموا فيها قرونا عدة ، ويرى الدكتور حتى أن **العباسيين قد أقاموا من التنوخيين « حاجزا دون الموارنة فى شمال لبنان ، وسدا فى وجه الروم المقبلين من البحر »** وما أن استهل القرن ١٣ م وآذن العصر العباسى بالزوال حتى **انتصرت العربية تماما وغلبت كأداة للتفاهم فى الحياة اليومية « انما بقيت هنالك (جزر لغوية) لأقوام غير مسلمين : مثل اليعـــاقبة والنســاطرة والموارنة** وقد كان فى عهـــد الصليبيين كثير من مثل هذه الجزر ، وفى لبنان المارونى دافعت اللغة السريانية حتى القرن السابع عشر •• واذ اخذ غير العرب فى الاستعراب واعتناق الاسلام عمدوا الى الالتحاق ببعض القبائل العربية على صورة موال وذابوا فيها تباعا ، ثم أخذ الفاصل بين العرب وغير العرب وبين المسلمين القدماء والمسلمين المستجدين فى الاضمحلال وسرعان ماغدا الجميع عربا بلا تمييز •• وقد انقرض السواد الأعظم من أولئك الذين تكلموا السريانية فى سوريا والعراق وكانوا يسمون بالأنباط » (٢١٣) •

(٢١٤) دكتور حتى : تاريخ سوريا ج ٢ ترجمة دكتور اليازجى ص ٩٤ : ٧ ، ص ١٧٠ : ٢ تاريخ العرب ترجمة نافع ج ١ ص ٢٨٦ ـ ٧ ، ٤٥٦ ـ ٧ •

وقد سار المسلمون أول الأمر على سياسة **تخريب معاقل الحدود الشمالية التى تحجزهم عن الروم ، فلما رسخت أقدامهم واستقرت دولتهم عمدوا إلى ابتناء المدن والتحصينات فى مواقع الثغور والمعسكرات وشحنها بالجند .**

وقد كان الاعتماد أول الأمر على **العرب المقيمين والقادمين** فى تعمير المراكز الهامة فى البلاد المفتوحة « قالوا : ورتب أبو عبيدة ببالس جماعة من المقاتلة ، وأسكنها قوما من العرب الذين كانوا بالشام فأسلموا بعد قدوم المسلمين الشام ، وقوما لم يكونوا من البعوث نزعوا من البوادى من قيس ، وأسكن قاصرين قوما ثم رفضوها أو اعقابهم » « ثم لما ولى معاوية الشام والجزيرة لعثمان أمره أن ينزل العرب بمواضع نائية عن المدن والقرى ويأذن لهم فى اعتمال الارضين التى لاحق فيها لأحد ، فانزل بنى تميم الرابية وانزل المازحين والمديبر أخلاطا من قيس واسد وغيرهم ، وفعل ذلك فى جميع نواحى ديار مضر ورتب ربيعة فى ديارها على ذلك والزم المدن والقرى والمسالح من يقوم بحفظها ويذب عنها من أهل العطاء ثم جعلهم من عماله » .

على أن الأمر استدعى بعد ذلك الاستعانة **بعناصر غير عربية** فى تعمير الثغور فقد أسكن معاوية بن أبى سفيان وهو والى الشام من قبل عثمان طرابلس « جماعة كبيرة من اليهود » « قالوا : ونقل معاوية الى أنطاكية فى ٤٢ هـ جماعة الفرس وأهل بعلبك وحمص ومن المصرين فكان منهم مسلم بن عبد الله ابن حبيب بن النعمان بن مسلم الانطاكى وكان مسلم قتل على باب من أبواب أنطاكية يعرف اليوم بباب مسلم ، وذلك أن الروم خرجت من الساحل فأناخت على أنطاكية فكان مسلم على السور فرماه علج بحجر فقتله » « وتل جبير نسبت الى رجل من فرس أنطاكية كان له عنده وقعة وهو من طرسوس على أقل من ١٠ أميال » « قالوا نقل معاوية قوما من فرس بعلبك وحمص وأنطاكية الى سواحل الاردن ــ صور وعكا وغيرها ٤٢ هـ ونقل من اساورة البصرة والكوفة وفرس بعلبك وحمص الى أنطاكية فى هذه السنة أو قبلها أو بعدها بسنة جماعة » ووجه يزيد بن عبد الملك الزط الى المصيصة ، كما نقل المعتصم كثيرا منهم فى عهده الى عين زربة وأسكن مروان بن محمد الخصوص فى شرقى جيحان بجانب المصيصة : فرسا وصقالبة وانباطا نصارى ، وقد نقلهم المنصور الى المصيصة وعندما توالى تعمير مدن الثغور فى العصر العباسى برز الفرس عماد الدولة وسندها الأول بين مستوطنى المدن التى

جرى بناؤها أو تجديدها : مثل اذنة ، وطرســـــوس ، وعين زربة والحدث وهكذا كان « يمثل سكان الثغر كل شعوب المشرق الاسلامى فى هذا الوقت وهم حين ينزلون الثغر يربطهم رباط واحد هو رباط الفروسية والجهاد ، ومن هنا اخذت التقاليد الثغرية اصولها ٠٠ وقد كانت الحياة الاجتماعية فى الثغور مبنية على الحركات الحربية الرتيبة فهى التى تحدث الأمن والانتعاش وتقطع السكون التام » (٢١٥) ٠

وفى أثناء فتنة الامين والمأمون تولى عبد الملك بن صالح للامين الشام والجزيرة فأتاه اهل الشام والزواقيل والاعراب من كل فج ووقع الصدام بين هؤلاء وبين جند أهل خراسان والأبناء (أبناء الدهاقين من الفرس) فلما انتصر المأمون حدث أن زار الشام مرة فتعرض له رجل فقال له : أنظر لعرب الشام كما نظرت لعجم أهل خراسان ، فقال : أكثرت على يا أخا الشام ، والله ما أنزلت قيسا عن ظهور الخيل الا وأنا أرى أنه لم يبق فى بيت مالى درهم وأما اليمن فوالله ما أحببتها ولا أحبتنى قط ، وأما قضاعة فسادتها تنتظر السفيانى وخروجه فتكون من أشياعه ، وأما ربيعة فساخطة على الله منذ بعث نبيه من مضر ، ولم يخرج اثنان الا خرج احدهما شاريا ، اغرب فعل الله بك (٢١٦) ٠

وقد وصف المقدسى **أهل حمص والمصيصة بالحمق** حتى وضع قاعدة فقال « واعلم أن كل بلد فيه صاد فأهل حمق الا البصرة فان اجتمعت صادان مثل المصيصة وصرصر نتعوذ بالله » لكنه يقول عن حلب « وفى اهلها ظرف ولهم يسار وعقول » (٢١٧) ومما اختصت به مدينة اللاذقية حسب رواية القفطى فى أخبار الحكماء — أن المحتسب كان يجمع **النسوة الفاسدات والغرباء المؤثرين للفساد من الروم** فى حفلة وينادى على كل واحدة منهن ويتزايد الفسقة فيها للیـــلة ثم يؤخذون الى الفنادق التى يسكنها الغرباء ، بعد أن تأخذ كل واحدة منهن خاتما يسمى خاتم المطران ليكون حجة بيدها من تعقب الوالى لها ، وان وجد خاطىء مع خاطئة من غير خاتم المطران عوقب ٠ على أن هذا النظام لم يذكر الا بعد أن عادت مدينة اللاذقية الى حكم الروم (٢١٨) ٠

---

(٢١٥) البلاذرى : فتوح البلدان ص ١٥٧ ، ١٨٦ ، ١٣٢ ، ١٥٤ — ٥ ، ١٢٢ ، ١٧٣ ، ١٧٥ : ٩ ، ١٩٦ ، د . شميرة : المرابطون في الثغور العربية الرومية — بحيث في كتاب (الى طه حسين في عيد ميلاده السبعين) .

(٢١٦) الطبرى : ج ١٠ ص ١٦١ ، ٢٩٦ ٠

(٢١٧) المقدسي أحسن التقاسيم ص ٢٥ — ٦ ، ١٥٥ — ٦ ٠

(٢١٨) متز : الحضارة الاسلامية — ترجمة دكتور ابى ريدة ج ٢ ص ١٢٥ ٠

وكان **الاحتفال بالعيدين** يبلغ روعته حيث يكون الشعور الاسلامي على أقواه مثل طرسوس حيث كان يأتي غزاة المسلمين من كل انحاء الدولة الاسلامية حتى كان يعتبر عيداها من محاسن الاسلام ولما ضاعت من المسلمين طرسوس بقيت صقلبة مشهورة بحسن عيديها (٢١٩) ٠

ولكن تعرضت الشام كثيرا **للأوبئة والزلازل** ، وقد وجد عمر الوباء بالشام حين خرج اليها ١٧ هـ وطعن عمير بن سعد والى حمص وقنسرين فى عهد عثمان ووقع طاعون أيام هشام بن عبد الملك وخرج الى الرصافة بالبرية ٠ وجاءت أخبار طاعون شديد بالشام سنة ١٠٧ هـ ، سنة ١١٥ هـ ، ووقعت زلازل فى سنوات مختلفة فزلزلت المصيصة سنة ١٨٧ هـ فانهدم سورها ونضب ماؤها بساعة من الليل وفى سنة ٢٤٥ هـ « كانت فى أنطاكية زلزلة ورجفة فى شوال قتلت خلقا كثيرا وسقط منها ١٥٠٠ دار وسقط من برجها نيف وتسعون برجا وسمعوا أصواتا هائلة لا يحسنون وصفها من كوى المنازل وهرب أهلها الى الصحارى وتقطع جبلها الاقرع وسقط فى البحر فهاج البحر وارتفع منه دخان أسود مظلم منتن ، وغار منها نهر على فرسخ ٠٠٠ وزلزلت بالس والرقة وحران ورأس عين وحمص ودمشق والرها وطرسوس والمصيصة واذنة وسواحل الشام ورجفت اللاذقية فما بقى منها منزل ولا أفلت منه الا اليسير وذهبت جبلة بأفعالها » (٢٢٠) ٠

وقد كانت الثغور موردا للرقيق من أسرى الروم ويذكر المقدسى ان الرقيق البيض صنفان الصقالبة ، والروم وهم يقعون الى الشام وأقور وقد انقطعوا بخراب الثغور « وسألت جماعة منهم : كيف يخصون ، فتحصل لى أن الروم يسلون أولادهم ويحرزونهم على الكنائس لئلا يشغلوا بالنساء وتؤذيهم الشهوة » فاذا غزا المسلمون وقع بعض الخصيان فى أسرهم ، وقد ظهر من الخصيان عند الروم فى القرن الرابع الهجرى مثلان نارسيس Narses ، وأمير البحر نيكتياس Niketas الذى فتح صقلية ، وكان عند المسلمين مؤنس القائد،وثمل الخادم وهو أمير البحر صاحب الانتصارات بطرسوس (٢٢١) ٠ وفى (رسالة جامعة لفنون نافعة فى شرى الرقيق وتقليب العبيد) لأبى الحسن المختار بن عبدون البغدادى

(٢١٩) متز : الحضارة الاسلامية ــ ترجمة دكتور ابى ريدة جـ ٢ ص ٢١٨ ٠

(٢٢٠) الطبرى : جـ ٤ ص ١٩٩ ، جـ ٥ ص ٦٩ ، جـ ٨ ص ١٨٨ ، ٢١٨ ، ٢٨٧ ، جـ ١٠ ص ٨٩ ، جـ ١١ ص ٥٧ ٠

(٢٢١) متز : الحضارة الاسلامية ترجمة دكتور ابى ريدة جـ ٢ ص ١١٢ ، ١١٥ ٠

المعروف بان بطلان الطبيب النصرانى الذى عاش فى النصف الأول من القرن الخامس الهجرى يقول الكاتب « ـ والروميات بيض شقر سباط الشعور ، زرق العيون ، عبيد طاعة ، وخدمة ومناصحة ، ووفاء وأمانة يصلحن للخزن لضبطهن وقلة سماحتهن ، ولا يخلو أن يكن بالفن صنائع دقيقة ، أما الأرمنيات ، فالملاحة للأرمن لولا ما خصوا به من وحشة الأرجل مع صحة بنية وشدة أسر ، والعفة فيهن قليلة أو مفقودة والسرقة فيهن فاشية ، وقل ما يوجد فيهن بخل ، وفيهن غلظ طبع ولفظ وليست النظافة فى لغتهن وهن عبيد كد وخدمة ومتى تركت العبد ساعة بغير شغل لم يدعه خاطره الى خير لا يصلحون الا على العصا والمخافة ، وكن مع ضربه وانقياده لما تريده على حذر ٠٠ ونساؤهم لا يصلحن لمتعة ، وجملة الأمر أن الأرمن أشر البيضان كما ان الزنج أشر السودان » (٢٢٢) ٠

وقد كثر رقيق الروم فى قصور الخلفاء ،وقد أعطى الرشيد مروان بن أبى حفصة مالا وعشرة من رقيق الروم حين مدحه بقصيدة ،وكان للمأمون غلام يسمى قسطنطين الرومى وآخر يدعى موفق الصقلبى « ودخل أحمد ابن صدقة على المأمون فى يوم الشعانين وبين يديه عشرون وصيفة جليات روميات مزنرات ، قد تزين بالديباج الرومى وعلقن فى أعناقهن صلبان الذهب وفى أيدهن الخوص والزيتون ٠٠٠ » وقد حمل الروميات عادات قومهن فى الغناء وضروب التظرف الى المجتمع العربى ٠ (٢٢٣) ، وذكر ساويرس أن أجاثو Agatho بطرك الاسكندرية اعتاد شراء أسرى الحرب البيزنطيين واطلاق سراحهم ٠ (٢٢٤) ٠

---

(٢٢٢) متز : الحضارة الاسلامية ـ ترجمة دكتور ابى ريدة جـ ١ ص ٢٢٩ : ٢٣١ ٠

(٢٢٣) احمد امين : ضحى الاسلام جـ ١ ص ٨٧ ـ ٨ ، ٩٧ ، دكتور حتى ـ تاريخ العرب ترجمة نافع جـ ٢ ص ٤٢٨ ٠

(٢٢٤) اهل الذمة في الاسلام ـ ترجمة دكتور حبشى ص ١٥٠ ـ ١ ٠

هذه هى الثغور ..

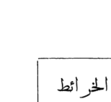
فى نشوئها ، وتطورها ..

فى سلمها ، وحربها ..

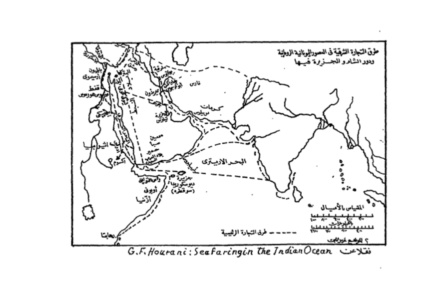
مجتمع يموج بالحركة ، وحياة متكاملة ، ونشاط متعدد الجوانب ، ونهضة تجد فى روح الجهاد أسباب الحياة والبقاء والنماء لا عوامل الموت والضعف والفناء .

لقد عرف المسلمون كيف يدافعون عن دولتهم بعد أن أقاموها . وامتدت أيديهم تصافح وتعامل ، وتتبادل المتاجر والمعارف وشتى المنافع .

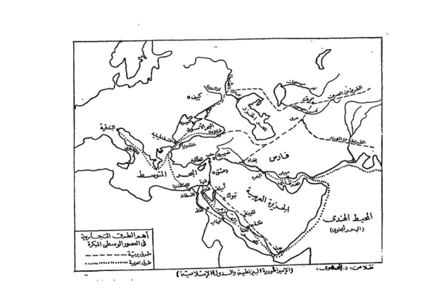
« ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لفسدت الأرض ، ولكن الله ذو فضل على العالمين » صدق الله العظيم .



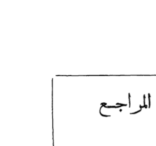
الخرائط



G.F. Hourani: Seafaring in the Indian Ocean نقلا عن



نقلا عن : د. العدوى ، (الإمبراطورية البيزنطية والدولة الإسلامية)



المراجع

المرجع

أولا : مصادر عربية قديمة

١ ـ البلدانيات :

١ ـ الاصطخرى كتب حوالى سنة ٣٤٠ هـ/ سنة ٩٥١ ـ سنة ٩٥٢م، المسالك والممالك ـ طبعة وزارة الثقافة والارشاد ٠

٢ ـ ابن جبير (كتب حوالى سنة ٥٨٠ هـ ـ سنة ١٣٨٤ م) : رحلة ابن جبير ـ تحقيق دكتور حسين نصار ٠ مكتبة مصر ٠ سنة ١٩٥٥ م

٣ ـ ابن حوقل (كتب حوالى سنة ٣٦٧ هـ ـ سنة ٩٧٧ ـ سنة ٩٧٨ م) : المسالك والممالك ، صورة الارض ـ ليدن ٠

٤ ـ ابن خرداذبة : المسالك والممالك (كتب حوالى سنة ٢٣٢ هـ ـ سنة ٨٤٦ م) ـ ليدن ٠

٥ ـ ابن رستة : (كتب حوالى سنة ٢٩٠ هـ ـ سنة ٩٠٣ م) ٠ الاعلاق النفيسة ـ طبع ليدن ٠

٦ ـ العمرى : (المتوفى سنة ٧٤٢ هـ ـ سنة ١٣٤١ م) مسالك الابصار فى ممالك الامصار الجزء الاول ٠ نشر وتعليق أحمد زكى باشا

٧ ـ المقدسى : (كتب حوالى سنة ٣٧٨ هـ ـ سنة ٩٨٨ م) ٠ أحسن التقاسيم فى معرفة الاقاليم ـ ليدن ٠

٨ ـ الهمدانى : (المتوفى سنة ٣٣٤ هـ) صفة جزيرة العرب ـ تحقيق محمد بن بليهد النجدى سنة ١٩٥٣ ٠

٩ ـ اليعقوبى : (كتب حوالى سنة ٢٧٨ هـ ـ سنة ٨٩١ م ـ وتوفى سنة ٢٨٤ هـ ـ سنة ٨٩٧ م) البلدان ملحق بكتاب الاعلاق النفيسة لابن رستة ـ ليدن ٠

١٠ ــ قدامة بن جعفر (توفى حوالى سنة ٣٣٧ هـ ــ سنة ٩٤٨ م) نبذ من كتاب الخراج وصنعة الكتابة ــ ملحق بكتاب المسالك والممالك لابن خرداذبة ــ ليدن ٠

ب ــ الحوليات وكتب التاريخ العام ٠

١١ ــ ابن الأثير (المتوفى سنة ٦٣٠ هـ ــ سنة ١٢٣٢ م) :الكامل فى التاريخ ٠

١٢ ــ البلاذرى (المتوفى سنة ٢٧٩ هـ ــ سنة ٨٩٢ ــ سنة ٣ م) : فتوح البلدان ــ القاهرة ٠

١٣ ــ ابن طباطبا : الفخرى فى الآداب السلطانية والدول الاسلامية ــ القاهرة ٠

١٤ ــ الطبرى (المتوفى سنة ٣١٠ هـ ــ سنة ٩٢٢ م) : تاريخ الأمم والملوك ــ ١١ جزءا ــ القاهرة ــ المطبعة الحسينية ٠

١٥ ــ أبو الفدا (المتوفى سنة ٧٣٢ هـ ــ سنة ١٣٣١م ــ ٣٢م) : المختصر فى أخبار البشر ــ ٤ أجزاء ــ القاهرة المطبعة الحسنية ٠

١٦ ــ ابن كثير (المتوفى سنة ٧٧٤ هـ ــ سنة ١٣٧٤ م) : البداية والنهاية ٠

١٧ ــ المسعودى (المتوفى سنة ٣٤٦ هـ ــ سنة ٩٥٦م) : مروج الذهب ــ القاهرة سنة ١٣٤٦ هـ (طبعة عبد الرحمن محمد) ٠

١٨ ــ المسعودى (المتوفى سنة ٣٤٦ هـ ــ سنة ٩٥٦م) : التنبيه والأشراف ــ بغداد ٠

١٨م ــ اليعقوبى (المتوفى سنة ٢٨٤ هـ ــ سنة ٨٩٧ م) ــ تاريخ اليعقوبى ٠

جـ : كتب التاريخ التى تعالج موضوعات خاصة (اقليم ــ عصر ــ أشخاص ٠٠٠)

١٩ ــ البدرى : نزهة الانام فى محاسن الشام ٠

٢٠ ــ الجهشيارى (المتوفى سنة ٣٣١ هـ) : الوزراء والكتاب ــ تحقيق السقا والأبيارى ــ القاهرة ٠

٢١ ـ الشـابشتى : الديارات ـ تحقيق وتذييل كوركيس عواد ـ المجمع العلمى العراقى ـ بغداد ٠

٢٢ ـ ابن الشحنة : الدر المنتخب فى تاريخ حلب ٠

٢٣ ـ الصـابى : تحفـة الأمراء فى تاريخ الوزراء ـ تحقيق عبد الستار فراج ٠

٢٤ ، ٢٥ ـ ابن العديم : بغية الطلب فى تاريخ حلب ـ مخطوط بدار الكتب المصرية ، زبدة الحلب فى تاريخ حلب بتحقيق د ٠ ســامى الدهان ـ طبع دمشق ٠

٢٦ ـ ابن عساكر : تاريخ مدينة دمشق ٠ المجلدتان ١ + ٢ ـ تحقيق الدكتور صلاح المنجد ـ المجمع العلمى العربى ـ دمشق ٠

تهذيب تاريخ ابن عساكر لبدران ـ القاهرة ٠

٢٧ ـ المقريزى (المتوفى سنة ٨٤٥ هـ ـ سنة ١٤٤١ ـ ١٤٤٢م): امتاع الاسماع بما للرســول من الانباء والابناء الحفدة والمتــاع ـ لجنة التاليف والترجمة والنشر ٠

٢٨ ـ شرف خان : الشرفنامة ـ ترجمة جميل بندى وروثر بيانى ٠

د ـ كتب الفقه الاسلامى والنظم الاسلامية (وبخاصة السـير والخراج والأحكام السلطانية)

٢٩ ـ البخارى : (المتوفى سنة ٢٥٦ هـ) (الصحيح) باب فضل الجهاد والسير ٠

٣٠ ـ الحسن بن عبد الله : آثار الأول فى ترتيب الدول ٠

٣١ ـ سحنون : المدونة الكبرى (فى الفقه المالكى)

٣٢ ـ عمر بن ابراهيم الدوسى الأنصارى : تفريج الكروب فى تدبير الحروب ـ تقديم د ٠ جورج سكايلون ٠

٣٣ ـ ابن الفراء : رسل الملوك ومن يصلح للرسـالة والسفارة ـ تحقيق صلاح المنجد ـ لجنة التاليف والترجمة سنة ١٩٤٧ م ٠

٣٤ ـ ابن كثير : (المتوفى سنة ٧٧٤ هـ) تفسير ابن كثير ٠

٣٥ ـ الماوردى : (المتوفى سنة ٤٥٠ هـ ـ سنة ١٠٥٧ م) : الاحكام السلطانية ـ القاهرة ٠

٣٦ ـ محمد بن الحسن : (المتوفى سنة ١٨٩ هـ ـ سنة ٨٠٤ م) : السير الكبير باملاء وشرح السرخسى تحقيق دكتور صلاح المنجد ـ ٣ أجزاء ـ معهد المخطوطات بالجامعة العربية ٠

٣٧ ـ المقريزى : النقود القديمة الاسلامية ٠

٣٨ ـ الونشريشى : أسنى المتاجر فى بيان أحكام من غلب على وطنه النصارى ولم يهاجر ـ تحقيق وتقديم دكتور حسين مؤنس ـ صحيفة معهد الدراسات الاسلامية فى مدريد المجلد الخامس العددان الاول والثانى ٠

٣٩ ـ أبو يوسف (المتوفى سنة ١٨٢ هـ ـ سنة ٧٩٨م) الخراج المطبعة السلفية ـ القاهرة سنة ١٣٥٢ هـ ٠

هـ ـ الموسوعات والمعاجم :

٤٠ ـ البكرى (المتوفى سنة ٤٨٧ هـ ـ سنة ١٠٩٧م) : معجم ما استعجم ـ طبعة وستنفلد ، طبعة القاهرة (السقا) ٠

٤١ ـ الزبيرى : نسب قريش ـ دار المعارف ٠

٤٢ ـ ابن حزم (المتوفى سنة ٤٥٦ هـ ـ سنة ١٠٦٤ م) : جمهرة أنساب العرب ـ دار المعارف ٠

٤٣ ـ ابن خلدون (المتوفى سنة ٨٠٨ هـ ـ سنة ١٤٠٥ ـ ٦ م) : المقدمة تحقيق الدكتور على عبد الواحد وافى ـ لجنة البيان العربى سنة ١٩٦٠ ٠

٤٤ ـ ابن عبد الحق البغدادى (المتوفى سنة ٧٣٩هـ ـ سنة١٣٣٨م) مراصد الاطلاع على أسماء الامكنة والبقاع ـ تحقيق البجاوى ٣ أجزاء ـ دار احياء الكتب العربية ٠

٤٥ ـ ابن قتيبة (المتوفى سنة ٢٧٦هـ ـ ٨٨٩ م) : عيون الاخبار ـ ٤ أجزاء ـ القاهرة ٠

٤٦ ـ القلقشندى (المتوفى سنة ٨٢١ هـ سنة ١٤١٨ م) : صبح الاعشى فى صناعة الانشا ـ ١٤ جزءا المطبعة الاميرية .

٤٧ ـ النويرى (المتوفى سنة ٧٣٢ هـ ـ سنة ١٣٣١ ـ ٣٢ م) : نهاية الأرب فى فنون الادب ـ ١٣ جزءا ـ دار الكتب .

٤٨ ـ ياقوت (المتوفى سنة ٦٢٦ ـ سنة ١٢٢٩ م) : معجم البلدان الخانجى ٨ أجزاء .

ثانيا : مراجع عربية حديثة

(١) الكتب :

٤٩ ـ دكتور ابراهيم العدوى : الامبراطورية البيزنطية والدولة الاسلامية ـ مكتبة نهضة مصر .

٥٠ ـ دكتور ابراهيم العدوى : الأمويون والبيزنطيون ـ الانجلو .

٥١ ـ دكتور ابراهيم العدوى : الاساطيل العربية فى البحر المتوسط ـ نهضة مصر .

٥٢ ـ دكتور ابراهيم نصحى : تاريخ مصر فى عهد البطالمة ـ جزءان ـ النهضة .

٥٣ ـ أبو الفضل ابراهيم وعلى البجاوى : أيام العرب فى الاسلام: دار احياء الكتب العربية ١٩٥٣ م .

٥٤ ـ دكتور احسان عباس : العرب فى صقلية ـ المعارف .

٥٥ ـ أحمد أمين : فجر الاسلام ـ لجنة التاليف والترجمة والنشر سنة ١٩٤١ م .

٥٦ ـ أحمد أمين : ضحى الاسلام : لجنة التاليف والترجمة والنشر ٣ أجزاء سنة ١٩٣٣ ، سنة ١٩٣٥ ، سنة ١٩٤١ م .

٥٧ ـ دكتور أسد رستم ـ الروم ـ جزءان ـ دار المكشوف بيروت ١٩٥٦ .

٥٨ ـ دكتور أسعد طلس : تاريخ الأمة العربية ٤ أجزاء مكتبة الأندلس ـ بيروت ٠

٥٩ ـ أنستاس الكرملي : علم النميات ٠

٦٠ ـ جاد المولى (محمد أحمد جاد المولى) وعلى البجاوى وأبوالفضل ابراهيم : أيام العرب فى الجاهلية ـ دار احياء الكتب العربية سنة ١٩٥٣م

٦١ ـ جاسم الخلف : محاضرات فى جغرافية العراق الطبيعية والاقتصادية والبشرية ـ معهد الدراسات العربية العالية ١٩٥٩ ٠

٦٢ ـ دكتور جواد على : تاريخ العرب قبل الاسلام ٨ أجزاء المجمع العلمى العراقى ـ بغداد ٠

٦٣ ـ جورج حداد : فتح العرب للشام ٠

٦٤ ـ جورجى زيدان : العرب قبل الاسلام ـ تعليق دكتور حسين مؤنس ـ دار الهلال ٠

٦٥ ـ جورجى زيدان : تاريخ التمدن الاسلامى ـ ٥ أجزاء ـ تعليق دكتور حسين مؤنس ـ دار الهلال ٠

٦٦ ـ دكتور حسن ابراهيم حسن : تاريخ الاسلام ـ ٣ أجزاء الأول ـ المكتبة التجارية سنة ١٩٣٥ ـ الثانى ـ النهضة سنة ١٩٤٥ ـ الثالث النهضة سنة ١٩٤٦ م ٠

٦٧ ـ دكتوران حسن وعلى ابراهيم : النظم الاسلامية ـ سنة ١٩٣٩ ٠

٦٨ ـ دكتور حسن أحمد محمود : قيام دولة المرابطين ـ النهضة ـ سنة ١٩٥٧ م ٠

٦٩ ـ دكتور حمدان (جمال حمدان) : دراسات فى العالم العربى٠

٧٠ ـ دكتور حسين مؤنس : فتح العرب للمغرب ـ مكتبة الآداب٠

٧١ ـ دكتور حسين مؤنس : فجر الأندلس ـ الشركة العربية للطباعة والنشر والتوزيع ٠

٧٢ ـ دكتور حسين مؤنس : صور من البطولة ـ النهضة ٠

٧٣ ـ الدبس (المطران) : تاريخ سوريا ٠

٧٤ ـ الدكاترة دولت صادق ، غلاب ، الدناصورى : الجغرافيا السياسية ـ الانجلو ٠

٧٥ ـ دكتور زكى المحاسنى : شعر الحرب فى أدب العرب ـ دار الفكر العربى سنة ١٩٤٧ م ٠

٧٦ ـ دكتور سليم حسن : مصر القديمة ٠

٧٧ ـ سليمان صائغ : تاريخ الموصل ٠

٧٨ ـ دكتور سليمان عادل عبد الحق ، عبد العزيز عثمان : نزهات أثرية فى سوريا ٠

٧٩ ـ دكتورة سيدة كاشف : مصر فى فجر الاسلام ـ دار الفكر العربى سنة ١٩٤٧ ٠

٨٠ ـ دكتور شكرى فيصل : حركة الفتح الاسلامى ـ مطبعة دار الكتاب العربى ـ القاهرة ٠

٨١ ـ دكتور شكرى فيصل : المجتمعات الاسلامية فى القرن الاول ـ دار الكتاب العربى ـ القاهرة ٠

٨٢ ـ شكيب أرسلان : تاريخ غزوات العرب فى فرنسا وسويسرا وايطاليا وجزر البحر المتوسط ـ القاهرة ١٣٥٢ هـ ٠

٨٣ ـ دكتور ضياء الدين الريس : الخراج أو النظام المالى فى الدولة الاسلامية ـ نهضة مصر ـ ١٩٥٧ ٠

٨٤ ـ الطباخ : أعلام النبلاء بتاريخ حلب الشهباء ٠

٨٥ ـ دكتور عباس عمار : المدخل الشرقى لمصر ٠

٨٦ ـ عبد الرءوف عون : الفن الحربى فى صدر الاسلام ـ دار المعارف

٨٧ ـ دكتور عبد الجبار جومرد : هارون الرشيد ـ جزءان ـ بيروت ٠

٨٨ ـ دكتور عبد الرحمن زكى : السلاح فى الاسلام ٠

٨٩ ـ دكتور عبد المنعم ماجد : التاريخ السياسى للدولة العربية ـ جزءان ـ الانجلو سنة ١٩٥٦ ـ سنة ٥٧ م ٠

٩٠ ـ دكتور عبد المنعم ماجد : نظم الفاطميين ٠

٩١ ـ دكتور عطيه مشرفة : نظم الحكم فى عصر الفاطميين ٠

٩٢ ـ دكتور على الخربوطلى : تاريخ العراق تحت الحكم الاموى ـ دار المعارف ٠

٩٣ ـ دكتور عمر فروخ : العرب والاسلام فى الحوض الشرقى من البحر المتوسط ـ بيروت ٠

٩٤ ـ الغزى : نهر الذهب فى تاريخ حلب ـ ٣ أجزاء ٠

٩٥ ـ كرد على : خطط الشام ـ ٥ أجزاء المجمع العلمى العربى ـ دمشق ٠

٩٦ ـ مبروك نافع : عصر ما قبل الاسلام ـ النهضة ـ سنة ١٩٥٢ م ٠

٩٧ ـ محمد أحمد حسونة : الجغرافية التاريخية الاسلامية ـ لجنة البيان العربى ٠

٩٨ ـ دكتور محمد حميد الله الحيدر أبادى : مجموعة الوثائق السياسية للعهد النبوى والخلافة الراشدة ـ لجنة التاليف والترجمة والنشر سنة ١٩٥٨ م ٠

٩٩ ـ منح خورى : التاريخ الحضارى عند توينبى ـ بيروت ٠

١٠٠ ـ دكتور نظير سعداوى : نظام البريد فى الدولة الاسلامية ـ دار الفكر العربى ٠

١٠١ ـ نعمان ثابت : الجندية فى الدولة العباسية ـ بغداد ٠

١٠٢ ـ نقولا زيادة : صور من التاريخ العربى ٠ المعارف سنة ١٩٤٦ م ٠

١٠٣ ـ يوسف عزت : تاريخ القوقاز ـ ترجمة عبد الحميد غالب ٠

١٠٤ ـ يوسف غنيمة : تجارة العراق قديما وحديثا ـ بغداد سنة ١٩٢٢ م ٠

ب ـ الابحاث والمقالات :

١٠٥ ـ دكتور ابراهيم طرخان : الاقطاع الاسلامى ـ أصوله وتطوره دراسة مقارنة ـ المجلة التاريخية المصرية المجلد السادس ١٩٥٧ .

١٠٦ ـ دكتور ابراهيم العدوى : الحمام الزاجل فى العصور الوسطى ـ المجلة التاريخية المصرية ـ المجلد الثانى العدد الأول مايو سنة ١٩٥٢ .

١٠٧ ـ دكتور ابراهيم العدوى : دراسات فى التاريخ البيزنطى ـ المجلة التاريخية المصرية ـ المجلد الثانى العدد الثانى أكتوبر ١٩٤٩ .

١٠٨ ـ دكتور ابراهيم العدوى : التمثيل السياسى بين الخلافة العباسية والدولة البيزنطية ـ المجلة التاريخية المصرية ـ المجلد الرابع العدد الاول مايو ١٩٥٢ .

١٠٩ ـ دكتور ابراهيم العدوى : السفارات الاسلامية فى العصور الوسطى ـ اقرأ ـ ع ١٧٩ : نوفمبر ١٩٥٧ م .

١١٠ دكتور ابراهيم العدوى : نشأة أساطيل الدول العربية فى شرقى البحر المتوسط ـ المجلة ـ السنة الثانية ـ العدد ١٩ ـ يولية ١٩٥٨ .

١١١ ـ دكتور ابراهيم العدوى : السفراء العرب الى أوربا فى العصور الوسطى ـ المجلة ـ السنة الثالثة ـ عدد ٣٢ : أغسطس سنة ١٩٥٩ م .

١١٢ ـ جبرا ابراهيم جبرا : بلاد العرب من جغرافية مترابون ـ مجلة المجمع العلمى العراقى ـ المجلد الثانى سنة ١٩٥٢ م بغداد .

١١٣ ـ دكتور حسن الباشا : طرق التجارة العربية من عهد سبأ الى صدر الاسلام ـ المجلة ـ السنة الأولى العدد ٤ : ابريل سنة ١٩٥٧ .

١١٤ ـ حسن حسنى عبد الوهاب : جزيرة قوصرة العربية ـ المجلة التاريخية المصرية ـ المجلد الثانى ـ العدد الثانى ـ أكتوبر سنة ١٩٤٩ م .

١١٥ ـ دكتور حسين مؤنس: السيد القمبيطور وعلاقاته بالمسلمين ـ المجلة التاريخية المصرية ـ المجلد الثالث العدد الاول مايو سنة ١٩٥٠ م .

١١٦ ـ دكتور حسين مؤنس: المسلمون فى حوض البحر المتوسط ـ المجلة التاريخية المصرية المجلد الرابع ـ العدد الاول ـ مايو ١٩٥١ ٠

١١٧ ـ سليمان الندوى : الملاحة عند العرب ـ مجلة (الضياء) ـ لكنو (الهند) ـ اعداد ربيع الآخر : شوال سنة ١٣٥٣ هـ ٠

١١٨ ـ طه الهاشمى : معركة اجنادين: مجلة المجمع العلمى العراقى ـ المجلد الثانى ١٩٥٢ ـ بغداد ٠

١١٩ دكتور عبد الرحمن زكى : صناعة السيوف الاسلامية ـ المجلة التاريخية المصرية المجلد الخامس سنة ١٩٥٦ م ٠

١٢٠ ـ دكتور عبد الرحمن زكى : بين قلاع العرب وحصونهم ـ المجلة ـ السنة الاولى ـ العدد ٥ مايو سنة ١٩٥٧ ٠

١٢١ دكتور عبد الرحمن زكى : العمارة العسكرية فى العصور الوسطى بين العرب والصليبيين ـ المجلة التاريخية المصرية ـ المجلد السابع سنة ١٩٥٨ ٠

١٢٢ ـ دكتور عبد الرحمن زكى : مالطة العربية ـ المجلة ـ السنة الثانية العدد ١٤ فبراير سنة ١٩٥٨ م ٠

١٢٢م : فاروق خورشيد : ذات الهمة ـ دائرة معارف الأهرام ٠

١٢٣ ـ دكتور محمد مصطفى زيادة: مؤلف الطرسوسى فى التاريخ الحربى على عهد الايوبيين ـ المجلة التاريخية المصرية ـ المجلد الثانى العدد الاول مايو ١٩٤٩ م ٠

(١٢٣م) د ٠ محمد عبد الهادى شعيرة : المرابطون فى الثغور العربية الرومية ـ بحث فى كتاب (الى طه حسين فى عيد ميلاده السبعين) ٠

١٢٤ ـ محمود شكرى محمد : بلاد العرب من تاريخ بلينوس ـ مجلة المجمع العلمى العراقى ـ المجلد الثالث ـ الجزء الاول سنة ١٩٥٤م ـ بغداد ٠

١٢٥ ـ محيى الدين القليبى: الرباط فى سبيل الله ـ مجلة رسالة الاسلام ـ السنة الرابعة ـ العدد الثالث ـ شوال سنة ١٣٧١ هـ يوليو سنة ١٩٥٢ م ٠

١٢٥ م د · نبيلة ابراهيم : التعبير الشعبي عن الثورة ـ المجلة عدد ١١٥ ، ذات الهمة : تراث الانسانية (ابتداء من م ٤ ع ١١) ·

١٢٦ ـ دكتوران يحيى الخشاب والباز العريني : ضبط وتحقيق الالفاظ الاصطلاحية التاريخية فى كتاب مفاتيح العلوم للخوارزمي ـ المجلة التاريخية المصرية ـ المجلد السابع ١٩٥٨ ·

ثالثا : كتب أجنبية مترجمة للعربية

١٢٧ ـ أربرى : تراث فارس ـ مجموعة أبحاث باشرافه ـ ادارة الترجمة بوزارة التربية والتعليم دار احياء الكتب العربية سنة ١٩٥٩م·

١٢٨ ـ أرشيبالد لويس : القوى البحرية والتجارية فى البحر المتوسط ـ ترجمة أحمد أحمد عيسى ـ مؤسسة فرانكلين ·

١٢٩ ـ الفونس ماريا شنيدر : قبور الصحابة فى القسطنطينية ، بحث ورد فى كتاب المنتقى من دراسات المستشرقين ـ جمع وترجمة وتعليق دكتور صلاح المنجد ـ لجنة التاليف والترجمة والنشر سنة ١٩٥٥ م ·

١٣٠ ـ أوليرى : مسالك الثقافة الاغريقية الى العرب ـ ترجمة دكتور تمام حسان الانجلو سنة ١٩٥٧ م ·

١٣١ ـ أومان : الامبراطورية البيزنطية ـ ترجمة الدكتور مصطفى بدر ـ دار الفكر العربي ·

١٣٢ ـ بارتولد : تاريخ الحضارة الاسلامية ـ ترجمة حمزة طاهر ـ المعارف ـ سنة ١٩٥٢ م ·

١٣٣ ـ بتلر : فتح العرب لمصر ـ ترجمة فريد أبو حديد ـ لجنة التاليف والترجمة والنشر ·

١٣٤ ـ برستد : تاريخ مصر من أقدم العصور الى الفتح الفارسى ـ ترجمة حسن كمال ـ المطبعة الاميرية ·

١٣٥ ـ برستد : انتصار الحضارة ـ ترجمة دكتور أحمد فخرى ـ الانجلو ·

١٣٦ ـ بروكلمان : تاريخ الشعوب الاسلامية ـ ثلاثة أجزاء ـ ترجمة منير البعلبكي ـ بيروت .

١٣٧ ـ بينز : الامبراطورية البيزنطية . ترجمة دكتور مؤنس وزايد ـ النهضة .

١٣٨ ـ ترتون : أهل الذمة فى الاسلام ـ ترجمة حسن حبشى .

١٣٩ ـ جرونيباوم : حضارة الاسلام ـ ترجمة عبد العزيز جاويد ـ الالف كتاب .

١٤٠ ـ جود فروى ديمومبين : النظم الاسلامية ـ ترجمة السامر والشماع ـ بيروت .

١٤١ ـ جورج يعقوب : أثر الشرق فى الغرب خاصة فى العصور الوسطى ـ ترجمة دكتور فؤاد حسنين ـ لجنة البيان العربى .

١٤٢ ـ جوردن ايست : الجغرافيا توجه التاريخ ـ ترجمة د . الدناصورى ـ الألف كتاب .

١٤٣ ـ حسينى : الادارة العربية ـ ترجمة ابراهيم العدوى ـ مكتبة الآداب سنة ١٩٥٨ م .

١٤٤ ـ حورانى : العرب والملاحة فى المحيط الهندى ـ ترجمة دكتور يعقوب بكر الانجلو .

١٤٥ ـ دوسو : العرب فى سوريا قبل الاسلام ـ ترجمة عبد الحميد الدواخلى والدكتور محمد مصطفى زيادة ـ لجنة التاليف والترجمة والنشر .

١٤٦ ـ ديل : بيزنطة ـ عظمتها وسقوطها ـ فصل ملحق بترجمة كتاب بينز الامبراطورية البيزنطية ـ للدكتور مؤنس وزايد ـ النهضة .

١٤٧ ـ ديلابورت : بلاد ما بين النهرين ـ ترجمة محرم كمال ـ الألف كتاب .

١٤٨ ـ ديماند : الفنون الاسلامية ـ ترجمة أحمد عيسى .

١٤٩ ـ راوس : التاريخ الانجليزى ـ ترجمة دكتور محمد مصطفى زيادة ـ النهضة .

١٥٠ ــ وستوفيتزف : تاريخ الامبراطورية الرومانية الاقتصادى والاجتماعى ــ الجزء الاول ترجمة الدكتورين زكى على وسليم سالم ــ ادارة الترجمة بوزارة التربية والتعليم .

١٥١ ــ سيد أمير على : مختصر تاريخ العرب والتمدن الاسلامى ــ ترجمة رياض رأفت ــ بغداد .

١٥٢ ــ سديو : تاريخ العرب العام ــ ترجمة عادل زعيتر ــ دار احياء الكتب العربية سنة ١٩٤٨ م .

١٥٣ ــ دكتور عبد الرحمن بدوى : التراث اليونانى فى الحضارة الاسلامية ــ دراسات للمستشرقين ــ النهضة سنة ١٩٤٦ م .

١٥٤ ــ فازيلييف : فصل بيزنطة والاسلام ــ من كتاب Byzantium ملحق بترجمة كتاب بينز الامبراطورية البيزنطية للدكتور حسين مؤنس وزايد .

١٥٥ ــ فازيلييف : العرب والروم : ترجمة دكتور عبد الهادى شعيرة ــ دار الفكر العربى . (والأبحاث الملحقة به : لجريجوار ، كانار ... الخ) .

١٥٦ ــ فلهوزن : تاريخ الدولة العربية ــ ترجمة الدكتور عبد الهادى أبو ريدة ــ لجنة التاليف والترجمة والنشر .

١٥٧ ــ فلهوزن : الخوارج والشيعة ــ ترجمة دكتور عبد الرحمن بدوى ــ النهضة .

١٥٨ ــ فوست : جغرافية الحدود ــ ترجمة محمد سيد نصر ــ النهضة .

١٥٩ ــ فون كريمر : الحضارة الاسلامية ومدى تأثرها بالمؤثرات الاجنبية ــ ترجمة دكتور مصطفى بدر ــ دار الفكر العربى .

١٦٠ ــ فيرجريف : الجغرافيا والسيادة العالمية ــ ترجمة رفاعة الانصارى ــ الالف كتاب ــ النهضة سنة ١٩٥٦ .

١٦١ ــ فيشر : تاريخ أوربا (العصور القديمة) ترجمة دكتورين ابراهيم نصحى وعواد حسين ــ المعارف .

١٦٢ ـ فيشر : تاريخ أوربا فى العصور الوسطى ـ القسم الأول ترجمة الدكتورين مصطفى زيادة والباز العرينى .

١٦٣ ـ فيفلد ـ برسى : الجيوبوليتيكا ـ ترجمة مجلى واسكندر ـ الالف كتاب .

١٦٤ ـ دكتور فيليب حتى : تاريخ سوريا ولبنان وفلسطين ـ الجزء الأول ـ ترجمة دكتور جورج حداد ـ وعبد الكريم رافق ـ الجزء الثانى ترجمة دكتور كمال اليازجى .

١٦٥ ـ دكتور فيليب حتى : تاريخ العرب ـ ترجمة مبروك نافع ـ القاهرة ، ترجمة دكتور جبور وزملاؤه ـ بيروت .

١٦٦ ـ دكتور فيليب حتى : لبنان فى التاريخ ـ ترجمة دكتور أنيس فريحة ـ بيروت .

١٦٧ ـ كريستنسن : ايران فى عهد الساسانيين ـ ترجمة دكتور يحيى الخشاب ـ لجنة التاليف والترجمة والنشر .

١٦٨ ـ لى سترينج : بلدان الخلافة الشرقية . ترجمة وتعليق بشير فرنسيس وكوركيس عواد ـ المجمع العلمى العراقى ـ بغداد سنة ١٩٥٤ م .

١٦٩ ـ متز : الحضارة الاسلامية فى القرن الرابع الهجرى ـ ترجمة دكتور عبد الهادى أبى ريدة ـ جزءان القاهرة سنة ١٩٤٠ ـ سنة ٤١ م

١٧٠ ـ موسل : شمال الحجاز ـ ترجمة الدكتور عبد المحسن الحسينى ـ الاسكندرية .

١٧١ ـ هل : الحضارة العربية ـ ترجمة دكتور ابراهيم العدوى ـ الألف كتاب ـ الانجلو سنة ١٩٥٦ م .

رابعا : كتب بلغات أجنبية

172 — Aly Mohamed Fahmy : Muslim sea power in the eastern Mediterranean, from the 7th to the 10th century. Alexandria 1950.

173 — Byzantium : Edited by Baynes, Moss.

174 — Brocklemann : History of Islamic peoples. London 1956.

175 — Bury : History of the later Roman Empire 2 vols., London 1931.

176 — Bury : History of the Eastern Roman Emp.

177 — Canard, Marius : Histoire de la Dynastie des Hamdanides.

178 — Cary : A history of Rome — down to the Reign of Constantine.

179 — Chapot : La frontière de l'Euphrate de Pompée à la conquête arabe.

180 — Charlesworth : Trade routes, commerce of the Roman Empire.

181 — Cheira : La lutte des Arabes et Byzantins, Alexandria.

182 — Creswell : Early Muslim architecture 2 vols.

183 — Creswell : Fortification in Islam.

184 — Creswell : A short account of early Muslim architec. Penguin 1958.

185 — Dussand : Topographie historique de la Syrie.

186 — Encyclopédie de l'Islam.

187 — Gaudefroy, Platonov : Le monde musulman et byzantin.

188 — Hadi Hassan : History of Persian Navigation.

189 — Hamidullah : The Muslim Conduct of State.

190 — Heyd : Histoire du commerce du Levant 2 vols.

191 — Hitti : History of Syria.

192 — Huzzayen : Arabia and the Far East.

193 — Leidell, Hart : Strategy.

194 — Le — Strange : Lands of Eastern Caliphate.

195 — Le — Strange : Palestine under the Moslems.

196 — Rosenthal : A history of Muslim Historiography.

197 — Runciman : Byzantine Civilization.

198 — Vasiliev : Histoire de l'Empire Byzantin 2 vols.

199 — Fisher : History of Europe.

فهرس

الكتاب الثالث

الموضوع — **الصفحة**

الموضوع الصفحة

ISLAMIC-BYZANTINE FRONTIERS

between Military Struggle and Cultural-Commercial Relations

PART III.

The Frontiers Rôle in Cultural — Commercial Relations of Medieval World

By

Fat-hi Osman

Printed by
The **ARAB WRITER**
Publishers & Printers
Cairo, U.A.R.

